

وفق نهج القرآن ومذهب السلف

تأليف

الفقير إلى ربه

أبي محمد إبراهيم بن محسن آل عيسى

المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ
أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ فصلت: ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي دلت على وجوده وتوحيده سائر المخلوقات ، القاهر بعظمته أهل الأرض والسماوات ، المتصف بصفات الكمال والجلال أزلاً وأبداً ، سبحانه وتعالى العلي الأعلى الكبير المتعال ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] تعرف إلى خلقه بسوابغ نعمه وعظيم آياته ، وأوجب عليهم طاعته وإخلاص العبادة له بعد أن أرسل إليهم رسله عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، فسبحانه وتعالى من إلّه قادر عليم حكيم لا تخفى عليه خافيه في الأرض ولا في السماء ، لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة المطيعين فالق الحب والنوى، مخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ، مبدع الأنواع والأجناس ، رافع السماء وباسط الأرض ، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾[3] بيده الأمر كله ، علم ما كان وما يكون وما هو كائن في الحال والمآل.

خالق الأجسام ومفنيها ، وباعث الأموات بعد أن صارت رمياً ومجازيها بما كسبت أيديها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4] مزين السماء بمصابيحها المنيرة ومودعها من الأسرار المحيرة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[5] فالق

(١) الحديد/ ٣.
(٢) الشورى /١١.
(٣) الحديد / ٤.
(٤) الحج / ٦.
(٥) الفرقان / ٦١.

النور عن حِندِس[1] الظلمات بقدرته ، ومنشىء السحاب وخالق الأفلاك ، مقلب الليل والنهار ، ومجري الأيام والشهور ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وصفوة البشر أجمعين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، المبعوث رحمة للعالمين ، الصادق المصدوق ، صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود في اليوم الموعود ، الذي بعثه الله تعالى إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيراً ونذيراً وإلى كل جاحد وملحد ، وإلى كل مشرك ومتكبر لا يؤمن بيوم الحساب صلاة دائمة ما اتصل ليل بنهار ، ونور بظلام وعلى آله وأصحابه الأخيار والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فهذا البحث المتواضع الذي أضعه بين يدي القارئ يشتمل على الأساس الأول الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية، عقيدة أهل السنة والجماعة ألا وهو الإيمان بوجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده ، وهذا الأصل والأساس قد جبلتَ وفطرت عليه جميع المخلوقات فهي تدرك بفطرتها السليمة أن لها ربًّا خالقاً وإلهاً واحداً ، متصفاً بجميع صفات الكمال والجلال ، أوجدها من العدم ، وربّاها بأحسن النعم ، وتدرك ذلك دون الحاجة إلى إقامة أدلة أو طلب براهين على ذلك ، لأن وجودها بعد عدمها دليل على موجدها سبحانه وتعالى ، وهذا خلاف ما عليه أهل الضلال من الفلاسفة وأتباعهم من القول بوجوب إقامة الأدلة على إثبات

(١) الحِندِس: بكسر الحاء والدال: الليل الشديد الظلمة. انظر مختار الصحاح في مادة (ح د س) ص ١٢٦.
(٢) سبأ/ ١.

وجود الخالق عزَّ وجلَّ، حيث زعموا أن ذلك أول واجب ، فخالفوا المعقول، وكذبوا المنقول، والذي عليه أهل السنة والجماعة أن أول واجب على العباد هو توحيد الألوهية لأن وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية أمر لم ينكره أحد إلا من كابر عقله من الملاحدة ، وحتى هؤلاء الملاحدة إنما أنكروه بألسنتهم فقط وقلوبهم مقرة به ، كما قال عز وجل عن فرعون - لعنه الله تعالى وقومه - ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] وقال عز وجل : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[2] فالإيمان بوجود الله تعالى وإن كان هو الأساس والأصل الأول من أصول دين الإسلام إلا إنه ليس أول واجب على المكلفين لأنه أمر فطري لم ينكره أحد كما تقدم ، وإنما أول واجب على المكلفين هو توحيد الألوهية المتضمن إثبات وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية وإخلاص العبادة له عز وجل كما دلت على ذلك الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3] فالله سبحانه وتعالى بين في هذه الآية أنه أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام لدعوة الناس إلى توحيد الألوهية والعبادة ، ولم يرسلهم ليبينوا لهم من خلقهم فهم يعلمون ذلك من فطرهم وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما بعثه إلى أهل اليمن : ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله))[4] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

(١) النمل/ (١٤). (٢) الإسراء/ (١٠٢).

(٣) النحل/ (٣٦)

(٤) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في كتاب المغازي باب/ بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، رقم الحديث: (٤٣٤٧).

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأمواهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى»[1].

فدلت هذه الأدلة على أن أول واجب على المكلفين وعلى الدعاة إلى الله تعالى هو توحيد الألوهية لا توحيد الربوبية وطلب إثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى لأن الضلال إنما وقع في توحيد العبادة والألوهية ، وأما توحيد الربوبية ووجود الخالق سبحانه وتعالى فلم ينكره أحد كما تقدم.

ولكنه ومع هذا فقد ظهر في القديم والحديث من ينكر وجود الخالق سبحانه وتعالى أو يدعو إلى هذا الإلحاد العظيم مكابرة وعلواً وعتواً ، ولذا أقول: إن مما يبين أهمية هذا الموضوع وأسباب اختياره والكتابة فيه أموراً منها:

أولاً: الحاجة إلى الكتابة في مثل هذا الموضوع في وقت كثر فيه الإلحاد والشرك والزيغ عن دين الله تعالى وكثرت فيه الفتن والظلمات والطوائف المختلفة ، وانتشرت فيه الزندقة والدعوة إلى إنكار الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده بكل وقاحة كما هو شأن الشيوعية وأمثالها وأتباعها من الفسقة والأنذال الحقيرين.

ثانياً: انقياد الكثير من شباب المسلمين من الذين جهلوا حقيقة دينهم الخالد خلف هذه الطوائف المارقة انخداعاً بمظاهر الحياة الزائفة ، وجرياً وراء الشهوات الزائلة ، وتكبراً على الشرع الصحيح والعقل السليم ،

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله).

كما قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

وقال عز وجل ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[2] وذلك كله لانتشار الجهل والشرك بسبب قلة الدعاة إلى الله تعالى وللكبر والتمرد على الحق، ولعمى البصر والبصيرة، ولما حل بالمسلمين من بعد عن الله تعالى وكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تداعت عليهم الأمم كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[3]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تركتكم على البيضاء لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[4] وهذا من دلائل صدق نبوته صلى الله عليه وآله وسلم حيث وقع كما أخبر عليه الصلاة والسلام، وقد حقق أعداء الإسلام هدفهم المنشود من الأمة الإسلامية بصدها عن دينها ونفث سموم الكفر والإلحاد في صفوف

(١) سورة يوسف/ ١٠٥- ١٠٦. (٢) الأعراف/ ١٧٩.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الملاحم / باب في تداعي الأمم على الإسلام، وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح. رقم ٤٢٩٧ سنن أبي داود ٣/ ٨١٠.

(٤) رواه ابن ماجه في سننه / باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح، رقم/ ٤٣، سنن ابن ماجه ١/ ١٣.

أبنائها ، وتلبيس الحقائق عليهم حتى جهلوا دينهم وبعدوا عنه إلا من عصم الله سبحانه وتعالى وبذلك استطاع أعداء الإسلام نشر هذا الإلحاد والشرك في شتى أقطار الأرض حتى بين المسلمين.

ثالثاً: إن منهج القرآن الكريم والسنة الصحيحة هو الطريق الأمثل في جميع مسائل الاعتقاد بل في جميع مسائل الدين كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض» [١] .

رابعاً: إن السلف الصالح هم الجيل الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم الذين أخذوا هذا الدين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفهموه كما علمهم إياه عليه الصلاة والسلام فهم أدرى بمعاني آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غيرهم لذلك هم أحق بالفضل ممن جاء بعدهم ، ولا يصلح أمر الخلف إلا بما صلح عليه أمر السلف كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى إمام دار الهجرة : (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها)[٢] فمذهب السلف هو المذهب الوسط البعيد عن التفريط والإفراط والغلو والتقصير وهو المنهج الواضح الذي يفهمه كل مخاطب وهذا خلاف ما عداه من المذاهب الفاسدة قال الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣] .

---

(١) رواه الحاكم ، وقال الألباني صحيح ، انظر صحيح الجامع الصغير ١/٥٦٦ رقم ٢٩٣٧ .
(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ، لابن تيمية ص ٣٦٧.
(٣) سورة المائدة/ ٣ .

وقال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن الدين يسر))[2] لذلك كان الخير كل الخير في اتباع طريقهم والسير على منهاجهم.

خامساً: إن الاستدلال على الله تعالى بآياته الكونية في الآفاق والأنفس وسائر المخلوقات، والنظر والتأمل فيها من أعظم الأدلة على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده وهو أفضل طريق وأوضحه، لذلك أرشد الله سبحانه وتعالى إليه في كثير من آيات القرآن الكريم، وبينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المشرفة كما سيأتي، فهو خير طريق لهداية من شاء الله تعالى له الهداية إلى دين الإسلام ولزيادة الإيمان وثباته لمن كان عليه بإذن الله تعالى ومشيئته، لذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى موضحاً فضل هذا الطريق على ما عداه في إثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده عز وجل (إثبات الخالق عز وجل بطريق الآيات هو الواجب كما نزل به القرآن، وفطر الله تعالى عليه عباده)[3]. وقال في موضع آخر: (إن طريقة القرآن الكريم جاءت في أصول الدين وفروعه في الدلائل والمسائل بأكمل المناهج، منها: أن إثبات الخالق عز وجل في القرآن بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به سبحانه وتعالى كاستلزام العلم بالشعاع، العلم بالشمس)[4] ولهذا جعلت هذا البحث خاصاً

---

(١) سورة الحج/ ٧٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر رقم ٣٩ فتح الباري ١/٩٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١/٤٨.

(٤) المصدر السابق: ٢/٨-٩.

بالاستدلال على الله تعالى بآياته الكونية وذلك لما في هذه الطريقة من قوة في الدلالة وسهولة في العبارة ، وهي الطريقة التي أشار إليها القرآن الكريم كما تقدم. ولأن الاستدلال على الله تعالى بها من أعظم الأدلة على إثبات وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبيةوالألوهية والأسماء والصفات .

وأما عنوان البحث فهو : (الآيات الدالة على الله تعالى وفق نهج القرآن ومذهب السلف) فالمراد (بالآيات) الآيات الكونية وهي سائر المخلوقات من السماوات والأرض وما فيهما ، وما بينهما وفي عظمة هذه المخلوقات وفي خلق الإنسان وسائر الحيوان ، وفي خلق الطير والشجر والحشرات وجميع ما في هذا الكون، فأذكر أمثلة لبعض هذه المخلوقات ، وأما المراد (بالدالة على الله تعالى) أي على توحيد الله تعالى ، والمراد به توحيد الألوهية ، لأن لفظ التوحيد إذا أطلق عند أهل السنة والجماعة فإن المراد به توحيد الألوهية الذي يتضمن إثبات وجود الخالق عز وجل وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وهذا كما جاء عن ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1] حيث قال رحمه الله تعالى : يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله تعالى ودلائل توحيده بما خلقه في السموات والأرض[2].

---

(١) يوسف/ ١٠٥-١٠٦.

(٢) دل قول ابن كثير رحمه الله تعالى على أن هذه الآيات الكونية تدل على توحيد الخالق سبحانه وتعالى وليس على إثبات وجوده فقط أو توحيده في الربوبية كما زعم من زعم من =

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي وكم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ دالة على توحيد الله تعالى ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

وكما قيل أيضاً:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وأما المراد بقولي : (وفق نهج القرآن ومذهب السلف) أي بيان منهج القرآن في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية ، وسيأتي الحديث عن ذلك في فصل مستقل ، وكذلك المراد بمذهب السلف أي مذهبهم وطريقتهم في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية ، وسيأتي الحديث عنه أيضاً بعون الله تعالى ومشيئته.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة، فأما المقدمة فبينت فيها أهمية هذا الموضوع وأسباب اختياره، وبيان فضل منهج القرآن والسنة والسلف على غيره من المناهج في مسائل الاعتقاد وغيرها من مسائل

= أهل الفرق الضالة ، وإنما تدل على توحيد الألوهية الذي يتضمن إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، ولذلك أنكر الله تعالى على المشركين الذين كانوا يقرون بوجوده سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية مرورهم على هذه الآيات العظيمة دون إقرارهم بتوحيد الألوهية الذي هو أصل دين الإسلام وعقيدته وهو الغاية من الإيمان بوجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية كما في هذه الآية ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ إلى قوله تعال:﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(الزخرف/ ٨٧) وغيرها من أمثال هذه الآيات التي أنكر الله سبحانه وتعالى فيها على من جعل الآيات الكونية دالة على وجوده وتوحيده في الربوبية فقط دون توحيد الألوهية والعبادة.

الدين، كما بينت فيها أن توحيد الألوهية هو أول واجب على العباد وفساد قول من زعم غير ذلك، وأن الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية من أعظم الطرق وأفضلها وأسهلها وهي التي حث عليها القرآن والسنة، ثم ذكرت فيها أيضاً شرح عنوان الكتاب وبيان خطتي فيه.

وأما الأبواب الخمسة:

فالباب الأول: في بيان نهج القرآن والسنة ومذهب السلف في الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات بالآيات الكونية ، وبيان قول بعض من خالفهم في ذلك والرد عليهم وذكر بعض الدلالات الأخرى على توحيده عز وجل .

والباب الثاني: في الحديث عن السماء وما فيها من عجائب الصنعة وعظيم المخلوقات.

والباب الثالث: في الأرض وما فيها من أجناس المخلوقات ، وباهر المتنوعات .

والباب الرابع: في خلق الإنسان وما في ذلك من الحكمة والآيات البينات .

والباب الخامس : في بيان أن الغاية من الإيمان بوجود الله تعالى وربوبيته هي توحيده عز وجل.

وأما الخاتمة : فتشتمل على ملخص ما ورد في البحث وأهم نتائجه باختصار.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز بجنات النعيم، وأن يجزي القائمين على هذه الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وهذا الصرح العلمي الإسلامي الشامخ خير الجزاء، وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين ملك المملكة العربية السعودية وحكومته الرشيدة، والذين لا يألون جهداً في نشر العقيدة السلفية والعلم الشرعي في أرجاء المعمورة عامة وفي هذه البلاد خاصة حرسها الله تعالى وكفاها شر أعدائها المتربصين بها، كما أسأله عز وجل أن يجزي القائمين على قسم العقيدة في هذه الجامعة خير الجزاء وذلك على جهودهم الطيبة في نشر العقيدة السلفية ومحاربة أهل الشرك والإلحاد والبدع والضلال وكذلك على إتاحتهم الفرصة لي ولإخواني في دراسة العقيدة السلفية وكتابة البحوث والرسائل الجامعية المتعلقة بها.

وفي الختام هذا جهد المقل الذي أسأل الله تعالى أن يبارك فيه، وإن حصل فيه خطأ فأسأله تعالى أن يتجاوز عنه ويغفره لي، كما أسأله تعالى أيضاً أن يجزي مشايخي وكل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب وإتمامه خير الجزاء، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وأخص بالذكر الشيخ أبابكر جابر الجزائري المشرف على الرسالة جزاه الله تعالى عني وعن المسلمين خير الجزاء في الدنيا والآخرة ، والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الأول

في بيان نهج[1] القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومذهب السلف الصالح في الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات بالآيات الكونية، وبيان قول بعض من خالفهم في ذلك والرد عليهم ، وذكر بعض الدلالات الأخرى على توحيده عز وجل.

وفيه فصول:

الفصل الأول : في تعريف الآيات وبيان أنواعها ، وفي بيان المراد الحديث عنه من هذه الآيات في هذا الكتاب .

الفصل الثاني: بيان منهج القرآن الكريم والسنة النبوية والسلف الصالح في الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات بالآيات الكونية ، وبيان الترابط بين هذه المناهج ، وذكر بعض أنواع الدلالات الأخرى على توحيده عز وجل ، وفي بيان قول بعض المذاهب المخالفة لمذهب السلف أهل السنة والجماعة في الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده عز وجل بالآيات الكونية والرد عليهم .

الفصل الثالث : في ذكر بعض الشبه التي أثارها أعداء الإسلام من الملاحدة وأعوانهم وأذنابهم حول وجود الخالق عز وجل وتوحيده والرد عليها.

الفصل الرابع : في الحث على التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأن ذلك طريق السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) قال في مختار الصحاح: النَهْجُ والمَنْهجُ والمِنْهاجُ: الطريق الواضح، ونَهجَ الطريق أبانه وأوضحه. انظر مختار الصحاح ص ٦٨١.

الفصل الأول

في تعريف الآيات وبيان أنواعها

وفي بيان المراد الحديث عنه من هذه الآيات في هذا الكتاب

وفيه مبحثان:

* المبحث الأول : في تعريف الآيات لغة وشرعاً.
* المبحث الثاني : في أنواع الآيات والأدلة عليها ، وفي بيان المراد الحديث عنه من هذه الآيات في هذا الكتاب.

المبحث الأول/ في تعريف الآيات لغة وشرعاً :

الآيات جمع آية ، والآية لغة : العلامة ، وتجمع على (آيُ) و(آيايُ) و(آياتٌ) وخرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم ، ومعنى الآية من كتاب الله تعالى: مجموعة من حروف القرآن [1] .

قال ابن منظور : آيات الله تعالى : عجائبه ، والآية من القرآن الكريم العلامة التي يفضي منها إلى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية كما قال بعضهم:

إذا مضى عَلَم منها بدا عَلَمُ

والآية : العبرة. وجمعها آيٌ وآيات قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾ : أي أمور وعبر مختلفة[2].

وقال الراغب : الآية: العلامة الظاهرة ، وقيل : للبناء العالي : آية ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [3] والصحيح أنها مشتقة من التَّأَيِّي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء [4] .

وأما الآية في التعريف الشرعي : فهي العلامة الدالة على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (وآيات الرب عز وجل هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد وبها يعرفون أسماءه وصفاته وتوحيده وأمره ونهيه) [5].

(١) مختار الصحاح/ ص ٣٧.
(٢) لسان العرب ١/ ١٤١.
(٣) الشعراء / ١٢٨.
(٤) المفردات لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني ص ٣٣.
(٥) مدارج السالكين ٣/ ٤٦٤.

وقال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال رحمه الله تعالى: (فأما معنى قوله تعالى ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي علامات ودلالات على أن خالق ذلك كله ومنشئه إله واحد ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾لمن عقل مواضع الحجج وفهم عن الله تعالى أدلته على وحدانيته)[1].

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله تعالى: ذكر سبحانه وتعالى ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيده وصدق وعده ووعيده فقال عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي دلالات واضحة وعلامات ظاهرة على توحيده وصدق ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام[2].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يخبر سبحانه وتعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله تعالى ودلائل توحيده بما خلقه الله تعالى في السماوات والأرض[3].

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام / أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣٩/٢.
(٢) فتح القدير ٨٥/٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٤/٢.

المبحث الثاني: في بيان أنواع الآيات والأدلة عليها :

تقدم أن تعريف الآيات شرعاً هي العلامات الدالة على توحيد الله تعالى وهذه الآيات ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وبين أنها أنواع فمنها:

أولاً : الآيات الشرعية ، وهي كلامه سبحانه وتعالى المنزل على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وهي الأدلة النقلية وفيها من الآيات الباهرات والعظات البالغات الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده وعظمته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، ولذلك كان الإيمان بها ركناً من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب المنزلة على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، قال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾(١) وقال عز وجل : ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(٢) فيجب الإيمان بجميع هذه الكتب إجمالاً أي بما لم يرد له اسم في القرآن أو السنة وتفصيلاً أي بما ورد له اسم في القرآن أو السنة كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، فهذه الكتب اشتملت على الآيات الشرعية والأدلة النقلية، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ ﴾(٣) .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى في بيان معنى الإيمان بالكتب : والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن نزولها من عند الله تعالى حقاً.

---

(١) البقرة / ٢٨٥.
(٢) البقرة / ١٧٧.
(٣) الزمر / ٧١.

الثاني : الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتوراة التي أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام ، والزبور الذي أوتيه داود عليه الصلاة والسلام ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً.

الثالث : تصديق ما صح من أخبارها كأخبار القرآن وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة.

الرابع : العمل بأحكام ما لم ينسخ منها ، والرضا والتسليم به سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها ، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[1] أي حاكماً عليه وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح وأقره القرآن[2].

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[3] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾[4] وقال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5].

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

(١) المائدة / ٤٨.

(٢) رسائل في العقيدة للشيخ/ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى ص ٢٣.

(٣) البقرة/ ٩٩.

(٤) الحج / ١٦.

(٥) العنكبوت/ ٤٩.

رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ يعني كتاب الله تعالى المنزل على رسله وحججه التي بعث بها رسله عليهم الصلاة والسلام إلى أممهم)[1] .

ولا شك أنَّ الآيات الشرعية[2] هي أعظم الأدلة على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده عز وجل لأنها كلامه المنزل على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام فهي متضمنة لتوحيده عز وجل وأمره ونهيه ، وقد بين الله سبحانه وتعالى هذا المعنى في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[3].

وقال الله تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[4] وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾[5].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٤/٢٣.

(٢) المراد بذلك آيات القرآن الكريم ، أما الكتب السابقة فقد دخلها التحريف لأن الله تعالى لم يتكفل بحفظها بخلاف القرآن الكريم فقد تكفل الله تعالى بحفظه فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر /٩ والكتب السابقة قبل تحريفها دلت على ذلك أيضا ولكن القرآن الكريم حاكم عليها كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ المائدة / ٤٨ فقوله تعالى :﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي شهيداً وحاكماً كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية وعلى هذا فهي منسوخة بالقرآن ، فلا يجوز العمل بما فيها من أحكام إلا ما صح وأقره القرآن ، وأما الأخبار الواردة فيها فإن كانت لم تحرف فهي حق وصدق يجب الإيمان بها ، وقد تقدم في كلام الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى ما يفيد هذا المعنى ، والله تعالى أعلم .

(٣) الإسراء/ ٩.

(٤) الأنعام / ١٩.

(٥) الزمر / ٢-٣.

فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1] وقال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[2] وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[3] فهذه الآيات دلت على توحيد الألوهية والعبادة، وأكثر آيات القرآن الكريم في بيان هذا النوع من أنواع التوحيد لأنه أساس الدين، وأول ما يجب على العباد أن يعرفوه.

ومما يدل على توحيد الربوبية قوله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4] فهذه الآيات دلت على توحيد الألوهية والربوبية معاً وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[7] فدلت هذه الآيات على إثبات توحيد الربوبية وهو مستلزم لتوحيد الألوهية والعبادة.

(١) آل عمران / ٨٥.
(٢) آل عمران/ ١٩.
(٣) النحل / ٣٦.
(٤) البقرة/ ٢١- ٢٢.
(٥) الغاشية/ ١٧-٢٠.
(٦) الذاريات/ ٢١.
(٧) سورة قٓ/ ٦-١١ .

ومن الآيات الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات قوله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[١].

وقوله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٣] ومنها قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[٤] وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥].

فدلت هذه الأدلة على إثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فهذا هو معنى دلالة الآيات الشرعية على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده.

وروى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها»[٦] فدل الحديث على أن الآيات الشرعية هي آيات القرآن الكريم.

(١) الطور/ ٣٥- ٣٦.

(٢) المؤمنون/ ٩١- ٩٢.

(٣) الأنبياء/ ٢٢.

(٤) مريم/ ٦٥.

(٥) الأعراف/ ١٨٠.

(٦) رواه الترمذي وقال الألباني رحمه الله تعالى: حسن صحيح. انظر صحيح الترمذي للألباني ٣/ ١٠، أبواب فضائل القرآن باب ١٨، رقم /٣٠٩٣.

ثانياً : الآيات الكونية :

والمراد بهذا النوع من الآيات هو سائر مخلوقات الله تعالى في هذا الكون الفسيح في السماء والأرض وما فيهما وما بينهما مما لا يحيط به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولا شك أن هذه الآيات من أعظم الآيات الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى وعلى توحيده عز وجل ، ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم كثيرًا ما يرشد عباده إلى النظر في هذه الآيات ، والتأمل والتفكر في عظمة خلقها لأنها طريق إلى الإيمان لمن كان كافراً ، وطريق إلى زيادة الإيمان لمن كان مؤمناً ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2] .

وقال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾[3] وقال الله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾[4] وقال الله تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[5] وقال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾[6] فدلت هذه الأدلة على مشروعية

---

(١) يونس/ ١٠١.
(٢) آل عمران/ ١٩٠-١٩١.
(٣) فصلت/ ٥٣.
(٤) يوسف/ ١٠٥- ١٠٦.
(٥) الذاريات/ ٢١.
(٦) الغاشية/ ١٧-٢٠.

النظر والتدبر والتفكر في الآيات الكونية الكثيرة في هذا الكون الواسع ، فهذه الآيات وأمثالها كثيرة في القرآن الكريم، وكلها تحث على النظر والتدبر والتفكر في الآيات الكونية وفي الأنفس وسائر المخلوقات لأن ذلك دليل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده وهي دليل واضح وبرهان ساطع لمن شاء الله تعالى له الهداية إلى صراطه المستقيم ، وروى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله))[1] وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[2] .

وقبل أن ننتقل إلى القسم الثالث من أنواع الآيات أذكر بعض ما ورد من الأدلة والآثار في الحث على التدبر للآيات الشرعية وهي آيات القرآن الكريم وكذلك التفكر في الآيات الكونية لأن في ذلك استحضاراً لعظمة الخالق سبحانه وتعالى وهذا من أعظم أسباب زيادة الإيمان وثباته وقوته للمؤمنين والدخول في الإسلام لمن كان كافراً وخارجاً عن الإسلام كما تقدم.

فأما ما ورد في الحث على تدبر آيات القرآن الكريم فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[4]

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي هذه

(١) رواه البخاري في كتاب الكسوف / باب الدعاء في الخسوف حديث رقم/ ١٠٦٠، انظر : فتح الباري ٢/٥٤٦.

(٢) فصلت / ٣٧.

(٣) سورة صٓ/٢٩.

(٤) محمد/ ٢٤.

الحكمة من إنزاله ليتدبر الناس آياته فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيه مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود[1].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله تعالى، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه لدلَّهم على كل خير ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان وأفئدتهم من الإيقان ولأوصلهم إلى المطالب العالية ولبيَّن لهم الطريق الموصلة إلى الله تعالى وإلى جنته وحذرهم من الطريق الموصلة إلى ناره وعذابه ولعرَّفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه[2].

وبين سبحانه وتعالى أن السبب في هلاك من هلك وضلاله في الدنيا والآخرة هو إعراضه عن تدبر القرآن الكريم والإعراض عنه، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[3].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهذا الذي يورث المحبة والشوق والخوف

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن/ ص ٦٥٨.

(٢) المصدر السابق/ ص ٧٣٣.

(٣) المؤمنون، ٦٦-٦٨.

والرجاء والتوكل والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فقراءة آية بتفكر وتدبر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن[1].

وأما الآيات الكونية فقد وردت الأدلة الكثيرة في القرآن الكريم حاثة الناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم على التأمل والتفكر فيها وما ذاك إلا لأنها من أعظم الأدلة والدلالات على عظمة الخالق عز وجل وحكمته وعلمه وقدرته وسائر صفات كماله وجلاله عز وجل وفيها من الحجج الواضحة والبراهين الساطعة التي تزيد في إيمان المؤمنين وتحث الكافرين على مراجعة أنفسهم قبل خسارتها وفوات الأوان.

قال تعالى حاثاً عباده المؤمنين على التفكر في الآيات الكونية ومبيناً لهم أن ذلك من صفات عباده المتقين الذين فازوا بدار كرامته ونجوا من سخطه وعقابه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾[2].

وقال تعالى مبيناً حال الكافرين المعرضين عن التفكر والتدبر في الآيات الشرعية والكونية ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[3] وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٨٧.
(٢) آل عمران/ ١٩٠-١٩٥.
(٣) يوسف/ ١٠٥.

مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾(1) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾(2) وقال عز وجل حاثاً عباده المؤمنين أيضاً على التأمل والنظر في الآيات الكونية في السماء والأرض: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾(3).

ومن الأحاديث الدالة على مشروعية النظر والتدبر والتفكر في الآيات الشرعية والكونية والربط بينهما ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: (بت عند خالتي ميمونة رضي الله تعالى عنها فتحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أهله ساعة ثم رقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقرأ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾...الحديث(4).

(1) الأعراف/ ١٧٩.
(2) يونس/ ١٠١.
(3) الجاثية/ ٣-٦.
(4) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير/ باب تفسير سورة آل عمران رقم ٤٥٦٩ وسيأتي في بيان منهج السنة النبوية في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية.

والشاهد من الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما قام من نومه في آخر الليل نظر إلى السماء وما فيها من آيات دالة على الخالق وتوحيده ثم قرأ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران فهذا يدل على مشروعية النظر والتفكر في الآيات الكونية والتدبر في الآيات الشرعية والربط بينهما كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث الشريف.

ومن الآثار الواردة في الحث على التدبر في الآيات الشرعية والتفكر والتأمل في الآيات الكونية:

قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: ثم إن التفكر والتدبر في آيات الله تعالى على نوعين: تفكر في القرآن الكريم ليقع على مراد الرب منه، وتفكر في معاني ما دعا عباده في التفكر فيه.

فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني، الأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة، وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه وتعالى في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته[1].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وقدرته وحكمته ورحمته، وعن الحسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٧.

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: الفكر نور يدخل قلبك وربما تمثل بهذا البيت:

إذا المرء كانت له فكرة   ففي كل شيء له عبرة

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: الكلام بذكر الله عز وجل حسن، والفكرة في نعم الله تعالى أفضل العبادة.

وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه[1].

فدلت هذه الأدلة على مشروعية النظر والتدبر والتفكر في الآيات الشرعية والكونية وأن ذلك من أعظم الأسباب الدالة على معرفة عظمة الخالق سبحانه وتعالى وبالتالي من أسباب زيادة إيمان المؤمنين وحث الكافرين على الدخول في الإسلام كما تقدم، والله تعالى أعلم.

ثالثاً: الآيات التي أيد الله تعالى بها أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام للدلالة على صدقهم وهي (المعجزات) والحديث عنها يتضمن أموراً منها :

أولاً : تعريف المعجزات :

قال الإمام السفاريني رحمه الله تعالى : المعجزة : إسم فاعل مأخوذة من العجز المقابل للقدرة ، ومعجزة النبي ما أعجز به الخصم عند التحدي ، والهاء للمبالغة ، وقال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : المعجزة ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداءً بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على ما يقاربها ، وقول ابن حمدان : (وطابقها) ليخرج ما إذا قال : معجزتي نطق هذا الحجر ، فنطق بأنه

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٨/١.

كذاب مفتر وكما تفل مسيلمة لعنه الله تعالى في بئر فغار ماؤها ، ومسح على رأس غلام فصار أقرعاً ونحو ذلك[1].

ثانياً : أنواع المعجزات :

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنواعاً كثيرة من المعجزات التي أيد بها عز وجل أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، فمن ذلك معجزات الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام ، والتي منها إيجاد الحياة في الجمادات كما في عصا موسى عليه الصلاة والسلام وتحولها إلى حية تسعى بإذن الله تعالى وقدرته ومشيئته.

قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾[2] .

ومنها إحياء الموتى والإخبار عن المغيبات كما في معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3] .

ومن ذلك معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي كثيرة جداً ، وأعظمها معجزة القرآن الكريم الذي تحدى الله تعالى به الإنس و الجن

(١) لوامع الأنوار للسفاريني ٢/٢٨٩.
(٢) الأعراف/ ١٠٤ – ١٠٨.
(٣) آل عمران/ ٤٩.

أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ، قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] وروى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلي فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[2] وقد جمع بعض أهل العلم كثيراً من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم في كتب مستقلة وهي الآيات والدلائل الدالة على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم[3].

قال الإمام السفاريني رحمه الله تعالى :

ومعجزات خاتم الأنبياء ... كثيرة تجل عن إحصائي

منها كلام الله معجز الورى ... كذا انشقاق البدر في غير امترا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الجواب الصحيح : وآياته صلى الله عليه وآله وسلم المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع :

فمنها ما هو في العالم العلوي كانشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة ومعراجه إلى السماء ومنها ما هو في الجو كاستسقائه واستصحائه

(١) الإسراء/ ٨٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإعتصام / باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (بعثت بجوامع الكلم) رقم (٧٢٧٤) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : (وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (وإنما كان الذي أوتيته) يفيد معنى الحصر أي أن القرآن الكريم أعظم المعجزات وأفيدها وأدومها لاشتماله على الدعوة والحجة ودوام الانتفاع به إلى آخر الدهر فلما كان لا شيء يقاربه فضلاً عن أن يساويه كان ما عداه بالنسبة إليه كأن لم يقع). فتح الباري ١٣/ ٢٤٨.

(٣) من ذلك كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي رحمه الله تعالى، وكتاب دلائل النبوة/ لجعفر بن محمد الفريابي، وكتاب دلائل النبوة/ لإسماعيل بن محمد بن الفضل، وكتاب دلائل النبوة/ لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، وكتاب دلائل النبوة / لسعيد عبد القادر.

صلى الله عليه وآله وسلم وطاعة السحاب في حصوله وذهابه، ومنها تصرفه في الحيوانات الإنس والجن والبهائم ، ومنها : تصرفه في الأشجار والخشب والأحجار ، ومنها : تأييده بملائكة السماء ، ومنها : كفاية الله تعالى له أعداءه وعصمته من الناس ، ومنها إجابة دعائه صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنها إعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة ، ومنها تأثيره في تكثير الماء والشراب والطعام والثمار وغير ذلك من دلائل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، وأعلام رسالته ومعجزاته الظاهرة وآياته الباهرة[1] .

ثالثاً : وجه دلالة المعجزات على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده :

إن دلالة المعجزات على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده من أعظم الدلالات وذلك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أيد بها رسله عليهم الصلاة والسلام ، وجعلها دليلاً على صدقهم في كل ما جاءوا به من عنده تبارك وتعالى من توحيده وشرعه ولو كانوا غير صادقين لما أيدهم بها فهي دليل على صدقهم ، ودليل واضح أيضاً على أن هناك مرسِلاً أرسلهم وأيدهم بهذه المعجزات الباهرة فدلت على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده. لأن تأييده لهم بخرق السنن الكونية ونحوها يدل على أن لهذا الكون خالقاً يتصرف في سننه بما يشاء ولو لم يكن هو الخالق لهذا الكون لما استطاع أن يتصرف في سننه بما يشاء فهي دليل على وجوده سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وصدق أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : واستدل بأن النبوة إذا ثبتت بقيام المعجزة علمنا أن هناك مرسلاً أرسله إذ لا يكون هناك نبي إلا وهناك مرسل وإذا ثبت أن هناك مرسلاً أغنى ذلك عن النظر والاستدلال فى دلائل العقول على إثباته .

(١) لوامع الأنوار ٢/٢٨٩- ٢٩٤.

وقال البيهقي رحمه الله تعالى فى كتاب الاعتقاد: ومن ذلك ما ذكره الخطابي أيضاً فى (الغنية عن الكلام وأهله) قال :وقد سلك بعض من بحث فى إثبات الصانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة، لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها ، فلما ثبتت النبوة صارت أصلاً فى وجوب قبول كل ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هذا الوجه كان إيمان أكثر المستجيبين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم [١] .

وقال أيضاً : والمعجزة التي هى فعل خارق للعادة تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث ، بل هي أخص من ذلك لأن الحوادث المعتادة ليست فى الدلالة كالحوادث الغريبة ، ولهذا يسبح الرب عندها ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد ويحصل فى النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد ، إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها وتدل بظهورها على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا تبين أنها تدعوا إلى الاقرار بأنه رسول الله تعالى فتتقرر بها الربوبية والرسالة لا سيما عند من يقول دلالة المعجزة على صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ضرورية [٢]. وقال ابن حجر رحمه الله تعالى في دلالة معجزة القرآن الكريم على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده: قال البيهقي رحمه الله تعالى: فاستدلوا بإعجاز القرآن على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم فآمنوا به وبما جاء به من إثبات الصانع وتوحيده وحدوث العالم وغير ذلك مما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن وغيره واكتفاء غالب من أسلم بمثل ذلك مشهور في الأخبار فوجب تصديقه في كل شيء ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم بطريق السمع ولا يكون ذلك

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٣٧٩.

تقليداً بل هو اتباع، والله تعالى أعلم[1].

رابعاً : الآيات التي يرسلها الله تعالى عذاباً أو تخويفاً على من يشاء من الكفرة أو العصاة ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم هذا النوع من الآيات في كثير من آيات القرآن الكريم ، قال الله تعالى في إهلاكه للمكذبين من قوم نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى في المكذبين من قوم هود عليه الصلاة والسلام وهم قوم عاد : ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] وقال سبحانه وتعالى في المكذبين من قوم صالح عليه الصلاة والسلام وهم قوم ثمود : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4].

وقال سبحانه وتعالى في إهلاكه لقوم لوط عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى في إهلاكه المكذبين من قوم شعيب عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[6].

وقال سبحانه وتعالى في إهلاكه المكذبين من قوم موسى عليه الصلاة والسلام وهم فرعون وقومه لعنهم الله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[7].

---

(١) فتح الباري ١٣/٣٥٣.
(٢) الشعراء/ ١١٩- ١٢١.
(٣) الشعراء/ ١٣٩.
(٤) الشعراء/ ١٥٨.
(٥) الشعراء/ ١٧٠- ١٧٤.
(٦) الشعراء/ ١٨٩- ١٩٠.
(٧) الشعراء/ ٦٥- ٦٧.

وقال سبحانه وتعالى في إهلاكه لقوم سبأ لما كفروا وأعرضوا عن الطريق المستقيم: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾[1] .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[2] .

ومن ذلك الكسوف والخسوف للشمس والقمر حيث روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه : عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: خسفت الشمس فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فزعاً يخشى أن تكون الساعة فأتى المسجد فصلى بأطول قيام وركوع وسجود رأيته قط يفعله وقال : ((هذه الآيات التي يرسل الله تعالى لا تكون لموت أحد ولا لحياته ولكن يخوف الله تعالى بها عباده فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره))[3] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : ((هذه الآيات التي يرسل الله تعالى)) ثم قال : ((ولكن يخوف الله تعالى بها عباده)) موافق لقوله تعالى : ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[4].

وروى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : ((إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم))[5] .

---

(١) سبأ/ ١٩. (٢) الإسراء/ ٥٩.

(٣) رواه البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الكسوف / باب الذكر في الكسوف رقم / ١٠٥٩.

(٤) فتح الباري ٢/٥٤٦.

(٥) البخاري في كتاب الكسوف / باب الصلاة في كسوف الشمس رقم ١٠٤٠.

وروى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أيضاً أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى فإذا رأيتموهما فصلوا»[1] .

خامساً : الآيات التي جعلها الله تعالى علامة وإشارة ودلالة على قرب قيام الساعة واقتراب يوم القيامة يوم الحساب والجزاء وهي المسماة بأشراط الساعة وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[2] فقوله تعالى : ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي علاماتها الدالة على قربها كما ذكر المفسرون ، وقال الله تعالى أيضاً : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[3] .

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾ الدالة على قرب الساعة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة التي يعلم بها أن الساعة قد دنت وأن القيامة قد اقتربت وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن المراد ببعض آيات الله تعالى طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويغلق حينئذ باب التوبة[4] .

---

(١) البخاري في كتاب الكسوف / باب الصلاة في كسوف الشمس رقم ١٠٤٢.

(٢) محمد/ ١٨.

(٣) الأنعام/ ١٥٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان/ ص ٢٤٤.

وروى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله تعالى عنه قال : (اطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم علينا ونحن نتذاكر ، فقال ما تذاكرون ؟ قالوا نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)[1].

فهذه بعض أنواع الآيات الدالة على توحيد الخالق سبحانه وتعالى، وأما النوع المراد الحديث عنه من هذه الآيات في هذا الكتاب فهو الحديث عن الآيات الكونية ، كما تقدم بيان ذلك عند ذكر أهمية موضوع هذا الكتاب وشرح عنوانه في المقدمة والله تعالى أعلم .

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، مسلم بشرح النووي ١٨/٢٧-٢٨.

الفصل الثاني

بيان منهج القرآن الكريم والسنة النبوية ومذهب السلف في الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده عز وجل بالآيات الكونية، وبيان الترابط بين هذه المناهج ، وفي ذكر أقوال بعض المذاهب المخالفة لمذهب السلف أهل السنة والجماعة في ذلك والرد عليهم، وذكر بعض أنواع الدلالات الأخرى على توحيد الخالق سبحانه وتعالى.

وفيه مباحث :

المبحث الأول : بيان منهج القرآن الكريم في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية .

المبحث الثاني : بيان منهج السنة النبوية الشريفة في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية.

المبحث الثالث : بيان منهج السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية وذكر بعض أقوال من خالفهم في ذلك والرد عليهم .

المبحث الرابع : الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالفطرة.

المبحث الخامس : الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بمعجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث السادس : الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالمقاييس العقلية .

المبحث السابع: الإستدلال على الله تعالى وتوحيده بالله تعالى.

المبحث الأول

بيان منهج القرآن الكريم في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية

لقد نوع الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم طرق الاستدلال على توحيده بالآيات الكونية وبأساليب متعددة لتقرير المراد وتأكيده ، فمنها :

أولاً : أن تأتي الآيات بأسلوب يخاطب العقل ويأمره بالنظر والتأمل في الآيات الكونية والاستدلال بها ، ليستخلص النتيجة ويتوصل إلى الإيمان الراسخ بالله تعالى رباً لأن الإيمان بربوبية الله عز وجل وتوحيده فيها هو بمثابة المنطلق لجميع عقائد الإيمان وهو أعظم دليل على وجوب توحيد الألوهية والأسماء والصفات فلا عجب إذاً أن يكثر إيراده والاستدلال عليه في كتاب الله تعالى لتقريره ومن ثم توحيده عز وجل في الألوهية والأسماء والصفات عن قناعة ويقين .

وفي الحقيقة إن هذا هو الأسلوب العلمي الشامل الذي يستوي في فهمه وإدراكه الفلاسفة والعلماء والعوام لأنه إعمال العقل في مشاهد محسوس.

من ذلك مثلاً توجيه النظر إلى ذات الإنسان أو إلى مظاهر الكون من حوله ، كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[3]

(١) الطارق/ ٥.
(٢) عبس/ ٢٤.
(٣) الغاشية/ ١٧ – ٢٠ .

فنجده يفتح كتاب الكون أمام الجميع فيقرأه كل بلغته التي يفهمها ويدرسه بأسلوبه الذي يهتدي إليه ، ومن ثم يصل إلى النتيجة المرجوة من خلال تلك الآيات الواضحات كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

حقاً إنها آيات الله تعالى سواء كانت آيات قرآنية أو آيات كونية كما قال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[2] .

ومن فوائد هذا السياق أن يخاطب جميع طبقات الناس فبدأ بالمؤمنين وذلك في قوله تعالى أولاً : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المصدقين بالوحي لأن الأمور السماوية أكثرها غيبية وأول من يؤمن بها المؤمنون ، ثم جاء بعدها بقوله تعالى : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ لأن أشد ما يكون الإنسان يقيناً إذا نظر في نفسه ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3] ثم جاء بتفصيل أعم ، فقال تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لأن الناظر في هذا كله إن لم يكن موقناً فليكن مؤمناً ، وإن لم يكن مؤمناً فلا أقل من أن يكون عاقلاً يرى تلك الآثار ويتأمل هذه الآيات وهي تتجدد أمامه دائماً هذا ليل وهذا نهار ، ذاك ماء نازل من السماء ، وتلك إدارة أرزاق .

---

(١) الجاثية / ٣- ٦.
(٢) الذاريات/ ٢٠.
(٣) الذاريات/ ٢١.

والحياة والموت متلازمان ، والفرح والتَّرح[1] متعاقبان ، أمور عظام يدرك العقل السليم أن لها رباً قديراً ، ومدبراً حكيماً . ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[2] .

فهذه الآيات ونظائرها وإن كانت تخاطب الإنسان ليعمل عقله فهي تعتبر نصوص إثبات لأنه يتوصل بها إلى الإثبات المطلوب لربوبية الحق جل وعلا .

ومنها ثانياً: أن تأتي الآيات بعرض الآيات الكونية و قضايا الربوبية في أسلوب واضح بين ، وأن ذلك دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، وهذا النوع من النصوص هو المطلوب هنا ، نسوق منه نماذج ، فمن ذلك :

---

(١) التَّرح: ضد الفرح. مختار الصحاح/ ص ٧٦.

(٢) آل عمران/ ١٩٠- ١٩٥.

افتتاحية الوحي وافتتاحية المصحف وخاتمته وافتتاحية بعض السور وخاتمتها ، فقد أتت بالنص الصريح على أن الله تعالى رب العالمين .

١-ففي افتتاحية الوحي : قال تعالى :﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[1] .
ثم أتبعها بأهم صفات الربوبية وهي الخلق ، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وخصّ خلق الإنسان بالتفصيل ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾[2] ثم ما أنعم به عليه من العلم ووسائله.

٢-وفي افتتاحية المصحف ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3] ثم جاء بأخص صفات الربوبية وأشملها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[4] .

٣-وفي افتتاحية بعض السور وهي :

١- الأنعام : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[5] فهو في مساواة قوله تعالى : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

٢- أول الكهف : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾[6].
والذي أنزل على عبده الكتاب هو رب العالمين.

٣- أول سبأ : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِى ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[7] .

---

(١) العلق/ ١.
(٢) العلق/٢.
(٣) الفاتحة/٢.
(٤) الفاتحة/ ٣.
(٥) الأنعام/ ١.
(٦) الكهف/ ١.
(٧) سبأ/ ١.

٤ - أول فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[(١)] ....الآية.

وفي خواتم بعضها كما في آخر الصافات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)]

وفي آخر الزمر: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)].

والنصوص لا تكاد تحصى وقد سجل فتية الكهف إيمانهم بربوبية الله تعالى ووحدانيته: ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾[(٤)].

وفي صريح دعوة نبي الله تعالى هود عليه الصلاة والسلام قوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٥)].

ثم وصية إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام لبنيهم، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٦)].

ومحاورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) فاطر/ ١.
(٢) الصافات/ ١٨٠ - ١٨٢.
(٣) الزمر/ ٧٥.
(٤) الكهف/ ١٤.
(٥) هود/ ٥٦.
(٦) البقرة/ ١٣١ - ١٣٢.

وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1] .

وفي قصة بلقيس مع سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

كذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[3] .

وفي محاورة فرعون لعنه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4] .

وفي حوار صاحب الجنتين : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[5] .

وقد أنكر الله تعالى على المشركين إقرارهم بأن الله تعالى هو ربهم ورب آبائهم ورب السماوات والأرض مع عدم توحيدهم في الألوهية والعبادة

(١) الأنبياء/ ٥١- ٥٦ .
(٢) النمل/ ٤٤.
(٣) الأنعام/ ١٦٢ - ١٦٤ .
(٤) الشعراء/ ٢٣ - ٢٨.
(٥) الكهف/ ٣٧- ٣٨.

وذلك في العديد من الآيات نسوق منها الآتي :

١- ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

٢- ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

٣- ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾(١).

٤- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٢).

٥- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾(٣).

٦- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾(٤).

٧- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(٥)(٦).

وبهذا يتبين لنا من الآيات السابقة أن إثبات الربوبية لله عز وجل وتوحيده فيها هو الأساس الأول لبقية أنواع التوحيد ، وأن القرآن الكريم

(١) المؤمنون/ ٨٤- ٨٩.
(٢) الزخرف/ ٩.
(٣) العنكبوت/ ٦١.
(٤) العنكبوت/ ٦٣.
(٥) الزخرف/ ٨٧.
(٦) عن مذكرة في توحيد الربوبية لفضيلة الشيخ / عطية محمد سالم رحمه الله تعالى.

قد اشتمل على الكثير من هذا النوع من أنواع التوحيد ، وما ذاك إلا لأنه الأساس الأول كما تقدم ، ثم من لازمه بقية أنواع التوحيد إذ لا يكفي وحده في دخول العبد في الإسلام .

ولقد كان كفار قريش يقرون بربوبية الله تعالى ، وتوحيده فيها إلا إنهم لم يأتوا بلازمه من الإيمان بتوحيد الألوهية كما تقدم في الآيات السابقة التي أشارت إلى إقرارهم بأن الله تعالى هو ربهم ورب كل شيء ومع هذا هم مشركون مخلدون في النار .

فمن اعترف بهذا التوحيد اعترافاً صحيحاً صادراً عن علم ويقين لزمه الإقرار بأن الله تعالى هو المستحق وحده للعبادة بجميع أنواعها بلا شريك كما استحق ذلك في توحيد الربوبية ، وهذا هو توحيد الألوهية وهو الواجب الأول على كل مكلف وهو غاية الاعتراف بتوحيد الربوبية.

ومن وحد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته حقاً فقد تضمن ذلك توحيده في أسمائه وصفاته عز وجل إذ هو متمم لهما لأنه اشتمل على وصف الله تعالى بكل صفات الكمال وتوحيده فيها وتنزيهه عن كل نقص من مشابهته لخلقه أو تعطيل صفاته فهذا يعد شركاً في أسمائه وصفاته ومتى اكتمل للعبد ذلك فقد أتى بجميع أنواع التوحيد الثلاثة.

وسيأتي الحديث عن ذلك عند ذكر العلاقة بين أنواع التوحيد الثلاثة في آخر هذا الكتاب.

ومنها ثالثاً : أن تأتي الآيات بالربط بين دلالة هذه الآيات الكونية على توحيد الربوبية وبين دلالتها أيضاً على توحيد الألوهية إذ هو الغاية من

ذلك، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

فهذه الآيات دلت على الربط بين دلالة هذه الآيات الكونية على توحيد الربوبية ودلالتها في نفس الوقت على توحيد الألوهية أيضاً، لذلك أنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين الذين أقروا بتوحيد الربوبية وعلموا دلالة هذه الآيات الكونية على توحيد الخالق سبحانه وتعالى في ربوبيته ولكنهم لم يقروا له بتوحيد الألوهية كما ذكر سبحانه وتعالى ذلك عنهم في آيات كثيرة والتي منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[3].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكلها تدل دلالة واضحة على أن هذه الآيات الكونية هي أكبر دليل وشاهد على أن الله سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للألوهية والعبادة بجميع أنواعها.

(١) البقرة/ ٢١-٢٢.
(٢) البقرة ٢٨-٢٩.
(٣) يونس / ٣١-٣٢

قال الإمام علي بن أبي العز شارح الطحاوية رحمه الله تعالى مبيناً هذا المعنى:
والقرآن يقرر توحيد الربوبية و أنه لا خالق إلا الله تعالى وأن ذلك مستلزم ألاَّ يعبد إلا الله تعالى فيجعل الأول دليلاً على الثاني إذ كانوا يسلمون في الأول أي توحيد الربوبية ، وينازعون في الثاني أي توحيد الألوهية ، فيبين لهم سبحانه وتعالى أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له في ذلك فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة أخرى ؟ [1] .

ومنها رابعاً : أن تأتي الآيات مبينة أن دقة وترتيب وإحكام هذه الآيات الكونية تدل على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات لا كما زعم أهل الفرق الضالة أن دلالة هذه الآيات الكونية على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية فقط .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2] .

وقال عز وجل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3].

فدلت هذه الآيات على ما يسمى بدليل النظام الكوني وأن هذا النظام وهذه الدقة في الخلق وهذا الترابط بين أجزاء الكون العلوية والسفلية كل ذلك يدل على أن إلهه واحد وخالقه وربه ومدبره واحد إذ لو فرض التعدد لما كان هذا الكون بهذه الدقة ، وهذا الإحكام ، وهذا الدليل يسمى عند

(١) شرح العقيدة الطحاوية / ص ٨٣-٨٤.
(٢) المؤمنون/ ٩١.
(٣) الأنبياء/ ٢٢.

المتكلمين بدليل التمانع[1] وقد ضل هؤلاء بجعلهم هذا الدليل قاصراً على توحيد الربوبية فقط بل إنه يشمل جميع أنواع التوحيد والذي من أهمها توحيد الألوهية لذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ .قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى :وقوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ كذب يعرف بخبر الله تعالى وخبر رسله عليهم الصلاة والسلام، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي على امتناع إلٓهين ﴿إِذًا ﴾ أي لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي لانفرد كل واحد من الإلهَين بمخلوقاته واستقل بها ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾فالغالب يكون هو الإلٓه، فمن التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة فإنها منذ خلقت وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلٓهين ربَّيْن؟!!

---

(١) قال شارح الطحاوية رحمه الله تعالى في بيان معنى دليل التمانع وأنه يدل على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات: (وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد لا إله للخلق غيره ولا رب لهم سواه كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد لا رب غيره ولا إله سواه فذلك تمانع في الفعل والإيجاد وهذا تمانع في العبادة والإلهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان). شرح الطحاوية / ص ٨٦.

وقوله تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ قد نطقت المخلوقات بلسان حالها ، وأفهمت ببديع أشكالها أن المدبر لها إلّه واحد كامل الأسماء والصفات قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها ، وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة [(١)].

فتبين من كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى أن هذه الآيات الكونية أو ما يسمى بالنظام الكوني أو بدليل التمانع عند المتكلمين لا يدل على توحيد الربوبية فقط بل على سائر أنواع التوحيد .

ومنها خامساً : أن تأتي الآيات بالإشارة إلى افتقار جميع هذه المخلوقات الكونية لمن يقوم على تدبير شؤونها وجميع أمورها ، وهذه دلالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فمن هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [(٢)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن / ٥٠٧.
(٢) فاطر/ ٢-٣.
(٣) فاطر/ ١٥-١٧.

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾[2].

فدلت هذه الآيات ونحوها على أن جميع هذه المخلوقات مفتقرة إلى من يقوم على تدبير أمورها وأرزاقها وجميع حركاتها وسكناتها وهو الله خالقها سبحانه وتعالى فهذه دلالة الافتقار وهي تدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وعلى توحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وأنه المستحق وحده للعبادة بجميع أنواعها ، وأنه المتصف بجميع صفات الكمال والجلال سبحانه وتعالى .

وبهذا يتضح لنا أن منهج القرآن الكريم في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية يتلخص في الطرق الآتية :

أولاً : الأمر بالنظر والتأمل والتفكر في هذه الآيات ومدح المتفكرين.

ثانياً: عرض الآيات الكونية وما دلت عليه من عظيم الخلق وإبداع التركيب وأن ذلك دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده.

ثالثاً : الربط بين دلالة هذه الآيات على توحيد الربوبية وبين دلالتها على توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

رابعاً : بيان أن هذه الآيات الكونية ليست الغاية منها إثبات وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية فقط بل الغاية العظمى هي الإيمان بتوحيد الألوهية والعبادة وهو حقيقة دين الإسلام.

(١) فاطر/ ٤١.　　(٢) الملك/ ٣٠.

خامساً :الاستدلال بافتقار هذه المخلوقات الكونية لمن يسد حاجاتها على وجود الخالق عز وجل وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وأكثر آيات القرآن الكريم التي تعرضت لهذه الآيات الكونية لا تخرج في الغالب عن هذه الطرق وبما أن أكثرها جاء عن طريق عرض الآيات الكونية أوالأمر بالتأمل والتفكر فيها وهذان الطريقان يتضمنان بقية الطرق لذلك جعلت هذا البحث في هٰذين الطريقين ثم الربط بين هذه الآيات الكونية وبين ما دلت عليه من وجوب الإيمان بتوحيد الألوهية وسائر أنواع التوحيد وأمور العقيدة ، والله تعالى أعلم .

المبحث الثاني
بيان منهج السنة النبوية في الاستدلال
على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية

ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المشرفة أنواعاً من الاستدلال على توحيد الله تعالى بآياته الكونية فمنها :

أولاً : النظر والتأمل في خلق هذه الآيات وما دلت عليه من عظيم الصَنْعة وإحكام الخِلْقة وأن ذلك من طرق زيادة الإيمان وتقويته وهو طريق أيضاً إلى الدخول في الإسلام لمن كان خارجاً عنه ، وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا المعنى ، حيث روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : (بت عند خالتي ميمونة رضي الله تعالى عنها فتحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أهله ساعة ثم رقد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقرأ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ثم قام فتوضأ واستن[1] فصلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى الصبح)[2].

فيستفاد من هذا الحديث الشريف فوائد منها :

أولاً : مشروعية النظر إلى الآيات الكونية والتأمل في خلقها وما دلت عليه من توحيد الخالق عز وجل.

---

(١) إستنّ: أي استاك، مختار الصحاح/ ص ٣١٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير/ تفسير سورة آل عمران باب / قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ رقم الحديث : ٤٥٦٩ وفي غيره من المواضع .

ثانياً : مشروعية الربط بين التفكر في الآيات الكونية والتدبر للآيات الشرعية، فالنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في هذا الحديث الشريف نظر إلى السماء وما فيها من دلائل التوحيد ، ثم ربط بين هذه الآيات الكونية وبين الآيات الشرعية ، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نظر فقرأ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآيات. فالفاء في قوله: (نظر إلى السماء فقرأ) تدل على الترتيب والتعقيب وهذا يدل على الترابط بين الآيات الشرعية والكونية .

ثالثاً : أنَّ التأمل والتفكر والنظر والتدبر في هذه الآيات يزيد في إيمان المؤمن ويقويه وينميه كما أنه طريق إلى الدخول في الإسلام لمن كان خارجاً عنه، كما تقدم.

ثانياً : ومن أنواع الاستدلال على الله تعالى بآياته الكونية التي جاءت بها السنة النبوية عرض تلك الآيات والاستدلال بها على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فمن ذلك ما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أراد أن ينام اضطجع على شقه الأيمن ثم قال : (اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء إقض عنا الدين وأغننا من الفقر)[1] .

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر/ باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على فوائد جليلة منها :

أولاً: هديه صلى الله عليه وآله وسلم عند النوم وما يستحب للمسلم فعله وقوله إذا أراد أن ينام .

ثانياً: دلَّ هذا الحديث الشريف على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .

ثالثاً: فيه دلالة على أن هذه الآيات الكونية أعظم شاهد على استحقاق الله تعالى للعبادة بجميع أنواعها والتي منها إخلاص الدعاء له عز وجل والالتجاء والافتقار إليه سبحانه وتعالى .

ومن ذلك حديث سيد الاستغفار حيث روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : «سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . قال : من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[1] .

فدل هذا الحديث أيضاً على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات : باب أفضل الاستغفار ، رقم : ٦٣٠٦.

المبحث الثالث

بيان منهج السلف في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية وذكر بعض أقوال من خالفهم في ذلك والرد عليهم

ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى منهج السلف في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية وأن ذلك من وجهين:

الوجه الأول : خلق تلك الآيات دليل على خالقها عز وجل وعلى توحيده.

الوجه الثاني: افتقارها وحاجتها دليل على وجود الخالق الذي هي محتاجة إليه[1] وعلى توحيده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان الوجه الأول : (إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب كما نزل به القرآن وفطر الله تعالى عليه عباده)[2].

وقال أيضاً : (وكذلك آيات الرب تعالى نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى، فكل دليل في الوجود لا بد أن يكون مستلزماً للمدلول)[3].

وقال أيضاً : قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٣٦/٢١-٢٣.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤٨/١.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٤٢/٩.

﴿ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] فهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكون واجبة[2] الوجود بذاتها ، فإن ما وجب وجوده بنفسه امتنع عدمه ووجب قدمه ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فدل وجودها بعد عدمها على أنها يمكن وجودها ويمكن عدمها، فإن كليهما قد تحقق فيها فعلم بالضرورة اشتمال الوجود على موجود محدَث ممكن.

فنقول حينئذ: الموجود والمحدَث الممكن لا بد له من موجد قديم واجب بنفسه ، فإنه يمتنع وجود المحدَث بنفسه كما يمتنع أن يخلق الإنسان نفسه وهذا من أظهر المعارف الضرورية ، فإن الإنسان لا يقدر أن يزيد في ذاته عضواً ، فلا يقصر الطويل ، ولا يطول القصير ، ولا يجعل رأسه أكبر مما هو عليه ولا أصغر ، وكذلك أبواه لا يقدران على شيء من ذلك.

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه أنه لما قدم في فداء أسارى بدر قال: (وجدت النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ في المغرب (بالطور) ، قال: فلما سمعت هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[3] أحسست بفؤادي قد انصدع [4] وذلك أن هذا تقسيم

(١) البقرة/ ١٦٤.

(٢) واجب الوجود / هو مالا يحتاج وجوده إلى موجد يستمد منه الإيجاد بل وجوده أزلي وهو خاص بالله عز وجل الذي هو واهب الحياة وخالق كل شيء وممكن الوجود هو ما يحتاج وجوده إلى موجد وهو كل ما سوى الله تعالى وهو الذي يمكن عليه الموت والحياة بخلاف واجب الوجود فلا يعتريه الموت أبداً بل هو قائم بذاته سبحانه وتعالى مستغن عن خلقه وقائم بجميع الموجودات حيث أوجدها وأبقاها وأمدها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في مجموع فتاواه ٣٥٩/٥، والشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى في تيسير الكريم الرحمن عند تفسيره لآية الكرسي ص ٩١.

(٣) الطور/ ٣٥.

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة الطور رقم ٤٨٥٤، ورواه مسلم في كتاب الصلاة / باب القراءة في العشاء ١٨٠/٤.

حاصر ذكره الله تعالى بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ ؟! أي من غير خالق خلقهم ، أم هم خلقوا أنفسهم ؟!

وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل ، فتعين أن لهم خالقاً خلقهم وهو الله سبحانه وتعالى [1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان الوجه الثاني :

وكذلك الفقر وعدم القيام بالنفس من دلائل توحيد الربوبية فهي أدلة على أنه هو مبدؤها فهي من أدلة إثبات الصانع سبحانه وتعالى[2].

والاستدلال على الله تعالى بآياته ليس أول واجب ، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[3] ... الآية. قال :

و هذه الآية تدل على أنه ليس النظر أول واجب ، بل أول ما أوجب الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله و سلم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ لم يقل انظر واستدل حتى تعرف الخالق ، إذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق ، و أن المخلوق مع أنه دليل و أنه يدل على الخالق لكن هو معروف في الفطرة ومعرفته ضرورية بديهية، لذلك ذُكر بالإضافة التي توجب التعريف[4].

ولعل قائلاً يقول: إذاً فما الفائدة من ذكر الآيات الواردة في الحث على النظر في الكون وما فيه للدلالة على الخالق عز وجل مع أنه معروف بالفطرة؟

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٣٥٨/٥-٣٥٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٣٦/٢.

(٣) العلق / ١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٣٢٤/١٦-٣٢٨.

قيل : إن هذه الآيات لتذكير المعرض عن الله تعالى بأصل فطرته حتى يرجع إلى ربه عز وجل لأن الفطرة قد يطرأ عليها ما يفسدها كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1]... الحديث.

ولذلك قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام لما أرسلهما إلى الملحد فرعون لعنه الله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[2] أي لعله يتذكر أصل فطرته فيرجع إلى ربه عز وجل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً هذا المعنى : و كل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها ، و الإنسان إذا ذُكر ذَكر ما في فطرته و لهذا قال الله تعالى في خطابه لموسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ ﴾ أي ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه و يعرف إنعامه عليه و إحسانه إليه و افتقاره إليه فذلك يدعوه إلى الإيمان[3].

وقال أيضاً : فالمخلوقات كلها آيات للخالق ، ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات فإنها قد فطرت على ذلك ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات لم تعلم أن هذه الآية له[4].

ولذلك سار موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون لعنه الله تعالى على هذا المنهج فذكره بهذه الآيات الكونية بأصل فطرته ، قال سبحانه وتعالى:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم ١٣٨٥ كتاب الجنائز / باب ما قيل في أولاد المشركين .
(٢) طه/ ٤٤.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٦/٣٣٨.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/٤٨ .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

فهذه الآيات الكونية إنما هي لتذكير الكافر والملحد بأصل فطرته لعله يهتدي ويرجع إلى الإيمان وهي أيضاً لتقوية إيمان المؤمن وتنميته وزيادته لكي يثبت عليه ويزداد إيماناً ويقيناً ، بإذن الله تعالى ومشيئته كما قال سبحانه وتعالى عن المؤمنين :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2].

وهذه هي الغاية من مخاطبة الله تعالى للكافرين والملحدين في كتابه الكريم وأمرهم بالنظر والتأمل في هذه الآيات الكونية وهي تذكيرهم بفطرتهم لعلهم يرجعون إلى الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له الذي فطروا عليه ، وهذا يدل على دلالة هذه الآيات على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده ولذلك كانت تذكرة للمعرضين ، وزيادة في إيمان المتقين المؤمنين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : طريقة القرآن والأنبياء والسلف في إثبات الخالق عز وجل الاستدلال عليه بآياته - التي هي العلامات- والتي يستلزم العلم بها العلم به ، كاستلزام العلم بالشعاع

(١) الشعراء / ٢٣-٢٨.
(٢) آل عمران / ١٩٠-١٩١.

العلم بالشمس[1] كما دلت على هذا المعنى الآيات وهي قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾...الآية[2] وقوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ ... الآية[4].

قال الإمام البيهقي[5] رحمه الله تعالى : عند الحديث عن إثبات وجود الخالق جل وعلا وتوحيده : باب ذكر بعض ما يستدل به على حدوث العالم وأن محدثه ومدبره إلّه واحد قديم[6] لا شريك له ولا شبيه .

ثم قال : قال الله عز وجل : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[7] .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/٩-٢٢. وقد تقدم في المقدمة.
(٢) الطور/ ٣٥.
(٣) إبراهيم / ١٠.
(٤) البقرة /٢١.
(٥) البيهقي هو / الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي البيهقي صاحب التصانيف ، ولد سنة ٣٨٤ هـ في شعبان ، فاز على أقرانه في الإتقان والضبط كتب الحديث وحفظه من صباه ، وتفقه وبرع وأخذ في الأصول وارتحل إلى العراق والحجاز وتواليفه تقارب ألف جزء مما لم يسبقه إليه أحد ، وكان ورعاً قانعاً باليسير متحملاً في زهده وورعه ، حضره الأجل ببيهق في جمادى الأولى سنة ٤٥٨ هـ. (تذكرة الحفاظ ٣/١١٣٢).
(٦) قوله : (قديم) لم يرد أنه من أسماء الله تعالى، ويغني عنه اسمه (الأول) . انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/٢٤٥ وشرح الطحاوية لابن أبي العز ص ١١٤.
(٧) البقرة / ١٦٣- ١٦٤.

قال البيهقي رحمه الله تعالى : فذكر الله عز وجل خلق السماوات بما فيها من الشمس والقمر والنجوم المسخرات ، وذكر خلق الأرض بما فيها من البحار والأنهار والجبال والمعادن ، وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ أحدهما من الآخر ، وذكر الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وذكر ما أنزل من السماء من المطر الذي فيه حياة البلاد وبه وبما وضع الله تعالى في الليل والنهار من الحر والبرد يتم رزق العباد والبهائم والدواب ، وذكر ما بث في الأرض من كل دابة مختلفة الصور والأجساد مختلفة الألسنة والألوان وذكر تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض وما فيهما من منافع الحيوانات وما في جميع ذلك من الآيات البينات لقوم يعقلون ، ثم أمر في آية أخرى بالنظر فيهما فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (1) يعني والله تعالى أعلم من الآيات الواضحات والدلالات النيرات وهذا لأنك إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك واعتبرتها بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ساكنه من آلة وعتاد فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض مبسوطة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر وضروب النبات مهيأة للمطاعم والملابس والمآرب وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب مستعملة في المرافق والإنسان كالملك في البيت المخول فيه .

وفي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام ، وأن

(1) يونس / ١٠١.

له صانعاً حكيماً تام القدرة بالغ الحكمة[1] .

وقد سئل أعرابي ما الدليل على وجود الرب تعالى ؟ فقال : يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير وإن أثر الأقدام لتدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ؟ أفلا تدل على اللطيف الخبير ؟[2] .

وبهذا يتبين أن منهج السلف في هذه الآيات الكونية أنها تدل بذاتها ووجودها بعد عدمها وافتقارها على وجود الخالق سبحانه وتعالى الذي أوجدها والتي هي مفتقرة إليه وتدل على توحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وليس على وجوده وتوحيده في الربوبية فقط كما زعم أهل الضلال ، وهذا كما تقدم في قول الإمام ابن القيم في تعريف الآيات حيث قال رحمه الله تعالى :

وآيات الرب عز وجل هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد ويعرفون أسماءه وصفاته وتوحيده وأمره ونهيه[3] وفي ذلك حث على التفكر والتأمل في خلقها وافتقارها وأنه من أسباب زيادة الإيمان والدخول في الإسلام.

وكذلك ما تقدم نحوه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فدل ذلك على أن منهج السلف في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية هو منهج القرآن والسنة ، وهذا يدل على الترابط بين هذه المناهج والله تعالى أعلم.

---

(١) البيهقي في كتابه الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد / ص ٢١ – ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٨.

(٣) مدارج السالكين ٣/٤٦٤.

بيان أقوال بعض الفرق التي خالفت منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية والرد عليهم

وبعد أن علمنا منهج القرآن والسنة والسلف الصالح في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية أذكر بعض أقوال الفرق التي ضلت عن هذا المنهج في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية والرد عليها ، فأقول:

تقدم أن منهج القرآن والسنة والسلف في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية هو الاستدلال بنفس هذه الآيات على الخالق عز وجل بمعنى أن وجودها بعد عدمها دليل على أنها مخلوقة وذلك دليل على موجدها وخالقها عز وجل ، كذلك افتقارها وحاجتها إلى خالقها عز وجل القائم على أمورها دليل آخر أيضاً على موجدها وخالقها عز وجل وأنه ربها وخالقها ومعبودها وإلهها المتصف بجميع صفات الكمال والجلال لا شريك له في ذلك ، وقد خالف هذا المنهج في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية المتكلمون وأتباعهم من أصحاب الفرق الضالة ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

إن غالب المتكلمين يعتقدون أن الله تعالى لا يعرف إلا بإثبات حدوث العالم ثم الاستدلال بذلك على محدثه ثم لهم في إثبات حدوثه طرق فأكثرهم يستدلون بحدوث الأعراض وهي صفات الأجسام فيستدلون على حدوث الأجسام بحدوث الصفات من الحركات وغيرها ، وهذه الطرق فيها فساد كثير فهي كلحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/ ٢٢.

وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر : والطريق المشهورة عند المتكلمين هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام ، وقد بينا في غير موضع أنها مخالفة للشرع والعقل[1].

ومعنى كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن المتكلمين وأتباعهم لا يجعلون حدوث هذه الآيات الكونية ووجودها بعد عدمها دليلاً على أنها مخلوقة كما هو منهج القرآن والسنة والسلف، بل إنهم يجعلون الدليل على خلقها ليس حدوثها أي وجودها بعد عدمها ، وإنما يستدلون على أنها مخلوقة بصفاتها وأعراضها ، فمثلاً يستدلون على حدوث الأجسام بحدوث صفاتها كالحركة والسكون والحرارة والبرودة والضوء والظلمة وغير ذلك، ثم يستدلون بحدوثها على الخالق عز وجل و يستدلون على حدوث العالم بحدوث صفاته وبعد ذلك يستدلون بحدوثه على الخالق سبحانه وتعالى، وهذا المذهب فيه من التعسف والتكلف ما فيه، لذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في وصفه: هو كلحم جمل غث أي هزيل على رأس جبل وعر أي عال وشاق الصعود ، وأن هذا اللحم ليس بسمين و جيد حتى يسعى في طلبه ، وكذلك الجبل ليس بسهل الصعود .

وهذا الوصف ينطبق تماماً على علم الكلام وأهله الذين تركوا الكتاب والسنة إلى آراء الشياطين وأقوالهم ، ولذلك انتهى الأمر بهؤلاء الضُلّال المخالفين للكتاب والسنة إلى مخالفة أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد وسلوك طريق الضالين .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٦/٢٦٧.

قال الشيخ أحمد بن عطية الغامدي : ومن الأمور التي كابر بها المتكلمون الحس والعقل هو جعلهم الطريق إلى معرفة حدوث الأجسام حدوث صفاتها ونحن نشهد حدوث الأجسام نفسها مثل حدوث الزرع والثمار وحدوث الإنسان والحيوان والسحاب والمطر ، فلسنا في حاجة لمعرفة حدوث الجسم إلى واسطة كمعرفة صفاته . وهذه النظرية التي قدسها المتكلمون يونانية الأصل حيث إن أول من قال بها ديمقريطس من فلاسفة اليونان فما كان ينبغي لمسلم أن يلجأ إلى نظرية هذا مصدرها ، وهذا من الظلمات التي حاكها المتكلمون حول العقيدة الإسلامية زعماً منهم أنهم بذلك يرسخون العقيدة ويوضحونها ويذبون عنها ، فالنجاة من ذلك كله إنما يكون بالتمسك بالكتاب والسنة فهما الينبوعان الصافيان من كل كدر الهاديان إلى صراط الله تعالى المستقيم فمن تمسك بهما فلن يعدم خيراً [1] كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب الله وسنتي»[2].

وبهذا يتبين لنا أن ضلال هذه الفرق في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية هو أنهم لم يستدلوا بها على خالقها عز وجل مباشرة -أي بوجودها بعد عدمها- وإنما سلكوا طرقاً ملتوية هي في الحقيقة زبالة الأفكار الناتجة عن سقيم عقول الأشرار.

ومن العجب أن يستدل هؤلاء المتكلمون على مذهبهم الباطل بقصة

(١) البيهقي وموقفه من الإلهيات / للشيخ أحمد عطية الغامدي /ص ١١٤-١١٨.
(٢) الحديث رواه الحاكم ، وهو صحيح كما تقدم.

إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما حكاه الله تعالى عنه وما دار بينه وبين قومه في إثبات توحيد الخالق عز وجل ، وذلك في الآيات الواردة في سورة الأنعام وهي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(1).

فالذي عليه أهل السنة والجماعة أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام استدل على بطلان هذه الآلهة من الكواكب والقمر والشمس لأنها تأفل أي تغيب ، والإله الحق لا يغيب ، لأن الغياب والأفول صفة نقص ، أما هؤلاء الفلاسفة فإنهم يقولون إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام استدل على أنها لا تصلح آلهة لأنها تأفل والأفول عندهم بمعنى الحركة فهي محل للحوادث والتغيرات وهذا يدل على أنها مخلوقة ، فالإله الحق لا تحل به الحوادث ، وأما من حلت به الحوادث فلا يصلح أن يكون إلهاً لأن من حلت به الحوادث فهو حادث ، فقد استدلوا بهذه القصة على أن المخلوق إنما يعرف أنه مخلوق بصفاته من الحركة والتغيرات لا بوجوده بعد عدمه أو لنقص في صفاته كما في هذه المخلوقات التي رآها إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهذا هو الذي جعلهم ينكرون الصفات الإلهية زعماً منهم أنها تدل على حلول الحوادث بذات الله تعالى لأن من حلّت به الحوادث فهو حادث ، وقد رد عليهم أهل السنة والجماعة رداً ليس هذا موضع ذكره ولكن ملخصه ما ذكره الإمام علي بن أبي العز شارح الطحاوية حيث قال رحمه الله تعالى :

(1) الأنعام / ٧٥-٧٩.

وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفي في علم الكلام المذموم لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة وفيه إجمال فإن أريد بالنفي أنه سبحانه وتعالى لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن فهذا نفي صحيح ، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية من أنه سبحانه وتعالى لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته فهذا نفي باطل[1] لأنه يؤدي إلى نفي الصفات الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله تعالى وقدرته وهذا يؤدي إلى نسبة العجز إلى الله تعالى .

والصحيح الذي عليه أهل السنة والجماعة أن القول بحلول الحوادث بذات الله تعالى على المعنى الصحيح أي إثبات الصفات الإلهية هو الحق والصواب الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة والآثار وهو الذي أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال : (إن القول بحلول الحوادث هو مذهب أكثر أهل الحديث ، بل قول أئمة أهل الحديث وهو الذي نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها)[2] .

وبعد ذلك أعود للرد على المتكلمين وعلى طريقتهم الفاسدة في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية بقصة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام خلاف ما فهمه السلف منها وزعمهم أن هذه الطريقة وهي الاستدلال

(١) شرح الطحاوية / ص ١٢٨.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ١/ ٣٠٣ .

بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام هي طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الاستدلال على وجود الخالق عز وجل وتوحيده ، فأقول : إن استدلالهم على مذهبهم الباطل بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن المراد بالأفول الوارد في الآيات هو المغيب وهو دليل النقص الذي استدل به إبراهيم عليه الصلاة والسلام على أن هذه المخلوقات لا تصلح للألوهية وليس المراد به الحركة أو التغير ، ولم يقل أحد من أهل اللغة أن الحركة أو التغير يسمى أفولاً ، فلا يقال للماء إذا جرى أفل والريح إذا هبت أفلت ، فهذا من أعظم الكذب والافتراء على الله تعالى وعلى كلامه عز وجل وعلى خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم المبلغ عن ربه ، وعلى أمة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وعلى جميع أهل اللغة ومن يعرف معاني القرآن الكريم.

الوجه الثاني : أن هذه الكواكب والشمس والقمر قد رآها إبراهيم عليه الصلاة والسلام من حين بزوغها أي ظهورها في الأفق وهي متحركة فلو أنه كان يستدل بالحركة والتغير لقال ذلك منذ أن رآها بازغةً ، ولم ينتظر إلى أن غابت وأفلت ، فدل ذلك على بطلان قولهم.

الوجه الثالث : أن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكونوا ينكرون الخالق عز وجل حتى يقيم لهم الأدلة على أن هذه الكواكب مخلوقه حادثة وأن خالقها ومحدثها هو الله تعالى فهم كانوا يعلمون ذلك وكانوا يقرون بوجود الخالق عز وجل ، ولكنهم كانوا يشركون هذه الآلهة معه عز وجل ،

فأراد أن يبين لهم أن هذه الآلهة لا تصلح للألوهية لأنها ناقصة وأفولها وغيابها دليل على ذلك النقص ، وأن المستحق للعبادة وحده هو الله عز وجل المتصف بجميع صفات الكمال ، وبهذا يتضح فساد تعلق المتكلمين بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام[1] وأن استدلالهم على حدوث المخلوقات بحدوث صفاتها بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام استدلال باطل لأن قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليست أصلاً لتقرير حدوث هذه المخلوقات وأنها مخلوقة فهذا أمر لم ينكره قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما تقدم وإنما هي لتقرير أنها لا تصلح للألوهية لأنها ناقصة وهذا ما كان ينكره قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام فأراد أن يبين لهم أنها لا تصلح للألوهية لا أنها مخلوقه كما زعم أهل الباطل.

ثم إن هذه الفرق من المعطلة المنكرين لأسماء الله تعالى وصفاته من المتكلمين ومن تبعهم من الجهمية وغيرهم مع طريقتهم الفاسدة في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية وظنهم أنها طريقة القرآن فإنهم لا يستدلون بها على توحيد الألوهية الذي هو أصل الدين وأساسه وإنما كل إستدلالهم بها مع فسادها على توحيد الربوبية فقط الذي لم ينازع فيه أحد فازدادوا بذلك فساداً على فساد حيث جمعوا بين فساد الوسيلة والغاية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: والمتكلم يظن أنه بطريقته قد وافق طريقة القرآن في الاستدلال على الله تعالى فقد أخطأ من وجوه:

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/٢٨٤، وكتاب البيهقي وموقفه من الإلهيات للشيخ/ أحمد عطية الغامدي ص/ ١١٥.

الوجه الأول: أن إثبات الصانع بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به كاستلزام العلم بالشعاع العلم بالشمس وهذا لا يقول به أصحاب هذه الفرق.

الوجه الثاني: في مفارقة الطريقة القرآنية الطريقة الكلامية، أن الله تعالى أمر بعبادته التي هي كمال النفوس وصلاحها وغايتها ولم يقتصر على مجرد الإقرار به كما هو غاية الطريقة الكلامية، فلا وافقوا لا في الوسائل ولا في المقاصد كإبليس اللعين، فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء، ولهذا قيل: العلم بلا عمل، كالشجر بلا ثمر[1].

ودلت قصة الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذه أيضاً على أقسام التوحيد الثلاثة وذلك أن وجود هذه المخلوقات بعد عدمها وانتظامها ونقصها المشار إليه في هذه الآيات يدل على فقرها واحتياجها إلى من يسد فقرها ويقوم على تدبيرها وهو خالقها عز وجل فهي مخلوقة مربوبة له وهذا يدل على وجوده وتوحيده في الربوبية وكذلك يدل على توحيده في الألوهية فهذه المخلوقات لا تصلح أن تكون إلهاً لنقصها وإنما الذي يستحق إفراده بالألوهية والعبادة هو الخالق سبحانه وتعالى الذي لا يعتريه أي نقص لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى كما بين ذلك الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ودل افتقارها أيضاً على كمال الله تعالى في أسمائه وصفاته وتوحيده في ذلك.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/٨-١٤.

المبحث الرابع

الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالفطرة :

ومن أنواع الدلالات على الخالق سبحانه وتعالى الواردة في الكتاب والسنة وعن السلف أيضاً الاستدلال على الله تعالى بالفطرة ، فالاستدلال على الله تعالى بالفطرة يعد دليلاً ثابتاً في النفس على وجود الخالق جل وعلا وتوحيده لأن خير دليل للإنسان هو ما كان مستقراً في نفسه فهو أقوى من أي دليل آخر كما تقدم من أن بقية الأدلة على الله تعالى إنما جاءت مرسخة ومثبتة لما فطر الله تعالى عليه الناس وقد يستكبر الإنسان ويتجاهل ويتعامى هذه الفطرة ويسلك طريق الضالين .

وأبدأ أولاً بتعريف الفطرة ، وهي كما ذكر في المختار[1] : إنها الخِلقة ، قال: (والفطرة بالكسر الخِلقة) ومنه قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] أي خالقهما .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية السابقة ، قال الضحاك[3] : كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض فهو خالق السماوات والأرض[4] هذا في اللغة ، وأما في الشرع : فالفطرة هي ما أودعه الله عز وجل في نفوس

---

(١) مختار الصحاح/ ص ٥٠٦.
(٢) فاطر/ ١.
(٣) الضحاك/ هو ابن مزاحم الهلالي أبو القاسم عرف بالتفسير واشتهر به ، روى عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم قال عبد الله بن أحمد عن أبيه : ثقة مأمون ، وقال ابن معين وأبو زرعة ثقة، روى عنه الحسن بن يحي البصري وغيره، مات سنة ١٠٦هـ / تهذيب التهذيب ٤/٤٥٣.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٥٤٦.

مخلوقاته حين خلقها من الإيمان به رباً واحداً لا شريك له في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾[1].

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى : (فالمخلوقات كلها آيات للخالق ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات ، فإنها قد فطرت على ذلك ، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات لم تعلم أنَّ هذه الآية له ، فإن كونها آية له ودلالة عليه مثل كون الاسم يدل على المسمى فلا بد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك ، وعرف أن هذا اسم له.

فكذلك كون هذا دليلاً على هذا يقتضي تصور المدلول عليه وتصور أن ذلك الدليل مستلزم له ، فلا بد في ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول ، فلو لم يكن المدلول متصوراً لم يعلم أنه دليل عليه ، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق ، فلا بد أن يكونوا يعرفونه حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له.

والمقصود أن هذه الطريقة العقلية الفطرية هي التي جاء بها القرآن الكريم واتفق العقل والشرع وتلازم الرأي والسمع [2] .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضاً: ولسنا نقول إن الله تعالى يعرف بالمخلوقات ، بل المخلوقات كلها تعرف بالله تعالى لكن معرفته تزيد بالنظر في مخلوقاته عز وجل[3].

---

(١) الروم / ٣٠.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/٤٨-٤٩.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/٢.

وقد ورد في كتاب الله عز وجل آيات تبين أن الله تعالى فطر عباده على الحنيفية والإقرار به إلهاً ومعبوداً واحداً لا شريك له ، كما ورد في السنة ما يشير إلى ذلك ، وسأذكر بعض هذه الآيات والأحاديث.

فمن الآيات ، قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية الكريمة : يقول تعالى فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله تعالى لك من الحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التي هداك الله تعالى لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله تعالى الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأن لا إله غيره ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ﴾ قال بعضهم معناه: لا تبدلوا خلق الله تعالى فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها.

وقال البعض: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ﴾ أي لدين الله تعالى ، ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ،﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

---

(١) الروم /٣٠.

(٢) يوسف/ ١٠٣.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) (٢).

فدلت هذه الآيات على أن الخلق فطروا على أنواع التوحيد الثلاثة، وليس على توحيد الربوبية فقط كما زعم من زعم، لأن قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ يدل على ذلك، فالدين ليس هو توحيد الربوبية فقط بل كل أنواع التوحيد كما تقدم في قول ابن كثير رحمه الله تعالى، وكما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال: إن وحدانية الربوبية والإلهية معلومة بالفطرة الضرورية البديهية وبالشرعة النبوية الإلهية (٣).

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٤).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية الكريمة: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله تعالى ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه(٥).

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذه الآية، فمن قائل أن الله تعالى استخرج الذرية من آدم استخراجاً حقيقياً، وأشهدهم على أنفسهم بأنه ربهم لا شريك له في عبادته وربوبيته، ويستدلون بحديث استخراج الذرية من آدم

(١) الأنعام/ ١١٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٢.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/ ٣٧.
(٤) الأعراف / ١٧٢-١٧٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦١.

وهو ما رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾»[1][2].

ومن الأحاديث التي استدل بها أهل هذا القول ما رواه أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى يقول لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي». أخرجاه في الصحيحين[3].

أما الفريق الآخر من المفسرين فقال: إن المراد من هذه الآية هو ما فطر الله تعالى عليه الخلق من التوحيد و أنه ربهم لا شريك له في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وهو ما ذهب إليه ابن كثير حيث قال رحمه الله تعالى

---

(١) الأعراف / ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٧٢/١ وأخرجه الحاكم في مستدركه في (كتاب التفسير) شرح معنى آية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ....﴾ الآية، المستدرك ٣٢٣/٢. وصححه الألباني رحمه الله تعالى في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٥٨/٤ رقم ١٦٢٣.

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء / باب خلق آدم وذريته رقم ٣٣٣٤ ورواه مسلم في كتاب صفة القيامة / باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً ١٤٧/١٧.

في تفسير هذه الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فقال بني آدم ولم يقل من آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً والشهادة تارة تكون بالقول كقوله تعالى:﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾[1] وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾[2] أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه .

فإن قيل إخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كافٍ في وجوده ، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ .. الآية [3].

وأرى والله تعالى أعلم الجمع بين الرأيين وأنه لا مانع من وقوع الإشهاد للذرية بعد إخراجهم من صلب آدم عليه السلام لحديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المتقدم الذي رواه الإمام أحمد ولحديث أنس رضي الله تعالى عنه المتقدم

(١) الأنعام / ١٣٠. (٢) التوبة / ١٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ -٢٦٤ .

أيضاً في الصحيحين ، كما أنه لا مانع من أن يكون المعنى هو فطرتهم على التوحيد ، وتكون هذه الفطرة أثر ذلك الإشهاد والميثاق ، ويؤيد ذلك قول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى حيث قال في تعليقه على حديث استخراج الذرية السابق : إنه ليلوح لي أننا وإن كنا لا نذكر جميعاً ذلك الميثاق الرباني إلا أن الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها والتي تشهد فعلاً بأن الله عز وجل هو الرب وحده لا شريك له ، إنما هي أثر ذلك الميثاق[1] والله تعالى أعلم .

وكما ورد ما يشير إلى فطرة الله تعالى لخلقه على التوحيد في القرآن الكريم كذلك ورد في السنة ، فمن ذلك : ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟)) .

ثم يقول أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : واقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

في هذا الحديث الشريف بين صلى الله عليه وآله وسلم أن كل مولود

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٦٣/٤ رقم ١٦٢٣.

(٢) (تنتج) : أي كما تلد البهيمة بهيمة . (جمعاء) : بالمد أي مجتمعة الأعضاء سليمة من أي نقص، والحديث أخرجه مسلم في كتاب القدر/ باب : كل مولود يولد على الفطرة . انظر: مختصر صحيح مسلم ص ٤٨٩ بتحقيق الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى.

سواء كان أبواه مسلمين أو غير ذلك فإنه يولد على الفطرة ، أي التوحيد ودين الإسلام ثم هو بعد ذلك ينشأ على تنشئة أبويه له إذا شاء الله سبحانه وتعالى له ذلك .

وقد مثل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بمثل البهيمة وأنها تولد حال ولادتها كاملة من كل نقص وعيب ثم يطرأ ذلك عليها كما أن الإنسان يولد سليماً من أسباب الشرك والكفر ثم يطرأ عليه بعد ذلك.

ومن الأحاديث أيضاً : ما رواه عياض بن حمار المجاشعي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ذات يوم في خطبته - وساق حديثاً طويلاً وفيه - (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا [١])... الحديث .

في هذا الحديث الشريف أيضاً بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أن الله تعالى فطر عباده على التوحيد الخالص من أي شائبة ثم طرأ عليهم الإشراك به وذلك عن طريق الشياطين إليهم ، وصدهم إياهم عن الطريق المستقيم وغوايتهم إلى طريق الكفر والضلال والشرك بربهم سبحانه وتعالى.

وبعد أن ذكرت بعض الآيات والأحاديث التي بينت أن الله تعالى فطر عباده على الحنيفية السمحة أذكر أيضاً موقف الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الموحدين من قومه الذي أشركوا بالله عز وجل

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة الجنة / باب : في أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم في الدنيا، أنظر مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٣ .

وكيف استدل بفطرته السليمة على خالقه عز وجل الذي لا شريك له كما قال الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[3].

أي من صغر سنه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ

(١) سورة الأنعام / ٧٩.
(٢) سورة النحل / ١٢٠-١٢٣.
(٣) الأنبياء / ٥١.

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ الآية[2].

ففي هذه الآيات السابقة بيان ما كان عليه خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر النبيين والمرسلين من فطرة سليمة وعقيدة صافية نقية من أي شائبة من شوائب الشرك ، وكيف كان أمةً وحده متمسكاً بذلك من بين جميع قومه وما لاقاه في سبيل ذلك من أذى وقد كان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون الكواكب والشمس والقمر وينحتون الأصنام على أشكالها وصورها فأراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم بفطرته السليمة أن هذه الكواكب لا تستحق أن تكون آلهةً لأنها ناقصة والنقص من صفات المخلوق، وكان بيانه لذلك بطريقة عملية حتى يكون أبلغ وأجدى في إقناعهم والوصول بهم إلى الحقيقة التي لا شك فيها من أن الخالق لهذه الكواكب وغيرها من المخلوقات هو الله سبحانه وتعالى المستحق للعبادة وحده لا شريك له الواحد الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه كما تقدم.

(١) الأنبياء / ٥٢-٧٠.
(٢) الحج / ٧٨.

وأذكر تلك الآيات التي ذكرت هذه المحاورة والتي دارت بين الخليل عليه الصلاة والسلام وبين قومه حول إثبات توحيد الخالق جل وعلا لنرى ما آتى الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الحجة والبرهان والفطرة السليمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمات من هذه السورة المباركة نشاهد ما دار بين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أبيه وقومه من حوار حول إثبات

(١) الأنعام / ٧٤-٨٣.

الإله الحق وتوحيده والعقيدة الصحيحة السليمة.

فبدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأبيه لأنه أقرب الناس إليه ، وكان معاتباً له على اتخاذه أصناماً كان يؤلهها ويعبدها من دون الله تعالى الخالق الرازق، فقال مخاطباً له ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي في هذا العمل وهو عبادة الأصنام ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بين واضح ، فهم تائهون لا يهتدون إلى مسلك صحيح سليم بل في حيرة وجهل ، كما جاء هذا في آيات أخرى في قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[1] .

ثم يقول تعالى ذاكراً امتنانه على خليله ونبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنعمة الاهتداء والإيمان به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي نريه عجائب خلق السماوات والأرض رؤيا نظر وتدبر وتفكر لأن من تدبر في خلق السماوات والأرض وما فيهما ازداد إيماناً بالله عز وجل وبتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وهذا هو زيادة اليقين ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ .

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أوتي رشده من قبل، قال تعالى :

---

(١) مريم ٤١-٤٦.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾[1] أي في صغر سنه كما تقدم ، وإنما أراه الله عز وجل ملكوت السماوات والأرض وكيفية إحياء الموتى ليزداد يقيناً، كما في آية سورة البقرة ، حين طلب من ربه عز وجل أن يريه كيف يحيي الموتى؟ ليطمئن قلبه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾... الآية [2].

ثم بين تعالى حقيقة هذا النظر إلى الملكوت فقال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ وإبراهيم عليه الصلاة والسلام أراد من هذا النظر الاستدلال الفطري على أن الله سبحانه وتعالى هو المستحق وحده لإفراد العبادة ، وأراد اقناع قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام المصورة على هيئة الكواكب السبعة السيارة وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل بأنها لا تصلح للعبادة وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة، وقد بدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأصغرها تعظيماً عندهم وهي الزهرة تدرجاً .

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ﴾... الآية.[3] وإبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الآية كان مقامه مقام مناظرة لا نظر ، أي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يعلم من هو الرب الحق ولكنه أرد من هذا النظر الوصول التدريجي بقومه إلى معرفة الإِلَه الحق وإبطال الألوهية عن غيره شيئاً فشيئاً مع الحكمة في أسلوب الدعوة فلو أنه لم يسلك هذا المسلك التدريجي لما وقع من قلوبهم ونفوسهم هذا الموقع الذي كان له أثره فيهم .

(١) الأنبياء / ٥١. (٢) البقرة/٢٦٠.
(٣) الأنعام/ ٧٦.

وبعد أن تبين أن الكوكب قد أفل أي ذهب وغاب ، قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ وهنا لطيفة تبين أن الغياب والأفول علامة نقص وضعف في الإله المزعوم وأن الإله الحق يجب أن لا يغيب ولا يأفل بل يجب أن يكون دائماً متصفاً بصفات الكمال والقوة ولهذا أثبت إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ضعف هذا الإله ، وأنه لا يصلح للألوهية ثم انتقل بهم إلى ما هو أكبر من ذلك الكوكب وهو القمر ، والقمر له أثر كبير ومنزلة أكبر من منزلة الكواكب الصغيرة .

وقد بين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطريقة النظر عدم استحقاق هذا القمر للألوهية أيضاً لأنه تعتريه صفة الغياب وهي صفة نقص كما بين في الموقف الأول .

ثم انتقل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى الشمس وهي أكبر الأجرام وأعظمها وأكثرها نفعاً في حياة البشر أجمعين، وبيَّن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنها كبيرة ورغم كبرها فإنه يعتريها النقص كما اعترى الكواكب والقمر فهي إذاً لا تستحق أن تكون إلهاً أيضاً وغيرها من باب أولى.

وعندما انتهى إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أكبر الأجرام توجه إلى قومه مخاطباً لهم بقوله : ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1] وحوار إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع قومه في

---

(١) الأنعام / ٧٨-٧٩.

هذه المواقف دليل واضح على أن المستحق للعبادة وحده لا شريك له هو الله عز وجل لأنه الخالق الرازق كما أن هذا الحوار فيه حجة على من أنكر وجود الله عز وجل وتوحيده من ملحدي هذا العصر وغيره من شتى الفرق الضالة.

وقد تقدم الرد على المتكلمين في استدلالهم بهذه القصة قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ما أصلوه من أصول فاسدة حول استدلالهم على الخالق عز وجل بالآيات الكونية، ودلت قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذه في حواره مع قومه أيضاً أن فوق جميع هذه المخلوقات بما فيها الكواكب والقمر والشمس التي تطلع وتغيب كل يوم بنظام لا يتبدل، فوق ذلك كله فاطر وخالق للسموات والأرض وإله واحد لا شريك له وأنه متصف بجميع صفات الكمال والجلال، ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد الإنتهاء من هذه المناظرة معلناً الحق الذي لا شك فيه ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

والقول بأن مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الآيات كان مقام مناظرة لا نظر هو قول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره[١].

وقد رجحه.

وذهب ابن جرير الطبري[٢] رحمه الله تعالى إلى أنه مقام نظر واستدل بقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ..الآية.

والذي أراه والله تعالى أعلم أنه مقام مناظرة كما ذهب إليه ابن كثير

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٥٢.

(٢) تفسير الطبري ٧/٢٤٩.

رحمه الله تعالى معللاً ذلك بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أوتي رشده من صغر سنه حيث قال الله تعالى فيه : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[1].

وقال تعالى كما تقدم : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]. إلى غير ذلك من الآيات التي تبين ما كان عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من التوحيد الخالص من صغر سنه ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه المتقدم قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة» فإذا كان هذا في حق سائر الخلق فكيف يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي جعله الله تعالى ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ناظراً في هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3].

فهذه الآيات توضح وتبين أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد رد

(١) الأنبياء / ٥١ . (٢) النحل / ١٢٠ – ١٢٣.
(٣) الأنعام / ٨٠-٨٣

على قومه الذين عارضوه في دعوته إلى وحدانية الله تعالى في العبادة خير رد وأحسن جواب فقد بين لهم أنهم يجادلونه في أمر هو أوضح من الشمس في وسط النهار وأنه لا سبيل لهم لإبعاده عن هذا الدين الواضح وبيّن قوته بالله تعالى وأن آلهتهم لا تخيفه بل هي من العجز بحيث لا تستطيع أن تدفع عنهم أو عنها الضر ولا تجلب لهم النفع، فهو لا يخاف تلك الآلهة الحقيرة فالذي يملك الضر والنفع هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ثم بين حقيقة الخوف لمن ينبغي أن يكون وأنه يلزم أن يكون في حقهم لا في حقه لأنه أخلص العبادة لله تعالى وحده وهم أشركوا معه غيره فهم الذين يلزمهم الخوف من عذاب الله تعالى لذلك قال : ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم بين سبحانه وتعالى من هم فقال : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ .

فالذين آمنوا بالله تعالى وحده هم الناجون في الدنيا والآخرة .

ثم ختم الله تعالى هذه الآيات بما أنعم به على عبده وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الهداية والحجة وحسن الجدل بالحكمة ما جعله في مكان رفيع لا يستطيع أحد الوصول إلى تشكيكه في خالقه سبحانه وتعالى واستحقاقه إخلاص العبادة له ولذلك قال تعالى :﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1] .

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام قد استدل بفطرته السليمة على أن هذه الكواكب والشمس والقمر لا تصلح أن تكون آلهة لهذا الكون لأنها أفلت وغابت وهذه صفة نقص إذاً فهي مخلوقة مربوبة مفتقرة إلى من يدبرها

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٤٩-١٥٤.

ويسيرها بحكمة ودقة، وهو خالقها سبحانه وتعالى.

وقال الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله تعالى:

ومما يدل على أن الإنسان مفطور على التوحيد والإيمان بوجود الخالق عز وجل (القضايا الأولية) وهي ما تسمى بالبدهيات، أي يدركها الإنسان بداهة بادئ ذي بدء بدون إعمال فكر ولا نظر .

وسميت أولية لأنها تدرك بأوائل الفكر ومن جميع الناس في جميع أقطار الدنيا وبدون معلم، أو علم يكتب وذلك كالآتي :

أولاً: يأتي الطفل إلى الدنيا لا يعلم شيئاً ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[1].

ثانياً: ثم إذا جاع امتص الثدي بفمه ، وارتضع الحليب ، وإذا شبع ترك فإذا جاع بكى دو أن يعلمه أحد شيئاً من ذلك وكذلك جميع الحيوانات بدافع من غريزة فطرية مركوزة في أصل الخِلقة[2].

ثالثاً: ويعلم أن كل شيء موجود لا بد له من زمن يوجد فيه وموجد يوجده ، فلو انتبه من نومه ، أو جاء من مدرسته فوجد شيئاً جديداً في البيت لسأل من جاء به ومتى ؟ لأنه يجزم بأن كل موجود لا بد له من موجد وزمن يوجد فيه لأنه حادث وليس بقديم.

وبهذا ثبت عقلاً وبداهةً عند الطفل إدراك أن كل حادث لا بد له من

---

(١) النحل / ٧٨.

(٢) قلت: وهذا ما يسمى بدلالة هداية المخلوقات إلى ما فيه صلاح جميع شؤونها وهي من أعظم الدلالات الحسية على وجود الخالق عز وجل وتوحيده كما قال الله تعالى في خطاب فرعون لعنه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ سورة طه / ٤٩-٥٠.

محدث وإذا كان هذا عند الطفل فالأكبر منه من باب أولى [1].

ومما يدل على أن الإيمان بوجود الخالق عز وجل وتوحيده متأصل في فطرة الإنسان منذ خلق أنه عندما تلم به الشدائد والكوارث ينسى كل شيء كان يتعلق به من دون الله تعالى ويلجأ إلى الله تعالى وحده ، حتى ولو كان منكراً لوجوده عز وجل في الظاهر فإنه عند الشدائد والمصائب ينطق لسانه معبراً عما في قلبه من الحاجة إلى خالقه سبحانه وتعالى الذي أنكر وجوده في حال الرخاء فأبت عليه فطرته إلا أن تقر بالحقيقة فينطلق لسانه وبدون شعور منه بكلمة (يا الله) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حال الكفار والمشركين به، وأنهم في حال الرخاء يقيمون على الكفر والشرك به فإذا ما ألمت بهم الملمات والشدائد أخلصوا الدعاء له وحده لأنهم يعلمون بفطرهم أنه لا ينجي من الشدائد حقاً إلا الله تعالى، فلذلك يخلصون الدعاء له في هذه الحال فإذا ما نجاهم منها عادوا إلى كفرهم وشركهم ، وقد وردت في هذا المعنى آيات في كتاب الله تعالى ، فمنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2].

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ

(١) عن مذكرة في توحيد الربوبية لفضيلة الشيخ/عطية محمد سالم رحمه الله تعالى.

(٢) يونس/ ٢٢-٢٣.

فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ (١).

وقد ذكر المفسرون عند تفسير آية يونس المتقدمة والتي هي قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ ﴾... الآية ، قصة عكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه وهي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أهدر يوم الفتح دم جماعة منهم عكرمة بن أبي جهل ، هرب من مكة وركب البحر ، فأصابهم عاصف شديد فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا الدعاء لله وحده فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً .

فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الله والإخلاص له ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً ، فجاء فأسلم (٢).

فعكرمة رضي الله تعالى عنه أدرك بفطرته أنه إن لم يكن المنجي عند الشدائد إلا الله تعالى وحده فهو المنجي إذاً في كل وقت والمستحق وحده للعبادة في كل وقت أيضاً دون ما سواه من آلهة باطلة مزعومة لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً في سائر الأحوال والأوقات، ولذلك كانت إجابة دعوات السائلين عموماً والمضطرين منهم خصوصاً من أعظم الدلالات الحسية أيضاً على وجود الخالق عز وجل وتوحيده ، قال الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣).

---

(١) الإسراء / ٦٧-٦٩.
(٢) فتح القدير ٢/٤١٦.
(٣) النمل/ ٦٢.

المبحث الخامس

الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بمعجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

ومن أنواع الدلالات على الخالق عز وجل عند السلف أيضاً الاستدلال على الله تعالى بمعجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وقد تقدم بعض الحديث عن دلالة المعجزات على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده عند ذكر تعريف الآيات وأقسامها ، ومما ورد في ذلك أيضا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال رحمه الله تعالى : وقد جاء القرآن بها[1] في قصة فرعون فإنه كان منكراً للرب ، قال تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2].

---

(١) أي بإثبات وجود الله تعالى وتوحيده بالمعجزة.

(٢) الشعراء / ١٦-٣٣.

فهنا قد عرض عليه موسى عليه الصلاة والسلام الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين ، وفي أن له إلهاً غير فرعون يتخذه[1] .

وقال شيخ الإسلام أيضاً : ولا بد أن يعرف صدق الأنبياء فيما أخبروا عنه وذلك قد عرف بآياته التي أيد بها الأنبياء و دل بها على صدقهم فإنه لم يبعث نبياً إلا بآية تبين صدقه ، إذ تصديقه بما لا يدل على صدقه غير جائز كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2]. أي بالآيات البينات .

و قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[4].

وفي الصحيحين[5] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ((ما من نبي من الأنبياء إلا و قد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذي أوتيته و حياً أوحاه الله تعالى إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[6].

والقرآن الكريم من أكبر المعجزات التي أوتيها سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم و الدالة على الله عز وجل وتوحيده وعلى صدقه صلى الله عليه وآله وسلم و سائر النبيين والمرسلين عليهم السلام.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٧٨/١١.
(٢) الحديد / ٢٥.
(٣) النحل/ ٤٣-٤٤.
(٤) آل عمران/ ١٨٤.
(٥) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في / كتاب فضائل القرآن ، باب / كيف نزل الوحي وأول ما نزل رقم ٤٩٨١، ورواه مسلم رحمه الله تعالى في / كتاب الإيمان باب/ في آيات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان به. مختصر صحيح مسلم ص ١٣.
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨٨/١٤.

وقد تحدى الله عز وجل البشر أن يأتوا بمثله فعجزوا ثم تحداهم بعشر سور فعجزوا، ثم بسورة فعجزوا وهذا التحدي لا يكون إلا من خالق البشر أجمعين لأنه عليم بحالهم وهذا هو معنى إعجاز القرآن الكريم وأنه كلام الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1] فقوله تعالى: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ ثم قوله تعالى في الآية التي بعدها ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ دليل على التحدي المقرون بالنفي الأبدي للإستطاعة. ولن يستطيع أحد كائناً من كان أن ينفي هذا النفي القاطع في الحال والمستقبل إلا خالق الزمان والمكان وخالق الإنس والجان وخالق كل شيء سبحانه وتعالى، العالم بما كان في الماضي وما يكون في مستقبل الزمان ومثله قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

وقد كان كفار قريش من البلاغة والفصاحة بمكان مرموق، ومع هذا فقد اعترف أكابر فصحائهم بأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس من كلام البشر، وأذكر بعضاً من أقوالهم في ذلك كما ذكر في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ

(١) البقرة / ٢٣-٢٤.　(٢) الإسراء/ ٨٨.

ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [١].

أورد ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآيات ما كان من الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه الله تعالى ، قال: وكان من خبره ما ذكره ابن جرير عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام لعنه الله تعالى فأتاه فقال : أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً قال : لم ؟ قال يعطونكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له قال فماذا أقول فيه فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن .

والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره ، فأنزل الله تعالى تلك الآيات من سورة المدثر [٢].

وصدق الله عز وجل إذ يقول في آية أخرى مخبراً عن علم المكذبين بصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام وأن نفوسهم المتكبرة الشريرة لا تخضع للحق، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ

(١) المدثر / ١١-٢٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٤٣ وذكره الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله تعالى في كتابه: الصحيح المسند من أسباب النزول/ سورة المدثر ص ١٦٨ .

مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

وبذلك يتبين لنا من قصة الوليد علم كفار قريش بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدق ما جاء به من كلام ربه عز وجل المعجز وأن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وذلك باعتراف رؤسائهم أمثال الوليد وغيره، مما هو مشهور في كتب التاريخ، وإذا كان هذا الكلام معجزاً وليس من كلام البشر، ولا من كلام الجن، فتعين أن يكون كلام الخالق جل وعلا وهذا دليل واضح وضوح الشمس في وسط النهار على وجود الخالق عز وجل وتوحيده وصدق أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2].

(١) النمل / ١٣-١٤.
(٢) النجم/ ٣-٤.

المبحث السادس

الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالمقاييس العقلية

ومن أنواع الدلالات على الله تعالى وعلى توحيده والتي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى الاستدلال على الله تعالى بالمقاييس العقلية والمقصود بهذه المقاييس كما قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هي الطرق القياسية التي تفيد العلم بتوسط مقدمات ضرورية مثل أن يقال : الوجود المعلوم إما ممكن وإما واجب والممكن لا يوجد إلا بواجب فثبت وجود الواجب على التقديرين.

وكل واحد من وحدانية الربوبية والإلهية وإن كان معلوماً بالفطرة الضرورية البديهية وبالشرعة النبوية الإلهية فهو أيضاً معلوم بالأمثال الضرورية التي هي المقاييس العقلية ، والمتكلمون جعلوا المقاييس العقلية على توحيد الربوبية فقط وهذا التوحيد لم ينازع فيه أحد ، وأما توحيد الألوهية فقد وقع فيه الشرك الغالب حتى دخل فيه من أقر أنه لا خالق إلا الله ولا رب غيره ولم يقر بتوحيد الألوهية فكان من أصناف المشركين ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (١) (٢).

والمقاييس العقلية هي أمور إلزامية تلزم كل ذي عقل القول بها بلا خلاف ، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى مبيناً معنى ذلك : ثم إنه من

(١) يوسف / ١٠٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/٣٧ – ٧٥.

المعلوم بضرورة العقل أنه لابد في الوجود من موجود واجب[1] بنفسه قديم أزلي محدِث للحوادث فإذا كان هذا معلوماً بالفطرة و الضرورة و البراهين اليقينية وكانت أصولهم التى عارضوا بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تناقض هذا دل على فسادها جملة و تفصيلاً و قد ذكرنا في مواضع أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مع كثرة دلائله و براهينه.

و نقول هنا : لا ريب أنا نشهد الحوادث ، كحدوث السحاب ، والمطر ، و الزرع ، و الشجر ، و الشمس ، و حدوث الإنسان ، و غيره من الحيوان ، و حدوث الليل و النهار ، و غير ذلك و معلوم بضرورة العقل أن المحدَث لا بد له من محدِث و أنه يمتنع تسلسل المحدِثات بأن يكون للمحدِثِ محدِث، وللمحدِث محدِث ، إلى غير نهاية و هذا يسمى تسلسل المؤثرات ، وهو ممتنع بإتفاق العقلاء بديهي في العقول و تلك الخواطر من و سوسة الشيطان و لهذا أمر النبي صلى الله عليه و آله وسلم العبد إذا خطر له ذلك أن يستعيذ بالله منه، و ينتهي عنه فقال صلى الله عليه وآله وسلم : يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ فيقول الله فيقول فمن خلق الله فإذا و جد ذلك أحدكم فليستعذ بالله و لينته[2] .

ومعلوم أن المحدَث الواحد لا يحدث إلا بمحدِث فإذا كثرت الحوادث[3] و تسلسلت كان احتياجها إلى المحدِث أولى وكلها محدَثات فكلها

(١) تقدم الحديث عن بعض هذا عند الحديث عن الدليل الأول (الاستدلال على الله تعالى بآياته).
(٢) الحديث/ رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب بدء الخلق / باب صفة إبليس رقم / ٣٢٧٦).
(٣) أي المحدَثات ، وهي المخلوقات عامة .

محتاجة إلى محدِث و ذلك لا يزول إلا بمحدِث لا يحتاج إلى غيره بل هو قديم أزلي بنفسه وهو الله سبحانه و تعالى وقال أيضاً: ولو فرض تسلسل الممكنات المفتقرات فهي بمجموعها ممكنة، والممكن قد علم بالاضطرار أنه يفتقر في وجوده إلى غيره، فلا بد من غني بنفسه واجب الوجود بنفسه وإلا لم يوجد ما هو فقير ممكن بحال، وهذه المعاني تدل على توحيد الربوبية وعلى توحيد الإلهية وهو التوحيد الواجب الكامل الذي جاء به القرآن، فالرب الخالق هو المدعو المطلوب منه، وهو المعبود سبحانه وتعالى فتوحيد الإلهية هو الغاية[1].

ويقال أيضا : الموجود إما أن يكون مخلوقاً وإما أن لا يكون مخلوقاً والمخلوق لا بد له من موجود غير مخلوق فثبت وجود الموجود الذي ليس بمخلوق على التقديرين[2].

وكلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في إثبات وجود الخالق عز وجل وتوحيده عن طريق المقاييس العقلية قد تلخص في أمرين :

الأول : إثبات وجوده سبحانه وتعالى وتوحيده بطريق الإمكان والوجوب وهي كما تقدم من القول إن الوجود إما ممكن وإما واجب[3] فثبت وجود الواجب أي الخالق.

والثاني : إثبات وجوده سبحانه وتعالى وتوحيده عن طريق حاجة الممكن إلى واجب أي المخلوق إلى خالق ، فثبت وجود الواجب أي الخالق

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٦/٢-٣٧.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤٤٤/١٦-٤٤٦.
(٣) هذا التقسيم إلى ممكن وواجب لم يرد عن السلف ، وأول من أحدثه من الفلاسفة – قبحهم الله تعالى– هو ابن سينا كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ويغني عن كلمة الواجب : الخالق والأول ، فالخالق والأول هو المعبر عنه بالواجب ، والمخلوق هو المعبر عنه بالممكن . انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٧٧/٩.

أيضاً ، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : فثبت وجود الواجب على التقديرين ، وهذا هو معنى كلامه رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : (فالعلم بنفس الذوات المفتقرة يوجب العلم بحاجتها إلى بارئها وفقرها إليه . ولهذا سماها الله تعالى آيات ، فهذان مقامان :

أحدهما : أنها مفتقرة إلى المؤثر الموجب أو المحدِث.

الثاني : أن كل مفتقر إلى المؤثر : الموجب أو المحدِث ، فلا بد له منه.

أما المقام الأول : فالعلم بفقرها غير مفتقر إلى دليل على ذلك من إمكان أو حدوث .

وأما الثاني : فإن كونها مفتقرة إليه غير مفتقر إلى أن يستدل عليه بقياس كلي من أن كل ممكن لا بد له من موجب ، وكل محدث فلا بد له من محدِث لأنها آية له يمتنع أن تكون دونه أو أن تكون غير آية له. والقلب بفطرته يعلم ذلك وإن لم يخطر بقلبه وصف الإمكان والحدوث .

والنكتة أن وصف الإمكان والحدوث لا يجب أن يعتبره القلب لا في فقر ذواتها ولا في أنها آية لباريها وإن كانا وصفين ثابتين ، وهما أيضاً دليل صحيح لكن أعيان الممكنات آية لعين خالقها الذي ليس كمثله شيء بحيث لا يمكن أن يقع شركة فيه [1].

فدل كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن الخالق وجوده أزلي أبدي لا يحتاج معه إلى موجد وهذا معنى أنه واجب الوجود بنفسه وأما المخلوق

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/١٠.

فلو قيل لماذا يحتاج إلى خالق؟ فالجواب لأنه ممكن الوجود ، أي يمكن عليه الوجود والعدم فيحتاج إلى من يؤثر فيه ويرجح وجوده على عدمه ليخرجه من العدم إلى الوجود والذي بيده ذلك هو الخالق سبحانه وتعالى وحده لا شريك المستغني بذاته عما سواه الكبير المتعال القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، ووجه ذلك أن المخلوق ولو كان ذرة أو هباءة أو أصغر لا يمكن بل يستحيل أن يخرج من العدم إلى الوجود إلا بقدرة عظيمة تؤثر فيه وهي قدرة الخالق سبحانه وتعالى المشاهد آثارها الدالة عليه وعلى توحيده.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ثم إذا عرف أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادراً بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة وقدرة، والخلق أعظم الأفعال، فإنه لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة وليس لها نظير من قدر المخلوقين[1].

وقال شيخ الإسلام أيضاً: والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فهو سبحانه لم يخلق شيئاً يقدر العباد أن يصنعوا مثل ما خلق وما يصنعونه فهو لم يخلق لهم مثله[2].

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته ولهذا قال بعده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ لأن

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٦/٣٥٣.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩/٣٦٨.

العجز سببه إما الجهل بأسباب الإيجاد وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض[1] ولذلك تحداهم الله سبحانه وتعالى أن يخلقوا ذبابة أو ذرة أو أي شيء، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3] وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[4]

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[5].

فدلت هذه الأدلة على أن القادر على الخلق هو الله تعالى وحده لا شريك له فهو الخالق لكل شيء وما عداه فمخلوق مربوب له عز وجل وبالتالي فإن المستحق للعبادة وحده هو الله تعالى الخالق المنشئ من العدم، وأما الذي لا يستطيع أن يخلق فإنه مخلوق مربوب لا يستحق أن يصرف له أي نوع من أنواع العبادة لأنه لا شيء له من الربوبية وبالتالي لا شيء له من الألوهية، ولذلك أنكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة على المشركين الذين اتخذوا وعبدوا وأشركوا معه آلهة أخرى لا تستطيع أن تخلق شيئاً

(١) القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى للشيخ/ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى ص ٢٤.
(٢) الحج/ ٧٣.
(٣) النحل/ ١٧.
(٤) النحل/ ٢٠.
(٥) فاطر/ ٣.

كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[1].

ومن الأدلة على هذا التحدي أيضاً ما ورد في الحديث القدسي الوارد في وعيد المصورين، حيث روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»[2].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وقوله سبحانه وتعالى: «يخلق كخلقي» نسب الخلق إليهم على سبيل الاستهزاء أو التشبيه في الصورة فقط وقوله تعالى: «فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة» أمر بمعنى التعجيز وهو على سبيل الترقي في الحقارة أو التنزل في الإلزام، والمراد بالذرة إن كان النملة فهو من تعذيبهم وتعجيزهم بخلق الحيوان تارة وبخلق الجماد أخرى وان كان بمعنى الهباء فهو بخلق ما ليس له جرم محسوس تارة وبماله جرم أخرى[3]. فهذه أدلة على أن المخلوق أياً كان نوعه يستحيل أن يخرج من العدم إلى الوجود إلا بخالق متصف بجميع صفات الكمال والجلال من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والحكمة وسائر صفات الكمال والجلال، وهذا الخالق هو الله سبحانه وتعالى الواحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه

(١) الفرقان/ ٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ رقم: ٧٥٥٩.

(٣) فتح الباري ١٣/٥٣٤.

وصفاته، كما دلت على ذلك الأدلة النقلية من الكتاب والسنة وكذلك الأدلة العقلية، والله تعالى أعلم.

ودلَّ كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى السابق أيضاً على افتقار جميع المخلوقات إلى خالقها وفي ذلك رد على من زعم من الملاحدة قدم الكون أو قدم السماوات والأرض أو قدم المادة لأن النقص المشاهد والمعلوم في جميع المخلوقات يدل على خلقها فالناقص لا يصلح أن يكون خالقاً وأولاً وأزلياً فالأزلية والأولية والخلق صفات عظيمة لا تكون أبداً ولن تكون إلا للكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وهو الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن النقص في جميع المخلوقات لا يؤهلها لذلك فدل على أن لها لحظة خرجت فيها إلى الوجود بفعل خالق لها وهو الله عز وجل فهي مفتقرة ومحتاجة إليه عز وجل وهو الصمد الذي تحتاج إليه جميع الخلائق وتفتقر إليه، وافتقارها وحاجتها دليل عليه سبحانه وتعالى ولأن صفة الأولية والأزلية لا تنطبق عليها -كما تقدم- بل على خالقها سبحانه وتعالى وأما هي فناقصة وكل ناقص ينفر من نقصه ويسعى إلى كماله، وعلى هذا فجميع الموجودات متوجهة إلى الخالق عز وجل توجهاً غريزياً لسد نقصها وافتقارها وحاجتها فهي لا تستطيع أن تكمل ذلك النقص ولا تسد تلك الحاجة والافتقار بأنفسها دون الله تعالى لأنها مخلوقة ومجبولة عليه فإذا لم يسده الله تعالى فإنه لا يستطيع أحد ذلك كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1] وغيرها من الآيات.

---

(١) فاطر/ ٣.

ومما يوضح ذلك :

أن يقال : إن هذه الموجودات المشاهدات من سماء وأفلاك ونجوم وقمر وشمس وأرض واسعة وبحار وأشجار وإنسان وحيوانات وطيور وحشرات إلى غير ذلك مما يرى أولا يرى إلا بالآلات كالجراثيم وغيرها مما هو مشاهد حدوثه ويتجدد في كل فترة ، أو قد أحدث من سابق كخلق السماء والأرض لا يخلو من ثلاثة أمور :

الأمر الأول : إما أن تكون قد وجدت بدون موجد ، أي أن العدم خلقها وأوجدها وأنشأها.

الأمر الثاني : أنها أوجدت نفسها ، أي أن المخلوق خلق نفسه .

الأمر الثالث : أنها أوجدها موجد ، أي أن الله تعالى خلقها وخلق العالم بما فيه .

فالأمر الأول باطل لأن المعدوم أو العدم لا يوجد شيئاً والأمر الثاني باطل أيضاً لأن المخلوق مفتقر إلى غيره وإلى من يؤثر فيه ليخرجه من العدم إلى الوجود فهو لا يستطيع خلق نفسه وكيف يخلقها وهو عدم غير موجود؟؟!

ويقال أيضاً: إننا نتساءل عما إذا كان الكون موجوداً عندما أوجد نفسه فإن كان موجوداً فلا حاجة عندها لأن يوجد نفسه وإن كان غير موجود فكيف يوجد نفسه وهو غير موجود، وهذا ظاهر البطلان لأنه متناقض إذ كيف يكون الشيء نفسه فاعلاً ومفعولاً ومؤثراً وأثراً فهذا باطلٌ ومحال شرعاً وعقلاً .

والأمر الثالث : هو الحق وأنه لا بد من خالق لجميع هذه المخلوقات وهو الله العظيم سبحانه وتعالى الحي الذي لا يموت المتصف بجميع صفات الكمال والجلال الذي وجوده أزلي بذاته المستغني عما سواه لا إله غيره ولا رب سواه.

فهذه السماء من الذي رفعها ؟ وهذه الأرض من الذي بسطها وثبتها بالجبال ؟ وهذه البحار من الذي أوجدها وزينها ؟ وهذه الشمس والقمر والنجوم من الذي نظم سيرها ومنازلها ؟ الإنسان من الذي أوجده على هذا الكمال العقلي والجسمي ؟ إنه لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يدعي أن له شيئاً من ذلك بل كله لله تعالى وحده لا شريك له قاهر الأرض والسموات وما فيهما وما بينهما والذي يقول في كتابه الكريم: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[1] وقال الله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[2].

وقد دلّ هذا التقسيم إلى واجب وممكن أو خالق ومخلوق وهو ما يسمى بالمقاييس العقلية على أن لهذه المخلوقات خالقاً وموجداً أوجدها من العدم وأنه واجب الوجود أي أزلي الوجود فلا يحتاج إلى موجد يوجده وإلا لكان هو أيضاً من ضمن المخلوقات التي تحتاج إلى موجد إلى ما لا نهاية وهذا باطل بالإجماع وهذا التقسيم دلّ عليه قول الله تعالى في كتابه الكريم في رده على الملحدين والكافرين قال الله تعالى : ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[3].

فدلت الآيتان على أن المخلوق لا بد له من خالق ودل قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾[4] على أن الخالق ليس له خالق بل هو

(١) الزمر / ٦٢-٦٣.
(٢) الذاريات /٤٩ - ٥١ .
(٣) الطور /٣٥ -٣٦ .
(٤) الحديد / ٣.

أزلي أبدي وإلا تسلسلت المخلوقات وهذا باطل شرعاً وعقلاً (فالأول) أي الذي لم يسبق بعدم وليس قبله شيء وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد تقدم بعض الحديث عن ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[1] فالعقل السليم استدل بهذه الآية وبالمشاهدات الموجودة والمخلوقات المتنوعة وتوصل إلى إثبات موجد لها واجب الوجود لذاته مستغن عن موجد وهذا هو الله سبحانه وتعالى الواحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وقد ألزم هذا الطريق في إثبات واجب الوجود كل ملحد من دهري وطبيعي وشيوعي وغيرهم من الذين لم يؤمنوا بالنص ولم يسلموا له ومن ادعى خلاف ذلك فهو فاقد لعقله بإجماع البشر بلا خلاف وفاقد العقل لا اعتبار لقوله كما هو معلوم عند الجميع أيضاً . وبهذا يتبين أن من أنكر وجود الخالق عز وجل وتوحيده ورد الأدلة الشرعية والعقلية فإن إنكاره هذا ورده لهذه الأدلة يدل على وجود الخالق وتوحيده وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا العقل وجعله دليلاً عليه فإذا تعطل هذا العقل دل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي عطله بذنب صاحبه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟

(١) عند الحديث عن بيان منهج السلف في الإستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية وذلك من قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

(٢) الكهف / ٥٧.

أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1] ومثل الذي لا يؤمن بوجود الله تعالى وتوحيده بعد هذه الأدلة الشرعية والعقلية كمثل رجل دخل كهفاً في جبل فرأى فيه عظم إنسان عليه آثار لحم قد قطع ومزق فاعتقد أن سبعاً قد فعل ذلك ثم إنه وضع رأسه في ذلك الكهف واستسلم لنوم عميق !! بل إن حال الذي لا يؤمن بالله تعالى مع هذه الأدلة أعظم من حال صاحب هذا الكهف سفهاً وغروراً!!.

فهؤلاء حالهم مع هذه الأدلة ونورها الساطع في الدلالة على الخالق عز وجل وتوحيده كحال الخفاش إذا أبصر نور الشمس في النهار وصدق من قال في وصف بصرهم وبصائرهم:

بصائر أغشاها النهار بضوئه ... ولاءمها قطع من الليل مظلم

ولهذا لما رد الكفار الأدلة السمعية والعقلية كانوا من أهل النار كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2].

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[3] وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ

(1) الأنفال/ ٢٤.
(2) الملك / ١٠.
(3) الأعراف / ١٧٩.
(4) يونس/ ٩٦-٩٧.

أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[1] نسأل الله تعالى السلامة والثبات على الإسلام إلى أن نلقاه على ذلك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إذا تبين هذا فقد علم وجود الخالق جل وعلا نقلاً وعقلاً عند جميع البشر أجمعين المنكر منهم وغير المنكر ولزم بذلك توحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وتصديق جميع ما جاءت به رسله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام من أمور غيبية وغيرها من أحكام شرعية[2].

ومع قطعية هذه الدلالات المتقدمة وغيرها ودلالتها على الخالق عز وجل وتوحيده ووضوحها إلا أن الشيطان لعنه الله تعالى يوسوس للمسلم - حرصاً على إضلاله والعياذ بالله تعالى- بما يخالف الأدلة النقلية الصحيحة والأدلة العقلية السليمة فيوسوس له من جهة الخالق الواجب الوجود بنفسه والذي لا يحتاج إلى خالق وموجد فيوسوس بأنه يحتاج إلى خالق وقد يوسوس له أيضاً من جهة المخلوق الممكن الوجود المحتاج إلى خالق فيوسوس بعدم حاجته إلى خالق فيجب على المسلم عند ذلك أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم وأن ينته عن هذه الوسوسة وعن الاسترسال معها لأنها باطلة شرعاً وعقلاً كما تقدم وعليه أن يفعل كما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله

(١) آل عمران/ ٨.

(٢) وسأذكر ذلك في الباب الأخير عند الحديث عن أقسام التوحيد وأدلة الوحدانية والعلاقة بين أنواع التوحيد بإذن الله تعالى ومشيئته .

عليه وآله وسلم: ((يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله تعالى ولينتهِ))[1].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)) أي عن الاسترسال معه في ذلك بل يلجأ إلى الله تعالى في دفعه ويعلم أنه يريد إفساد دينه وعقله بهذه الوسوسة فينبغي أن يجتهد في دفعها بالاشتغال بغيرها.

قال الخطابي: وجه هذا الحديث أن الشيطان إذا وسوس بذلك فاستعاذ الشخص بالله تعالى منه وكف عن مطاولته في ذلك اندفع . قال وهذا بخلاف ما لو تعرض له أحد من البشر بذلك فإنه يمكن قطعه بالحجة والبرهان وأما الشيطان فليس لوسوسته انتهاء بل كلما ألزم حجة زاغ إلى غيرها إلى أن يفضي بالمرء إلى الحيرة نعوذ بالله تعالى من ذلك.

على أن قول الشيطان من خلق ربك كلام متهافت ينقض آخره أوله لأن الخالق يستحيل أن يكون مخلوقاً ثم لو كان السؤال متجهًا لاستلزم التسلسل وهو محال. وقد أثبت العقل أن المحدَثات مفتقرة إلى محدِث فلو كان هو مفتقراً إلى محدِث لكان من المحدَثات .

وقال المازري: الخواطر على قسمين فالتي لا تستقر ولا يجلبها شبهة هي التي تندفع بالإعراض عنها. وعلى هذا ينزل هذا الحديث وعلى مثلها يطلق اسم وسوسة، وأما الخواطر المستقرة الناشئة عن الشبهة فهي التي

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق / باب صفة إبليس وجنوده رقم ٣٢٧٦.

لا تندفع إلا بالنظر والاستدلال.

وقال الطيبي رحمه الله تعالى: إنما أمر بالاستعاذة والاشتغال بأمر آخر ولم يأمر بالتأمل والاحتجاج لأن العلم باستغناء الله جل وعلا عن الموجد أمر ضروري لا يقبل المناظرة ولأن الاسترسال في الفكر في ذلك لا يزيد المرء إلا حيرة ومن هذا حاله فلا علاج له إلا الملجأ إلى الله تعالى والاعتصام به.

وقال ابن التين رحمه الله: لو جاز لمخترع الشيء أن يكون له مخترع لتسلسل فلا بد من الانتهاء إلى موجد قديم، والقديم من لا يتقدمه شيء ولا يصح عدمه وهو فاعل لا مفعول، وهو الله تبارك وتعالى[1].

وتبين بهذا أن الوساوس الشيطانية التي يبغضها القلب ويدفعها ولا تستقر فيه إنما تندفع بالإعراض عنها والاستعاذة بالله تعالى من شرها وهذه الوساوس يطلق عليها اسم (الوسوسة) لأنها ليست ناشئة عن شبهة أو جهل بل مجرد وسوسة فقط والذي يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لما شكا إليه بعض أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ما يجدونه في أنفسهم مما يكرهونه (الله أكبر، الله اكبر، الله اكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)[2].

وتقدم قول المازري رحمه الله تعالى في ذلك وأن هذه الخواطر التي لا تستقر ولا تثبت في القلب ولا تجلبها شبهة يطلق عليها اسم الوسوسة

(١) فتح الباري ٦/٣٤١ ، ١٣/٢٧٣.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب/ باب رد الوسوسة (١١٨) وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح، انظر صحيح سنن أبي داود للألباني ٣/٩٦٢ رقم ٤٢٦٤.

وسيأتي أيضًا بعض أقوال أهل العلم في طرق التخلص من هذه الوسوسة.

وقد يطلق على هذا النوع من الوساوس أيضًا اسم (الشك) ولكن لا يراد به الشك المصطلح عليه وهو التوقف بين الأمرين وإنما يراد به الخواطر التي لا تثبت في القلب ولا تستقر فيه ولا تزلزل الإيمان الثابت فيه بل يكرهها القلب ويبغضها ويدفعها كما تقدم والذي يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: واختلف السلف في المراد (بالشك) هنا فحمله بعضهم على ظاهره ومنهم الطبري وجعل سببه حصول وسوسة الشيطان، لكنها لم تستقر ولا زلزلت الإيمان الثابت واستند إلى ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أرجى آية في القرآن هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية[2].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هذا لما يعرض في الصدور ويوسوس به الشيطان، فرضي الله تعالى من إبراهيم عليه السلام بأن قال (بلى) قال ابن عطية: ومحمل قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عندي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله عز وجل: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) الآية وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ رقم الحديث ٣٣٧٢.

(٢) البقرة/ ٢٦٠.

(أنها أرجى آية) لما فيها من الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا أو لأن الإيمان يكفي فيه الإجمال ولا يحتاج إلى تنقير وبحث.

قال ومحمل قول عطاء: دخل قلب إبراهيم عليه السلام بعض ما يدخل قلوب الناس أي من طلب المعاينة، قال: وأما الحديث فمبني على نفي الشك والمراد بالشك فيه الخواطر التي لا تثبت وأما الشك المصطلح عليه وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر فهو منفي عن الخليل عليه السلام قطعاً لأنه يبعد وقوعه ممن رسخ الإيمان في قلبه فكيف بمن بلغ رتبة النبوة، وأيضاً فإن السؤال لما وقع بكيف دل على حال شيء موجود مقرر عند السائل والمسؤول فهو سؤال عن هيئة الإحياء لا عن نفس الإحياء فإنه ثابت مقرر.

قال عياض: لم يشك إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن الله تعالى يحي الموتى، وإنما أراد الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين[1].

ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما رواه أبو داود في سننه في باب رد الوسوسة[2]، عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله ما أتكلم به! قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال: وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله عز وجل: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ

(١) فتح الباري ٦/ ٤١١- ٤١٣.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب/ باب رد الوسوسة وقال الألباني رحمه الله تعالى إسناده حسن، انظر صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٦٢ رقم ٤٢٦٢.

يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[1] قال: فإذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2]، قلت: والمراد بهذا الشك الوارد في هذا الأثر هو الخواطر التي لا تستقر في القلب بل يدفعها القلب ويكرهها وليس الشك المصطلح عليه وهو التوقف بين الأمرين وبهذا يتبين أن هذه الوساوس التي لا تستقر في القلب وليست ناشئة عن شبهة أو جهل وإنما مجرد وسوسة فقط فهذه يطلق عليها إسم (الوسوسة) أو (الشك) ولكن ليس الشك المصطلح عليه والذي هو بمعنى التوقف بين الأمرين كما تقدم بيانه والله تعالى أعلم.

وأما الشك المصطلح عليه والذي هو بمعنى التوقف بين الأمرين فهذا هو الشك المحظور، فإن وقع هذا الشك في أمر من أمور الشريعة الإسلامية سواء كان في الاعتقاد أو في غيره مما يكفَّر به من أنكره أو شك فيه بعد بلوغه الدليل فإنه يكفر بذلك كفراً أكبر مخرجاً عن دائرة الإسلام والعياذ بالله تعالى، فإن مات على ذلك بدون توبه فهو من أهل النار الخالدين فيها والعياذ بالله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ومن شك في كفر أهل وحدة الوجود من الصوفية بعد معرفة أقوالهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر: وهذا كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين)[3].

فتبين من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن من عرف أقوال الكفرة

---

(١) يونس/ ٩٤. (٢) الحديد/ ٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/٣٦٨.

وعرف دين الإسلام وتعاليمه وأركانه وتبين له أن هذه الأقوال مناقضة لدين الإسلام مضادة له ثم شك في كفرهم بعد ذلك فإنه يكفر بذلك لمعرفته الدليل وبلوغه إياه ومعرفته كفرهم وهذا كمن يشك في أمر دلت الأدلة أنه من الكفر وقد مثَّله شيخ الإسلام بمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين فهؤلاء قد ظهر كفرهم وشركهم وقامت الأدلة على كفرهم وشركهم شرعاً وعقلاً فمن شك بعد ذلك في كفرهم فهو كافر خارج عن دائرة الإسلام والمسلمين ومثل ذلك من شك في أي أمر من أمور الشريعة الاعتقادية أو غيرها مما يكفَّر به من أنكره أو شك فيه بعد بلوغه الدليل كما تقدم والله تعالى أعلم.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: ومن نواقض الإسلام: عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم أو تصحيح مذهبهم فإنه يكفر بذلك[1].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: وأما كفر الشك فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها: فإنه لا يبقى معه شك، لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار[2].

فاتضح من كلام ابن القيم السابق أن هذا الشك كفر أكبر مخرج عن دائرة الإسلام ولكنه لا يصدر إلا عن معاند معرض عن الآيات الشرعية

(١) مجموعة التوحيد ص ٣٧ والجامع الفريد ص ٢٧٧.
(٢) مدارج السالكين ١/٣٣٨.

والكونية والعقلية الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد بلوغها إياه إذ لا يكون الإعراض والمعاندة إلا بعد بلوغ الدليل.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى: النوع الثالث من أنواع الكفر الأكبر المخرج من الملة: كفر الشك وهو كفر الظن والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[1][2].

وأما إن وقع هذا الكفر وهذا الشك قبل بلوغه الدليل وقبل سماعه وعلمه به إن كان في أمر مما يعذر بالجهل به ووقع ممن يعذر بالجهل فإنه لا يكفر بذلك حتى تقوم عليه الحجة وتزول عنه الشبهة وتتوفر فيه شروط التكفير وتنتفي موانعه وعليه أن يجتهد في طلب العلم الشرعي وهو علم الكتاب والسنة وذلك بسؤال أهل العلم ومجالستهم والأخذ عنهم فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل في هذا العلم الخير والشفاء من أمراض القلوب والأبدان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4] فالقرآن الكريم قد جعل الله سبحانه وتعالى فيه شفاء

(١) الكهف/ ٣٥-٣٨.
(٢) الجامع الفريد ص ٣٤٢.
(٣) الإسراء/ ٨٢.
(٤) يونس/ ٥٧-٥٨.

أمراض القلوب من أمراض الشبهات والشهوات وكذلك أمراض الأبدان كما تقدم في الآيات السابقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً هذا المعنى: وكنت أبين لهم أنما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضاً حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين لأن هذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة (الوعيد) فنصوص القرآن في الوعيد مطلقة وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا فإن هذه مطلقة عامة[1].

فتبين من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن أهل السنة والجماعة يكفِّرون تكفيراً مطلقاً كل من عمل عملاً مكفِّراً مخرجاً عن دائرة الإسلام كقولهم: (من استحل الخمر والزنا فهو كافر)، وهذا هو التكفير المطلق، أما التكفير المعين فإنهم لا يكفرون الشخص المعين باسمه حتى تتوفر فيه شروط التكفير وتنتفي موانعه وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه، فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئاً، وكنت

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٢٣٠-٢٣١.

دائماً أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: (إذا أنا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في اليم، فوالله لإن قدر الله تعالى عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال الله تعالى له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك، فغفر له بذلك). فهذا رجل شك في قدرة الله تعالى وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله تعالى أن يعاقبه فغفر له بذلك.

والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالمغفرة من مثل هذا[1].

فيستفاد من قول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى (فهذا رجل شك...) الخ، أن الشك والكفر المخرج عن دائرة الإسلام إن وقع في أمر مما يعذر بالجهل به ومن شخص ممن يعذر بالجهل فإنه يقال: هو كفر ولكن صاحبه لا يكفر بذلك حتى تقوم عليه الحجة وتزول عنه الشبهة وتتوفر فيه شروط التكفير وتنتفي موانعه كما تقدم والله تعالى أعلم.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى مبيناً أنواع الأمراض: المرض نوعان: مرض القلوب ومرض الأبدان وهما مذكوران في القرآن.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك ومرض شهوة وغي وكلاهما في القرآن قال الله تعالى في مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٢٣٠-٢٣١.

ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[1] وقال تعالى في مرض الشهوة: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[2] فهذا مرض شهوة الزنى والله أعلم[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ومرض القلب ألمٌ يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك فإن ذلك يؤلم القلب قال الله تعالى: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ ﴾ فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم وكذلك (الشك والجهل) يؤلم القلب، والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

والقرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي، بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال

(١) البقرة/ ١٠.
(٢) الأحزاب/ ٣٢.
(٣) زاد المعاد ٣/٦٣.

الطبيعي ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقويه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج قال الله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[1].

قال بعض السلف: إن للحسنة لنوراً في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه، وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب وسواداً في الوجه ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق)[2].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[3] قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه وتبين ضده وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية والآيات الأفقية والنفسية كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية، فمن تربيته لكم

---

(١) فصلت/ ٤٦.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ١٠/٩٤-٩٩.
(٣) النساء/ ١٧٤.

التي يحمد عيها ويشكر أن أوصل إليكم البينات ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم والوصول إلى جنات النعيم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وهو هذا القرآن العظيم الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، أي فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة وليس ذلك لكل أحد وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته العاملين بها، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً إذ به تقوم عليهم الحجة.

فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب من الشبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيئ والقصود الرديئة، فإنه مشتمل على العلم واليقين الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي تزول به كل شهوة تخالف أمر الله تعالى، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمة فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ص ١٨٠.

فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية والثواب العاجل والآجل[1].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي زاجراً عن الفواحش ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله تعالى من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة[2].

فهذه أدلة واضحة لمن شاء الله تعالى له الهداية من ظلمات الشك والشرك والشهوات والشبهات وهي أدلة الكتاب والسنة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وجعل فيها الخير والشفاء والسعادة

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ص ٤١٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٢٠.

في الدنيا والآخرة وكذلك الأدلة العقلية والكونية المبينة والموضحة والدالة على صدق الله تعالى وصدق نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وتقدم قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان أن الشك سرعان ما يضمحل ويذهب بل وينعدم إذا واجه نور الأدلة الشرعية والعقلية الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا كما في قوله السابق (وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلا يسمعها ولا يلتفت إليها وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك، لأنها مسلزمه للصدق ولا سيما مجموعها فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار)[1].

وقال الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى: وقال عبد الله بن وهب صاحب مالك: وكان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم، فولع مني الشيطان في ذكر عيسى بن مريم عليه السلام كيف خلقه الله عز وجل ونحو هذا، فشكوت ذلك إلى شيخ فقال لي ابن وهب: قلت نعم، قال: اطلب العلم، فكان سبب طلبي للعلم[2].

فدلت هذه الأدلة على أن من أعظم أسباب الشفاء من أمراض القلوب من الشبهات والشهوات هو النظر في الأدلة والآيات الشرعية والكونية والتأمل فيها وما دلت عليه من دلالات واضحه على الخالق عز وجل وتوحيده وصدق أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام فهي أدلة

(١) مدارج السالكين ١/٣٣٨.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/٣٢.

تزيد في إيمان المؤمن وتزيل أمراض الشبهات والشكوك والشهوات من أصحاب القلوب المريضة والسقيمة ولذلك أرشد الله سبحانه وتعالى عباده إلى ذلك النظر والتدبر والتأمل في تلك الآيات.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى في الحث على التأمل في الآيات الكونية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[5]

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[6].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي فيه خير كثير وعلم غزير فيه كل هدى من ضلالة وشفاء من داء ونور يستضاء به في الظلمات ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي هذه الحكمة

(١) سورة ص/ ٢٩.
(٢) محمد/ ٢٤.
(٣) آل عمران/ ١٩٠-١٩١.
(٤) ق/ ٦-٨.
(٥) الذاريات/ ٢٠-٢١.
(٦) الغاشية/ ١٧-٢٠.

من إنزاله ليتدبر الناس آياته فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه تدرك بركته وخيره وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن وأنه من أفضل الأعمال وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي أولوا العقول الصحيحة يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب[١].

فهذه الأدلة تدل على أن الله تعالى أرشد المؤمنين للنظر والتأمل في هذه الآيات ليزدادوا إيماناً، والكافرين والشاكين ليتعظوا ويرجعوا إلى الدين الحق دين الإسلام والتوحيد والله تعالى أعلم.

وسئل الشيخ عبد الله بن جبرين: كيف يذهب المسلم عن نفسه وساوس الشيطان التي قد تضر كثيراً بالدين؟

فقال:الوساوس تارة تكون في الطهارة أو في الصلاة وهي من الشيطان ليفسد عليه عقله فعليه أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان ويبني على الأصل وهو الطهارة ويبعد عما يلقيه الشيطان من أنه لم ينطق بكذا أولم يتوضأ ...الخ.

وتارة تكون الوساوس في العقيدة والإيمان بالغيب وصفات الرب والبعث والرسالة وهذه أشد خطراً والعلاج أن يزيلها من نفسه ويتحدث بما يثبت إيمانه وينظر في الآيات والدلالات ويتفكر في المخلوقات ويؤمن بالغيب إجمالاً وتفصيلاً كما بلغه ويبعد عن التفكر في كيفية الصفات أو الذات الربانية أو سائر أمور الغيب حتى يثبت إيمانه والله الموفق[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ص ٦٥٨.
(٢) فتاوى إسلامية ٣/٣٥٩.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ومن المعلوم بالفطرة البديهية أن المحدَث بعد أن لم يكن لا يتصور أن يحدث عن غير محدِث ولا أن يحدث نفسه ، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ فبيَّن سبحانه وتعالى باستفهام الإنكار الذي يتضمن أن الأمر المنكر من العلوم المستقرة الملازمة للمخاطب التي ينكر على من جحدها لأنه سفسط بجحد العلوم البديهية الفطرية الضرورية فإنه من المعلوم أن ما حدث لا يكون من غير محدث أحدثه ولا يكون هو حدث بنفسه ، فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ وهذا يستلزم الجمع بين النقيضين وغيره من المحالات، وإن كانت إحالته في العقل من أظهر العلوم الضروريات فإن كونه فاعلاً لنفسه يقتضي أن يكون وجوده قبلها وكونها مفعولة يقتضي أن يكون وجوده بعد نفسه فيجب أن تكون نفسه موجودة معدومة في آنٍ واحد.

وإن فرض أن قائلاً يقول أو يخطر له أن الكون حدث بنفسهِ بلا محدِث بل عن العدم المحض فمعلوم أن هذا مع كونه معلوم الفساد بالضرورة هو من أبعد الأشياء عن الأمور الموجودة المحسوسة وعن القياس العقلي وهذا لانعلم قائلا به لكن هو مما يخطر بالقلب ويوسوس به الشيطان[1].

فدل كلام شيخ الاسلام رحمه الله تعالى على أن الشيطان قد يوسوس أيضاً بعدم حاجة المخلوق إلى خالق والعياذ بالله تعالى.

وتقدم الحديث عن وسوسة الشيطان الواردة في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم السابق (يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟) ...الحديث وأنه يدل على أن الشيطان يوسوس بحاجة الخالق إلى خالق

(١) بيان تلبيس الجهمية ١/١٦٤-١٦٦.

والعياذ بالله تعالى، فتبين أن الشيطان لعنه الله تعالى يوسوس من الجهتين: من جهة عدم حاجة الخالق إلى خالق فيوسوس بحاجته لذلك كما في الحديث السابق، ويوسوس من جهة حاجة المخلوق إلى خالق فيوسوس بعدم حاجته إلى ذلك كما في قول شيخ الإسلام المتقدم، بل إن الشيطان لعنه الله تعالى ليوسوس للمسلم في جميع أمور دينه كفانا الله تعالى والمسلمين وذرياتنا شر هذا الشيطان اللعين وذريته وثبتنا على الإسلام والسنة حتى نلقاه على ذلك، وفي الأدلة والآثار المتقدمة والآتية ما يرد على هذه الوساوس الشيطانية بكل وضوح وجلاء، والحمد لله تعالى أولاً وآخراً.

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى في الرد على هذه الوساوس: قال المهلب:

لا بد من إيجاب خالق لا خالق له لأن المتفكر العاقل يجد للمخلوقات كلها خالقًا لأثر الصنعة فيها وافتقارها إليه وما يعتريها من نقص والخالق بخلاف ذلك فوجب أن يكون لكل منها خالق لا خالق له فهذا هو صريح الإيمان لا البحث الذي هو من كيد الشيطان المؤدي إلى الحيرة.

وقال ابن بطال: فإن قال الموسوس فما المانع أن يخلق الخالق نفسه؟ قيل له: هذا ينقض بعضه بعضاً، لأنك أثبت خالقاً وأوجبت وجوده ثم قلت يخلق نفسه فأوجبت عدمه، والجميع بين كونه موجودًا معدومًا فاسد لتناقضه، لأن الفاعل يتقدم وجوده على وجود فعله فيستحيل كون نفسه فعلاً له. قال: وهذا واضح في حل هذه الشبهة وهو يفضي إلى صريح الإيمان. انتهى ملخصاً موضحاً[1].

وبهذا يعلم أن من الأمور البديهية التي يثبتها الشرع والعقل والتي لا يشك فيها عاقل بل يقطع بها جميع العقلاء :

أولاً : العلم بحاجة المخلوق إلى خالق يخرجه من العدم ويرجح كفة

(١) فتح الباري ١٣/٢٧٣.

وجوده على كفة عدمه كما ترجح إحدى كفتي الميزان على الأخرى فكما أنه يستحيل أن ترجح إحدى كفتي الميزان على الأخرى بدون مرجح فكذلك يستحيل أن يوجد المخلوق بدون خالق أو أن يخلق نفسه كما تقدم .

ثانياً : العلم بأن الخالق لا يحتاج إلى خالق لأن ذلك يستلزم التسلسل وأن يكون الخالق مخلوقاً وهو باطل ومتناقض، بل وجوده أزلي أبدي واجب بنفسه لا يحتاج إلى غيره ، وأن خلاف ذلك إنما هو وسوسة الشيطان لعنه الله تعالى كما تقدم وعلى المسلم أن يفعل ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليرد كيد هذا العدو ، وأذكر في رد هذه الوسوسة وما يشرع للمسلم فعله عندها بعض الأحاديث والتي تقدم بعضها ، فمن ذلك .

١- ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ((يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول : من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله تعالى ولينته))[١] .

٢- وروى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله))[٢] .

٣- وروى أبو داود رحمه الله تعالى في سننه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((لا يزال

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق / باب صفة إبليس وجنوده رقم (٣٢٧٦). ورواه مسلم في كتاب الإيمان / باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان / باب بيان الوسوسة في الإيمان.

الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله تعالى الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله)).

وفي رواية أخرى عند أبي داود أيضاً قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((فإذا قالوا ذلك فقولوا: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ من الشيطان[2].

وروى الإمام أحمد رحمه الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول الله ، فيقول : فمن خلق الله؟! فإذا وجد ذلك أحدكم فليقرأ آمنت بالله ورسله فإن ذلك يذهب عنه))[3] .

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى: وقد دلت هذه الأحاديث الصحيحة على أنه يجب على من وسوس إليه الشيطان بقوله: من خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء في الأحاديث المذكورة وخلاصتها أن يقول : آمنت بالله ورسله ، ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، ثم يتفل عن يساره ثلاثاً ، ويستعيذ بالله تعالى من الشيطان ثم ينتهي عن الإنسياق مع الوسوسة .

(١) سورة الإخلاص ١-٤.

(٢) رواه أبو داود في سننه في كتاب السنة / باب في الجهمية ، انظر صحيح سنن أبي داود للألباني رحمه الله تعالى ٨٩٤/٣ رقم ٣٩٥١ - ٣٩٥٢.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٥٧/٦ .وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، المجلد الأول رقم الحديث: ١١٦.

وأعتقد أن من فعل ذلك طاعة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم مخلصاً في ذلك أنه لا بد أن تذهب الوسوسة عنه ويندحر شيطانه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم ((فإن ذلك يذهب عنه)).

وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية فإن المجادلة قلما تنفع في مثلها ، ومن المؤسف أن أكثر الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم ، فتنبهوا أيها المسلمون وتعرفوا إلى سنة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم واعملوا بها فإنَّ فيها شفاءكم وعزكم)[1].

وبهذا يعلم أنه يجب على المسلم إذا وسوس له الشيطان بأمر من أمور العقيدة أن يفعل الآتي :

١ - أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم لعموم قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ولما تقدم من الأحاديث الدالة على ذلك .

٢ - أن يقول : (آمنت بالله ورسله).

٣ - أن يقرأ: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

٤ - أن يتفل عن يساره ثلاثاً ويستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم.

٥ - أن ينتهي عن الاسترسال مع هذه الوساوس لأنها باطلة شرعاً وعقلاً ولأن الاسترسال مع الشيطان في ذلك لا يؤدي إلا إلى الحيرة وضياع الوقت دون فائدة لأن الشيطان لعنه الله تعالى إنما يسعى لإفساد دينه وعقله،

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد الأول حديث رقم ١١٦، ١١٧، ١١٨.

(٢) الأعراف / ٢٠٠.

فعليه أن يحرص كل الحرص على التمسك بهدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رد كيد عدو الله تعالى إلى نحره فإن في ذلك الخير الكثير والهدى والنور والشفاء التام كما تقدم في أقوال أهل العلم. فإذا فعل المسلم هذه الأمور التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رد الوسوسة فإنها ستذهب عنه حتماً لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بذلك، وهو كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1].

وعلى المسلم أن يعلم أن كرهه لهذه الوسوسة ورده لها من صريح الإيمان لما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن ناساً جاؤوا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله إنا نجد في أنفسنا الشيء العظيم نعظم أن نتكلم به ما نحب أن لنا وأنا تكلمنا به، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أوقد وجدتموه)؟ قالوا: نعم، قال: (ذلك صريح الإيمان)[2].

وروى أبو داود في سننه أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن أحدنا يجد في نفسه، يعرض بالشيء لأن يكون حُمَمَةً[3] أحب إليه من يتكلم به، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)[4].

(١) النجم/ ٣-٤.

(٢) رواه أبو داود بسند صحيح كما ذكر الألباني رحمه الله تعالى انظر صحيح سنن أبي داود ٣/٩٦٢ كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم الحديث / ٤٢٦٣.

(٣) أي فحمًا.

(٤) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب/ باب في رد الوسوسة بسند صحيح كما ذكر الألباني انظر صحيح سنن أبي داود للألباني رحمه الله تعالى ٣/٩٦٣ رقم: ٤٢٦٤.

قال الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي رحمه الله تعالى شارح السنن: وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (صريح الإيمان) معناه أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم والتصديق به حتى يصير ذلك وسوسة لا يتمكن في قلوبكم ولا تطمئن إليه أنفسكم، وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله فكيف تكون إيماناً صريحاً؟ وقد روي في حديث آخر أنهم لما شكوا إليه صلى الله عليه وآله وسلم، قال: (الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)[1].

وعلى المسلم أيضاً ألا يفكر في ذات الله تعالى وصفاته وكيفيتها، بل عليه الإيمان بالله عز وجل وبذاته وأسمائه وصفاته دون تكييف أو تمثيل أو تشبيه أو تعطيل، وأن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] وعليه أن يفكر في مخلوقات الله تعالى الدالة عليه ليزداد إيماناً، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله)[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[4]. فالتفكر في آيات الله

---

(١) معالم السنن/ شرح سنن أبي داود ٤/١٣٦.
(٢) الشورى/ ١١.
(٣) الحديث رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني رحمه الله تعالى في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/٣٩٥ رقم: ١٧٨٨ وذكره في صحيح الجامع الصغير ١/٥٧٢ رقم: ٢٩٧٦.
(٤) آل عمران/١٩٠-١٩١.

تعالى ومخلوقاته يزيد في الإيمان وينميه ويقويه ويطرد عنه وساوس الشيطان، فنور إيمان العبد إذا قوي طرد عنه وسوسة الشيطان بإذن الله تعالى وإذا ضعف ذلك النور تسلط عليه الشيطان ، وعلى المسلم أن يحرص على تقوى الله تعالى وذلك بمراقبته في السر والعلانية وطاعته بامتثال أوامره والإبتعاد عن نواهيه والحذر من معصيته وارتكاب ما يسخطه في السر والعلانية والخلوة والحضور فإن تقوى الله سبحانه وتعالى من أعظم الأسباب التي يحفظ الله تعالى بها العبد من كل ما يضره ويجلب له كل ما ينفعه في الدنيا والآخرة ، فالله سبحانه وتعالى يحفظ أولياءه المتقين من الشيطان ومن كل ما يكرهون كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[1] وقال عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[2] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (احفظ الله يحفظك)[3] أي بفعل أوامره والإبتعاد عن نواهيه (يحفظك) في نفسك وأهلك ومالك وولدك ودينك ودنياك وفي كل أمورك، وعلى المسلم أيضاً أن يتحصن بالأوراد والأدعية الواردة، والله تعالى أعلم.

---

(١) الإسراء/٦٥. (٢) النحل/ ٩٨-١٠٠.

(٣) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة باب/ ٢٢ حديث رقم ٢٠٤٣ وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي للألباني رحمه الله تعالى ٣٠٨/٢ حديث رقم: ٢٠٤٣-٢٦٤٨.

المبحث السابع

الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالله تعالى

ومن أنواع الدلالات على الله تعالى وعلى توحيده الاستدلال على الله تعالى بالله تعالى ومعنى ذلك أن جميع المخلوقات كلها تُعرف بالله تعالى أي أن الله تعالى خالقها وهاديها ولو أنه عز وجل لم يخلقها لما عُرفت ولما كانت في الوجود فلم يعرف وجودها وخلقها وكونها مخلوقة إلا بعد خلق الله تعالى لها وإيجادها من العدم وهدايتها لمعرفته وتوحيده .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان ذلك: قال الخليدي في معرفة الله تعالى : ولسنا نقول إن الله تعالى يعرف بالمخلوقات بل المخلوقات كلها تعرف بالله تعالى ، لكن معرفته تعالى تزيد بالنظر في مخلوقاته.

فالمسلم إذا نظر في مخلوقات الله تعالى وما خلق من عجائبه، مثل دوران الليل والنهار والشمس والقمر وتفكر في نفسه وفي مبدئه ومنتهاه زادت معرفته بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

إلى آخره ، وكان هذا بين يدي النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلم ينكره عليه فدل على صحة قول علمائنا، إن الله تعالى يعرف بالله تعالى، والأشياء كلها تعرف بالله تعالى[2].

---

(١) الذاريات/٢١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/٢.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضاً :

فالمخلوقات كلها آيات للخالق ، ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات فإنها قد فطرت على ذلك ، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات لم تعلم أن هذه الآية له[1] .

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[2].

وقال شيخ الإسلام: ومن أسمائه الهادي ولهذا يذكر عن بعضهم أنه قال: عرفت الأشياء بربي ولم أعرف ربي بالأشياء، وقال: بعضهم هو الدليل لي على كل شيء وإن كان كل شيء عليه دليلاً. وقيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بماذا عرفت ربك؟ فقال: (من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره فى التباس، خارجاً عن المنهاج، ظاعناً فى الإعوجاج: عرفته بما عرف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه، فأخبر أن معرفة القلب حصلت بتعريف الله تعالى وهو نور الإيمان وأن وصف اللسان حصل بكلام الله تعالى وهو نور القرآن[3].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤٨/١.
(٢) الأعراف / ٤٣.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨/٢.

الفصل الثالث

في بعض الشبه التي أوردها الملاحدة وأعوانهم حول وجود الخالق جل وعلا والرد عليهم.

إن شبه الملاحدة أو بالأصح تشكيك[1] الملاحدة في وجود الله تعالى لا يكاد ينتهي ما دامت هذه الحياة لأنها صراع بين الحق والباطل بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، وهذا الصراع المستمر بين الجانبين قد تكفل الله تعالى فيه بنصر جانب الحق على جانب الباطل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾[2].

فهذه الآية بينت أن النصر لحزب الله تعالى وأتباع رسله عليهم الصلاة والسلام، وأن هذا النصر ليس في هذه الدار فحسب ، بل في الدارين الدنيا والآخرة ، كما أن الخيبة والفشل واللعنة لحزب الشيطان وأتباعهم في كل زمان ومكان في الدنيا والآخرة ﴿ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾التي هي النار وبئس القرار. وقد هيأ الله عز وجل ونصب لدينه رجالاً يذبون عنه في كل وقت وحين، وأيدهم بنصره وجعل الحق على ألسنتهم وأيديهم كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[3].

وأذكر في هذا الفصل بعضاً من شبههم والرد عليها :-

(١) لأنهم يقرون بالخالق كما تقدم في إثبات الوجود بالفطرة.
(٢) غافر / ٥١-٥٢.
(٣) إبراهيم / ٢٧.

فمن تلك الشبه :

(الشبهة الأولى): يقولون لعنهم الله تعالى :

إن هذا الكون بما فيه من المخلوقات يرجع في أصل تكوينه إلى السديم[1] وهو المادة الأولى في التكوين في نظرهم فيكون السديم واجب الوجود لا يحتاج إلى موجد.

فزعموا أن إحالة المؤمنين الخلق إلى الله سبحانه وتعالى مثل إحالتهم الخلق إلى السديم .

والجواب عن هذه الشبهة الساقطة من وجوه :

الوجه الأول : أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه الكريم المعجز أنه خلق كل شيء ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2] .

وقال عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[3] .

فدلت هذه الآيات المباركات أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وأن كل ما سواه مخلوق وهذه الآيات المباركات قد وردت في القرآن المعجز الذي تحدى الله تعالى به جميع الخلق أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا، ولما كان الأمر كذلك كان هذا الإخبار بمنزلة المشاهد المحسوس فهو

(١) السديم: كما يزعمون كذباً هو سحابة دخانية كانت قبل وجود الكون ، قبحهم الله تعالى ولعنهم.

(٢) الزمر / ٦٢.

(٣) الفرقان / ١-٣.

دليل شرعي وعقلي معاً فبطل بذلك نسبة الخلق إلى السديم أو إلى غيره من المخلوقات ، كما دلت الآيات السابقة على أن صفة الخلق خاصة بالله عز وجل الخالق سبحانه وتعالى وأن جميع ما عداه من الآلهة الباطلة مخلوقة مربوبة لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها نفعاً أو دفع ضر.

الوجه الثاني: أن جميع المخلوقات من السماء والأرض وما فيهما وما بينهما تدل على عظمة الخالق عز وجل وعظمة صفاته، وتدل على عظيم الصنعة واتقان الخِلْقَة وذلك يدل على الحكمة والدقة في هذا الخلق فهل يعقل بعد ذلك كله أن تكون هذه المخلوقات صادرة عن هذا السديم؟! وهل هذا الدخان أو الغبار أو الغمام المزعوم والذي هو جماد يتصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والإرادة والقدرة والحكمة والسمع والبصر وسائر صفات الكمال؟! وهل يستطيع فعل شيء من ذلك؟!، إن من زعم ذلك فهو مكابر مستكبر جاحد لفطرته السليمة أو فاقد لعقله متهم بالجنون .

قال الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1] .

وقال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[2] .

الوجه الثالث: أن جميع المخلوقات يلاحظ عليها الإفتقار والنقص والحاجة الشديدة لمن يقوم على أمورها وتدبير شؤونها وأرزاقها وسائر أحوالها ولا غنى لها عنه طرفة عين أو أقل من ذلك ، وهذا دليل واضح ومشاهد

---

(١) النمل / ١٣-١٤.

(٢) الأعراف / ١٧٩.

على أنها مخلوقة فالنقص المتصفة به لا يؤهلها أن تكون إلهاً خالقاً بل مخلوقه مربوبه وهو دليل أيضاً على وجود الخالق عز وجل القائم على شؤون هذه المخلوقات المتكفل بجميع أمورها وأرزاقها ودليل واضح أيضاً على توحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، قال عز وجل مبيناً هذا المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2].

فهذه الكواكب والشمس والقمر من الذي يقوم على سيرها وتنظيم أمورها بهذه الدقة والإحكام؟ إنه الخالق عز وجل، وهذه المخلوقات التي لا يعلم عددها إلا الله عز وجل من الذي يقوم على أرزاقها وتدبير أمورها ؟ إنه الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[3] وكذلك هذا السديم المزعوم بأنه الخالق يظهر عليه النقص والافتقار بوضوح، بل إنه لا يتصف بأي صفة تجعله في عالم الأحياء فضلاً عن أن يكون إلهاً خالقاً، وفاقد الشيء لا يعطيه، فسبحان من سلب عقول هؤلاء القوم وأعمى بصائرهم وأبصارهم، وصدق الله تعالى إذ يقول كما ورد في الآية السابقة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾...الآية.

الوجه الرابع: أن جعلهم المخلوق خالقاً فيه رد عليهم بأنه يلزمهم أن يكون الضعيف المفتقر إلى غيره قوياً غنياً عن غيره في نفس الوقت، وهذا تناقض واضح، قال عز وجل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[4].

---

(١) فاطر/ ١٥-١٧.
(٢) فاطر/ ٤١.
(٣) الزمر / ٦٧ .
(٤) النحل / ١٧.

كما أن جعلهم المخلوق خالقاً فيه إنكار للخالق والمخلوق معاً لأنه يستحيل أن يكون المخلوق خالقاً كما أنه يستحيل أيضاً أن يكون الخالق مخلوقاً، وهذا هو العمى الذي ليس بعده عمى، والضلال الذي ليس بعده ضلال الذي ينكره كل ذي عقل سليم وقلب مستقيم، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [1].

وقال عز وجل مبيناً حال الكافرين المعرضين ومصيرهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (إن من نفى الرب الخالق عز وجل لزمه نفي الوجود بالكلية، وما استلزم نفي الوجود بالكلية علم أنه باطل) [3] وبيان معنى كلامه هذا رحمه الله تعالى في الوجه الخامس.

الوجه الخامس: أن الوجود المعلوم إما خالق وإما مخلوق كما تقدم في التقسيم إلى واجب الوجود وممكن الوجود، فهذان القسمان لا ثالث لهما، ولا يمكن للمخلوق أن يتصف بصفات الخالق كما أنه لا يمكن أن تكون صفات الخالق مشابهة لصفات المخلوق وهذا أمر لا يشك فيه عاقل، فالخالق عز وجل متصف بجميع صفات الكمال من الحياة والقدرة والعلم والكلام والحكمة والغنى والإستواء وغير ذلك من الصفات التي دلت عليها أدلة الكتاب والسنة كما أن المخلوق متصف بصفاته من الضعف والإفتقار والحاجة وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنه مخلوق ومربوب وعلى هذا فمن أي القسمين يكون ما زعموه ؟!

(١) الطور / ٣٥-٣٦.

(٢) الملك / ١٠-١١.

(٣) بيان تلبيس الجهمية ١/ ١٤٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

ومن المعلوم بالمشاهدة والعقل أن الوجود منه ما هو حادث بعد أن لم يكن كما نعلم نحن أنا حادثون بعد عدمنا وأن السحاب حادث والمطر والنبات حادث والدواب حادثة وأمثال ذلك من الآيات التي نبه الله تعالى عليها بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) .

فهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكون واجبة الوجود لأنها كانت معدومة ثم وجدت فدل وجودها بعد عدمها على أنها يمكن وجودها ويمكن عدمها فإن كليهما قد تحقق فيها فعلم بالضرورة اشتمال الوجود على موجود محدَث ممكن فنقول حينئذ الموجود والمحدَث الممكن لابد له من موجد قديم واجب بنفسه فإنه يمتنع وجود المحدَث بنفسه كما يمتنع أن يخلق الإنسان نفسه وهذا من أظهر المعارف الضرورية ولهذا قال الله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه أنه لما قدم في فداء أسارى بدر قال وجدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في المغرب (بالطور) قال فلما سمعت هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أحسست بفؤادى قد انصدع (٢).

---

(١) البقرة /١٦٤.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة الطور رقم /٤٨٥٤ ومسلم في كتاب الصلاة / باب القراءة في العشاء، مسلم بشرح النووي ٤/١٨٠ .

وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله تعالى بصيغة الاستفهام الإنكاري ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها يقول عز وجل: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل فتعين أن لهم خالقاً خلقهم وهو الله سبحانه وتعالى[1].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكوِّن ويعلمون أنهم لم يكوِّنوا نفوسهم وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه لايحتاج أن يستدل عليه بأن كل كائن محدَث أو كل ممكن لايوجد بنفسه ولا يوجد من غير موجد[2].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً مبيناً ما يلزم من أنكر وجود الخالق عز وجل ونسب الخلق إلى غيره من المخلوقات: الوجود لا يخلو إما أن يكون واجباً بنفسه أي خالقاً أو محدَثاً بإحداث غيره وممكناً أي مخلوقاً مفتقراً إلى واجب بنفسه، وإذا كان لا بد من الاعتراف بالوجود الواجب علم أن كل ما يذكره النفاة من الشبهة النافية للرب عز وجل أو صفاته أو أفعاله حجج باطلة متناقضة لأنه يلزم من صحتها نفي الوجود بالكلية وما استلزم نفي الوجود بالكلية علم أنه باطل)[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥/ ٣٥٧ -٣٥٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/ ١١

(٣) بيان تلبيس الجهمية ١/١٤٧.

ومعنى كلام شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أن من أنكر وجود الخالق عز وجل فقد أنكر وجود المخلوق أيضاً لأن المخلوق يستحيل أن يوجد إلا بخالق فمن أنكر وجود الخالق فقد أنكر وجود المخلوق أيضاً وبذلك يكون قد أنكر وجود الخالق والمخلوق معاً ومن أنكر وجود الخالق والمخلوق معاً فقد أنكر الوجود بالكلية حتى نفسه أيضاً لأن الوجود المعلوم إما أن يكون خالقاً وإما أن يكون مخلوقاً ولا ثالث لهما.

ولا يخرجه عن هذا الإنكار كونه ينسب الخلق إلى مخلوق ويزعم أنه الخالق لأن المخلوق لا يخرجه عن كونه مخلوقاً أن يُنسب الخلق إليه كذباً؛ لأنه متصف بجميع صفات النقص والافتقار إلى خالقه، وهذه صفات المخلوق الناقص الذي لا يتصف بالأزلية والأبدية وجميع صفات الكمال التي يتصف بها الخالق سبحانه وتعالى، وعلى هذا فمن نسب الخلق إلى غير الله تعالى فقد نسب الخلق إلى مخلوق مثله، وهذا يؤدي إلى القول بالتسلسل في المخلوقات دون أن يكون لها خالق وهذا باطل شرعاً وعقلاً لأنه يؤدي أيضاً إلى إنكار وجود الخالق وبالتالي إلى إنكار الوجود بالكلية كما تقدم وعلى هذا فلا مخرج له من هذا الضلال والإنكار إلا الرجوع إلى الحق وترك ما سواه، وكذلك يلزم أيضاً من أنكر وجود الخالق عز وجل أن ينسب الخلق إلى غيره أي من المخلوقات وأن يكون ذلك المخلوق متصفاً بصفات الخالق فهو مخلوق وخالق معاً وهذا تناقض يؤدي إلى إنكار وجود الخالق والمخلوق معاً لأنه يستحيل أن يكون الخالق مخلوقاً والعكس أيضاً لأنه يقتضي أن يكون موجودًا

ومعدومًا في وقت واحد!! ولذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وهذا يؤدي إلى نفي الوجود بالكلية) أي لأن الوجود إما خالق أو مخلوق ومن جعل المخلوق خالقاً فقد نفى الإثنين معاً كما تقدم والله تعالى أعلم.

وقال أيضاً: وهذا المقصود هنا، وهو أن كل ما يحتج به في إثبات أن العالم لا خالق له يلزم صاحبه ما هو أعظم مما فر منه حتى يؤول به الأمر إلى أن ينكر الوجود بالكلية أو يعترف ببطلان قوله وكل ما يدل عليه قوله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1].

فأخبر أن المشركين لا يأتون بقياس - وأقيستهم من الباطل - إلا أتى الله تعالى بما هو الحق بكلام وقياس أحسن تفسيراً بحيث يكون بيانه ودلالته للمطلوب أبين وأوضح وأجلى وأقرب إلى الأمور البديهية الجلية، وإبليس إمام هؤلاء فكل من اتبع الظن وما تهوى الأنفس وترك اتباع الهدى ودين الحق الذي بينه الله تعالى وأمر به في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام وفطر عليه عباده فهو متبع لإبليس في هذا وله نصيب من قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2][3].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن الميداني:

وادعاء الملاحدة أن الإنسان المؤمن بالله تعالى لا يدري علة وجود الله تعالى من أكبر المغالطات، فمن أصله الوجود، ووجوده أزلي،

(١) الفرقان /٣٣.

(٢) ص /٨٥.

(٣) بيان تلبيس الجهمية ١/١٤٨ ــ ١٤٩.

فإنه لا يحتاج أصلاً إلى علة لوجوده ، وإذا كان لا يحتاج إلى علة لوجوده فالسؤال عن هذه العلة أمر مخالف للمنطق السليم ، أو عبث من العبث أو مغالطة قائمة على الإيهام بأنه حادث غير أزلي ، وهنا يطرح الملحدون على عوام المؤمنين مغالطة في سوق الدليل على وجود الله تعالى . فيقولون لهم ، ألستم تقولون: إن كل موجود لا بد له من موجد ، وأن هذا الكون موجود فلا بد له من موجد وذلك هو الله تعالى ؟

فيقول العامي الذي لا يعرف أصول المغالطات : بلى، عندئذ يستدرجه الملحد ، فيقول له : الله موجود ، وهو على حسب الدليل لا بد له من موجد، فيجد العامي نفسه قد انقطع إذ لم يستطع جواباً لكن العليم لا يقبل أصلاً صيغة هذا الاستدلال على هذا الوجه القائم على المغالطة .

وذلك لأن المقدمة (كل موجود لا بد له من موجد) مقدمة كاذبة غير صحيحة فالعليم لا يسلم بها لفسادها ، وإنما يقول بدلها : (كل موجود حادث لم يكن ثم كان لا بد له من محدِث) ثم يقول : (وهذا الكون موجود حادث لم يكن ثم كان بشهادة القرآن والسنة وشهادة العقل وبشهادة البحوث العلمية) عندئذ تتحصل النتيجة على الوجه التالي (إذاً فلا بد لهذا الكون من محدِث) وهذا المحدِث للكون لا بد أن يكون موجوداً أزلياً غير حادث ولا بد أن يكون منزهاً عن كل الصفات الناقصة التي يلزم منها حدوثه حتى لا يحتاج إلى موجد يوجده .

كذلك من الأدلة على حدوث الكون ما شهد به الملحدون أنفسهم فقد ذكر بعض علمائهم (أن العلم الحديث اكتشف القانون الثاني للحرارة وهو المسمى (بقانون الطاقة المتاحة) أو (ضابط التغير) وهذا القانون يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً ، إذ هو يفيد تناقص عمل الكون يوماً بعد يوم ، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أي طاقة مفيدة للحياة والعمل ، وتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية وبذلك تنتهي الحياة .

وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية ونهاية فأثبتت تلقائياً وجود الإله ، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول الخالق الإله)[1].

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].

---

(١) عن كتاب صراع مع الملاحدة، لعبد الرحمن حسن الميداني ص ١٠٣-١٠٨.

(٢) سورة الحديد / ١-٧.

وروى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يقول عند نومه بعد أن يضطجع على شقه الأيمن صلى الله عليه وآله وسلم : ((اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شئ فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر))[1] .

الوجه السادس: أن قولهم ينسبه خلق هذا الكون إلى السديم الذي هو جزء من الكون نفسه يقتضي القول بالدور وهو توقف وجود الشيء على شيء آخر وهذا الآخر متوقف في وجوده على الشيء الأول، وهذا قول باطل معلوم الفساد بالضرورة عند جميع العقلاء، فهم بذلك قد زعموا أن خلق الكون متوقف على السديم، والسديم متوقف في وجوده على وجود الكون لأنه جزء منه، فكأنهم زعموا أن الكون خلق نفسه بنفسه، وقد رد الله سبحانه وتعالى على هذا القول الباطل بقوله عز وجل: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[2].

---

(١) مختصر صحيح مسلم / ص ٥٠١ – كتاب الذكر – باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع .
(٢) الطور / ٣٥-٣٦.

الوجه السابع: أن صفة الأولية والأزلية صفة عظيمة لا يمكن أن يتصف بها المخلوق الناقص الضعيف المحتاج إلى غيره.

الوجه الثامن: أنهم يزعمون أن الحياة وجدت في هذا السديم، ولو سلمنا جدلاً بصحة قولهم فمن أوجدها في هذا السديم؟ فالشيء لا يوجد بدون موجد، ولو زعموا أن السديم أوجدها فكيف يوجدها وهو فاقد لها وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولقد حاول هؤلاء الدجاجلة الكذَّابون أن يوجدوا الحياة في المادة سنيناً طويلة ثم نفضوا أيديهم واعترفوا بعجزهم وأن سر الحياة لا يعلمه إلا الله تعالى ، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

الوجه التاسع: أن أغلب الملاحدة إذا نوقشوا وقيل لهم: إن الشيء المعدوم لا يوجد بلا موجد له ومحدِث، فيقولون: نحن نعلم ذلك وينسبون الخلق إلى الطبيعة أو إلى السديم كما في هذه الشبهة أو إلى أي شيء آخر من مخلوقات الله تعالى ويظنون أنهم مصيبون في ذلك ، والحقيقة أن جميع ما ينسب إليه الملاحدة الخلق من دون الله تعالى لا يخرج عن كونه مخلوقاً لله تعالى وهو إما أن يكون سبباً من الأسباب التي خلقها الله تعالى كالسحاب جعله الله تعالى سبباً في نزول الأمطار والماء جعله سبباً في حصول النبات وغير ذلك من الأسباب فهي كلها خلق لله تعالى ليس لها من الخلق شيء وإنما هي مخلوقة مربوبة وقد تتخلف عن مسبباتها إذا أراد الله تعالى لها ذلك، فقد يأتي السحاب

(١) الإسراء/ ٨٥.

ولا يأتي المطر، وقد ينزل المطر ولا تنبت الأرض، وهكذا في جميع الأسباب فالله تعالى خالقها وخالق مسبباتها وإما أن يكون مخلوقاً آخر لا علاقة له بذلك المسبب كنسبتهم الخلق إلى السديم أو إلى الطبيعة فهذه كلها مخلوقات لله تعالى متصفة بصفات النقص والحاجة والافتقار ليس لها من الربوبية والألوهية شيء وإنما هي فقيرة محتاجة إلى من يقوم على شؤونها وأمورها فيلزمهم في نسبة الخلق إلى المخلوق سواء كان سبباً أو غيره إنكار الوجود بالكلية كما تقدم في الوجه الرابع والخامس من الرد على هذه الشبهة الباطلة فجميع ما ينسبون إليه الخلق هو مخلوق محتاج إلى خالق وكلها مخلوقات لا يمكن أن تكون خالقة وكلها محتاجة إلى الخالق وعدم القول بذلك يؤدي إلى القول بالتسلسل في المخلوقات إلى ما لا نهاية، وهو قول معلوم البطلان بالشرع والعقل كما تقدم فثبت بذلك بطلان هذه الشبهة وأن الخالق لجميع المخلوقات هو الله وحده لا شريك له.

وقد رد الله سبحانه وتعالى على من نسب الخلق إلى الأسباب ، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[1] فالرجل والمرأة سبب في الولد ولكن الخالق هو الله تعالى فقد يحصل الزواج ولا يحصل الولد، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[2] فالإنسان يحرث الأرض ويشقها ويلقي البذور وهذا سبب ولا قدرة عنده أكثر من ذلك فالله سبحانه وتعالى هو الذي يزرعه وينبته ولو شاء لم ينبت

(١) الواقعة/ ٥٨-٥٩.
(٢) الواقعة/ ٦٣-٦٤.

فدلت هذه الآيات على أن الأسباب ليس لها من الخلق شيء وإنما الخالق هو الله سبحانه وتعالى فمن نسب الخلق إلى الأسباب فقد أشرك شركاً أكبر في الربوبية وكفر بالله تعالى كفراً يخرجه عن دائرة الإسلام والعياذ بالله تعالى كما سيأتي في الباب الخامس عند الحديث عن الشرك في الربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً هذا المعنى: أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يفعل بالأسباب كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[1] ومن قال إنه يفعل عندها لا بها فقد خالف ما جاء في القرآن وأنكر ما خلقه الله تعالى من القوى والطبائع، كما أن من جعل الأسباب هي المبدعة الخالقة لذلك فقد أشرك بالله تعالى وأضاف فعله إلى غيره، فأهل الهدى والفلاح لا ينكرون ما خلقه الله تعالى من الأسباب التي يخلق بها المسببات ، فهو خالق كل شيء وربه ومليكه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير)[2] ولو زعم أحد أن ما يفعله الخلق من صناعات هي خلق لهم فهو قول باطل بل هي عملهم والله تعالى خالقهم وخالق أعمالهم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[3] ونبي الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام إنما كان يخلق بإذن الله تعالى وذلك معجزة دالة على صدقه قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[4] فالكل خلقه عز وجل.

---

(١) الأعراف/ ٥٧.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١٢/٣.
(٣) الصافات / ٩٦.
(٤) المائدة / ١١٠.

الشبهة الثانية قولهم لعنهم الله تعالى:

إن الله عز وجل غير موجود ودليلهم على ذلك هو أنه غير مرئي ، فالموجود عندهم المرئي وغير الموجود هو الذي لا يرى ، ما أحقر هذا الدليل وما أسخفه !! وما أسخف عقل القائلين به!!.

والرد على هذه الشبهة من وجهين:-

الوجه الأول: أنه لا يلزم لإثبات وجود الشيء رؤيته كما هو معلوم عند جميع العقلاء بل آثار الشيء تدل على وجوده كما تقدم[1] من قول الأعرابي: سماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج أفلا تدل على اللطيف الخبير ، وكما هو معلوم عند الملحدين أنفسهم أنهم يؤمنون بأشياء لم يروها بل رأوا آثارها فهم يؤمنون بالجاذبية مع أنهم لم يروها بل رأوا آثارها ويؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره كذلك يؤمنون بالمغناطيس وقد شاهدوا انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب ، فواقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ولكن آثارها هي التي دلتهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك.

فنحن نوجه لهم هذا السؤال : لماذا آمنتم بوجود هذه الأشياء لرؤيتكم لآثارها ولم تؤمنوا بالخالق جل وعلا مع أن آثاره مبثوثة في الأرض والسماء وفي كل مكان بل وفي أنفسكم المتكبرة على خالقها عز وجل فهي من آثاره وآياته كما قال الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[2]

(١) عند الحديث عن الاستدلال على الله تعالى بآياته .

(٢) الذاريات/ ٢٠-٢١.

إن هذا لتناقض عجيب ، فإما أن تؤمنوا بوجوده لرؤيتكم لآثاره كما آمنتم بتلك الموجودات لرؤيتكم لآثارها أو تكفروا بتلك الموجودات كما كفرتم بالخالق جل وعلا .

لماذا تتهمون عقولكم بالمرض والغباء والنقص بل والجنون إن أنتم كفرتم بوجود تلك الموجودات ولا تتهمونها بذلك إن أنتم كفرتم بخالق كل شيء والتي آثاره وآياته الدالة عليه أكثر من أن تحصى وهي لا تخفى حتى على الحيوان البهيم ؟! لماذا فرقتم بين هذا وذاك مع أن الإيمان بالله تعالى أولى وأحرى بكم من غيره؟!

والحقيقة أن عدم إيمانكم بالخالق جل وعلا مع وجود آثاره وآياته هو العمى والضلال بل هو الغباء والانحطاط العقلي إلى درجة أحط من البهائم كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]، وإن آيات الله تعالى واضحة في كل مكان وزمان ، وأنتم تعلمون ذلك ، بل فطركم مقرة به وإن أنكرت ألسنتكم ذلك بحجة العلم والتقدم العلمي والحرية ، إن هي إلا ألقاب برَّاقة خدَّاعة زائفة لا ينخدع بها إلا من فقد عقله من أمثالكم.

أتخشون إن أنتم آمنتم بالخالق جل وعلا أن ترهقكم وتثقل كاهلكم الواجبات والفروض الإسلامية بما فيها الابتعاد عن الملذات والشهوات التي ترتعون فيها ليل نهار كما ترتع الحيوانات، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[2].

---

(١) الفرقان/٤٤. (٢) محمد / ١٢.

كلا، إنها التعاليم سامية تسمو بالنفس الإنسانية إلى عالم من الطهر والنقاء والراحة والإطمئنان والسعادة التي لا يشعر بها إلا من آمن بالله تعالى وبرسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حق الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[3].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم كما رواه عنه أنس رضي الله تعالى عنه ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله تعالى منه كما يكره أن يقذف في النار))[4].

فقد بين صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث أن للإيمان حلاوة لا يتذوقها على حقيقتها إلا من آمن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم حق الإيمان وكفار هذا العصر وملاحدته ليس هم أول من طلب

(١) الرعد / ٢٨. (٢) طه/ ١٢٣-١٢٧.

(٣) الزمر/ ٤٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب/ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، مختصر صحيح مسلم / ص ١٤.

رؤية الله تعالى حتى يؤمنوا به بل سبقهم في طريق هذا الإلحاد أمم قبلهم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم نماذج من هذه الشبهة وهذا الإلحاد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

فبين تعالى أن هذه الشبهة باطلة وأن قولهم هذا قاله من قبلهم من الكفرة فهم قد ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الظلمة والانتكاس[2] وهو سبحانه وتعالى قد بين الآيات وبثها ونشرها لكل من كان له قلب موقن وهم المؤمنون، فلذلك قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يؤمنون بأن هذه الآيات تدل على الخالق وعلى توحيده فيؤمنون به وبرسله عليهم الصلاة والسلام ويوحدونه في الخلق والعبادة والصفات فكل موقن ومؤمن قد عرف من آيات الله تعالى الباهرة وبراهينه الظاهرة ما حصل له به اليقين واندفع عنه كل شك وريب سواء منها الكونية أو مما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الآيات الكونية أو الشرعية ما آمن على مثله البشر[3].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[5].

(١) البقرة/ ١١٨.
(٢) أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ١/٨٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن / ص ٤٦.
(٤) الفرقان / ٢١.
(٥) البقرة / ٥٥.

وقال تعالى عن فرعون اللعين الذي ادعى الربوبية والألوهية :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾[1] .

وقال تعالى مبيناً امتناع كفار قريش عن الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنهم طلبوا منه أشياء كثيرة لإيمانهم .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2] .

فاتضح لنا من هذه الآيات السابقة أن الملاحدة وأعوانهم من قديم الدهر إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها متقاربون في شُبههم وأقوالهم إلا أن هناك زخرفة لهذه الأقوال وتزييناً لها بشعار العلم المزعوم عند ملاحدة العصر الحديث وإلا فهي وأقوال الملاحدة السابقين في المعنى سواء بسواء .

فهذه الشبهة وأمثالها لا تنطلي إلا على من لا عقل له لأن الرد عليها وبيان زيفها متأصل في فطر البشر أجمعين .

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الإتجاه نكتة يقال إنها وقعت في مدرسة إبتدائية ، حيث وقف معلم إبتدائي ملحد يقول لطلاب السنة

(١) غافر / ٣٦-٣٧.　(٢) الإسراء / ٩٠-٩٣.

السادسة الإبتدائية: أتروني؟ قالوا : نعم ، قال : فإذاً أنا موجود ، أترون اللوح؟ قالوا : نعم، قال : فاللوح إذاً موجود ؟ أترون الطاولة ؟ قالوا : نعم ، قال : فالطاولة إذاً موجودة ، قال : أترون الله ؟ قالوا : لا ، قال : فالله إذاً غير موجود.

فوقف أحد الطلاب الأذكياء ، وقال : وترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا ، قال: فعقل الأستاذ إذاً غير موجود!!!.

إن هذا الإستدلال الخاطيء على وجود الله سبحانه وتعالى أو عدمه بالرؤية من أكبر العوامل التي أبعدت كثيراً من الناس عن الإيمان الصحيح بالله تعالى مع أن مثل هذا الإستدلال فاسد بداهة .

فالعقل ببداهته يحكم أن الله تعالى خالق جميع المحسوسات والمدركات وغيرها، وإذا كان منتهى إدراك الحواس المادة المحسوسة فقط ، فلن يكون الله تعالى محل إدراكها لأنه سبحانه وتعالى لا تدركه أبصار البشر القاصرة في هذه الدار كما قال تعالى :﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1] أما في الآخرة فيراه المؤمنون، وهو من أعظم أنواع النعيم كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[2] وأما الكافرون فإنهم يحرمون من ذلك النعيم كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾[3] وهذا الحرمان لهم من رؤيته عز وجل من أشد ألوان العذاب والسخط والبعد.

فآثار الشيء وآياته تدل عليه ، وآيات الله تعالى الكونية وغيرها تدل عليه بوضوح والإهتداء بها يحتاج إلى تفكر وتأمل دون تكبر، قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ

(١) الأنعام / ١٠٣ .
(٢) القيامة/ ٢٢-٢٣.
(٣) المطففين/ ١٥-١٦.

﴿ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[1].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ أي عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية والفهم لآيات الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي يتكبرون على عباد الله تعالى، وعلى الحق، وعلى من جاء به[2].

إنها الحقيقة التي لا تنكر ولا ترد، الكبر والغفلة عن آيات الله تعالى هما سبب الكفر والإلحاد والإذعان للحق وقبوله والتبصر بآيات الله تعالى هما طريق الإيمان واليقين، وقد كرر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

مما يبين أن استعمال العقل شرط لمعرفة آيات الله تعالى، وعلى ذلك فكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون تدل على الله تعالى لا ندعي أننا وحدنا نعرفها بل نحن والكفار مشتركون في هذه المعرفة ولكن الفارق أننا نعلل وجود هذه الظواهر بلازمها العقلي الذي لا بد منه وهو وجود خالق وموجد لها واحد في ذاته وصفاته وربوبيته وألوهيته، والكفرة يرفضون هذا التعليل ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4].

الوجه الثاني: إذا ثبتت الحاجة إلى وجود واجب الوجود ولم يكف وجود الكائنات الممكنة الوجود المساة (بالعالم) في إنشاء نفسها أو بالأوضح ولم يمكن وجود هذه الكائنات الممكنة الوجود من غير وجود موجد لها واجب الوجود، فذلك الموجد هو الله عز وجل، وهذا طريق إثبات وجوده عز وجل،

(١) الأعراف/ ١٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن/ ص ٢٦٦.
(٣) الروم/ ٢٤.
(٤) الفرقان/ ٤٣-٤٤.

ومن هنا لا يكون القائل بوجوده محتاجاً إلى رؤيته ، إذ يثبت وجوده كثبوت قاعدة ضرورية الثبوت وهي أن ممكن الوجود لا يمكن أن يوجد بدون وجود واجب الوجود ، وإنما الذي يحتاج القائل بوجوده إلى رؤيته للتثبت في القول هو الموجودالممكن الوجود، فقد رأينا هذا العالم وقلنا بوجوده ولو أننا لم نره لما كان هناك شيء يضطرنا إلى القول بوجوده ولا بوجودنا في ضمن وجوده ، والواجب الوجود الذي نبحث عنه هو الذي يضطر العاقل عقله من دون أن يراه إلى القول بوجوده ، فقد انكشفت بهذا سخافة عقول الطالبين لرؤية الله سبحانه وتعالى ليعترفوا بوجوده علمياً[1].

وهذا يدل على أن وجود المخلوق دليل على وجود الخالق عز وجل دون الحاجة لطلب رؤيته ، بل إن وجود الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن يكون أزلياً ومتقدماً على وجود المخلوق حيث دل على ذلك الشرع والعقل، وعلى هذا فمن شك في وجود الخالق عز وجل فقد شك في وجود نفسه وسائر المخلوقات، بل إن الشك في وجود نفسه وسائر المخلوقات لو كان يعقل لكان أولى من الشك في وجود الخالق عز وجل الذي وجوده أزلي أبدي، والله تعالى أعلم.

الشبهة الثالثة: قولهم لعنهم الله تعالى: إذا سألهم أي شخص من خلق هذا الخلق بهذا الاتزان وهذه الدقة والحكمة أجابك على الفور : إنها الطبيعة.

يا للعجب !! ماهي هذه الطبيعة والتي في الحقيقة لم يعرف هو معناها، ولئن سألته ما هي الطبيعة لم يجد جواباً إلا تفسير الماء بالماء .

ما هذه الطبيعة العمياء التي خلقت كل شيء بهذه الدقة والإحكام

(١) انظر كتاب / موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين لمصطفى صبري ١٦٦/٢ مع الحاشية.

والحكمة؟ وهل الطبيعة متصفة بالحياة والحكمة والقدرة والإرادة وسائر صفات الكمال؟!!

وقبل أن نناقش هذه الشبهة الساقطة أيضاً نرجع إلى أصل معنى كلمة (الطبيعة) .

قال ابن منظور في لسان العرب[1] في مادة (طبع) (الطبع والطبيعة السجية والخليقة التي جبل عليها الإنسان والطباع كالطبيعة ، وطبعه الله تعالى على الأمر يطبعه طبعاً ، فطره ، وطبع الله تعالى الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها وهي خلائقهم يطبعهم طبعاً ، والطبع: ابتداء صنعة الشيء تقول: طبعت اللبن طبعاً، وطبع الدرهم والسيف وغيرهما يطبعه طبعاً: صاغه).

من هذا التعريف لأصل كلمة (طبيعة) تبين لنا أن الطبيعة هي السجية والفطرة التي فطر الله تعالى عليها مخلوقاته وطبعهم عليها وهذا هو المعنى الصحيح لها فعلى هذا المعنى فأي فائدة من القول بأن الطبيعة خالقة ، هل العادات والسجية والفطر تخلق ؟! إن فاقد الشيء لا يعطيه ولكن الطبيعة في عقول الملحدين الذين طبع الله تعالى على قلوبهم لها معان أخرى، منها :

١ - أنها عبارة عن الأشياء بذاتها فالجماد والنبات والحيوان وكل هذه الكائنات هي الطبيعة فعلى هذا القول يكون معنى الطبيعة بأنها خالقه: أي أن ذات الشيء هي التي خلقته فالأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء وهذا باطل لما تقدم من ضرورة وجود المحدِث للحادث، ولأن القول بذلك هو ادعاء بأن الشيء وجد بذاته من غير سبب أو خلق نفسه فيكون خالقاً

(١) لسان العرب ٢/٥٦٧.

ومخلوقاً معاً وهذا باطل بالإجماع كما تقدم [1].

٢- ومنها : تفسيرها بأنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وهذه القابليات من حركة وسكون ونمو واغتذاء وتزاوج وتوالد ، كل هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة .

فيقال إن الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين سراب خادع يحسبه الظمآن ماء، لأن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص لا يعدون عن كونهم واصفين لتلك الظواهر ، لا يعرفون كنهها، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها .

وإيضاح ذلك بالطريق العلمي في هذا المثال :

نضع حبة في التراب ، ونسقيها بالماء فتنتفخ وتنفلق ، فيظهر منها الرشيم ويندفع منه الجذر إلى الأسفل ، والساق إلى الأعلى ، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار وتكون الحبة قد انتجت تفاحة مثلاً.

فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ ، والانفلاق وظهور الرشيم ولولا هذه القابليات المتوالية لما حصل ما حصل من كبر الحبة إلى أن أصبحت شجرة تثمر ، فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء كما هو الملاحظ في بعض الحبوب، فمن الذي نفخها وفلقها ؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا إن عقلها هو الذي هيأ لها ذلك ولو كان كذلك فمن الذي أعطاها العقل ؟ والعقل أيضاً ليس باستطاعته منح ذلك، ولو أن الماء هو الذي نفخها وفلقها ، لأمكن للماء أن ينفخ في الحديد

(١) عند الوجه الخامس في الرد على الشبهة الأولى.

ويفلقه، إذاً فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر ، وإذا كانت الحبة بذاتها -جدلاً- انتفخت وانفلقت ، فلماذا لم تجمد وتضمر بدلاً من أن تنتفخ وتنمو ؟ .

ولكي يكون هناك تكاثر وبقاء ، يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذور وهي لا تملك من ذلك شيئاً ، فكيف تنوعت الثمار، بل كيف أنبتت كل بذرة نوعها الخاص بها ، ولم تختلط بغيرها لوناً وطعماً وريحاً مع أن الأرض واحدة والماء واحد ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[1] .

والحقيقة أن من أمعن النظر في تعبير الطبيعين المستندين إلى القابلية وقولهم إنه: طبع النبات على ذلك ، انتفخت الحبة وانفلقت وتوالدت الخلايا يجد أنها جميعا أفعال مبنية للمجهول – لجهل الفاعل الحقيقي فكأن الطبيعي أغمض العين عن السبب الحقيقي وبنى الفعل للمجهول تخلصاً .

فمن الذي نفخ الحبة ومن الذي فلقها[2] ... الخ ، كل هذا التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعيين القاصرة بل المقتصرة على وصف الظواهر دون الذهاب إلى أسبابها ، بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلاً والقابلية مؤثراً،

(١) الرعد / ٤.

(٢) بل من الذي خلقها وأعطاها تلك القابلية وتلك الصفة، ولو شاء لسلبها ذلك كما هو ملاحظ في كثير من الحبوب وأنها تموت في مكانها ولا تنفلق ولا تنتفخ ولا تنمو، فهذه القابلية صفة للحبة، ولولا وجود الحبة لما وجدت هذه الصفة وهي القابلية، فوجود القابلية تابع لوجود الحبة، ولم يزعم أحد أن الحبة أوجدت نفسها أو وجدت بدون موجد فكذلك القابلية تابعة لوجود الحبة، والله تعالى خالق الحبة وخالق قابليتها وقد يسلب الحبة تلك القابلية فلا تنمو وتموت كما هو الملاحظ في بعض الحبوب، فالقابلية إذاً صفة مخلوقة فكيف يقال إنها خالقة؟

ونحن نعلم أن القابلية ليست إلا صفة من صفات الشيء فكيف تخلقه ؟[1] من خلق القابلية في الحبة ؟ ومن خلق القابلية في الذكر والأنثى ؟ من طبع تلك الطبائع ؟ أهي طبعت نفسها؟!كلا وألف كلا ، إنه الله سبحانه وتعالى خالق الأشياء وطابعها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[2].وبذلك ترجع الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتعرف المجاهيل ويحسم الأمر[3].

٣- ومن المفاهيم أيضا تفسيرها بأنها النظام العام المطرد للكون وهذا قريب من المعنى السابق لأن أصل كلمة (نظام) تعني وجود منظم فلا نظام بدون منظِّم ويكون الرد على ذلك أن يقال أولاً: إنَّ هذا باطل لأننا نرى أن هناك أشياء تخرج عن النظام العام كالخوارق من المعجزات وكرامات الأولياء والطفرات[4] فدل ذلك على أن هذا النظام ليس عنده القدرة التي تمكنه من الاستمرار على حالته بل إنه متصرف فيه وأنه لا يعمل بذاته كما زعموا وإنما بإرادة خالقه

(١) لأن وجود الصفة مرتبط بالموصوف الذي قامت به وإذا ثبت حدوثه وخلقه فهي تابعة له في الحدوث ، فإذا عجزت ذات الشيء عن خلقه فكيف تخلقه الصفة ؟! وكيف تخلقه وهي تابعة له أو جزء منه؟! وعدم القول بهذا يلزم أن تكون ذات الشيء خالقة ومخلوقة أي أن الحبة خلقت نفسها لأن صفة الشيء تابعة له وهذا القول بأن الشيء يخلق نفسه محال وباطل كما تقدم لأنه يلزم أن يكون فاعلاً ومفعولاً وأثراً ومؤثراً وهو باطل شرعاً وعقلاً.

(٢) الأنعام / ٩٥.

(٣) عن كتاب الوجود الحق لحسن هويدي / ص ٤٧.

(٤) الطفرات : جمع طفرة وهي : الوثبة فكأن تلك العادة وثبت عن طريقها وخرجت عن المألوف ، لسان العرب ٥٩٧/٢ ، والمقصود به هنا أن تأتي في النسل صفة تخالف ما عليه أحد الأبوين .

الذي وضعه فإن شاء أبقاه وإن شاء غيره.

ويقال لهم ثانياً : من نظَّم هذا النظام أهو نظم نفسه أم نُظم من غير مُنظِّم؟ فهذا باطل أيضاً لاستحالته ، إذاً فلا بد من وجود منظِّم له وهو الخالق جل وعلا ، ولو كانوا كما يزعمون لما خرج شيء في الوجود عن نظامه فخروجه عن نظامه دليل على أن هناك متصرفاً في هذا النظام له القدرة على التصرف فيه وأن هذا النظام منقاد له إن أراد استمراره استمر وإلا فلا وذلك المتصرف هو الله سبحانه وتعالى خالق النظام وخالق كل شيء، فسبحان الخلَّاق العليم الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير .

قال الله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] وقال تعالى أيضاً مبيناً أنه القائم على أمر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما والمدبر والمنظم لأمورهما وأنه لو كان معه شريك لفسد أمر السماوات والأرض ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2].

ومن الردود المسكتة المخرسة لأصحاب هذه الشبهة الساقطة أن يقال: إن الإحكام المشاهد في جميع المخلوقات يدل على وجود الخالق الحي السميع البصير العليم القدير الحكيم المتصف بجميع صفات الكمال والجلال فهل هذه الطبيعة المزعومة متصفة بذلك؟!!

قال الإمام القحطاني أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي في الرد على أهل الطبيعة من الملاحدة وأتباعهم:

---

(١) الواقعة / ٥٨-٦٢. (٢) الأنبياء/٢٢.

وكـذا الطبيعة للشريعـة ضـدها ... ولـقـل مـا يـتـجـمَّـع الضـدان
علم الفـلاسفـة الغـواة طبـيعة ... ومـعـاد أرواح بـلا أبـدان
لولا الطبـيعـة عنـدهم وفعـالها ... لم يمـش فـوق الأرض من حيوان
الله أحـكـم خلـق ذلك كـلـه ... صـنـعـاً وأتـقـن أيما إتقـان
قل للطبـيـب الفيلسوف بزعمه ... إن الطبـيـعـة علـمـهـا بـرهـان
أين الطبيعـة عنـد كونك نطفـة ... في البـطـن إذ مشـجت بـه المـاآن
أين الطبيعـة حين عـدت عليقة ... في أربـعـيـن وأربعـيـن تـوانـي
أين الطبيعـة عند كونك مضغـة ... في أربـعيـن وقـد مضـى العـدان
أترى الطبيعة صـورتك مصوراً ... بمـسـامـع ونـواظـر وبنـان
أترى الطبيعـة أخرجتك منكساً ... من بطـن أمـك واهـي الأركـان
أم فجـرت لك باللـبَان ثـديـها ... فـرضعـتها حـتى مضـى الحـولان
أم صيـرت في والـديك محبـة ... فـهـمـا بمـا يرضـيـك مغـتبـطان
يا فيلسوف لقد شغلت عن الهدى ... بالـمـنطـق الـرومـي والـيـونـاني
وشريعة الإسـلام أفضل شرعـة ... دين النـبي الصـادق العـدنـاني[1]

وقال آخر:

هـل في قلـوب الـملحدين عماءُ ... أم في عـقـول الـملحـدين غبـاءُ
أيـجـوز عقـلاً أنَّ عقـلاً مبـدعاً ... قـد أبـدعـتـه طبـيـعـة بلـهـاءُ
فإذا الطبيعة أدركت وتصرفت ... قـلـنا الطبـيـعـة والإلـه سـواءُ
الله أحيـا الكـائـنـات بـسـرِّه ... وبـسـرِّه تـتـفـاعـل الأشيـاءُ[2]

(١) نونية القحطاني ص ٢٧-٢٩.
(٢) النحلة تسبح الله تعالى ص ٦٨.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الرد على من نسب الخلق إلى الطبيعة: وكأني بك أيها المسكين تقول هذا الخلق كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله تعالى أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبريني عن هذه الطبيعة أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك؟ بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له، فإن قالت لك هي ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة، فقل لها هذا هو الخالق البارئ المصور فلم تسمينه طبيعة؟! ويا لله من ذكر الطبائع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله عليهم الصلاة والسلام ودخلت في جملة العقلاء والسعداء فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى، وإن قالت لك: بل الطبيعة عرض[1] محمول مفتقر إلى حامل، وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلاً، وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها: هذا ما لا يصدقه ذو عقل سليم، كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تحير عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور؟! وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين؟! ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربها ومبدعها وخالقها؟ ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك؟ فهي إذاً من أول الدلائل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته، فلم عطلت ربك وجحدت صفاته وأفعاله وخالفت عقلك وفطرتك؟! فإن رجعت إلى العقل وقلت: لا توجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا تدبير متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد

---

(١) عَرَض: أي صفة مفتقرة إلى موصوف.

قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده قيل لك: فإذا أقررت ويحك بالخلَّاق العظيم الذي لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أو عقلاً فعَّالاً أو موجباً بذاته وقل: هذا هو الله الخالق البارئ المصور رب العالمين قيوم السماوات والأرضين ورب المشارق والمغارب الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن ما صنع فمالك جحدت أسماءه وصفاته وذاته وأضفت صنيعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولا بد والحمد لله رب العالمين على أنك لو تأملت قولك (طبيعة) ومعنى هذه اللفظة لدلَّك على الخالق البارئ لفظها كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أي مطبوعة ولا يحتمل غير هذا البته لأنها الطبيعة والغريزة التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه، ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال ، فقد دل لفظ الطبيعة على الباري عز وجل كما دل معناها ، والمسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من خلق الله تعالى مسخر مربوب وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه ويتصرف فيها كيف شاء فيسلبها تأثيرها إذا أراد ، ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء ليرى عباده أنه وحده الخالق البارئ المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وإن الطبيعة التي انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هي خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته فكيف يحسن من له حظ في إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه وتعالى يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جعلت له حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٦١-٢٦٢.

الشبهة الرابعة:

قولهم لعنهم الله تعالى: إن هذا الكون بما فيه من دقة في الخلق وبراعة في الإتقان كل هذا وجد صدفةَ أو مصادفة من غير وجود خالق حكيم عليم دبره وأوجده على هذا الوصف المتقن البديع .

وهذه الشبهة يعلم زيفها حتى الحيوان البهيم الذي لا عقل له ولا تدبير كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(١) وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢).

وقال تعالى أيضاً : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾(٣) فهؤلاء الكفرة والملاحدة أشد غباءً وجهلا من الحيوان البهيم كما أخبر سبحانه وتعالى.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول:

إن هذه الشبهة في الحقيقة لا تحتاج إلى رد لأن زيفها وبطلانها واضح لكل ذي عقل سليم ، ولأن معناها إنكار الخالق وأن المخلوق وجد بلا موجد له ، وكفى بهذا القول فساداً أنه مخالف للنقل الصحيح والعقل السليم لأن كل موجود بعد أن لم يكن لا يمكن أن يوحد بلا موجد أو يوجد نفسه كما تقدم، ولكن يقال لهؤلاء الذين فقدوا عقولهم ، إن هذا الكون بما فيه من شموس وأقمار تسير في مسارات وحسابات دقيقة لا تخطيء ، وما فيه من

(١) الإسراء/٤٤. (٢) الفرقان /٤٤.
(٣) الاعراف/ ١٧٩.

مخلوقات ذات خلق بديع وإتقان عجيب كما هو معلوم لكل مشاهد وغير ذلك كثير يدل على الحكمة في الخلق وأنه لا يمكن بل يستحيل أن يكون ذلك وجد صدفة أي بدون خالق وإنما هو دليل على وجود خالق حكيم عليم قدير مدبر متصف بجميع صفات الكمال والجلال.

الوجه الثاني:

إن حال جميع المخلوقات ينفي نفياً باتاً أن يكون هذا الكون قد وجد مصادفة أو صدفة ، وقد دل على ذلك أمثلة كثيرة :-

منها: مُلاءَمة الأرض للحياة بجميع متطلباتها لا يمكن أن يفسر على أساس المصادفة .

ومنها : أن الكرة الأرضية يحوطها غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا .

ومنها : امتياز الماء بأربع خواص تعمل على صيانة الحياة في المحيطات والبحيرات والأنهار ، وخاصة حينما يكون الشتاء قارساً وطويلاً ، فالماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة وتبلغ كثافة الماء أقصاها كلما انخفضت درجة الحرارة، والثلج أقل كثافة من الماء مما يجعل الجليد المتكون في البحيرات والأنهار يطفو على سطح الماء لخفته النسبية فيهيئ بذلك الفرصة لاستمرار حياة الكائنات التي تعيش في الماء في المناطق الباردة ، وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة الأحياء التي تعيش في البحار .

أما الأرض اليابسة فهي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية

فالتربة قد هيأت بعناصر كاملة لحياة النبات التي يمتصها ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام تكون عليها حياة الإنسان والحيوان ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[1].

ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض مما هيأ السبيل لقيام الحضارة ونشأة كثير من الصناعات فلو كانت هذه المعادن في أغوار بعيدة من الأرض لما استطاع الإنسان استخراجها والإنتفاع بها في شتى المجالات وعلى ذلك فالأرض مهيأة على أحسن صورة للحياة، ولا شك أن كل هذا من تيسير حكيم خبير، وليس من المعقول أن يكون مجرد مصادفة أو خبط عشواء.

ومنها: موقع الأرض بالنسبة للشمس فلو كانت أبعد مما هي عليه لتجمد كل شيء ولما كانت صالحة للحياة، كذلك لو كانت أقرب مما هي عليه من الشمس لصارت غير صالحة للحياة لشدة حرارتها، كذلك حجمها لو كان أكبر أو أصغر مما هي عليه لترتب على ذلك تغيرات تمنع من وجود الحياة عليها.

ومنها: تتابع الفصول على هذه الأرض من صيف وخريف وشتاء وربيع مما يحصل به منافع كثيرة تهيء للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع[2] فأية مصادفة تلك التي تخلق هذا الخلق بهذا الإتقان، إن خالق ذلك كله هو الله سبحانه وتعالى الخالق المدبر لكل شيء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[3] فهذه الأمثلة هي نماذج فقط لبعض المخلوقات وإلا فالحقيقة

(١) النازعات / ٣٣، عبس / ٣٢.

(٢) عن كتاب / الله يتجلى في عصر العلم ص ٧-٨ وعنوان الكتاب عليه ملاحظة: وهي أن الله سبحانه وتعالى معروف بالفطرة وبكل الأدلة ولم يكن مجهولاً حتى يتجلى في عصر العلم كما زعم مؤلفه.

(٣) الإسراء / ٤٣.

أن كل مخلوق من مخلوقات الله تعالى وإن دق في صغره لهو آية على توحيد الله تعالى وعلى علمه وحكمته وسائر صفاته ، وفي الوقت ذاته دليل على بطلان القول بالمصادفة وكم في هذا الكون من آيات ومخلوقات لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

الوجه الثالث: ورد عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى لما سأله بعض الزنادقة عن وجود الخالق عز وجل ، فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه[1].

وقول أبي حنيفة رحمه الله تعالى هذا فيه رد واضح على من قال بالمصادفة؛ لأن القول بالمصادفة يعني إنكار وجود الخالق عز وجل ونسبة هذا النظام والإحكام المشاهد في جميع المخلوقات إلى العدم وهذا باطل شرعاً وعقلاً.

الوجه الرابع: يذكر علماء التوحيد دليلاً علمياً في ردهم على من قال بالمصادفة فيقولون : إن هذا الكون من الممكنات وكل ممكن يمكن أن يكون موجوداً ويمكن أن يكون معدوماً ويمكن أن يكون على صفة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٥٨.

أو على صفات كثيرة، ويمكن أن يكون في زمان أو أزمنة أخرى ويمكن أن يكون بمقدار أو بمقادير أخرى وكل جزء من هذا الكون تنطبق عليه تلك الممكنات والإحتمالات.

فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يختار دائماً الأحكم والأحسن والأكثر نظاماً ، ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى .

فلا بد إذاً من وجود إرادة عليا رجحت أحد وجوه الاحتمال والإمكان حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله وكل شيء فيه على أجل ترتيب وأروعه وهذه الإرادة هي إرادة الخالق عز وجل الحكيم العليم القدير المتصف بجميع صفات الكمال والجلال ، فهل بعد هذه الأدلة يظن منصف يتحرى الحقيقة أن هذا الكون بما فيه من أسرار عجيبة ونظم دقيقة كان وليد مصادفات ؟!!.

الوجه الخامس: إنَّ القول بالمصادفة بالنسبة لنظام الوجود الشامل المحكم وشروط الحياة الدقيقة والإتقان العجيب الهادف لا يقول به إلا جاهل بعيد عن التحقيق، أو مكابر يرى الحق ويعرض عنه، وإنه يكفي التأمل في بعض آيات الوجود بالطريقة العلمية حتى تزول (المصادفة) وأوهامها، وتحل محلها الأحكام المعللة بأسبابها، ويظهر الحق لذي عينين: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] والقائلون من الملاحدة بأن حوادث الكون كانت وليدة المصادفة، إنما يعطون لهذه المصادفة علماً محيطاً،

(١) فصلت/ ٥٣.

وإرادة كاملة، وقدرة مطلقة، تعلم، وتريد، وتقدر، وهي في كل ذلك تعمل بحكمة أكثر مما لو اجتمعت عقول البشر جميعاً بنسبة ذكاء لا متناهية!!..

الوجه السادس: إن بداهية العقل تحكم أنه حيث وجد الإحكام كان العلم والإرادة والقدرة، والحياة، وحيث وجدت هذه الصفات كانت الذات التي تقوم بها هذه الصفات[1].

الوجه السابع: إن من أعظم الأدلة التي أخرست الملاحدة من شياطين الإنس والجن وسدت أمامهم جميع المنافذ والحيل في جميع شبهاتهم الباطلة ما يسمى بدليل الحكمة والتناسق في جميع المخلوقات ولكن من أراد الله تعالى له الضلال لعدم شكره لنعمة العقل التي أعطاه إياها فردها فاستحق العذاب الخالد في دركات الجحيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2] ومما يرد به على القائلين بالمصادفة والصدفة أيضاً هو القول بأن عدم الانتظام لا يتحول بنفسه إلى نظام إلا بقصد وإرادة وعلم وحكمة، وهذا القصد والإرادة والحكمة والعلم والقدرة وغيرها هي صفات الخالق عز وجل المتصف بجميع صفات العظمة والجلال كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[3] وغيرها من الآيات الدالة على صفاته عز وجل.

(١) البراهين العلمية على وجود الخالق لمحمد فؤاد البرازي ص ٧٤، ١٢٠.

(٢) الأعراف/ ١٧٩.

(٣) فاطر/ ٤٤.

قال الشيخ محمد بن ربيع المدخلي: إن حكمة الله تعالى التي تتجلى في خلق هذا الكون على نظام محكم في غاية الدقة والإتقان، من أقوى البراهين على وجود إلّه خالق حكيم عليم، بل فيها أقوى رد على الملحدين المنكرين لوجود الله تعالى، ولا شكّ أن دعوة الإلحاد في هذا العصر قد زعزت اليقين لدى بعض أبناء العالم الإسلامي الذين تثقفوا بثقافة بعيدة عن روح الإسلام وتعاليمه، وإذاً فمما هو ضروري أمام تيارات الإلحاد أن نقف على الحكم الجلية في مخلوقات الله تعالى وفي أحكامه وأوامره لأنه كلما ازداد المرء علماً بالحكمة ازداد يقيناً بوجود الخالق الحكيم ، وكان إيمانه مبنياً على أساس متين لا تزعزعه الشبه ولا تنال منه تيارات الشك والإلحاد، وهذه هي طريقة القرآن الكريم في دعوته الناس إلى الإيمان، إذ يدعوهم للتأمل في هذا الكون، والتفكر في عجائبه ليستدلوا به على خالقه عز وجل كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو الناس إلى التفكر في صنع هذا الكون الذي يدل على قدرة خالقه وعلمه وحكمته ووحدانيته[3] ولما كانت الحكمة لا تكون إلا عن علم لذلك نجد أن الله تعالى كثيراً ما يجمع بينهما كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[4] وغيرها من الآيات الكثيرة ، والله تعالى أعلم.

(١) يونس/ ١٠١.
(٢) الغاشية/ ١٧-٢٠.
(٣) الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى/ ص٥.
(٤) الإنسان/ ٣٠.

الشبهة الخامسة:

ومن شبهاتهم الباطلة الساقطة إنكارهم وجود الخالق عز وجل لعدم معرفتهم الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قولهم عليهم لعائن الله تعالى المتوالية: إنَّ مما يدل على عدم وجود إلّه لهذا الكون هو ما نلاحظه من وقوع الآلام والمصائب، ومن ذلك الآلام التي تصيب الإنسان والحيوان والأطفال وغيرهم فلو كانت هناك عناية إلّهية لهذه المخلوقات لما حصلت هذه الآلام، وهذا يدل على عدم وجود إلّه لهذا الكون، وتنسب هذه الشبهة إلى داروين وأتباعه لعنهم الله تعالى[1].

والجواب عن هذا الضلال من وجوه:

الوجه الأول: أن وجود الشيء بعد عدمه لا يكون إلا بموجد أوجده من العدم، وهذا باتفاق الشرع والعقل ولا يخالف ذلك إلا من خالف عقله وأصبح فاقداً له كما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[2].

الوجه الثاني: أن ذلك الموجد لا بد أن يكون أولاً وأزلياً لا يحتاج إلى موجد له وإلا أدى ذلك إلى التسلسل وهو باطل شرعاً وعقلاً، قال سبحانه وتعالى مبيناً أنه الأول الذي لم يسبق بعدم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[3] وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[4].

(١) الإسلام ونظرية داروين/ ص ١١٤.

(٢) الطور/ ٣٥-٣٦.

(٣) سورة الإخلاص.

(٤) الحديد/ ٣.

الوجه الثالث: أن الإتقان والإحكام والدقة والحكمة المشاهدة في جميع المخلوقات تدل دلالة واضحة على وجود خالق حكيم عليم قدير وإله واحد لا شريك له متصف بجميع صفات الكمال والجلال والوحدانية، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[3] والآيات في ذلك كثيرة جداً ولا ينكر ذلك إلا من رد الأدلة الشرعية والعقلية وخالف الشرع والعقل وأصبح فاقداً لعقله كالبهائم بل أشد كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[4].

الوجه الرابع: أن أصحاب هذه الشبهة قد أنكروا جميع هذه الأمور المتقدمة التي دلت عليها الأدلة الشرعية والعقلية والتي هم يقرون بها في قرارة أنفسهم وإن جحدوها بألسنتهم تكبراً على الحق وظلماً وعتواً قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5].

الوجه الخامس: إن عدم معرفة الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى لا يعتبر مسوغاً لإنكار وجوده سبحانه وتعالى وتوحيده وحكمته ورد جميع الأدلة السابقة إلا عند من فقد عقله كأصحاب هذه الشبهة، ولو أنَّ رجلاً

(١) السجدة/ ٧.
(٢) يوسف/٦.
(٣) فاطر/ ٤٤.
(٤) الأعراف/ ١٧٩.
(٥) النمل/ ١٣-١٤.

مرَّ بقصر قد شيّد وبني أحسن البنيان فوجد في داخله جهازاً لم يعلم الحكمة منه فهل يسوغ له ذلك إنكار أن يكون لذلك القصر مُشيد وبان وصانع؟!

الوجه السادس: أن جميع أفعال الله تعالى لا تخلو عن حكمة أرادها سبحانه وتعالى سواء علمها الخلق أم لم يعلموها كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

الوجه السابع: أن تقديمهم لهذه الشبهة الباطلة بمقدمتين باطلتين يدل على بطلان قولهم وفساده.

فأما المقدمة الأولى فقولهم: إن وقوع الآلام يدل على عدم وجود العناية الإلّهية.

وأما المقدمة الثانية فهي قولهم: إن عدم وجود العناية الإلّهية يدل على عدم وجود الإلّه.

فأما فساد المقدمة الأولى فليس وقوع الآلام دليلاً على عدم العناية الإلّهية، بل العكس هو الصحيح؛ لأن جميع أفعال الله سبحانه وتعالى لا تخلو عن حكمة أبداً سواء علمها الخلق أم لم يعلموها كما أن المريض يعاف الدواء وتأباه نفسه وفيه شفاؤه وهذا على سبيل المثال، وإلا فإن جميع أفعال الله سبحانه وتعالى في غاية الحكمة والإتقان.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: ولما كانت الآلام أدوية للأرواح والأبدان كانت كمالاً للحيوان خصوصاً لنوع الإنسان فإن فاطره وبارءه إنما أمرضه ليشفيه وإنما ابتلاه ليعافيه، وإنما أماته ليحييه فهو سبحانه وتعالى يسوق الحيوان والإنسان في مراتب كماله طوراً بعد طور إلى آخر كماله بأسباب لا بد منها وكماله موقوف على تلك الأسباب ولكن أكثر النفوس جاهلة بالله تعالى

(١) البقرة/ ٣٠.

وحكمته وعلمه وكماله[1].

وبهذا يتبين فساد المقدمة الأولى، وأنها فاسدة شرعاً وعقلاً.

وأما فساد المقدمة الثانية فواضح لأنها مبنية على المقدمة الأولى والمبني على الفاسد فاسد مثله بالإضافة لما تقدم من الوجوه في الرد على من أنكر وجود الخالق عز وجل وتوحيده وبذلك يتبين فساد هذه الشبهة وبطلانها بالشرع والعقل ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[2] والله تعالى أعلم.

ويجمع الرد على جميع هذه الشبهات وأمثالها المتعلقة بإنكار وجود الخالق عز وجل أن يقال: أولاً: إن الله تعالى قد أخبر في كتابه المعجز أنه خالق كل شيء وأن الشيء لا يوجد بلا موجد ولا يوجد نفسه بل لا بد له من موجد وخالق متصف بجميع صفات الكمال والجلال وهو الله عز وجل، وهذا المعنى وارد في قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[4] وقوله عز وجل: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[5] وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[6] وقوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ ﴾ الآية...[7] وغيرها من الآيات.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٢٥١.

(٢) آل عمران/ ٨.

(٣) الزمر/ ٦٢.

(٤) الطور/ ٣٥.

(٥) الحديد/ ٣.

(٦) الإخلاص/ ١-٤.

(٧) البقرة/ ٢٥٥.

ثانياً: إن الوجود المعلوم ينقسم إلى قسمين: إما أن يكون خالقاً أو مخلوقاً، والمخلوق لا بد له من خالق، لأنه يستحيل أن يكون العدم سبباً في الوجود فثبت بذلك وجود الخالق سبحانه وتعالى على التقديرين وعلى هذا فوجود الخالق سبحانه وتعالى أزلي واجب لذاته، أي أن وجوده لا يحتاج إلى غيره بل هو واجب له فهو الأول سبحانه وتعالى الذي ليس قبله شيء. وأما وجود المخلوق فليس أزلياً لأنه كان معدوماً فأوجده الله سبحانه وتعالى فهو وجود مسبوق بعدم بخلاف وجود الخالق سبحانه وتعالى فهو وجود أزلي أبدي لم يسبق بعدم، ولا يطرأ عليه العدم ولم يؤثر فيه شيء، وليس له خالق، وعدم القول بذلك يؤدي إلى القول بالتسلسل وهو باطل شرعاً وعقلاً كما تقدم.

فتبين من ذلك أن من أنكر وجود الخالق سبحانه وتعالى فلا يخلو حاله من أمرين:

الأمر الأول: أن ينسب الخلق إلى العدم وأن هذه المخلوقات وجدت بدون موجد لها فهذا القول باطل بصحيح الشرع وصريح العقل ولا يقوله إلا فاقد العقل، وفاقد العقل لا حجة في قوله كما هو معلوم، لأن المخلوق لا يوجد إلا بشيء يؤثر فيه ويرجح وجوده على عدمه، والمعدوم ليس بشيء، وعلى هذا فلا يستطيع أن يوجد شيئاً أو يؤثر في شيء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ وهذا كمن ينسب الخلق إلى الصدفة أو يقول بقدم العالم أو قدم شيء من المخلوقات، وأمثال هذا الإلحاد الخبيث.

الأمر الثاني: أن ينسب الخلق إلى مخلوق من مخلوقات الله تعالى سواء نسبه إلى نفسه أو إلى غيره فإن نسبه إلى نفسه وأنه خلق نفسه فهذا باطل شرعاً وعقلاً لأنه يقتضي التناقض وأن يكون الشيء موجوداً و معدوماً في وقت

واحد، فيقتضي أن يكون موجوداً قبل نفسه لأن الخالق لا بد أن يكون وجوده سابقاً ومتقدماً على وجود المخلوق، ويقتضي أن يكون معدوماً لأنه قبل أن يُخلق لا بد أن يكون معدوماً وهذا تناقض واضح، وهو باطل شرعاً وعقلاً كما تقدم، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[1] وكذلك لو نسب خلق غير نفسه إلى نفسه أو إلى أي مخلوق آخر من مخلوقات الله تعالى أياً كان هذا المخلوق فهذا القول باطل شرعاً وعقلاً أيضاً، قال الله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[3] فالمخلوق لا يستطيع أن يخلق شيئاً أبداً لا نفسه ولا غيره لأنه مفتقر إلى غيره في خلق نفسه والمفتقر والمحتاج إلى غيره لا يمكنه أن يخلق شيئاً لأن فاقد الشيء لا يعطيه فهو لا يستطيع أن يخلق نفسه كما تقدم فكيف يخلق غيره؟! قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[4]. وقال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[5] ولأنه لو كان المخلوق يستطيع أن يخلق شيئاً لما سمي مخلوقاً بل خالقاً وهذا باطلٌ فلا يمكن بل يستحيل أن يكون الشيء مخلوقاً وخالقاً معاً لأنه كما تقدم يلزم أن يكون موجوداً ومعدوماً في وقت واحد وغير ذلك من اللوازم الباطلة المترتبة على القول باتصاف الخالق بصفات المخلوق أو العكس، وفساد اللازم دليل على فساد الملزوم كما هو معلوم فالقول بأن المخلوق يستطيع أن يخلق شيئاً قول باطل

(١) الطور/ ٣٥.
(٢) الطور/ ٣٦.
(٣) فاطر/ ٣.
(٤) النحل/ ١٧.
(٥) الفرقان/ ٣.

وفاسد لفساده وبطلانه في نفسه وما يترتب عليه من لوازم فاسدة وباطلة، والتي منها أيضاً: القول بتسلسل المخلوقات دون أن يكون لها خالق، وهذا باطل شرعاً وعقلاً كما تقدم.

ثالثاً: إن الدقة والإتقان والإحكام في جميع المخلوقات والحكمة الباهرة المشاهدة عليها لتدل دلالة واضحة على وجود إلّه خالق عليم حكيم قادر مريد متصف بجميع صفات الكمال والجلال والوحدانية وهذا من أعظم ما يرد به على كافة شياطين الإنس والجن عليهم لعائن الله تعالى المتوالية والمتعاقبة إلى قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

وبهذا يتبين بطلان جميع هذه الشبهات شرعاً وعقلاً وأن الخالق هو الله تعالى وحده لا شريك في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأنه الأول الذي ليس قبله شيء المستحق لإخلاص العبادة له وحده تبارك وتعالى، وتبين أيضاً أن الإلحاد بجميع أنواعه مهما تباعدت أزمانه وتنوعت أشكاله واختلفت دوافعه وفلسفاته فهو في الحقيقة لا يعدو أن يكون خصيماً للشرع الذي جاءت به جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وخصيماً أيضاً للعقل الذي أنعم الله تعالى به على هذا الإنسان بكل ما تعنيه هذه الكلمات وهذه العبارات، وبذلك يكون قد اتفق الشرع والعقل على رد جميع هذه الشبهات الإلحادية وأمثالها، والله تعالى أعلم.

وفي نهاية هذا الباب أرى أن أختمه بكلمات لبعض الملاحدة الذين نطقوا وأقروا بوجود الخالق جل وعلا بعد تجارب كثيرة ودراسات طويلة ألزمتهم بذلك فنطقت ألسنتهم ببعض ما في فطرهم لما أرادوا أن يفتحوا أعينهم ويتأملوا بصدق في هذا الكون - ولكن هذا الإيمان بوجود الله تعالى وتوحيده في

الربوبية فقط لا يكفي ولا ينفع صاحبه حتى يقر بتوحيد الألوهية - فمن ذلك قول بعضهم : إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة يجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة ، إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلى مدبر ، والتي لا يمكن نسبتها إلى صدفة عمياء[1] .

وقال آخر : إنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي من العالم ولا أستطيع أن أسلم بأن يكون ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التي جعلت ذرات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة ، إن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع ، ونحن نطلق على هذا المبدع اسم (الله)[2].

وقال آخر : إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك إلى الإعتقاد في وجود الله تعالى، ولا بد أن أعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة ..[3].

وقال آخر : إنني أؤمن بالله تعالى بل وأكثر من ذلك ، إنني أوكل إليه أمري ففكرة الألوهية بالنسبة إلي ليست مجرد قضية فلسفية ، بل إن لها في نفسي قيمتها العلمية العظمى ، وإيماني بالله تعالى جزء من صميم حياتي اليومية[4].

وقال آخر: إن المنطق السليم الذي يجعلنا نلاحظ أن الإنسان يستطيع أن يقوم بأمور معقدة، هو نفس المنطق الذي يجعلنا نعتقد بوجود خالق عظيم هو الذي أبدع كل هذه الكائنات[5].

---

(١) عن كتاب / الله يتجلى في عصر العلم ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق / ص ٤٢.

(٣) المصدر السابق/ ص ٢١

(٤) المصدر السابق / ص ٧٨.

(٥) المصدر السابق / ص ٥٧.

وفي هذه الأقوال دلالة واضحة على صدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] وفيها دلالة أيضاً على صدق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة» ... الحديث[2] ويقال لهؤلاء الملاحدة أيضاً: لماذا لا تنسبون صناعة الطائرات والسيارات والسفن وجميع ما صنعه الإنسان إلى الطبيعة أو إلى المصادفة والصدفة بل إنكم تقطعون وتؤمنون إيماناً لا شك فيه أنه من صناعة الإنسان ثم تشكون في خلق الإنسان والطير والحيوان والأسماك وسائر المخلوقات وتنكرون وجود الخالق العليم الحكيم عز وجل وتنسبون خلقها إلى الطبيعة العمياء أو إلى الصدفة الخرقاء مع أن خلقها أعظم وأبدع وأحكم من صنع الإنسان ولا نسبة بينهما، والإنسان إنما تعلم واخترع تلك الصناعات بعد مشاهدته لتلك المخلوقات العظيمة التي خلقها الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى هو الذي أعطاه العقل وعلمه وخلقه وخلق ما يعمل، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] فكفى بهذا ضلالاً وكفراً وسفهاً.

وصدق الله عز وجل إذ يقول : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

(١) الروم/ ٣٠.
(٢) تقدم هذا الحديث الشريف عند الاستدلال على الله تعالى بالفطرة .
(٣) الصافات/ ٩٦.
(٤) سورة يونس / ١٠١.

الفصل الرابع

في الحث على التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأن ذلك طريق السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة والحذر من مخالفة ذلك .

بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم فضل التمسك بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأن الخير والسعادة والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة إنما يكون باتباع ما أنزله على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وذلك بطاعته عز وجل وطاعة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام في جميع أمور الدين من أمور الاعتقادات والعبادات وسائر الأمور ، وبين سبحانه وتعالى أيضاً أن الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة إنما هو بسبب الإعراض والصد والبعد عن هذا الطريق وهذا النور المبين ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (١) .

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات المباركات :

يخبر تعالى انه أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله تعالى أن يهبطا

---

(١) سورة طه / ١٢٣-١٢٧.

إلى الأرض وأن يتخذ آدم وبنوه الشيطان عدواً لهم فيأخذوا الحذر منه ، ويعدوا له عدته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتباً ويرسل إليهم رسلاً يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته فمن اتبع ذلك الهدى الذي هو الكتب والرسل حيث عمل بطاعة الله تعالى وطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام فاتبع ما أمر به واجتنب ما نهي عنه فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أي كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية بأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو أعظم من ذلك كالإنكار له والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قيل : هو عذاب القبر بأن يضيق عليه ، وقيل : إنه عام في دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب معجل وفي دار البرزخ وفي الدار الآخرة لإطلاق المعيشة الضنك وعدم تقييدها ، والمعيشة الضنك هي الضيقة الشاقة ، وذلك جزاء لإعراضه عن ذكر ربه [1] .

وقال سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [2] .

يخبر سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركات أنه لا خير في كثير مما يتخاطب به الناس ويتناجون به ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال أو علم كما في

(١) تفسير السعدي ص ٤٦٤-٤٦٥.

(٢) النساء ١١٤-١١٥.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة [1].

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو جميع أنواع المعروف، ويدخل فيه الأمر بالمعروف، وأفضله التوحيد ، والنهي عن المنكر لأنه من المعروف ، وأعظمه النهي عن الشرك بالله تعالى .

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: وذلك بين المتنازعين، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي خالصاً لوجه الله تعالى، وهذا يدل على فضل الإخلاص وأنه أساس قبول جميع الأعمال.

ثم بين سبحانه وتعالى حال المخالفين لشرعه ومآلهم في الدارين، فقال عز وجل : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ، أي ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويسلك غير الطريق والمنهج الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾: أي بلغته الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة ثم ردها واستكبر ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي غير طريق أهل السنة والجماعة في جميع أمور الدين من العقائد والعبادات وغيرها ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نعطيه ما أراده وما اختاره لنفسه بأن نخذله ولا نوفقه للخير لأنه رأى وعلم الحق ثم تركه ورده استكباراً فجزاؤه من الله تعالى عدلاً أن

(١) الحديث رواه مسلم في الزكاة / باب التسبيح والتهليل وأعمال البر صدقة .

يبقيه في ضلاله حائراً ويزداد ضلالاً إلى ضلاله كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[1] هذا في الدنيا، ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، وهذا في الآخرة عقوبة له على أعماله في الدنيا وقد يكون هذا العذاب أبدًا وقد يكون له أمد على حسب ذنبه[2].

وقال سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[3].

والشاهد من هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر في الآيات السابقة عدداً من الشرائع التي شرعها لعباده أشار في هذه الآية إليها وإلى ما هو أعم من ذلك مما شرعه على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ أي هذا الدين بشرائعه وتعاليمه هو صراط الله تعالى المستقيم الموصل إليه وإلى دار كرامته وهو الحق المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا إفراط ولا تفريط ، بل هو وسط دائماً، ولذلك أمر سبحانه وتعالى باتباعه فقال عز وجل : ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ أي تمسكوا به وهو الكتاب والسنة كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : ((تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله تعالى وسنتي))[4].

ثم قال سبحانه وتعالى محذراً إياهم عن مخالفة هذا الطريق واتباع غيره من الطرق الكثيرة الضالة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ أي تخرجكم عن الحق إلى الباطل ومن ثم إلى النار ، لأنها طرق تدعوا إليها

(١) سورة الصف / ٥.
(٢) تفسير السعدي ص ١٦٥.
(٣) سورة الأنعام / ١٥٣.
(٤) الحديث رواه الحاكم وقد تقدم في المقدمة وهو صحيح .

الشياطين، وهي إنما تدعوا إلى النار كما قال عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1].

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «خط خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله تعالى مستقيماً، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعوا إليه» ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ومما جاء في السنة المشرفة أيضاً ما يدل على وجوب التمسك بالكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، والحذر من المخالفة والابتداع ما رواه أبو داود رحمه الله تعالى عن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: «وعظنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: أوصيكم بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة[2].

---

(١) سورة الحج / ٣-٤.

(٢) الحديث رواه أبو داود في السنة / باب في لزوم السنة، وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ٨٧١/٣ رقم: ٣٨٥١.

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على فوائد عظيمة نافعة في الدنيا والآخرة منها:

أولاً: حرص النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على أمته وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة وذلك فيما جاء في هذه الوصية النبوية المباركة .

ثانيا : أن تقوى الله تعالى هي أساس السعادة في الدنيا والآخرة ، لذلك بدأ بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الوصية النافعة الجامعة .

ثالثاً : وجوب طاعة ولاة الأمر المسلمين وعدم الخروج عليهم لأن في ذلك اجتماع أمر المسلمين وعدم تمكين الأعداء منهم .

رابعاً : إخباره صلى الله عليه وآله وسلم بحدوث الفتن بعده ، وهذا من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم ودلائل نبوته، وبيانه صلى الله عليه وآله وسلم وجوب التمسك بالكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة وأن ذلك هو طريق السلامة من هذه الفتن .

خامساً: تحذيره صلى الله عليه وآله وسلم من البدع والأمور المحدثة في الدين وأن ذلك طريق إلى الضلال عن الصراط المستقيم ، وسبب للشقاء في الدنيا والآخرة .

والشاهد من هذا الحديث حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إرشاد أمته إلى التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ، وهذا يدل على أهمية هذا الأمر ، وأنه يجب على كل مسلم أن يعتني به وأن يحذر من مخالفته .

ومن الآثار الواردة في ذلك :

١- قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رحمه الله تعالى: (علامة من أراد الله عز وجل به خيراً : سلوك هذه الطريق كتاب الله عز وجل وسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنن أصحابه رضي الله تعالى عنهم ومن تبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد ، إلى آخر ما كان من العلماء مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل والقاسم بن سلام ومن كان على مثل طريقهم ومجانبة كل مذهب لا يذهب إليه هؤلاء العلماء) [١].

٢- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (قد أمرنا الله تعالى بإتباع ما أنزل إلينا من ربنا وبإتباع ما يأتي منه من الهدى وقد أنزل علينا الكتاب والحكمة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[٢]. والحكمة من الهدى قال تعالى : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[٣] والأمر باتباع الكتاب والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وباتباعه وطاعته مطلقاً.

وقد أمر بطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في نحو أربعين موضعاً كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) كتاب الشريعة للآجري رحمه الله تعالى ص ١٨ باب ذكر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته بلزوم الجماعة .

(٢) البقرة / ٢٣١.

(٣) النور/ ٥٤.

لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾[3]. والأحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وجوب اتباع الكتاب واتباع سنته صلى الله عليه وآله وسلم[4].

٣- ومنها أيضا : قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في وصف العلم النافع والأمر بالتمسك به : فالعلم النافع ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن الكريم والحديث ، والاجتهاد في معرفة صحيحه من سقيمه ، ففي ذلك كفاية لمن عقل وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل[5].

والأدلة الواردة في ذلك من الكتاب والسنة والآثار أكثر من أن تحصى، وما ذكر فيه الكفاية ، والله تعالى أعلم.

وبهذا نختم الحديث عن الباب الأول لننتقل إلى ما بعده من أبواب نتحدث فيها عن بعض آيات الله تعالى في هذا الكون الواسع .

وأبدأ الحديث عن آية عظيمة في هذا الكون ومخلوق كبير فيه،

(١) آل عمران / ٣٢ .
(٢) آل عمران / ٣١.
(٣) الحشر / ٧.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ١٩/٨٢-٨٥.
(٥) بيان فضل علم السلف على علم الخلف للحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى ص ٤٥.

بل من أعظم المخلوقات ألا وهي السماوات وما فيها من أدلة عظيمة دالة على عظمة بانيها وخالقها جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾[2].

---

(١) غافر / ٥٧.

(٢) النازعات / ٢٧-٢٩.

الباب الثاني

في الحديث عن خلق السماء وما فيها من عجائب الصنع وعظيم المخلوقات، وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول في: (خلق السموات)

إن الآيات الواردة في خلق السماوات والدالة على عظمة هذا البناء كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[1] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدل بها على وجود الصانع تعالى وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، ثم نقل ابن كثير رحمه الله تعالى بعض أقوال العلماء في دلالة هذه الآية على وجود الخالق عز وجل وتوحيده، فقال: وقال آخرون من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها وما في الأرض من أصناف المخلوقات التي لا يعلمها إلا الله تعالى استدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم ، لا إله غيره ولا رب سواه[2] .

---

(١) البقرة ٢١-٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٩.

والحديث عن كيفية خلق السماوات لا يتم إلا عن مصدر سماوي لأن ذلك لا يعلمه أحد إلا الخالق جل وعلا ، ومهما كثرت الآراء حول ذلك فهي واهية ما لم يدعمها مصدر سماوي من كتاب الله تعالى أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم .

فمن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

فهذه الآيات تدل على أن الله تعالى خلق الأرض قبل السماء وقبل الشمس والقمر والكواكب، وفي ذلك رد على الملاحدة وأتباعهم ومن قال بقولهم من القائلين بأن الأرض فصلت عن الشمس، فالله سبحانه وتعالى قد بين في هذه الآية الكريمة أنه خلق الأرض قبل خلق السماء والشمس والقمر والكواكب.

قال الشيخ عبد الكريم بن صالح الحميد في رده على الملاحدة تحت عنوان: (الأرض خلقت قبل الشمس والنجوم والسماء):

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ...الآيات قال: فذكر أنه تعالى خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف. انتهى.

(١) فصلت/ ٩-١٢.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[1] فقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أن الأرض خلقت قبل السماء ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الذي ذكره البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء وأن دحيها كان بعد خلق السماء، ودحيها مفسر بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾[2] فهو ذلك، فهذا الذي تقدم من خلق الأرض قبل السماء والشمس والكواكب يكفي وحده لإبطال خيال الدهرية والملاحدة من أن الأرض انفصلت عن الشمس وما زالت تدور حولها. فالشمس خلقت مع السموات تبعاً لها بعد خلق الأرض[3].

وأما قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[4] فإن الراجح في تفسيرها ما ذكره ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ورجحه وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي أن السماء كانت لا تمطر فأمطرت وأن الأرض كانت لا تنبت فأنبتت لأن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن جرير الطبري بعد أن ذكر هذا القول فقال رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال:

---

(١) النازعات/ ٣٠. (٢) النازعات/ ٣١.

(٣) هداية الحيران في مسألة الدوران ص ٥٥-٥٦.

(٤) الأنبياء/ ٣٠.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ من المطر والنبات ففتقنا السماء بالغيث والأرض بالنبات وإنما قلنا ذلك لدلالة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ على ذلك وأنه جل ثناؤه لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدمه من ذكر أسبابه[1].

قلت: وهذا استنباط دقيق من ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغفر لنا وله وللمسلمين، وأما ما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله تعالى من أن معنى قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقاً متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه من هذه فجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض [2]. فإن هذا القول أي قول ابن كثير رحمه الله تعالى لا يصلح أن يكون مستنداً للملاحدة ومن تبعهم في نظريتهم الباطلة من أن الأرض انفصلت عن الشمس لأن قوله رحمه الله تعالى دل على أن الأرض كانت ملتصقة بالسماء لا بالشمس كما يزعمون قبحهم الله تعالى وشتان ما بين القولين على أن الراجح في تفسيرها هو ما تقدم من قول ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى والله تعالى أعلم.

وقد كانت هذه النظرية وهي أن الأرض انفصلت عن الشمس أو عن غيرها من الكواكب فكرة تشكيك في وجود الله تعالى وأن تكوين هذه الأفلاك إنما كان نتيجة تفاعلات وغيرها فهذه النظرية الباطلة هي في الأصل

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ١٧/١٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/١٧٦.

من وضع الملاحدة لعنهم الله تعالى المنكرين لوجود الخالق عز وجل المكذبين لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

قال الشيخ محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله تعالى: قد يستأنس بعض الناس لإثبات هذه النظرية بقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[1].

ثم قال : ونحن لا نريد أن نتعرض لهذا الاستئناس بنفي ولا إثبات ، لأن ذلك يتطلب بحثاً دقيقاً وأناةً وصبراً ومقالاً منفرداً ، ولكن نريد أن نبين للمغرورين من الشاكين ، والمغرورين من المشككين ، أن مثل هذه النظريات التي يحاول علماء الفلك أن يحلوا بها المشكلات الكونية هي أضعف من أن يعتمد عليها في نفي وجود الباري جل وعلا وإبداعه للكائنات وتدبيره لشؤونها بغاية الإحكام والإتقان ، كما قال تعالى في سورة السجدة ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[2].

وقد انتقدت طائفة من علماء الفلك هذه النظرية ولم يقبلوها [3].

فتبين من كلامه رحمه الله تعالى أن هذه النظرية ليست درعاً يعتمد عليها في نفي وجود الخالق جل وعلا بل هي أضعف من ذلك ، حتى ولو قلنا وسلمنا جدلاً بأنها فصلت عن الشمس كما يقولون فمن فصلها بهذا الميزان الدقيق الذي أقروا به ؟

ومن العجب أن يأخذ بهذا الرأي بعض من ينتسب إلى العلم مجاراة للملاحدة ويزعم أن الأرض انفصلت عن الشمس ويستدل بهذه الآية

(١) الأنبياء/ ٣٠.
(٢) السجدة / ٦-٧.
(٣) الطريق إلى الله ص ٢٣.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية.. وليس لهم فيها دليل لأنه لم يقل أحد من المفسرين بذلك وإنما جاء عن ابن كثير رحمه الله تعالى كما تقدم أنها فصلت عن السماء فهل الشمس هي السماء حتى تنفصل عنها الأرض ، قال الله تعالى مبيناً أن الشمس ليست هي السماء بل هي سراج في السماء ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[1] فتفسير السماء بأنها الشمس قول باطل وقلب للحقائق مع أن القول الراجح في تفسير الآية ما تقدم عند ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وبهذا يتبين أن الأرض خلقت قبل السماء والشمس والنجوم ويتبين أيضاً بطلان قول الملاحدة، والله تعالى أعلم.

وأما ما ورد في حقيقة السماء فإن الملاحدة وأعوانهم و بعض علماء الفلك المعاصرين ينفون أن يكون للسماء جرم وإنما هي عندهم فضاء لا نهاية له والعياذ بالله تعالى، وذلك كما ذهب إليه مؤلفا كتاب (قصة السماوات والأرض) حيث قالا تحت عنوان (القبة الزرقاء): قلنا إن أغلب الإشعاعات الشمسية تعاني ظاهرة التشتت أو التناثر في طبقات الجو وذلك بواسطة جزئيات الهواء ، وجزئيات بخار الماء ، ثم بواسطة كثير من الجزئيات الصلبة الصغيرة مثل حبات وذرات الأتربة العالقة في الهواء - إلى أن قالا- ولما كانت الموجات الزرقاء أغزر الطاقات في حزمة الإشعاع الشمسي رغم كونها من أصغرها طولاً فإنها بمجرد دخولها جو الأرض تتشتت في جميع أركان الجو وتغمره بكميات وفيرة من اللون الأزرق ، فيبدو الجو بدوره كقبة زرقاء .

(١) الفرقان/ ٦١.

أما الحقيقة الواقعية التي يجب أن نعرفها فهي أنه لا وجود لهذه القبة في صورة جسم مادي أو سماء متجسدة كما يتصور الكثير من الناس فهي في مجموعها لا تعدو كونها ظاهرة ضوئية على النحو الذي قدمناه[1] .

وقال في موضع آخر: وإذا اعتبرنا السماء تلك القبة الزرقاء الجميلة التي تبدو من فوقنا كل يوم ، فإن هذا التعريف هو تعريف خاطئ.

فتلك القبة الزرقاء سوف نرى أنها لا تعدو في مجموعها جو الأرض ولا تخرج في حقيقتها عن ظاهرة من ظواهر الضوء في هذا الجو!![2].

وبعد أن ذكرت شيئاً من أقوال بعض أهل الفلك المعاصرين في حقيقة السماء والذي هو في الواقع قول الملاحدة ومن تبعهم، أذكر بعض أقوال علماء السلف رحمهم الله تعالى في ذلك وما استدلوا به ليتبين لنا مدى ضلال أولئك الملاحدة وأتباعهم ومن انخدع بهم وبأقوالهم.

وعلماء السلف من أهل السنة والجماعة إنما استندوا في أقوالهم عن حقيقة السماء وبنائها على ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وآيات الكتاب الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تبين وتثبت أن السماء مبنية بناءً حقيقياً لا يتطرق إليه الخيال بحال .

---

(١) قصة السماوات والأرض من تأليف محمد جمال ، ومحمد يوسف ص ٢٠-٢١.
(٢) المصدر السابق / ص ١٧ .

فمن الآيات القرآنية الكثيرة التي بينت أن للسماء جرماً حقيقياً الآية السابقة وهي قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[1] .

ومنها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ - الآيات إلى قوله تعالى - ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[2] .

وقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[4] .

ففي هذه الآيات بين الحق تبارك وتعالى حقيقة خلق السماء وأنها كانت عدماً ثم أوجدها بقدرته جل وعلا .

فقوله تعالى في الآية السابقة : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ بيان لأصل تكوين السماء وأنها مخلوقة من دخان ، وهو بخار الماء المتصاعد منه،

(١) الأنبياء / ٣٠.
(٢) فصلت / ٩-١٢.
(٣) النازعات / ٢٧-٢٩.
(٤) الملك / ٣-٤.

حين خلقت الأرض[1] فخلق الله سبحانه وتعالى منه السماء وسواها ورفع جرمها وهيكلها .

قال القرطبي رحمه الله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ و ﴿ ثُمَّ ﴾ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة [2].

ثم بين تعالى خلقه لبقية السموات السبع فقال تعالى : ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي خلق السماوات السبع وخلق في كل منها ما اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يكون فيها من الملائكة وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، ومعنى قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ ﴾ أي أوحى فيها ما أراده من المخلوقات وما أمر به أهل كل منها ، وكلفه بها يليق به من التكاليف ، ثم بين تعالى أنه زين السماء الدنيا بمصابيح ، والزينة لا تكون إلا لشيء موجود لا خيالي كما يظنه البعض، فإذا قيل: إن فلاناً قد زين سقف منزله ، فلا بد من وجود سقف حقيقي تكون الزينة وصفاً له ، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[3].

ومما يدل أيضا على أن السماء مخلوقة وأن لها جرماً ، قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾[4].

فهذا خطاب من الله سبحانه وتعالى إلى منكري البعث يبين لهم أن خلق الإنسان وإعادته بعد موته ليس بأشد وأعظم من خلق السماء وبنائها ورفع سمكها، وهذا يدل على أن السماء موجودة ، وإلا لما جاء الخطاب بهذا الأسلوب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٩٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/٣٤٣.

(٣) الأنبياء/ ٣٢.

(٤) النازعات / ٢٧-٢٨.

وقوله تعالى : ﴿بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾. دليل واضح صريح لا يحتمل الشك في أن السماء مبنية وأنها مرفوعة السمك وهو السقف . قال الشوكاني رحمه الله تعالى وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم أم خلق السماء، والخطاب لكفار مكة والمقصود به التوبيخ والتبكيت لأن من قدر على خلق السماء التي لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة، وقوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ أي جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض. قال البغوي: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي سقفها[1].

ومنها قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[2] .

إن القارئ لهذه الآيات المباركات من سورة الملك ليشعر بعظمة الله جل وعلا وعظيم سلطانه وسعة ملكه ، واتقان مخلوقاته .

ففي هذه الآيات بين سبحانه وتعالى خلقه للسموات السبع وأنها مخلوقة حقاً وموجودة ومرئية وأنها مبنية بناءً عظيماً ، غاية في الإتقان والإحسان بحيث لا يستطيع أحد أن يظهر فيها أي عيب أو نقص أو تشقق

(١) فتح القدير ٥/٣٧٨.
(٢) الملك / ٣-٥.

أو تصدع وحاشا الله تعالى أن يكون في خلقه أي نقص ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[1].

ففي هذه الآيات يتحدى الله عز وجل سائر الخلق أن يجدوا أي نقص أو شق أو اعوجاج أو أي عيب في خلق هذه السماوات العظيمة، ويأمر الإنسان أن ينظر إليها باحثاً عن أي عيب، النظرة تلو النظرة ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أسلوب عظيم في التحدي، ردد البصر مرة ومرتين وأكثر لتجد نقصاً، فهل تجد ذلك؟

والفطور بمعنى الشقوق والصدوع والخروق ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين مرة بعد مرة، والمراد بالتثنية التكثير[2]، ووجه الأمر بتكرار النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية، ولهذا قال أولاً: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي اختلاف وتناقض واعوجاج، ثم قال ثانياً: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ثم قال ثالثاً: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة، ثم بين تعالى الحقيقة فقال: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾أي يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً عن أن يرى شيئاً من ذلك، وقيل معنى: ﴿خَاسِئًا﴾ مبعداً مطروداً عن أن يبصر ما التمسه من العيب ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل منقطع وقد عجز من قبل أن يرى في السماء خللاً، وفي ذلك رد على من زعم أن السماء غير هذه المرئية أو أنها الأجرام السماوية أو المجموعة الشمسية لأن قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ يدل على أن المراد بالسماء هي هذه المرئية الواسعة الزرقاء، والله تعالى أعلم.

(١) السجدة / ٧.
(٢) فتح القدير ٥/٢٥٩.

ثم بين تعالى أنه خلق للسماء الدنيا وهي التي تطل على المخلوقات زينة عظيمة لينتفع بها أهل الأرض بمنافع لا تحصى ، فهل بعد هذا البيان الشافي الوافي من شك في خلق السماء وأن لها جرماً وسمكاً .

والشاهد من الآية السابقة قوله تعالى : ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

فهذه السماء التي فوقنا والتي عبر عنها العلماء العصريون (بالقبة الزرقاء) ونفوا أن تكون سماء ذات جرم قد ردت عليهم هذه الآية وغيرها من الآيات الكثيرة، فهو سبحانه وتعالى يستحيل أن يأمر عباده بالنظر إلى السماء وأن يرددوا النظر بعد النظر ليروا إن كان هناك فرجة لشيء لا وجود له، بل لسماء مخلوقة لها جرم حقيقي مشاهد موصوف بالكمال في الخلق كما قال تعالى في آية أخرى ، وأثبت أن السماء هي هذه التي نراها فوقنا، فقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[1] فهذه الآيات من سورة قٓ وسورة الملك ذكر سبحانه وتعالى فيها أموراً تقتضي إلزاماً أن السماء هي هذه التي نراها حقيقة وأن لها جرماً .

فالأمر الأول : أنه سبحانه وتعالى أمر عباده بالنظر بأبصارهم وهو لا يكون إلا لشيء مرئي وموجود، وهو سبحانه وتعالى لا يأمر عباده بالنظر إلى شيء ما إلا وعندهم القدرة على النظر إليه حيث يكون متمثلاً أمامهم كما قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾[2]... الآيات .

ثانياً : قرن الأمر بالنظر بتحديد مكان السماء وهو جهة العلو

(١) سورة قٓ / ٦ .

(٢) الغاشية/ ١٧-٢٠.

فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ فهذا دليل لا يحتمل الشك على الإطلاق في أن هذه التي فوقنا هي السماء ولو كان المراد بالنظر النظر العلمي لما حدده بالفوقية بل أراد النظر البصري وهو لا يكون إلا لشيء موجود ومشاهد كما تقدم في آية سورة الملك.

ثالثاً : أثبت أن هذه السماء التي أمرنا بالنظر إليها قد بناها والبناء لا يكون لشيء معدوم وهو هنا بناء حسي كما هو واضح من سياق الآية.

رابعاً : أثبت أنه تعالى قد زينها ، والزينة لا تكون لشيء معدوم.

خامساً: إن نفي الفروج والفطور والشقوق لا يكون إلا لشيء له جرم وسمك ولو كانت مجرد هواء وفضاء لا نهاية له كما زعم الملاحدة لما نفى رؤية الفطور والشقوق، وهذا الأمر كما هو معلوم شرعاً هو معلوم عقلاً أيضاً بلا خلاف.

ومن الآيات الدالة أيضا على أن للسماء جرماً قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[1] فهذه الآية المباركة تدل على أن للسماء جرماً وجسماً حقيقياً وأنها كالسقف لأن قوله تعالى ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ فيه دلالة واضحة على ذلك ، ووجه الدلالة أن الذي يحتاج إلى عمد هو الجسم، فكونها رفعت بغير عمد دل على عظيم قدرة الله تعالى في ذلك. ولو كانت السماء كما زعم الملاحدة أنها فضاء لا نهاية له ، وأنه لا جسم لها لما كانت هناك حاجة إلى نفي وجود أعمدة ترفعها كما هو معلوم ، وهذا مخالف للآية المبينة لقدرة الله تعالى على رفع السماء بلا عمد ويترتب عليه القول بنفي قدرة الله تعالى في رفع السماء ذات الجسم بلا عمد وإنكار وجود السماء وتكذيب الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام.

(١) الرعد/ ٢.

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي على ظلمهم[2]. ولو قيل إن المراد بالسماء هنا هي الأجرام السماوية فهذا القول باطل كما سيأتي قريباً، والشاهد من هذه الآية أنه لو لم يكن للسماء جرم حقيقة لما امتن الله تعالى على الناس بإمساكه وعدم وقوعه فيهلكون.

قال الشيخ عبد الكريم بن صالح الحميد: ومما يوضح بطلان زعم الملاحدة وأتباعهم أن الفضاء لا نهاية له وتأويلاتهم لفظ السماء بالتأويلات الفاسدة الكاذبة أن الله تعالى ذكر للسماء أحوالاً وصفاتاً لا يصح إطلاقها على الفضاء مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[3] وهذا يكون يوم القيامة، والفضاء لا يوصف بالانشقاق، ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[4] الآية، يعني يوم القيامة فلولا أنها بناء لما وصفها بالتشقق، وقال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[5] يعني شقوق، ولا يقال: انظر إلى الفضاء، هل ترى فيه من شقوق؟.

وهذا يدل على أنها بناء محكم وقد ورد في آيات عديدة وصف السماء بأنها مبنية ولها أبواب، كذلك من الآيات قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[6] والفضاء لا يقال إنه يطوى.

(١) الحج/ ٦٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢٣٣.
(٣) الإنشقاق/ ١.
(٤) الفرقان/ ٢٥.
(٥) الملك/ ٣.
(٦) الأنبياء/ ١٠٤.

أما الفضاء فهو المسافة التي بين السماء والأرض ، وفي مواضع من القرآن الكريم يذكر الرب عز وجل السماء والأرض وما بينهما ، فلولا أن للفضاء نهاية وللسماء جرماً لما قال الرب سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[1] .

ولو قيل إن المراد بالسماء هي الكواكب والأجرام السماوية المتفرقة كما زعم أهل الباطل، فالجواب أن هذه الكواكب هي الزينة التي زين الله تعالى بها السماء الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾[2] والذي يدل على ذلك أيضاً أن هذه الكواكب متفرقة عن بعضها والله سبحانه وتعالى أخبر أن السماء لا شقوق فيها ولا فطور ، قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

فدلت الآيات السابقة على أن السماء لا شقوق فيها ، وأن الله تعالى زين السماء الدنيا بالكواكب ، والزينة غير المزين ولو كانت هذه النجوم والشمس والقمر وبقية الأجرام السماوية هي السماء فأين الزينة إذاً؟ ولذلك فرّق الله سبحانه وتعالى بين هذه الكواكب والشمس والقمر وبقية الأجرام وبين السماء فقال تعالى في آية أخرى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[4] والله تعالى أعلم.

---

(١) هداية الحيران في مسألة الدوران / ص ٤٦ لعبد الكريم بن صالح الحميد .

(٢) الصافات/ ٦-٧.

(٣) الملك/ ٣-٥.

(٤) الفرقان/ ٦١.

ومن الآيات أيضا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [3].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[4].

من هذه الآيات الكريمات يتبين لنا أن السماء مخلوقة ، وأن لها جرماً وأنها مرفوعة السمك بقدرة الله تعالى سبحانه وتعالى .

وهناك آيات أخرى بينت أن السماء مبنية ، وأن لها أبواباً كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[5].

وقوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾[6].

وقوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾[7].

فقوله تعالى : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ بين أن للسماء أبواباً وأنها تفتح، والمراد بهذه الآية روح الكافر إذا صعدت إلى السماء لا تفتح لها أبواب السماء ، أما الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ فالمراد بها يوم القيامة حيث تفتح أبواب السماء وتكون طرقاً لنزول الملائكة عليهم السلام .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ فهي في عذاب قوم نوح عليه الصلاة والسلام ، وقد ورد في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى ما نصه :

(١) فاطر / ٤١.
(٢) غافر / ٥٧.
(٣) الذاريات / ٤٧.
(٤) الغاشية / ١٨.
(٥) الأعراف / ٤٠.
(٦) سورة النبا / ١٩.
(٧) القمر / ١١.

قال ابن جريج رحمه الله تعالى ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، ففتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم[1] فهذا يبين أن المقصود بالسماء هنا ليس مجرد العلو، وإنما السماء الحقيقية المعروفة.

وذكر سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى أنه بالإمكان الصعود إلى الكواكب بعد أن تطورت الصناعات تطوراً هائلاً ، ونفى أن تكون هذه الكواكب هي السموات كما يقول البعض، بل هي تحت السماوات ، وذكر بعض من قال ذلك من علماء التفسير .

ثم قال : وبذلك يعلم أنه لا مانع من أن يكون هناك فضاء بين الكواكب والسماء الدنيا يمكن أن تسير فيه المركبات الفضائية ، ويمكن أن تنزل على سطح القمر أو غيره من الكواكب ، ولا يجوز أن يقال بامتناع ذلك إلا بدليل شرعي صريح يجب المصير إليه .

والشاهد من قوله رحمه الله تعالى أنه قال بعد ذلك: أما السماوات المبنية فهي محفوظة بأبوابها وحراسها ، فلن يدخلها شياطين الإنس والجن ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[3].

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٣.
(٢) الأنبياء / ٣٢.
(٣) الحجر / ١٦-١٧

لما عرج به إلى السماء مع جبريل عليه السلام لم يدخل السماء الدنيا وما بعدها إلا بإذن ، وغيره من باب أولى [1].

فتبين من هذه الأحاديث أن المكان الذي صعد إليه هؤلاء الكفرة في هذا العصر ليس هو السماء لأنه لو كان السماء لما دخلها هؤلاء الكفرة لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أشرف الخلق لم يدخلها إلا بإذن الله تعالى فكيف بهؤلاء الكفرة الأنجاس؟! ولأن الله تعالى أخبر في الآية السابقة أن الكفرة ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

فهم أحقر وأصغر وأدحر من أن يدخلوها بأرواح كافرة نجسة وهم لم يصعدوا إلا إلى القمر كما يزعمون قبحهم الله تعالى ، إن سُلِّم لهم بذلك، قال تعالى : ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[2] .

وجاء في السنة المطهرة من حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه في كيفية قبض روح المسلم والكافر ومآل كل منهما ، حيث قال : (كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤسنا الطير وهو يلحد له فقال : استعيذوا بالله من عذاب

(١) الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى ص ١٣ .

(٢) الصافات / ٤-١٠.

القبر ثلاث مرات، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ، فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة) ... الحديث [1] .

والشاهد منه أنه ذكر أن للسماوات السبع أبواباً وأنها تفتح لاستقبال أرواح المؤمنين.

ومن ذلك حديث الإسراء والمعراج حيثُ بين أيضًا أنَّ للسماء أبواباً فقد أخرج البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، قال: كان أبو ذر رضي الله تعالى عنه يحدث: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئت إلى

(١) الحديث بكامله رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٨٧/٤ ، وأبو داود في سننه ، وقال الألباني رحمه الله تعالى : صحيح ، انظر صحيح سنن أبي داود ٦١٩/٢ رقم ٢٧٥١ ، ورقم ٤٧٥٣.

السماء الدنيا ، قال جبريل لخازن السماء : افتح قال من هذا ؟ قال هذا جبريل، قال هل معك أحد ؟ قال : نعم معي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أرسل إليه ؟ قال نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا ، إلى أن قال في الحديث: حتى عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح ، فقال له خازنها : مثل ما قال الأول ، ففتح ، إلى أن بلغ السماوات السبع، ثم قال: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ، ثم قال: حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي ثم ادخلت الجنة فإذا فيها حبايل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»[1].

من هذا الحديث الشريف يتبين لنا أن السماوات سبع وأن لها أبواباً، فعلم بذلك أنها ذات جرم وأنه لو لم يكن لها جرم لما كان هناك فرق بين السماوات السبع بل كانت كلها شيئاً واحداً لا يتميز بعضه عن بعض ، وذلك باعتبار أنها فضاء لا نهاية له كما زعم الملاحدة في معنى السماء عندهم قبحهم الله تعالى وأخزاهم.

ومن الآثار الدالة على أن السماوات هي التي نراها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، حيث ذكر أن السماوات هي هذه المرئية واستدل بقوله تعالى في سورة الملك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[3] وأمثال ذلك من النصوص الدالة على أن السماء مشاهدة[4].

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة / باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء رقم/ ٣٤٩.
(٢) الملك / ٣-٤.
(٣) سورة ق/٦.
(٤) مجموع الفتاوى ٦/٥٩٣.

فإن قال قائل : إن الملاحدة لا يستدلون بالسماء على وجود الخالق عز وجل ، قيل : إن عدم اقتناعهم بأن لهذه السماء العظيمة خالقًا لا ينفي وجود الخالق كما قيل:

وهبني قلت هذا الصبح ليلاً   أيعمى العالمون عن الضياء[1]

فهم وإن جحدوا وجود الخالق بألسنتهم فإنهم يقرون به في قرارة أنفسهم كما قال عز وجل : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2].

وبعد هذا الحديث الموجز عن السماوات وحقيقتها ودلالتها على وجود الخالق جل وعلا ، ننتقل إلى الحديث عن بعض أجرام السماء لنرى بعضاً من تلك العجائب الباهرة والتي وقفت عقول البشر حائرة أمامها وأمام دقة صنعها ، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[3].

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢١٤.
(٢) النمل / ١٤.
(٣) آل عمران / ١٩١.

الفصل الثاني في الأجرام السماوية

أولا: معنى الجِرم في اللغة:

قال ابن منظور: والجِرم بالكسر: الجسد والجمع القليل أجرام [1].

فتبين من هذا المعنى اللغوي أن الجرم هو البدن والذات، وذات كل شيء جرمه، وعلى هذا فالأجرام السماوية كلمة عامة تشمل كل ذي جسم في الفلك أي في السماء سواء صغر أو كبر، وأجرام السماء كثيرة لا يحصيها إلا خالقها سبحانه وتعالى، فسبحان من أوجد هذا الخلق الرائع المحكم في سيره ودورانه وزين به السماء وجعل منه فوائد كثيرة لا نعلم إلا القليل منها، ومن الأجرام السماوية ما هو أكبر من الأرض بالعديد من المرات كالشمس، كما ذكر علماء الفلك، والعلم عند الله تعالى.

وقد اخترعت في هذا العصر أجهزة ساعدت الإنسان على اكتشاف حقائق ومعلومات في شتى نواحي الحياة، لم يكن ليصل إليها لولا أن الله سبحانه وتعالى يسر له سبل العلم والتعلم، حتى وصل إلى درجة عالية في مجالات العلوم المختلفة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [2].

وهذا راجع إلى فضل الله تعالى وكرمه على الإنسان، حيث فضله وميزه على سائر المخلوقات، وأنعم عليه بنعمة العقل التي هي سبب من أسباب الهداية إلى الإيمان بخالقه عز وجل وذلك بالنظر في هذا الملكوت الواسع بتفكر وتدبر كما يسر له الحصول على الطيبات ووسائل الراحة،

(١) لسان العرب ١/٤٤٦.

(٢) العلق / ٤-٥.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] .

فهذه الآية الكريمة بينت ما أنعم الله تعالى به على هذا الإنسان في جميع شؤونه من مركوب ومأكول وغير ذلك وما فضله به على سائر المخلوقات .

ومما لا شك فيه أن وصول إنسان هذا العصر إلى هذا التقدم العظيم في الصناعات وغيرها من العلوم المختلفة الدالة على خالقه عز وجل وتوحيده لهو دليل واضح على ما منحه الله تعالى من نعم شتى في سائر شؤون حياته حتى أوصله إلى هذا المستوى، قال سبحانه وتعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

لذلك قد أسلم كثير من الملحدين وهم يرون دقة الصنع في خلق الله تعالى سواء في الكون أو في الإنسان أو الحيوان ، وكابر البعض لكن الأنفس في قرارتها تعلم أنه الحق .

فهذه الدقة في الصنع والإحكام في الخلق والإنشاء من أعظم الدلائل على وجود الباري جل وعلا وتوحيده، فمن رأى الكواكب في مساراتها ودرس علوم الفلك ، وعلم الدقة في موازينها وتراكيبها وطبائعها المختلفة ، ومنازل سيرها وغير ذلك من سائر المخلوقات مما لا يعلمه ولا يحصيه إلا الله تعالى ، من رأى بعضاً من ذلك علم أن هذا الخلق عظيم وأن خالقه أعظم فيوجب له الدخول في الإسلام إن كان كافراً ، والزيادة في الإيمان إن كان مؤمناً .

(١) الإسراء / ٧٠. (٢) فصلت / ٥٣.

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بمواقع النجوم ، فقال تعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1].

ثم بين سبحانه وتعالى أن القسم والمقسم به وهو مواقع النجوم والمقسم عليه وهو القرآن الكريم كلها عظيمة.

قال الشيخ أبو بكر جابر الجزائري:

وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي أقسم بمواقع النجوم وهي مطالعها ومغاربها ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي قسمي هذا القسم ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم من أهل العلم ﴿عَظِيمٌ﴾ لأن النجوم ومنازلها ومطالعها ومساقطها ومغاربها التي تغرب فيها أمور عظيمة في خلقها وتدبير الله فيها، إنه لقسم بشيء عظيم والمقسم عليه عظيم أيضاً بل أعظم، فالمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي المكذب به ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ لا كما قال المبطلون شعر وسحر وكذب واختلاق[2].

فالقسم لا يكون إلا بعظيم، فكيف إذ أكد بأنه عظيم ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه وهو ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[3].

والعوالم العليا فيها من الأدلة والبراهين على وجود الخالق وتوحيده الشيء الكثير ، كذلك السفلية ، ولذلك أثنى الله عز وجل على عباده الذين

(١) الواقعة / ٧٥-٧٦.
(٢) أيسر التفاسير ٤/٣٩٩.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٩٨.

يتفكرون في خلق السماوات والأرض ويصلون من وراء هذه التفكر إلى مراقبة الله عز وجل بطاعته والخوف منه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

والأجرام السماوية كثيرة ومشاهدة ، وأعظمها نفعاً لسكان الأرض هي (الشمس) فهذه الشمس العظيمة في الخلق ، قد خلقها الله عز وجل كما خلق سائر الكواكب ، وهي مسخرة لبني الإنسان وغيره من الكائنات وفيها من الفوائد للإنسان في طعامه وشرابه ومسكنه وسائر أمور حياته الشيء الكثير ، ثم يليها في الإنتفاع (القمر) فالشمس والقمر هما سيدا الأجرام السماوية في الإضاءة وغيرها من المنافع ، فتعاقبهما على الأرض ، هذه بالنهار وذلك بالليل على مدى الأزمان من غير اختلاف بتقدم أو بتأخر كل هذا يثبت الإيمان ويقويه في قلوب المؤمنين، ويدخله في قلوب الكافرين لمن شاء الله تعالى له ذلك.

ومما يدل على عظم خلق هذين الجرمين ودقة نظام سيرهما ودلالتهما على الخالق سبحانه وتعالى لا سيما الشمس فهي أكبر من القمر ما استدل به الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على إثبات وجود الله تعالى وتوحيده، حين أنكر ذلك النمرود لعنه الله تعالى ، حيثُ زعم أنه الإله ولا إله سواه

(١) آل عمران / ١٩٠-١٩٥. وسأتعرض لهذه الآية عند الحديث عن (اختلاف الليل والنهار).

فطلب منه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يطلع الشمس من مغربها عكس ما هي عليه من صنع الله تعالى فإذا كان إلهاً حقاً فليتصرف في هذا الجرم السماوي العظيم ، فإن الإله بحق من له القدرة على ذلك ، فكما أن الله تعالى يطلعها من مشرقها وهو على إطلاعها من ذلك المكان قدير ، فليفعل النمرود شيئاً مغايراً لذلك يستدل به على أنه متصرف بالكون وأجرامه ، فتثبت ألوهيته ، ولكن هذا غير ممكن للنمرود فأُخرس واعترف لسان حاله بعبوديته ، وقد وردت هذه القصة في كتاب الله تعالى ، وسأذكرها لنرى ما دار بين الحق والباطل .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

في هذه الآية العظيمة نرى ما دار بين الحق والباطل من صراع والغلبة كانت في النهاية للحق كما هي سنة الله تعالى في ذلك دائماً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[2].

وهذا الصراع دار بين الخليل إبراهيم نبي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وبين ملك بابل وهو النمرود الملحد لعنه الله تعالى.

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ أي في وجود ربه، وأنكر أن يكون هناك إله غيره ، وما حمله على هذا التعنت والمعاندة والطغيان الشديد إلا كفره وتجبره وطول مدته في الملك ، وذلك أنه يقال إنه

(١) البقرة / ٢٥٨.
(٢) غافر / ٥١.

مكث أربعمائة سنة في ملكه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ وقد طلب من نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام دليلاً على وجود الرب الذي يدعوا إليه فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي أن الدليل على وجوده سبحانه وتعالى حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها ورجح وجودها على عدمها، وهو الرب سبحانه وتعالى الذي يدعو إليه الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له .

فحقيقة الموت والحياة حقيقة تقف عندها القدرات المزعومة لأنها سر الله تعالى في الكون ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

فهذه الحقيقة لا تكون إلا بيد الخالق العظيم القدير الكامل في جميع صفاته الذي لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه آخر ، وإن ادعاء شخص الألوهية والربوبية تقف دعواه أمام هذه الحقيقة عاجزة لا تبدي ولا تعيد .

فعندما ادعى النمرود الحياة والموت ، أتى برجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فقتل وأمر بالعفو عن الآخر فلم يقتل ، فهذا الذي قصده النمرود بالإحياء والإماتة ، ورغم وضوح الأمر وأن هذا المعنى لم يقصده

(١) الملك / ١-٢.
(٢) الإسراء / ٨٥.

إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإنما قصد الإحياء الحقيقي بعد الإماتة لنفس الشخص ، إلا أن النمرود أراد أن يوهم أتباعه أنه أتى بما طلب منه ، ولما رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذه المكابرة الواضحة من زعم النمرود أنه يحيي ويميت في هذه الصورة من المغالطة الفاشلة ، قال له إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ادعى هذه الدعوى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أي إذا كنت كما تدعي أنك تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تطلع في كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما تدعي تحيي وتميت، فأت بها من المغرب ! فلما علم النمرود عجزه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام انقطع وسكت ، فلم يتكلم وقامت عليه الحجة ، قال تعالى : ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً بل ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة عدة أدلة على إثبات وجوده سبحانه وتعالى وتوحيده ، منها : حقيقة إيجاد الحياة ، فإيجاد الحياة في الموات أمر لا يقدر عليه أحد سوى الإله الحق الذي استحق الألوهية الحقة بهذه القدرات الباهرة التي يعجز عنها كل مدع لها ، ممن ادعوا الألوهية كذباً وباطلاً .

والمتأمل في أرجاء المعمورة يرى بعينه هذه الحقيقة ، وهي الحياة والموت في كل يوم نرى أجناساً من المخلوقات تحيا وأخرى تموت ، من إنسان

(١) الشورى / ١٦.

وحيوان ونبات وحشرات وأخرى غيرها كثيرة لا يعلمها إلا خالقها سبحانه وتعالى ، واهب الحياة وسالبها .

ولذلك طلب الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الملحد أن يعيد الحياة إلى الشيء الميت .

ولما كانت إعادة الحياة أصعب في نظر البشر من إماتة الحي ، طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام أولاً إيجاد الحياة ثم ثنى بالموت ، وكان رد الملحد عليه رداً ساقطاً تبين فيه كذبه وبهتانه لكل من له أدنى بصيرة أو عقل، وما فعله الملحد من إتيانه برجلين ، إلى آخر القصة ليس فيه دلالة على أية قدرة ، بل فيه دلالة على العجز والإرتباك وقلة الفهم .

وتمشى إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع الملحد وطلبه منه أن يأتي بدليل آخر، لا يدل على أن النمرود قد أتى بصفة الحياة والموت ، بل كان ذلك من إبراهيم عليه الصلاة والسلام إستدراجاً لإيقاع الملحد في فخ لا يستطيع الفكاك منه بل ولا الكلام ولا المناقشة فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أوتي الحكمة والمجادلة الحسنة في الدعوة إلى ربه عز وجل، ثم ما جاء في المقطع الثاني من الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين الملحد ، قال تعالى : ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ .

الحقيقة التي لا تنكر بل هي من الوضوح أكثر من كل واضح ، فلا أحد ينكر أن الشمس تشرق في كل يوم من المشرق ثم تغرب في المغرب ومن أنكر هذا فهو مسلوب العقل ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي

قد أتى بالشمس من المشرق بقدرته ثم هو الذي يغيبها في المغرب بقدرته عز وجل ، فهذا من أعظم الأدلة على وجوده وتوحيده سبحانه وتعالى لأن سير هذا الجرم العظيم بنظام لا يتبدل ولا يعتريه الخطأ على مدار الزمن لهو أعظم دليل على وجود مدبر له في مساراته ومنازله ، وهو الله عز وجل الذي بيده أزمة الأمور وإليه المرجع والمصير سبحانه وتعالى.

وبعد ذكر ما دار بين الخليل عليه الصلاة والسلام وبين النمرود الملحد لعنه الله تعالى وما استدل به إبراهيم عليه الصلاة والسلام على وجود الخالق عز وجل وتوحيده بصفة الإحياء والإماتة وتسيير الأجرام السماوية، أعود إلى الحديث عن الشمس والقمر ، فأقول : إن الحديث عن الشمس والقمر يحسن أن يكون بذكر بعض آيات الكتاب العزيز فهي خير دليل يوضح ما لتلك الأجرام من عظمة في الصنع والإتقان ومن فوائد متنوعة على الأرض لا سيما وأن تلك الآيات هي من كلام خالق هذه الأجرام ، سبحانه وتعالى والذي هو أعلم بها.

فمن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

ففي هذه الآية الكريمة بين الله سبحانه وتعالى نوعاً من أنواع خلقه العظيم الدال على كمال عظمته وقدرته وعظيم سلطانه حيث إنه جعل أشعة الشمس الصادرة عنها ضياءً وجعل أشعة القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر،

(١) يونس / ٥.

ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يكمل بدراً ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول وذلك يكون في تمام الشهر ونهايته ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١)(٢).

وقوله تعالى : ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى : قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو أصل العذق ، ومعنى كلامه رضي الله تعالى عنهما أنه هو أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى(٣).

وقال الله تعالى : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(٤).

وكم لهذين الجرمين من عظيم النفع والفائدة ، فالقمر لولا تسخير الله تعالى له لم يكن هناك ضبط للشهور والأعوام ولكان علم الناس بذلك عسيراً في حسابهم ، وبيانه أن دورة القمر في منازله حول الأرض تتم في ثمانية وعشرين يوماً ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً أو ليلةً إذا كان ناقصاً فجعلت هذه المنازل مقياساً للشهر ثم بالنظر لاختلاف الفصول من شتاء وصيف وخريف وربيع جعل القمر مقياساً لها أيضاً ، حيث جعل كل فصل ثلاثة أشهر وكل شهر أربعة أسابيع وكسر ، فدورة القمر هي التي نبهت الإنسان بإذن الله تعالى إلى أقسام السنة الإثني عشر المسماة شهوراً ، هذا ما للقمر .

وبالنسبة لسير الشمس ففيه ضبط الفصول الأربعة باعتبار بعد

(١) سورة يس / ٣٩-٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٥٧٢.

(٤) الأنعام /٩٦.

الشمس وقربها ، وهي الدورة السنوية ، من صيف وشتاء وربيع وخريف ثم هناك السنة القمرية والسنة الشمسية ، وكل له حساب يعلمه علماء الفلك، وكذلك في سير الشمس حول الأرض أيضاً تعاقب الليل والنهار وهي الدورة اليومية ، فبسير الشمس حول الأرض تعرف الفصول الأربعة والأيام والليل والنهار ، وبسير القمر حول الأرض تعرف الشهور والأعوام ولهذا قال تعالى : ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

ومعناه أن الله عز وجل راعى في خلق ذلك الحكمة والمصلحة ولم يذر القمر والشمس يتخبطان في سيرهما بل ضبطهما على مقتضى احتياج الناس وحسابهم، وبهذا الحساب يزدادون دقة وتحكماً ومنفعة .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

والمتأمل لأحوال الشمس في انخفاضها وارتفاعها يرى فيها من الحكم العظيمة فمن ذلك حصول الأزمنة والفصول ، وتنوع الثمار والمحاصيل تبعاً لذلك ولو كان الزمن فصلاً واحداً لما كانت هناك مصالح وفوائد كما هو الحال بتنوع الفصول ، فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ، ولو كان شتاءً لفاتت مصالح الصيف ، وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله ، ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ، ويحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها ، وقوة أبدان الحيوان ، وتزايد القوى الطبيعية، واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان، وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر،

ويتحرك الحيوان للتناسل ، وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن فتنضج الثمار، وتذهب فضلات الأجسام التي انعقدت في الشتاء لأن البرودة تجمد الأبدان، بخلاف الحرارة فتميع كل مجمد ، فإذا أتى الخريف اعتدل الزمان ، وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخاً وحاجزاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان فجأة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيعظم الضرر ، فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه .

ثم الحكمة في طلوع الشمس على الكون كيف قدره العزيز العليم فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر فيترتب أن يكون الليل سرمداً على من لم تطلع عليهم والنهار سرمداً على من هي طالعة عليهم فيتضرر هؤلاء وهؤلاء ، فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي ثم تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم بذلك مصالحهم وتحسن معايشهم .

ولننظر إلى الشمس والقمر وما أودع فيهما من النور والإضاءة ، وكيف جعل الله سبحانه وتعالى لكل منهما بروجاً ومنازل ينزلانهما مرحلة بعد مرحلة على اختلاف أزمنة السنة لإتمام مصالح العالم ومعرفة الحساب الذي لا غنى لهم عنه .

فبذلك يعلم حساب الأعمار وغيره من الحسابات المختلفة ،

فلولا تنقل الشمس والقمر في تلك المنازل منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك، وقد نبّه الله تعالى على ذلك في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾الآية[1].. وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[2][3] فسبحان من أبدع في خلقه وأتقن في صنعه .

ويقال [4] : - والعلم عند الله تعالى - إن سطح القمر غالبه مكون من صحارى واسعة منبسطة ليس فيها شيء من دلائل وجود زراعة أو حياة من أي نوع، وقد انتشرت على الجزء الأكبر منها مرتفعات دائرية تظهر كأنها حافات فوهات براكين خامدة ، وكثير من هذه الفوهات هو من الكبر بحيث يتسع داخلها لأن يحتوي على مساحات هائلة لو قدرت من الأرض ، ويرى مبعثراً هنا وهناك قلل جبال عظيمة مسننة وسلاسل جبال تبدو كأنها محددة ومفصلة على الصورة التي برزت فيها للوجود أول مرة .

فالجبال الموجودة على أرضنا بقدرة الله تعالى ومشيئته قد عريت إلى حد ما بفعل العوارض الجوية على مدى السنين ، والسبب في هذا الاختلاف أن القمر ليس له جو ، فليس يحول دون رؤيته مطر ولا ضباب ولا سحب ولا تراب إلى غير ذلك من العوارض الجوية ، وهناك جبال مرتفعة يبلغ طولها

(١) يونس/ ٥.
(٢) الإسراء / ١٢.
(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/٢٠٨.
(٤) انظر : النجوم في مسالكها/ ص ٣٢.

تسعة عشر ألف قدم ، وسهول منبسطة ومتسعة ، ونور القمر المعروف إنما هو من ضوء الشمس المنعكس على سطحه ، وقيل[1] عن الشمس إنها أكبر من الأرض بعدة مرات ، وإنها ليست ساكنة كالقمر وعطارد ، بل كل شيء فيها يتحرك والسطح كله هائج يغلي ويتفجر فجوفها عبارة عن مركز هائل من مراكز توليد القوة ، لا يكل ولا ينقطع والطاقة التي تتولد وتنساب في داخلها تجعلها ساخنة إلى حد مريع ، ونتيجة ذلك أن يندفع نحو سطحها تيار عظيم من الحرارة ، فإذا بلغ سطحها ، انصب إلى الفضاء شعاعاً ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[2] ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾[3].

فالشمس هي باعثة الحرارة بإذن الله تعالى ، والحرارة منشأ الحياة ومبعث النشاط في جميع الكائنات ، في الإنسان والحيوان ، في النباتات بشتى أنواعها في البحار والمحيطات وما تحويه من أحياء لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، في البراري الشاسعة والوديان الواسعة ، في السهول وغير ذلك من أحياء على وجه هذه الأرض ، فلولا أن منَّ الله تعالى علينا بهذه الشمس لتجمد كل شيء ، وبالتالي لمات كل شيء فالشمس ليست للإضاءة فَحَسْب بل إن لها منافع كثيرة قد ذكرت بعضها ، كذلك القمر ، ليس للنور فَحَسْب بل له منافع يعلمها المتخصصون في علوم الفلك ، ومن بعض هذه المنافع كما تقدم معرفة حساب السنين والشهور والأيام التي هي من أعظم منافع القمر وبدونها تصبح أمور الإنسان صعبة المنال بل إن جل أموره التي

(١) النجوم في مسالكها / ص ٣٩.

(٢) المؤمنون / ١٤.

(٣) السجدة / ٧.

تعتمد على معرفة التاريخ تتوقف ولا سيما الأمور الدينية ، كأشهر الحج ورمضان وغيرهما من المناسبات الدينية .

والقمر له منظر جميل وخلاب ، فهو صديق السائرين ليلاً ، وزينة للسماء، فنوره الذي يعم الكون يضفي على النفوس لذةً وراحةً نفسية ، فهو مناسب لسكون الليل وهدوء الكون ، فسبحان من وضع كلاً في موضعه اللائق به فلو كان القمر دائماً في النهار كما يرى أحياناً لما كانت له تلك البهجة التي توجد في هدوء الليل وطيب هوائه ، ففي ظلام الليل وضوء القمر راحة للإنسان وسائر المخلوقات ، وفي الليل تأوي الخلائق إلى مساكنها وتخلد أجسامها إلى الراحة فتستعيض ما فاتها من طاقة بالنهار . قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[2] .

والكلام حول الشمس والقمر وسائر الكواكب كلام شيق وجميل لأن الإنسان مجبول على النظر إلى ما حوله وما فوقه من مخلوقات ، فإذا صاحب هذا النظر معرفة بعض ما لهذه المخلوقات من عظمة في الصنع ودقة في الخلق كان ذلك آكد في تذوق حلاوة الإيمان بخالق هذا الكون والخضوع له وعبادته والخشية من عقابه وعذابه ، فما الإنسان أمام هذه المخلوقات الهائلة والأجرام الكثيرة إلا ذرة في فلاة ، بل أقل من ذلك ، ولكن تكبره وكفره

(١) الفرقان / ٦١-٦٢.
(٢) سورة النبإ / ٩-١٣.

يأبيان عليه أن يعترف بتلك العبودية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[1] قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى (مرحاً) أي متكبراً على الحق وعلى الخلق[2] وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[4] فلو تدبر الإنسان فيما حوله لآمن ولاهتدى قلبه ولترك ما هو عليه من كفر وإلحاد وكبر، وقديماً قال ذلك الرجل الذي هداه الله تعالى بالآيات الكونية إلى معرفته عز وجل وترك دين قومه من عبادة الأوثان، وهو زيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، حيث جاء في السيرة[5] أنه مات قبل مبعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه لم يدخل في اليهودية ولا في النصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان وكل ما فيه شرك بالله عز وجل، وقال: أعبد رب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد قال هذا الرجل الحنيفي شعراً يظهر فيه محبته لمعرفة الدين الحق، واتباعه له.

وذلك بعد أن تَتَبَّع آيات الله تعالى في هذا الكون واستدل بها على وحدانيته عز وجل حتى أوصله عقله السليم وفطرته المستقيمة بعد توفيق الله تعالى للاهتداء إلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً لا شريك له وأن كل عبادة لغيره إنما هي سخافة وقلة بصيرة وحمق وجهالة، فبنظره إلى هذا الملكوت الواسع

(١) الإسراء / ٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ص ٤٠٩.

(٣) غافر / ٥٧.

(٤) الكهف / ٥٤.

(٥) سيرة ابن هشام: ١/٢٠٦-٢١١.

وما فيه من آيات عظيمة جعلته يتذوق حلاوة الإيمان بخالقه جل وعلا ، ويقول هذه الأبيات:

إلى الله أهـدي مدحتي وثنائيا ... وقولاً رصيناً لا يني[1] الدهر باقيا

إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه ... إله ولا رب يكون مدانيا

ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لا تخفى من الله خافيا

وإياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا

رضيت بك اللهم رباً فلن أرى ... أدين إلهاً غيرك الله ثانيا

وأنت الذي من فضل مَنٍّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا

فقلت له يا اذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذي كان طاغيا

وقولا له : آأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا

وقولا له : آأنت رفعت هذه ... بلا عمد ارفق إذاً بك بانيا

وقولا له : آأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنه الليل هاديا

وقولا له : من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست الأرض ضاحيا

وقولا له : من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه ... وفي ذاك آيات لمن كان واعيا

وأنت بفضل منك نجيت يونسا ... وقد بات في أضعاف حوت لياليا

وإني ولو سبحت باسمك ربنا ... لأُكثر إلا ما غفرت خطائيا

فرب العباد ألق سيباً ورحمة ... عليَّ وبارك في بنيَّ وماليا

---

(١) لا يني : أي لا يزال. مختار الصحاح / ص ٧٣٧.

تبين لنا من هذا الشعر ما كان عليه زيدٌ[1] من معتقد يخالف دين قومه من وثنية وعبادة لغير الله سبحانه وتعالى وأن نفسه المطمئنة كانت تحدثه وتلح عليه بأن لهذا الكون الواسع وهذه المخلوقات خالقاً ورباً حكيماً مدبراً، له القدرة والسيطرة التامة على جميع مخلوقاته وله العظمة والإتقان في الصنع، وإلهاً ومعبودًا واحدًا لا شريك له في ذلك ولا ند ولا مثيل، وهذا مما جعله على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ملة التوحيد[2] والإخلاص، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3].

وقد كان الأعراب في باديتهم أقرب الناس إلى الإيمان لما يشاهدونه في هذه الصحراء من مخلوقات تدل على الخالق جل وعلا، وقد خاطب الله عز وجل العرب في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بواقع ما هم فيه حتى يكون ذلك أقرب إلى إسلامهم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[4] فالقارئ

(١) قيل: إن بعض هذه الأبيات له وبعضها لغيره، كما ذكر ابن هشام رحمه الله تعالى في سيرته ٢٠٩/١، والله تعالى أعلم.

(٢) ذكر البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في حديثه عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه قال: (اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام) وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: ورد في بعض الروايات عند الطبراني أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له بالمغفرة والرحمة وشهد له بأنه مات على التوحيد دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فتح الباري ١٤٢/٧ كتاب مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل رقم: ٣٨٢٧.

(٣) الأنعام / ١٦١.

(٤) الغاشية / ١٧-٢٠.

لهذه الآيات يرى أن خطاب الله تعالى في القرآن الكريم كان موافقاً تماماً لما كان عليه العرب فهو لم يذكر لهم غير هذه المشاهدات التي أمامهم ، وإلا فهي كثيرة ، فهناك البحار ، وهناك الحيوانات البحرية والبرية ، وحيوانات أخرى غير الإبل ، لكنه سبحانه وتعالى خاطبهم بواقعهم ، صحراء شاسعة وسماء ذات أبراج ، والإبل هي وسيلة السفر في ذلك الوقت والجبال هنا وهناك ، فسبحان الله العليم بما يصلح لكل عصر ووقت ، الحكيم الذي أنزل الكتاب على عبده ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ نُبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل.

وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾[2].

وكذلك النجوم والكواكب لها فوائد أخرى للإنسان في حياته إلى جانب ما فيها من تأثير في زيادة الإيمان، وهي الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر على الطرق وعلى مكان القبلة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) الفرقان/ ١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٥٠٣.

(٣) الأنعام / ٩٧.

وقد ذكر البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن قتادة قال : خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث : زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به [1] اهـ.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[3].

والذي عليه أهل الإسلام وأهل السنة والجماعة أن الأرض ثابتة وأن الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة تدور حولها ، فمن الأدلة الدالة على جريان الشمس قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[4].

وقال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[5] قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أي يدورون .

ومن السنة ما رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً: أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة لله عز وجل فلا تزال

(١) صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق باب / في النجوم .
(٢) الملك/ ٥.
(٣) النحل/ ١٦.
(٤) يس / ٢٨.
(٥) الأنبياء / ٣٣.

كذلك حتى يقال لها ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة لله عز وجل ولا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فيقال لها ارتفعي ، أصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ وعند البخاري رحمه الله تعالى: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1] .

فقوله تعالى : ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ((أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟)) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن هذه تجري)) فيه رد على الملاحدة ومن تبعهم من القائلين بأن الشمس ثابتة والأرض والكواكب متحركة تدور حولها وهو ما يسمونه بالمجموعة الشمسية، بل إن الأرض ثابتة والشمس والقمر والكواكب السيارة يدورون حولها ، كما سيأتي في قول ابن كثير رحمه الله تعالى.

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان مسلم بشرح النووي ٢/١٩٤، والبخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ رقم/ ٤٦٣٥ وكذلك باب قول الله تعالى :﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ رقم/ ٤٨٠٢.

ومن الأدلة الدالة على ثبات الأرض من القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾[1] والقرار هو السكون والثبات في لغة المخاطبين بالقرآن.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى:﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[3] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك[4].

ومن السنة ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»[5].

قال المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى: قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم، وجاء من طريق آخر عزاه ابن كثير في

---

(١) غافر/ ٦٤.

(٢) النحل/ ١٥.

(٣) النمل/ ٦١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٠.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ١٥٣ وصححه الألباني في السلسلة كما هو في المتن، والحديث أصله في الصحيحين حيث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم رقم ٣٢٠٧، ورواه مسلم في كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفرض الصلوات، مسلم بشرح النووي ٢/ ٢٢٥.

تفسيره لابن أبي حاتم بزيادة (بحيال الكعبة) ولهذه الزيادة شاهد مرسل من رواية قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة لو خرَّ خرَّ عليها» أخرجه ابن جرير حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة. قلت: وهذا إسناد مرسل صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير بشر وهو ابن هلال الصواف فمن رجال مسلم وحده.

وجملة القول أن هذه الزيادة «حيال الكعبة» ثابتة بمجموع طرقها، وأصل الحديث أصح والله تعالى أعلم[1].

والشاهد من الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم «حيال الكعبة» أي أن البيت المعمور في السماء السابعة وهو فوق الكعبة التي في الأرض تماماً حيث إنه لو سقط لسقط عليها لأن معنى كلمة (حيال) في اللغة أي: مقابل، وإزاء وحذاء، تقول: جلست حذاءه وإزاءه وحياله أي مقابلاً له[2] ففي ذلك رد على الملاحدة وعلى كل من قال بقولهم من القائلين بدوران الأرض إما حول نفسها أو حول الشمس.

قال الشيخ عبد الكريم صالح الحميد بعد أن ذكر هذا الحديث: والشاهد فيه أن الأرض لو كانت تدور لتغير موضع البيت الحرام عن حيال البيت المعمور فلو سقط لم يسقط عليه، وهذا واضح[3].

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، المجلد الأول/ رقم: ٤٧٧.
(٢) مختار الصحاح ص ١٦٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر ١/٣٥٨.
(٣) هداية الحيران/ ص ٩٢.

ومن الآثار الدالة على هذا المعنى أيضاً ما ذكره عبد القاهر بن طاهر البغدادي في كتابه الفَرق بين الفِرق مبيناً عقيدة أهل السنة والجماعة حيث قال رحمه الله تعالى: ومنها أنهم أجمعوا على وقوف الأرض وسكونها وأن حركتها إنما تكون لعارض يعرض لها من زلزلة ونحوها خلاف من زعم من الدهرية أن الأرض تهوي أبدا[1].

وقال الشيخ عبد الكريم بن صالح الحميد في الرد على من زعم وقال بدوران الأرض سواء حول نفسها أو حول الشمس:

ويزعمون أن الشمس ثابتة وأن الأرض جارية تدور دورة يومية حول نفسها لتعاقب الليل والنهار، وتدور أيضاً دورة سنوية حول الشمس لتعاقب الفصول الأربعة، فلها دورتان دورة يومية ودورة سنوية في زعمهم، وهذا القول باطل، فتعاقب الليل والنهار يحصل بعكس قولهم وهو دوران الشمس حول الأرض وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فقد فسر هذه الآية ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره من المفسرين بأن معناها يدورون، فالشمس تدور في فلكها حول الأرض فيحصل الليل والنهار.

ومن العجيب أن يُستدل بهذه الآية على دوران الأرض مع أنه ليس للأرض فيها ذكر بل هي صريحة في دوران الشمس على كرة الأرض في فلكها المستدير في كرة السماء كذلك دوران الليل والنهار والقمر، فتعاقب الليل والنهار على كرة الأرض بواسطة دوران الشمس حولها وهو الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ... الآية كما تقدم وكذلك

(١) الفرقُ بين الفِرَق لعبد القاهر بن طاهر البغدادي ص ٣١٨.

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ والعرب تقول: كورت العمامة إذا أدرتها على الرأس وليس الرأس هو الذي يدار لتكوير العمامة عليه، والقرآن نزل بلغة العرب ، وهذه الآية دليل أيضاً على كروية الأرض لأن التكوير لا يكون إلا على الجسم المستدير.

وكذلك يزعم الدهرية أن تعاقب الفصول الأربعة واختلافها إنما يحصل بدوران الأرض حول الشمس وليس كذلك، وإنما يحصل بدوران الشمس على الأرض مع اختلاف مطالعها ومغاربها كل يوم، فيكون من نتائج ذلك تعامد أشعة الشمس وميلها الذي بسببه تتعاقب الفصول فبما أن فلك الشمس عريض في السماء حيث هي تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب فإنها حينما تكون فوق رؤوسنا تكون الأشعة عمودية فترتفع الحرارة، وذلك في الصيف، وعندما تميل في السماء تكون الأشعة مائلة ليست عمودية فتنخفض الحرارة وقت الشتاء، وأما الربيع والخريف فبين ذلك، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني مشرقي الصيف والشتاء ومغربي الصيف والشتاء، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه للناس. ثم قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ انتهى.

وهذا واضح فلو كانت الأرض تدور حول الشمس لتعاقب الفصول لما ذكر الله تعالى المشارق والمغارب الذي معناه دوران الشمس حول الأرض وتغير مطالعها ومغاربها، فلو كان الأمر على تخريف الملاحدة لذكر الله تعالى حركة الأرض ودورانها حول الشمس لتحصل مصالح الخلق بتغير الفصول[1].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[2] ..الآيات، إن الكواكب السيارة سبعة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل[3]. ولم يذكر الأرض، وفي ذلك دليل على أن الأرض ثابتة فإنها ليست من الكواكب السيارة وأن هذه الكواكب هي التي تسير وتدور حول الأرض ولذلك سميت بالكواكب السبعة السيارة وفي ذلك رد على الملاحدة وأعوانهم ومن قال بقولهم من أن الشمس ثابتة وأن الأرض تدور حولها، بل العكس هو الصحيح.

قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى: قد شاع بين كثير من الكتاب والمؤلفين والمدرسين في هذا العصر أن الأرض تدور والشمس ثابتة، وراج هذا على كثير من الناس، وقد دلت أدلة القرآن الكريم والأحاديث النبوية وإجماع علماء الإسلام والواقع المشاهد على أن الشمس جارية والأرض ثابتة قارة بسطها الله تعالى لعباده وأرساها بالجبال لئلا تميد بهم، وقد نص علماء التفسير كابن جرير والبغوي وابن كثير والقرطبي

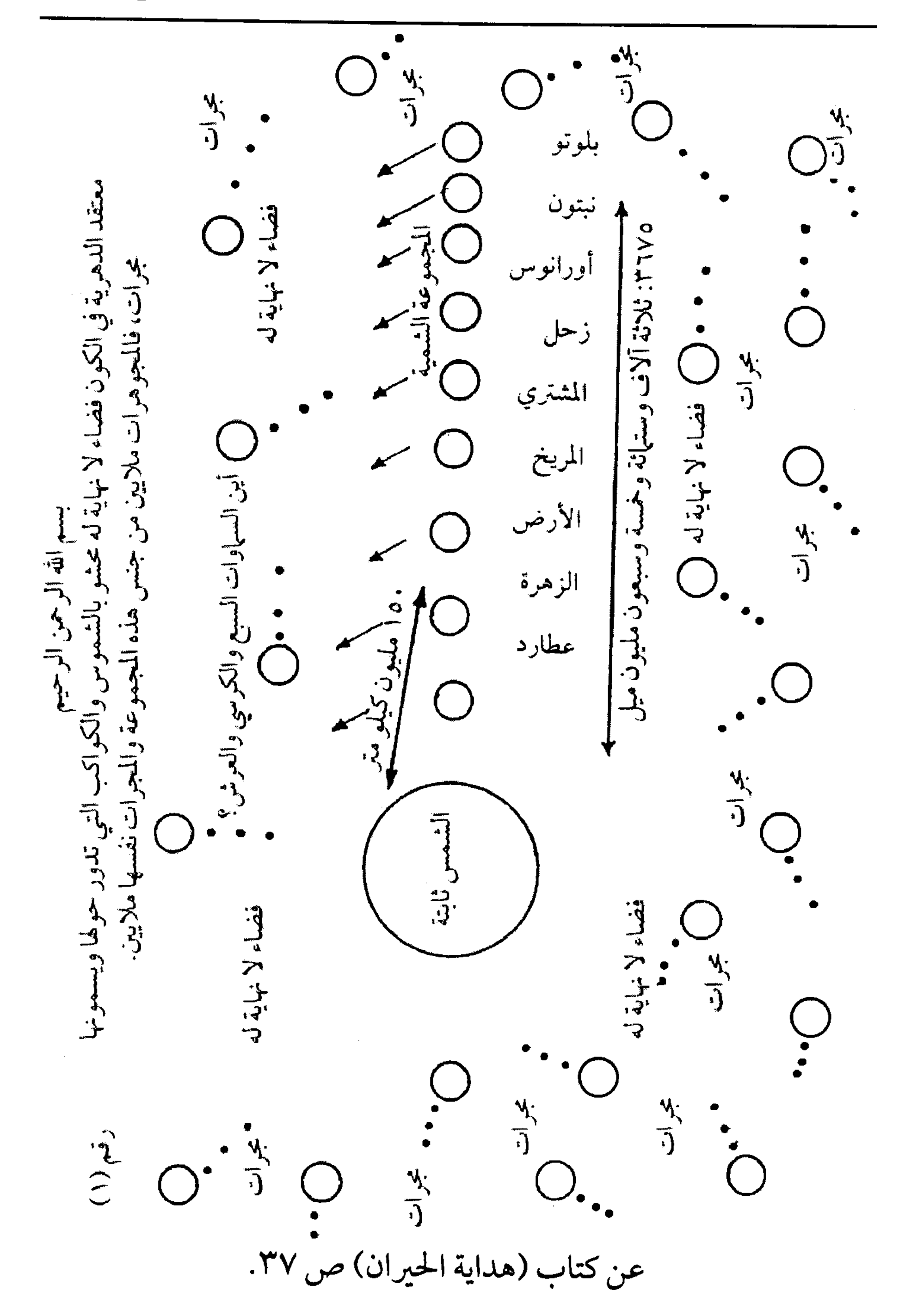
(١) هداية الحيران/ ص ٥٨، ٨٠.
(٢) الأنعام/ ٧٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٥١.

وغيرهم على ما دلت عليه الآيات المحكمات من جري الشمس وسكون الأرض، وكذلك صرح علماء الإسلام المعروفون من كون الشمس والقمر جاريين سائرين في فلكهما على التنظيم الذي نظمه الله تعالى لهما وأن الأرض قارة ساكنة، فمن زعم خلاف ذلك وقال: إن الشمس ثابتة لا جارية فقد كذَّب الله سبحانه وتعالى وكذَّب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقال كفراً وضلالاً ، وكل من كذَّب الله سبحانه وتعالى أو كذَّب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر ضال مضل يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً ويكون ماله فيئاً لبيت المسلمين كما نص على مثل هذا أهل العلم والإيمان في باب (حكم المرتد).

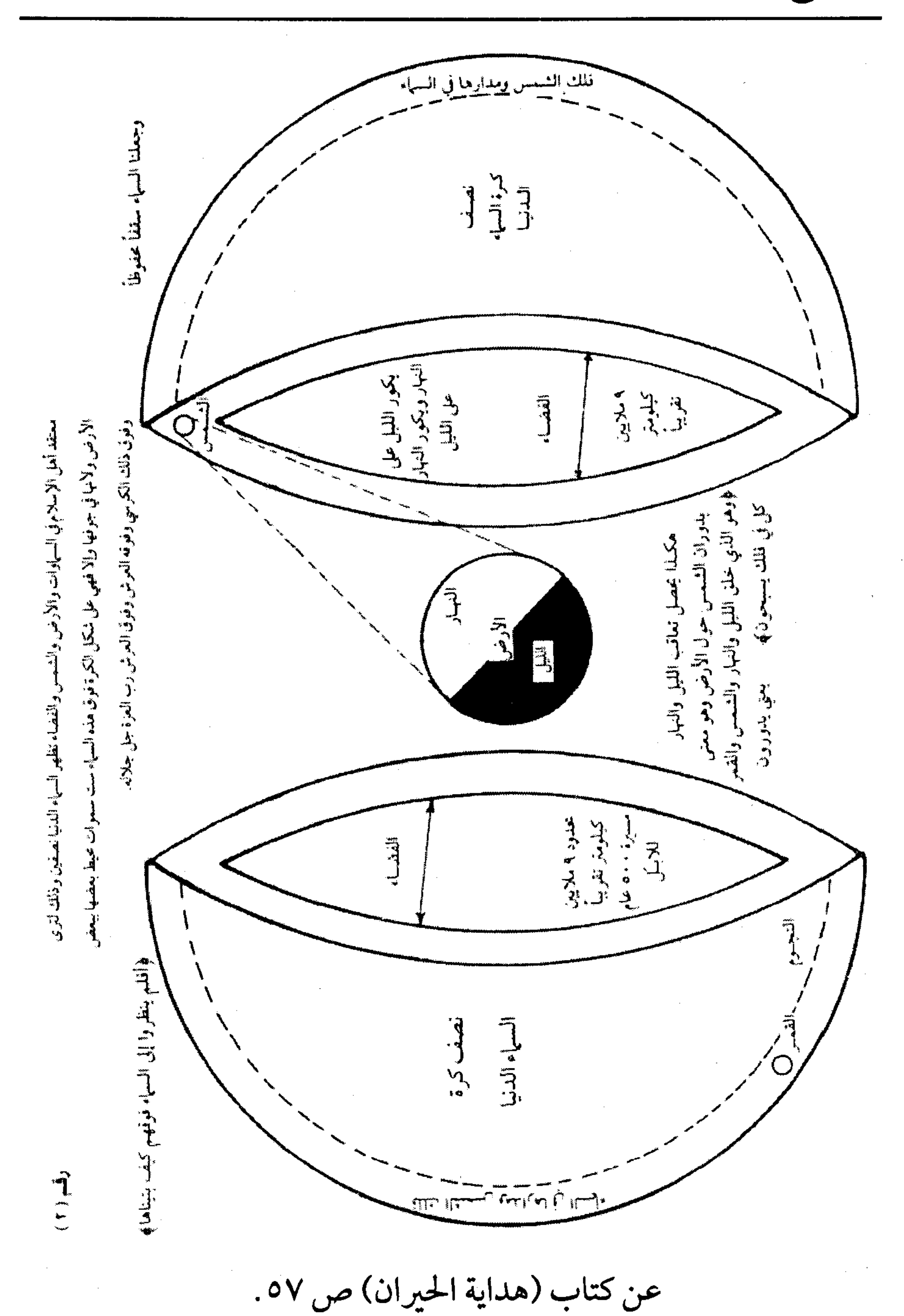
وأما من قال إن الأرض تدور والشمس جارية فقوله أسهل من قول من قال بثبوت الشمس؛ ولكنه خطأ ومخالف للآيات المتقدمات ووسيلة للقول بعدم جري الشمس[1].

ومن أراد التوسع في هذه المسألة فليرجع إلى كتاب هداية الحيران في مسألة الدوران، والله تعالى أعلم.

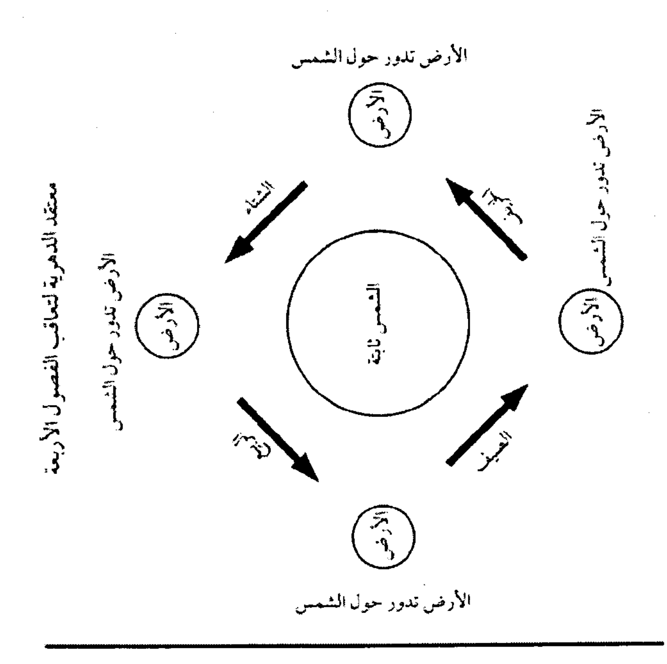
(١) الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض ص ٢١-٢٣.

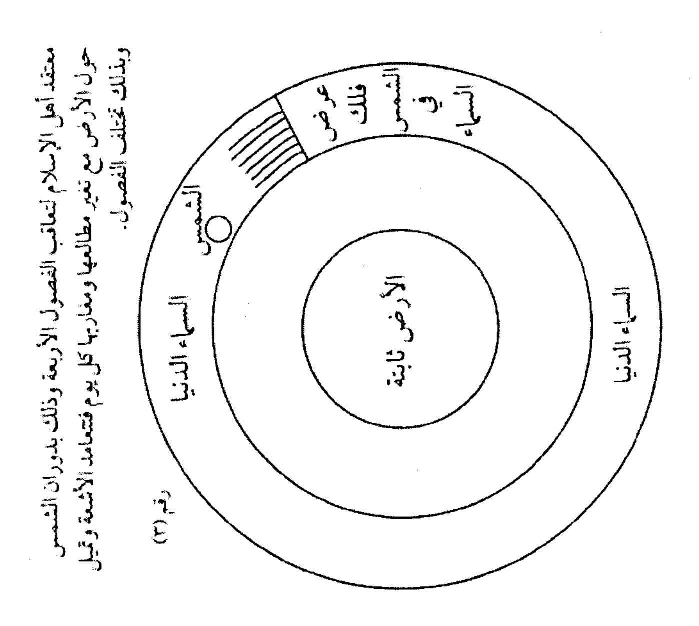


عن كتاب (هداية الحيران) ص ٣٧.



عن كتاب (هداية الحيران) ص ٥٧.





عن كتاب (هداية الحيران) ص ٧٧.

الفصل الثالث
في العوامل الجوية

إن العوامل الجوية كثيرة ومتعددة وسأذكر بعضها ، فمن ذلك : الرياح والسحب والأمطار ، وتعاقب الليل والنهار .

(والعوامل جمع عامل وهو ما عمل عملاً ما)[1] وسميت عوامل جوية لأنها تعمل في الجو أي تحدث فيه تغيرات وتبدلات من حال إلى حال بإذن الله تعالى ومشيئته .

وحديثي حول هذه العوامل لا أعني به مجرد الحديث الجغرافي أو الحديث الخالي عن النظرة الإيمانية العميقة ، التي تقودنا إليها هذه العوامل.

وإنما الغرض منه معرفة قدرة الباري جل وعلا ودقة صنعه في جميع مخلوقاته على الإطلاق .

وأبدأ حديثي عن الرياح لأنها سبب لسوق السحب وبالتالي حدوث الأمطار وتساقط الثلوج وجريان الأنهار .

المبحث الأول
الحديث عن الرياح

خلق الله تعالى الرياح وجعلها آية من آياته عز وجل وجنداً من جنده، فبها تسير السحب وتسير المراكب في البحار وتصلح الأجواء ، ويحسن حال المخلوقات عامة من إنسان وحيوان ونبات .

---

(١) لسان العرب ٢/٨٨٧.

وأذكر في ذلك بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن الرياح ، فمن ذلك : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

وأغلب الآيات القرآنية التي وردت في شأن الرياح كانت كلها أو أكثرها في الحديث عن كيفية نزول الأمطار وسوق السحب.

ومنها هذه الآية الكريمة حيث تحدثت عن نعمة الله عز وجل في تسخيره الرياح لسوق السحب من الأماكن البعيدة إلى الأماكن التي قدر الله تعالى بحكمته نزول الأمطار فيها ،وأخبر سبحانه وتعالى أنها بشرى وأنها رحمة منه للخلق ، فمن الذي يستطيع سوق تلك السحب المحملة بأطنان من المياه؟! ثم من هو الذي يستطيع بعد ذلك إنزال الأمطار منها؟!.

والمراد بقوله تعالى : ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ المقصود بالرحمة هنا المطر ونزوله أي أن الرياح تأتي أمام المطر أي بين يدي المطر وقبله فهي سابقة لنزوله كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى ، وكما هو مشاهد ومعروف ، وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي حملت السحاب وساقته بقدرة خالقها عز وجل إلى المكان الذي أراده سبحانه وتعالى ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي أنزلنا بالمكان الذي أردناه الماء ، وقيل إن الباء بمعنى (من) وأن المعنى : فأنزلنا منه الماء ، أي من السحاب ، ثم بين تعالى حال الأرض العقيمة بعد نزول المطر فيها ، فقال تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من شتى أصناف الثمار وجميع أشكالها المختلفة من حلو وحامض وأخضر وأبيض وأصفر إلى آخر ما هنالك.

---

(١) الأعراف / ٥٧.

ثم بين تعالى الحقيقة التي اختلف فيها الخلق والتي يترتب عليها الإيمان وعدمه وهي حقيقة البعث بعد الموت وأن القادر على إخراج الحياة من البذور الميتة في أرضها وجعلها أشجاراً باسقة خضراء بعد أن كانت ميتة هامدة لا حياة فيها، الذي صنع ذلك كله قادر على إعادة الإنسان بعد موته، وحيلولته إلى التراب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أن إخراج النبات من الأرض بالماء مثله يكون إخراج الخلق من قبورهم من الأرض بعد الموت، ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بالإشارة إلى وجوب التفكر والتذكر في آيات الله تعالى، وأنه ليس المقصود هو النظر البحت بل المقصود نظر العين والقلب فالإنسان يرى الشيء بعينه ويتأمله بقلبه.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتذكروا عظمة الخالق سبحانه وتعالى في كل شيء من خلقه فتعلموا بالتفكر والتذكر أن الذي أخرج النبات من الأرض الميتة قادر على إعادة الإنسان بعد موته، فتصلوا بذلك إلى حقيقة الإيمان.

وغاية النظر في خلق الله تعالى هو هذا الإيمان الموصل إلى دار السلام ورضى الرحمن جل وعلا.

ومن الرياح ما هو قوي وعات ويسمى (ريحاً) كالذي أهلك الله تعالى به قوم عاد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[1] و قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2]...الآية.

وحديث اشتداد الرياح «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً،

(١) الحاقة/ ٦.

(٢) فصلت / ١٦.

اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً))[1].

ومنها ما يسمى بالإعصار والذي يكون به خراب الديار، قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾[2] فسبحان من جعل الرياح رحمة لمن شاء والريح عذاباً على من شاء.

ومن الرياح ما هو بارد شديد البرودة، ومنه ما هو حار شديد الحرارة كل ذلك التنوع والإختلاف دليل على الخالق جل وعلا وتوحيده.

ومن الآيات التي تحدثت عن الرياح أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[3] فهذه الآية الكريمة بينت ما للرياح من دور فعال في تكوين السحب تمهيداً لنزول الأمطار بإذن الله تعالى ومشيئته.

وقد أورد الشوكاني رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: (يرسل الله الرياح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر).

وأورد أيضاً عن عبيد بن عمير قال: يبعث الله تعالى المبشرة فتقم[4] الأرض قماً ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فتجعله كسفاً ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاماً ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر[5].

وقيل أيضاً إن معنى كلمة لواقح: أي أنها تلقح الأزهار، تأخذ بذور الذكور فتضعه في الإناث بإذن الله تعالى. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: (لواقح) أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها

(١) الحديث رواه مسلم في صلاة الإستسقاء / باب في التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر / مختصر صحيح مسلم / ص ١٢١.

(٢) البقرة / ٢٦٦. (٣) الحجر / ٢٢.

(٤) تقم الأرض: تكنس الأرض / مختار الصحاح ص ٥٥١.

(٥) فتح القدير ١٢٨/٣.

وأكمامها ليكون منها الإنتاج[1] فمن فعل ذلك؟ هل هي الطبيعة العمياء المزعومة ؟! كلا إنه الخالق جل وعلا ، ومن جعلها تقوم بهذه الأعمال التي تعجز عنها جميع المخلوقات ؟

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[2] فتبين من هذه الآية وما قبلها من الآيات الواردة في الرياح أن أكثر أعمالها هو سوق السحب وتلقيحها حتى تمطر، وتلقيح النباتات والأزهار، وأيضا ورد في الريح قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾[3] فهذه الآية بينت أيضاً أن للريح دوراً في سوق السفن إلى أماكنها بإذن الله تعالى ، وأنه لولا تسخير الله تعالى هذه الريح لتوقفت السفن وإنما ذلك من رحمة الباري جل وعلا .

وكما تكون الرياح رحمة كذلك قد تنقلب إلى ريح[4] وتكون عذاباً كما تقدم فتشتد حتى تضطرب الأمواج وتغرق السفن ، كل ذلك بسبب ذنوب العباد، لا ظلماً منه تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾[5].

وبهذا القدر نكتفي من الحديث عن الرياح لننتقل بعده إلى الحديث عن الأمطار وكيفية تكونها.

---

(١) الجواهر ٨/٤١، تفسير ابن كثير ٢/٥٤٩.

(٢) فاطر / ٩.   (٣) الشورى / ٣٢-٣٤.

(٤) تطلق الرياح ويراد بها الرحمة ، وتطلق الريح ويراد بها العذاب كما تقدم في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق ((اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً)) رواه مسلم في صلاة الاستسقاء / مختصر صحيح مسلم ص ١٢١ .

(٥) الشورى / ٣٤.

المبحث الثاني
الحديث عن الأمطار والسحب

الأمطار نعمة كبرى من نعم الله تعالى على عباده التي لا تحصى فبها تكون حياة العباد والبلاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾[2].

وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات بينت كيفية تكون تلك الأمطار فمن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾[3] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[4] .

والحديث عن هذه الأمطار يسوقنا للحديث عن الرعد والبرق ومراحل تكون تلك الأمطار.

فالله عز وجل يخبر في الآية المباركة السابقة ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ ...الآية، أنه يسوق السحاب بقدرته أول نشأته وهو متفرق ضعيف ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ

(١) الأنبياء / ٣٠.
(٢) الفرقان/ ٤٨-٤٩.
(٣) النور / ٤٣.
(٤) الحجر / ٢٢.

بَيْنَهُۥ ﴾ أي يجمعه بعد تفرقه وتناثره، فسبحانه من إله قدير ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أي متراكباً بعضه فوق بعض ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ أي من خلله ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ أي أن في السماء جبالاً من برد ينزل الله تعالى منها البرد، وقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته[1] فهذه الجبال المذكورة تتكون صخورها البردية من تكاثف السحب وتراكمها[2]، والله تعالى أعلم.

والمتأمل في بدء تكون الأمطار وما تمر به من أحوال إلى أن تصبح سيولاً، يعلم أن هذا الكون وما فيه يسير على نظام مبدع غاية في الإبداع والدقة.

فلننظر إلى السحب في أول تكوينها وكيف أنها تصعد في شكل أبخرة إلى أن تصل إلى الطبقات العليا من الجو، حيث تتجمع هناك وتتراكم بإذن الله تعالى، ثم تنزل منها الأمطار حيث أراد الله تعالى لها.

وبعض العلماء يخالفون هذا الرأي ويقولون إن السحب لا تتكون من البحار وإنما تتكون في السماء مباشرة بقدرة الله عز وجل.

وعلى كلا الرأيين فالصانع واحد وهو على كل شيء قدير، فإن كان السحاب يتكون من البحار أو في طبقات الجو العليا، فهذا لا يؤثر في الإيمان بزيادة ولا نقصان، وإنما الغاية والهدف العلم بأن الذي أنزل هذا الماء سواء من تبخر مياه البحار أو من خلقه مباشرة في السماء أو منهما معا هو الإله الواحد القدير العليم، وهذا هو المقصود، بل إن الله عز وجل قادر على إنزال الماء بدون سحب كما حصل في إهلاك قوم نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضي الله

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ص ٥١٩.

تعالى عنهما قال : ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، ففتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم[1].

فسبحان من أنشأ هذه الجبال من السحب البيضاء أو القاتمة السوداء، وقد شاهد الإنسان في هذا العصر حقيقة هذه السحب وذلك لما اخترع آلات الطيران والصعود إلى الجو ، فالراكب في الطائرة حينما تحاذي به السحب وتخترقها يرى أنها جبال حقاً من لون أبيض ، ويرى عظمة الخالق جل وعلا فمن الذي رفعها إلى هذا الحد ، وأوقفها في الجو ، فلا تتناثر أو تهوي وإنما هي ثابتة في أماكنها كأمثال الجبال على الأرض ، لا تحركها إلا الرياح القوية ، التي تسوقها إلى حيثُ أراد لها خالقها عز وجل أن تمطر ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

ثم الحكمة في إنزال هذا الماء من السحاب والذي يراه الناظر وكأنه لا وزن له ، حتى ولو نزل هذا السحاب على الأرض هو في الحقيقة لا وزن له وإنما هو شبيه بالضباب ، فكيف حول هذا السحاب إلى أنهار ومياه لو وزنت لكانت أطناناً لا تعد ولا تحصى ، بل إن مقداراً بسيطاً منها لا يستطيع حمله الإنسان ، فكيف بهذه السحب قد حملت هذه الأوزان الثقيلة ، وهي تسير بها من غير تعب أو مشقة قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٣.
(٢) النمل / ٨٨.
(٣) الرعد/ ١٢.

ثم من رفع هذا السحاب بهذا الإرتفاع ، فلو كان نازلاً على الأرض لحجب الأشياء ، ولما نزل منه المطر ، نزولاً من أعلى ، ولما سقيت به جميع الأرض، فإن إنزاله من أعلى يغطي مساحات واسعة من الأرض كذلك انحداره من أعالي الجبال والهضاب يجعل منه الأنهار العظيمة التي يستقي منها العباد والبلاد ، إن في ذلك لعبرة ودلالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده.

ثم في إنزال الماء من السماء مظهر من مظاهر الرحمة لا ينكره أحد فإن الإنسان والحيوان يستبشر عند نزول الأمطار ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

ومن مظاهر الحكمة في إنزال الماء من السماء أن الله عز وجل أنزله على قدر احتياج الأرض والعباد له فلو أنزله بكثرة لكان ذلك ضرراً وذلك كما يحدث أحياناً في بعض البلاد من الفيضانات التي يكون بسببها هلاك كثير من البلاد والعباد على قدر ذنوب العباد ، فلذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الإنزال على قدر الحاجة ، كذلك كثرة الماء تحدث الرطوبة والتعفن لكثير من المواد فكانت الحكمة أن يكون معتدلاً .

---

(١) الشورى / ٢٨.

(٢) الروم /٤٨-٥٠.

ولو تتابعت الأمطار لأهلكت ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الثمار والحبوب وأتلفت الزروع والخضروات ، وحدث بذلك كثير من الأمراض ، وتقطعت المسالك والسبل.

كذلك الحكمة في تتابع الصحو والغيم فلو لم يكن هناك صحو لما ذهبت الرطوبات الناتجة عن الأمطار ولسد الهواء وحصل بذلك الضرر ولو استمر الصحو لهلكت الأرض من يبسها وهلك من عليها فكان التقدير الإلهي حكيماً ، حيث جعل الصحو والغيم متعاقبين ، فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد ضرر الآخر ، كل ذلك دلالات لمن تأمل واعتبر على وجود الخالق جل وعلا وتوحيده.

ثم إحياء الله عز وجل الأرض الميتة بهذا الماء وإخراجه منها صنوف النباتات المختلفة في الطعم المشتبهة في اللون، المتباينة في الأشكال والروائح كل ذلك وغيره أدلة واضحة وجلية على الخالق عز وجل وتوحيده.

فإخراج الحياة من هذه البذور الميتة التي لا حياة فيها بعد نزول الماء عليها لهو أكبر دليل على وجود واهب للحياة لا يعتريه العجز بحال ، وهو كذلك متصف بصفة الحياة الدائمة أزلاً وأبداً وبجميع صفات الكمال ولا يعقل أن يكون غير ذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فالذي أخرج الحياة من الأرض الميتة هو الذي خلقك أيها الإنسان وبث فيك الحياة وهو الذي يميتك ثم هو الذي يحييك ويخرجك من هذه الأرض للحساب ، كما أخرج النبات من الأرض الميتة ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [1] ولقد حاول الملاحدة لعنهم الله تعالى

(١) الروم / ١٩.

أن يتجاهلوا كيف وجدت الحياة في البذور الميتة ولكن لا مفر من مواجهة هذا السؤال الذي لا جواب له إلا وجود الخالق عز وجل الذي أوجد الحياة في هذه البذور وغيرها، ثم زعموا أيضاً أنهم بإستطاعتهم إيجاد هذه الحياة ، وأخيراً أقروا بما يكرهون وهو العجز عن ذلك وأنه لا مفر من الإقرار بوجود الخالق عز وجل . ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] .

وأما الحديث حول الرعد والبرق فهو حديث يثير النفوس ويستوقفها أمام عظمة الخالق جل وعلا ، فإن أعظم الأشياء أثراً في النفوس هي الظواهر الجوية من مطر ورعد وبرق وغيرها فكم فيها من نعمة وكم فيها من نقمة .

وقد ورد ذكر البرق والرعد في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾[3] .

في هذه الآية المباركة بين الحق سبحانه أنه هو الذي سخر البرق وهو ما يرى من النور اللامع من خلل السحاب ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ويطمع في رزق الله سبحانه وتعالى .

---

(١) فصلت / ٣٩ (٢) الإسراء / ٨٥.
(٣) الرعد / ١٢-١٣.

وقوله تعالى : ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ أي يخلقها كثيرة الماء ثقيلة الوزن فهي قريبة إلى الأرض ، قال مجاهد : السحاب الثقال : الذي فيه الماء ، وقوله تعالى في الآية الثانية : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء .

وقد روي في سبب نزولها ما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره عن أبي يعلى الموصلي عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً مرةً إلى رجل من فراعنة العرب فقال : (إذهب فادعه إلي) فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : من رسول الله ؟ وما الله ؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره ، فقال يا رسول الله قد أخبرتك أنه أغنى من ذلك ، قال لي كذا وكذا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ارجع إليه الثانية) فذهب فقال له مثلها فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله قد أخبرتك أنه أغنى من ذلك ، فقال : (ارجع إليه فادعه) فرجع إليه الثالثة قال: فأعاد عليه ذلك الكلام ، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾[2] .

---

(١) الإسراء/ ٤٤.

(٢) انظر الصحيح المسند من أسباب النـــزول للشيخ مقبل بن هادي الوادعي / ص ٨٩.

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الأخذ ، وقال مجاهد : شديد القوة [1] .

وبهذا يتبين لنا من الآية السابقة عظمة الخالق سبحانه وتعالى وقدرته التامة على كل شيء وأنه سبحانه لا يعجزه شيء أراده كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2] وتبين لنا أيضاً أن الرعد والبرق مسخران سخرهما الله تعالى وهما جند من جنده عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] فسبحان القاهر في ملكه العظيم في سلطانه لا إله إلا هو الكبير المتعال ، وقد ورد في الحديث أن الرعد ملك من الملائكة حيث روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : أقبلت يهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا أبا القاسم ! أخبرنا عن الرعد ما هو ؟ قال : ((ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله تعالى)) فقالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : ((زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيثُ أُمر)) قالوا صدقت . فقالوا : فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه ، قال : ((اشتكى عرق النسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها)) قالوا : صدقت . وقال الألباني رحمه الله تعالى : حديثٌ صحيح[4] .

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٠٤.
(٢) سورة هود / ١٠٧.
(٣) سورة الفتح / ٤.
(٤) انظر صحيح سنن الترمذي للألباني ٣ / ٦٤ باب تفسير سورة الرعد حديث رقم ٢٤٩٢ – ٣٣٣٤.

المبحث الثالث
في تعاقب الليل والنهار
وما فيه من دلالة على الخالق جل وعلا وتوحيده

إن في تعاقب الليل والنهار واختلافهما في الطول والقصر آيات باهرة دالة على توحيد الخالق عز وجل ، وقد ورد في ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] .

وقوله تعالى أيضاً : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

ففي الآية الأولى نرى أن الله عز وجل ذكر عدة آيات ومخلوقات دالة على عظمته وتوحيده عز وجل ودالة على امتنانه على عباده ونرى أيضاً أنه سبحانه وتعالى ذكر اختلاف الليل والنهار مباشرة بعد خلق السماوات والأرض ثم ذكر غيرها من النعم والآيات ، وهذا يبين ويؤكد ما لاختلاف الليل والنهار من حِكَمٍ لا يعلمها إلا الله عز وجل .

(١) البقرة / ١٦٤.

(٢) آل عمران / ١٩٠-١٩١.

هذا الاختلاف والتعاقب بين الليل والنهار والنور والظلام والذي يتكرر في كل يوم بنظام لا خطأ فيه ولا اختلال على طول الأزمان والسنين من الآيات العظيمة الدالة على وجود إله واحد عليم عظيم منظم لهذا التعاقب المنتظم بين الليل والنهار، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار هذا بظلامه وهذا بضيائه وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا[2].

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ ﴾[3] أي يدخل الليل على النهار فيغشاهم الليل فيسكنون ثم يدخل النهار على الليل فيذهب الليل ويضيء الكون فينصرف الخلق لمعايشهم ومصالحهم وكذلك الزيادة والنقصان، فيزيد هذا وينقص هذا تارة وينقص هذا ويزيد هذا تارة وتارة يعتدلان وهكذا يتعاقبان، فلو استمر الليل بلا نهار لكان هذا ضرراً على العباد، لأن في النهار معاشهم وجميع شؤون حياتهم وكذلك لو استمر النهار بلا ليل لكان هذا أيضاً إضراراً بالعباد،

(١) يس / ٣٧-٤٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٧١.
(٣) الحديد / ٦.

لأن في الليل سكنهم وراحتهم ، فاقتضت الحكمة تعاقبهما، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾[1] .

ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

وكذلك اختلاف الليل والنهار في أقطار الأرض فيه حكم كثيرة فهذه البلدة ليل والأخرى نهار ، وهذه فجر وتلك عصر ، إن في ذلك لآيات لأولي العقول ، ثم ليل الشتاء ، وليل الصيف ، فليل الشتاء أطول وليل الصيف أقصر ، حكم كثيرة في ذلك لا يعلمها إلا مبدع الكون والعالم بأسراره وعجائبه.

كذلك أيضاً في اختلاف الليل والنهار نشاط للخلق وترفيه عن النفس وحث لها على فعل الطاعات ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[3] .

وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[4].

فصلاة الليل راحة للصدر وشفاء للمريض وحث للنفس على النشاط

---

(١) النبأ / ١٠-١١.

(٢) القصص / ٧١-٧٣.

وترك الكسل إلى ما في ذلك من الهدف الأسمى وهو رضى الله عز وجل وأجره العظيم .

وفي النهار أيضاً متسع من الوقت لعبادة الله عز وجل لمن أراد أن يستكثر من الخيرات كالصيام وغيره ، كما تقدم في آية الفرقان، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[1] قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: شرع سبحانه وتعالى في بيان بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته وقوة تصرفه للاستدلال بها على توحيده فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ ﴾ ثم نهاهم عن عبادة الشمس والقمر لأنهما من خلقه فلا يصح أن يكونا شريكين، وأمرهم بإخلاص العبادة له عز وجل[2].

ومن الآيات في ذلك أيضاً الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[3].

---

(١) فصلت / ٣٧.
(٢) فتح القدير ٤/ ٥١٨.
(٣) آل عمران/ ١٩٠-١٩٢.

فهذه الآيات المباركات كغيرها من الآيات الدالـة على إثبات وجود الله عز وجل وتوحيده عن طريق الأدلة والمشاهدات الكونية، فالله عز وجل يؤكد في هذه الآيات أن في خلق السماوات وما فيها من أفلاك ومخلوقات عظام دلالات وآيات عليه سبحانه وتعالى وعلى توحيده وأنه لا ينكرها إلا صاحب قلب سقيم ومريض.

كذلك الأرض وما فيها وما عليها من عجائب الخلق ودقة الصنع ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[1] .

وكذلك اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما كما تقدم فإدبار الليل وذهاب سواده الذي يعم الكون يتبدد في لحظات ويتحول إلى نور ساطع يضيء الكون بما فيه، من تفكر في ذلك أدرك عظمة هذه الآية ، ولذلك أقسم الله عز وجل بها ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[3] .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: أقسم الله تعالى بالقمر وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره لاشتمال المذكورات على آيات الله تعالى العظيمة الدالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه[4].

(١) الذاريات / ٢٠.
(٢) المدثر / ٣٣-٣٤.
(٣) التكوير / ١٧-١٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمٰن/ ص ٨٣٠.

وقد ختم الله عز وجل الآية بما يبين أن هذه المخلوقات والمشاهدات لا يتفكر في حقيقتها إلا من كان ذا عقل يهتدي به إلى أن لهذه الآيات والمخلوقات العظيمة موجداً وخالقاً عظيماً ، وإلّهاً واحداً لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿لَآيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ ثم بين من هم فقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

فهؤلاء هم أولوا الألباب ، وأصحاب العقول النيرة التي تنظر في ملكوت الله تعالى نظرة تبصر ، فتدعم بهذه النظرة حقيقة إيمانها الراسخ بوجود الله عز وجل وتوحيده ، وأنه لا مجال للشك في ذلك .

وقد بين تعالى في هذه الآية أن هؤلاء المؤمنين نظروا إلى هذه المخلوقات العظيمة وعلموا علم اليقين أنها لم تخلق عبثاً ، فقال تعالى مبيناً قولهم : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ أي أنك يا ألله لم تخلق هذا الخلق عبثاً كما يظن الملحدون قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] .

وإذا قام الإنسان ليلاً ونظر إلى السماء وما فيها من نجوم سيارة ، مع سواد الليل المظلم وسكون ما حوله من الأحياء شعر في تلك الساعة برهبة تملأ عليه جميع حواسه وازداد يقيناً بأن لهذه العوالم رباً وإلّهاً واحداً عظيماً

(١) آل عمران / ١٩١.
(٢) سورة صٓ ٢٧.

لا تخفى عليه خافية ، وأنه القائم على جميع أمور هذا الكون وما فيه من مخلوقات لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى بكل دقة وحكمة وحسن تدبير لا يشاركه في ذلك أحد.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام [1] من آخر الليل يقرأ هذه الآيات من خواتم سورة آل عمران ، لما لها من علاقة واضحة بتلك الساعة المباركة ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم ملازماً لقيام الليل ، وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشقَّ معروف من الفجر ساطعُ

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقعُ

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ [2]

وقد مدح الله عباده المؤمنين الذين يقومون بالليل، وبين أن قيامهم هذا من بين تلك الأعمال الصالحة التي كانت سبباً في دخولهم الجنة بعد رحمة الله تعالى فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ

(١) كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه في باب صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله ودعائه بالليل : عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (أنه بات ليلة عند ميمونة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وهي خالته ، قال : فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهله في طولها ، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ثم قام إلى شَنٍّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام فصلى) ... الحديث. والشَنّ : هي القربة الخلق القديمة وجمعه شِنَان . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٤٥/٦ .

(٢) صحيح البخاري كتاب التهجد ، باب فضل من تعار من الليل فصلى رقم: ١١٥٥.

ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقد حث النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قيام الليل[3] وأخبر أن فيه ساعةً ينزل فيها ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وكماله فيستجيب للداعين ويغفر للمستغفرين، ولأن الصلاة في الليل وفي آخره خاصة تشعر العبد المؤمن بلذة المناجاة بينه وبين خالقه العظيم، خاصة وأن تلك الساعة ينام فيها أغلب الخلق، وإنْ صاحب هذه الصلاة النظر في ملكوت الله تعالى والتفكر فيه فهذا يزيد من إجلال الموقف ويثمر الخشية منه سبحانه وتعالى.

وهذا لا يعني أن التفكر لا يكون إلا بالليل وإنما يكون في كل الأوقات ولكنه في الليل يكون أقرب إلى خشوع القلب، لأن في سواد الليل ومنظر تلك النجوم المتناثرة في أطراف السماء الواسعة ومنظر البدر وهو في وسط السماء بين

(١) الذاريات / ١٥-١٨.
(٢) السجدة / ١٦-١٧.
(٣) كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له). مسلم بشرح النووي ٦/٣٦ كتاب صلاة المسافرين/ باب صلاة الليل مثنى مثنى والوتر ركعة من آخر الليل.

تلك النجوم ، كل ذلك فيه الكثير والكثير من آيات الروعة وحسن الإبداع والإتقان في هذه المخلوقات.

وهذه المعاني الإيمانية العظيمة لا يدركها أصحاب الإلحاد وإنكار وجود الخالق عز وجل وتوحيده والذين يغطون في تلك الساعات العظيمة في نوم عميق فهم أشبه بالحيوانات العجماوات ، بل إن الحيوانات أفضل منهم وإنما يدركها أصحاب العقول النيرة الخائفة من عذاب الله تعالى الموقنة بأن بعد هذه الدار داراً يكون فيها الجزاء والحساب على الأعمال ولذلك قال الله تعالى عنهم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَـٰجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[1].

(١) سورة آل عمران / ١٩١-١٩٥.

الباب الثالث
في الحديث عن خلق الأرض
وما فيها من أجناس المخلوقات وباهر المتنوعات

الفصل الأول
في خلق الأرص وتكوينها

هذه الأرض الواسعة المترامية الأطراف ، هذه التي نعيش عليها كم فيها من دلائل على وجود الخالق جل وعلا ، وعلى وحدانيته سبحانه وتعالى.

قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[2] فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا ﴾ أي من هذه الزينة عند نهاية الدنيا ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي يهلك كل شيء ويبيد . وعن الحسن : يعني بالجرز الخراب ، وعن مقاتل : ﴿ صَعِيدًا ﴾ أي تراباً متساوياً بالأرض [3] .

وقال ابن منظور في لسان العرب[4] : (أرض) : التي عليها الناس ، أنثى وهي اسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال : أرضه ولكنهم لم يقولوا، وفي التنزيل ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[5].

---

(١) الذاريات / ٢٠.
(٢) الكهف / ٧.
(٣) فتح القدير ٣/٢٧١.
(٤) لسان العرب ١/٤٧.
(٥) الغاشية / ٢٠.

والحديث عن خلق الأرض وحده، كفيل بأن يدخل الإيمان في قلب كل ذي عقل سليم بعد مشيئة الله تعالى، فكيف بالحديث عما أودع في الأرض من شتى أنواع المخلوقات مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، إن في ذلك لعبراً للمعتبرين، وإرشاداً للمتفكرين، أما من أراد أن يتكبر على الحق ويمشي على غير هدى وبدون دليل فذاك هو الخاسر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

والحديث عن نشأة الأرض قد ورد في كتاب الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾(٢).. الآية وقد تقدم الحديث عن هذه الآية (٣).

وهناك آية أخرى ذكر الله عز وجل فيها خلق الأرض وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾(٤).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء المقتدر على كل شيء، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) الجاثية / ٢٣. (٢) الأنبياء / ٣٠.

(٣) في الباب الثاني، الفصل الأول، الحديث عن خلق السماء.

(٤) فصلت / ٩-١٠.

﴿ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي نظراءَ وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم ، وهذا المكان فيه تفصيل كقوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1] ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء ، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف كما قال عز وجل : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[2] وأما قوله تعالى : ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[3] ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله تعالى : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص وقد تقدم الحديث عن ذلك عند الحديث عن خلق السماء.

قوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السماوات في يومين وبيان ذلك أنه خلق الأرض يوم الأحد والإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يوم الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة أيام ولهذا قال تعالى : ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه[4].

(١) الحديد / ٤.
(٢) البقرة/ ٢٩.
(٣) النازعات / ٢٧-٣٣.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٩٢.

وأما ما يزعمه الملاحدة وأعوانهم وأذيالهم ومن سار على منهجهم ممن قلدهم أو انخدع بآرائهم الفاسدة من القول بأن هذه السماوات أو هذه الأرض أو هذه المخلوقات وجدت قبل ملايين السنين أو بلايين السنين فتراهم في أكثر بحوثهم عن هذه المخلوقات العلوية أو السفلية أو الكائنات الحية أو الدواب أو غيرها يحيلون وجودها إلى ما قبل الملايين والبلايين من السنين وحتى في المسافات بين هذه المخلوقات العلوية والسفلية يحيلون هذه المسافات إلى الملايين والبلايين من الأميال أو السنين الضوئية في زعمهم الباطل، وأمثال هذه الأقوال التي لا دليل عليها من الكتاب والسنة والتي هي إلى الهذيان أقرب منها إلى منطق العقل السليم، وهذه حال كل من ضل وابتعد عن الصراط المستقيم من هدي الله تعالى وهدي رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من علوم الكتاب والسنة الصحيحة واتبع أقوال الكفرة والملاحدة من الفلاسفة والمشركين الضالين المضلين فهوى إلى متاهات الضلال السحيقة والخسارة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ

(١) الجاثية / ٢٣.   (٢) الحج/ ٣١.

﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[1].

وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[2] متفق عليه.

أي من عدل عن الكتاب والسنة إلى أقوال الشياطين فإنه لا محالة هالك وخاسر في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3].

قال الشيخ عبد الكريم بن صالح الحميد في رده على الملاحدة تحت عنوان (ملايين السنين): يزعمون أن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة، أما الأرض فقد نشأت حديثاً جداً إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط، وهذه الملايين والبلايين من السنين والمسافات مما ضحكوا به على العالم فهم يحيلون عليها بلا كلفة ولا عناء، وهذا ظاهر في كل أبحاثهم وعلومهم. ومعلوم أن عقلاء بني آدم فضلاً عمن يتلقى علومه من مشكاة النبوة لا يتقبلون مثل هذه الإحالات التي هي أدل دليل على كذب هؤلاء ودجلهم، بل يعلم العقلاء يقيناً أنه لا يلجأ إلى هذه الإحالات إلا من هو من أعظم

---

(١) سورة طه / ١٢٣-١٢٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الصلح رقم الحديث: ٢٦٩٧ ومسلم في كتاب الإمارة/ باب رد المحدثات من الأمور، مختصر صحيح مسلم رقم: ١٢٣٧ ص ٣٣٥.

(٣) الحج/ ٣-٤.

الناس كذباً أو فاقد لعقله، ومن أين لهم العلم بوجود هذه المخلوقات في هذه الأزمان السحيقة وحدوثها بهذه الطريقة، ولا شك أن حظ من لم يعتمد في علم هذه الأشياء على ما جاءت به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام التخبط في ظلمات الضلال ومتاهاته كما حصل لهم.

وإذا كان الأصل الذي أصلوه لعلومهم وبحوثهم هو جحود ربهم فهل يعقل أن يستأثروا بعلم صحيح ومعرفة في مخلوقات الرب سبحانه وتعالى أصح من معرفة من جاء بهذا الدين وأتباعه الموحدين.

ولم يجعلنا نبينا صلى الله عليه وآله وسلم عيالاً على هؤلاء الضلال لنتعرف على مخلوقات ربنا بتعريفهم ونستدل عليها بدلالتهم.

ومن يكنِ الغراب له دليلاً يمر به على جيفِ الكلابِ[1]

بل من تتبع نصوص الكتاب والسنة الدالة على بدء الخلق علم بطلان هذه الأقوال وفسادها.

وفي تحديد الأرض وكم عددها ورد قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[2].

وروى مسلم في صحيحه أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين))[3].

---

(١) هداية الحيران في مسألة الدوران للشيخ/ عبد الكريم بن صالح الحميد ص ٢٣، ٦٤.

(٢) سورة الطلاق / ١٢.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب البيوع / باب من ظلم من الأرض شبراً طوق من سبع أرضين، مختصر صحيح مسلم، ص ٢٥٦. ورواه البخاري في صحيحه في كتاب المظالم، باب/ إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم الحديث/ ٢٤٥٢.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في كتابه فتح الباري بعد أن أورد الحديث بلفظ البخاري : (وفيه أن الأرضين السبع متراكمة لم يفتق بعضها من بعض لأنها لو فتقت لاكتفى في حق هذا الغاصب بتطويق التي غصبها لانفصالها عما تحتها ، وفيه أن الأرضين السبع طباق كالسموات وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ خلافاً لمن قال : إن المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم ((سبع أرضين)) سبعة أقاليم لأنه لو كان كذلك لم يطوق الغاصب شبراً من إقليم آخر) [1].

وهذه الأرض التي نعيش عليها تنقسم من ناحية تركيبها إلى عدة أقسام ، فمنها اليابس ومنها الماء، والماء أقسام فمنه البحار المحيطة ومنه البحار الصغيرة ومنه البحيرات ومنه الأنهار ومنه السيول ومنه الينابيع، كذلك اليابس أيضاً أقسام فمنه الصحراء الواسعة ، ومنه المدن والقرى الصغيرة والكبيرة ومنه الحقول والأرياف والسهول والجبال إلى غير ذلك من الأقسام الكثيرة والمتنوعة، ولنتحدث الآن عن مياه الأرض وأنواعها لنرى بعض أسرار الخلق فيها والتي هي كثيرة جداً، وبالتالي لنصل إلى معرفة عظمة خالق تلك الأنواع والأجناس جلت قدرته وعظمت أسماؤه وصفاته سبحانه وتعالى فنزداد إيماناً ويقيناً وإخلاصاً له عز وجل.

---

(١) فتح الباري ٥/١٠٥.

الفصل الثاني
في مياه الأرض وأقسامها وأنواعها

تنقسم مياه الأرض إلى أقسام: فمنها البحار الكبيرة وهي المحيطات، ومنها البحار، والأنهار، والينابيع، والسيول، وأبدأ الحديث عن البحار الكبيرة وهي المحيطات، وقد وردفي القرآن الكريم ما يشير إلى هذا النوع، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1] .

هذه الآية المباركة جاءت مثلاً لبطلان أعمال الكافرين الذين يحسبون أنهم على شيء كالآية السابقة لها، فالآية التي قبلها ضرب الله تعالى مثل أعمالهم بالسراب ، وفي هذه الآية بالبحر المتراكم الأمواج الذي هو من الظلام بحيث لا يرى فيه شيء، فكذلك االكفار يحسبون أن أعمالهم تنفعهم يوم القيامة، فإذا قدموا على الله تعالى وجدوها كالسراب الذي لا فائدة منه للظمآن، فهذه حالهم يوم القيامة وحاجتهم إلى الأعمال فيه كحاجة العطشان للماء، فإذا لم يجده زاد همه وغمه، فكذلك الكفار يوم القيامة يزيد همهم وغمهم بفساد أعمالهم وفقدانهم لما يحتاجون إليه أشد الحاجة في ذلك اليوم العظيم، وكذلك الآية الثانية هم في ظلمات الشك والشرك والجهل والكفر المفسدة لجميع الأعمال لأنها فقدت نور التوحيد واليقين.

---

(١) النور / ٤٠.

ونحن نأخذ من هذه الآية ما نستشهد به على موضوع البحار ، حيث أخبر سبحانه وتعالى أن هناك بحاراً ذات مياه كثيرة متراكمة وذلك في قوله تعالى ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ واللُجة معظم الماء والجمع لُجج وهو الذي لا يدرك قعره لعمقه وهو الذي يسمى بالمحيطات وهي البحار العميقة ذات الأطراف المترامية والمساحات الواسعة، ثم وصف سبحانه وتعالى هذا البحر الواسع بأنه ذو أمواج فقال تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ أي يعلو هذا البحر موج فيستره ويغطيه بالكلية، ثم وصف هذا الموج أيضا بقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي من فوق هذا الموج موج ثم وصف الموج الثاني، فقال: ﴿مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي من فوق ذلك الموج الثاني سحاب وقيل: إن المعنى: يغشاه موج من بعده موج ، فيكون الموج يتبع بعضه بعضاً حتى كأن بعضه فوق بعض، ففي هذا التعبير ما يبين مدى خطورة هذا البحر وشدة أهواله ، والبحر أخوف ما يكون إذا تتابعت وتوالت أمواجه ، فإذا انضم إلى ذلك تراكم السحب من فوقه زاد الخوف شدة وخاصة في الليل ، لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر ، ثم إذا أمطرت تلك السحب المتراكمة وهبت الريح المعتادة في الغالب عند نزول المطر ، تكاثفت الهموم وترادفت الغموم [1].

ففي هذا المثل بيان واضح للظلمات التي يعيشها الكافر في الدنيا وما يلحقه في الآخرة من خزي وصغار ، وفيه أيضاً بيان عظمة الخلق في البحار الواسعة التي أوجدها الله عز وجل ، وقد ضرب الله تعالى هذا المثل بالبحار لأنها محسوسة ومرئية والله تعالى دائماً إنما يخاطب البشر بما يشاهدونه ويرونه حتى يكون ذلك أقرب إلى العبرة والتذكرة ، وكم في البحار من مخلوقات

(١) فتح القدير ٤/٣٩.

عجيبة من أشجار بحرية ولؤلؤ ومرجان وأسماك مختلفة في الأشكال والألوان وحيوانات لا يعلم نوعها وعددها إلا خالقها جل وعلا، وفي البحار من ثروات تعود على الإنسان بالنفع والخير الكثير، فهذه البحار نعمة من نعم الباري جل وعلا على الإنسان لكي يشكر خالقه عز وجل على ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

ولنتطرق في هذا الحديث الجميل لبعض ما قاله علماء البحار والجغرافية حول هذا الموضوع فإنه لا منافاة بين ما جاء به القرآن الكريم وما أثبته العلم الحديث بل إن العلم يزيد في تثبيت إيمان المسلم ويرقى به إلى مدارج اليقين .

وكلامهم في ذلك مقبول مالم يتعارض مع النصوص القرآنية أو غيرها مما جاء به الدين الحنيف.

فمن ذلك ما جاء في كتاب (قصة البحر)[2] عند الحديث عن المحيطات وأعماقها ، قال : وعمق المحيط غامض غموض اتساعه ، ونحن ندرك عمق ثلاثة وأربعة أمتار لأننا ننزل إلى هذا العمق في سباحتنا ولكن عندما نرى على (الخرائط) الأعماق بالكيلو مترات يعترينا الذهول وربما تكون قد خرجت في ليلة متلألئة النجوم تجدف في زورق على الماء الأملس

---

(١) النحل / ١٤.

(٢) قصة البحر للدكتور / ماكسويل ريد ، ترجمة / محمد محمود رمضان ص ٢٩.

الزجاجي لبحيرة جبلية ، ورأيت النجوم حولك في كل الإتجاهات ورأيت قبة السماء مستقرة على مرآة تضيئها النجوم ، وتحرك الزورق في صمت كأنه شبح ، والحالة هذه كأنك تسير بزورقك في الفضاء ، وامتدت النجوم المتناثرة من حولك ، ولأول مرة في حياتك أدركت غموض الكتل المائية الكبيرة وعظمة الفضاء .

ولم يحدث قط أن سار إنسان في أي من وديان المحيط ، ونظر إلى الجروف[1] المطلة عليه ، ومع هذا فنحن نعرف الشيء الكثير عنها ، وفي الماضي كان العلماء يستكشفون وديان المحيط وأغواره وتلاله[2] بإنزال حبل من سفينة في طرفه ثقل إلى الماء ، وإذا ما وصل الثقل إلى القاع رفعوه وقاسوا جزء الحبل الذي غاص في الماء ، فإذا ما كرروا هذه العملية مئات المرات أمكنهم الإستدلال على التلال والوديان ، ولكن هذا عمل بطيء جداً ، وبعد أن كانت تجرى مئات من هذه القياسات لم يكن يستكشف من قاع المحيط سوى قلة من كيلو مترات مربعة فقط ، وقد اكتشفت حديثاً طريقة أسرع لمعرفة عمق البحر، وهي طريقة صدى الصوت ، فإذا أحدثت ضوضاء عالية تحت سطح الماء فإن الصوت ينتقل إلى قاع المحيط ثم يرتد ثانية إلى السطح حيث يمكن سماعه كصدى صوت وينتقل الصوت في الماء أسرع منه في الهواء وفي الأعماق العظيمة ينتقل الصوت بسرعة أكثر مما يفعل قرب السطح ،

(١) قال في لسان العرب ١/٤٤٣ والجرف : ما أكل السيل من أسفل شق الوادي والنهر، والجمع أجراف وجروف.

(٢) التلال : جمع تل وهو ما ارتفع من التراب ارتفاعاً قليلاً ، لسان العرب ١/٣٢٧.

واستخدام صدى الصوت يجعل قياس عمق المحيط عملية في غاية السهولة ، وأصبح القياس الآن يجرى بواسطة سرعة الصوت بأجهزة حديثة ، وقد أمكن اكتشاف جبال ، وحتى قمم شبيهة بالإبر ووديان وأغوار وبراكين تحت الماء ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾[1] وإلى الآن لم تستكشف موجات الصوت سوى رقع صغيرة من المحيط بالنسبة للمدى الشاسع المجهول من قاع البحار، وقد يقال إن المخاطر التي جابهها المستكشفون الأوائل زادت من نشوتهم على اكتشاف المحيط ، والحقيقة أن الخطر لم يستبعد تماماً في عملية استكشاف قاع المحيط ، فهي ليست مجرد أن يجلس الشخص في غرفة العمليات على ظهر سفينة متينة وينصت لصدى الصوت، وأكثر مسافة توصل إليها هي إلى عمق حوالي خمسة كيلو مترات، حينما اخترعت الأجهزة الحديثة للغوص ، وعند الأعماق العظيمة يختفي حتى ضوء الشمس ويصبح الظلام دامساً تماماً كظلام كهوف الحيوانات ، وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[2] وهناك من الكائنات والمخلوقات العجيبة ما الله به عليم، ومن الطبيعي أن يتساءل الإنسان عما تأكله هذه الكائنات ، وهي يأكل بعضها بعضاً ، كما تأكل هي كل شيء يموت في المحيط ويغوص إلى القاع ، وعندما يقتل الصيادون حوتاً يأخذون لحمه وزيته ويرمون بالباقي فيغوص في الماء وعلى الفور يأكل سمك القرش[3] جزءاً كبيراً من هذا الباقي، والأجزاء الباقية تغوص إلى أعمق الأعماق حيث تلتهمها بنهم آكلات

(١) آل عمران / ١٩١. (٢) النور / ٤٠.

(٣) القرش نوع من أنواع الأسماك الكبيرة ، قال في لسان العرب : القرش دابة تكون في البحر الملح وقريش دابة في البحر لا تدع دابة إلا أكلتها فجميع دواب البحر تخافها ٥٨/٣.

اللحم الجائعة والتي تعيش في آخر بصيص من أشعة الضوء ، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه وهداه وسبحان العليم بكل شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1] ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[2].

ويسوقنا الحديث عن البحار والمحيطات وأعماقها إلى الحديث عن نباتات البحار وبعض مخلوقاتها التي لا يحصيها أحد غير خالقها عز وجل ، وكما في البر مخلوقات من أشجار وحيوان وأحجار كذلك في البحر مخلوقات وأشجار خاصة به تختلف عن نباتات البر وقد قيل عن بعضها إنه ليس له جذور ولا أغصان والبعض منها له أوراق .

ونمو هذه المجموعات النباتية بمياه البحار والمحيطات تتغير تبعاً لعوامل الطبيعة التي طبعها وخلقها الله عز وجل ، وأشعة الشمس تعتبر من أهم هذه العوامل، وعلى ذلك ترتكز هذه النباتات في طبقة المياه السطحية حيث يسقط عليها أكبر قدر من الأشعة الشمسية وكل نوع من الحشائش البحرية له من يأكله من مخلوقات البحر الكثيرة ، ما أعظم هذا الإبداع في الصنع ، وهناك من حيوانات البحر الأنواع المتعددة والتي منها السمك الذي هو من أعظم ثروات البحار ، والذي قال تعالى عنه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾[3] وهناك أيضاً الحيوانات الأسفنجية

(١) هود / ٦.
(٢) سورة طه / ٦-٨.
(٣) النحل / ١٤.

وتوجد في كل البحار تقريباً في الباردة والدافئة في الضحلة والعميقة وهي تنمو مثبتة بأي سطح قوي ، ويصاد الإسفنج ليستعمله الإنسان في شؤون حياته بعد أن تجرى له عملية التنظيف والتحسين وهذه كلها من فوائد البحار ، ومن البحار ما هو مالح ومنها ما هو عذب ، قال تعالى في إخباره عن ذلك: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة ، خلق البحرين العذب الزلال وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مرٌّ وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار وإنما تكون مالحة زعاقاً مُرةً ولهذا قال تعالى : ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مرٌّ ، ثم قال تعالى : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني السمك كما تقدم ، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما قال عز وجل في آية أخرى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2] وقوله جل وعلا : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي تمخره وتشقه ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي بأسفاركم للتجارة من قطر إلى قطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف

(١) فاطر / ١٢.

(٢) الرحمن / ٢٢-٢٣.

شئتم وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شيء منه [١].

وقد ورد أيضاً في آية أخرى الحديث عن أقسام البحر من حيث الملوحة والعذوبة ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [٢] .

جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية المباركة قوله : أي خلق الله تعالى المائين الحلو والملح فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال .

فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم ، وقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مالح مرٌّ زعاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به ، وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر الصين وبحر البصرة وفارس وما شاكلها من البحار الساكنة التي لا تجري ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر [٣].

فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحةً لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك ، ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَمَّا سئل

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٠.
(٢) الفرقان / ٥٣.
(٣) المد : هو تقدم ماء البحر واقترابه من الشاطيء ، لسان العرب ٣/٤٥٢.
الجزر : ضد المد وهو رجوع الماء إلى الخلف . لسان العرب ١/٤٥٢.

عن ماء البحر أنتوضأ به ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ((هو الطهور ماؤه الحل ميتته))[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أي بين العذب والمالح .

﴿بَرْزَخًا﴾ أي حاجزاً وهو اليابس من الأرض ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كقوله تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3][4].

وكما في البحار طعام الإنسان كذلك فيه زينته فمن ذلك اللؤلؤ والمرجان، قال تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[5].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ : وروى ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : (إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها فما وقع فيها من قطر فهو اللؤلؤ). إسناده صحيح .

والمرجان : قيل هو صغار اللؤلؤ وقيل كباره وجيده ، وقيل : هو نوع

---

(١) الحديث رواه الترمذي رحمه الله تعالى في أبواب الطهارة / باب ما جاء في البحر أنه طهور، وقال الألباني رحمه الله تعالى : حديث صحيح انظر صحيح سنن الترمذي ٢١/١ رقم: ٥٩-٦٩.

(٢) الرحمٰن / ١٩-٢١.

(٣) النمل / ٦١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢١/٣.

(٥) الرحمٰن / ١٩-٢٣.

من الجواهر أحمر اللون [1] .

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسل كل واحد منهما ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يتجاوران لا فاصل بينهما في مرأى العين، ومع ذلك فلم يختلطا، والبحران هما المالح والعذب .

وقوله تعالى : ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي حاجز يحجز بينهما فلا يبغي أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه ويختلط به ، وهذا من عجائب قدرة الله تعالى الخالق العظيم ، واللؤلؤ : الدر ، والمرجان : الخرز الأحمر المعروف ، وزعم قوم أن اللؤلؤ يخرج من العذب أيضاً [2] .

وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [3] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه وجعله السمك والحيتان فيه وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام وما يخلقه فيه من اللآليء والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه بصدرها المسنم الذي أرشد العباد لصنعها فهم يسيرون من قطر إلى قطر يبتغون فضله ورزقه ونعمه وإحسانه عز وجل ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٧٢.

(٢) فتح القدير ٥/١٣٤.

(٣) النحل / ١٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٦٤.

وقال صاحب الجواهر عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ : يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحارية التي تعيش في الماء العذب أو الماء الملح ، وكانت لآلِيء الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات أمريكا والصين وغيرهما .

وأما المرجان فإن يتكون من حيوانات صغيرة تجتمع بأعداد كبيرة مكونة مساكن لها أشبه بأغصان الأشجار وتتسع انفراجاً في البحر حتى تتكون منها جزائر ولو رأيت شجر المرجان لرأيت فروعاً غبراء كظباء الصحراء أو صفراء برتقالية أو حمراء قرنفلية أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ .

وقد ذكر المفسرون أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر المالح مع أن الله تعالى يقول : ﴿مِنْهُمَا ﴾ فانظر كيف جاء العلم الحديث على نفس ظواهر القرآن الكريم وأثبت أن اللؤلؤ يخرج من العذب أيضاً كما تقدم، والله تعالى أعلم [١].

وبعد هذا الحديث الموجز عن البحار والأنهار [٢] والمحيطات العميقة ننتقل إلى الحديث عن نوع آخر من أقسام المياه التي أنعم الله تعالى بها

(١) الجواهر ٢٤/٢٦.

(٢) تقدم الحديث عن الأنهار مدرجاً في الحديث عن البحار لأن البحر يشمل المالح والعذب، قال ابن منظور في لسان العرب ١/١٦٤: البحر الماء الكثير ملحاً كان أو عذباً ، وكل نهر عظيم بحر، وسميت هذه الأنهار بحاراً لأنها مشقوقة في الأرض شقاً.

على خلقه وهي الينابيع ونقرأ في ذلك قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(١).

يتبين لنا من هذه الآية المباركة أن الله تعالى ذكر هذه المخلوقات المشاهدة في مجال تعداد نعمه على عباده حيث استفتح الآية بالإستفهام التقريري ليكون أوقع في نفس القاريء والمشاهد ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي من السحب ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي فأدخله وأسكنه فيها، فأخبر تعالى أن أصل الينابيع من ماء الأمطار إلا أنها تسكن في داخل الأرض، وهذا من حكمة الخالق جل وعلا حيث جعل في الأرض خاصية حفظ الماء فلو كانت الأرض كلها لا تمسك الماء ولا تحفظه لم يكن هناك عيون ولا ينابيع ينتفع بها ولكن الله جل وعلا العالم بحاجة أهل الأرض لهذه المياه أمسكها بقدرته كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(٢).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات: يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ولا قليلاً فلا يكفي

(١) الزمر / ٢١.

(٢) المؤمنون / ١٨-١٩.

الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والإنتفاع به ، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها [1] إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى ، كما في أرض مصر ، ويقال لها الأرض الجرز [2] يسوق الله تعالى إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها ، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى : ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا الأرض قابلة له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى ، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجّر على وجهها لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً ، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض فيفتح العيون والأنهار ويسقي به الزروع والثمار ، تشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه وتتطهرون منه فله الحمد والمنة [3].

(١) دمنتها : الدمنة هي ما يوضع لإصلاح الزرع ، لسان العرب ١٠١٦/١.

(٢) الجرز : الأرض التي لا نبت فيها ، لسان العرب ٤٣٩/١ ، وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾... الآية السجدة / ٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٤٢/٣.

والينابيع هي العيون وأذكر في تعريف الينابيع قول ابن منظور في لسان العرب حيث قال : (نَبَع الماء ونَبِع ونَبُع ، نَبعًا ونُبُوعاً : تفجر، وقيل خرج من العين ولذلك سميت العين ينبوعاً ، قال الأزهري : هو يفعول من نبع الماء إذا جرى من العين وجمعه ينابيع)[1].

قال الجوهري في هذه الآية حول الكلام على الينابيع : إعلم أن الله عز وجل جعل الماء الصالح للشرب محتوياً على ما ينفع الجسم من المواد الغريبة من أملاح وحديد ومعادن أخرى نافعة للجسم ، وتكلم تحت عنوان: (المياه المعدنية) فقال : أنظر إلى الينابيع في الأرض كيف جعلها الله سبحانه وتعالى لتنويع المياه فبينما الماء ينزل من السماء مطراً إذا هو في الأنهار جارياً ساقياً للزرع إذا هو في مجار تحت الأرض يجري والناس من فوقها لا يعلمون وإنما يحفرون الآبار فتخرج مياه من تلك المجاري فيجدونها مختلفة الصفات ، وبها يتداوون ومنها يشربون ، وكثيراً ما يستخرجون من تلك المياه أملاحاً نافعة في الصنائع .

ثم قال بعد أن ذكر أنواع الينابيع ومعادنها : فتعجب من هذه المياه المختلفة الآتية من الينابيع ، وانظر قوله تعالى : ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

ومن هذه المياه ما هو شفاء لبعض الأمراض كما هو معلوم ، ثم قال أيضاً : انظر كيف نوَّع الماء لنستشفي به !.

ينظر الإنسان فيرى الماء قد تخلل باطن الأرض وجرى في عروقها

(١) لسان العرب ٥٦٩/٣.

(٢) الزمر / ٢١.

ومجاريها ، ومر على مركبات معادنها المختلفة المفيدة ، فيظن لأول وهلة أن ذلك رمية من غير رام ، حتى إذا نظر نتائجها من أنواع تلك المنافع المختلفة من الأدوية وغيرها عرف أن ذلك لحكمة مقصودة ، هذا معنى قوله تعالى : ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أن تلك المنافع التي ترونها في هذه الينابيع لم تكن صدفة ، بل أنا الذي أدخلتها في الأرض وأمررتها على تلك العناصر وجعلت ذلك للمداواة من الأمراض المختلفة ، وإنما فعلت ذلك لتتفكروا فتتأهلوا لعالم أرقى من عالمكم الأرضي ، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فأولوا الألباب هم الذين يعقلون ذلك[1] ويعترفون لخالقهم به إيماناً منهم بأنه سبحانه وتعالى هو الإلّه الحق النافع الضار ، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض والذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، فيصلون من وراء هذا التدبر إلى اليقين بأنه الإلّه الواحد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، سبحانه وتعالى .

وبعد هذا الحديث عن الينابيع ننتقل منه إلى الحديث عن السيول ومنافعها للعباد والبلاد ونقرأ في ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[2] .

ذكر تعالى هذه الآية الكريمة بعد أن بين في الآية السابقة أنه الإلّه الحق القادر على كل شيء وأنه المستحق للعبادة وحده لأن بيده النفع والضر، وبيده

(١) الجواهر ١٨/١٥٦.

(٢) الرعد / ١٧.

ملك السماوات والأرض وأن الكون وما فيه تحت تصرفه سبحانه وتعالى حيث قال في الآية السابقة : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [1] ... الآية . فهذه الآية المباركة جاءت تأكيداً على أنه الإله الحق وهي مؤكدة للآية التي سبقتها فإن من بيده إنزال الغيث من هذه السحب وتحويلها إلى سيول عظيمة تسيل على وجه الأرض ينتفع بها العباد والبلاد ، لهو جدير بالألوهية والعبادة وحده لا شريك له ، وقد ضرب الله تعالى هذه الآية مثلاً للحق في قوته ودوامه والباطل في زواله وسرعة ذهابه واضمحلاله، فمثَّل الحق بما في السيل من منافع تمكث في الأرض ومثَّل الباطل بالزبد الذي يعلو السيل ويتفرق وينتشر في جانب الوادي فكما أن الباطل لا يدوم فكذلك هذا الزبد.

ونحن في هذه الآية نأخذ الشاهد منها على ما هو في موضوع السيل وأنه من أقسام المياه التي ينتفع الخلق بها .

فهذا المطر النازل من السماء تحول بقدرة الله سبحانه وتعالى إلى سيول تجري على وجه الأرض وتشقها محدثةً الأنهار والعيون والينابيع فالسيل جار على وجه الأرض والعيون والينابيع في باطن الأرض ، فسبحان من نعمه فوق الأرض وتحتها .

هذا السيل العظيم الذي جرى بقدرة خالقه عز وجل يحمل الخير الكثير لأهل الأرض ، فما أن يمضي عليه عدة أيام حتى تتقبله الأرض وتخزنه في داخلها بعد أن يكون ظاهرها قد أخذ الكفاية منه ، من الناس والدواب وغيرها ومن الجنات المختلفة المتنوعة ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا

(١) الرعد / ١٦.

وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾[1] .

وفي السيول من المنافع الكثيرة فمنها : أنها قد تحمل معها بعض البذور لأشجار مختلفة وتحمل لقاحات بعض النباتات وتنقلها من أماكن بعيدة إلى حيث أراد الله تعالى لها أن تنبت في الأرض وتربو وتزدهر ولها منافع عديدة، وقد حدث في العصر الحديث أن استخدمت المياه في توليد الطاقة الكهربائية، وبالكهرباء استطاع الإنسان أن يوفر كثيراً من الجهود والتي لولا تسخير الله تعالى لها لم تكن هذه النعمة .

والسيول أيضاً كما أنها نعمة ورحمة قد تكون نقمةً وجنداً من جند الله تعالى المسخرة على أعدائه ، كما حكى القرآن الكريم عن قوم سبأ وأنهم أُهلكوا بسيل العرم[2] لما كفروا نعمة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[3] .

فهذا السيل العظيم الذي أرسله الله تعالى على قراهم كان عذاباً من الله تعالى نتيجة كفرهم نعمة الله تعالى عليهم ، فكان الجزاء أن تفرقوا في مشارق الأرض ومغاربها ، فسبحان من جعل هذا السيل نعمة ونقمة ، نعمة لمن شكر ، ونقمة لمن كفر ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

(١) الفرقان / ٤٨-٤٩.
(٢) العرم : السيل الذي لا يطاق ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ . لسان العرب ٧٥٧/١.
(٣) سبأ / ١٥-١٦.

والأمطار والسيول جعلها الله تعالى رحمة لعباده ، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل المطر تعرض له حتى يصيبه ، فقد أخرج مسلم رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : أصابنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مطر ، قال : فحسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثوبه حتى أصابه من المطر ، فقلنا يا رسول الله ! لم صنعت هذا ؟ قال : ((لأنه حديث عهد بربِّه))[1].

ونكتفي بهذا القدر في الحديث عن البحار والمياه لننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأرض اليابسة لنرى بعض ما عليها من آيات الله تعالى الدالة على أنه الواحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى .

(١) انظر : مختصر صحيح مسلم / باب صلاة الاستسقاء / ص ١٢١ .

الفصل الثالث
في الجبال والسهول والصحاري

إن الجبال من أعظم مخلوقات الله تعالى على هذه الأرض فهي في إرتفاعها وكبر حجمها وتضاؤل ما حولها دليل واضح على ذلك وبالتالي هي دليل على عظمة خالقها عز وجل ، وقد ورد في عظمة خلق الجبال وبيان منافعها آيات في كتاب الله تعالى فمنها:

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (١).

هذه الآيات المباركات جاءت بعد الآيات التي تحدثت عن يوم القيامة والبعث والنشور وإنكار الكفرة لذلك اليوم العظيم، وتهديد الله تعالى لهم، ثم جاءت هذه الآيات لتبين أن الذي خلق هذا الخلق بهذا الإبداع وتلك العظمة قادر حقاً على إعادة الإنسان بعد أن أصبح تراباً .

فبدأ سبحانه وتعالى الحديث عن الأرض وما فيها من دلائل على قدرته جل وعلا ، لأن الأرض أقرب مشاهد لديهم ليكون ذلك حجة عليهم فقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي مستوية وممهدة كي يتيسر لهم العيش عليها، ثم بدأ الحديث عن أقسام الأرض ، وتحدث سبحانه وتعالى أولاً عن الجبال لأنها من أعظم مخلوقات الله تعالى على هذه الأرض كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾(٢) فبين تعالى في هذه الآية الغاية من خلق هذه الجبال العظيمة ، وأن خلقها جاء لحكمة وليس عبثاً كما يظن هؤلاء الكفرة،

---

(١) النبأ/ ٦-٧.

(٢) الغاشية /١٩.

وأنَّ هذه الجبال هي بمثابة الوتد للخيمة فإن نزعت الأوتاد سقطت الخيمة، وعصفت بها الرياح ، كذلك هذه الجبال لو لم توجد لمادت الأرض بأهلها وانكفأت بهم فلم يثبت عليها بناء ولم يستقر على ظهرها مخلوق ، فسبحان من له في كل شيء من خلقه حكمة وآية دالة على وحدانيته عز وجل.

وقد وصفت الجبال بالرواسي ، جاء في لسان العرب في مادة (رسا): رسا الشيء رسواً وأرسى : ثبت ، ورسا الجبل يرسو إذا ثبت أصله في الأرض، وجبال راسيات ، والرواسي من الجبال : الثوابت الرواسخ)[1].

بهذا الوصف تبين أن الجبال هي الرواسي ، ووصفت بالرواسي لرسوها وثبات أصولها في أسفل الأرض وهذه الكلمة تبين وتفيد مدى ثبوت هذه الجبال في باطن الأرض وعظمة خلقها وبيان قدرة الخالق جل وعلا حيث جعل لها أسساً قوية وبنياناً شامخاً في العلو كما قال تعالى في آية أخرى موجهاً الإنسان إلى عدم الكبر وأنه يبدو صغيراً إذا ما قيسَ ببعض مخلوقات الله تعالى والتي منها الجبال ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[2] فهذه الآية الكريمة بينت ما للجبال من عظمة حيث إن الله تعالى ذكرها في معرض الحديث عن الكبر وأن الإنسان المتكبر أحقر من أن يداني عظمة تلك الجبال بل إنه ليصغر بجوارها ويحقر لعظمتها وصغره فكيف بعظمة خالقها سبحانه وتعالى الذي لم يقدره من عصاه حق قدره؟!.

وفي حديثي عن الجبال وعظمة خلقها أذكر ما قاله بعض علماء العصر الحديث عن عجائب الجبال .

(١) لسان العرب ١/١١٦٨.

(٢) الإسراء / ٣٧.

فلقد أورد صاحب الجواهر تحت عنوان : (لطيفة في عجائب الجبال) ثم قال : - أوصاف الجبال - إن الجبال على اختلاف أشكالها وتباين ضروبها وتنوع أصنافها ، وتفنن أحجارها ، تنقسم إلى أربعة أقسام :صخرية لا تنبت شيئاً وجبال ذات نبات ، وجبال نارية ، وجبال لطيفة الهواء ، فأما الجبال الصخرية فما هي إلا صخور صلدة [1] وأحجار صلبة ، لا ينبت عليها إلا اليسير ، وأما الجبال ذات النبات ، فهي صخور رخوة ، وطين لين ، وتراب ورمل وحصيات ملس ، كثيرة النبات والأشجار والحشائش ، وأما جبال النار فإنه يرى في أعاليها دخان ساطع في الهواء ، وذلك من النار التي في باطن الأرض وهي البراكين ، وأما الجبال ذات الهواء اللطيف فهي قسمان : قسم تهب فيه الرياح اللينة في بعض الأوقات وقسم تهب فيه تلك الرياح في جميع الأوقات فأما الذي تهب فيه الريح اللينة في بعض الأوقات فمثل جبال الثلج، فهذه لما كان الثلج فوقها فإنه عند ذوبانه يتحلل إلى أجزاء بخارية لطيفة فيرتفع في الجو ويلطف الهواء ، فتهب نسمات لطيفة ، فتلك الرياح لا تكون إلا عند ذوبان الثلج ، وأما الذي تهب فيه في جميع الأوقات فمثل بعض الجبال في بلاد الشرق.

ثم ذكر وصفاً عن الجبال ذات النبات والأشجار والثلج فقال في وصف جبال الألب[2] : أنها متدفقة الأنهار ، زاهية الثلوج ، يأتلف ذراها[3]

(١) صلدة : الصلد هو الحجر الصلب الأملس ، لسان العرب ٤٦٣/٢.

(٢) جبال الألب : تقع في أوسط أوربا بسويسرا ، وأعلى قممها قمة الجبل الأبيض حيث يبلغ ارتفاعها (٤٨٠٧) أمتار فوق سطح البحر / انظر كتاب (في سبيل موسوعة علمية) ص ١١٦ ، والألب : شجرة شاكة تنبت في ذرى الجبال ، لسان العرب ٨١/١.

(٣) ذراها : جمع ذروة ، وذرا الشيء بالضم أعاليه الواحدة ذروة ، انظر مختار الصحاح / ص ٢٢٢.

والسحاب فهي من أجمل مناظر الجبال بهجة وأحسنها شكلاً وأبهاها رونقاً ، وأبدعها حسناً ، وأشرحها للصدر ، وأكثرها تشويقاً للحكمة.

فترى الجلد الأزرق واللاريس[1] الأخضر ، والصخر الأغبر والأحمر والصنوبر المتعانق الأغصان ، وبهجة جمال الزان ، والأنهار الجارية والمروج الزاهية ، والأشجار الباسقة والحيوانات السائحة ، والأعشاب الكاسية ، والأزهار الجميلة المختلفة الألوان البديعة الأشكال المدهشة الألباب ، المرقية الأذهان ، الناسجة للجبل ثوباً كوكبياً ، وهناك البزاة والصقور فوق رؤوس الألب طائرات ، تلك بعض أوصاف جبال الألب.

ثم قال تحت عنوان وصف جبال سويسرا : إن حد ارتفاع الثلج في سويسرا على ارتفاع (٨٥٠٠) قدم أو (٩٠٠) قدم ثم يجتمع الثلج فوق ذلك ويتراكم ، فتراه في مبدأ أمره أنهاراً عظيمة هائلة تنحدر على الصخور في جوانب الجبل في كل ناحية فما أسرع أن تجمد في أماكنها وتقف حيث هي إذا ضربها البرد فخرت صريعة ، وما أجملها للناظرين ، وما أبدعها ذكرى للمتفكرين ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[2].

إن الناظر ليدهش إذ يراها ثابتة في أماكنها ، جامدة في مجاريها وفي داخل الأخاديد ، وعلى الروابي وفي كل مكان .

ثم تكلم عن وصف جبال النار التي هي جبال البراكين فقال : البراكين منها دائمة الثوران ومنها غير ذلك ، ويقال إن أكبر فوهة لبركان بركان (كيلويا) قطرها ميلان ، ومحيطها سبعة أميال ، وهي على ارتفاع أربعة

(١) أسماء لأنواع مختلفة من الأشجار.

(٢) الذاريات / ٢٠.

آلاف قدم وفي داخلها بحيرة هائلة فيها حمم ومواد مصهورة كثيرة وهذه البحيرة تكون على عمق (٨٠٠) قدم عن شفة الفوهة غالباً وعمق البحيرة نحو (١٤٠٠) قدم، فإذا أظلم الليل أنعكست تلك الأشعة المتطايرة من حمم تلك البحيرة العظيمة على الغيوم فكستها لوناً بديع الجمال، حسن الأشكال قليل المثال، ثم قال: فهذا وصف وجيز لجبال النار لتطلع به على عجائب هذه الدنيا وبهجتها، وكيف جعل الله سبحانه وتعالى قمم الجبال جامعة بين النار الحامية والأنهار النارية المسرعة، وكيف جرى من الجبال ماء ومن بعضها نار وعلت عليها الأعشاب والأشجار والطيور والحيوان أو أصبحت جرداء لا تنبت ولا تزدهي[1].

وعن ارتفاع الجبال جاء في كتاب موسوعة علمية حديث عن أعلى الجبال في الأرض، فقال مؤلفه: نتحدث عن عمالقة الأرض، أما جبال هملايا ففي شمال الهند، وهي تمتد نحو (٢٢٥٠) كيلو متراً من شرق لغرب، وأعلى قممها قمة جبل آفرست كما هو معروف وارتفاع هذه القمة (٨٨٨٢) متراً فوق سطح البحر، وهي أعلى مكان فوق سطح الأرض.

وأما جبال الألب ففي الأوسط من أوروبا ومستقرها بسويسرا، ولكنها تمتد في كل ما جاورها من البلاد، وأعلى قممها قمة الجبل الأبيض وارتفاعها يبلغ (٤٨٠٧) أمتار، وليست هذه كل جبال الأرض وقد ذكرنا منها مثلين لعلهما الأشهر، وتركنا الكثير الأكثر[2].

---

(١) الجواهر/ ٢٥/١٤٧-١٤٩.

(٢) في سبيل موسوعة علمية للدكتور أحمد زكي / ص ١١٦.

فسبحان من رفع هذه الجبال حتى ليخيل للناظر أن قسمها الأعلى وهو القمة داخل في السحاب أو هو مخالط له والحق أن قمم بعضها في السحب وفوقها أيضاً ، حتى إن الحياة في أعاليها معدومة لانعدام مادة الأكسوجين والتي هي أساس الحياة كما يقول علماء الجو فترى أعاليها شامخة لا نبات فيها ولا طير ولا حيوان ، فهي توحي بالقدرة الإلهية والجبروت.

والجبال هي مضرب الأمثال في العزة والرفعة ، يقولون : فلان كالجبل، أي أنَّ له مكانة عالية بين قومه .

والجبال أنواع كغيرها من المخلوقات ، فمنها الأبيض ومنها الأحمر ومنها الأسود ومنها الأخضر ومنها ما هو مغطى بالرمل ، ومنها الصلبة ومنها السهلة ومنها الوعرة ، ومنها المرتفعة كما تقدم ومنها المنخفضة وهكذا .

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1] .

ففي هذه الآيات بين الله سبحانه وتعالى كمال قدرته في إبداعه الخلق المتنوع فالثمرات بأنواعها وأشكالها وطعومها المختلفة تخرج من أرض واحدة وتسقى بماء واحد، كذلك الجبال مختلفة في الألوان كما هو مشاهد، فمنها الأبيض والأحمر، وقوله تعالى : ﴿جُدَدٌ﴾ أي طرائق وهي الطرق

(١) فاطر / ٢٧-٢٨.

التي تكون في الجبال كالعروق بيض وسود وحمر ، وقوله تعالى : ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ الغربيب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب[1].

وختام الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يبين أن النظر في خلق الله تعالى والتأمل في عجائب صنعه بحق وصدق وعين بصيرة ، يورث الإيمان والخشية من الله تعالى والتي هي من علامات الصادقين العاملين بما آتاهم الله تعالى من علم ، فكل من اتقى الله تعالى وخافه فهو عالم، وأما من علم ولم يتقه فليس بعالم ، بل هو جاهل وعلمه حجة عليه، وأشد الناس خشية لله تعالى العلماء العاملون المتقون.

ومن الجبال ما هو مساكن ومنازل يسكنها الإنسان وهذه من نعم الله تعالى عليه كما قال تعالى في قوم ثمود : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] كما إنها أيضاً مساكن لكثير من الوحوش والبهائم والدواب والحشرات التي منها النحل ، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[3] .

كذلك من الجبال ما هو بمنزلة الحصون والمعاقل ضد الأعداء ، قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾... الآية [4] والأكنان هي الحصون[5].

(١) فتح القدير ٤/٣٤٧.
(٢) الأعراف / ٧٤.
(٣) النحل / ٦٨.
(٤) النحل / ٨١.
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٠.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه مفتاح دار السعادة حديثاً عن الجبال وعظم خلقها وكثرة منافعها، فقال: ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها سبحانه وتعالى، وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة رضي الله تعالى عنه قوله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: (بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذا وكذا ؟، قال: اللهم نعم)[1].

فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حافظاً لشراب الناس إلى حين نفاده، وجعل فيها ليذوب أولاً فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة وسال دفعة فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في إنحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه.

ومن منافعها: ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضا أكنان للناس والحيوان.

ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص، والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن التي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى إن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة.

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٦٩.

ومن منافعها : ما ينحت من أحجارها للأبنية ، وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه وتعالى.

ومن منافعها أيضاً : أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح المؤذية .

ومن منافعها : أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ، ولولاها خربت السيول ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها : أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله تعالى أعلاماً ، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾[1] فالجوار هي السفن والأعلام الجبال .

ومن منافعها ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال ، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط بها إلا الخلّاق العليم .

ومن منافعها : أنها تكون حصوناً من الأعداء يتحرز فيها عباد الله تعالى من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن .

وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة ، فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء ، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت

(١) الشورى / ٣٢.

السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من المغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام.

فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه ، ولقد دعانا الله سبحانه وتعالى في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[1] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها ، وعلمه وحكمته ووحدانيته ، هذا مع أنها تسبح بحمده ، وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ، قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2] .

ومنها الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه الصلاة والسلام كليمه ونجيه ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكدك ، ومنها الجبل الذي حبب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إليه وأحبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه[3] ومنها الجبلان اللذان

(١) الغاشية / ١٧-١٩. (٢) الأحزاب/٧٢.

(٣) وهو جبل (أحد) كما جاء في الحديث الذي رواه أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((هذا جبل يحبنا ونحبه)) أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في / كتاب المغازي / باب أحد يحبنا رقم ٤٠٨٣.

جعلهما الله تعالى سوراً على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر[1] ، وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم ، ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات، فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤا من كل فج عميق وقوفاً لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته شعثاً غبراً ، حاسرين عن رؤوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم ، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة ، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام .

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخلو فيه بربه عز وجل حتى أكرمه الله تعالى برسالته وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم ، فإنه ليفخر على الجبال ، وحق له ذلك ، فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال هذا وإنها لتعلم أن لها موعداً ويوماً تنسف فيه نسفاً وتصير كالعهن من هوله وعظمته ، وقد أخبر عنها فاطرها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله ، فقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ

(١) المقصود بذلك جبل الصفا وجبل المروة ، قال في لسان العرب ٤٥٥/٢ ، في مادة (صفا) ومنه الصفا والمروة وهما جبلان بين بطحاء مكة والمسجد.

ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تعالى تتلى عليها فلا تلين ولا تخشع، فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها إذا لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه[2].

وأما السهول فهي جمع سهل والسهل ضد الجبل[3] أي الأرض المنبسطة وأكثر الأرض اليابسة سهول كما هو معلوم فهذه حكمة الباري جل وعلا حيث إنها لو كانت جبلية أو أكثرها جبالاً لصعب السكن فوقها والإستفادة منها ، فأقتضت الحكمة أن تبسط الأرض وتمد وتثبت بالجبال الرواسي، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ﴾[4] الآية فمد الأرض وهو بسطها في اتساع من كل جهاتها بحيث إن الناظر إذا أرسل بصره لم يجد لها نهاية .

فسبحان الحكيم الخبير، قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾[5] ، فبين تعالى في هذه الآيات دلائل القدرة الإلهية التي لا حد لها حيث جعل السماء متسعة ومترامية الأطراف وكذلك الأرض بسطها وفرشها بالنبات وجعل فيها المخلوقات التي لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، فالأرض المنبسطة تتكون فيها الجنات والبساتين والمدن والقرى ، وفيها كل ما يحتاجه الإنسان والحيوان ، وإليها

---

(١) الحشر / ٢١.
(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢١٨ –٢٢١.
(٣) انظر : مختار الصحاح / ص ٣١٩.
(٤) الرعد / ٣.
(٥) الذاريات٤٧–٤٨.

تنزل المياه من الجبال فتصير سيولاً تسقي مزارعها وحقولها وفيها تستقر المياه ثم تتكون منها العيون والينابيع.

جاء في تفسير الجواهر تحت عنوان – عجائب هذه الدنيا – قال : فانظر كيف رأيت الجبل فوقه النسر والباز والصقر والثلج والنار ورأيت في باطنه ماء وزئبقاً ورصاصاً وحديداً وذهباً وفضةً، وفيه عيون نابعات ونفط وملح وكبريت ، ثم إذا نزلت إلى السهل رأيت القطا والنعام في الفلوات والبط على شط النهر والعصفور في المرج ، والنخل والموز في الأرض الحارة والجوز في الباردة والحلبة في القفر والقصب على الماء ، فانظر للعجب العجاب في هذه الأرض التي نحن راحلون عنها إلى عالم أعلى منها ، كيف جملت وحسنت وازينت للناظرين ، فما أجمل أرضنا وما أبهج حسنها وما أعظم شكلها وما أبدع اتقانها![1] .

كذلك فالبراري المتسعة هي مسكن لكثير من الوحوش والحيوانات التي فيها رزقهم وأماكن استقرارهم وهي أيضاً منتزه وسعة للناس إذا أرادوا الإنتقال من المدن إلى البراري لأن فيها من الهواء الطلق والجو الحسن ما لا يوجد في غيرها من الأماكن المزدحمة ولولا هذه النعمة لكان الإنسان محصوراً في مكانٍ واحد لا يستطيع الانتقال عنه، والإنسان يجد راحته في الانتقال والتغيير ، فاقتضت حكمة الباري جل وعلا العالم بكل شيء أن هيأ للإنسان ولغيره من أنواع الخلق ما يحتاجونه لإصلاح حالهم ومعاشهم ، قال تعالى وهو

---

(١) الجواهر ٧/٨٨ .

يتحدث عن إنعامه على بعض[1] الأمم الهالكة مبيناً أنه المستحق وحده للعبادة ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

فبين سبحانه وتعالى لهم أنه المستحق للعبادة وحده ، لأنه الخالق الرَّزَّاق ، يخلق ويرزق فهو الجدير بالعبادة وحده لا شريك له.

كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3] ففي الآية السابقة ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾... الآية ، بيَّن سبحانه وتعالى لقوم ثمود نعمة إيجاد السهل والجبل ومنَّ عليهم بها وأنها من نعمه التي يلزمهم الاعتراف بموجدها ومذللها لهم وعبادته وحده لا شريك له كما في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[4] وكانوا يبنون في السهول قصوراً ذات أبراج عالية ولكنها كانت تبلى قبل فناء أعمارهم لأنها كانت طويلة فصاروا ينحتون الجبال ويتخذونها أماكن لسكنهم ، لأن الجبال لا تبلى على مدى الأزمان حتى يشاء الله تعالى لها ذلك عند قيام الساعة، وفي الزمان الأخير حيث إن أعمار الناس أصبحت أقصر من قبل، صار الإنسان يسكن في السهل ويتخذ منه البيوت الحديثة التي هي من نعم الله تعالى

(1) هم قوم ثمود.
(2) الأعراف / ٧٤.
(3) النحل / ١٧.
(4) الملك/ ١٥.

على هذا الإنسان ، ولولا أن الله عز وجل مد الأرض وبسط سهولها، لكان من الصعب السكن عليها والإستفادة منها بشتى أنواع الإستفادات المختلفة.

ثم تأمل هذه الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، حيث لا تبدو فيها معالم للحياة إلا في بعضها ، فمن الذي مدَّ هذه المساحات بقدرته؟ إنه الله عز وجل، قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1] .

وفي الصحراء ترى قدرة الله تعالى وجمال صنعه عز وجل ، فأنت ترى الرمال الصفراء المترامية أمام بصرك كأنها سلسلة ذهبية ، وترى الأشجار المختلفة المتفرقة هنا وهناك في أجمل منظر وأبهى حلة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[2] .

وكذلك ترى المرتفعات والمنخفضات والجبال والوديان ، وترى ليل الصحراء والقمر يتلألأ على تلك الجبال والسهول والرمال المختلفة الأشكال والأشجار وغيرها ، فتخال أنك في حلم جميل ، ما أبدع صنع الله تعالى في كل شيء قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[3] كما أن ظلام ليل الصحراء فيه نوع من الرهبة والخوف.

والإنسان محتاج إلى ربه تبارك وتعالى في كل حال بل في كل لحظة من لحظات حياته لا إلى أحد سواه ولا غنى له عنه عز وجل طرفة عين ولا أقل من ذلك ومن استغنى عن الله تعالى طرفة عين أو أقل من ذلك فقد كفر، فهو سبحانه وتعالى وحده المنجي من الكربات ، والكاشف للشدائد

(١) الغاشية / ١٧-٢٠.
(٢) آل عمران / ١٩١.
(٣) السجدة / ٧.

وقد أخبر تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[1] وكان المشركون أهل الجاهلية إذا نزلوا الصحراء يستعيذون ويستغيثون بغير الله تعالى من الجن والشياطين فزادوهم خوفاً وفزعاً كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[2] فأبدل الله تعالى أهل الإسلام بأفضل مما كان يفعله أهل الجاهلية من الشرك الأكبر وهو الاستغاثة والاستعاذة بغيره تعالى حيث أبدلهم بالتوحيد الخالص والاستعاذة به عز وجل كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم رحمه الله تعالى عن خولة بنت حكيم رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك))[3] .

وقال تعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4]، فسبحان من هو رحيم بعباده مجيب لدعواتهم وهم مع ذلك لا يشكرونه بل يبارزونه بالمعاصي ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[5].

---

(١) الأنعام / ٦٣-٦٤. (٢) الجن/ ٦.

(٣) الحديث رواه مسلم في / كتاب الذكر والدعاء / باب الدعوات والتعوذ ، انظر / صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/٣١.

(٤) النمل / ٦٣. (٥) إبراهيم / ٤٢.

الفصل الرابع

في الجنات والبساتين وما فيها من أصناف النباتات

لقد منَّ الله تعالى على عباده بنعمه التي لا تحصى ومن بين تلك النعم نعمة الجنات والبساتين حيث إن فيها قوتهم ومعاشهم والقرآن الكريم اشتمل على الكثير من الآيات التي ذكرت هذه النعمة العظيمة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤).

(١) الأنعام / ٩٥.

(٢) الأنعام / ٩٩.

(٣) الأنعام : ١٤١.

(٤) الرعد / ٤.

وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(٤).

وقال تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾(٥).

وقال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾(٦).

---

(١) المؤمنون / ١٨-٢٠.
(٢) النمل / ٦٠.
(٣) سورة يس / ٣٣-٣٦.
(٤) الزمر / ٢١.
(٥) سورة ق / ٧-١١.
(٦) الذاريات / ٢٠.

وقال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾[4]،

وقال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾[8].

وبعد ذكر بعض الآيات المباركة الواردة في الجنات والبساتين والتي جعلها الله تعالى زينة للأرض كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[9] أذكر ما قاله علماء التفسير

(١) الذاريات / ٤٩.
(٢) الرحمٰن / ١٠-١٣.
(٣) الواقعة / ٦٣-٦٧.
(٤) سورة النبإ / ١٤-١٦.
(٥) سورة يسٓ / ٨٠.
(٦) الواقعة / ٧١-٧٢.
(٧) الشعراء / ٧-٨.
(٨) عبس / ٢٤-٣٢.
(٩) الكهف / ٧.

وعلماء النبات حول بعض تلك الآيات ، لنرى ما في هذه المخلوقات من عجائب تقف عندها العقول مسلمة مستسلمة لخالق الخلق وفالق الحب والنوى ومبدع الكائنات ، سبحانه وتعالى.

الحديث عن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

بين تعالى في هذه الآية المباركة نوعاً من عجائب مخلوقاته ومظهراً من مظاهر قدرته جل وعلا وهو أنه أنزل من السماء المطر الذي به حياة كل كائن في الأرض فأخرج به كل نوع من أنواع النبات المختلف في اللون والطعم والريح ، ثم فصَّل فقال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ قال الأخفش : أي أخضر، والخضر : رطب البقول أي ما كان منها متشعباً من الأغصان الخارجة من الحبة ، وقيل المراد من ذلك القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا ﴾ أي نخرج من الأغصان الخضر ﴿ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أي مركباً بعضه على بعض كما في السنابل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ والقنوان جمع قنو وأصله من الطلع ، والعذق هو عنقود النخل والدانية القريبة التي ينالها القائم والقاعد.

وقال البعض إن بعضها قريب دان وبعضها بعيد عال.

---

(١) الأنعام / ٩٩.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب وهٰذان الصنفان أي النخل والعنب هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا من خيار الثمار في الدنيا، وقد امتن الله تعالى بهما على عباده في آية أخرى فقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[1] وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾[2].

وأكثر الآيات التي تتعرض للحديث عن الثمار تذكر هٰذين الصنفين، وقوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي أن كل واحد منهما يشبه بعضه بعضاً في بعض أوصافه، ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر.

وقال البعض: متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض ومختلف في الثمرة طعماً وطبعاً وخص الزيتون والرمان أيضاً لقرب منابتهما من بلاد العرب، ثم أمرهم سبحانه وتعالى أن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر وإلى ينعه إذا أينع، فقال تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ والثمر في اللغة جني الشجر، واليانع: الناضج الذي قد قرب قطافه.

أي فكروا وتأملوا في قدرة خالقه الذي أوجده من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾ أيها الناس لما تقدم مجملاً ومفصّلاً ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دلالات على كمال قدرة الخالق لهذه الأشياء الذي قدر كل شيء بحكمة ووضعه في موضعه اللائق به، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصلون من وراء هذا النظر في عجائب خلقه إلى الإيمان به إلهاً واحداً[3].

(١) النحل / ٦٧.
(٢) سورة يس/ ٣٤.
(٣) فتح القدير/ ٢/١٤٤.

وقد أورد الجوهري عند تفسير هذه الآية بما سماه لطيفة ، فقال : هذه الآية أصل عظيم في علم النبات ، فإن النظر إلى الثمر وزهره هو الذي أنتج علم النبات كله ، ثم تكلم عن بعض أنواع الأزهار ، فقال :

واعلم أن الزهرة كزهرة القطن مثلاً يكون لها غلاف على لون الخضرة كلون الورق ، ويسمى هذا عند علماء النبات (كأساً) وغلاف في داخله ملون باللون الأصفر أو الأبيض أو الأحمر ويسمى (تويجاً) تصغير تاج ، فكأنه لجماله تاج الملوك ، وفي داخل هذين الغلافين يكون التزاوج بين الذكران والإناث كما يكون بين الزوجين في أنثى الحيوان والإنسان سواء بسواء ، وترى في هذه الزهرة وفي غيرها كرات صغيرة ناعمة مستعدة لتصير بزراً متى لقحت ، كما جعل الله للإناث من أنواع الحيوان مواد فيها تنقلب حيواناً متى حصل اقتراب الذكران من الإناث ، وهذه الكرات تكون دائماً في مركز الزهرة ، وهذا هو عضو التأنيث ويسمى (البستيل) وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) المبيض : وهو في القاعدة وفيه الأصول الخلقية القابلة للنمو وهو كالرحم والمبيض في الحيوان.

(٢) أنبوبة شعرية فيها بعض طول.

(٣) الجزء العلوي وهو كفم لتلك الأنبوبة وذلك الفم هو الذي يتقبل اللقاح من عضو التذكير ، ويوصله إلى المبيض بواسطة الأنبوبة المذكورة وترى في هذه الزهرة القطنية وغيرها أيضاً عضواً أو أعضاء أخرى محيطة بذلك (البستيل) أي عضو التأنيث ، وتكون غالباً بينه وبين التويج، فإذا نظرت زهرة القطن مثلاً فأول ما يلقاك كأسها ثم تويجها ثم عضو التذكير

وفي الوسط تماماً عضو التأنيث الذي استعد لاستقبال اللقاح من عضو التذكير الذي أحاط به التويج.

فتلك الورقات الجميلة الزهرية الملونة باللون البهيج في مختلف النبات كأنها هيئة العرس والأفراح التي يقيمها الناس، وملابس الزوج والزوجة أيام الزفاف مع الروائح العطرية التي تبهج القلوب وتشرح الصدور، وقد جعلها الله تعالى في حلتين جميلتين، إحداهما ملونة بأجمل الألوان وأبهاها وأحسنها وأجلاها، وهناك الروائح العطرية البهجة، وترى الحشرات طائفات يغنين كأنهن الموسيقى تصدح والمغنيات يزففن العروس إلى بعلها، والنسمات مطربات يرفرفن بالورق وتسمع حفيف الأشجار وتغريد الأطيار، وترى بهجة النجوم ونور الشمس المشرق والجمال والبهاء، وكأن الدنيا في عرس.

والنبات إن اشتمل على أعضاء التذكير فقط سمي ذكراً وإن اشتمل على أعضاء التأنيث فقط سمي أنثى وإن اشتمل عليهما معاً سمي خنثى ويقال أيضاً إذا كانت أعضاء التذكير والتأنيث في نبات واحد كما في الخروع وفصيلة القرع سمي ذا المسكن وإن كانت أعضاء التذكير في نبات وأعضاء التأنيث في آخر سمي ذا المسكنين كالنخل[1].

فسبحان الخلاق الحكيم العالم بأسرار مخلوقاته التي لا يعلمها أحد سواه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] فالإنسان عندما يرى هذه العجائب في النبات يحس ويشعر بفطرته إن كانت سليمة بأن لهذا النبات

(١) الجواهر ٤/٩١.

(٢) الإسراء / ٨٥.

خالقاً وضع كل شيء بقدر وفي مكانه المخصص له قال تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[1] فإذا كان ذلك في النبات ، فكيف ببقية الخلق في البر والبحر وفيما بين السماء والأرض ، وفيما تحت الأرض ، قال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2].

وقد تكلم صاحب الجواهر عن البزور[3] أيضاً وعن بعض عجائبها، فقال : عجائب البزر:

ثم قال : إن الثمار تنقسم من حيث البزر إلى عدة أقسام ، آحادي البزر وهو ماله بزرة واحدة ، وثنائي البزر وهو ماله بزرتان ، وهكذا إلى عشاري البزر ثم ما زاد عن العشرة إلى نحو (٥٠) يقال له قليل البزر ، وما زاد على ذلك إلى نحو المئات والألوف يسمى كثير البزر.

ويخرج من بعض النبات كساق الذره المسماة (بالعويجة) نحو ألفي حبة، ومن عباد رب الشمس[4] نحو (٤) آلاف حبة ، ومن رأس الخشخاش نحو (٣٢) ألف بزرة ، وشاهد بعضهم حبة شعير نبت منها (١٥٠) سنبلة

---

(١) الأعلى / ١-٥. (٢) سورة طه / ٥-٨.

(٣) البِزْر: بزر البقل وغيره. مختار الصحاح ص ٥١.

(٤) بعضهم يسميه عباد الشمس والواجب أن يسمى بغير هذه التسمية لأن فيها نسبة العبادة إلى غير الله تعالى فالعبادة كلها لله تعالى وحده، وكل الكائنات تعبد الله تعالى وتسبحه ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الإسراء / ٤٤ . فالواجب أن يقال عباد رب الشمس، وأما القول بأنه عباد الشمس فهذا من التسمية الشركية الباطلة.

تحصل من مجموعها (٣٢٠٠) حبة وقد قسم بعضهم أيضاً النبات إلى نوعين: نوع يشتمل على النباتات التي لا بزر لها ، ونوع يشتمل على النباتات البزرية وهو يشمل النباتات البزرية ذات الفلقة الواحدة وذات الفلقتين.

فأما النوع الأول فهو كالحشيش البحري والنباتات التي تستنبت عن طريق زرع بعض فروعها .

وأما النوع الثاني فإن ما كان منه ذا فلقة واحدة فهو كالنرجس والبصل والزئبق ، وقد تكون أزهاره مجتمعة في طرف الجذع ، وأعضاء التذكير قد تكون ثلاثة أو ستة ويندر أن يكون واحداً ، وأوراقه يكون طولها أكبر من عرضها كالنخل وبزرته منحصرة في جسم واحد فلقي وما كان من هذا النوع ذا فلقتين فإن بزرته تكون منحصرة في جسمين فلقيين ويكون له كأس وتويج، وأعضاء التذكير تكون خمسة فأكثر إلى مائة .

فهذه نبذة مختصرة ، فلينظر الإنسان إلى تلك الثمار وعجائبها كما قال تعالى : ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ أي نظرة اعتبار ، لا نظرة مجردة عن ذلك كما هو الحال عند أكثر الخلق[1] .

الحديث عن قوله تعالى :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[2] .

---

(١) الجواهر ٤/٩٢.

(٢) الأنعام / ١٤١.

يبين تعالى في هذه الآية المباركة تقسيمه وتصنيفه لأنواع الأشجار وأنها على صنفين ، فمنها المعروش وهو ما يعرشه الإنسان على أعواد كالعنب وأشجار الزينة وغيرها من أصناف الأشجار مما لا يقوم على ساقه لأنه ضعيف، ومنها ما يقوم على ساقه القوي فهو غير معروش كالنخل والرمان والزيتون وغير ذلك من خلق الله تعالى الواسع ، وقيل إن المعروش ما عرشه الإنسان وغير المعروش ما نبت في البراري بغير تعريش ، وقيل المعروشات ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش كالعنب والبطيخ وغيره ، وغير المعروشات ما قام على ساقه كالنخل وغيره ، وهذه الأقوال متقاربة في المعنى ، فبين تعالى أنه هو الذي خلق هذه الجنات ، وبث فيها الحياة ، وجعل فيها من أنواع الألوان والطعوم والروائح ما لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى[1].

وقد ذكر صاحب الجواهر عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ أنّ هناك قسما آخر لا يراه الناس إلا بالمنظار المكبر وسماه بالقسم الأعظم ، ثم قال فهو أحد أنواع الحدائق والبساتين التي ترى في الطحلب[2] الذي يكسو وجه الماء في البرك والمستنقعات فهذه بساتين ترى بالمنظار مزهرة باهرة ، وكذلك ما يعلو الجدران والسطوح وجذوع الأشجار والأرض الرطبة في الأماكن الظلية والعفونة النابتة على الجلود المدبوغة وجلود الكتب ، وعلى الخبز ، فهي بساتين كالبساتين التي نراها بأعيننا ، وهكذا ما على سطح ماء البحر بحيث يتلون بها الماء ، وعلى الصخور اليابسة على هيئة قشور يابسة، وهكذا ما يفسد العنب والبطاطا ، فهذه وغيرها أنواع

(١) فتح القدير ١٦٨/٢ – تفسير ابن كثير ١٨١/٢.
(٢) الطحلب : الأخضر الذي يعلو الماء ، مختار الصحاح ، ص ٣٨٨.

من الجنات المعروشات وغير المعروشات[1].

وأرى أن صاحب الجواهر بالغ في المراد من هذه الآية حتى خرج عن المعنى الصحيح؛ لأن الله عز وجل خاطب الناس بما يرون ويشاهدون ويفهمون، وما قصده الجوهري لا يفهم من النص، ولم يقل به أحد من علماء التفسير المعتبرين ولا يجوز أن يفسر كلام الله تعالى إلا بما ورد عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أو عن السلف ولا أن تُحمَّل الآيات من المعاني ما لا تتحمله اللغة العربية لأن القرآن إنما نزل بلغة العرب والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ فخص النوعين لفضلهما وكثرة فوائدهما، فكم في النخل من فوائد عظيمة ومنافع للأبدان - وسيأتي الحديث عن ذلك - كذلك في الزرع من الفوائد المختلفة المتنوعة ما لا يحصيه إلا خالقه جل وعلا.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابهاً وغير متشابه، وقد تقدم الحديث عن معناه في الآية السابقة.

ثم قال تعالى مخاطباً عباده وموجهاً لهم أن يأكلوا من هذه الخيرات التي أنعم بها عليهم وأن يشكروه عليها، ولا يضيعوا حق الله تعالى فيها من إخراج الزكاة منها ولا يسرفوا في الأكل بل عليهم بالإعتدال في كل شؤونهم.

الحديث عن قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى

(١) الجواهر ٤/١١٢.

ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

ذكر الخالق سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركات أنه مد الأرض بقدرته فجعلها مترامية الأطراف شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، بحيث إنها تتسع لمخلوقاته الكثيرة ثم ألقى فيها الرواسي وثبتها بها حتى لا تميل بأهلها، ولكي تستقر لهم الحياة عليها، وخلق فيها المياه لأن به حياة الكائنات فلا حياة بدون ماء كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]، ثم بين سبحانه وتعالى قدرته الباهرة في تنويع المخلوقات النباتية حيث أخبر عز وجل أنه خلق زوجين من كل نوع من الثمار، أي جعل كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين إما في اللونية كالبياض والسواد أو في الطعمية كالحلو والحامض أو في القدر كالصغير والكبير أو الكيفية كالحار والبارد، وقيل المراد بالزوجين الذكر والأنثى، والأول أولى ولا مانع من الأخذ بالقولين لأن الآية تحتمل ذلك، فهذه الحقيقة لم تعرف إلا قريباً وهي أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود، فسبحان الواحد الذي خلق من كل زوجين اثنين وتفرد هو بالوحدانية جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته.

---

(١) الرعد / ٣-٤.

(٢) الأنبياء/ ٣٠.

ثم بين تعالى أنه الذي بيده تعاقب الليل والنهار ، وأن هذه الآيات والدلائل يتعظ بها من كان له قلب ، فلهذا ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يُعملون عقولهم بعد النظر والتأمل في خلق الله تعالى ومن ثَمَّ يعلمون أنه الحق وأن ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الصدق الذي لا جدال فيه كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1] .

ثم استمر الحق تبارك وتعالى في وصف الجنات والبساتين وما فيها من أصناف الثمار التي أوجدها بقدرته نعمة للإنسان والحيوان كما قال تعالى في آية أخرى ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2] فالنعمة مسخرة للإنسان بالدرجة الأولى ليشكر منعمه بعبادته وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾... الآية ففي هذه الآية الكريمة بين تعالى تنوع أصناف الأراضي تبعاً لصلاحيتها للزراعة وعدم ذلك ، فمنها الطيب الخصب ومنها السبخ النكد ، ومنها المقفر المجدب ، ومنها المالح الذي لا ينبت ومنها المرملة ومنها السميكة ، ومنها الرقيقة والكل متجاورات.

وقيل : إن المعنى أنها متجاورات ومتقاربات ولكن ثمارها مختلفة فما ينبت في هذه لا ينبت في تلك ، وما لا ينبت في هذه ينبت في تلك .

ومنها ما ينبت الحلو ومنها ما ينبت الحامض ومنها الأخضر ومنها الأصفر ، وهكذا تتنوع الثمار مع أن الأرض واحدة والماء واحد.

---

(١) النجم / ٣-٤ .

(٢) عبس / ٣٢.

وقيل : إن المعنى اختلافها في الألوان ، فهذه حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء ، وجميع المعاني تحتملها الآية ، فسبحان من نوّع أصناف الأرض كما نوّع أصناف الجبال كما تقدم [1] قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[2] .

كذلك نوع أصناف النبات وأصناف الإنسان والطير والحيوان وغير ذلك من خلقه الواسع في البحار والأنهار وعلى الأرض وفي السماء وما بينهما.

ثم تناول كتاب الله تعالى الحديث عن الجنات وما فيها من أصناف النبات ، فقال تعالى : ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ وقد ذكرت هذه الآية ثلاثة أصناف من النبات ولكنها من أفضلها وأثمنها ، وبالأخص في الجزيرة العربية لأن كتاب الله تعالى كان يخاطب سكان مكة والجزيرة العربية بالدرجة الأولى لأنه نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو منهم وبينهم، فهذه الأصناف من العنب والزرع والنخيل هي أعظم وأفضل النباتات عندهم، فالأعناب متسلقة ومتعرشة ، والنخيل باسق والزرع يكسو الأرض بالخضرة والأزهار المختلفة في الألوان والروائح فهي أمثلة لسائر نبات الأرض.

ثم قال الله تعالى : ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الصنوان هو الأصول المجتمعة في نبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ،

(١) عند الحديث عن الجبال.

(٢) فاطر / ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أي أنها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وقوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي في الحلو والحامض.

ففي إختلاف الزروع والثمار في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ، فهذا في غاية الحلاوة وذلك في غاية الحموضة ، وذا في غاية المرارة وذا عَفِصٌ وهذا عذب ، وكذلك الزهورات كالورد والياسمين والعود والنرجس والفل وغيره كثير كل له رائحته الخاصة به التي لا تتغير على اختلاف الزمان والمكان مع أن الماء واحد ، فذلك الإختلاف الذي لا ينحصر ولا ينضبط كله آيات لمن كان واعياً وبصيراً ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته وعظمته فاوت بين الأشياء والأشكال ، وخلقها على ما يريد ، وفيه من العلامة والدلالة على بديع صنعه وعظيم قدرته سبحانه وتعالى ما لا يخفى على من له عقل ، فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الأكل فيكون طعم بعضها مفضلاً على الآخر ، كل ذلك لدليل قاطع لمن تفكر ونظر نظر العقلاء على وجود الخالق جل وعلا وتوحيده ، لأن السبب المقتضى لاختلافها فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا لسببين :

إما اختلاف المكان الذي هو المنبت أو اختلاف الماء الذي تسقى به، فإذا كان المكان متجاوراً وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذي تسقى به واحداً، لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع

العجيب، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يُعملون عقولهم في التفكير في خلق الله تعالى غير مهملين لنتائج ذلك التفكر في المخلوقات من استدلال على الخالق جل وعلا وعلى وحدانيته سبحانه وتعالى[1].

وقد قسم علماء النبات النبات من حيث غذائه إلى ثلاثة أقسام : فقسم يتغذى بالمواد الأرضية ممزوجة بالماء وبالمواد الهوائية ، وقسم يتغذى بجسم نبات آخر كما تتغذى البراغيث والقمل والحيوانات الضارة من جسم الإنسان .

وقسم لا يكون غذاؤه إلا من الحيوان ، فالقسم الأول من النبات هو المعروف ، والقسم الثاني من النبات هو المسمى (الكشوئي) وهو نبات يعيش على غيره لا جذر له في الأرض بل ليمتص من جسم نبات آخر .

والقسم الثالث : وهو ما يتغذى على الحشرات والحيوان ، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه العظيم عن النبات جميعاً أنه يسقى بماء واحد ، ولم يقل يتغذى بغذاء واحد لأن بعض النباتات لا تكتفي بالماء بل تتغذى على غيره من النبات والحيوان ، فسبحان من أودع في كتابه أسرار السماوات والأرض، ومنها الكثير الذي لم يعلمه الإنسان فالماء سر الحياة ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2] أما الغذاء فهو متنوع ، كما في الإنسان والحيوان وغيره من المخلوقات التي تتغذى على الماء وغيره .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٠، فتح القدير ٣/٦٤-٦٥.
(٢) الأنبياء / ٣٠.

أما عن هذه النباتات التي تتغذى على الحشرات والحيوان فمنها ما يسمى (ندى الشمس ذي الورق الملتف) ووصف بأن له أوراقاً حمراء، وزهره أبيض اللون يظهر في شهري يوليو وأغسطس من كل سنة، والأوراق مدورة، وهي أشبه شيء بالملعقة المفرطحة، وسطح الورقة الأعلى يشبه الشعر وهو منته برؤوس مغطاه بسائل لزج، وأحسن ما تسمى به أن يقال: (قرون الحشرات) إن هذه القرون التي تغطي رؤوسها بسائل لزج صمغي إذا نحن لمسناها بطرف قلم الكتابة رأينا بعضها يمتد امتداداً عظيماً وهو يحمل ما يشبه الصمغ الذائب أو الدبس فإذا وقع على تلك المادة اللزجة حشرة أو حب أو شيء صغير فإن ذلك القرن ينقبض ويمسك بذلك الواقع عليه كما يحصل للطائر الصغير إذا وقع على غصن مغطى بمادة لزجة معدة لصيده، أو كما يحصل للذبابة إذا وقعت بجهالة وغرور على دبس، إذا نحن نظرنا إلى أوراق (ندى الشمس) المذكور فإننا نشاهد أن كل ورقة قد حصل في جسمها أجسام صغيرة التصقت بها بواسطة تلك القرون، كالذباب والحبوب والأوراق الصغيرة، وما أشبه ذلك، وبينما نبحث في تلك الأوراق قد نجد ذبابة وقعت على ورقة، وقد اشتبكت أرجلها في تلك القرون أو نجد حبًّا أو ورقاً عصفت به الريح، فإذا شرع الإنسان في استخراج ذلك النبات لاحظ أن جذوره ضعيفة جداً وتغذيته قليلة، وقد أجريت التجارب على هذا النبات لمعرفة كيفية وطرق صيده للحشرات، فوضع على أحد قرونه ذبابة وتبين ما يأتي:-

١-أن ذلك القرن الذي وقعت عليه الذبابة لا تمضي عليه دقيقة حتى يبتديء يحني نفسه نحو مركز الورقة، ويستمر في ذلك الإنحناء حتى يصل إلى المركز.

٢-وبعد انحناء ذلك القرن تسرع القرون التي تجاوره في الأخذ بيده كأنها جميعها تريد الإشتراك في الغنيمة فتنحني جميعها لاغتنام هذه الفرصة وأخذ القنيصة.

٣-السائل اللزج الذي يصبه رأس ذلك القرن يأخذ في زيادة المقدار حتى يغطي الذبابة جميعها ، وهذا يكون سبباً في موتها لأن هذا السائل يسد مسام جسمها ، ولا جرم أن المسام في الحشرات بها التنفس ، فمتى سدت المسام انقطع التنفس فمات الحيوان.

٤-أن هذه الذبابة التي أصبحت أسيرة في قبضة تلك القرون تتدحرج نحو مركز الورقة بتحريك القرون الطويلة التي في الأمام وتسليمها إلى القرون القصيرة التي في جهة المركز.

٥-أن حافة الورقة تكون منحنية كثيراً أو قليلاً حتى إن حواشيها تكوّن هيئة حوض عند قاعها الذي استقرت فيه الذبابة وغمرها ذلك السائل اللزج الذي أفرزته تلك القرون.

٦-وبعد بقاء الذبابة في هذا الوضع ساعات بل وربما كان أياماً معدودات نرى تلك القرون تأخذ في الانتصاب والاعتدال كرّة أخرى وترجع بالتدريج إلى سيرتها الأولى ووضعها المعتدل المستقيم ، وترجع الورقة كما كانت مفرطحة كالملعقة مثل عادتها ويقل فرز القرون لسوائلها بل ربما نراها جفت ، وإذا نحن بحثنا عما بقي من تلك الضحية وجدنا أنه لم يبق منها إلا ما لا ينفع للغذاء كالجلد والأطراف والأجنحة ، وما عدا ذلك فلا وجود له[1].

(١) الجواهر ٧/٩٩.

وهذه التجربة لنوع من أنواع تلك النباتات التي تتغذى على الحشرات، وغيرها كثير ، فسبحان من أعطى هذه النباتات تلك القدرة على صيد الحشرات ومن هو الذي ركب لها هذا الجهاز أو الأجهزة الدقيقة التي تستعملها في تلك العملية ، أفلا يدل كل ذلك الإتقان والدقة في الخلق على وجود الخالق الخبير العليم وتوحيده عز وجل ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (١) بلى : إرغاماً لمن كفر وجحد وأنكر تلك الحقيقة ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ (٢) ثم بين الحق تبارك وتعالى في الآية التي بعدها حقيقة الكفرة فقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٣) أي أن هؤلاء الكفرة لا تنفع فيهم الآيات الكونية والشرعية ولا يردعهم عن كفرهم وطغيانهم أي آية في السماوات والأرض إلا أن يشاء الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (٥) وإنه لمن العجب أن يستبعد هؤلاء الكفرة إعادة الله تعالى الأموات بعد الموت وقد رأوا من الآيات العظيمة في السماوات والأرض ما يدل دلالة قاطعة على قدرته سبحانه وتعالى على كل شيء وهذا ما كان عليه كفار قريش من إنكار البعث، أما اليوم فقد زاد الكفر وعمَّ الإلحاد حيث

(١) السجدة / ٧.
(٢) الزمر / ٦٧.
(٣) الرعد / ٥.
(٤) يوسف / ١٠٥.
(٥) الأنعام/ ١١١.

أنكر الملاحدة وجود الخالق عز وجل بالكلية والعجب أن ذلك الإنكار وقع مع تقدم وسائل العلم وزيادة المخترعات الدالة على الآيات الكونية والنفسية الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1] ولهذا عاقبهم الله تعالى بالنار والسلاسل والأغلال بظلمهم وكفرهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾[2] وهذا الجزاء كما بينه تعالى في آية أخرى هو الأغلال في الأعناق، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[4].

الحديث عن قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ

(١) الأعراف / ١٧٩.
(٢) الزخرف / ٧٦.
(٣) غافر / ٧٠-٧٦.
(٤) الكهف، ١٠٣/١٠٦.

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾[1] .

يذكر تعالى في هذه الآيات المباركات أنواعاً من نعمه الكثيرة التي لا يحصيها ولا يعلم عددها إلا هو سبحانه وتعالى ، فبدأ أولاً بنعمة إنزال الماء من السماء حيث بيَّن سبحانه و تعالى أنه أنزله بقدر ، وبحسب الحاجة لا كثيراً بحيث يفسد الأرض والعمران ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به ، كما أنه سبحانه وتعالى ينزله في الوقت الذي يعلم أنه ينفع الأرض والزرع لا في غيره من الأوقات بحيث يذهب في الأرض دون أن ينتفع به ، ثم بعد إنزاله يسكنه ويبقيه في داخل الأرض حتى يتسنى للخلق الانتفاع به ، ثم بين تعالى أنه قادر على الذهاب به بحيث لا يبقى له أثر ، فبيده إنزاله ، وبيده ذهابه سبحانه وتعالى.

ثم بين تعالى في الآية التي تلي هذه الآية بعضاً من منافع هذا الماء ، فقال تعالى : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين وحدائق ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي فيها نخيل وأعناب ، وهذا ما كان يألفه أهل الحجاز وخص النوعين لأنهما من أشرف ثمار الجزيرة كما تقدم ، ثم قال تعالى : ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي تجنون من هذه البساتين شتى أنواع الثمار المختلفة من غير العنب والبلح ، وتأكلونه طيب المذاق لذيذ الطعم والريح ، أفلا يكون ذلك دليلاً على الخالق ووحدانيته عز وجل،

(١) المؤمنون / ١٨-٢٠.

ثم تستبدلون النعمة بالجحود وتنسبونها إلى غير خالقها ، كما هو شأن كفرة اليوم وملاحدتهم من الشيوعيين وغيرهم القائلين بأن الطبيعة العمياء هي التي خلقت ودبرت ، إن هذا لهو الغباء الواضح والضلال والعمى المظلم ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[1] .

وفي الآية الأخيرة من هذه الآيات المبينة لصنوف نعم النبات تحدث الحق تبارك وتعالى عن شجرة مباركة في ثمرها وزيتها ، ألا وهي شجرة الزيتون هذه الشجرة التي ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من آية، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

والشاهد من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى مدح هذه الشجرة بأنها شجرة مباركة وحيث إن الحق تعالى وصفها بذلك وهو أعلم بخلقه فهي بحيث وصفها من البركة في كل ما تثمر وما يخرج منها من زيت ينتفع به في كل شيء في الأكل والاستدواء وغير ذلك .

ونعود إلى الآية حيث يصف الله تعالى هذه الشجرة المباركة ويصف مكان استنباتها ، يقول تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ فالواو للعطف، عطفت هذه النعمة على النعم السابقة من شتى الثمار المختلفة والمقصود بالشجرة هنا هي الزيتونة كما اتفق المفسرون على ذلك ، وهي التي يخرج الدهن

(١) الفرقان / ٤٣-٤٤.
(٢) النور / ٣٥.

من ثمرها ، فذكرها الله سبحانه وتعالى امتناناً منه على عباده بها ، ولأنها أكرم الأشجار وأعمها نفعاً وأكثرها بركة ، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بأنها ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون .

ثم قال تعالى في وصفها أنها ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ أي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به وكونه صبغاً يؤتدم به ، فهي شجرة مباركة ومن أكثر الشجر فائدة بزيتها وثمرها وخشبها ، وهي أقرب منبتاً من بلاد العرب ، وهو طور سيناء عند الوادي المقدس المذكور في القرآن ، لهذا ذكر هذا المنبت على وجه خاص(١).

وقد ذكر علماء الطب في السابق ثم في هذا العصر منافع وفوائد كثيرة لهذه الشجرة المباركة تدخل في كثير من التركيبات والأدوية الشافية لكثير من العلل والأمراض بإذن الله تعالى ومشيئته، وأذكر في ذلك بعضاً مما قالوه في هذه الشجرة المباركة.

جاء في كتاب (قاموس الغذاء والتداوي بالنبات) تحت عنوان (الزيتون) شجر مثمر زيتي من الفصيلة الزيتونية يعتبر من أقدم النباتات التي عرفها الإنسان وغرسها واستثمرها ، واستخرج زيتها الثمين ، واستعمله في الأكل والدواء وغيرهما .

عرفته مصر في القرن السابع عشر قبل المسيح عليه الصلاة والسلام ، وورد ذكره في كتابات الأقدمين ، وذكر في المخطوطات الأغريقية والرومانية، وذكر أيضاً في التوراة والإنجيل وفي الشعر العربي.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٢/٣، فتح القدير ٤٧٨/٣.

قال ابن وكيع :

انظر إلى زيتوننا فيه شفاء المهج
بدا لنا كأعين شُهل[1] وذات دَعَج
مخضرة زبرجد مسودة من سَبَج[2]

وورد ذكرها أيضاً في القرآن الكريم في سبع سور ، ووصف الزيتون بأنه شجرة مباركة ، وقد أثنى الأطباء القدماء كثيراً على الزيتون وزيته وورقه وأجزائه الأخرى ، ومما جاء في أقوالهم : الزيتون يجود الشهوة للطعام ويقوي المعدة ويحسن الألوان، وقالوا عن الزيت إنه ينتفع به في كثير من المجالات الطبية، وكذلك أثنى الأطباء في العصر الحديث على الزيتون وزيته ، وذكروا كثيراً من فوائده ومنافعه وأنه يستعمل على مدى واسع في صنع المآكل كما يستعمل في أغراض طبية وفي الصناعات وغيرها من مختلف الأغراض وشتى الحاجات، كيف لا وقد وصفه خالقه بأنه شجرة مباركة[3] وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»[4].

فإذا كان في شجرة الزيتونة من المنافع والفوائد ما يعلمه كل إنسان متعلم وغير متعلم ، وفيها من الشواهد على خالقها جل وعلا وتوحيده الشيء الذي لا يخفى ، فلأن يكون في خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من عجائب المخلوقات أعظم الأدلة على وجود الخالق وتوحيده من باب أولى وهذا

(١) الشُهلة في العين: أن يشوب سوادها زرقة، مختار الصحاح ص ٣٥٠، وأما الدَّعَج: بفتحتين فهو شدة سواد العين مع سعتها، مختار الصحاح ص ٢٠٥.
(٢) السَبَج: بفتحتين الخرز الأسود، مختار الصحاح ص ٢٨٢.
(٣) قاموس الغذاء والتداوي بالنبات لأحمد قدامة / ص ٢٦٥.
(٤) رواه الترمذي في أبواب الأطعمة/ باب ما جاء في أكل الزيت، انظر صحيح سنن الترمذي للألباني ٢/١٦٦ رقم: ١٥٠٧-١٩٢٦.

الذي أنكره الملاحدة الأراذل وهم يعلمون أنه لا بد لهذا الخلق وهذا الإتقان من خالق حكيم عليم ، وفي كل يوم بل وفي كل ساعة ولحظة تظهر لهم هذه الحقيقة التي أنكرتها ألسنتهم جحوداً وطغياناً واتباعاً للهوى والنفس الأمارة بالسوء والشيطان الذي سيقودهم في النهاية إلى المصير المحتوم الذي لا مهرب لهم منه ألا وهو النار وبئس المصير وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنها الحق فقلوبهم مقرة بها ولكنه الطغيان والجحود والاستكبار عن قبول الحق كما تقدم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

الحديث عن قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[2] .

في هذه الآية المباركة يعدد المولى جل وعلا بعضاً من مخلوقاته ونعمه التي لا يستطيع أي مخلوق أن يوجد شيئاً منها وإن قل ، فمنها أنه الخالق للسماوات والأرض وما فيهما ، ومنها أنه منزل الماء من السحب ومنها أنه الذي أنشأ من الماء النازل من السماء الجنات والحدائق المختلفة في الأشكال والألوان والتي هي من الحسن ما يعلمه كل إنسان وفيها من شتى النباتات التي تسر الناظرين ، وتنعش النفوس بل إن بعضاً من الحدائق فيها من الحسن والجمال ما يقف الإنسان أمامه خاشعاً لله تعالى مستشعراً عظمة الخلق والإبداع ، فسبحان الخلاق الحكيم ، ولنورد في هذا المجال بعضاً من وصف تلك الحدائق.

---

(١) النمل/ ١٣-١٤.

(٢) النمل / ٦٠.

جاء في كتاب (بديع صنع الله تعالى في البر والبحر) في الحديث عن عجائب منطقة (سويسرا).

قالت مؤلفة الكتاب رحمها الله تعالى : مكثنا في القطار تسع ساعات ولم نضجر لبديع ما رأينا من مناظر على الجانبين بعد ما اجتزنا أرض إيطاليا ، فلقد زاد الطريق روعة وجمالاً ما أحاط بطريقنا من غابات وينابيع متفجرة ، ومياه متدفقة ساقطة من أعلى، وغدران جارية تسابق القطار في سرعته وترافقه جنباً إلى جنب ، وهي تقفز فوق الأشجار أو تمر من بين الصخور الضخمة التي تعترض طريقها مزبدة صاخبة إذ ترتطم بها فتتلوى دائرة حولها ، تارة تجري في قرار عميق تنحني عليها الأشجار ، وتتعانق فوقها أغصانها ، وتارة تنطلق في الفضاء تتلألأ تحت أشعة الشمس كالفضة لامعة ، وتارة تنحدر إلى هاوية فيزيد زبدها وتصير كاللبن ناصعة ، وتارة يتسع مجراها فتهدأ وينقلب بياضها وزبدها إلى زرقة باهتة ، وأجمل من ذلك ما يهبط من الغدران من أعلى الجبال ثم يجري تحتها ، فمنها ما يتفجر في قوة ويندفع إلى الأمام ، فتراه طائراً في الهواء ينتثر رذاذه على رؤوس الأشجار فتغتسل تحته ، ومنها ما ينحدر على صخور ناتئة في طريقها فتصطدم بها وتتناثر رذاذاً أبيض كالدخان.

ومما زاد المنظر بهجة ما يحيط به من شتى الأشجار المختلفات في الأشكال والألوان ، فإن منها ما شحب لونها وشاب رأسها واكفهرت [1] أوراقها أو احمرت أو ابيضت لامعة كالفضة ، فترى شجرة حمراء قانية بجانب شجرة خضراء زاهية وشجرة صفراء فاقعة بجانب شجرة بيضاء ناصعة ، وهناك نوع من الشجر مستدير تغطي غصونه أوراق رفيعة دقيقة طويلة كالشعر ،

(١) اكفهرت : المكفهر هو اللون القاتم أو الأسود ، لسان العرب ٣/ ٢٨٠.

وهناك شجرة أوراق أغصانها حمراء ، وهناك شجرة قد كساها التفاح الأحمر اللامع حتى أخفى أوراقها ، منظر بديع يمتع الأعين إذ تنوعت ألوان الشجر بل تفاوت كل لون من قاتم إلى زاهٍ وباهت ، فتصور هذه الأشجار المتنوعة الألوان المتعددة الأشكال وهي تصطف إلى مدى النظر ، وتكسو الجبال من رأسها إلى سفحها وتملأ قاع الوديان تجري تحتها وفوقها وبينها الغدران ، ويتوج كل هذه المناظر تحت زرقة السماء شريط من الثلوج البيضاء الناصعة تتدلى من أفرع من المياه المزبدة اللامعة ، فسبحان من خلق وأبدع ، ولون وجمل ونوع وأنعم ونعم ومتع.

إن هذه المناظر تذكرنا بما يصفه الله سبحانه وتعالى في الجنة من ظلال وقطوف دانية ، وينابيع متفجرة وأنهار جارية ، وكان القطار يلج من حين لآخر في نفق تحت الجبال ، فنظل في ظلام دامس عدة دقائق قد تصل أحياناً إلى عشرين دقيقة ، وكان ذلك رحمة إذ تستريح أعيننا من التحديق ، نعم ! لقد تعبت عيناي من كثرة التحديق إلى جمال صنع الله تعالى حتى كل بصري، وتألم لكثرة ما رتع وتنعم! .

﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[1] .

ثم ذكرت المؤلفة تحت عنوان (جولة في البحيرة) أي بحيرة (لوسيرن) وصف عجائب خلق الله تعالى في هذه البحيرة فقالت : أبحرت الباخرة في بحيرة (لوسيرن) وتقدمت بنا وهي تشق الماء فترسم وراءها شريطاً من

(١) الملك / ٣-٤.

الفضة ، ورأينا الجمال ما لا يخطر على بال ، فالجمال متشابه وغير متشابه ، كما أن جمال الوجوه يختلف في اتساع العينين وضيق الفم وصغر الأنف واستدارة الوجه ، فكم من وجوه جميلة متشابهة وغير متشابهة ، رأينا على الجانبين جبالاً تكسوها الغابات فتبدو كتلاً خضراء ، وجبالاً تنخفض ظهورها ويقل عرضها تدريجياً حتى تصل إلى سطح الماء فتبدو صفاً من الجبال قد سجدت على ساحل البحيرة وكأنها تصلي جماعة ، ورأينا جبلاً أصلع الرأس عاري الصدر قد ارتدى سروالاً من الشجر وجلس القرفصاء، وجبلاً قد انتصب في الماء وشمَّر عن نصفه الأسفل فبدا عارياً ، أما نصفه الأعلى فتكسوه غابة غنَّاء ، وجبلاً يتفجر من ثقب تحت قمته ماء مزبد كاللبن على الحشائش الكثة الخضراء وما أجمل شاطيء البحيرة عندما ينعرج بجباله وغاباته ، وما أجمل الشاطئين عندما يقتربان حتى تكاد جبالهما تتعانقان، فترى بعض الأشجار قد خاضت الماء وتقدمت بساقها داخل البحيرة على الجانبين كأنها تريد العبور ليلتقي بعضها ببعض ولكنها وقفت خائفة مترددة ، عاجزة جامدة .

ظللت أتأمل ما تحدثه الباخرة من تموجات في الماء الأخضر الشفاف فتتلألأ كالزمرد وتنطلق إلى الجانبين حتى تصل إلى الشاطئين فتداعب حشائشه وتلثم أقدام أشجاره.

وهذه القصور والمقاهي المسورة المبنية داخل الماء ، وهذه الجزر الصغيرة التي يعلوها مسكن واحد صغير تظلله الأشجار ، وكيف تنعم بالاستقلال ، وهذه الصخور المربعة الناتئة في الماء التي تظللها شجرة

أو شجرتان ، وهذه الهضاب الخضراء العالية المنحدرة وما فوقها من مساكن بالرغم من انحدارها الشديد وارتفاعها الكثير ، وتساءلت كيف يصعد إليها القاطنون عليها وكيف يهبطون منها إلى الساحل بل كيف لا يخافون أن يتدحرجوا وهو يمشون عليها؟

وكم أعجبتني الأشجار باختلاف أنواعها وألوانها وشكل جذوعها وغصونها وأوراقها ، فمنها الطويل النحيف ، ومنها الضخم القصير ، ومنها أبيض الساق لا تمتد غصونه إلا بالقرب من قمته ، ومنها المستدير في نحافة وطول، المدبب القمة، كأنه مآذن ، فتصور غابة من مآذن خضراء متساوية الطول والحجم أو من أشجار جذوعها نحيفة بيضاء تصطف معتدلة في نظام على انحدار الجبل من سفحه إلى رأسه كأنها جيش عرمرم لأنها متساوية الطول متماثلة الشكل واللون كالجنود ، فيا للجمال، هنا قمة وهناك هوة ، وهنا واد وهناك ربوة ، وهنا نبع وهناك فجوة ، وهنا زرقة وهناك خضرة، وهنا لمعة وهناك نضرة ، وما أجمل شجر السابان باختلاف ألوانه وغرابة أوراقه، فمنه الزاهي الإخضرار ، ومنه القاتم الضارب إلى البياض عند أطرافه، ومنه الرمادي ومنه الضارب إلى الزرقة ، ومما يزيد في جماله هو شكل أوراقه وغصونه الأفقية المرصوفة حول جذعه ، وكيف تحيط به أطول من الأسفل وأقصر من الأعلى حتى تنتهي بقمة هرمية ، تغطي هذه الغصون بدل الأوراق أصابع طويلة من الشعر الأخضر كالشوك مرصوفة ، بعض هذه الأصابع يشير إلى الجانبين ، وبعضها يشير إلى السماء وكأنها تحذر الناس من الدنيا وتذكرهم بالآخرة.

وهناك شجر يعادلها جمالاً ويشبهها بشوك أغصانه إلا أن أصابع أغصانه طويلة جداً، وتشير إلى السماء كأنها توحد الله تعالى، فسبحان الخلاق العظيم، وإنه لمن المحال أن أصف كل أنواع الشجر والجنات، ولا كل ما أراه لكثرته وتنوعه وعظمته[1].

وبهذا المقدار من كتاب (بديع صنع الله تعالى) نرى بعضاً مما اشتملت عليه الآية وهي قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وإلا فلو أراد الإنسان أن يكتب بعض ما في خلق الله تعالى من العجائب لنفدت الأقلام، فسبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض.

ولقد أحسن القائل في وصف جنات الأرض وبساتينها:

تأمل في رياض الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... على أحداقها ذهب سبيك
على قصب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

إن القاريء ليقف حائراً من تلك الأوصاف لهذه الجنات فكيف بمن يراها، بل كيف بما أعده الله تعالى للمتقين في دار كرامته، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] جعلنا الله تعالى منهم بفضله ومنِّه إنه على كل شيء قدير.

وفي الحديث القدسي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

(١) بديع صنع الله تعالى في البر والبحر لنعمت صدقي/ ص ٢١-٣١.
(٢) سورة السجدة / ١٧.

﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

وقد أورد الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه الحكمة في مخلوقات الله تعالى حول تفسير هذه الآية كلاماً جيداً في بابه ، فقال بعد إيراد هذه الآية المباركة ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ... الآية، انظر وفقك الله تعالى وسددك ما على وجه الأرض من النبات ، وما في منظره من النعم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعادلها شيء من مناظر الأرض، ثم انظر إلى ما جعل الباري سبحانه وتعالى فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى ، وخلق فيه الحب والنوى لحفظ أنواع النبات، وجعل الثمار للغذاء والتفكه ، والأتبان[2] للعلف والرعي، والحطب للوقود ، والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن ، ولغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها ، والورق والأزهار ، والأصول والعروق ، والفروع والصموغ لضروب من المصالح التي لا تحصى .

أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ، لكان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطب ، والأتبان وسائر المنافع ما لا يعد ، وإن وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها.

ثم انظر ما جعل الله تعالى فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل ، والحكمة في زيادتها وبركتها حصول

(١) الحديث أخرجه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في / كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها جعلنا الله تعالى منهم وسائر المسلمين، انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦٥/١٧.

(٢) التبن : عصيفة الزرع من البرّ ونحوه ، لسان العرب ٣١١/١.

الاقتيات ، وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات ، وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة ، فأعطى أهلها من البذر ما يبذرونه وفضلة يتقوتون بها إلى إدراك زرعهم ، فهذه هي الحكمة التي أعمَّ الله تعالى بها البلاد وأصلح بها العباد ، وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى يكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ، ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم، ويفضل منه ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلفه ، تأمل هذه الحبوب ، فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط[1] لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم ، كما تخلق المشيمة على الجنين ، فأما البذر وما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور صلبه على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير.

فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون ، وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيبها ، فهو وإن كان ينال منها قوته ، إلا أن حاجة الآدمي أشد وأولى ، تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات - ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ، ولا آلات توصل إليها غذاءها - جعلت أصولها مركوزة في الأرض، لتجذب إليها المياه من أغوار الأرض ، فتتغذى بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار فصارت الأرض كالأم المربية لها ، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها ، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء

(١) الخريطة : وعاء من أدم أو غيره تشرج أي تربط على ما فيها ، انظر مختار الصحاح ص ١٧٣. لسان العرب ٢/٢٩٠.

كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها ، ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب[1] من كل جانب ليثبت منصبته فلا تسقط ولا تميل ، فهكذا أمر النبات كله ، له عروق منتشرة في الأرض ، ممتدة إلى كل جانب تمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية ، لا سيما في الرياح العاصفة ، فانظر إلى حكمة الخالق عز وجل كيف سبقت حكمة الصناعة[2] ، واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله تعالى في مصنوعاته.

تأمل خلق الورق ، فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة ، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجاً نسجاً دقيقاً عجيباً ، لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة ، وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول معالجة.

فانظر كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يملأ السهل والجبل وبقاع الأرض بغير آلة وحركة ، إلا قدرة الباري وإرادته وحكمته جل وعلا.

ثم انظر إلى العجم والنوى والعلة فيه ، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامها إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب ، فصار ذلك كالشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه ، فإن حدث لبعضه حادث وجد منه في موضع آخر ، ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ولولاه لأسرع الفساد إليها قبل إدراكها ، وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح شتى.

---

(١) الطُنُب : بضمتين حبل الخبَاء ، مختار الصحاح / ص ٣٩٨.

(٢) أي صناعة الخيام وتشييد المنازل العالية التي لا تقوم إلا على أساس متين، بل حتى في الصناعات الحديثة كصناعة الطائرات وغيرها إنما أخذت عن طريق النظر في مخلوقات الله تعالى.

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم[1] من العنبة والهيئة التي تخرج عليها ، وما في ذلك من الطعم واللِّذة والاستمتاع للعباد.

ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب ، وانظر إليه كيف حفظه الباري جل وعلا بصلابته ، وخلق في ظاهره قشرة ، حتى إنه بسبب ذلك إن سقط في تراب أو غيره لا يفسده سريعاً ، وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً ، فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه بمنزلة شيءٍ نفيس عمل له صندوق يحفظه ، وعندما يوضع في الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء وكلما ازداد غصناً ازداد عرقاً يتقوى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهي كذلك إذ يُتم غصنها قوتها، فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء ، والإنكسار بالنقل أو بغيره، ويصعد الماء في جذورها إلى أعالي الشجرة ، فيقسمه الله سبحانه وتعالى بالقسط وميزان الحق ، فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة في الأوراق ، وإلى جوانب الورق ما يليق بغذائها ، وللثمار غذاء صالح لها وللأقماع[2] والأزهار غذاء صالح ولكل من ذلك ما يليق به ويصلحه ، فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ، ورائحتها وألوانها المختلفة ، وحلاوتها وطيبها.

---

(١) العَجَم : بفتحتين النوى وكل ما كان في جوف مأكول كالزبيب والرمان ونحوه ، مختار الصحاح / ص ٤١٥.

(٢) القمع : ما التزق بأسفل العنب والثمر ، لسان العرب ١٦٤/٣.

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه وتعالى خروج الأوراق سابقاً لخروج الثمار ، لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها ، تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء، فكانت الأوراق ساترة لها ، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى عنها ، فيحفظها من العفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه وتعالى الأشجار والثمار والأزهار، وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، فأشكالها ما بين طويل وقصير وكبير وصغير ، وألوانها ما بين أحمر وأبيض ، وأصفر وأخضر، ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط ، وطعومها ما بين حلو حامض، ومز ومر ، وحلو صاف ، وحامض خالص ، وروائحها متنوعة إلى عطرات لذيذات مختلفات ، وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدور ، ويكشف للمتأمل منه كل مستور.

فانظر ما أودع الباري سبحانه وتعالى فيها من السر عند النظر إليها، فإنها تجلي عن القلوب درنها[1] عند مشاهدتها ، وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها، وأودع الله تعالى فيها من المنافع التي لا تحصى، فمنها ما تقوى به القلوب ومنها أغذية تحفظ الحياة ، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها ، وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها ، انظر إلى عود الرمان التي هي متعلقة به كيف خلق مثبتاً متقناً حتى تستكمل خلقها ، فلا تسقط قبل بلوغها الغاية ويحتاج إليها ، وهي الثمرة المختصة بالإنسان دون غيره من الحيوان .

(١) الدرن : الوسخ ، مختار الصحاح / ص ٢٠٤.

انظر إلى النّبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك ، وما فيه من التدبير ، فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقاً رياناً ذا احتياج إلى الماء ولا ينبت إلا به ، جعل ما ينبت به منبسطاً على وجه الأرض، فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غايتها ، فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة ، والسقي يمدها.

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة ، فواحد يغور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة ، وآخر لإخراج المرة السوداء ، وآخر للمرضى والضعفاء ، وآخر للقيء وآخر لتصريف الرياح إلى غير ذلك من الأمراض ، وكل ذلك من الماء فسبحان من دبر ملكه بأحسن تدبير[1].

وبعد هذا الوصف لبعض ما في الأرض من جنات وبساتين نرى الحق تبارك وتعالى ختم هذه الآية بقوله : ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي لا تستطيعون وليس في مقدوركم إنبات تلك الأشجار ، وإنما يقدر على ذلك بلا منازع ومشارك هو الله جل وعلا الخالق القوي المتين المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، وقد أقر بهذا المشركون قديماً كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره ، مما يعلمون أنه لا يستطيع أن يخلق ولا يرزق ، والذي يستحق أن يفرد بالعبادة

---

(١) الحكمة في مخلوقات الله تعالى للغزالي / ص ١٠١-١٠٨.

هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ أي أإله مع الله يعبد؟ كلا والله ، فأين الأنذال الملاحدة الشيوعيون الطبيعيون من هذه الآيات؟ وأين زعمهم الباطل أن الطبيعة العمياء المزعومة تخلق هذا الخلق المتقن المبدع ، إن هي إلا عقول البهائم وأحط وتخبط العميان وأشد ، وقد ختم الحق سبحانه وتعالى الآية بما يبين حقيقة هؤلاء الملحدين في ذلك الزمان وفي كل زمان ألا وهي حقيقة المعاندة والمكابرة واتباع الهوى والشيطان ، فقال تعالى : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾أي يجعلون لله تعالى عدلاً ونظيراً [(١)]، فكفار قريش ومن على شاكلتهم عبدوا الأصنام والأوثان والملحدون في هذا الزمان عبدوا الطبيعة وجعلوها شريكاً لله تعالى في الخلق ولم يعلموا أن الله تعالى هو الذي طبعهم وطبع طبيعتهم وطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بكفرهم، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(٢)] وقال الله تعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[(٣)].

الحديث عن قوله تعالى :

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[(٤)].

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٩.
(٢) النحل / ١٠٨-١٠٩
(٣) النساء / ١٥٥.
(٤) سورة ق / ٧-١١.

بدأ سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركات الحديث عن الأرض، وذلك في سياق الآيات التي تحدثت عن السماء وعظمة بنائها ، ثم تحدثت عن الأرض وما فيها من خلق عظيم ، كل ذلك بيان لقدرته عز وجل والتي أنكرها الكفرة والملحدون ، فقال تعالى في هذه الآية: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾... الآية.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ بين سبحانه وتعالى أنه مدَّ الأرض وثبتها بالجبال كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾[1] فالناظر في هذه الأرض وسعتها وامتداد أطرافها وما فيها من جبال ثوابت وأودية وشعاب يرى عظمة الخلق ويصل بذلك إلى عظمة الخالق عز وجل وحكمته في سائر مخلوقاته ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي من كل نوع حسن المنظر من أنواع النبات الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل الخالق لكل شيء فهو الذي خلق هذه الأصناف والأزواج من كل شيء ومن سائر النباتات التي تسر القلب والنظر، وفيها طعام الإنسان والحيوان وما لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾أي إن هذه المخلوقات دالة على توحيد الخالق عز وجل وهي إنما ينتفع بها صاحب القلب السليم المنيب إلى الله تعالى أما صاحب القلب السقيم فإنها لا تنفعه شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

(١) الرعد /٣.
(٢) يونس / ١٠١.

ثم بين سبحانه وتعالى كيفية إنبات النبات الذي به طعام الإنسان والحيوان والذي تقدم ذكره في الآية السابقة فقال عز وجل : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ فإنزال الماء من السماء آية أخرى على توحيد الخالق جل وعلا ولو اجتمع الخلق كلهم لينزلوه لما استطاعوا ووصفه سبحانه وتعالى بالبركة وهي الخير والزيادة والنماء ، وبين سبحانه وتعالى أنه أخرج بهذا الماء أنواع الأشجار وهي الجنات التي تشتمل على الفواكه اللذيذة المختلفة من الأعناب والرمان وغيرها وقوله تعالى : ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ أي المحصود من البر والشعير والذرة وغيرها .

ثم تعرضت هذه الآيات المباركات للحديث عن النخل ووصفته بقوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ أي طوال شاهقات كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : حوامل يقال للشاة إذا بسقت ولدت، والأشهر في لغة العرب الأول، وقوله تعالى: ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ أي منضود ، والطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل والنضيد المتراكب وذلك قبل أن ينفتح ، وتخصيص النخلة بالذكر مع دخولها في الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار[1].

وقد ذكر العلماء في النخلة ومنافعها كلاماً يطول ذكره ، وأذكر في ذلك بعض ما قالوه :

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: ثم تأمل هذه النخلة التي

(١) فتح القدير ٥/٧٢، تفسير ابن كثير ٤/٢٢٢ ، تفسير ابن سعدي / ص ٧٤٧.

هي إحدى آيات الله تعالى تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك فإنه لما قدر أن يكون فيها إناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان، خصوصاً بالمؤمن كما مثله النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1] وذلك من وجوه كثيرة :-

أحدها : ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾[2].

الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

الثالث: دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاءً كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى.

الرابع: سهولة تناول ثمرتها وتيسره أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعودالشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى اعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم.

(١) في الحديث الذي أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : بينما نحن عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلوس إذ أُتي بجُمار نخلة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم، فظننت أنه يعني النخلة فأردت أن أقول هي النخلة يا رسول الله ، ثم التفت فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم فسكت، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي النخلة . صحيح البخاري في/ كتاب الأطعمة، باب أكل الجمار رقم: ٥٤٤٤.

(٢) سورة إبراهيم / ٢٦.

الخامس: أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسه يكون قوتاً وأدماً وفاكهة ويتخذ منه الخل والحلوى ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار وقد اختلف الناس في أيهما انفع وأفضل وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلداً فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق، والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل.

السادس: أن النخلة من أصبر الشجر على الرياح والجهد، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح.

السابع: أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع مالا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله تعالى وأهل الفجور

فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1].

الثامن: أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله.

التاسع: أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

العاشر: أنها لايتعطل نفعها بالكلية أبداً بل إن تعطلت منها منفعه ففيها منافع أُخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها منافع وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأموناً، والمتأمل في جذعها يراه كالمنسوج من خيوط ممدودة، وأخرى معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك، ولها منافع عديدة غير هذه المنافع[2].

الحديث عن قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[3]

وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[4].

---

(١) الفتح / ٢٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٣٠-٢٣٢.

(٣) سورة يس / ٨٠.

(٤) الواقعة / ٧١-٧٤.

في هذه الآيات الكريمات بين الحق تبارك وتعالى جلت قدرته وتعاظمت أسماؤه وصفاته أثراً من آثار القدرة الإلهية العظيمة وهو إيجاد النار في الشجر الأخضر والعود الغض، حيث جمع بين الماء والنار ، وهما ضدان، فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً ثم تحول إلى حطب يوقد.

وقيل المراد بذلك شجر (المرخ والعفار) وهما نوعان من الشجر ينبتان في أرض الحجاز ، فمن أراد النار ولا زناد عنده ، أخذ عودين وضرب أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد [1]، فسبحان خالق الخلق ومبدعه، وهذه النار هي نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان حيث إنه يستغلها في أمورٍ كثيرة في حياته ، ولولا أن الله تعالى امتن عليه بها لما نضج له طعام ولما انصهر له معدن ، ولما دفع عن نفسه شدة البرد وغير ذلك من أمور حياته .

والنار أيضاً جعلها الله عز وجل علامة وتذكرة لنار الآخرة حتى يعلم الإنسان حقيقتها ولو بصورة مصغرة فيتعظ كما جاء في آية سورة الواقعة المتقدمة وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((ناركم جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم ، قيل : يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها))[2] أعاذنا الله تعالى منها، وقد بينت الآية المتقدمة التي في سورة

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٨٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في / كتاب بدء الخلق / باب صفة النار وأنها مخلوقة رقم: ٣٢٦٥.

الواقعة هذه المعاني الجليلة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴾ أي أخبروني عنها ، ومعنى ﴿ تُورُونَ ﴾ تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال : أوريت النار إذا قدحتها.

﴿ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ ﴾ أي التي يكون منها الزنود أي الإشعال وهي المرخ والعفار ، ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴾ لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الإنشاء الخلق ، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة ، ﴿ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ ﴾ أي جعلنا هذه النار التي في الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى ، وقال عطاء : موعظة ليتعظ بها المؤمن ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ أي منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهي الأرض القفر كالمسافرين ، وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة .

وقيل: للجائعين في إصلاح طعامهم ، يقال : بات فلان القوى : أي بات جائعًا ، وقال مجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة[1] .

فهذه النار فيها تذكرة لنار جهنم لمن آمن بوجودها وحقيقتها ، وأما أمثال كفرة اليوم وغيرهم فهم لا يؤمنون بنار ولا بجنة ، بل ولا بالخالق عز وجل فلقد طمس الله تعالى قلوبهم وأعمى بصرهم وبصائرهم ، أليس في النار دليل على وجود الخالق جل وعلا؟ كم من كوارث وقعت بسبب هذه النار التي لم يستطع أحد أن يقف أمامها حتى ولا أرقى الصناعات الحديثة المضادة لها متى ما أراد لها خالقها أن تدمر ما شاء من بني الإنسان بسبب

(١) انظر فتح القدير ٥/١٥٨.

الذنوب والآثام، ولكن أين القلوب الواعية والأبصار المستنيرة ، إن هو إلا العمى والطغيان والبعد عن الصراط المستقيم وعدم الإيمان بالخالق عز وجل وتقديره حق قدره ، فلذلك ختم سبحانه وتعالى هذه الآيات المباركات التي بينت كثيراً من نعمه ومظاهر قدرته بقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي نزه ربك وعظمه عمّا وصفه به المشركون وجحدوه ولم يقدروه حق قدره وكذبوا آياته ورسله عليهم الصلاة والسلام، فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

الحديث عن قوله تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾[١] .

في هذه الآيات المباركات بين الحق تبارك وتعالى لجميع الخلق من بني الإنسان مؤمنهم وكافرهم أن طعامهم الذي هو مصدر حياتهم بيده سبحانه وتعالى، وأنه الخالق له ولأسبابه ولولا ذلك لعدمت حياتهم من على هذه الأرض، فأين بنو الإلحاد الذين يعيشون على رزق الله تعالى ويعبدون غيره، ويدَّعون أن الطبيعة العمياء هي الخالقة لهذا الخلق ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ففي هذه الآيات المباركات دعم وزيادة لإيمان المؤمنين بربهم تبارك وتعالى ، وزيادة في التوبيخ والتقريع للكافرين والملحدين.

كيف تأكل من رزق الله تعالى وتشرب من مائه ثم لا تؤمن به وتجحده؟! ألم تعلم أنه هو الذي رعاك في بطن أمك منذ أن خلقك ولم تكن شيئاً ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾[٢] ألم تعلم أنه هو الذي أمدك بالنعم والخيرات منذ أن كنت طفلاً حتى صرت رجلاً ﴿أَكَفَرْتَ

(١) عبس / ٢٤-٣٢.

(٢) مريم / ٦٧.

بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[1] ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[2] .

سبحان الله ما أعتى الإنسان الكافر على خالقه عزوجل ، إنه لأشد خلق الله عتواً وجدلاً قال الله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾[4].

إن الحجارة والجبال لتتفطر من خشية خالقها ، ولكن قلب الإنسان الملحد لا يخشع ولا يلين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[5]، وقال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[6] .

وأبدأ الآن بشرح تلك الآيات المباركات من أقوال أهل العلم لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى هيأ للإنسان طعامه من هذه الأرض ، كيف أنزل الماء ثم شق الأرض، ثم أخرج أصناف الأطعمة المختلفة المتعددة ، كم من نعمة لله تعالى على هذا الإنسان ، ومع هذا فقليل هم الذين يشكرون المنعم جل وعلا ، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[7] .

قال تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الآيات إلى قوله تعالى : ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ .

---

(١) الكهف / ٣٧.
(٢) عبس / ١٧-٢٢.
(٣) الكهف/ ٥٦.
(٤) الفرقان / ٥٥.
(٥) البقرة/ ٧٤.
(٦) الحشر/ ٢١.
(٧) سبأ / ١٣.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات :

شرع سبحانه وتعالى في تعداد نعمه على عباده ليشكروها وينزجروا عن كفرانها وذلك بعد أن ذكر النعم المتعلقة بحدوث الإنسان قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي ينظر كيف خلق الله تعالى طعامه الذي جعله سبباً لحياته ؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش ليستعد بها للسعادة الأخروية ؟

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وأراد بصب الماء المطر.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقاً بديعاً بما يليق بالخارج منه صغيراً كان أو كبيراً ، على أي شكل أو هيئة ، ثم بين سبب هذا الشق وما وقع لأجله فقال : ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها والمعنى : أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حباً.

﴿وَعِنَبًا﴾ أي وأنبتنا فيها عنباً وهو من أشرف الفواكه المعروفة في أرض الحجاز.

﴿وَقَضْبًا﴾ معطوف عليه ، والقضب : هو القت الرطب الذي يقضب: أي يقطع مرة بعد أخرى تعلف به الدواب ، والزيتون : هو ما يعصر منه الزيت وهو الشجر المبارك المعروف ، والنخل : جمع نخلة وهي شجرة التمر ، وكم في هذه الثمار المعدودة من فوائد للإنسان.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ جمع حديقة وهي البستان ، والغلب العظام الملتف بعضها على بعض، وقيل : هي غلاظ الأوساط والجذوع ، ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ والفاكهة ما يأكله الإنسان من ثمار كالعنب والتين والخوخ ونحوها ،

والأب: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ وسائر المرعى، وقيل : هو الثمار الرطبة ، وقيل: هو التين خاصة والأول أولى[1] .

ثم ختم سبحانه وتعالى هذه الآيات بقوله تعالى : ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ أي إن هذه الأطعمة من ثمار وزروع وفواكه مختلفة كل ذلك متاع للإنسان ولأنعامه التي يركبها ويستفيد من لحمها ولبنها وصوفها ، فهي متاع وقوت يتزود به الإنسان المؤمن للعمل بطاعة ربه ولما يبلغه رضاه والجنة .

أما الإنسان الملحد فهو أحط من هذه الأنعام ، وكل همه الأكل دون شكر لخالق هذه النعم ومعرفته والتقرب إليه بعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[2].

فسبحان الله العليم القدير الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، من يستطيع أن يشق الأرض عن الحبوب؟ ثم من يستطيع أن ينبت تلك الحبوب المختلفة في الأشكال والألوان كلاً بحسب نوعه وطعمه ولونه مع أنها في مكان واحد وتسقى بماء واحد ، من وضع السكر في التمر؟ والحمض في الليمون؟ والحمرة في الثمار الحمراء؟ والخضرة في الثمار الخضراء؟ من لونها بتلك الألوان وجعلها غاية الجمال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[4]. أفلا تدل كل هذه المظاهر على الخالق جل وعلا وتوحيده؟!

(١) فتح القدير ٥/ ٣٨٤.
(٢) محمد / ١٢.
(٣) الأنعام / ٩٥.
(٤) سورة ق / ٧.

بلى وربي إنها لتدل على ذلك وزيادة. لو منع الله سبحانه وتعالى الأرض أن تنبت فما عسى الملحد أن يصنع؟ أتراه يستطيع بصناعاته المتطورة من معدات ومبتكرات وعقول أُلكترونية وغير ذلك، أتراه بذلك يخلق حبة شعير أو قمح؟ كلا والله إنه ليموت جوعاً كالحيوان بل إن الحيوان أحسن حالاً منه، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]. وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)[2]. والشاهد في قوله تعالى: (فليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة) فلا يستطيعون ذلك، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[3].

وفي نهاية فصل النبات الذي لا يخفى على أحد ماله من دلالة على الخالق جل وعلا، أرى أن أختم هذا الفصل ببعض ما قاله بعض علماء النبات في الاستدلال به على الخالق جل وعلا.

---

(١) الفرقان / ٤٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في / كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ رقم: ٧٥٥٩.

(٣) الواقعة / ٦٣-٦٧.

جاء في كتاب (الله تعالى يتجلى في عصر العلم) في مقال تحت عنوان:

درس من شجيرة الورد

قال كاتبه : منذ سنوات عديدة رأيت شجيرة ورد جميلة مزهرة نمت على جانب طريق منعزلة في بنسلفانيا وعندما مررت بالمكان بعد فترة من الزمن رأيت بجوار الشجيرة أنقاض كوخ صغير متهدم ، وقد غطتها الأعشاب وبعض البقايا النباتية ، وكانت أقرب المساكن تبعد عن هذا المكان بما لا يقل عن نصف ميل ، وقد استبعدت من خاطري أن تكون هذه الشجيرة قد نمت بجوار الكوخ بمحض المصادفة ، لقد أدركت بالبداهة أنه لا بد أن تكون هذه الشجيرة قد زرعها إنسان لينتفع بها بجوار ذلك الكوخ، ومع أنني لم أر هذه الشجيرة عند زراعتها وليس لدي مرجع استدل به على تاريخها فإنني لم أشك في أنها قد زرعت في مكانها وتحت ظروفها بواسطة الإنسان، والشاهد من هذه القصة هو إلزام القول بأن لكل موجود موجد ولكل حادث محدث ، هذا نوع من الاستدلال بهذا المثل من شجرة الورد ، وقد نستبعد في باديء الأمر استخدام هذا النوع من المنطق والتفكير في ميادين العلوم، ولكن سوف تصدمنا الحقيقة ، وهي أن هذا الأسلوب من أساليب الاستدلال هو الأسلوب الوحيد الذي قام عليه علم من أقدم العلوم الطبيعية، ألا وهو علم الفلك ، فنحن لا نستطيع أن نخضع المجرات والنجوم والسيارات في أفلاكها لحكم التجربة.

إننا نستدل على هذه الظواهر جميعاً بآثارها وإننا لنستطيع أن نستخدم نفس المنطق الاستدلالي في إدراك وجود الله تعالى ، وهو بطبيعة الحال من

الأسئلة التي لا تستطيع العلوم بدائرتها المادية الضيقة أن تعالجها ، ولا بد من قبول أية طريقة سليمة تستطيع أن تعالج هذه المشكلة ، ومن ذلك طريقة الاستدلال المنطقي التي تقوم على تفسير النتائج وهي الطريقة المشار إليها آنفاً.

إن جميع ما في هذا الكون يشهد ويدل على وجود الله سبحانه وتعالى ويدل على قدرته وعظمته[1] ، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله تعالى وعظمته ، ذلك هو الله تعالى الذي لا نستطيع أن نصل إليه إلا بالوسائل العلمية المادية وحدها[2] ، ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله تعالى وآثار قدرته، ولا بد أن يكون سبحانه وتعالى متصفاً بالحكمة والإرادة والقدرة وسائر صفات الكمال[3].

---

(١) بل وعلى توحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والذي لا يجدي الإيمانُ صاحبَه شيئاً إذا لم يؤمن بذلك كما سيأتي في آخر الكتاب.

(٢) هذا القول غير صحيح بل باطل لأن الأدلة الموصلة إلى الله تعالى هي الأدلة الشرعية مما أنزله الله تعالى على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، فهي أدلة دالة على الله تعالى وعلى توحيده عز وجل، ثم بعد ذلك دلالة الأدلة العقلية المتنوعة على الخالق عز وجل وتوحيده وغيرها من الدلالات الكثيرة كما تقدم الحديث عن ذلك في الباب الأول، فليست الأدلة المادية وحدها هي الدالة على الله تعالى كما زعم، والله تعالى أعلم.

(٣) كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص ١٦-٢٠.

الفصل الخامس
في الأمصار والقرى

إن وجود البلدان والأمصار وتناسب ما بينها في المسافات والأبعاد وتنوع المناخات والأجواء في كل بلدة عن الأخرى واختلاف المخلوقات في كل بلدة عن الأخرى أيضاً من إنسان[1] وحيوان وأشجار وجمادات إلى غير ذلك مما هو مشاهد أو غير مشاهد لهو دليل واضح على أن هذه الدقة في الخلق والإبداع فيه إنما هو من صنع خالق وإله واحد لا شريك له متصف بأعظم صفات الكمال والجلال والعظمة، وهو الله سبحانه وتعالى وقد من الله تعالى على الإنسان بأن خلق له مسكناً يسكنه ويأوي إليه وترتاح نفسه ويأمن فيه على ماله وأهله وولده، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[3]. ففي هذه الآيات المباركات بين الله تعالى نعمه على الإنسان حيث منَّ عليه بالسكن وهيأ له فيه جميع ما تطمئن إليه نفسه وترتاح إليه،

(١) أي تنوع لون البشرة واختلاف الألسن والأشكال والأوصاف.

(٢) النحل / ٨١-٨٢. (٣) الأعراف / ١٠.

والبيت هو أساس القرية والمدينة ، وخلق لهم أيضاً صنفاً آخر من البيوت المتنقلة التي لا يشق عليهم حملها وهي الخيام المصنوعة من جلود الأنعام وأشعارها ، وفي الآية التالية منَّ الله تعالى على عباده أيضاً بأن جعل لهم من الجبال معاقل وحصوناً تقيهم شر أعدائهم ، وقد تقدم الحديث عن هذا[1].

ومن تأمل بلدان الأرض وأمصارها المختلفة المتباعدة رأى قدرة الخالق جل وعلا في تقسيم هذه الأمصار وتوزيعها في هذه الأرض وجعل المساحات الواسعة بينها.

فلو كانت الأمصار متقاربة من بعضها لضاق على الناس معاشهم ولحدثت الأمراض وفسدت الأجواء ، ولما طاب لهم العيش ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت فصل كل مصر عن الآخر بمسافة أو مسافات قريبة أو بعيدة وجعل في التنقل بين تلك المدن والأمصار نعمة من نعمه ، ألا وهي التأمل والسير في الأرض ، والنظر فيها وفيما عليها من جبال وصحاري واسعة وأشجار باسقة إلى غير ذلك مما هو مشاهد ومعلوم.

ولقد كان من تمام نعمته سبحانه وتعالى على خلقه بعد أن هيّأ لهم المسكن أن أوجد لهم جميع ما يحتاجونه ، فوفر لهم الماء الذي هو أساس الحياة وجعله في البلدان والقرى أكثر منه في الصحراء ، وما ذاك إلا لانتفاع العباد به ، فمن إلّه غير الله تعالى يقدر على فعل شيء من ذلك ، كلا والله.

---

(١) في الفصل الثالث من هذا الباب عند الحديث عن الجبال ومنافعها.

الفصل السادس
في أصناف مختلفة من مخلوقات الله تعالى على هذه الأرض

إن لله تعالى في مخلوقاته الكثيرة المختلفة من غير الإنسان[1] - الذي يكفي وحده للدلالة على الله تعالى ووحدانيته - أدلة واضحة على وحدانية الخالق جل وعلا، وذلك لما فيهما من الإتقان في الخلق والإتقان في الشكل والإتقان في الصنعة ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

وسأتناول في هذا الفصل بعضاً من نماذج مختلفة من هذه المخلوقات ضمن عدة مباحث.

المبحث الأول
في الأنعام ومنافعها

لقد خلق الله تعالى الأنعام وجعلها بفضله مصدراً عظيماً في طعام الإنسان وشرابه ولباسه ومسكنه، ففيها من المنافع للإنسان ما يستوجب الشكر لخالقها سبحانه وتعالى.

وقبل أن أبدأ الحديث عن خلق الأنعام ومنافعها أذكر تعريفاً لكلمة (الأنعام)، قال ابن منظور: الأنعام هي الإبل والبقر والغنم، والنَّعم واحد الأنعام[3].

فتبين من هذا التعريف أن المقصود بالأنعام هي، الإبل والبقر والغنم، وقد بين ذلك أيضاً ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾[4].. الآية. حيث قال: يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام

(١) وقد أفردت للحديث عنه باباً مستقلاً سيأتي بعد هذا الباب.
(٢) النمل / ٨٨.
(٣) لسان العرب ٣/ ٦٧٦.
(٤) النحل / ٥.

وهي الإبل والبقر والغنم كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج[1] هي الذكر والأنثى من الإبل وكذلك من البقر وأما الغنم فهو نوعان ضأن وماعز وكلاً منهما ينقسم إلى ذكر وأنثى، فهذه ثمانية.

وبعد ذلك أتحدث عن خلق الأنعام وما في ذلك الخلق من آيات دالة على الخالق سبحانه وتعالى فأقول:

إن أعظم الأنعام المذكورة خلقاً وأكبرها جسماً الإبل ، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه استدلالاً وبياناً على وحدانيته وقدرته وعلمه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[2].

قال الجوهري عند تفسير هذه الآية: قد ذكَّر الله تعالى البدوي وهو في البادية بأنفس ما عنده وأغلى ثمناً من غيره ألا وهي الإبل لامتيازها بعدة أمور:

١- تنهض بحملها وقد كانت باركة وليس غيرها على هذا الوصف.

٢- وتأكل النوى والقت[3] وغيرهما.

٣- ويكون منها اللبن.

٤- وهي تلين للحمل الثقيل.

٥- وتنقاد للقائد الضعيف حتى الطفل الصغير ، فإنه يأخذ بزمامها حيث شاء.

٦- وهي جمعت بين الزينة لصاحبها والركوب والحمل واللبن واللحم، وهذه الخصال لا توجد مجتمعة إلا في الإبل.

(١) تفسير ابن كثير ٥٦٢/٢. (٢) الغاشية / ١٧.
(٣) القت : هو الرطب من علف الدواب ، لسان العرب ١٦/٣.

٧- وهي ترعى كل نبات في البراري مما لا يرعاه غيرها من الحيوانات.

٨- ومنها أنها تصبر على العطش عدة أيام.

٩- وأيضاً أن ذاكرة الإبل تحفظ الطريق الذي رأته مرة واحدة ، بحيث تسير فيه مهما طال ومهما تنوعت جباله ووهاده وطرقاته ، كما ذكر العلامة الرازي في خبر البعير الذي أطلقه الجماعة الذي كانوا مسافرين معه في مفازة ، فلما ضلوا الطريق كان ذلك البعير الذي قدموه يسير في الطرقات والتعاريج والوهاد والعقبات وبين الجبال المتعاقبة ولا يخطئ ، وهذه من الأعاجيب في الإبل وفي حيوانات أخرى كثيرة.

وليس ذكر هذه المخلوقات في القرآن لمجرد ذكرها فقط، كلا ، وإنما ذلك لفتح باب العلوم والحكمة ، وقد ذكر هنا ما يناسب خيال البدوي في البادية، فلهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نظر اعتبار ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً دالاً على كمال القدرة[1].

وقد جاء في كتاب (الأطلس العلمي في عالم الحيوان) أيضاً أن الجمل يمتاز بخصائص جسدية تجعله متوافقاً مع بيئته الصحراوية ، فمن تلك الخصائص:

١- ينتهي كل من أطرافه بإصبعين ، مغطى كل منهما بحافر صغير غير تام ، خلف الحافرين توجد وسادة جلدية عريضة ، تحيط بالسلاميات الوسطى للأصبعين ، هذه الوسادة تسمح للجمل السير على الرمال المحرقة والدروب الصخرية.

---

(١) الجواهر ١٤٥/٢٥.

٢- فتحتا الأنف قابلتان للإنسداد ، بحيث تحمي الجيوب الأنفية من الغبار .

٣- اللسان والفم والأسنان متكيفة على اقتلاع نباتات الصحراء القاسية والشائكة ومضغها.

٤- يختزن المواد الدهنية في سنامه ، والماء في أنسجة جسمه وفي عدد من الأكياس الموجودة في معدته ، بحيث يستطيع السير طويلاً دون أكل أو شرب.

٥- لا يفرز جسمه إلا كمية قليلة من الملح ، بحيث يبقى مقداره في الدم ثابتاً.

٦- يستطيع الجمل أن يتحمل فقدان (٤٠ بالمئة) من ماء جسمه بينما لا يتحمل الإنسان فقدان أكثر من (١٢ بالمئة)[١].

وذكر صاحب كتاب: (في سبيل موسوعة علمية) تحت عنوان: (جملك سيارة الصحراء) وصفاً للجمل ، فقال: وفي جسم الجمل من الاحتياط ما يحفظ به عليه الماء من ذلك أنه لا يعرق أو لا يكاد ، ومن ذلك أن أنفه متصل بفمه، والفم يحبس ما يخرج مع هواء التنفس من ماء ، ثم قال: والجمل يحمل ما بين (١٧٠) إلى (٢٧٠) كيلو جراماً يسير بها في اليوم (٤٠) كيلو متراً بسرعة نحو (٤) كيلو مترات في الساعة ، ويثابر على ذلك أربعة أيام ، فسبحان من هذا خلقه وسبحان الخلاق العليم[٢].

(١) الأطلس العلمي في عالم الحيوان / ص ٢٣.

(٢) في سبيل موسوعة علمية/ ص ٢٢٦.

وقد تكلم الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى حول الأنعام وما في خلقها من دلالات على الخالق سبحانه وتعالى، فقال: ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه وتعالى بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول -على كبر خلقها- التي للإنسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من كانت له وسلبت من الذهن والعقل ما مُيز به عليها الإنسان وليظهر أيضاً فضيلة التمييز والإختصاص.

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1].

ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الإنسان وغيره، فالإنسان لما خلق مهيئاً لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها، خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع، خلق له أكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح

(١) الزخرف / ١٢-١٣.

لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات، هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لاتصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها أظلافاً تقيها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص القدم لتنطبق على الارض وتهيأ للركوب والحمولة ، ولم يَخلق لها براثن ولا أنياباً لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك[1].

وقد خلق الله سبحانه وتعالى من الجمال نوعاً آخر وهو ما يسمى (بذي السنامين) كما قد خلق سبحانه من الغنم نوعين الضأن والمعز كذلك البقر فيه أصناف كثيرة من جنسه فمنه الكبير القوي ومنه الصغير الضعيف ومنه اللبون ومنه الثور القوي الذي يستعان به في كثير من مهمات الزراعة ، وغيرها من الأعمال التي تحتاج إلى قوة ، واقتضت الحكمة أن يجعل الخيل للركوب بينما الثور للعمل دون الركوب ، والضأن والمعز للفائدة الغذائية كما كانت الحمير والخيل والبغال للركوب عليها ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[2] وكل شيء له ما يخصه ويقدر عليه تركيب جسمه ، ثم ما جعل الله تعالى عليه هذه الأنعام من ألوان مختلفة ، فمنها الأبيض ومنها الأسود ومنها ما بين ذلك ، ومنها ما هو مختلف عن تلك الألوان ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[3].

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٣٤.
(٢) النحل / ٨.
(٣) فاطر / ٢٧-٢٨.

والشاهد من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ ﴾ حيث ذكر الأنعام.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ ﴾ قال: وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق[1] فيه من هذا اللون وهذا اللون، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[2].

وبعد أن ذكرت بعض الحديث عن خلق الأنعام، أذكر بعض منافع تلك الأنعام والتي امتن الله تعالى بها على الإنسان وهي كثيرة:-

فمنها: أكل لحومها وشحومها والإدهان ببعض شحومها، واستخدامه في مجالات كثيرة، وهي من أعظم المنافع.

والحديث عن هذه المنفعة حديث واسع، وقد ورد في القرآن الكريم آيات تشير إلى هذه المنفعة منها: قوله تعالى:

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[3] الآية .. قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ هي الإبل والبقر والغنم[4].

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾[5] ومنها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾[6]، في هاتين الآيتين ذكر تعالى

(١) البلق سواد وبياض، مختار الصحاح / ص ٦٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٣.

(٣) المائدة / ١.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣.

(٥) النحل / ٥.

(٦) غافر / ٧٩.

بعضاً من فوائد الأنعام وعدَّ منها نعمة الأكل ، أي أكل لحومها وما تنتجه من لبن وسمن وجبن وغير ذلك وهذه نعمة عظيمة ، فاللحم به تقوم بنية الإنسان وتعظم طاقته وهو مغذ من الدرجة الأولى كما هو معلوم ، ومفضل على غيره من المأكولات ، كما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[1] والثريد: هو طعام يصنع من الخبز مع اللحم بمرقه[2] فهذا الحديث بين أن اللحم أفضل الطعام ، وذلك لما فيه من قوة للجسم وطاقة عالية ، وقد أثبت ذلك الطب الحديث.

قال صاحب قاموس الغذاء في مادة (لحم): عرف العرب اللحم منذ القديم ، كما عرفه غيرهم من الشعوب القديمة ، واتخذوه مادة أساسية لغذائهم ثم قال: واللحم طعام جيد الإغذاء ، يتولد منه دم متين ، صحيح، كثيف ، وهو من الأغذية للأقوياء والأصحاء ، ثم قال أيضاً: وعلى هذا يوصف اللحم بأنه يمد عضوية الجسم بالمواد البروتينية التي يحتاج إليها ، وينشط الوظائف الهضمية والشرايين القلبية والدفاعية[3].

ومن الآيات في ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في / كتاب الأطعمة / باب الثريد رقم الحديث: ٥٤١٩.

(٢) لسان العرب ١/٣٥٢.

(٣) قاموس الغذاء والتداوي بالنبات / ص ٦١٨.

(٤) الحج/ ٣٤.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

في هذه الآيات المباركات يمتن سبحانه وتعالى على عباده بأن خلق لهم الأنعام والتي منها البدن وهي الإبل والبقر ، وأنه سبحانه وتعالى جعلها من شعائره أي أنها تُهدى إلى بيته الحرام ، ومنها الأضاحي أيضاً ، ثم بين سبحانه وتعالى أن في هذه الشعائر خيراً وثواباً في الدنيا والآخرة ، وأنه لولا امتنانه بها على الإنسان لما كان في مقدوره الحصول على هذا الأجر والخير في الدارين ، فله الشكر سبحانه وتعالى على أن وفق عباده لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثم بين تعالى كيفية ذبح هذه الأنعام، وأنه يجب أن يكون وفقاً لما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فمن ذلك أنه يجب ذكر اسم الله تعالى عليها عند الذبح ، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ أي ليس فيها أي شرك كما فسره البعض، وقيل: أي قائمة معقولة يدها اليسرى والمعنيان صحيحان[2]، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر سبحانه طريقة الأكل منها وأنه لا يجوز حتى تسقط وتسترخي على الأرض، وفي هذا راحة للحيوان ، فسبحان الرحيم بكل شيء ، وبعد ذلك يكون الأكل منها ، وهو غاية الذبح بعد طلب الأجر والثواب منه سبحانه وتعالى فإنه أسمى الغايات وأعلاها، وقد تناولت رحمته سبحانه وتعالى وسعة فضله ، أن شرع للفقراء والمحتاجين من هذه الأضاحي نصيباً فقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما

(١) الحج / ٣٦-٣٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢٢٢.

القانع: هو المتعفف، والمعتر: هو السائل، وقيل غير ذلك والله تعالى أعلم.

ثم بين تعالى الحكمة من ذلك كله فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كل ذلك لأجل شكره سبحانه وتعالى، وتوحيده في العبادة والربوبية والصفات كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

ثم أكد سبحانه وتعالى تلك الحكمة والتي هي الشكر ويكون بالقلب واللسان والجوارح وذلك بتقواه سبحانه وتعالى في هذه الأعضاء لذلك قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾...الآية، فإنه سبحانه وتعالى غني عن عباده، وهو الرَّازق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[2] فبين تعالى أنه إنما شرع نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها فهو تعالى الغني عما سواه وإنما الذي يتقبله منكم ويثيبكم عليه هو تقواه عز وجل وطاعته في الذي أمركم به ونهاكم عنه، قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي من أجل ذلك من منافع دنيوية وأخروية سخر لكم البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبشر

---

(١) سورة يس/ ٧١-٧٣.

(٢) الذاريات / ٥٦-٥٨.

يا محمد المحسنين في عملهم القائمين بحدود الله تعالى المتبعين لما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، بشرهم بالجنة والدرجات العالية فيها[1].

فقد اشتملت هذه الآيات الكريمات على بيان منافع الأنعام الدنيوية والأخروية فهي آية عظيمة لمن تدبرها وفهمها.

وأكتفي بهذا القدر في الحديث عن منفعة اللحم وأبدأ الحديث عن منفعة أخرى من منافع الأنعام وهي تلي منفعة اللحم في الرتبة، ألا وهي منفعة اللبن وما فيه من فوائد كثيرة، فأقول:

إن اللبن يطلق في الأصل على ما يستخرج من أثداء الأنعام مباشرة، ثم أطلق على اللبن الرائب[2] وعوض عنه لفظ الحليب.

ومما يدل على فضل اللبن ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أُتيت ليلة أسري بإناء من خمر وإناء من لبن، فأخذت اللبن فقيل: أخذت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك»[3].

وأيضاً ما جاء في القرآن الكريم من أنَّ اللبن من نعم الله تعالى على أهل الجنة ويكفي ذلك في بيان فضله حيث يقول تعالى في وصف الجنة جعلنا الله تعالى من أهلها: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[4]، فذكر

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٢١، فتح القدير ٣/٤٥٤.

(٢) الرائب / أي المروب – وهو المصنوع من الحليب بإضافة الروبة إليه – أي الخميرة اللبنية، انظر / قاموس الغذاء والتداوي بالنبات / ص ٦١٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء / باب قول الله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ رقم الحديث: (٣٣٩٤).

(٤) محمد / ١٥.

سبحانه وتعالى في هذه الآية أن في الجنة أنهاراً من لبن فهذا يدل على فضل اللبن في الدنيا والآخرة ، وقد امتن الله تعالى على عباده بأن خلق لهم هذه الأنعام التي تدر لهم هذا اللبن الذي يصنعون منه عدة مآكل فمنه يصنع السمن ومنه الجبن والزبد وغير ذلك ، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[1].

ففي هذه الآية بيان لنوع آخر ومظهر آخر من مظاهر القدرة الإلهية والمعجزة الربانية وذلك أنه أخرج هذا اللبن الأبيض اللون من بين الدم ، والفرث ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ووحدانيته وتفرده بالخلق والعبادة ، ثم بين تلك العبرة ، فقال: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان ، ولفظ السقي يبين ما لهذا الشراب من طعم ولذة وفوائد كثيرة فهو يروي العطشان ويطفأ الظمأ ، ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ أي يتخلص بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم إلى العروق ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة وروث إلى المخرج وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ، ولا يتغير به ، وقوله تعالى : ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي لا يغص به أحد ولا يكرهه أحد فهو محبوب لدى الجميع سهل المشرب طيب الريح[2].

(١) النحل / ٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٧٤.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً حول اللبن فقال: ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام وما سقانامن بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها الى المعدة فينقلب بعضه دماً باذن الله تعالى وما يسرى في عروقها وأعضائها وشحومها ولحومها ، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته ، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له ، إذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثفله[1] إلى الكرش فيصير زبلاً ثم ينقلب باقيه لبناً صافياً أبيض سائغاً للشَّاربين ، فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلباً خرج اللبن مشوباً بحمرة الدم، فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول ، فانفصل إلى الكبد وصار دماً وكان مخلوطاً بالأخلاط الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة والطحال والكلية ، وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد فينصب من تلك العروق إلى الضرع ، فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه ؛ إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه ، فاستخرج من الفرث والدم ، فسل المعطل الجاحد ! من الذي دبَّر هذا التدبير؟ وقدر هذا التقدير؟ وأتقن هذا الصنع؟ ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير[2].

وأنتقل بعد الحديث عن منفعة اللبن للحديث عن منفعة ونعمة أخرى من نعم الله تعالى التي لا تحصى وهي نعمة اللباس والأثاث المتخذ من أشعار وأوبار وجلود الأنعام ، فأقول: ذكر الله سبحانه وتعالى هذه النعمة

(١) الثفل: ما سفل من كل شيء ، مختار الصحاح / ص ٨٤.
(٢) مفتاح دار السعادة ١/٢٥١.

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾[1].

فقد بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة نعمة المسكن الذي يأوي إليه الإنسان ويرتاح وتهدأ نفسه فيه، وهذا من نعم الله تعالى على هذا الإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم وأجسامكم ، ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ فلما ذكر سبحانه وتعالى بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة أعقبها بذكر بيوت البادية والرحلة: أي جعل لكم من جلود الأنعام ، وهي الأنطاع والأدم[2] بيوتاً كالخيام والقباب ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي يخف عليكم حملها في الأسفار وغيرها ، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ والظعن بفتح العين وسكونها : سير أهل البادية للانتجاع والتحول من موضع إلى موضع ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ أي وجعل لكم من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها ، والأنعام تعم الإبل والبقر والغنم كما تقدم ، والأصواف للغنم والأوبار للإبل ، والأشعار للمعز، وهي من جملة الغنم ، فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع ، والأثاث متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي إلى أن تنتهي آجالكم من هذه الدار[3] .

---

(١) النحل / ٨٠.

(٢) الأنطاع والأدم : كلمتان مترادفتان بمعنى جلود الأنعام – لسان العرب ١/٣٤، ٣/٦٦١.

(٣) فتح القدير ٣/١٨٤.

فكم في هذه النعمة من منافع شتى ، فمن الجلود تصنع الأحذية والحقائب ومنها أيضاً تصنع الملابس السميكة التي يتقى بها شدة البرد ويصنع منها أيضاً أواني للماء وللسمن وغير ذلك ، ومن الشعر والصوف تتخذ أكثر الملابس النفيسة ، ومنها تصنع الأغطية التي تدفع البرد عن الإنسان ، والألبسة والمصنوعات المتخذة من الحيوانات تضاهي غيرها من المصنوعات المتخذة من غيرها من المواد، بل تنافسها ثمناً وقيمة وجودة ، فمعظم ملابس الشتاء تتخذ من أصواف وأوبار الحيوان لأن الخالق جل وعلا أودع فيه من القوة ما يجعله يتحمل الظروف القاسية لعلمه سبحانه وتعالى أن هذا الحيوان لا يستطيع الصناعة ولا غيرها فلذلك جعل لباسه معه ، فسبحانه من إله حكيم.

وقد ورد في القرآن ما يشير إلى أن في الأنعام خاصية الدفء فقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية المباركة:

يمتن سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة خلقه لهذه الأنعام لما فيها من النفع العظيم له ، فالامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ ﴾ أي هي الإبل والبقر والغنم ، ثم بين أنواع المنفعة ، فقال تعالى: ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ الدفء : السخونة وهو ما استدفئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿ وَمَنَـٰفِعُ ﴾ من ألبانها ونتاجها وركوبها

(١) النحل / ٥-٨.

والحراثة بها ﴿ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ أي من ألبانها ولحومها وشحومها ، وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾ أي في هذين الوقتين وهما وقت ردها من مراعيها ووقت تسريحها إليه فالرواح رجوعها بالعشي من المراعي والسراح مسيرها إلى مراعيها بالغداة ، وخص هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها ، لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد وعند كونها في مراعيها هي متفرقة، ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لم تكونوا بالغيه إلا بمشقة الأنفس لبعده عنكم، ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي خلقها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة ، وأما التزين فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات ، وقوله تعالى: ﴿ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به في الحاضر والمستقبل[1]، وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم حل لحوم الحمر الوحشية ولحوم الخيل حيث أخرج البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأكلناه، وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر - الأهلية - ورخص في لحوم الخيل[2].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : ويؤخذ من تقييد الحمر بالأهلية والإنسية كما في بعض الروايات جواز أكل الوحشية كما في حديث أبي قتادة

(١) فتح القدير ٣/١٤٨.

(٢) رواهما البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الذبائح والصيد / باب لحوم الخيل رقم الحديث ٥٥١٩- ٥٥٢٠، ورواه أيضاً في باب لحوم الحمر الإنسية رقم: ٥٥٢١.

رضي الله تعالى عنه صريحاً في كتاب الحج عند البخاري رحمه الله تعالى[1].

وأنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن منفعة أخرى من منافع الأنعام وهي نعمة الركوب عليها واستعمالها لحمل الأثقال ونقلها إلى المكان المراد ، وقد تقدم بعض الحديث عن ذلك في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾[2] وهناك آية أخرى في ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف ، من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك ، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ أي السفن ﴿ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ أي لتستوا متمكنين مرتفعين ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أي مقاومين ولا مطيقين، ولولا تسخير الله تعالى لنا هذا ما قدرنا عليه ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي لصائرون إليه بعد الموت[4].

---

(١) فتح الباري ٩/٦٥٤ . والحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب جزاء الصيد، باب/ لا يشير المحرم إلى الصيد لكي يصطاده الحلال رقم: ١٨٢٤.

(٢) النحل/ ٧.

(٣) الزخرف / ١٢-١٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/١٢٣.

المبحث الثاني
في خلق الطير وما فيه من آيات دالة على الله تعالى ووحدانيته

ما أكثر ما نشاهد بين الحين والآخر الطير بأنواعه المختلفة وهو يسبح في ملكوت الله تعالى الواسع مسبِّحاً بعظمة خالقه جل وعلا باحثاً عن رزقه ناشراً جناحيه في الهواء ، ولكن القليل منا من يعتبر ويتفكر في هذا الطير ، وما منحه الله سبحانه وتعالى من قدرة على الطيران ، والحقيقة أن كل خلق الله تعالى دليل عليه ولكن الطير من خلق الله تعالى العجيب ، فالطيران ليس بالأمر السهل ، وإن كان قد توصل إليه الإنسان في هذه العصور فإنه إنما توصل إلى ذلك من تجارب عديدة مأخوذة من جسم الطائر الحقيقي، الذي خلقه الله تعالى.

وقد فشل الإنسان أولاً في تقليد الطير ثم نجح أخيراً في الصناعات التي هي في الحقيقة صورة أخرى قريبة من هيكل الطير وآلات طيرانه وإلا فالفرق شاسع جداً بين صنع الخالق عز وجل وصنع المخلوق. إذاً فالفضل كله للخالق جل وعلا الذي أوجد الطير وعلم الإنسان مالم يعلم وخلقه وخلق ما يعمله كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وطيران الطير من أكبر الأدلة على الدقة في الإبداع والعظمة في الخلق وهو من الآيات الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، ولقد ذكر الله تعالى الطير في القرآن وجعله دليلاً على قدرته ووحدانيته ، وأنكر على الكفرة الذين

---

(١) الصافات/ ٩٦.

يرون الطير تسبح في الهواء بشكل رتيب جميل لا تسقط ومع هذا لا يؤمنون به سبحانه وتعالى ولا بتوحيده ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] فنجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر كثيراً من مخلوقاته في الآيات السابقة لهذه الآية في هذه السورة وختم بعض تلك الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ بينما نجد أنه سبحانه وتعالى لما ختم هذه الآية التي ذكر فيها خلق الطير ختمها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ وهذا يدل على أن في خلق الطير الكثير من الآيات الدالة على عظمة خالقه وحكمته وعلمه وقدرته وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وفيه رد واضح على جميع ملاحدة وشياطين الإنس والجن المنكرين لوجود الخالق عز وجل وتوحيده ، ففيه ما يخرسهم إلى قيام الساعة ودخولهم جهنم وبئس القرار.

وقوله تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أن هذه الآيات إنما ينتفع بها من آمن بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وأما الكافرون فإنهم لا ينتفعون بذلك إلا لمن شاء الله تعالى له الهداية كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]. ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾[3].

(١) النحل / ٧٩. (٢) يونس/ ١٠٠-١٠١.
(٣) الملك / ١٩.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير آية الملك :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ ﴾أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي في الجو ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته[2].

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾. ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم والهمزة للتقرير ، أي قد علمت علماً يقينياً شبيهاً بالمشاهدة ، والتسبيح: التنزيه في ذاته وأفعاله وصفاته عن كل مالا يليق به ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قيل: إن هذه الآية عامة في الحيوانات والجمادات، وأن آثار الصنعة الإلهية في الجمادات ناطق ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال والكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفي ذلك تقريع للكفار وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه وتعالى شركاء له يعبدونها كعبادته عز وجل ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ ﴾ خص الطير بالذكر مع دخولها تحت ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لعدم استمرار استقرارها في الأرض وكثرة لبثها في الهواء ، وهو ليس من السماء ولا من الأرض ،

(١) النور / ٤١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٩٨/٤.

ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارة على الطيران وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات.

وذكر حالة من حالات الطير ، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها ، لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها ، فإن استقرارها في الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله تعالى الذي أتقن كل شيء ، ثم زاد في البيان فقال تعالى: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ أي كل واحد مما ذكر قد جُعل عالماً بما يصدر منه من التسبيح لله عز وجل والصلاة له غير جاهل بذلك منه وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه وعظيم شأنه ، ويجوز أن يكون المراد أن الله تعالى قد علم صلاته وتسبيحه ، فيكون الضمير عائداً على الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم فهي جملة مقررة لما قبلها[1].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً جيداً في خلق الطير فقال: ثم تأمل جسم الطائر ، وخلقته فإنه حين قدر بأن يكون طائراً في الجو خفف جسمه وأدمج خلقه واقتصر به من القوائم الأربع على اثنين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعاً، ثم خلق ذا جؤجؤ[2] محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه ، كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه وجعل

(١) فتح القدير ٤/٤٠.

(٢) الجؤجؤ: عظام صدر الطائر ، لسان العرب ١/٣٩٠.

في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران ، وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله ، ولما قدر أن يكون طعامه من اللحم والحب يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان ، وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ، ولما عدم الأسنان وكان يزدرد الحب صحيحاً واللحم ، أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغني عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحاً، وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر ، ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لئلا يثقل عن الطيران ، فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السابح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعاً أو أسبوعين قاعداً على بيضه حاضناً له ، ويحتمل مشقة الحبس ، ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ثم وضعه في حوصلة فراخه وليس بمؤمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون وبقاء الذكر ، فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه[1].

وذكر صاحب الجواهر عند تفسير آية الملك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ ... الآية، كلاماً حول طيران الطير وما فيه من الأسرار فقال: إن قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ لم تعرف بعض حقائقه إلا بعد أن توصل الإنسان إلى اكتشاف علم

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٤٤.

الطيران أي أن طيران الطائر ليس أمراً سهلاً كما يتصوره الناس ، فما هو إلا أن يزود بأجنحة ويطير، كلا فقد سقط بعض الناس ومات لما ظن ذلك.

وإذا قلنا إن السفينة تجري فوق البحر ، فالطير ليس على هذا النظام، بل الطير جسمه أثقل من الهواء ، أما السفينة فجسمها أخف من الماء الذي على مقدار حجمها ولذلك تزيح من البحر ماءً على مقدار وزنها، ولم يعرف الإنسان سر الطيران حتى قطع شوطاً بعيداً في علم الطيران، فقوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ليس مما يدرك بسهولة ، بل قد يدرك بعضه بهذا العلم: أي أن هذا العلم هو الذي نعرف به بعض قدرة الخالق جل وعلا، والدقائق والحكم التي أودعها الطائر حتى طار، إن كل شيء في نظر الجاهل سهل، وفي نظر العالم يحتاج إلى أبحاث، يا ليت شعري ! من كان يظن من أمم الأرض قبل هذا القرن أن طيران الطائر فيه هذه الحكم والأسرار ، وبهذا يزداد فهمنا في هذا العصر لمعنى قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[1].

نماذج من بعض الطيور:

إن عالم الطير عالم واسع كعالم الإنسان والحيوان وغيرها من العوالم التي لا يعلمها ولا يحصيها إلا خالقها عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[2]. فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الحيوان والطير أصناف وأمم ، فالإنس أمة والجن أمة ، والطير أمة ..الخ

(١) الجواهر ٢١٦/٢٤.
(٢) الأنعام / ٣٨.

﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾ أي خلق أمثالكم ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾ أي الجميع علمهم عند الله تعالى ولا ينسى واحداً من جميعها ، من رزقه وتدبيره، سواء كان في البر أو البحر ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ الحشر: هو البعث يوم القيامة ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴾ ليقتص كل واحد من الآخر ثم تكون تراباً كما وردت بذلك الأحاديث[1].

وأذكر هنا بعضاً من نماذج مختلفة من أمة الطير ، فمنها ما يسمى بالجوارح من الطير ، وأذكر منها (النسر).

وهو ذاك الطائر الكبير الذي يعتبر من أقوى كواسر الطير وقد ذكر صاحب كتاب (في سبيل موسوعة علمية) بياناً لجوارح الطير ، فقال: أكبر الجوارح في الأرض أحجاماً النسور الأمريكية ، ثم قال: واسمع ما يقوله العلماء في وصفها : إن النسور الأمريكية كبيرة ، تحلق عالياً ، ولها رؤوس عارية من الريش غير جذابة وأصابعها الطويلة ليست معقوفة في قوة تأذن لها بالقبض على الفرائس شأن غيرها من الجارحات ولا شك أن النسور الأمريكية هي أحسن طيور الأرض تحليقاً في السماء ، وهي من أكثر الطيور

---

(١) من ذلك ما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية قال: قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول: كوني تراباً فلذلك يقول الكافر: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾. تفسير ابن كثير ٢/١٣١. وهذا الحديث صححه الألباني رحمه الله تعالى في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/٦٠٦ -٦١٤، رقم: ١٩٦٦ - ١٩٦٧.

شراهةً ، وللنسور قوة إبصار عجيبة ، فهي تحلق في السماء على أبعاد شاهقة قد تبلغ مئات الأقدام ، وذلك بحثاً عن طعامها في الأرض ، وقد يرى النسر نسراً آخر على بعد ميل ، يراه قد هبط إلى الأرض فيدرك من ذلك أنه لا بد قد وجد طعاماً ، فما أسرع ما يتحول إليه هابطاً.

ثم قال تحت عنوان: -نسران من أكبر ما عرف من نسور- وهما من نفس هذه الفصيلة ، فصيلة النسور الأمريكية العملاقة ، وكلاهما يبلغ امتداد جناحيه معا نحو (١٠) أقدام وجناحاهما فوق ذلك عريضان ومعنى ذلك أنهما يتمتعان بمساحة أجنحة كبيرة لها خطرها في الطيران ، ووزن النسر منهما يبلغ ما بين (٢٠) إلى (٢٥) رطلاً[1].

فسبحان المبدع ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[2] وننتقل من هذا الطائر العظيم إلى طائر آخر صغير في خلقه لكنه عجيب في أمره ، وهو (الوطواط) أو (الخفاش).

ويحدثنا عنه أيضاً صاحب الموسوعة تحت عنوان (الوطاويط) خفافيش الليل ، فيقول: الحقيقة عن الوطاويط : تلك الصغيرة التي يألفها الإنسان إنها حيوانات ظريفة رقيقة لا تضر أحداً ، وللإنسان منها ، حيث تكثر نفع غير قليل ، ولرجل العلم فيها نظرات مشبعة تملأ الرأس فكراً ، وتملأ العقل حكمة ، وهو لا يكاد يفرغ من دراستها بحسبانها مخلوقاً بين مخاليق ، حتى لا يتمالك أن يقول: سبحان الله .

(١) في سبيل موسوعة علمية / ص ١٧٧.
(٢) السجدة / ٧.

ثم قال تحت عنوان: ما الوطواط؟ : إن الوطواط يطير، وإن له أجنحة، ولكن ليس هو من الطيور في شيء، إنه حيوان كالفأر شكلاً، ومنه الذكر ومنه الأنثى، والأنثى تلد وترضع أولادها وتحنو عليها، إنه كالحيوانات إلا أنه شذّ عنها جميعاً بأن كانت له أجنحة يطير بها، فهو بين الحيوان والطير، فسبحان الخلاق العظيم.

ثم تكلم عن أجنحة هذا الطائر فقال: أجنحة الطائر أولى خصائصه، ونبدأ بأجنحة الوطواط لأنها أخص ما في خلقه، وأنت تراه طائراً يطير في سرعة فائقة، قد مد جناحيه وسعهما وقد فتح فاه يلتقط الحشرات التي في الهواء فهي غذاؤه، وترى الجناح وهو من جلد رقيق لا من ريش كأجنحة الطير، تراه قد انبسط فأراك أنه يضم الذراعين جميعاً، ويضم الرجلين كذلك ويضم حتى الذيل، نعم الذيل، ألم نقل أنه شبيه بالفأر؟ سوى أن الفأر قارض، والوطواط غير قارض.

ثم قال: - الوطواط يطير في ظلام- وذكر أنه يستيقظ في الليل وينام في النهار وأن مسكنه البيوت الخربة، ثم قال: والوطواط قليل البصر ولكنه ليس فاقده، وهو لا يسقط على الأرض إلا أن يسقط لالتقاط حشرة ولكنه إذا أراد أن يمشي على الأرض مشى زحفاً، ولكي يعود إلى الجو من بعد انحطاط إلى الأرض، يجب عليه أن يصعد إلى جذع شجرة أو نحوها، ثم يلقى بجسمه في الهواء هابطاً، حتى إذا امتلأ جناحاه بالهواء استطاع أن يرتفع بهما، وبصر الخفاش ضعيف نوعاً ما، فهو لا يعتمد عليه في اقتناص صيده من الحشرات أو اتقاء ما يمر به من مخاطر في ظلام الليل الدامس وإنما كل اعتماده على سمعه الثاقب، فهو يرسل صوتاً في الجو شبيهاً بالذبذبات الرادارية يتحسس بها

الأشياء المحيطة به ، وذلك برجوع صدى صوته إليه فيعلم إن كان الهدف قريباً أو بعيداً ، وهذه الخاصية التي جعلته لا يصطدم بالحجر ولا بالشجر ولا بأي عائق يلقاه في طريقه وهو في سبيل الحصول على صيده بسرعة هائلة التي هي لازمة للحصول على ذلك الصيد.

وقد جرب فريق من الباحثين تلك الخاصية على عدد من الوطاويط بأن ربطوا أعين بعضها وقلعوا أعين البعض ، ثم أطلقوها ، فسارت على نفس النظام كما لو كانت لم تقلع أو تربط أعينها ، فعلم أن الجهاز الذي تستعين به في ذلك ليس البصر ، وإنما هو السمع ، فقاموا بربط أسماعها فاضطربت حركاتها وتساقطت.

فهذا الائتلاف ، وهذا التناسق والتوافق واقع بين أمور ليس من ميسور البشر العادي تفهمها تفهماً سهلاً هيناً.

إن في كل هذا رداً قاطعاً على من زعم أن الخلق نشأ هكذا طبعاً ، فما عرفنا أن الطبع يدخل في الأشياء كل هذا العمق[1] ، بكل هذا العلم ، وبكل هذا الفن ، وبكل هذا التعقيد والتركيب ، وأنه يشمل لا مخلوقاً واحداً هو الوطواط ، ولكن مخاليق أخرى ، هي الحشرات وغيرها ، ويشمل بيئة بها شجر وبها حجر ، وبها هواء ، وبها ليل ، وبها نهار ، وبها عمى ، وبها إبصار.

وقد أجروا تجارب حملوا فيها وطاويط وهي معصوبة الأعين بعيداً عن أوطانها نحواً من ستين ميلاً ، فعاد منها في نفس الليلة طائفة اتجهت

(١) أراد صاحب الموسوعة أن يرد على من نسب خلق أي شيء من المخلوقات إلى الطبيعة العمياء المزعومة، وقد تقدم الرد على هذه الشبهة الباطلة في الفصل الثالث من الباب الأول.

إلى موطنها الأول في خط مستقيم لا تعرج فيه! وكيف تهتدي؟ بالنظر؟ بالطبع لا ، وإذاً فبماذا؟ علم ذلك عند الله سبحانه وتعالى[1].

وقد ذكر مؤلفا كتاب الأطلس العلمي ملخصاً عن أوصاف الطير وخلقته ما نصه : يمثل الطير أحد أنجح حالات التكيف البيولوجية[2] في عالم الحيوان ، يمكن وصفها باختصار ، بأن الطير جناح يقوده نظر شديد النفاذ .

فبالرغم من ضعف مجموعته العضلية ، اقتحم الفضاء ، وتحرك فيه بسهولة وبراعة لا تكاد تماثله فيها أفضل الآلات التي من صنع البشر، أما الطيور التي تجتاز المسافات الشاسعة فوق القارات والمحيطات والتي تتوجه بواسطة الشمس والنجوم، فإنها قد ارتفعت بالملاحة الجوية إلى أقصى درجات الكمال[3] وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

---

(١) في سبيل موسوعة علمية / ص ١٨٢.
(٢) البيولوجيا: الكائنات الحية في جميع أشكالها ، انظر / قاموس (المورد) عربي – انجليزي ص ١٠٦.
(٣) الأطلس العلمي / عالم الحيوان / ص ٥٦.
(٤) النحل/ ٧٩.

المبحث الثالث
في النحلة وما فيها من دلالات عظيمة
على الباري عز وجل وعلى وحدانيته

إن في خلق الحشرات بأشكالها المختلفة وألوانها المتعددة التي لا يستطيع أحد أن يضاهي صنعها ، إن في ذلك لدليلاً واضحاً على وجود الخالق جل وعلا وتوحيده ، فمن أوجد تلك الحشرات الصغيرة غاية في الإبداع والإتقان، فسبحان الذي له في كل شيء من خلقه دليل عليه وعلى وحدانيته.

وعالم الحشرات عالم كبير يضم مئات الآلاف بل الملايين من الأنواع وننتقي من هذا العالم الواسع بعض أنواعه لنتحدث عنها ، ولنطلع على بعض أسرار خلقتها وتركيبها ومنافعها ، ونبدأ حديثنا عن النحلة فهي سيدة الحشرات لما تنتجه من شراب لذيذ الطعم فيه شفاء للناس كما ذكر في الكتاب العزيز.

وجدير بنا ونحن نتحدث عن النحلة أن نذكر أول ما نذكره قول الحق تبارك وتعالى عنها ، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات الكريمات: المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي

(١) النحل / ٦٨-٦٩.

إليها ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة بل إلى بيتها ومالها من فراخ وعسل ، فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، وقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منه ، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم ، وفي صحيح البخاري رحمه الله تعالى من حديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل أو كية نار ، وأنهى أمتي عن الكي))[1] وروى البخاري أيضاً عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((إن كانَ في شيءٍ من أدويتكم خير أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي))[2] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ في إلهام الله تعالى لهذه الدواب

(١) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الطب / باب الشفاء في ثلاث، رقم الحديث: ٥٦٨١.

(٢) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الطب / باب الدواء بالعسل، رقم الحديث: ٥٦٨٣.

الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم الواحد الأحد سبحانه وتعالى[1].

وأذكر بعضاً من أقوال العلماء في وصف النحل وكيفية صنعه للعسل إلى غير ذلك من أموره لنقف على بعض أسرار الله تعالى في بعض مخلوقاته التي لا تحصى.

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً في عجائب النحل فقال: ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعاً فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل، كل هذا بغير مقياس ولا آلة وتلك من أثر صنع الله تعالى وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها، اتخذت بيوتها في هذه الأماكن الثلاثة في الجبال وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون: أي يبنون العروش وهي البيوت، فلا يرى للنحل بيت في غير هذه الثلاثة البتة، وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال وهو البيت المقدم في الآية ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها ومما يعرش الناس وهو أقل بيوتها، وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها العسل

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٧٥.

الكثير جداً ، وتأمل كيف أدَّاها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولاً فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه وتعالى أمرها باتخاذ البيوت أولاً ثم بالأكل بعد ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعز عليها شيء ترعى ثم تعود[1].

وقد ذكر مؤلف كتاب (النحلة تسبح الله تعالى) كلاماً واسعاً في ذلك تناول جميع أحوال النحل بلغة العلم والإيمان بخالق هذا الكون سبحانه وتعالى وسأنقل بعضاً منه.

قال في مقدمة كتابه: كثيراً ما كنت أتلو قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فأستغرق في تفكير طويل ، باحثاً عن مدلول هذه الآية ، كيف تسبح الأشياء بحمد الله تعالى؟ بل كيف يسبح كل شيء بحمد الله تعالى ، وهل من الضروري أن يكون لكل شيء لسان يسبح الله تعالى به كما هو الحال عند الإنسان؟.

ولقد وجدت لنفسي تعليلاً مقنعاً بأن الإنسان عاجز عن إدراك الكثير من أمور جسده وأسرار حياته ، وهو أشد عجزاً عن معرفة ما هو خارج عنه مما هو في هذا الوجود ، وإذا كان الأمر كذلك فهل يصح لهذا الإنسان ذي الإمكانات المحدودة أن يتطاول ليمنح نفسه المقدرة على معرفة كل شيء حتى إذا لم ترق لتفكيره حقيقة من الحقائق التي تملأ هذا الوجود إدعى عدم صحتها.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٤٨.

لقد أقنعت نفسي بالوقوف عند ظاهر المعنى ، أما كيف يقوم كل شيء بتسبيح الله تعالى وتنزيهه ، فهو أمر لم أفسح المجال لنفسي أن تتابع الخوض فيه، لاقتناعي أن الإنسان أعجز من أن يعرف كل شيء في هذا الوجود.

ثم ذكر بعض الدوافع التي جعلته يقوم بتأليف كتابه ، فقال: كما جذب انتباهي عبارة سمعتها من بعض الأساتذة استدل فيها على الله سبحانه وتعالى عن طريق العقل والحقائق التي توصلت إليها العلوم الحديثة ، ومن بين تلك الحقائق النحلة وما فيها من عجائب في أعمالها وطباعها ، ثم ينقل عن هذا الأستاذ قوله: ما أحرى الشباب المؤمن أن يقوم كل منهم بدراسة ناحية من نواحي الحياة المختلفة ليرى فيها عظمة الله تعالى المتجلية في كل شيء ويطلع البعيدين عن الدين المنكرين لوجود الله تعالى وتوحيده ، على أن كل شيء في هذا الوجود يدل على الله تعالى، وعلى توحيده[1].

وبعد أن ذكرت بعض كلام المؤلف في مقدمة كتابه (النحلة تسبح الله تعالى) أذكر هنا بعض ما قاله في النحلة:

ذكر المؤلف تحت عنوان (مملكة النحل ، فقال: والآن انظر إلى هذه البيوت السداسية الشكل ، وقد رصف بعضها إلى بعض رصفاً بديعاً دل على ذوق أنيق وفكر هندسي رفيع، لقد عرفت كيف تبني بيتها على هذا النمط الفريد منذ مئات السنين بل منذ الألوف.

من أين تسنى للنحلة منذ أقدم العصور أن تبني بيتها على هذا الشكل السداسي الجميل ، قبل أن يعرف الإنسان المتعالي المتباهي علوم الهندسة ،

(١) النحلة تسبح الله تعالى بلغة العلم ولسان الواقع/ص٥-٦.

وقبل أن يثبت لدى علماء الهندسة أن الشكل السداسي هو الشكل الوحيد بين جميع الأشكال الهندسية القريبة من الدائرة الذي يصلح لأن يملأ الحيز الموجود، دون أن يترك شيئاً من الفراغات بينها.

أولا ترى أيها الإنسان أن هناك قدرة منحت النحل هذه الموهبة الهندسية البديعة فجعلته يبني بيوته على هذا الشكل المتناسق، ووفق الأوصاف والمساحات نفسها في جميع أقطار الدنيا وعلى مر الزمان وكر الليالي!!.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال بعض الشعراء وهو يناجي ربه:

تهوى العروش وعرش مجدك ثابتٌ ... وسواء ملكك كل ملك فانِ

سلطان مجدك أنت فيه أول ... لا رأي فيما ترتئيه لثانِ[1]

ثم قال تحت عنوان - النحلة الملكة-: تأمّل أيها الإنسان وانظر في كل أرجاء هذه المملكة، إنك لن ترى فرداً يهمل أداء واجبه الذي خلق من أجله، أينما حولت بصرك فإنك لا بد واجد الجهد الدائب المستمر، لا يتوانى فيه الفرد أبداً عن العمل الذي وجد له، انظر إلى هذه النحلة الكبيرة نسبياً والمتميزة عن بقية النحلات بنمو بطنها واستطالته، إنها تتحرك ببطء وحذر، وقد أحاط بها عدد من النحلات (التوابع) لرعايتها وخدمتها إنها تدعى (الملكة) هاهي النحلات التوابع، إنهن يمهدن الطريق لملكتهن وكأنهن يردن أن يحملنها على الأكف والراحات حرصاً عليها ورعاية لها.

(١) النحلة تسبح الله تعالى / ص ٢٤-٢٩.

ثم تكلم حول ذكر النحل وكيف يتم تلقيح الملكة وذلك يكون بعملية تهييج من قبل الملكة لكل الذكور الموجودة في الخلية ، بأن تصدر صوتاً فيتبعها جميع الذكران ، ثم تحلق في الهواء طائرة إلى مسافات بعيدة في الجو إلى أن يظفر بها أقوى الذكران فيلقحها ثم يموت وترجع بقية الذكور خائبة إلى الخلية ، فيا ترى بماذا تقابل؟ إن جزاء الخائب هو الطرد ، فتطاردهم النحلة الشغالة إلى خارج الخلية ، فيموتوا جوعاً ، لكي تبقى الخلية جاهزة للنسل القادم ، فمن علم الشغالة هذه الطريقة ؟ والتي لولاها لعمت الفوضى داخل الخلية ولكثر الذكور وامتلأت الخلية بهم بالإضافة إلى النسل الجديد ، فسبحان الله تعالى الذي أتقن كل شيء خلقه ، وسبحان المبدع الحكيم[1].

وقال أيضاً تحت عنوان – النحلة الشغالة– : والآن تعال أيها الإنسان لنتأمل في هذا النحل الشغال الذي يملأ أرجاء هذه المملكة ، ويملأ الحقول والبساتين ، النحلة الشغالة: إنها العضو العامل المنتج في هذه المملكة.

لقد تقاسم النحل الشغال فيما بينه جميع الأعمال المطلوبة في الخلية فكل فئة تقوم بالمهمة الموكولة إليها بكل إخلاص ، إنها لا تعرف للبطالة وحياة الدعة معنى، فمنها من يقوم ببناء بيوت النحل ، ومنها من يشرف على صغار النحل، ومنها من يجني العسل ، ومنها من يحرس الخلية فهي دائماً في عمل مستمر.

ونرى الآن بعضاً من هذه الأعمال الجبَّارة التي تقوم بها هذه النحلة الشغالة: – النحل والبناء – انظر إلى هذه النحلات الشغالة وقد تشابكت فيما بينها على هيئة سلاسل ، إنها منهمكة في بناء القرص الشمعي ، إنها تبلغ من

(١) النحلة تسبح الله تعالى / ص ٣٠-٤٨.

العمر ما بين (١٢-١٨) يوماً ، حيث تنشط فيها خلال هذه الفترة ، أربعة أزواج من الغدد الموجودة على الحلقات البطنية ، فتفرز الشمع على شكل قشور بيضاوية ثم تتناول تلك القشور بواسطة الملاقط الموجودة على أرجلها الخلفية ، ثم تنقلها إلى الفكوك وتفرز عليها إفرازات خاصة تسهل عليها عملية مضغها وعجنها ، ومن هذه العجنة تصنع الأقراص الشمعية المعروفة بالأشكال السداسية.

من الذي علم النحلة الشغالة فن الهندسة المعمارية وأعطاها القدرة على إنشاء هذه المستعمرات السكنية المتناسقة؟.

من الذي وهب النحلة الشغالة تلك الغدة المفرزة للشمع الذي يعد المادة الوحيدة الصالحة لسكن النحل، وما عداه من أنواع الشمع الاصطناعي لا يصلح للقيام بهذه المهمة ، من الذي كون فك النحلة الشغالة بحيث تصلح لأن تكون ماصة لاعقة ماضغة في نفس الوقت وجعلها كبيرة تناسب المضغ وعجن الشمع تمهيداً لصنع البيوت السداسية ، ومن الذي وهبها الغدة اللعابية التي تساعدها بافرازاتها على مضغ الشمع وتليينه حتى يصير كالعجين، تصوغه النحلة كيف شاءت ، ثم لا يلبث أن يأخذ قوامه المتماسك؟؟ من الذي علم الشغالة أن تتشابك على هيئة سلاسل يمسك بعضها برقاب بعض حتى تستطيع أن تؤدي مهمة بناء هذه البيوت بطريقة تعاونية محكمة ، من الذي علمها أن الشكل السداسي في بناء بيوتها يساعدها على تحقيق أمور ثلاثة:

أولها: أن هذا النمط من البناء يقضي على وجود فراغات فيما بينها ،

الأمر الذي تكرهه النحلة كراهية شديدة.

وثانيها: أنه يخولها الفرصة لبناء أكبر عدد ممكن في أقل مساحة ممكنة

وثالثها: أنه الشكل الأكثر مُلَاءمة لنمو اليرقة.

إن النحل الشغال في جميع أقطار الدنيا ، ومنذ غابر الأزمان قد تعلم ذلك كله ، فهل حدث ذلك عن طريق المصادفة ؟ أم أن هناك سراً في النحلة الشغالة يدفعها إلى التقيد بكل ما سلف! بعضهم يطلق على هذا الدافع الباطني اسم (الغريزة) وآخرون يسمونه إلهاماً إلَهِياً ربانياً ولكن تلك المغايرة في التسمية لا تغير شيئاً من الحقيقة الواحدة التي يدل عليها كلا الاسمين في الواقع، وإلا فمن يستطيع أن يفسر لنا معنى الغريزة إذا لم يكن فيها معنى الإلهام؟ ومن الذي فطر النحلة على ما يسمونه غريزة ؟ من الذي أوجد فيها الرغبة في حفظ البقاء لتنعكس على هذا الشكل المعقد بالذات دون غيره من الاستجابات العديدة وغير المتناهية التي يمكننا أن نفترض حدوثها تلقائياً إذا لم يكن هناك قدرة خفية موجدة متصرفة ملهمة إنها أسئلة لا جواب لها إلا الإقرار بوجود الإلّه الخالق المبدع المتصرف سبحانه وتعالى وإلا فليس من الضروري مطلقاً إذا لم يكن هناك من يسدد الخطأ ويحكم المسير أن تكون تلك الإستجابات الانعكاسية صائبة دائماً ، ومنسقة تنسيقاً بديعاً يحير العقول ويدهش الأفكار.

فأي الإسمين أطلقت على الدافع للنحلة الشغالة في بنائها بيوتها فلك الخيار ، إن شئت أسميته غريزة ، وإن شئت أسميته إلهاماً ربانياً ، إلا أنه لا مندوحة لك عن الإعتراف بتلك القدرة الخفية الموجدة المتصرفة، ولذلك

فإنه من الأفضل أن نترك السبل الملتوية التي تدور وتلف حول الحقيقة وأن نعترف صراحة بتلك القدرة الإلهية المبدعة التي تتجلى في كل شيء وفي كل عمل يحدث في أرجاء هذه المملكة - خلية النحل -.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[1] فهلا قمنا بالبحث عن هذا الوحي الإلهي للنحل نتأمل فيه ونراقب عظمة الخالق المبدع عز وجل، متعظين بهذه الآيات والدلائل المعجزة مما أودعه الله عز وجل في كل شيء من هذا الكون؟ قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2].

وقد أحسن من قال:

تسبح ذرات الوجود بحمده	ويسجد بالتعظيم نجم وأشجارُ
تبارك رب الملك والملكوت من	عجائب يرويهن بدو وحضارُ
فيا نفس للإحسان عودي فربما	أُقِلت عثاراً فابن آدم معثارُ[3]

ثم تكلم المؤلف عن النحلة الشغالة في الصيانة، فقال:

انظر إلى هذه المجموعة الأخرى من النحل الشغال، وهي منهمكة في عدد من الأعمال مما يصح لنا أن نسميها أعمال الصيانة والطوارئ، فترى بعضها وقد قام بجمع قشور الشمع وما سوى ذلك من أوساخ لتلقي بها

---

(١) النحل / ٦٨.
(٢) فصلت/ ٥٣.
(٣) النحلة تسبح الله تعالى / ص ٥١-٥٩.

خارج الخلية ، كما تراها منهمكة في إبعاد النحل الميت وغير ذلك من الأجسام الغريبة التي تدخل هذا الحرم المصون.

أما الأجسام الكبيرة كالفراشات والحشرات التي نجحت في انتهاك حرمة هذه المملكة وصار أمرها الموت لتجرئها على اجتياز الحمى فإنها تعمل على تفتيتها وتجزئتها بوساطة فكوكها القارضة ، تمهيداً لنقلها خارج الخلية، وإذا ما عجزت عن ذلك وخشيت تفسخها فإنها تعمل على إحاطتها بمادة صمغية تحول دون تفسخها وانتشار الرائحة الكريهة داخل الخلية، ثم تقوم بإخراجها ، والغريب في الأمر أن النحل لا يرغب فقط في نظافة خليته نظافة تامة ، بل إنه يسعى إلى أن تكون ملساء ناعمة لامعة، لذلك فهو يسد الشقوق، ويسوي السطح الداخلي للخلية ويلمعه بوساطة مادة (البروبولس)[1] حتى يصير أملس ناعماً، والأغرب من ذلك أن حب النحل للنظافة والنعومة واللمعان يحدو به إلى أن يطلي داخل العيون السداسية المنتشرة على الأقراص الشمعية بمادة (البروبولس) الناعمة اللامعة وذلك عقب كل استعمال لها.

كما وظفت هذه المملكة النحلية فئة أخرى من أفرادها للعمل على تجديد هواء الخلية، فتأتي هذه الفئة المطواعة لتقف بالقرب من باب الخلية وتحرك أجنحتها بصورة ينجذب معها الهواء النقي من خارج الخلية إلى داخلها، في حين يطرد الهواء الفاسد من الفتحة العليا ، وإذا ما اشتدت

(١) البروبولس: مادة صمغية تجمعها الشغالات أثناء تنقلها بين الأشجار / النحلة تسبح الله تعالى ص ٦٤.

الحرارة وزاد معدلها داخل الخلية عن حد معين أسرعت ورشات تكييف الحرارة للعمل على تبريد الجو فتصب الماء على إطارات الخلية والأطراف العليا للأقراص ثم تندفع فتشغل المحركات لمراوح هوائية ليست في الحقيقة سوى أجنحتها الرقيقة ، فتحدث بذلك تياراً هوائياً لطيفاً يمر على الماء المنثور هنا وهناك فيتبخر الماء بسرعة ، الأمر الذي يؤدي إلى تبريد جو الخلية ، أما إذا ما نقصت درجة الحرارة عن المعدل الطبيعي وخيف على صغار النحل من الموت ، فإن ورشات العمل تعمل على تدفئة الجو ، وذلك بأن تتنادى بسرعة وتتجمع في وسط الخلية حول الصغار لتصدر كل منها شيئاً يسيراً جداً من الحرارة ، يتلاقى بعضها مع بعض من هنا وهناك ، ونظراً لتكتلها حول أعشاش الصغار فإنها ترفع درجة الحرارة في ذلك المكان بما يحفظ حياتها ويحمي الخلية من الإنقراض ، هذا بالإضافة إلى وجود جيش شعبي يتناوب أعمال الحراسة على باب الخلية من الداخل بانتظام كل بدوره، دونما حاجة إلى تسجيل وإعلان لأسماء المناوبين ، وإذا ما تغيب متغيب لطارئ ما فإن غيره يحل محله كل منهم قد عرف مهمته ، فهو يقوم بها باهتمام بالغ ، فمن الذي علم النحلة هذا كله؟ من الذي فطرها على النظافة والتنظيف؟ من الذي أرشدها إلى فن التحنيط من قبل أن يعرفه الإنسان؟ من الذي أخذ بيدها إلى التعرف على هذه الطريقة الفنية في تجديد هواء الخلية؟

قطعاً إنك لن تجيب عن هذه الأسئلة بالصدفة ، الصدفة هي التي فعلت هذا كله ، إن تفكيرك المتزن ينأى بك عن مثل هذا الجواب بعد الذي

رأيناه من عجائب مخلوقات الله تعالى في مملكة النحل ، ولكن لربما خطر على بالك قول بعضهم إنها الطبيعة ... الطبيعة هي التي علمت النحلة وفطرتها على ذلك كله ، فما الطبيعة؟[1] وما مفهومها؟ وما حقيقة تأثيرها؟ الطبيعة في اللغة هي السجية والخلق ، ولكنهم أخرجوها عن هذا المعنى الأصلي إلى معاني فاسدة تقتضي بأن تكون المخلوقات هي خالقة ومرشدة وهادية ورازقة لأنفسها فقالوا : إنها ذات الأشياء ، فهل يعقل أن تجتمع صفتا الخالق والمخلوق في كائن واحد؟ وهل يقبل إنسان القول بأن النحلة هي التي أوجدت نفسها بنفسها وكل شيء في الكون أوجد نفسه بنفسه.

إن أستاذ الطبيعة الحيوية وعضو جمعية الأبحاث النووية في الولايات المتحدة : الدكتور -بول كليرانس ايرسولد- يقول في مقال له بعنوان (الأدلة الطبيعية على وجود الله تعالى) : إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق بل إن لهما بداية ، ولا بد لكل بداية من مبدئ ، ثم يتابع قوله: وإن معجزة الحياة ذاتها لها بداية ، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان ، إنها بداية مقدسة ، وتوجيه مقدس وتدبير إلهي محكم ، ثم ختم المؤلف كتابه بقوله: أولا ترى - عزيزي القارئ- بعد هذا ، أن الله عز وجل حينما سمى سورة من كبريات سور القرآن الكريم باسم (سورة النحل) إنما يقصد من وراء ذلك أن يلفت إنتباهك - أيها الإنسان - إلى ما في مملكة النحل من أسرار غريبة مدهشة

(١) تقدم الحديث عن ذلك في / الباب الأول / الفصل الثالث / الشبهة الثالثة.

لا تكاد تحل رموزها إلا وتجد أنها تقول: جل الصانع المبدع الحكيم ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[1][2].

وبعد أن علمنا شيئاً عن مملكة النحل ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عما تقدمه هذه النحلة للإنسان من شراب مبارك لذيذ الطعم عظيم الفائدة: ألا وهو (العسل) حيث نرى قدرة الباري جل وعلا في إخراجه وطريقة صناعته في داخل النحلة الشغالة :

وتتلخص طريقة صنع العسل في مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة جمع المواد الأولية - الرحيق من الزهور حيث تتخصص مجموعة كبيرة من النحل الشغال في جمع الرحيق ، ذلك السائل الذي تفرزه خلايا غدية في كثير من النباتات المزهرة ، فعندما تزور الشغالة زهرة لجمع الرحيق ، تقف على الزهرة إذا كانت كبيرة كزهرة التفاح والمشمش ، أو على جزء من النبات قريباً من هذه الزهرة إذا كانت صغيرة ، ثم تمد خرطومها لتمتص الرحيق الذي يصل إلى نهاية اللسان بواسطة خرطوم يشبه الأنابيب الشعرية ، ثم تعمل عضلات البلعوم على إيصالها إلى معدة العسل ، وعندما تنتهي المرحلة الأولى ، تليها المرحلة الثانية وهي التي يجري فيها تفريغ حمولة الرحيق من الشغالة الجمّاعة إلى الشغالة الصانعة للعسل ، طريقة لا تخلو من طرافة ، تدل على عظيم القدرة الإلهيّة!!

---

(١) المزمل / ٩.

(٢) النحلة تسبح الله تعالى / ص ٢٠٢.

تفتح الشغالة الجمّاعة للرحيق فكوكها العليا، وتدلي لسانها ثم تضغط على معدة العسل ، لتدفع بنقطة من الرحيق إلى قاعدة اللسان المتدلي فترى الشغالة الصانعة للعسل نقطة الرحيق هذه ، فتمد أجزاء فمها إلى الأمام وتمتص الرحيق من الأولى ، ثم تنصرف إلى إحدى الزوايا الهادئة من القرص الشمعي لتبدأ في عملية تحويل الرحيق إلى عسل ، وعندها تبدأ المرحلة الأخيرة وذلك بانتقال النحلة الصانعة للعسل إلى جانب غير مزدحم لتقف على إطار القرص الشمعي ثم تفتح فمها في حالة إسترخاء وتباعد بين فكوكها العليا ، ثم تضغط على معدة العسل ضغطاً خفيفاً مستمراً ، فينساب الرحيق بشكل بطيء فيما بين اللسان والذقن في حين ترى اللسان يتحرك بين أسفل الفم وأعلاه متذبذباً في سرعة كبيرة ، وبذلك يتعرض الرحيق المنساب إلى حرارة الخلية وتيار هوائي الأمر الذي يؤدي إلى تبخر الماء منه ، فتزداد نسبة تركيز السكريات فيه وبعد أن تتجمع نسبة كبيرة من الرحيق تقوم تلك النحلة بإفراز مادة خاصة عليه فيتحول السكر المركب الذي كان فيه إلى سكر بسيط سهل الهضم ، وبعد هذه العملية تقوم بامتصاصه مرة أخرى وبعد ذلك تقوم بإفراغه في مكانه الخاص عسلاً صافياً فيه شفاء للناس ولا تنتهي العملية عند إفراغه فحسب بل تقوم نحلات أخرى بإحداث تيار هوائي يلامس النقاط المتتابعة من العسل الغير ناضج ، الأمر الذي يؤدي إلى تبخير كمية أخرى من الماء ، فيزداد تركيز العسل ، وتستمر هذه العملية ما بين ثلاثة وسبعة أيام

فيصير العسل ناضجاً عندئذ تختم عليه الشغالات بالشمع ، ويكون جاهزاً[1]، فسبحان العليم الخبير الذي منح هذه النحلة تلك القدرة والحكمة في صنع العسل ، كم تعمل النحلة جادة دائبة على صنع العسل الذي يأكله الإنسان ثم هو لا يشكر نعم الله تعالى عليه. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[2].

أما الإنسان الذي هداه الله تعالى لنوره فهو الذي يرى بعين بصره وبصيرته آثار تلك القدرة الإلهية في كيفية خلق هذه النحلة العجيبة فلا يسعه إلا الاعتراف لخالقها وموجدها وشكره عليها بأن يوحده ولا يشرك معه إلهاً آخر لأنه الإله الحق سبحانه وتعالى.

وعن فوائد العسل ومنافعه وبيان فضل ذلك الشراب يقول الحق تبارك وتعالى في الآية السابقة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وقد تقدم قول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية. ومن أقوال علماء الطب التي جاءت مبينة ومؤكدة لما ورد في كتاب الله تعالى ما ذكره الدكتور - محمد نزار الدقر - في كتابه (العسل فيه شفاء للناس) تحت عنوان (العسل بين سحر الأقدمين ويقين المسلمين: عرف الإنسان العسل منذ القدم، ولقد عبَّر الإنسان القديم عن قيمة العسل وأهميته وصفاته

(١) النحلة تسبح الله تعالى / ص ٧٢.
(٢) إبراهيم / ٣٤.
(٣) النحل/ ٦٨-٦٩.

بالأقاصيص والغناء قبل أن يعرف الكلمة المكتوبة وظل العسل الذي يصنعه النحل من رحيق الأزهار ، آلافاً من السنين الحلو الصافي الوحيد بالنسبة للبشر ، وكان له مكانة مرموقة عند معظم شعوب العالم القديم من إغريقيين وآشوريين وغيرهم، أما عند المسلمين فقد كان للعسل نظرة خاصة ومكانة عليا ، كطعام له نوع من القدسية في نفوسهم، وحسبه شراباً لذيذاً أن ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في شراب أهل الجنة ، وهذا مصداق قول الله تعالى في وصف ما أعده لعباده المتقين ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ﴾[١][٢].

كما ورد ذكر العسل في السنة المشرفة وقد تقدم بعض ذلك[٣] هذا ما للعسل من بعض تلك المكانة عند القدماء والمسلمين ، أما عن الاستشفاء بالعسل ، فلقد أثبتت التجارب في القديم والحديث أن العسل خير دواء لأكثر الأمراض إن لم تكن كلها وقد تقدمت الأدلة على ذلك أيضاً[٤] والتي منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الشفاء في ثلاثة» وعدَّ منها العسل ، ولقد استعمل القدماء العسل في الغذاء والدواء فكان خير علاج وخير غذاء.

وذكر مؤلف الكتاب عدداً من الأمراض التي عولجت بالعسل فأتى على أغلبها وبعد تقدم الطب في العصر الحديث وتركهم العسل أخفقت

---

(١) محمد / ١٥.

(٢) العسل فيه شفاء للناس/ ١٥-١٩.

(٣) (٤) في أول هذا المبحث.

أدويتهم الحديثة المخترعة التي كانت في ظنهم أنها خير من العسل ، ولكن التجارب أظهرت أن العسل هو المقدم على تلك الأدوية المزعومة ، وفي ذلك يقول مصمم غلاف الكتاب: هذا الكتاب بحث يجمع بين القديم والجديد: القديم منذ أن أوحى الله عز وجل إلى النحل أن تتخذ بيوتاً لها ، وجعل في عسلها شفاءً للناس ، والجديد الذي يحمل أنباءً عن جهابذة علماء الطب من الشرق ومن الغرب الذين حيرتهم كثير من الحادثات المرَضية التي لم يفلح فيها علمهم ولم ينجع فيها طبهم الحديث ، فكان أن لجؤا إلى وصفات من طب الشعوب ومن طب الأقدمين ، فرأوا في عسل النحل من الصفات ومن المعطيات ما جعله في طليعة العقاقير التي تستحق بجدارة تجربتها في هذه الحادثات المعندة ، وشفي الكثيرون بالعسل بعد ما جربوا -بمرارة- كل ما قدم لهم طبهم الحديث[1].

وبهذا أختم حديثي حول النحلة والعسل لأنتقل بعده إلى آية أخرى من آيات الله تعالى في هذا الكون الواسع ألا وهي (خلق النملة).

(١) مصمم غلاف كتاب (العسل فيه شفاء للناس) الأستاذ / هشام غراوي.

المبحث الرابع

في خلق النملة وما فيه من آيات دالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته

وكما ورد في كتاب الله تعالى سورة باسم (النحل) كذلك ورد فيه سورة أخرى باسم (النمل) وبينت تلك السورة أن النمل أمة من الأمم لها لغات خاصة بها ، وقد علَّم الله عز وجل نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام لغة ما شاء من المخلوقات ومن بينها النمل. وكان له معها شأن ، وهذا من امتنان الله تعالى عليه ، وأذكر تلك الآيات المباركات التي ورد فيها خبر قصة سليمان عليه الصلاة والسلام مع النمل ، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ ﴾... الآية أي وجمع لسليمان عليه السلام جنوده من الجن والإنس والطير، يعني ركب فيهم في أُبهة وعظمة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ أي حتى إذا مر سليمان عليه الصلاة والسلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل

(١) النمل / ١٥-١٩.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾...الآية قيل: إنها خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه الصلاة والسلام منها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان، ومن نعمتك علي بالإسلام والإيمان وعلى والدي ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك[1].

وورد ذكر النمل في السنة أيضاً فقد أخرج البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله تعالى إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله تعالى))[2].

من الآية السابقة وهذا الحديث الشريف يتبين لنا أن النمل أمة من الأمم لها عاداتها ولغاتها إلى آخر ما للأمم الأخرى، فسبحان من سبَّح له كل شيء في السماوات والأرض، وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً شيقاً حول النمل وما فيه من آيات دالة على الخالق جل وعلا وتوحيده، فقال:

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٥٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد، باب/ ١٥٣ فتح الباري ٦/١٥٤. رقم الحديث: ٣٠١٩.

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة أو الحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ، ودفع الآفة عنه فإنك ترى في ذلك عبراً وآيات فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له ، فإذا ظفرت به أخذت طريقاً من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها فرقتين ، فرقة حاملة تحمله إلى بيوتها سرباً ذاهباً ، وفرقة خارجة من بيوتها إليه لاتخالط تلك في طريقها ، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم ، فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه ، فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه ، وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت ، ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهن يوماً عجباً ، قال : رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الارض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل ،قال : فرفعتُ ذلك الشق من الارض فلما وصلت النملة برفقتها الى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئاً فرجعن فوضعتُه ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه ، فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعتُه فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئاً فذهبن فوضعتُه فعادت فجاءت بهن فرفعتُه فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئاً تحلَّقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضواً عضواً وأنا انظر ! ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعاً فإذا

أصابه ندى وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها ولهذا ترى في بعض الأحيان حباً كثيراً على أبواب مساكنها مكسراً ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ، ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على مرتفع من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها ، فلا ترى قرية نمل في بطن واد ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه[1].

وفي بيوت النمل وطريقة عيشها آية أخرى ، ولنقف على بعض ما كتب في ذلك.

ذكر صاحب كتاب - كتابك الأول عن الحشرات - : أن مملكة النمل شبيهة بمملكة النحل ، فلكل منهما شغالة وملكة وذكر، وفيهما من التشابه الكثير ، حيث إن الشغالة تقوم بجميع أعمال المملكة من جلب القوت وتنظيف البيت والعناية بالأجنة كذلك فإن ملكة النمل شبيهة بملكة النحل فهي لا عمل لها إلا وضع البيض ، كذلك فإن الذكور شبيهة بذكور النحل، وملكة النمل لها جناح تطير به كذلك الذكر وقد يظن البعض أن هذا نوع آخر من النمل في حين أنه ذكر النمل وملكته وهما يتزاوجان في الهواء ثم يموت الذكر وتعيش الملكة وتضع البيض ، وهكذا يتكاثر النمل[2].

وللنمل أكثر من ثلاثة آلاف نوع من أشهرها النمل الأسود والنمل الأحمر المعتاد ، ونمل الخشب ، ويوجد بين آلاف أنواع النمل كثير من أوجه النشاط فمثلاً تقوم الملكة في عدة أنواع من النمل بمهاجمة مستعمرة من نوع

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٤٣.

(٢) كتابك الأول عن الحشرات / ص ٢٧.

آخر من النمل وتقتل ملكتها وتحل محلها ، كذلك تقوم بعض أنواع بأسر أنواع أخرى ، فيغير نمل مستعمرة على غيرها من المستعمرات ، ويحضرون معهم منها يرقات وعذارى[1] من الأسرى الذين يقومون فيما بعد بدور الخدم لتلك المستعمرة ، ولكن لا يقوم أي نوع من النمل بأسر نمل من نفس نوعه[2].

وذكر صاحب الجواهر عند تفسير الآية السابقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾... الآية، حديثاً طويلاً عن النمل وعن عجائبه فمن ذلك ما ذكره تحت عنوان – النمل أقوى من الإنسان – فقال: لو كان في إمكاننا أن نستنطق النمل ونجعله يقول بصراحة وصدق ما في قلبه وأن يخبرنا ما هي أعظم المزايا التي يفتخر بها لقال بإعجاب: (قوَّتي) ولضحك على ضعفنا ، ذلك لأن للنمل قوة عضلية بالنسبة إلى حجمه تقاس بقوة أعظم المصارعين والرياضيين . قال بعضهم: رأيت نملة تحمل حصاة من أسفل إلى أعلى فوزنت النملة والحصاة وزناً مضبوطاً بأدق الموازين ، وقست إرتفاع ذلك المكان ، فوجدت بعد الحساب أن الرجل لكي ينافس النملة في رفع الأثقال يجب أن يحمل حملاً وزنه (نصف طن) ويصعد به (٢٥) درجة من درجات السلالم الإعتيادية.

لعلك تستغرب ذلك ، فانظر ما يلي:

النملة في حقلها تحمل بين فكيها حملاً أثقل من وزنها ثلاثة آلاف مرة من غير عناء ، ولكي نفعل فعلها يجب على كل واحد منا أن يقف على حافة هاوية ويمسك بين أسنانه سلسلة مربوطة بثماني عربات محملة حديداً.

---

(١) أسماء لمراحل تطور جنين النمل.

(٢) مجتمع الحشرات / ص ٢٤.

وقد أكد أحد عارفي طبائع النمل أنه إذا كان رجل يزن (١٥٠) رطلاً وله قوة بالنسبة إلى وزنه كقوة النمل لاستطاع أن يحمل على ظهره قاطرتين من أكبر قاطرات السكك الحديدية من غير أن يترنح، وقد روى البعض أن في أفريقيا نوعاً من النمل يستطيع أن يمشي واثباً وكل وثبة نحو قدم، فإذا رام إنسان أن يجاريه وجب أن يثب الوثبة الواحدة نحو (١٤٤) قدماً[1].

وأكتفي بهذا القدر من الحديث عن النمل لنقف على مخلوق آخر من مخلوقات الله تعالى التي لا يحصيها إلا هو عز وجل، وأختار منها حشرة العنكبوت لنرى بعضاً من أسرار خلقتها.

---

(١) الجواهر ١٣/١٤٩.

المبحث الخامس
الحديث حول حشرة العنكبوت
ودلالتها على الخالق عز وجل وتوحيده

ورد ذكر العنكبوت في كتاب الله عز وجل وقد جاءت باسمه سورة من سور القرآن الكريم وهي (سورة العنكبوت) كما في النحل والنمل، والآيات الواردة في تلك السورة عن العنكبوت هي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة حقيقة وحال الذين يشركون معه إلهاً آخر في العبادة وأن حالهم كحال العنكبوت التي جعلت لها بيتاً، وخص بيت العنكبوت من غيره لأن بيته من أضعف البيوت وأوهنها، وهذا البيت لا يغني عنها شيئاً لا في حر ولا مطر، كذلك حال ما اتخذوه ولياً من دون الله تعالى، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغني عنهم شيئاً، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي لا بيت أضعف منه مما يتخذ الهوام بيتاً ولا يدانيه في الوهي والوهن شيء من ذلك ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً[2].

وجاء في كتاب الجواهر عند الحديث عن هذه الآية ما قاله مؤلفه تحت عنوان - العنكبوت البناء - قال: كل عنكبوت في الدنيا غزَّال ونسَّاج وبعض الأنواع بنَّاء يبني منازل يشاهدها الناس في أماكن كثيرة في حجم الكستبان[3]

(١) العنكبوت / ٤١.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣ ٠ ٢.
(٣) الكستبان: نوع من معدن يوضع على رأس الأصبع عند الخياطة اتقاء وخز الإبر.

يقفلها من الداخل بقفل لم يقف أحد من علماء الحشرات على كنهه حتى يأمن من دخول عدو مهاجم أو سارق.

فتأمل كيف أعطي قوة وحكمة عجز عنهما الإنسان في البناء ، كما أوتي النحل في بناء مسكنه فوق الأرض وأحكم المنافذ للنور وأقفلها عند الرطوبة أو البرد.

كل هذا يدلنا على أن هذا العالم يشمله تدبير عجيب من أدنى ذرة فيه إلى أكبر كوكب ، وما ألذ النظر في هذه العوالم والعلوم وما أجمل الحكمة وأبهجها ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

ثم قال: ومن الحشرات العنكبوت ذات النسيج الجميل والغزل الرقيق والريق الذي إذا تعرض للهواء انقلب إلى مادة أشبه بالقطن أو الحرير فيغزلها خيطاً دقيقاً وينسج تلك الخيوط نسيجاً محكماً متقناً حتى قال علماء الحشرات: إن هندستها التي رسمتها في نسيجها ونظامها البديع التي توخته في عملها أدق ما صنعه المهندسون وأبرع ما نظمه البارعون ، حتى إنها لم تخطيء يوماً في نظمها ولم تغلط يوماً في نسجها ، وإن أبرع المهندسين الذين درسوا في المدارس العالية وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون في تقديرهم ويشذون في عملهم وهذه الحشرات لا تخطيء في نظمها ولا تضل في هندستها ، ولا تخيب في أحكامها ، ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين، ومعلم العنكبوت خالق المهندسين ، فمن علمه الله تعالى لن يخطئ ، ومن علمه المخلوق قد يضل مع الضالين ، ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها بلا تعليم ولا تدريب، بل آثار الخلقة

الالَهَيّة والحكمة الربانية حكمة الخالق عز وجل الذي أبدع المخلوقات ، ونظم الكائنات سبحانه وتعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(1).

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى العنكبوت فقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(2) فإذا كان أوهن البيوت على نظام أتم وحكمة أبهج فما بالك بأمتنها بناء ، وأحسنها نظاماً ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾(3)(4).

ويحدثنا صاحب كتاب (كتابك الأول عن الحشرات) عن هذه الحشرة أيضاً فيقول: إن أكثر ما يثير الإهتمام في العناكب هو أنها جميعاً تغزل الحرير وبعضها تنسج أغطية حريرية ناعمة لصغارها في حين يغزل معظم الصغار من العناكب بالونات من الحرير تمتطيها وتسبح بها في الجو .

ويوجد قرب مؤخر الجسم في العنكبوت أربع أصابع مغزلية أو أكثر تسمى الغازلات ولكل غازلة منها مئات من الفتحات الدقيقة ، تقوم العناكب بإفراز سائل معين داخل أجسامها ويتسرب هذا السائل خلال الفتحات فيتجمد على هيئة خيوط حريرية عند ملامسته للهواء ، وحينما يريد العنكبوت إنتاج شريط عريض من الحرير فإنه يبعد الغازلات بعضها عن بعض ، وعندما يريد خيوطاً رفيعة فإنه يضم بعضها إلى بعض ، يستعمل العنكبوت في بعض الأوقات أمشاطه الموجودة على أرجله الخلفية ، لتساعده على جمع الخيوط الحريرية كي يصنع منها أنسجة متينة قوية، تقوم العناكب

(1) المؤمنون / 14.
(2) العنكبوت / 41.
(3) المؤمنون / 17.
(4) الجواهر 14/144-146.

بغزل نسيجها من الخيوط الحريرية اللزجة كي تصيد الجراد والذباب والفراشات الشهية التي تحب أن تأكلها ، تغزل عنكبوت الحدائق نسيجها قريباً من سطح الأرض حيثُ تطير الحشرات الأخرى.

إن العناكب لا تتعثر بحبالها التي تصنعها لأن أرجلها مغطاة بنوع من الزيت الذي تفرزه داخل أجسامها ، وعندما تقع حشرة في المصيدة تسرع الأنثى وتهز النسيج كله بقوتها حتى تربك الفريسة وتجعلها تزداد التصاقاً بخيوط المصيدة ، ثم تجري نحو الفريسة وترمي عليها بشباك من خيوط الحرير تحوطها بها وتقيدها وتشل حركتها تماماً ، بعدئذ تعضها بأنيابها السامة ثم تمتص دمها.

ولبعض العناكب الصغيرة طرق خاصة في التنقل فهو يصنع من مغزله حبالاً حريرية طويلة تطير في الهواء فتربط بين الأشجار بعضها ببعض إلى مسافات بعيدة ، وهذه الخيوط هي بمثابة كباري تمشي عليها العناكب الصغيرة ، كما يمشي المرء على الحبل ، كي تصل إلى أماكن أخرى فوق البلاد والحقول أو حتى عبر البحار إلى جزر تبعد مئات الأميال ، فسبحان الله العظيم، ما أروع هذه المخلوقات على صغر حجمها[1] ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

وذكر صاحب الموسوعة عن بيوت العنكبوت فقال: ولكل فصيلة من فصائل العناكب شكل لبيته الخاص الذي يبنيه ، ومن هذه الأشكال

---

(١) كتابك الأول عن الحشرات / ص ٢٢.

(٢) آل عمران / ١٩١.

ما هو كالملاءة[1] ومنه ما هو كالقمع ، ومنه الهندسي الدائرة ، وأكثر هذه الشباك تعقداً وتركيباً وحسن صنعة ، الهندسي الدائري ، وهو يتألف عندما يكتمل عادة من ثلاثة أو أربعة خيوط أساسية تحيط به وعدة خيوط أخرى تتخلله في داخله ، ثم أنصاف أقطار كثيرة تخرج من مركز واحد ، ثم سرة عند هذا المركز من نسيج دائري متقارب ، ثم منطقة متوسطة ثم أخرى لزجة ، لتلصق بها الضحية ، ولا تستطيع هرباً ، فمن علم العنكبوت كيف ينسج؟ والهندسة من علمه دروسها؟ فعرف الدائرة ، وأقطار الدائرة ، واللزوجة ، ليت شعري هل درى معنى اللزوجة والجفاف! والمغازل ليست كلها تنتج صنفاً واحداً ، فليت شعري كيف درى العنكبوت بأن صنفاً اكتفى منه فأوقف مغزله ، وأن آخر احتاجه فأطلق غدده[2].

وبعد أن علمنا بعض ما في العنكبوت من بديع خلق وحسن إتقان نأخذ مثالاً آخر من مخلوقات الله تعالى التي لا تحصى ألا وهي (دودة القز) أو دودة الحرير ، تلك الدودة الصغيرة في حجمها العظيمة في شأنها لما تنتجه للإنسان من حرير يكون لباساً لإناثه دون الرجال، وهو أغلى ثمناً من الحرير الذي يصنعه الإنسان من مواد مركبة وأنفس نوعاً منه ، وأبدأ الحديث عن هذه الدودة لنطلع على مراحل خلقها وما في ذلك من آيات وعبر للمعتبرين.

---

(١) المُلاءة: بالضم هي المِلْحفة. لسان العرب ٥١٩/٣.

(٢) في سبيل موسوعة علمية / ص ١٦٠.

المبحث السادس

الحديث عن دودة القز ودلالتها على الخالق عز وجل وتوحيده

ومن نعم الله تعالى الكثيرة التي امتن بها على الإنسان أن خلق هذه الحشرة العجيبة التي تغزل الحرير فهي من نعم الله تعالى الداخلة في عموم قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1] ففي هذه الآية المباركة يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس بجميع أنواعه وأصنافه المختلفة سواء في ذلك ما كان من مصدر حيواني أو غيره ويدخل في ذلك الحرير لأنه من اللباس الممتن به على بني الإنسان، بل هو من أفخره وأنعمه ولذلك اختص به النساء[2] لتزينهن به للرجال كما هو الحال في الذهب، ثم بين تعالى أن الواجب على الإنسان أن يشكر المنعم عليه بهذه النعم وأن يتقيه ويخافه فذلك هو (لباس التقوى) وهو خير من الأول لأنه الغاية المرجوة منه ألا وهي تقوى الله عز وجل والاستدلال بنعمه ومخلوقاته عليه فهو من آيات الله تعالى الدالة على وجوده ووحدانيته، فلذلك ختم الحق تبارك وتعالى هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي هذا اللباس الذي أنعم الله تعالى به عليكم بجميع أنواعه المختلفة هو دليل وآية على أنه سبحانه وتعالى الخالق لكل شيء والرازق والكاسي، فهو الجدير بإخلاص العبادة لأنه المستحق لها

(١) الأعراف / ٢٦.

(٢) روى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال عن الحرير والذهب «إن هٰذين حرام على ذكور أمتي» وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح، انظر صحيح سنن أبي داود ٢/٧٦٦ رقم الحديث: ٣٤٢٢-٤٠٥٧.

سبحانه وتعالى بجميع أنواعها وحده لا شريك له ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يعتبرون بما رأوه من آيات وبالتالي يعبدون الله تعالى حق عبادته ويوحدونه حق توحيده.

وأعود للحديث عن هذه الدودة العجيبة ، وأذكر في ذلك بعضاً مما قاله علماء الحشرات عن هذه الدودة ، والتي هي في الحقيقة فراشة وإنما تمر بطور من أطوار خلقها تكون فيه دودة تنتج الحرير ، فسبحان الله تعالى الخالق، كيف تنقلب الدودة إلى فراشة تطير! لنرى بعضاً مما كتب في ذلك.

جاء في كتاب الأطلس العلمي / عالم الحيوان تحت عنوان فراشة دودة الحرير ، قال: موطنها الأصلي بلاد الصين ، وهي تربى في جميع البلاد التي تزدهر فيها صناعة الحرير.

تضع الفراشة الأنثى من (٤٠٠-٦٠٠) بيضة ، تفقس كل بيضة عن يرقه صغيرة ، تتغذى بشراهة على أوراق التوت ، تمر اليرقة بأربعة أطوار، تبلغ بعدها كامل نموها (٨سم) ثم تتوقف عن التغذي ، وتحيط نفسها بشرنقة من الحرير ، تصنعها من خيط يبلغ طوله من (٨٠٠-١٠٠٠) متر تتحول داخله إلى طور آخر ثم إلى الطور الأخير الذي هو الفراشة ، تثقب ذلك الكيس الحريري لتخرج منه حشرة كاملة فراشة تطير في الهواء[١].

وإذا ما أريد أخذ هذا الحرير الذي أنتجته تلك الحشرة ، فإنه يقام بجمع مجموعة كبيرة من تلك الأكياس الحريرية التي تحتوي بداخلها على دودة لم تكتمل في نموها ثم تنقع هذه المجموعات في الماء الساخن لتموت

(١) الأطلس العلمي / عالم الحيوان / ص ١١٠.

من بداخلها ، بعد ذلك تفك الخيوط الحريرية الطويلة باليد بكل احتراس، وأخيراً تغزل الخيوط بعد ذلك وتصنع منها الأثواب والملابس الحريرية المختلفة والتي هي غاية في الجمال[1].

وقد ذكر فضيلة الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله تعالى في مذكرته أدلة كثيرة على وجود الخالق جل وعلا وتوحيده فذكر منها هذه الدودة فقال تحت عنوان: - ومن أخص التجارب دودة القز - قال: وهي دودة بيضاء ناعمة يبلغ طولها عند اكتمالها كأصبع الإنسان ، ومتنها كالمرسام العادي تغزل الحرير الطبيعي الصافي ، وتتغذى بورق شجر التوت خاصة ، ثم قال:

أطوار هذه الدودة:

(١) تبدأ بخروجها من بيضة صغيرة كحبة الخردل ، توضع في إناء ويغطى بورق التوت.

(٢) تخرج كالشعرة سوداء ، طولها حوالي مليمتر واحد تقريباً ، فتعلق بورقة التوت المغطى بها البيض.

(٣) تأخذ في النمو وتطور اللون إلى البياض.

(٤) حتى إذا ما تم نموها وبدأت في إفراز الحرير وتفرزه من فمها ، امتنعت عن الأكل نهائياً.

(٥) طريقة إفرازها: هو أن تبدأ فتغطي جسمها بنسيج خفيف ، ثم تأخذ في الإنكماش حتى تكون في حدود (٢سم) ثم تعمم النسيج حولها

(١) كل شيء عن الفراشات / ص ٣٩.

حتى تصبح من داخله كالنواة بالنسبة للتمرة ، وتصبح في شكلها كالكرة من خيوط الحرير المتلبد على شكل بيضاوي ، حيث يمر عليها زمن معين تسمى بالشرانق.

(٦) بعد مدة معروفة فإذا بالشرانق تفتح من أحد طرفي الشكل البيضاوي فتحة مستديرة ، وتخرج فراشة رمادية اللون بها نقط بيضاء وسوداء، ومنها الذكر ، ومنها الأنثى ، ويفرق بينهما باختلاف الحجم.

(٧) يوضع ذكر وأنثى في إناء فيتحرك الجميع بسرعة ، وكلما لمس الذكر الأنثى أصابها حالاً فوضعت بيضة في الحال وقد تضع العديد من البيض في دقيقة واحدة.

(٨) وبعد مدة ليست طويلة تموت الفراشة ويبقى البيض إلى أول فصل الربيع من العام القادم ، ثم يبدأ فيفقس عن الدودة الصغيرة ، التي هي مثل الشعرة ثم تبدأ في نموها وهكذا دواليك.

وهنا يقال: من أين جاء الحرير إلى الدودة؟! وماذا يقال عن تحول الدودة إلى فراشة؟!! فسبحان الخلّاق الذي لا إله إلا هو بحق ، والقائل في كتابه العزيز: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[1] وصدق الله العظيم[2].

---

(١) الذاريات/ ٢٠-٢٣.

(٢) مذكرة في توحيد الربوبية ، للشيخ/ عطية محمد سالم ص٢٠.

الباب الرابع
في الحديث عن خلق الإنسان واستخلافه في الأرض وفي البعث بعد الموت والرد على منكريه

خلق الله عز وجل الإنسان بيده وفضَّله وكرَّمه على كثير من مخلوقاته، حيث منحه العقل الذي به يميز بين الخير والشر والنافع والضار وهو من نعمه العظيمة عليه، كذلك سخَّر له ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات يستعين بها على أمور حياته، فمن ذلك ما من به عليه من المركوب والمأكول بأن هيأ له أحسن المركوب وأحسن المأكول، كما أنه سخَّر له الكون بما فيه، وهدى من شاء إلى دينه وصراطه المستقيم.

وقد ورد في هذا المعنى آيات وأحاديث، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ

(١) الإسراء/ ٧٠.
(٢) الجاثية / ١٣.
(٣) الرحمٰن/ ١-٤.
(٤) العلق/ ١-٥.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1].

وكلما تمسك الإنسان بهدي الله تعالى وهدي أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ازداد شرفًا ورفعةً حتى على بني جنسه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[2].

وهذا الباب يشتمل على عدة فصول، وفي كل منها مباحث، وأبدأ الحديث عن الفصل الأول.

---

(١) إبراهيم/ ٣٢-٣٤.

(٢) التين/ ١-٦.

الفصل الأول

في الحديث عن أصل الإنسان - وهو آدم عليه السلام- وبيان قدرة الخالق جل وعلا في إيجاده من التراب وخلقه حواء زوجه عليها السلام من ضلعه والرد على من زعم أن هناك أصلاً للإنسان غير ذلك.

وهذا الفصل يشتمل على مباحث، وأبدأ الحديث عن المبحث الأول.

المبحث الأول

الحديث عن خلق آدم عليه السلام من التراب وكيفية هذا الخلق وما فيه من أدلة على الخالق جلَّ وعلا وتوحيده وعظيم قدرته.

لقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بيده بلا أب وأم بل من تراب هذه الأرض، فمن الآيات الدالة على ذلك:

(١) قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾[1].

(٢) وقال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾[2].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾[3].

(١) الحجر/ ٢٨-٢٩.
(٢) سورة ص/ ٧١-٧٥.
(٣) الإسراء / ٦١.

(٤) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[١].

(٥) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[٢].

(٦) وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[٣].

ومن السنة ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب[٤].

وقد ذكرت الآيات السابقة كيفية هذا الخلق العظيم وأن الله جلت قدرته لما أراد خلق آدم أبي البشر عليه السلام أعلم ملائكته عليهم السلام بذلك وهذا ما بينه قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

(١) آل عمران/ ٥٩. (٢) النساء/ ١.
(٣) الروم/ ٢٠.
(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٤٠٦، ورجال إسناده ثقات، كما أخرجه الترمذي في كتاب التفسير/ باب سورة البقرة، وقال: حديث حسن صحيح، ٥/٢٠٤. وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي ٣/٢٠، رقم: ٢٣٥٥-٣١٤٣.

قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

ففي هذه الآية المباركة يمتن تعالى على بني آدم بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص عليهم هذه القصة العظيمة، وهي قصة خلق آدم عليه السلام، ومعنى قوله تعالى: ﴿خَلِيفَةٗۖ﴾ أي أنهم يخلف بعضهم بعضًا في الأرض، أناس يموتون ثم يأتي بعدهم أناس آخرون وهكذا يتعاقبون جيلاً بعد جيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[2] وليس المراد من الخليفة هنا آدم فقط بل ذريته أيضاً، والذي يدل على ذلك قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ لأن هذا لم يكن من آدم عليه السلام بل من ذريته فمراد الملائكة أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وقد أجابهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي أعلم المصلحة الراجحة من هذا الخلق، فإني سأجعل منهم رسلاً وأنبياء وصديقين وصالحين وشهداء ومقربين وعلماء عاملين[3].

وأما نوع المادة التي خلق منها آدم عليه السلام فهي التراب، أي تراب هذه الأرض التي نعيش عليها، كما ورد ذلك في الآيات السابقة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

(1) البقرة/ ٣٠.
(2) الأنعام/ ١٦٥.
(3) تفسير ابن كثير ١/ ٦٩.
(4) آل عمران/ ٥٩.

والحديث المتقدم: (إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض)... الحديث، وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[3]. فهذه الآيات الكريمات أثبتت وبينت أن خلق آدم أبي البشر عليه السلام كان من تراب هذه الأرض، وقد كرم الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام على كثير من خلقه حيث إنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته الكرام عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

وأخرج البخاري رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم، فيقولون: أنت الذي خلقك الله تعالى بيده، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا عند ربنا) ... الحديث[5].

وأخرج البخاري رحمه الله تعالى أيضاً في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (خلق الله آدم

---

(١) نوح/ ١٧-١٨.
(٢) الروم/ ٢٠.
(٣) طه/ ٥٣-٥٥.
(٤) البقرة/ ٣٤.
(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه/ كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار رقم: ٦٥٦٥.

وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)[1] .

فهذه الأحاديث والآيات السابقة بينت أن آدم هو أبو البشر عليه السلام وبينت أيضا أن الله تعالى خلقه بيده من تراب، فأية عظمة هذه وأية قدرة فسبحان من خلق من التراب بشراً عاقلاً ناطقاً، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2] هذا التراب الذي لا قيمة له عند البشر، يتحول بقدرة الخالق عز وجل إلى إنسان، هذه هي الحقيقة وإن جحدها الجاحدون من ملاحدة شيوعيين وغيرهم من الذين طمس الله تعالى على قلوبهم وأعمى بصائرهم وأبصارهم.

ولقد اقتضت حكمة الخالق جل وعلا أن يخلق الإنسان من تراب لحكمة يعلمها عز وجل.

وفي خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده تكريم له، ولو شاء لخلقه كسائر المخلوقات الأخرى إلا إنه تعالى شرفه وكرمه على كثير من خلقه كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء/ باب خلق آدم وذريته، فتح الباري ٣٦٢/٦ رقم: ٣٣٢٦.

(٢) الحج / ٧٤.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

هذا بعض ما جاء في المادة التي خلق الله تعالى منها آدم عليه السلام.

وأما مكان خلقه عليه السلام فهو الجنة لما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك)[2].

وأما مكان سكنه عليه السلام وكيفية وجود نسله في هذه الأرض فأذكر بعض ما ورد في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3].

وروى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يجمع الله تبارك تعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول

(١) الإسراء/ ٧٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر/ باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك، مسلم بشرح النووي ١٦/١٦٤.

(٣) البقرة/ ٣٥-٣٦.

وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم).... الحديث[1] وهذا يدل على أن الجنة التي أخرج منها هي التي سكنها قبل أن يهبط إلى الأرض وهي بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها[2] وهي جنة الجزاء في الدار الآخرة، والله تعالى أعلم.

وبعد ذلك خلق له زوجه حواء عليهما السلام، وبقي آدم وحواء في الجنة إلى أن عصيا أمر ربهما بطاعتهما للشيطان وذلك بفعلهما ما نهيا عنه، فهو سبحانه وتعالى قد أسكنهما الجنة، وأباح لهما الأكل منها إلا إنه حرم عليهما الأكل من شجرة خاصة، وكان قد وقع بين آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله تعالى عداوة بسبب أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس استكبر وقال أنا خير منه لأني خلقت من نار وهو من طين، فأخرجه الله تعالى من الجنة فأقسم أن يضل بني آدم ويغويهم كما ورد ذلك في القرآن الكريم في عدة مواضع لذلك كان لعنه الله تعالى سبباً في اخراج آدم وزوجه من الجنة عليهما السلام بأن زيَّن لهما الأكل من تلك الشجرة حتى عصيا أمر ربهما وأكلا منها فأهبطهما الله تعالى إلى الأرض وأخرجهما من الجنة ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان/ باب الشفاعة، مسلم بشرح النووي ٣/٧٠.
(٢) انظر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم/ ص٢١.

فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

فبينت هذه الآيات المباركات قصة آدم عليه السلام مع إبليس لعنه الله تعالى وهي أن الله تبارك وتعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم سجدوا إلا إبليس فقد امتنع عن السجود وقال إنه خير من آدم وذلك أنه خلق من نار وآدم من طين، وفي هذا بيان لعدم امتثاله أمر ربه تبارك وتعالى لخبثه وتكبره فكان أن لعنه الله تعالى وأخرجه من الجنة فحقد على آدم لكي يخرجه من الجنة فأغواه هو وزوجه حتى آكلا من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عن الأكل منها كما تقدم، فلما أكلا منها بدت عوراتهما بعد أن عصيا ربهما، فأخرجهما الله عز وجل من الجنة وأهبطهما إلى هذه الأرض دار الحياة الصعبة والابتلاء.

وفي ذلك يقول تعالى كما تقدم: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ

---

(١) سورة ص / ٧١-٨٥.

وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1]، وقد أقسم إبليس لعنه الله تعالى كما بينت الآيات السابقة أن يضل جميع ولد آدم إلا عباد الله تعالى المخلصين فلا سلطان له عليهم فهو لم يكتف بإخراج آدم وزوجه عليهما السلام بل حقد على ذريتهم أيضاً، ومنذ ذلك الحين إلى قيام الساعة وهو يعمل جاهداً على إغواء بني آدم وإضلالهم كراهة لهم ولأبيهم آدم عليه السلام، وقد حذر الله عز وجل بني آدم عليه السلام من إبليس لعنه الله تعالى الذي كان سبباً في إخراج أبويهم من الجنة فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] فعُلم أن المكان الذي سكنه آدم عليه السلام هو الجنة ثم إنه لما عصى ربه عز وجل أهبطه وزوجه إلى الأرض، فبدأت حياتهما على هذه الأرض وبدءا في التناسل إلى أن امتلأت الأرض من نسلهم، وقد هيأ الله جل وعلا الأرض لهم فبسطها وبث فيها من كل دابة وخلق لهم الثمار والخيرات بجميع أنواعها وهم فيها إلى أن يأذن الله تعالى بفنائها، ثم قيام الساعة للحساب على ما قدموا في هذه الحياة الدنيا على هذه الأرض، ومجازاة كل بعمله.

وقد وردت قصة آدم عليه السلام كاملة في هذه الآيات حيث يقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ

(١) البقرة / ٣٥-٣٦.

(٢) الأعراف / ٢٧.

أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

---

(١) الأعراف / ١٠-٢٧.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها)[1].

ومن القائلين بأن الجنة التي أخرج منها آدم عليه السلام هي جنة الجزاء يوم القيامة الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى وقد ذكر ذلك في قصيدة بديعة له في وصف الجنة وما فيها من النعيم وما أعده الله تعالى لعباده المتقين فيها، وقد بدأها بوصف الجنة ثم قال بعد عدة أبيات:

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولـم يك فيـها منـزل لك يعلـم
فحـيَّ على جنـات عـدن فـإنهـا ... منـازلنـا الأولى وفيـها المخيـم
ولكـنـنا سـبي العدو فهـل ترى ... نـعـود إلى أوطـانـنـا ونسلم[2]

فقد بين ابن القيم رحمه الله تعالى أن الجنة هي المنزل الأول للإنسان باعتبار أن أباهم آدم عليه السلام قد سكنها، وبين أننا سبي العدو وهو الشيطان، لأن إخراج آدم وذريته من الجنة كان بسبب طاعة الشيطان ومعصية الرحمٰن، كفانا الله تعالى وذرياتنا وسائر المسلمين شر الشيطان وذريته.

فهذه الآيات والأحاديث السابقة هي خير دليل لمن أراد معرفة ما ورد في خلق آدم ومكان خلقه وسكنه عليه السلام قبل أن يهبطه الله تعالى إلى الأرض وكيفية وجود بنيه فيها.

---

(١) رواه مسلم في/ كتاب الجمعة، مسلم بشرح النووي ٦/١٤١.
(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم/ ص٧.

أما ما يقوله الملحدون والجاحدون لوجود الخالق جل وعلا من أن الحياة وجدت عبثاً وأن الإنسان جاء عن أصل قرد، أو غيره كما سأذكر ذلك فالقرآن يرد عليهم وإن كانوا هم لا يعترفون بقرآن ولا بحديث وعدم اعترافهم بذلك لا ينقص من حجية كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً، بل إن ضلالهم وطغيانهم على أنفسهم لا يتعداهم إلى غيرهم.

المبحث الثاني
في خلق حواء زوج آدم عليهما السلام
وما في ذلك من دلالات على الخالق عز وجل وتوحيده

من نعم الله تعالى على الإنسان أن خلق له زوجة تشاركه همومه وأفراحه وتؤنسه في دنياه وآخرته وقد من الله على آدم عليه السلام بذلك فخلق له حواء عليهما السلام حيث ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما يبين كيفية خلق حواء زوج آدم عليهما السلام فمن القرآن الكريم:-

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة بين سبحانه وتعالى لبني آدم أصلهم الذي خلقوا منه وكيف تم خلقهم، فذكر تعالى أنه خلق أباهم آدم عليه السلام من التراب ثم خلق زوجته منه وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ وقد جاء في السنة ما يبين ذلك حيث أخرج البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء)[2].

(١) النساء/ ١.

(٢) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب خلق آدم وذريته رقم: ٣٣٣١، ورواه أيضاً في كتاب النكاح/ باب الوصاة بالنساء رقم: ٥١٨٦، وزاد (فاستوصوا بالنساء خيراً).

فبين هذا الحديث الشريف معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ففي هذا الخلق من الحكمة البالغة أن الله عز وجل خلق حواء من آدم وهو قادر على خلقها من التراب كما خلق آدم ولكنه سبحانه أراد ذلك لحكمه وهي قوامة الرجل على المرأة كما يفهم من الحديث السابق وكما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، فلذلك جعل في الرجل القوة والقوامة والصلابة وتحمل المشاق والدفاع عن الأهل والأولاد، فالمرأة لا تستغني عن الرجل فهو المسؤول عنها وعن عيشها وعيش أبنائها بعد الله عز وجل[2]، كما أن في هذا الخلق بياناً لقدرة الخالق جل وعلا، حيث إنه خلق آدم بدون أب ولا أم بل من تراب وخلق حواء من ضلع آدم عليهما السلام وخلق بقية الخلق من أب و أم وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وفي هذا دلالة على أنه سبحانه وتعالى الإله الحق القادر على الخلق بجميع أنواعه وشتى صوره المختلفة، وهذا من لوازم الألوهية كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

وقد بين حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق (استوصوا بالنساء).. الحديث، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوجب على الرجل أن يرحم المرأة ولا يشتد عليها فإنها ضعيفة وعلة ضعفها أنها خلقت من ضلع آدم، والضِلَع: بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام وقد تسكن: واحد الأضلاع: وهي عظام الصدر والبطن[4].

(١) النساء/ ٣٤.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٤٨.
(٣) النحل/ ١٧.
(٤) لسان العرب ٢/٥٤٣.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه) ذكر ذلك تأكيداً لمعنى الكسر، ويحتمل أن يكون ذلك مثلاً لأعلى المرأة وهو رأسها وفيه لسانها الذي يحصل منه الأذى في الغالب، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (فإن ذهبت تقيمه كسرته) فسر الكسر بالطلاق كما عند مسلم رحمه الله تعالى (وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها)[1].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (وإن تركته لم يزل أعوج) أي وإن لم تقمه، قوله (فاستوصوا) أي أوصيكم بهن خيراً فأقبلوا وصيتي فيهن، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (بالنساء خيراً) فيه رمز إلى التقويم برفق بحيث لا يبالغ فيه فيكسر ولا يتركه فيزداد أمره، وإلى هذا أشار البخاري رحمه الله تعالى في الباب الذي بعده وهو باب (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) فيؤخذ منه أن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص إلى تعاطي المعصية بمباشرتها أو ترك الواجب، وإنما المراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة، وفي الحديث سياسة النساء بالعفو والصبر على عوجهن لأنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه، فكأنه قال: الاستمتاع بهن لا يتم إلا بالصبر عليهن[2].

والشاهد من هذا الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (فإن المرأة خلقت من ضلع) أي حواء خلقها الله عز وجل من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام وبناتها مثلها في الطباع والعادات.

(١) رواه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، مسلم بشرح النووي ٥٧/١٠.
(٢) فتح الباري ٢٥٣/٩.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١].

فذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية أن من نعمه الواجب على العباد شكرها ما منَّ به على الإنسان حيث خلق له من جنسه زوجاً يسكن إليه سواء في ذلك الرجل أوالمرأة، فلو كان الزوج مغايراً لجنس الزوج الآخر لم يحصل السكن والألفة التي تحصل باتحاد الجنسين، وهذه الحكمة ليست مقصورة على الإنسان وحده بل هي في جميع المخلوقات، إلا القليل منها[٢].

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٣].

فهذه الآية أيضاً دليل على خلق حواء عليها السلام وأنها خلقت من آدم عليه السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي وخلق من آدم زوجته التي يسكن إليها، وهي حواء عليها السلام، فنبه تعالى بذلك على أن جميع الخلق من بني الإنسان يرجعون إلى آدم وحواء عليهما السلام وفي هذا بيان لمساواة الخلق وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٤]، فبينت آية الأعراف

---

(١) الروم / ٢١.
(٢) كما يحدث التزاوج بين الفرس والحمار فينتج البغل.
(٣) الأعراف / ١٨٩. (٤) الحجرات / ١٣.

أن حواء خلقت من آدم عليهما السلام وأن الله عز وجل جعلها سكناً له وأودع في قلبهما المحبة لبعضهما لتكمل الألفة بينهما، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي وطئها، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وفي هذا بيان لنسل بني آدم وأنه لا يكون إلا من رجل وامرأة وهكذا انتشر الخلق في أرجاء المعمورة وكثرت الأمم والشعوب كما في آية الحجرات: ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾[1].

ومن الآيات الدالة على خلق حواء من آدم عليهما السلام، قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[2].

فذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن حواء زوجة آدم عليهما السلام خلقت من آدم، وأن الناس على اختلاف أشكالهم وألوانهم من نسل آدم وحواء عليهما السلام، والآيات القرآنية الورادة في خلق حواء عليها السلام لم تبين كيفية خلقها من آدم ومن أي جزء من أجزائه، وإنما بينت ذلك السنة المطهرة حيث أخبر صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم في الحديث السابق أنها خلقت من ضلعه عليه السلام.

وأكتفي بهذا القدر من أدلة الكتاب والسنة في الاستشهاد على خلق حواء عليها السلام.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٧٤.

(٢) الزمر/ ٦.

المبحث الثالث

في شبه الملاحدة وأعوانهم حول أصل الإنسان والرد عليهم

لقد سولت الشياطين للملاحدة وأعوانهم في هذه المسألة أنواعاً من الأكاذيب والمغالطات وأرى أن أذكر بعضاً منها وأرد عليها بما يفتح الله تعالى به عليَّ، فأقول وبالله تعالى أستعين:

إن هذه المسألة أي مسألة أصل الإنسان مسألة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار عند الذين هداهم الله تعالى إلى دينه الذي هو دين الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

فبينت هذه الآيات المباركات أن دين الإسلام هو دين جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ودين من تبعهم من قديم الزمن إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، ودين الإسلام قد بين وأثبت على اختلاف عصور الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أن الإنسان من نسل آدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه وخلق منه زوجته ثم خلق منهما ذريتهما وهذ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اختلاف

(١) آل عمران/ ٨٣-٨٥.

إلا عند من سلب الله تعالى عقولهم - من الملاحدة وأتباعهم- بما قدمت أيديهم وزين لهم الشيطان أعمالهم، فرأوا الحق باطلاً والباطل حقاً، ومن المؤسف بل من المخزي أن يكون لهذا النوع من الملاحدة أتباع ينشرون ويروجون أقوالهم الباطلة أو منخدعون متوقفون في الحكم عليها بالبطلان والضلال حتى من بعض المنتسبين إلى الإسلامَ الذين يعلمون أن الإسلام بريء من هذه الأقوال.

وهذا النوع من الملاحدة هم أشد كفراً من الكفرة والمكذبين بالرسل في أول الزمن لأن أولئك الأولين كانوا يقرون أنهم من سلالة آدم عليه السلام وأن الله تعالى خالقهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2] فبين تعالى أنهم يعلمون ذلك ولكنهم يشركون معه في العبادة إلهاً آخر، وأما ملاحدة اليوم فهم لا يشركون فقط بل ينكرون وجود الخالق عز وجل وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ويقولون: إن الطبيعة العمياء المزعومة هي التي خلقت وأوجدت.

ومن بين تلك الضلالات التي اخترعها هؤلاء الملاحدة من عقولهم المريضة وأملتها عليهم شياطين الإنس والجن ليسمِّموا بها أفكار أبناء الإسلام بدعوى العلم والتطور ونبذ الرجعية: هو ما ظهر قبل قرنين من الزمان تقريباً بما يسمى - بنظرية داروين في خلق الإنسان وأصله أو نظرية التطور والارتقاء - وخلاصة هذه النظرية الإلحادية الخبيثة- أنها تنكر أن آدم عليه السلام هو أبو البشر وتنكر أنه خلقه الله

(١) المعارج/ ٣٩.

(٢) الزخرف/ ٨٧.

تعالى بيده في أحسن تقويم مباشرة وابتداءً من تراب هذه الأرض وأن ما مر به من مراحل هي الطين ثم الحمأ المسنون ثم الصلصال فقط، بل إنها تقول وتزعم أن الإنسان يرجع في الأصل القديم إلى الحشرات والزواحف التي مازالت تترقى في الخلق حتى وصلت إلى القرد ثم إلى الإنسان فالإنسان أو آدم - إن أقروا به- في نظرهم هو خلاصة التطور التي انحدرت -على ممر الملايين من السنين كما يزعمون- من الحشرات والزواحف والتي هي بدرجة بعيدة عن خلق الإنسان الذي قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]، ومراد أصحاب هذا الفكر الضال إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى ونسبة الخلق إلى الطبيعة العمياء المزعومة والتي تقدم ذكرها والرد على أصحابها فهذه هي نظرية داروين[2] المسماة بنظرية التطور والإرتقاء وهذه أهدافها، وقد حاول أعداء الإسلام الدخول إلى حصن الإسلام والنيل منه من وراء هذه النظرية الخبيثة ولكنها محاولات باءت بالفشل لأنها باطلة

(١) التين/ ٤.

(٢) داروين/ هو تشارلز رمرت داروين — ولد سنة ١٨٠٩م وهلك سنة ١٨٨٢م كانت أمه ابنة صانع خزف اسمه ودجود، أدخله والده في كلية يسوع بجامعة -كيمبريدج — لينخرط في سلك اللاهوت، وبعد أن أكمل دراسته في تلك الكلية، قام سنة ١٨٣١م، برحلته الشهيرة حول العالم، التي استغرقت خمس سنوات، وقد كانت هذه الرحلة ضمن البعثة العلمية البريطانية التي أوفدت على ظهر السفينة -بيغل- وقد اطلع داروين في هذه الرحلة الطويلة على الكثير من أسرار عالم الحيوان والنبات كما يزعم وقد مهد له ذلك على زعمه أيضاً لعنه الله تعالى تأسيس هذه النظرية الإلحادية الخبيثة، وقد أوقف داروين حياته كلها للبحث في التطور والارتقاء، وقد أحدثت كتبه حيال هذا الأمر هزة عنيفة في العالم، وخاصة بين رجال الكنيسة فتعرض من أجل ذلك لحملات عنيفة شعواء، واحتدم الجدال بين معارضيها ومناصريها، أصدر كتاباً له بعنوان «تحدر الإنسان» عام ١٨٧١م. انظر/ الإسلام ونظرية داروين ص ١٩.

شرعاً وعقلاً وأذكر الآن القواعد التي قامت عليها هذه النظرية اللعينة ثم أرد عليها بما يفتح الله تعالى علي فأقول وبالله تعالى أستعين: قال صاحب كتاب: (الإسلام ونظرية داروين)[1]: إن داروين قد بنى مذهبه - في التطور والنشوء والإرتقاء- على أربع قواعد وهي:

١ - ناموس[2] تنازع البقاء.

٢- ناموس الانتخاب الطبيعي.

٣- ناموس المطابقة.

٤ - ناموس الوراثة.

١ - أما ناموس تنازع البقاء، فمعناه -كما يراه داروين- هو أن كل الكائنات الحية في تنازع مستمر، وأن البقاء إنما يكون للأكمل والأقوى من المتنازعين، أما الأضعف فإنه يتلاشى لأنه غير صالح للحياة، ويضرب داروين لذلك مثلاً بما معناه: إذا فرضنا وجود سرب من الأبقار الوحشية تسير في غابة متحدة كعادتها لطلب الغذاء فإذا رأت مرعى تزاحمت عليه فالقوي منها يفوز بأطيب ما في هذا المرعى، فتزداد قوة على قوتها، أما أضعفها فإنه يزداد ضعفاً على ضعفه، فبإدمانها على هذا العمل، يزداد القوي قوة واكتمالاً، أما أضعفها فإنه يزداد ضعفاً إلى ضعفه، فلا يزال يتناقص حتى يتلاشى فهذا ما يسمونه بناموس تنازع البقاء.

٢- أما ناموس الانتخاب الطبيعي فيشرحه داروين بما معناه معقباً على ما تقدم: فإذا انتقل هذا السرب من الأبقار إلى مسافة بعيده ومر بطريق وعره، لا يقوى على اختراقها إلا الممتازون منها بالقوة، فلا يصل إلى مأمنه

(١) هو محمد أحمد باشميل

(٢) ناموس، بمعنى قانون أو نظام.

إلا الممتازون بالقوة، وهذا يعني أن نتيجة هذا التنازع كله، بقاء الأصلح للبقاء وهلاك غير الأصلح أو زيادة ضعفه.

كأن الطبيعة المزعومة في نظر داروين تنتخب الأقوى والأكمل فتبقيه وتلاشي الأضعف وتبيده ليكون نتيجة ذلك: الإرتقاء بمعناه الأعم[1]، قلت: ألم يعلم هذا الخبيث الذي فقد عقله وأصبح أحط من البقر أن الموت غاية كل حي قوياً كان أو ضعيفاً وأن هلاك الضعيف أو زيادة ضعفه إنما هو من سنة الله تعالى في خلقه وقد يهلك القوي قبل الضعيف، وقد يقوى الضعيف ويضعف القوي، وهذا شيء ملاحظ وأن القوي وإن عاش سنيناً فإنه لا يتغير ولن يتغير عن حاله إلى حالة أخرى ولا يترقى كما زعم هذا الملحد وأعوانه، فبطلت بذلك القاعدة الأولى والثانية.

قال صاحب كتاب (الإسلام ونظرية داروين):

٣- أما ناموس المطابقة فمعناه -كما يرى داروين- أن لنوع الأغذية وطرق الوصول إليها دخلاً كبيراً في إحداث الإختلافات بين الأنواع، فالمعروف مثلاً عن الأسد أنه حيوان آكل للحوم ذو أنياب وأظفار حادة، فلو قُدِّر أن وجد هذا الأسد في بيئة لا يوجد فيها لحوم ولا حيوانات ليفترسها ويتغذى عليها وإنما يوجد فيها النبات فقط، فإنه في نظر داروين يتحول تدريجياً إلى فصيلة الحيوانات النباتية، ويكون ذلك تدريجياً بأن تختفي أسنانه الحادة وتصبح غير حادة، كما تختفي أظفاره القوية وتصبح كما هي عند

---

(١) الإسلام ونظرية داروين لمحمد أحمد با شميل ص ٤٣-٤٤.

الأبقار والأغنام[1] قلت: ما هذا الفهم القبيح، والعقل السقيم فلو كان الأمر هكذا كما زعم هذا الملحد الذي فقد عقله لتحولت كل المخلوقات ولعمت الفوضى بأن ينقلب الحمار أسداً والأسد حماراً، والكلب ضأناً، والضأن كلباً، عدة مرات فكلما وجد في بيئة تحول إلى ما يناسبها، فما هذه الأقوال الباطلة إلا حقيقة متاهات الضلال التي لا نهاية لها إلا في جهنم وبئس القرار، وهذه حال كل من اتبع هواه والشيطان وخالف الشرع والعقل كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2] فهذا ناموس المطابقة أو ناموس التحول كما يسميه البعض، ويقال لهذا الملحد أيضاً:

إن هذه البيئة الوهمية التي تخيلها لا وجود لها إلا في ذهنه المريض وعقله السقيم ولم يخلق الله تعالى خلقه عبثاً ويتركهم بلا رزق يناسب حالهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3].

ولو بحث هذا الملحد الغبي عن هذه البيئة المزعومة في جميع الأرض لما وجدها، ولو حبس الأسد وأطعمه النبات لمات قبل أن تتحول أنيابه إلى أضراس ثور، ولو حبس الثور وأطعمه اللحم لمات قبل أن تتحول أضراسه إلى أنياب أسد ولمات كل واحد منهما دون أن يتحول عن طبعه الذي طبعه الله تعالى وخلقه عليه، ولو أطلقه لوجد رزقه الخاص به ولم يشاهد أي بيئة في الأرض تخلو من طعام يناسب أي حيوان يعيش فيها كما في الآية السابقة ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ولو كان الأمر كما زعم لانقرضت

(١) الإسلام ونظرية داروين/ ص٤٤.

(٢) الملك/ ١٠.

(٣) هود/ ٦.

أنواعاً من المخلوقات أو تحولت إلى أنواع أخرى، ولو فرض أن حيواناً لم يجد ما يناسبه من طعام وأكل طعاماً آخر لما تغير طبعه وخلقه عما خلقه الله تعالى عليه ولو مات لمات على خلقه وطبعه دون أن يتغير، ولو بحث هذا الملحد الغبي الذي فقد عقله عن هذا الحيوان المزعوم الذي تغير لمات قبل أن يصل إليه.

ثم إن هذا الملحد الغبي الخبيث قد تناقض في أقواله حيث بين في القاعدة الأولى أن الحيوان كالبقر كما زعم إذا لم يجد ما يأكله مما يناسبه أو زاحمه القوي فإن الضعيف يموت، وأما القاعدة الثالثة (المطابقة) فقد بين أن الحيوان قوياً كان أو ضعيفاً إذا لم يجد ما يناسب أكله فإنه يتحول إلى حيوان آخر، قلت: فلماذا إذاً لم تتحول تلك الأبقار الضعيفة التي لم تأكل إلى آكلة لحوم وأكلت تلك الأبقار القوية التي زاحمتها، أو أكلت لحم أي حيوان آخر ولو كان ضعيفاً حتى لا تموت كما زعم ثم تحولت إلى آكلة لحم وهل شوهد شيء من ذلك؟!! فهذا تناقض واضح، فهو يهذي بما لا يدري وهذا حال كل من ضل عن الصراط المستقيم.

ويقال لهذا الملحد أيضاً:

إن وجود الأسد بأنياب والبقرة بلا أنياب يدل على أن كل نوع مستقل عن الآخر دون أن يكون هناك تطور كما زعم، وهذا في جميع المخلوقات، ويقال أيضاً: وهل رؤي وشوهد على ممر السنين ما زعمه هذا الملحد؟ ولو سلَّمنا جدلاً وجود ذلك لكان دليلاً على وجود حكيم يفعل ذلك وهو الخالق سبحانه وتعالى وليست الطبيعة العمياء المزعومة، ففيه رد عليه بما استدل به على إنكار وجود الخالق عز وجل، وهذا يدل على بطلان القاعدة الثالثة.

قال صاحب كتاب (الإسلام ونظرية داروين):

٤ - أما ناموس الوراثة فمعناه -كما يراه داروين- إن الصفات المختلفة التي تحدث في الآباء بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط المعيشية تنتقل إلى الأبناء فتنشأ تلك الأبناء مختلفة فيما بينها، ولا يزال هذا الاختلاف يقوى على مر الأجيال والقرون حتى تستحيل تلك الاختلافات البسيطة إلى اختلافات جوهرية في الخلقة، وهي في الحقيقة اختلافات بسيطة في مبدئها توالت عليها الحقب حتى ازدادت تأصلاً في الكائن الحي، ونمت فيه فأدته إلى مباينة الأصل الذي نشأ منه تمام المباينة[1].

قلت: ولعل هذه القاعدة الأخيرة هي القاعدة الهامة في زعمه والتي ركز عليها في تدعيم نظريته الباطلة الخبيثة حيث توصل بها إلى أن الإنسان ترقى عن حشرات إلى فقاريات، إلى القرده، فالإنسان، فهذه القاعدة الرابعة باطلة لأنها مبنية على القاعدة الثالثة السابقة وقد تبين بطلانها فكذلك ما بني عليها باطل فهي جميعها حجج باطلة متهافتة بصاحبها إلى جهنم وبئس القرار كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

---

(١) الإسلام ونظرية داروين ص ٤٥.

(٢) الحج/ ٣١.

(٣) التوبة/ ١٠٩.

ولا أدري لماذا لم يتحول الإنسان ويترقى عند هذا الملحد إلى درجة أعلى ما دام الحال أن الحشرة والفقارية قد ترقت في نظره، فلماذا توقف الإنسان ولم يترق؟! من الذي منعه وأوقفه عن ذلك، ولكن لأن الإنسان في نظر داروين والعالم أكمل المخلوقات، لذلك جعله داروين قمة الترقي ولو علم أن هناك نوعاً ما في الأرض أفضل من الإنسان لزعم أن الإنسان يترقى إليه بعد أجيال ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾[1]، فوجود الإنسان بهذا الخلق البديع وعدم ترقيه وتغيره خير دليل في الرد على داروين لأنه دليل على أن كل نوع متوقف على خلقته التي أوجده الله تعالى عليها، ولا وجود لما يزعمه هذا اللعين من تطور وترقي وإنما هو خلق الله تعالى الحكيم المتقن في كل شيء، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾[2] ويقال في الرد على هذه القواعد التي قعدها هذا الملحد أيضاً إنه قد اُعترض عليه في قواعده التي بنى عليها ما ذهب إليه، ومن أهم هذه الاعتراضات بل من أكبرها:

١- عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية من عهد ألوف السنين.

٢- عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل، كأن يوجد -مثلاً- حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الإنسان رتبة واحدة أيضاً.

٣- طول الزمان اللازم لحصول الترقي بين الأحياء -كما يزعمون- فإن عمر الأرض كما قالوا لا يكفي لإحداث كل ما يرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف.

---

(١) فاطر / ٤٠.

(٢) السجدة / ٧.

٤- إن الحيوانات البحرية الدنيا هي باقية، حتى اليوم على الحالة التي كانت عليها في ابتداء العالم، ولم نجد أنها تأثرت بناموس الارتقاء، وأن طوائف الأحياء الكبرى، الدنيا منها والعليا، وجدت منها آثار في أسفل طبقات الأرض، فلو كان ناموس الارتقاء أكيداً لوجب أن يكون الأعلى منها كذوات الفقرات في أعلى الطبقات، وأننا نجد كثيراً من الأجناس والطوائف قد كانت في العصور القديمة الأولى أكمل منها اليوم ونجد في الطبقات الأرضية بعض حيوانات دنيئة فوق[1] حيوانات عالية جداً.

٥- يضربون لذلك مثلاً بدودة القز وأنها لو تحولت لحُرم الناس الحرير إلى الأبد، وأنها منذ آلاف السنين كما هي، فهذا دليل على بطلان هذه النظرية الخبيثة وثبات كل شيء على حاله التي خلقه الله تعالى عليه.

هذا بعض ما رد به علماء الإسلام على داروين، وقد رد عليه أيضاً بعض بني جنسه فقال بعضهم - وهو الأستاذ -فرخو-: تبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرود فرقاً بعيداً، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ولا يحسن أن نتفوه بذلك.

وقال - دوفرى-: إنه ثبت خطأ أصول النظرية الداروينية وبطلان قواعدها ونواميسها الأربعة التي بنى داروين عليها نظرية التطور والارتقاء وإن التجارب العلمية الحسية أثبتت بطلان هذه النظرية، فنحن نشاهد ما يسمى بالظهور الفجائي -لأنواع نباتيه جديدة، دون مرورها على صور

(١) أي مدفونة فوق حيوانات أكمل خلقاً منها.

تدريجيه جاءت من أسلافها الأولية[1] .

ولا أريد أن أطيل في نقل الردود على داروين لأنها كثيرة ولأن حقارة هذه النظرية وبيان كذبها وعدم صحتها من الوضوح بدرجة كبيرة، وفيما تقدم من الردود فيه كفاية لمن عقل ولكن أقول أخيراً إن الشيء لا يوجد بلا خالق حي عليم قدير حكيم متصف بجميع صفات الكمال والجلال، وفي هذا رد على جميع شبه الملاحدة الذين يروغون عن التسليم لهذا الأمر الذي يقرون به في قلوبهم وينكرونه بألسنتهم ويحاولون صرف الناس عن ذلك إلى أمور أخرى كقولهم بالترقي وغير ذلك فيقال لهؤلاء الضلال الجاحدين المراوغين لو سلمنا جدلاً بأن هذه الكائنات تعود لمخلوق صغير، فمن أوجد هذا المخلوق الأول الذي زعمتم كذباً أنه ترقى! فلا يجدون جواباً إلا المراوغة ورد الحق الذي أقرت به قلوبهم وجحدته ألسنتهم كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

وأما ما قيل[3] إن داروين لم يقل إن أصل الإنسان قرد وإنما قال إن الإنسان والمجموعة الشبيهة به كالشمبانزي وغيره منحدران من أصل واحد، فإن أراد بالإنسان آدم عليه السلام فقد زعم أنه أخ للقردة وأن له أصلاً -أي آباء وأجداد- مع أن آدم عليه السلام لم يكن له إخوة ولا أب ولا أم ولا أصل بل هو أصل الإنسان وقد خلقه الله تعالى بيديه مباشرة ، وإن أراد بالإنسان

---

(١) انظر الإسلام ونظرية داروين، ص٤٩-٥٣.

(٢) النمل/ ١٤.

(٣) الإسلام ونظرية داروين ص ١٤٦.

نسل آدم وذريته فقوله هذا قول بأن الإنسان من أصل قرد لكنه بطريق غير مباشر، فهو صريح بأن الإنسان أخ للقرد والقرد أخ للإنسان وأن أباهما واحد فيكون مقتضى القول بذلك -والعياذ بالله تعالى- أن آدم أب للقردة والإنسان، أو أن القرد أب للإنسان والقردة، وإلا كيف جاء ذلك القرد إذا كان أصله الوحيد الإنسان فقط لأن المولود ينزع في الشبه إلى أحد أجداده فإذا لم يكن أحد من أجداده من القردة فكيف جاء ذلك المولود؟! فهذا يبين فساد هذا القول وأنه من أقبح القول وأبطله، وإذا كان كذلك كما زعم فلماذا لم تتحول القردة جميعها أو بعضها إلى أناسي؟! ولماذا لم يولد للإنسان مولود بشكل قرد وللقرد مولود بشكل إنسان مادام أن الأصل واحد، لأن المعروف في علم السلالات أن المولود ينزع[1] لأجداده وآبائه كما هو معلوم عند علماء الوراثة، وما دام أن ذلك لم يحدث ولا مرة واحدة في القديم ولا في الحديث على اتساع العالم وكثرة بني الإنسان والقردة فاتضح بهذا بطلان ما ذهب إليه داروين من قول فاسد لا دليل عليه لا من العقل ولا من المشاهد، واتضح أيضاً أن كل نوع مستقل بنفسه وذريته غير مختلط بالآخر، فإن قال قائل ولماذا تكون نظرية داروين مناقضة للقرآن الكريم مع أنها لم تنف أن يكون أصل الإنسان آدم ولكن آدم قد تطور من حشرات وفقاريات إلى أن صار على حاله الذي خلقه الله تعالى عليه ثم نفخ فيه من روحه.

فأقول: كلاَّ إن هذا مناقض للقرآن الكريم وللسنة النبوية الصحيحة لأن الله عز وجل قد بين في كتابه الكريم المراحل التي مر بها خلق آدم

(١) ينزع لأجداده وآبائه: أي يشبه أجداده وآباءه النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٤١.

عليه السلام وهي التراب فالطين فالحمأ المسنون فالصلصال كما سيأتي وأن ذلك كان بيديه عز وجل قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾[1]، ولم يذكر لنا سبحانه وتعالى أنه تدرج من حشرة إلى فقارية إلى إنسان كامل، ولو كان هذا حقاً لبينه سبحانه وتعالى كما بين أطوار الجنين في بطن أمه حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[2].

وليست أطوار الجنين أيضاً في بطن أمه مشابهة لما زعم أصحاب نظرية داروين الأخباث الأنجاس فإنهم يزعمون كما تقدم أن أصل الإنسان قد تطور على مراحل في أزمنة متباعدة انتهت كل مرحلة بمخلوق مستقل له أوصافه الخاصة به ثم انتقل بعد فترة طويلة من السنين كما تقدم إلى مخلوق مستقل آخر وبأزمنة متباعدة إلى أن وصل بعد ملايين السنين المزعومة إلى درجة القرود ثم إلى الإنسان كما زعموا قبحهم الله تعالى، أما تطور الجنين في بطن أمه فهو تطور لمخلوق واحد إلى أن يكتمل خلقه إنساناً فهو تطور متصل في وقت واحد لمخلوق واحد وهي مراحل يمر بها أي مخلوق إلى أن يكتمل خلقه، ولم يحصل أن خرج إنسان من بطن أمه على شكل حشرة وعاش سنيناً

(١) سورة صٓ/ ٧٥. (٢) الحج / ٥.

ثم تطور إلى أن أصبح إنساناً كاملاً كما زعم هؤلاء الضلال، فمراحل الجنين في بطن أمه هي تطور في وقت محدد لمخلوق واحد كما تقدم وشتان بين هذا التطور وبين ما زعمه الملاحدة أصحاب نظرية داروين لعنهم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى قد خلقكم على أطوار مختلفة نطفة ثم مضغة ثم علقة إلى تمام الخلق[2].

قال الشيخ عبد الكريم بن صالح الحميد في رده على من تأثر بهذه النظرية الإلحادية ممن ينتسب إلى الإسلام قال: والكلام الآن ليس مع الجاحدين لوجود الخالق عز وجل من عباد الطبيعة وإنما هو مع الذين يقرون بوجوده وقدرته، فيقال لهؤلاء الذين راج عليهم نشؤ المخلوقات وتدرجها: ليس هذا معتقد أهل الإسلام فإن معتقدهم أن الرب سبحانه وتعالى يقول للشيء (كن فيكون) على الكيفية التي يريدها سبحانه وتعالى في الوقت الحالي لا يتأخر ليتدرج ويتطور ويكتمل حتى يكون على الصفة المطلوبة بعد الأزمنة الطويلة والتحولات والتغيرات التي يزعمها عباد الطبيعة.

قد يقول قائل: نحن نرى المخلوقات تنشأ شيئاً فشيئاً وتتدرج في نشأتها مثل خلق الإنسان والحيوان والنبات، فإن هذا كله يبدأ صغيراً ضعيفاً فما يزال ينمو حتى يكبر ويكتمل.

فالجواب: أن هذا لون والتطور والتدرج في النشأة والترقي الذي يزعمه الدهرية لون آخر، فإن الإنسان مثلاً يبدأ خلقه من النطفة فيكون إنساناً

(١) نوح / ١٣-١٤.

(٢) فتح القدير ٥/٢٩٨.

فهو لا يكون في الأول سمكة ثم ضفدع ثم قرد ثم إنسان، بل هو إنسان من البداية إلى النهاية لكن تلك بدايته وهذه نهايته في التخلق، وكذلك الحيوان والنبات وهذه سنة الله تعالى في خلقه لم تتغير. فقد ظهر الفرق بين التطور المزعوم والخلق وأن الأول خيال لا حقيقة له وهو الكيفية التي يذكرونها لتدرج المخلوقات بفعل الطبيعة، والثاني فعل الرب سبحانه وتعالى[1].

ثم ما تقدم من خلق الله تعالى لآدم عليه السلام بيديه فيه دليل على عدم التطور وأن خلقه كان مباشرة، وقولنا بالتطور يتنافى مع ذلك، وفيه أيضاً تنقص لله عز وجل ونسبة العجز إليه وعدم القدرة على الخلق المباشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد تقدم في قول الشيخ عبد الكريم الحميد ما يشير إلى ذلك، وإذا كان الله تعالى قد امتن على عيسى عليه السلام بأن جعله يخلق من الطين على هيئة الطير بإذنه تعالى، ولم يقل إن الطين تطور إلى أن صار على شكل طير ثم نفخ فيه وإنما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ ﴾[2]، قال ابن كثير: أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني: أي فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله تعالى وخلقه[3].

(١) هداية الحيران في مسألة الدوران ص ٥٠-٥٢.

(٢) المائدة / ١١٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/١١٥.

فإذا كان الله تعالى قد أعطى نبيه ورسوله عيسى عليه السلام وأذن له أن يخلق طيراً من طين ومنحه القدرة على ذلك، فكيف بقدرة الله تعالى والتي هي كلمح البصر، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

وعلى هذا فالقول بأن آدم قد ترقى من حشرات الخ ... حتى صار على هيئته ثم نفخ الله تعالى فيه من روحه قول فاسد باطل فبالإضافة إلى ما فيه من تنقص لقدرة الله تعالى وهذا صريح الكفر والإلحاد فيه أيضاً رد لآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدالة على الخلق المباشر كما تقدم فتبين كذب القائلين بنظرية التطور الإلحادية الداروينية الخبيثة اللعينة هي وأصحابها.

وكما ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى خلق آدم عليه السلام مباشرة دون ترقي كذلك ورد في السنة المشرفة ما يشير إلى ذلك وهي مبينة للقرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] فإنكار السنة إنكار للقرآن الكريم لأنهما متلازمان فيجب الإيمان بهما جميعاً، إذا تبين ذلك: فمن الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام ما تقدم[2] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض) .. الحديث، فبيَّن هذا الحديث الشريف ما يبطل قول من قال إن نظرية داروين لا تتعارض مع الدين الإسلامي وذلك أن الحديث صرح بأن خلق آدم عليه السلام كان بقبضة قبضها الله عز وجل من تراب الأرض ثم صورها ثم نفخ فيها من روحه وفي هذا رد على كل من قال بأن أصل

(١) النحل / ٤٤.

(٢) تقدم في أول المبحث الأول من هذا الفصل.

الإنسان تدرج من حشرة إلى أن صار إنساناً فهذه أقوال الكفرة والملحدين الذين لا يقرون بكتاب ولا بسنة.

والعجب من صاحب كتاب -الإسلام ونظرية داروين- أنه لم يبين موقف الإسلام من هذه النظرية بل قال مبيناً رأيه فيها: أما الرأي الذي أراه صائباً والذي يجب أن يتخذه المسلم حيال هذه النظرية هو التوقف وعدم إصدار أي حكم باسم الدين فيها لا بنفي ولا إثبات ولا ينبغي أن نحمل الدين أو نقحمه في مثل هذه النظريات التي لم تثبت صحتها أو بطلانها[1].

قلت: العجب كيف ينقل أولاً أقوال العلماء في بطلانها وفسادها ثم يقول بعد ذلك:لم تثبت صحتها أو بطلانها؟! فالحقيقة أنه هو الذي أقحم نفسه في مثل هذا الضلال الذي توقف في الحكم عليه بل دعا المسلمين إلى ذلك والعياذ بالله تعالى كما تقدم في كلامه، فإلى متى ينتظر أن يثبت بطلانها والوحي قد بين فسادها قبل عدة قرون؟!! حيث قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] وهذا من القول على الله تعالى بغير علم، وهو من كبائر الذنوب، وكذلك الآيات والحديث الواردة في بيان أن خلق آدم عليه السلام كان من التراب والطين لا من الحشرات والفقاريات المزعومة.

ثم قال: نعم يتنافى هذا القول[3] مع الرأي القائل إن الله تعالى

(١) الإسلام ونظرية داروين ص ١٥٥-١٥٦.
(٢) الأعراف/٣٣.
(٣) أي القول بالتوقف وعدم إقحام الإسلام في مثل هذه النظريات.

كوَّن آدم من الطين مباشرة ودون مرور أية فتره من الزمن أو مراحل حياتية عليه قبل إكمال خلقه، ولكن تنافي نظرية داروين مع هذا الرأي لا يبرر الحكم على القائل بها بأنه قد كذب القرآن[1]، لأنه ليس في أي نص من نصوص هذا الكتاب العزيز ما يمكن اعتباره تصريحاً بهذا الرأي[2] فكل الآيات التي

(١) بل فيه ما يبرره وزيادة كما سيأتي فلم تمر على آدم قبل نفخ الروح فيه أية أطوار حياتية كما زعم.

(٢) أي الرأي القائل: بأنه خلق من الطين مباشرة. قلت: وهذا القول من صاحب هذا الكتاب فيه مغالطة وتلبيس الحق بالباطل، وفيه مجاراة لأعداء الإسلام ولا يليق هذا بمسلم يدافع عن دينه وكتاب ربه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ووجه كونه مغالطة ومجاراة لهم أن قوله (إن الآيات التي أشارت إلى الطين لم يات فيها أي تفصيل يفيد أنه خلق من الطين مباشرة دون أن يمر بأطوار وأدوار) يدل على أنه يميل إلى القول بهذه النظرية الباطلة ولو بنسبة معينة وهذا فيه فتح الباب لأعداء الإسلام للنيل منه ومن نصوص الكتاب والسنة وفيه مجاراة لهم كما تقدم والذي يؤكد ذلك قوله في أول الاعتراض إن نظرية داروين لم تثبت بعد بطلانها أو صحتها على زعمه الفاسد، ففيه إشارة إلى أنه لا يجزم ببطلانها بل يميل إليها كما تقدم أيضاً، ولا أدري ما الذي جعله يترك نصوص القرآن والسنة ويلحق وراء كل ناعق وضال، نسأل الله تعالى الثبات على الحق إلى أن نلقاه إنه سميع مجيب.

ثم قال بعد ذلك: (بأن أقام له تمثالاً من الطين ثم نفخ في هذا التمثال الروح مباشرة) قلت: لماذا يسميه تمثالاً والله تعالى لم يسمه بذلك؟!، وقد ثبت أن الله تعالى خلقه من الطين وتركه حتى كان صلصالاً ثم بعد ذلك نفخ فيه من روحه كما تقدم في الأدلة، ولم يرد فيها أنه كان حشرة أو فقارية، فهذا هو الحق لأن الله تعالى صوره من الطين وتركه سواء سمي تمثالاً كما زعم أو غيره فالحق أحق أن يتبع ولو سمي بألقاب باطلة لصرف الناس عن قبوله، نسأل الله تعالى للمذكور الهداية لقبول الحق واتباعه والدفاع عنه والعجب أن عنوان الكتاب يخالف ما اشتمل عليه. ثم قوله: (إنه لا يوجد أي نص من القرآن يثبت أن الله تعالى خلق آدم من الطين مباشرة). قلت: بل جميع النصوص تدل على ذلك لأن جميع المراحل التي مر بها خلقه كلها كانت طيناً، فالحمأ هو الطين المنتن، والصلصال هو الطين الجاف كما سيأتي ولم يرد في القرآن أو السنة أن هناك مرحلة حياتية قبل نفخ الروح أو بعده كانت من الحشرات أو الحيوانات فدل على بطلان ذلك القول، والله تعالى أعلم.

أشارت إلى الطين لم يأت فيها أي تفصيل يفيد أن الله تعالى قد خلق الإنسان من الطين مباشرة دون أن تمر به أية أدوار من التطور والارتقاء، بأن أقام له تمثالاً من الطين ثم نفخ في هذا التمثال الروح مباشرة.

قلت: قد خفي على المؤلف المذكور الآيات الواردة في كتاب الله تعالى والتي بينت المراحل التي مر بها التراب قبل خلق آدم عليه السلام والشاهد أنه لم يذكر فيها مرحله الحشرات أو الفقاريات التي زعموا أنها من أطوار خلق آدم عليه السلام، وبيان ذلك كالآتي:

إن الله عز وجل ذكر المادة التي خلق منها آدم عليه السلام وهي التراب وقد مرَّ بثلاث مراحل ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم، وهي الطين والحمأ المسنون ثم الصلصال، فهذه المراحل الطين والحمأ والصلصال تعود إلى التراب الذي هو أولها وهو الأصل، والمعلوم أن هذه المراحل لا تكون في لحظة واحده بل لابد أن بعضاً منها سابق للبعض، وفي هذا بيان لأطوار خلق آدم عليه السلام وأنها مراحل مر بها التراب ولم يتخللها أي طور من حياة مزعومة لحشرات أو فقاريات.

وأذكر ما قاله علماء اللغة عن معاني ألفاظ هذه المراحل:

أولاً: التراب: ذكر ابن منظور في لسان العرب عند مادة - (تراب) قال: تربة الأرض ظاهرها[1]، فبين أن التراب هو ظاهر الأرض الذي لم يخالطه ماء ولا غيره.

(١) لسان العرب ١/٣١٤.

ثانياً: الطين: ذكر ابن منظور أيضا في مادة: (طين)[1]: الطين معروف الوحل، وذكر في مادة (وحل)[2] الوحل هو الطين قال المتنخل الهذلي:

فأصبح العين ركوداً على الـ * أو شاذ أن يرسخن في الموحل

يقول: وقفت بقر الوحش على الروابي مخافة الوحل لكثرة الأمطار، تبين من هذا أن الطين هو التراب إذا خالطه الماء.

ثالثاً: الحمأ المسنون: ذكر أيضاً في ماده (حمأ)[3] قال: الحمأة: الطين الأسود المنتن وفي التنزيل ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾، فعلم من هذا أن الحمأ مرحلة بعد الطين وهو الطين الذي مضت عليه مده حتى أنتن، والمسنون هو المتغير[4].

رابعاً: الصلصال: ذكر أيضا في مادة (صلل)[5] قال: والصلصال من الطين سمي به لتصلصله وكل ما جف من طين فقد صل صليلاً وطين صلاَّل ومصلال أي يصوت كما يصوت الخزف الجديد، والصلصال: الطين اليابس الذي يَصِلُّ من يبسه أي يُصَوِّت وفي التنزيل ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾، فعلم بهذا أن الصلصال مرحلة بعد الحمأ والذي هو الطين المنتن لأن الصلصال هو الطين اليابس والطين إذا يبس ذهبت رائحة نتنه، إذاً فالصلصال مرحلة بعد الحمأ.

فتبين من شرح معاني هذه الكلمات أن التراب هو أول ما خُلق منه آدم

---

(١) لسان العرب ٦٣٨/٢.

(٢) لسان العرب ٨٩١/٣.

(٣) لسان العرب ٧١٢/١.

(٤) فتح القدير ١٢٩/٣.

(٥) لسان العرب ٤٦٧/٢.

عليه السلام ثم تلاه الطين ثم تلاه الحمأ المسنون وهو ما أسود من الطين ونتن ثم تلاه الصلصال وهو ما جف من الطين حتى صار كالفخار وقد بين تعالى هذه الأطوار فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1] فبين أن مرحلة الصلصال بعد مرحلة الحمأ المسنون، وقال تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[2] فمرحلة الحمأ المسنون كان فيها التصوير ثم كان صلصالاً ثم بعد الصلصال كان نفخ الروح وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بُل صار طيناً، فلما أنتن -أي الطين- صار حمأً مسنوناً.

فلما يبس صار صلصالاً، فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون[4]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين[5].

وقال الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ هذه الآية بين الله تعالى فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً ثم خمر

---

(١) الحجر / ٢٦.
(٢) الرحمٰن / ١٤.
(٣) الحجر / ٢٨-٢٩.
(٤) فتح القدير ٣/١٣٠.
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٥٥٠.

هذا الطين فصار حمأً مسنوناً أي طيناً أسود منتن الريح، والمسنون قيل: المتغير وقيل المصوَّر، وقيل: الأملس، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالاً، فالآيات يصدق بعضها بعضاً ويتبين فيها أطوار ذلك التراب كما لا يخفى[1].

قلت: في قول الشيخ رحمه الله تعالى: (وقيل المصوَّر) يدل على أن التصوير كان في هذه المرحلة وهي مرحلة الحمأ المسنون كما تقدم، والله تعالى أعلم، وكذلك في قوله: (فالآيات يصدق بعضها بعضاً) فيه رد على كل من أخذ ببعض الآيات وترك البعض سواء في خلق آدم أو في غير ذلك كما سيأتي في الرد على الشاب الذي نقل عنه صاحب كتاب (الإسلام ونظرية داروين).

فعلم بذلك أطوار خلق آدم عليه السلام وبطلان القول بخلاف ذلك وأنه لو كان هناك أطوار أخرى بعد التراب غير هذه الأطوار أي من الحشرات والحيوانات كما زعموا لذكرها الله سبحانه وتعالى ففي عدم ذكرها دلالة واضحة على فساد تلك النظرية وفساد قول من قال بها وفيه رد على ما ذهب إليه صاحب الكتاب المذكور من التوقف في مسألة خلق آدم من الطين مباشرة وعلى كل من قال بخلاف القرآن الكريم والسنة المشرفة.

ويتلخص الرد على صاحب الكتاب المذكور وأمثاله من القائلين بالتوقف في الحكم على نظرية داروين أو القائلين بصحتها وأنها لا تعارض القرآن الكريم أو السنة المشرفة في الأمور التالية:

أولاً: أن فساد هذه النظرية وفساد القول بالتوقف في الحكم عليها بالبطلان ظاهر بالشرع والعقل والحس، أما الشرع فلأدلة الكتاب والسنة المتقدمة والدالة على بيان المراحل التي مر بها خلق آدم أبي البشر عليه السلام

(١) أضواء البيان ٧٤٦/٧.

والتي لم يذكر فيها أي مرحلة حياتية مزعومة قبل مرحلة نفخ الروح فيه عليه السلام، وهي المرحلة الأخيرة التي تم خلقه فيها بشراً سوياً والدالة أيضاً على بيان المراحل التي مر بها خلق نسله وذريته عليه السلام والتي لم يذكر فيها أيضاً أي مرحلة حياتية مستقلة بعد نفخ الروح فيهم من المراحل المزعومة على شكل حشرات أو حيوانات تعيش فترة من الزمن، ثم تطور بعد فترة من الزمن إلى مخلوقات أخرى إلى أن تصل كما زعموا إلى القرد فالإنسان وإنما هي تطورات لجنين واحد إلى أن يكتمل خلقه كما تقدم في وقت معلوم محدود كما دلت على ذلك أدلة الكتاب والسنة، وعلى هذا فالقول بصحتها أو التوقف فيها مناقض لهذه الأدلة الصحيحة.

وأما العقل فلأن القرآن الكريم وصحيح السنة المشرفة وحي من خالق البشر سبحانه وتعالى وهو أعلم بخلقه، وقد أخبرنا سبحانه وتعالى بالمراحل التي مر بها خلق هذا الإنسان وليس فيها أخبرنا سبحانه وتعالى شيء من المراحل المزعومة، ثم إن العقل أيضاً يقضي ببطلان هذه النظرية لأنها لو كانت صحيحة لما ثبتت المخلوقات التي تطور عنها الإنسان حسب زعمهم الباطل على حالها، كالحشرات والزواحف والقردة ، ولكان الجميع تطور إلى إنسان، فوجود هذه المخلوقات كما هي وثباتها على خلقتها وحالتها التي أوجدها الله تعالى عليها على مدى الأزمان دليل واضح على بطلان هذه النظرية وتوقف كل مخلوق على خلقته وحالته التي أرادها الله تعالى له ومنها الإنسان، فلماذا لم يتطور أيضاً؟!.

وأما الحس فإن المشاهد عند الجميع أن جميع المخلوقات ثابتة على خلقتها ولم يشاهد تطور شيء منها إلى جنس آخر وكذلك لم يشاهد المراحل

الوسطى التي تكون بين المراحل المتطورة المزعومة فبطل بذلك القول بصحة هذه النظرية الإلحادية وكذلك القول بالتوقف في الحكم عليها بالفساد.

ثانياً: إن القول بصحة هذه النظرية أو التوقف في الحكم عليها بالبطلان يعتبر من الكفر الأكبر والإلحاد فإن وقع من مسلم عالم بالأدلة وليس عنده شبهة فهو ردة عن الإسلام لما فيه من تكذيب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتصديق الكفرة والملاحدة، وأما إن وقع ذلك من مسلم جاهل فإنه يُعلَّم وتُبين له الأدلة، فإن أصر على ذلك بعد بلوغ الحجة وزوال الشبهة فإنه يكفر بذلك كفراً مخرجاً عن الإسلام، فالأمر خطير جداً.

ومما يدل من الآيات على بطلان القول بأن آدم عليه السلام ترقى من حشرات أو غيرها ما يأتي:

أولاً: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[1].

ثانياً: قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3]

رابعاً: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[4].

والشاهد من هذه الآيات أن الله تعالى بين المراحل التي مر بها خلق آدم عليه السلام وهي التراب ثم الطين ثم الحمأ المسنون ثم الصلصال الذي كالفخار.

---

(١) آل عمران/٥٩.
(٢) سورة صٓ/ ٧١-٧٢.
(٣) الحجر/ ٢٨-٢٩.
(٤) الرحمٰن/ ١٤.

فالتراب أولاً: ثم لمّا بُل بالماء صار طيناً ثم أنتن فصار حمأً مسنوناً ثم جف فصار صلصالاً كالفخار يسمع له صلصلة وصوت ثم نفخ الله تعالى فيه الروح كما تقدم، ودلت الآيات أيضاً على أن تصوير آدم عليه السلام كان قبل مرحلة الصلصال وهو الطين اليابس الجاف، وأن نفخ الروح بعد مرحلة الصلصال، والذي يدل على ذلك أيضاً ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ماشاء الله تعالى أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك)[1].

والشاهد من الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة) فدل على أن التصوير كان قبل مرحلة الصلصال وذلك في مرحلة الحمأ المسنون كما تقدم في قول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي المتغير، وقيل: المصوَّر وكذلك ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى[2] والذي يدل على ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك: (فلما رآه أجوف) وهذا لا يكون إلا بعد جفاف الطين وصلصلته، فصوره سبحانه وتعالى قبل مرحلة الصلصال ثم تركه قبل أن ينفخ فيه الروح ماشاء أن يتركه فمر به إبليس لعنه الله تعالى فرآه أجوف فعرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى:

(الأجوف) صاحب الجوف، وقيل: هو الذي داخله خال، ومعنى (لا يتمالك) أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك

(١) رواه مسلم وقد تقدم تخريجه.

(٢) فتح القدير ٣/١٣٠.

دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد: جنس بني آدم[1].

قلت: فلذلك لا يَسْلم من هذه الأمور إلا من سلَّمه الله تعالى، فعلى المسلم أن يتوكل على الله تعالى ويعتصم به عز وجل ويطلب منه وحده عز وجل العون والحفظ والسلامة، فهو مولانا ونعم الوكيل ونعم النصير، وهو المؤمل في الرخاء والشدة، نسأل الله تعالى أن يقينا شر أنفسنا وأن يعيذنا من شياطين الجن والإنس، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

ويستفاد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة) وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق (إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض)[2] الرد على من قال بنظرية داروين من الملاحدة وعلى من توقف في الحكم على هذه النظرية بالفساد والضلال وذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن قوله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض) يدل على أن الله تعالى خلقه بيده مباشرة وكلمة (آدم) علمٌ على ذات معينة متصفة بصفات معينة خاصة بها ليس فيها أية صفة من صفات الحشرات أو الزواحف أو القرود المزعومة، وإنما هي على ذات متصفة بصفات خاصة بها يعلمها كل العقلاء، ثم قوله بعد ذلك:

---

(١) مسلم بشرح النووي ١٦/١٦٤.

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني رحمه الله تعالى في صحيح سنن الترمذي وقد تقدم تخريجه في المبحث الأول من هذا الفصل.

(من قبضة قبضها من جميع الأرض) يدل على أن هذه الذات المذكورة خلقت من تراب الأرض بعد أن مر هذا التراب بمراحل ذكرها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم كما تقدم وليس فيها أية مرحلة من مراحل داروين المزعومة ولو كان فيها شيء من ذلك لما سمي آدم وإنما سمي باسم آخر يليق مع وصفه وما خلق عليه فبطل بذلك قولهم وقول من قال بصحة نظريتهم أو توقف في الحكم عليها بالفساد.

الوجه الثاني: إن قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الآخر الذي رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه (لمَّا صوَّر الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة) يدل على أن آدم عليه السلام خُلق وصُور في الجنة فعلى قول الداروانيين: إن آدم ترقى من قرد فهل صُور القرد على صورة آدم عليه السلام في الجنة وما الدليل على ذلك؟؟!! فكفى بهذا رداً على من قال بهذه النظرية أو توقف في بطلانها، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[2].

(١) الأنعام/ ١٤٤.
(٢) الأنعام/ ٩٣-٩٤.

الوجه الثالث: إن قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ماشاء الله تعالى أن يتركه)... الحديث، يدل على أن آدم عليه السلام بعد أن صوره الله تعالى تركه جسداً بلا روح فترة من الزمن وذلك في الجنة، وقد مر به إبليس ونظر إليه إلى آخر الحديث..

فهل هذه الصفات المذكورة تنطبق على قرد داروين ، وهل تحول قرد داروين إلى إنسان كان في بطن أمه أم في الخارج؟ فالله تعالى قد خلق آدم عليه السلام مباشرة بلا أب وأم وذلك في الجنة.

الوجه الرابع: قال صاحب الكتاب المذكور (الإسلام ونظرية داروين)[1] مشيراً إلى مستند رأيه بالتوقف في الحكم على هذه النظرية بالبطلان، قال: وسندنا في ذلك هو أنه ليس في القرآن أو السنة الصحيحة ما ينفي قواعد هذه النظرية.

فالجواب أن يقال: بلى ورد في القرآن والسنة الصحيحة ما يرد على كل من قال بهذه النظرية أو توقف فيها من أمثال المذكورين ثم إن جهله بالأدلة الصحيحة لا يدل على عدم وجودها كما زعم بل يدل على جهله المركب، وبيان ذلك أن يقال: إن أصحاب هذه النظرية يقولون إن آدم عليه السلام تطور من حشرة المستنقعات إلى أن صار كامل الخلقة، فيقال لهم: هل هذا

(١) الإسلام ونظرية داروين ص/١٤٤.

التطور المزعوم كان عن تناسل وتوالد من ذكر وأنثى في سنين طويلة وأجيال متباعدة كما زعموا أم أن هذه الدودة أو الحشرة الوحيدة التي كانت أصل آدم كما يزعمون هي المتطورة فقط، ولا خروج لهم البتة عن هذين القولين.

فإن قالوا بالقول الأول وأن التطور كان بتوالد وأجيال إلى أن جاء الجيل الذي اكتمل فيه خلق آدم والحقيقة أن هذا هو قولهم، فيقال لهم: إن هذا القول باطل ومتناقض مع القرآن الكريم ومكذب له لأن الله تعالى أخبر أنه خلق آدم عليه السلام من الطين بلا أب وأم، وقولكم بالتوالد يقضي بأن يكون له أب وأم فبطل بذلك قولكم: إن هذه النظرية لا تتناقض مع القرآن الكريم وظهر كذبكم وطاشت حجتكم، والأدلة الدالة على أن آدم عليه السلام خلق مباشرة بلا أب وأم واضحة وكثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية لا ينكرها إلا كافر ملحد، وقد تقدم الكثير منها.

والتي منها أيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1].

ووجه الاستدلال بهذه الآية في الرد على من زعم أن آدم عليه السلام تناسل من أب وأم من القردة والحشرات وغيرها إلى أن اكتمل خلقه بشراً أن يقال:

أولاً: إن الله سبحانه وتعالى بين في هذه الآية المباركة أن أصل بني الإنسان جميعهم يعود إلى آدم عليه السلام وذلك هو قوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فلو كان لآدم أب وأم لم يقل تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

(١) النساء/ ١.

ثانياً: إن الله تعالى بين أنه خلق زوج آدم وهي حواء من آدم عليه السلام وبين ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق وأن حواء عليها السلام خلقت من ضلعه عليه السلام، فهذا يدل على أن أم البشر حواء عليها السلام خلقت من آدم عليه السلام، فلو كان للبشر أم غيرها قبل آدم لم يقل سبحانه وتعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ فالمراد بالنفس الواحدة (آدم) عليه السلام بإجماع المفسرين، والمراد (بزوجها) حواء عليها السلام، ومنهما انتشر بنو آدم في الأرض.

ولأنه لو كان هناك أم للبشر قبل حواء عليها السلام لكانت مخلوقة من أب وأم آخرين ولم تكن مخلوقة من زوجها، فبطلت هذه الأقوال الداروينية وأقوال المتوقفين فيها.

ثالثاً: إن المراد من قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[1] أي: من آدم وحواء كما بين ذلك سبحانه وتعالى في آية النساء السابقة، وأن حواء خلقت من آدم ثم انتشرت الذرية منهما.

وبهذا يتبين فساد وبطلان قول من زعم من الملاحدة أن آدم عليه السلام تطور وتناسل من القردة والحشرات ومن أب وأم عبر السنين الطويلة، وكذلك تبين فساد قول من قال بالتوقف في الحكم على هذه النظرية بالبطلان أمثال المؤلف المذكور، والله تعالى أعلم.

وإن قالوا بالقول الثاني وأن هذه الدودة أو الحشرة التي هي أصل آدم كما يزعمون هي المتطورة فقط، فيقال لهم أيضاً إن قولكم هذا يقتضي أن يكون آدم

(١) الحجرات/ ١٣.

قد نُفخت فيه الروح قبل أن يكتمل خلقه على صورته الكاملة لأن هذه الدودة المتطورة لا يمكن أن تتطور بلا روح ولا حياة كما هو معلوم إلا إذا كانت في بطن الأم كما في المراحل الأولى لخلق الجنين وقد تقدم بطلان هذا القول لأنه يقتضي أن يكون لآدم أب وأم، كما أن هناك فرقاً بين مراحل الجنين وهذه الدودة المزعومة كما تقدم أيضاً، وإن قالوا: إنه يمكن أن تتطور هذه الدودة والحشرة دون أن تكون في بطن الأم ودون أن يكون فيها روح، فيقال لهم: لو سلمنا جدلاً بأن ذلك ممكن فما الفائدة في هذا القول لأنكم تزعمون أن التطور مر بمراحل حياتية كانت لحيوانات حية على أشكال مختلفة فإذا كانت ميتة فلا يسمى هذا تطوراً لأن الميت لا حكم له ولا يستدل به على شيء وهو مناقض للقرآن الكريم أيضاً الذي بين الله تعالى فيه المراحل التي مر بها آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه، ولم يذكر مرحلة الحشرات والحيوانات المزعومة.

فإن قلتم بأن التطور لهذه الحشرة أو الدودة كان مع وجود الروح والحياة، فالجواب أن هذا يتناقض مع القرآن الكريم والسنة المشرفة الصحيحة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن قولكم هذا يقتضي كما تقدم أن الله تعالى نفخ الروح في آدم عليه السلام قبل أن يصوره على صورته الكاملة ونصوص الكتاب والسنة خلاف ذلك لأنها تدل على أن الله تعالى نفخ الروح في آدم عليه السلام بعد أن أكمل خلقه وسواه في أحسن صورة وهي صورته الآدمية، فمن النصوص الواردة في ذلك من القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[1] فبين تعالى أن التسوية قبل نفخ الروح فيه.

(١) الحجر/ ٢٩، سورة صٓ/ ٧٢.

ومن السنة قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق الذي رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ماشاء الله تعالى أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك).

والشاهد من هذا الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ماشاء الله تعالى أن يتركه) فدل على أنه تعالى صوره على صورته الكاملة الآدمية ثم تركه فترة أي قبل أن ينفخ فيه الروح، وهذا يدل على أن آدم عليه السلام صور على صورته الآدمية الكاملة ولم تكن الروح فيه بعد، وفي هذا رد على أصحاب نظرية داروين والمتوقفين في الحكم عليها بالفساد لأن المراحل التي يزعمون أن آدم عليه السلام مر بها كانت مراحل حياتية لكائنات حية ذوات أرواح مخلوقة، وأما هذا الحديث فإنه يدل على خلاف قولهم، وأن الله تعالى صوره على صورته الكاملة ثم تركه بلا روح، ثم نفخ فيه الروح بعد تصويره بفترة فبطل بذلك قولهم وقول من يقول بالتوقف وأنه لا يوجد في القرآن والسنة ما يعارض هذه النظرية!!.

وأما الآثار الدالة على الرد على هذه النظرية أيضاً فمن ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد بالإنسان هو آدم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ لا يعرف مقداره إلا الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي كان آدم عليه السلام جسداً مصوراً

تراباً وطيناً لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً، قاله الفراء، وجاء تحديد المدة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بأنها مائة وعشرون سنة ثم نفخ فيه[1] الروح. والله تعالى أعلم.

فدلت هذه الأدلة من الآيات والأحاديث والآثار أن تصوير آدم عليه السلام وتسوية صورته الآدمية كان قبل نفخ الروح فيه، وهذا لا خلاف فيه بين أحد من أهل العلم في السابق واللاحق وبذلك يتضح بطلان هذه النظرية وفسادها وفساد قول من توقف في الحكم عليها بالبطلان، والله تعالى أعلم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فأما خلق آدم من طين فذاك إنما عُلم بخبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولهذا ينكره طائفة من الكفار الدهرية وغيرهم الذين لا يقرون بالنبوات[2].

وقال في موضع آخر: (وهؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين هم أكفر من مشركي العرب ومن اليهود والنصارى ينكرون الإعادة والإبتداء أيضاً فلا يقولون: إن الله تعالى ابتدأ خلق السماوات والأرض ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم)[3].

فهؤلاء هم سلف داروين من الملاحدة لأن هذه النظرية لم تكن ظهرت بعد في زمانه رحمه الله تعالى وبذلك يتبين من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فساد هذه النظرية وكفر القائلين بها وأن هذه الأقوال إنما أتت عن الفلاسفة والملاحدة أسلاف داروين الذين هم أساس كل شر وفساد وبلاء وضلال في صفوف الأمة الإسلامية، وما ابتليت الأمة الإسلامية بفرقة

(١) تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن) ١١٩/١٩.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٦١/١٦.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩٣/١٧.

أعظم فساداً وضلالاً من هذه الفرقة الضالة. نسأل الله تعالى السلامة والثبات على الحق إلى أن نلقاه عز وجل على ذلك.

وقال الشيخ أبو عبد الله عامر بن عبد الله الفالح في كتابه (معجم ألفاظ العقيدة) الذي راجعه الشيخ العلامة/ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، قال: الداروينية نسبة إلى صاحب مدرسة النشؤ والإرتقاء (داروين) التي تدور حول أن أصل الكائنات الحية العضوية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة ثم تتدرج هذه الكائنات من الأحط إلى الأرقى، فتتدرج هذه الكائنات حتى ترتقي إلى هيئة قرد ثم تتجلى بعد ذلك في الإنسان. وانتقد هذه النظرية كثير من العلماء - علماء الجينات- واغتر كثير من الجهلة بهذه النظرية الإلحادية الكفرية التي تخالف أصل النشأة الإنسانية كما بينها الإسلام[1].

فدلت هذه الأقوال على فساد هذه النظرية اللعينة وكفر القائلين بها وأنها من الإلحاد والكفر الأكبر التي أتت من أعداء الإسلام. والله تعالى أعلم.

ونعود مرة أخرى إلى صاحب الكتاب المذكور: حيث نقل في كتابه مناقشة دارت بين ما سماه بشاب ذكي وبين آخر وقال تحت عنوان: -نقاش مهم حول خلق الإنسان[2]- وكان هذا الشاب الذي سماه ذكياً يقول: إن الآيات الواردة في الكتاب العزيز والتي ذكرت أن الإنسان خلق من تراب لا تلزم القول بأن الإنسان خلق مباشرة من تراب بل لعله مر بأطوار غير التراب حتى صار إنساناً وإنما المصدر له الطين، وهو مردود عليه بما تقدم وأن الله تعالى صوره وسواه إنساناً حياً بعد مروره بمراحل كلها تعتبر صفاتاً لمادة

(١) معجم ألفاظ العقيدة ص ١٧٣.

(٢) الإسلام ونظرية داروين ص ١٣٤.

واحدة وهي التراب حيث بُل بالماء فصار طيناً فلما أنتن صار حمأً مسنوناً فلما جف صار صلصالاً ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً دون أن يمر بمرحلة الحشرات أو الفقاريات المزعومة.

ثم عقب هذا الشاب تقوية لما ذهب إليه، بقوله: ولو لزم القول بأنه يجب الاعتقاد بأن الإنسان خلقه الله تعالى من طين خلقاً مستقلاً مباشراً استناداً إلى ظواهر هذه الآيات، للزم القول استناداً إلى آيات أخرى في مستواها، بأنه يجب الإعتقاد بأن الله قد خلق الإنسان من الماء خلقاً مستقلاً مباشراً، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾[1].

قلت: أراد هذا الشاب أن يمهد بهذه المغالطة المكشوفة لتثبيت نظرية داروين اللعينة ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يذل الباطل وأهله وينصر الحق وأهله.

ونناقش هذا الشاب المسمى بالذكي والحقيقة أنه غبي ومغالط لأنه أخذ ببعض آيات الكتاب وترك البعض، فأقول: إن كان يظن هذا الجاهل أو المتجاهل أن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ دليل على بدء خلق آدم من ماء كما سوغ له فهمه وتخليطه، فنقول له: أين أنت من قول الله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[2] فالآية التي استدل بها وهي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ وما في معناها من الآيات قد جاءت هذه الآية فبينت المراد منها وأن المخلوق من الماء هو نسل الإنسان والنسل في اللغة هو الولد والذرية[3]، ولو كان المقصود

(١) الفرقان / ٥٤.
(٢) السجدة / ٧-٨.
(٣) مختار الصحاح ص٦٥٧.

آدم لبين إن بدء خلق الإنسان كان من ماء بل بين أن آدم الذي هو أصل الإنسان كان بدء خلقه من طين ، ثم صار نسله بعد ذلك من ماء. فبطل احتجاجه بهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ لأنها ليست في محل النزاع وهو خلق آدم عليه السلام بل في ذريته كما تقدم ، ولا أظنه يجهل ذلك بل يغالط ويخلِّط لكي يخدع الجاهل ولكن كما قيل: الحق أبلج والباطل لجلج، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[1] والذي يدل على أن الآية التي استدل بها ليست في حق آدم عليه السلام أيضاً بقية الآية وهي قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ فالنسب والصهر إنما هو الذكور والإناث في ذرية آدم كما ذكر المفسرون، وأما آدم عليه السلام فلا يوصف بذلك لأنه مخلوق مستقل بذاته لا ينسب إلى أب أو أم فكان في نفس الآية التي استدل بها رد عليه وصدق من قال إنه لا يستدل أحد على باطله بدليل إلا كان في دليله الذي استدل به رد عليه، والله تعالى أعلم.

ونعود مرة أخرى إلى الشاب المسمى بالذكي حيث يقول مدعماً رأيه أيضاً: ولو كان الأمر كما يقول الأخ المعترض للزم القول أيضاً بأن الله تعالى قد خلق الإنسان من علقه مباشرة ومن نطفة كذلك لأنه تعالى يقول: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[2] ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[3] ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾[4] فهذه الآيات أيضاً تدل على أن الله تعالى

(١) الأنبياء/ ١٨.
(٢) العلق / ٢.
(٣) الإنسان / ٢.
(٤) سورة يس / ٧٧.

قد خلق الإنسان من علقة ومن نطفة كما تدل تلك الآيات الأخرى على أن الله تعالى قد خلق الإنسان من طين.

فنقول له: أيها الشاب الجاهل المتجاهل المغالط قد أخطأت وخالفك الصواب كما في الآية السابقة لأن القرآن الكريم كما تقدم مبين بعضه بعضاً، وقد بين الله عز وجل في آيات أخرى أن الذي خلق من الطين هو آدم كما تقدم، وأن الذي خلق من ماء ومن نطفة ومن علقه هو نسل الإنسان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1] والمعلوم عند جميع العلماء أن القرار: هو رحم المرأة فأنتفى بذلك أن يكون المراد آدم لأنه خلق بدون أب و أم، ثم بين تعالى تطور خلق هذا الماء في ذلك القرار بحيث يصبح علقه ثم مضغه إلى آخر أطوار خلق الجنين فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2] والمراد بالنطفة هنا الماء الذي تقدم أن نسل الإنسان منه، حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[3]، وقال ابن منظور في مادة (نطف): والنطفة ماء الرجل والجمع نطف[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[5] فتبين بهذا أن الماء المذكور في الآيات السابقة

(١) المرسلات / ٢٠-٢٢.
(٢) المؤمنون / ١٢-١٤.
(٣) السجدة / ٨.
(٤) لسان العرب ٣/٦٦٢.
(٥) القيامة/ ٣٧- ٣٩.

هو النطفة ومنه تكون العلقة والمضغة وذلك في القرار المكين، وهذا لا يكون إلا في نسل الإنسان لأنه يتكون من التقاء الذكر بالأنثى والمعلوم عند جميع العلماء في القديم والحديث أن آدم عليه السلام خلق بدون أب و أم وإنما بقدرة الباري جل وعلا من تراب كما تقدم فتبين بهذا أنه لا يلزم من القول بأن نسل الإنسان خُلق من ماء ونطفة وعلقة.. إلى آخر المراحل التي يمر بها الجنين في بطن أمه أن يكون آدم خلق كذلك كما فهمه الشاب الغبي لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وقد بين سبحانه وتعالى أن الذي خلق من الماء والنطفة هو نسل الإنسان وليس آدم عليه السلام كما فهمه هذا الشاب الغبي المغالط المتجاهل ومن شاركه في ذلك الفهم السقيم، ولو أردنا أن نفهم القرآن مثل هذا الفهم السقيم لضربنا آيات الكتاب بعضها ببعض، فكيف يكون آدم عليه السلام خلق من طين بيد الله عز وجل بلا أب وأم ثم خلق في قرار مكين في ظلمات ثلاث في بطن الأم من ماء ثم نطفة ثم علقة؟! أبعد هذا الغباء غباء؟!

ونكمل ما نقله عن هذا الشاب حيث يقول: فهل إذا قرأت هذه الآيات العشر - مرة واحدة، هل ستجد في واحدة منها دليلاً خالصاً يجعلها - دون غيرها[1] من الآيات، تدل بمفهومها على أن الله تعالى قد خلق الإنسان خلقاً مستقلاً مباشراً من المادة التي جاء ذكرها فيها

(١) لماذا دون غيرها؟! فنحن نفهم القرآن كاملاً ولا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض بل نقرأه ونفهمه كاملاً كما أراد الله تعالى وبينه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

خاصة؟[1] إنه ليس في مقدور أحد أن يزعم هذا لأن ظواهر هذه الآيات في مستوى واحد[2] من حيث الدلالة ولفت النظر[3].

(١) والجواب على هذا السؤال الذي تضمن تلبيس الحق بالباطل والخلط والمغالطة والمداهنة لأعداء الله تعالى وأعداء رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقال كالآتي: نعم إن الآيات لا تدل واحدة منها على أن الله تعالى خلق الإنسان من هذه المادة التي ورد ذكرها فيها خاصة خلقاً مستقلاً مباشراً ولكن هذه الآيات التي أوردها هذا الجاهل الذي زعم أن واحدة منها لا تدل على أن الله تعالى خلق الإنسان من المادة المذكورة فيها خاصة لا تفهم على انفراد كل آية بل لا بد من فهمها مجتمعة ، فإذا قرأها القارئ مجتمعة فهم المراحل التي بينها الله تعالى وعرف مراحل خلق آدم عليه السلام وهي من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال ثم كان نفخ الروح دون أن يمر بمراحل داروين اللعين، وعرف كذلك مراحل خلق ذرية آدم وهي الماء المهين أي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظم، ثم اللحم، ثم بقية الخلق من نفخ الروح إلى أن يكتمل بشراً سوياً دون أن تمر بمراحل داروين أيضاً، وبهذا يتبين تخليط هذا الجاهل وتلبيسه وضربه كلام الله تعالى بعضه ببعض، ومما يرد عليه أيضاً أن كل آية من الآيات التي أوردها لو قرأها كاملة فضلا عن جميع الآيات لعلم المراد منها، ولكن العجب أن يأخذ من الآية أو الآيات بعضها ويترك بقية الآية أو الآيات التي فيها البيان، وهذا من عمل أهل الضلال الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض، قال الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر/ ٩٠-٩٣] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي الذين خالفوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتحالفوا على تكذيبهم وأذاهم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أي آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. تفسير ابن كثير ٢/٥٥٨. وقال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ آل عمران/ ٧. والله تعالى أعلم.

(٢) بل ليست في مستوى واحد، لأن بعضها في خلق آدم عليه السلام وهي التي ورد فيها ذكر التراب والطين والحمأ المسنون والصلصال، وبعضها في خلق ذريته وهي التي ورد فيها ذكر الماء والنطفة والعلقة والمضغة فهي ليست في مستوى واحد كما زعم هذا الجاهل، والتسوية بينها من الجهل المركب والتخليط والغباء وعدم الفهم، والله تعالى أعلم.

(٣) الإسلام ونظرية داروين ص ١٣٥.

فأقول لهذا الشاب: إنه لم يزعم أحد أن آدم عليه السلام خلق من التراب مباشرة دون أن يمر بمرحلة الطين، فالحمأ المسنون فالصلصال ولكن الجميع مراحل لمادة واحدة وهي التراب وليس فيها شيء من الحشرات والفقاريات والقردة التي زعمها داروين لعنه الله تعالى والتي يلمح لها هذا الشاب الغبي المغالط ومن سار على دربه من الجهلة والضالين.

وأقول لهذا الشاب أيضاً إن الله تعالى قد أنزل القرآن يفسر بعضه بعضاً فاقرأ بقية الآيات حتى تفهم مراد الله تعالى من الآيات التي ذكرتها ولا تكن من الذين يؤمنون بالبعض ويكفرون بالبعض الآخر، وحتى تفرق بين الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام والواردة في خلق ذريته.

ونعود تارة أخرى إلى صاحب الكتاب المذكور حيث أقر ما قاله الشاب منخدعاً به فقال[1] بعد كلام الشاب السابق آنفاً: اتضح بهذا يقيناً أن الدليل القاطع الذي لا يمكن صرفه عن ظاهره في تلك الآيات التي احتج بها الأخ المعترض - هو أن الله تعالى قد جعل الطين مصدر الإنسان، أما كون تلك الآيات تدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى قد خلق الإنسان من هذا الطين مباشرة، ودون أن يمر بأطوار أخرى[2] - فهذا مالا يفرض القول به ظاهر

(١) الإسلام ونظرية داروين، ص ١٣٥.

(٢) نعم مر بأطوار أخرى ولكنها ليست أطوار داروين المزعومة بل أطوار لنفس مادة التراب، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم كما تقدم، وهذا الكلام فيه تلبيس وتخليط ومغالطة من صاحب الكتاب المذكور، وقد تقدم الرد عليه.

تلك الآيات[1] - ثم قال معللاً لقوله هذا- والذي يجعلنا نقول هذا القول هو أن آيات أخرى -كما تقدم- يصرح ظاهرها بأن الله تعالى قد خلق الإنسان من ماء وخلقه من نطفة وخلقه من تراب، والتراب غير الطين.

فنقول له - كما تقدم - إن الله تعالى قد بين في آيات أخرى من الذي خلق من ماء - وهو نسل الإنسان - ومن الذي خلق من تراب، وهو آدم عليه السلام ونحن ملزمون بالأخذ بجميع آيات الكتاب لا ببعضها.

أما قوله: إن التراب غير الطين فهذا مما لا شك فيه لكنه من نفس المادة وليس حشرة كما زعم داروين وأتباعه وقد تقدم بيان ذلك في أطوار خلق آدم و أن الطين مرحلة تلي التراب بلا خلاف بين علماء اللغة العربية، وهذا فيه رد عليه من قوله لأن جميع هذه المراحل التي مر بها التراب لا يوجد فيها ما زعمه من مراحل الحشرات والفقاريات بإجماع أهل اللغة الذين تقدمت أقوالهم في تفسير معاني المراحل التي مر بها التراب والتي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم كما تقدم، والله سبحانه وتعالى سماه طيناً ولم يسمه حشرة وقرداً وكذلك بقية المراحل ذكرها الله سبحانه وتعالى ولم يسم أي مرحلة منها حشرةً أو قرداً فلا دليل لهذا الجاهل وأمثاله على مذهبه الباطل في التوقف ومجاراة أعداء الله تعالى وأعداء رسله عليهم الصلاة والسلام بل جميع الأدلة حجة عليهم أجمعين كما تقدم، بل إنه إذا زعم ذلك فقد كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى أهل اللغة العربية والله تعالى أعلم.

(١) تقدم الرد على أقوال صاحب الكتاب المذكور بما فيه الكفاية وإني لأعجب منه كيف خفيت عليه آيات القرآن الكريم التي فرقت بين خلق آدم وخلق ذريته وانخداعه بهذا الشاب الجاهل الذي سماه ذكياً وهو في الحقيقة غبي ومغالط والعجب أيضاً أنه تبعه في جهله وغبائه وتخليطه!! نسأل الله تعالى الثبات وأن يهدي كل من ضل عن الطريق المستقيم.

أما ما استدل به البعض على أن آدم عليه السلام خلق وترقى بقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1] فليس فيه دليل على ذلك سواء كان المراد بالإنسان بني آدم كما ذكر ابن كثير[2] في تفسيره،أو كان المراد بالانسان آدم عليه السلام كما ذكر الشوكاني في تفسيره [3] لأن قوله تعالى: ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إن كان المراد بالإنسان آدم عليه السلام (فالحين) المدة التي مر بها التراب من المراحل المذكورة سابقاً حتى نفخ فيه الروح، وإن كان المراد بالإنسان بني آدم فالمراد بالحين هي مدة الحمل في بطن الأم، فعلى كلا القولين ليس في الآية دليل على ما ذهب إليه من استدل بها على أطوار داروين اللعين لأنه ليس فيها أية مرحلة من مراحل الحشرات والفقاريات والقردة المزعومة سواء في أطوار خلق آدم عليه السلام أو في أطوار خلق ذريته، والله تعالى أعلم.

قال صاحب الكتاب المذكور مفترياً على الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه كان يقول بنظرية داروين، قال: إن بعضاً من علماء الإسلام قد روي عنه أنه كان يقول ذلك، فمثلاً الإمام الحسن البصري (وهو من كبار التابعين وقد ولد قبل أن يولد داروين بأكثر من ألف سنة روى عنه الإمام الفخر الرازي في تفسيره الشهير ج٣ ص ٥٣٢ عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أنه قال: (خلق الله تعالى كل الأشياء -ما يرى وما لا يرى- من دواب البحر في الأيام الستة التي

(١) الإنسان/ ١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٣.
(٣) فتح القدير ٥/٣٤٤.

خلق الله فيها السموات والأرض، وآخر ما خلق الله آدم عليه السلام)[1] هذا ما استدل به من كلام الحسن على أنه كان يقول بهذه النظرية الخبيثة، وقبل أن أناقش المؤلف المذكور فيما ادعاه كذباً وافتراءً على علم من علماء السلف المشهورين بسلامة العقيدة والمنهج وهو الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى، أقدم بين يدي مناقشته أمرين:

الأمر الأول: أن الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى من علماء السلف المشهورين بسلامة الإعتقاد والمنهج، وقد وثقه أهل العلم وأثنوا عليه بسلامة المنهج، وفي ذلك يقول الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي رحمه الله تعالى:

الحسن بن أبي الحسن يسار الإمام شيخ الإسلام أبو سعيد البصري، لازم الجهاد والعلم والعمل حافظ علامة من بحور العلم فقيه كبير الشأن عديم النظير مليح التذكير بليغ الموعظة رأس في أنواع الخير[2].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

الحسن بن يسار البصري ثقة فقيه فاضل مشهور من الطبقة الوسطى من التابعين مات سنة عشر ومائة وقد قارب التسعين[3].

الأمر الثاني: أن الطعن في علماء السلف والإفتراء عليهم من كبائر الذنوب المتوعد عليها: قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[5]

(١) الإسلام ونظرية داروين ص ١٣٨.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/٧١- رقم ٦٦.
(٣) تقريب التهذيب ص ٦٩.
(٤) النساء/ ١١٢.
(٥) الأحزاب/ ٥٨.

فإذا كان هذا في عامة المؤمنين فكيف بأهل العلم المتقدمين المشهود لهم بالصلاح والتقوى وحسن المنهج والاستقامة، ولذلك حذر السلف من النيل والطعن في علماء السلف.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في متن العقيدة الطحاوية:

وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، فهذا يدل على أن الطعن في علماء السلف من كبائر الذنوب فكيف بالافتراء والكذب عليهم، فكيف إذا كان ذلك في أمر يناقض الاسلام ويخرج عن دائرته (سبحانك هذا بهتان عظيم).

وأبدأ الآن بمناقشة صاحب الكتاب المذكور فيما افتراه من كذب وبهتان على الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى، فأقول وبالله تعالى أستعين:

إن ما ادعاه صاحب كتاب (الإسلام ونظرية داروين) وافتراه على الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى وأنه كان يقول بنظرية داروين كذب وباطل من وجوه:

الوجه الأول:

إنه بالرجوع إلى نص كلام الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى والذي نقله عنه الفخر الرازي صاحب كتاب التفسير الكبير عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ لم يظهر فيه شيء مما ادعاه وافتراه صاحب الكتاب المذكور، وأنا أذكر الآن نص عبارة

الفخر الرازي التي نقلها عن الحسن البصري وذلك ليظهر للقارئ الكريم كذب ما ادعاه.

قال الفخر الرازي: وقال الحسن: (خلق الله تعالى كل الأشياء -ما يرى وما لا يرى- من دواب البر والبحر في الأيام الستة التي خلق فيها السموات والأرض، وآخر ما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وهو قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[1].

فهذا نص كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى فلو أخذنا شطر كلامه الأول وهو قوله: (خلق الله تعالى كل الأشياء -ما يرى وما لا يرى- من دواب البر والبحر في الأيام الستة التي خلق فيها السموات والأرض) فهل يفهم من هذه العبارة أن لآدم عليه السلام شيئاً من ذكر فيها أو أن له شيئاً من الأطوار المزعومة التي مر بها! اللهم لا يفهم ذلك إلا عند الذين يُحمِّلون كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وكلام السلف ما لا يتحمله كذباً وبهتاناً وزوراً نبرأ إلى الله تعالى منه.

الوجه الثاني: أن المخلوقات الحية التي ورد ذكر خلقها في هذه الأيام الستة إنما هي من دواب البر والبحر، فلو كان آدم عليه السلام من بين هذه الدواب كما يزعمون ويفترون لما كان في قوله بعد ذلك: (وآخر ما خلق الله تعالى آدم) أي معنى وفائدة، بل كان ذلك الكلام من التناقض والعبث، فإن قيل: إن المراد بقوله: (وآخر ما خلق الله تعالى آدم) هو تمام الخلق لا أطواره الأولى التي مر بها وهذا قولهم، فالجواب أن كلمة (الخلق) تطلق على بداية الخلق إلى نهايته

(١) التفسير الكبير ٣٠/٢٣٥.

بجميع أطواره كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[2] إلى آخر الآية.. وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[3] فذكر جميع الأطوار وسماها خلقاً، فدل ذلك على أن المراد بقوله: (وآخر ما خلق الله تعالى آدم) أي بجميع أطواره التي مر بها خلقه وكانت في آخر الأيام الستة، وأما الفترة السابقة وهي ما قبل آخر الأيام الستة فإنه لم يكن فيها أي خلق لآدم ولا لأطواره التي مر بها، ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي أنه عليه السلام لم يكن له فيها قبل آخر الأيام الستة شيء من الذكر البتة لا له ولأطواره التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم كما قال الشوكاني رحمه الله تعالى إنه مضى عليه أزمنة لم يكن شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة كما قال مقاتل: كان خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيوان[4] ثم في آخر الأيام الستة خلقه الله تعالى بأطواره التي مر بها وهي الواردة في القرآن الكريم كما تقدم.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي بعد تصويره وقبل نفخ الروح فيه كما ذكر ذلك بعض أهل التفسير وأن معنى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي أنه صور من الطين وظل فترة قبل نفخ الروح فهو في هذه الفترة لم يكن شيئاً مذكوراً أيضاً وهذه الفترة من أولها إلى آخرها إنما كانت في آخر الأيام الستة المتقدم ذكرها، وعلى كلا القولين فإنه ليس للدارونيين ولا للمدافعين عن مذهبهم أي دليل فيها بل فيها رد عليهم،

---

(١) نوح/ ١٤.

(٢) الحج/ ٥.

(٣) السجدة/ ٧.

(٤) فتح القدير ٥/٣٤٤.

فبطل بذلك قول من زعم أن أطوار آدم كانت قبل آخر الأيام الستة وأنها من الدواب والحشرات كما زعموا كذباً وبهتاناً، ولو كانت أطوار آدم المزعومة قد خلقها الله تعالى قبل آخر الأيام الستة لورد ذلك في الكتاب والسنة لأن لفظ الخلق كما تقدم يطلق على الأطوار ويطلق على تمام الخلق، فكون صاحب الكتاب المذكور يلوي أعناق النصوص الواردة في خلق دواب البر والبحر ويجعلها في أطوار آدم المزعومة إن هذا لهو عين الكذب والإفتراء على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى علماء الإسلام.

الوجه الثالث: أن المعروف في اللغة والعرف وعند جميع المخاطبين أنه إذا قيل إن الله تعالى خلق كذا في يوم كذا فإنه يفهم من ذلك جميع الخلق لذلك المخلوق المشار إلى خلقه بأطواره وما يتعلق بها أو لبعض أطواره فلا ينصرف الذهن إلى أن الخلق هو مرحلة تمام الخلق فقط دون أطواره وإنما من بدايته إلى نهايته أو لبدايته بدليل أن الله تعالى لما أخبر عن بداية خلق الأرض قبل تمامه سماه خلقاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾[1] فأخبر سبحانه وتعالى أنه خلق الأرض في يومين وهذا في بداية خلق الأرض قبل تمامه وقبل دحوها، والشاهد أنه سماه خلقاً مع أنه لم يكتمل بعد، ولهذا قال عز وجل بعد ذلك مبيناً تمام خلقه للأرض﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال تعالى في آية أخرى ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[2] فكون الله عز وجل يخبر عن بداية

(١) فصلت/ ٩-١٠.

(٢) النازعات/ ٣٠-٣٢.

خلق الأرض ويسميه خلقاً هو كإخباره عن بداية خلق آدم وتسميته خلقاً كما قال عز وجل: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فلو كانت بداية خلق آدم وأطواره قبل آخر الأيام الستة لأخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك وبينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته؛ لأن الخلق إذا أطلق فإما أن يراد به من بدايته إلى نهايته بأطواره الواردة في الكتاب والسنة كما في خلق آدم عليه السلام الواردة في الآيات والأحاديث وأنه آخر المخلوقات، وإما أن يراد به بعض أطوار بدايته ، ولهذا فإن الله تعالى إذا بدأ خلق أي مخلوق في وقت ثم أتم خلقه في وقت آخر فإنه سبحانه وتعالى يذكره كما تقدم في الآيات الواردة في بداية خلق الأرض ونهايته.

وما دام أنه لم يرد في القرآن والسنة أي نص يدل على أن خلق آدم أو ابتداء خلقه كان قبل آخر الأيام الستة، فإن هذا خير دليل في الرد على كل من زعم أن أطوار خلق آدم كانت من الحشرات والدواب قبل آخر هذه الأيام، فنقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] ونقول لهم أيضاً: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[2].

وبهذا يتبين أن قول الإمام الحسن رحمه الله تعالى: (وآخر ما خلق الله تعالى آدم) أي أن بداية خلقه ونهايته كانت جميعها آخر الأيام الستة لا كما زعم أهل الباطل افتراءً أن بداية خلقه بأطواره الداروانية كانت قبل آخر الأيام

(١) البقرة/ ١١١.

(٢) سورة طه/ ٦١.

السنة واكتمال خلقه كان في آخر هذه الأيام فهذا قول باطل وتأويل كاذب وتخليط أعمى لا دليل عليه لا من الكتاب ولا من السنة، ولا من الآثار كما تقدم بيانه، والله تعالى أعلم.

الوجه الرابع: أنه قد ورد في السنة الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يشير إلى أن خلق آدم عليه السلام كان آخر المخلوقات، وهذا من أدلة أهل السنة والجماعة ومنهم الحسن البصري رحمه الله تعالى، فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بين أن خلق آدم عليه السلام كان آخر المخلوقات ولم يبين صلى الله عليه وآله وسلم أن لآدم أطواراً مر بها في أول زمان خلق المخلوقات فكيف يفتري هذا المذكور وأمثاله هذا الكذب الواضح ولم يبق له إلا أن يفتري على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمثل ما افترى على الحسن البصري رحمه الله تعالى والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[1] بالإضافة إلى تكذيب الله تعالى وتكذيب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ردة عن الإسلام إن وقع من شخص عالم بالنصوص قد بلغته الحجة، وزالت عنه الشبهة كما تقدم، فالمسألة خطيرة جداً لا كما يظنها هذا الجاهل .

والحديث الوارد في خلق آدم عليه السلام الدال على أن خلقه عليه السلام كان آخر المخلوقات هو ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (خير

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب العلم/ باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم رقم الحديث: ١١٠.

يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

أول الأيام يقال يوم الأحد، فإن فيه -على أصح القولين- ابتدأ الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما كما دل عليه القرآن والأحاديث الصحيحة، فإن القرآن أخبر في غير موضع: أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام. وقد ثبت في الحديث الصحيح أن آخر الخلق كان آدم، خُلق يوم الجمعة، وإذا كان آخر الخلق يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة[2].

قلت: ويستفاد من هذا الحديث الشريف ومن كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في شرحه أن آدم عليه السلام كان آخر المخلوقات ولم يرد فيه أن ابتدأ خلقه في الأيام الأولى ثم أكمل خلقه في يوم الجمعة كما ورد في خلق الأرض كما تقدم، وبهذا يتبين كذب كل من ادعى شيئاً من هذا القول الباطل وأن آدم عليه السلام ترقى من حشرات في أول الأيام إلى أن اكتمل خلقه في يوم الجمعة وهو آخر الأيام الستة، والله تعالى أعلم.

ويستفاد من هذا الحديث أيضاً ومن كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في شرحه الرد على أعداء الإسلام وكل من قال بقولهم من أن هذه المخلوقات وجدت قبل ملايين وبلايين السنين وأمثال هذا الهراء الفارغ الذي هو أقرب

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة/ باب فضل يوم الجمعة، مسلم بشرح النووي ٦/١٤١.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٧/٢٣٥.

إلى قول المجانين والذي ضحكوا به على سفهاء العقول بالإضافة إلى ما فيه من ادعاء علم الغيب والكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تقدم الرد على هذه الأقوال في أول هذا الكتاب عند الحديث عن خلق الأرض.

وبهذا يتبين أن كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى موافق للحديث الشريف وأن آدم عليه السلام خلق آخر المخلوقات، وليس فيه ما يدل على زعم من افترى عليه كذباً أن آدم ترقى من حشرات في أول الأيام الستة ثم اكتمل خلقه في آخرها أي في يوم الجمعة، وقد تقدم من الرد على المذكور ما يكفي لمن نوَّر الله تعالى بصيرته وأراد الحق، والله تعالى أعلم.

وأما بقية من نقل عنهم صاحب الكتاب المذكور ممن ينتسبون إلى العلم انتساباً الله أعلم بحقيقته فقولهم مردود عليهم وعلى من نقل عنهم لأنه لا قول لأحد كائناً من كان مع قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ (١).

والذي دفعني إلى الرد على صاحب الكتاب المذكور فيما افتراه على الحسن البصري رحمه الله تعالى لأن الإمام الحسن من علماء التابعين المشهود لهم بالخير والتقوى والصلاح كما تقدم بالإضافة إلى أن قوله ليس فيه أي دليل على زعم صاحب الكتاب المذكور فيما افتراه عليه بل قوله موافق للحديث

(١) الأحزاب/ ٣٦.

الصحيح المتقدم، وقد تقدم من الرد والتوضيح لتخليط المذكور ما يكفي، فليراجع في مكانه.

وأما بقية من نقل عنهم فهم ليسوا في منزلة الحسن رحمه الله تعالى، بالإضافة إلى أن أقوالهم التي ذكرها عنهم إن صح نقله عنهم فإن فيها إشارة واضحة إلى موافقة نظرية داروين بخلاف قول الحسن كما تقدم، ولكن ليست هذه الأقوال حجة بل هي مردودة عليهم ودالة على بعدهم وضلالهم عن الحق فنحن إنما نأخذ ديننا عن أئمة الهدى وسلف الأمة لا عن الضالين المضلين أو من وافقهم في أقوالهم ، ثم إن كثيراً منهم قد انتسب إلى الفلسفة التي هي أساس الضلال لجميع من ضل من الفرق المنتسبة إلى الإسلام كما ذكر أهل العلم، ولنأخذ على سبيل المثال (إخوان الصفا) وهم الذين ألفوا ما يسمى برسائل إخوان الصفا، وقد نقل عنهم صاحب الكتاب المذكور وسماهم بعلماء الإسلام، وأنا أذكر للقارئ حقيقتهم حتى لا يلتبس عليه تلبيس وتخليط المذكور.

قال الشيخ عامر بن عبد الله بن فالح تحت كلمة (إخوان الصفا) رسائل إخوان الصفا إحدى وخمسون رسالة، وهي أصل مذهب القرامطة المنتسبين إلى ميمون بن ديصان الذي نصب للمسلمين الحبائل، وكان يبطن المجوسية ويظهر الإسلام، وينسبون أيضاً إلى حمدان قرمط وكان من الصابئة الحرانية، وقد صنفت هذه الرسائل بعد المائة الثالثة في دولة بني بويه، ألفها فلاسفتهم على طريقة الفلسفة الخارجة عن مسلك الشريعة المطهرة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في (المنهاج) حتى إن طائفة من الناس يظنون أن (رسائل إخوان الصفا) مأخوذة عن جعفر الصادق وهذا من الكذب المعلوم، فإن جعفراً توفي سنة ١٤٨هـ ثمان وأربعين ومائة، وهذه الرسائل وضعت بعد ذلك بنحو مائتي سنة لما ظهرت دولة الإسماعيلية الباطنية الذي ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وعلى هذا الأمر وضعت هذه الرسائل[١] وقال شيخ الإسلام أيضاً: والقرامطة الباطنية ينكرون المعاد الجسماني ويقولون بالمعاد الروحاني فقط ومثلهم المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام وطائفة ممن ضاهوهم كأصحاب (رسائل إخوان الصفا) فهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان[٢].

قلت: فتبين من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كفر أصحاب إخوان الصفا وخروجهم عن دائرة الإسلام والمسلمين، فكيف يزعم صاحب الكتاب المذكور أنهم من المسلمين وأنهم من علماء الإسلام، ويستدل بأقوالهم ويلبس على القارئ هذا التلبيس العظيم الخطير، فأدعوه إن كان حياً أن يتوب إلى الله تعالى ويرجع عن هذا الضلال البعيد، وأما إن كان ميتاً فأمره إلى الله تعالى.

ومن العجب أن صاحب الكتاب المذكور يزعم أن اعتقاد هذه النظرية لا يؤثر على عقيدة المسلم، وفي ذلك يقول هداه الله تعالى:

نريد أن نؤكد للمؤمنين الذين يخشون على عقائد المسلمين أنه لا خطر على دين من استساغ عقله القول بنظرية داروين لدليل ترجح لديه فسلَّم به ما دام أنه يؤمن بأن كل ما ذكره داروين من أدوار التطور والإرتقاء قد تم

(١) معجم ألفاظ العقيدة ص ٢٧، ٣١٩.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣١٤/٤.

بقدرة الله تعالى[1].

ثم إنه نقل في حاشية هذه الصفحة قولاً للمدعو/ محمد فريد وجدي يماثل ويؤيد قوله المذكور بل إنه يحث علماء المسلمين ومرشديهم ألاَّ يعترضوا على من قال بهذه النظرية ولا يخرجوهم من دائرة الإسلام لعلها أن تتحقق في يوم من الأيام على حد زعمه، وعليهم أن يشاركوا أصحاب هذه الأقوال العصرية الضالة حتى لا يسقطوا ويسقط الدين الذي معهم على حد زعم هذا الجاهل الذي خدعته علوم من سماهم بالعصريين كحال صاحبه السابق الذكر.

فأقول: إن قول صاحب الكتاب المذكور وقول من نقل عنه في حاشية الصفحة نفسها باطل من وجوه:

الوجه الأول: أنه تقدم بطلان هذه النظرية بالأدلة الشرعية والعقلية والحسية.

الوجه الثاني: أنه لا يوجد أي دليل شرعي أو عقلي أو حسي يرجح القول بهذه النظرية الكفرية الإلحادية، ولو مكث صاحب هذا القول يبحث إلى قيام الساعة لما وجد هذا الدليل إلا قول من ضلَّ عن الطريق المستقيم، وأقوال هؤلاء ليست حجة ولا تعتبر دليلاً بل هي دليل على ضلال من نسبت إليه كما تقدم.

الوجه الثالث: أن زعم صاحب الكتاب المذكور وزعم من نقل عنه في الحاشية بأنه لا خطر على من قال بهذه النظرية على عقيدته ما دام يعتقد أن الله تعالى هو الذي خلق ذلك، فالجواب أن هذا زعم وقول باطل لا دليل عليه من النقل ولا من العقل وهذا يدل على فساده فكيف يقدم دليلاً باطلاً

(١) الإسلام ونظرية دارون ص ١٤٤.

مخالفاً للكتاب والسنة ويزعم أنه ترجح لديه وهل كل من ترجح عنده شيء زينه له الشيطان حتى رآه حسناً يقدمه على قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟!، فأمور الشريعة توقيفية لا مجال للرأي فيها وخاصة أمور العقيدة ولا اجتهاد مع النص وما دام أن الله تعالى قد نصَّ وبيَّن في كتابه الكريم الأطوار التي مرَّ بها خلق آدم فإنه لا مجال لقبول أي قول يعارض قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[1] وقد تقدم بيان الأدلة الشرعية الدالة على بطلان هذه النظرية ثم إن القول بأنه لا خطر على عقيدة من قال بهذه النظرية ما دام يعتقد أن الله تعالى هو الذي صنع ذلك، فالجواب عنه أن يقال: كيف يقال إنه لا خطر على عقيدة من اعتقد الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وكذَّب الله تعالى وكذَّب كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وكذَّب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وافترى الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ووافق الكفرة والملاحدة في أقوالهم فهل بعد هذا الضلال ضلال؟ وهل بعد هذا العمى عمى؟؟!! وأين ما يدل على أن الله تعالى ذكر هذه النظرية الإلحادية في كتابه الكريم أو النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته؟! فخلق آدم عليه السلام من أمور الغيب التي لا تؤخذ إلا عن الله تعالى أو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه يوحى إليه من ربه تبارك وتعالى ولا قول لأحد كائناً من كان

(١) النساء/ ١١٥.

بعد قول الله تعالى وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبهذا يتبين خطر القول بهذه النظرية وأنها من الكفر والإلحاد لا كما يظن هو ومن قال بقوله لأن القول بها تكذيب للقرآن والسنة، وهذا من الكفر الواضح والردة عن الإسلام وذلك لمخالفتها نصوص الكتاب والسنة الدالة على خلاف ما زعم أصحاب هذه النظرية كما تقدم، ولو زعموا أن ذلك بقدرة الله تعالى فهل كل من أقر بقدرة الله تعالى ثم كذبه وكذب كتابه ورسله عليهم الصلاة والسلام يعتبر مسلماً؟ فالجواب أنه لا يعتبر مسلماً لأنه نقض إيمانه بتكذيبه وكفره، وكيف تُثبت قدرة الله تعالى في أمر لم يثبته الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟! إن هذا هو محض الكذب والافتراء.

الوجه الرابع: أن قول المدعو/ محمد فريد وجدي فيه من التبجح والاستهتار بعلماء الإسلام ما فيه، ورميهم بالجهل وأن عليهم أن يشاركوا علماء الضلال فيما وصلوا إليه على حد زعمه الباطل من العلوم العصرية.

فأقول: إن الواضح من كلام المذكور يبين أنه قد انخدع بأقوال من سماهم بالعصريين والعجب أنه أدخلهم في مجموع الأمة، ولا أدري ما يعني بالأمة، فإن كان يعني أمة الاستجابة فإنهم لا يدخلون فيها؛ لأن كل من اعتقد هذه النظرية فهو كافر خارج عن الإسلام وليس من الأمة، وأما إن كان يعني أنهم أمة الدعوة فإنهم يدخلون في ذلك لكن لا حجة في أقوالهم لأنهم كسائر الكفرة والملاحدة الذين يُدْعَون إلى الدخول في الإسلام ويخاطبون بذلك.

الوجه الخامس: إن قوله: يجب على علماء المسلمين ومرشديهم ألاَّ يعترضوا على من قال بهذه النظرية ولا يخرجوهم عن دائرة الإسلام لعلها

أن تتحقق هذه النظرية في يوم من الأيام على حد زعمه الباطل، وعليهم أن يشاركوا هؤلاء العصريين حتى لا يسقطوا ويسقط الدين الذي معهم وأن عليهم أن يهدئوا من روعهم فلا ينكروا على الملاحدة وأذيالهم من القائلين بهذه النظرية المؤيدين لها أو المتوقفين في الحكم عليها، فالجواب عن هذه الأقوال الساقطة أن يقال له ولأمثاله: كيف تطلبون من علماء الإسلام السكوت على الباطل وعدم انكار المنكر والسكوت عن بيان الحق، فإن هذا من كبائر الذنوب لا سيما إن كان الأمر المسكوت عنه من الكفر الأكبر والإلحاد المخرج عن دائرة الإسلام كما في نظرية داروين اللعينة، فإنهم إذا فعلوا ذلك أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذاب شامل كما قال عز وجل: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[2] وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنَّ الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذابه)[3]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم)[4].

(١) المائدة/ ٧٨-٧٩. (٢) الأعراف/ ١٦٥.
(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال الألباني رحمه الله تعالى: صحيح، انظر صحيح سنن ابن ماجه ٢/٣٦٨ رقم/ ٣٢٣٦.
(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسنه الألباني رحمه الله تعالى/ صحيح سنن ابن ماجه ٢/٣٦٧ رقم/ ٣٢٣٥.

فدلت هذه الأحاديث على عظم أمر السكوت على المنكر وعدم إنكاره وأن ذلك من أسباب غضب الله تعالى ومقته فكيف يطلب هذا وأمثاله حلول غضب الله تعالى ومقته على الأمة الإسلامية والعياذ بالله تعالى، ثم إن قوله بعد ذلك: إن على علماء المسلمين أن يشاركوا العصريين في علومهم الضالة وأن يواكبوا هذه العلوم الباطلة حتى لا يسقطوا ويسقط دين الإسلام معهم قول باطل أعظم من سابقه، فنعوذ بالله تعالى من هذا الضلال وهذا العمى، فهل من اتبع دين الإسلام وما جاء في القرآن والسنة يسقط أم الذي خالف القرآن والسنة واتبع الكفرة والملاحدة وأقوالهم وتشبه بهم واستحسن آراءهم ونبذ كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وراء ظهره؟!.

فالجواب بلا شك أن الساقطين في الدنيا والآخرة هم المخالفون للكتاب والسنة ولدين الإسلام، والحق أن العمى كل العمى هو عمى البصائر لا عمى الأبصار، هو عمى القلب وانتكاسه وتنكبه عن الحق وعن الطريق المستقيم، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[2].

---

(١) الحج/ ٤٦.
(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه رقم/ ٥٢ ومسلم في البيوع في أخذ الحلال وترك الشبهات.

وهل دين الإسلام بحاجة إلى نظرية داروين اللعينة الرذيلة حتى لا يسقط، إنه لعلي عن هذه القاذورات الداورنية الإلحادية النتنة القذرة، إنه دين القرآن الذي أنزله الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجعل فيه الخير والنور إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2] إن الأولى بالسقوط كما تقدم كل من ابتعد عن هذا النور وانتكس في ظلمات الجهل والضلال والكفر والإلحاد والزندقة، وأما دين الإسلام فلا ولن يسقط أبداً، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[4] فدلت هذه الآيات على أن دين الإسلام باق إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ولن يسقط ولن ينطفئ نور الله تعالى أبداً ولو أراد الكفرة ذلك فهم الخاسرون وهم الساقطون، ومن انخدع بهم وبأقوالهم، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (لن يزال أمر هذه

---

(١) إبراهيم/ ١.
(٢) المائدة/ ١٥-١٦.
(٣) التوبة/ ٣٢-٣٣.
(٤) الحجر/ ٩.

الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة)[1] ففي هذه الأدلة وغيرها رد واضح على كل من زعم أن دين الإسلام يسقط كما زعم هذا وأمثاله.

وأما قوله: لعلها أن تتحق هذه النظرية في يوم من الأيام، فالجواب أن هذه النظرية لن تتحق أبداً ولا تتحق إلا عند من تبع آراء الملاحدة وزبالة أفكارهم وهذا التحقق إنما هو سراب لا حقيقة له، وظلمات بعضها فوق بعض كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2].

وأما قوله: إن كل ما ورد في القرآن في خلق آدم عليه السلام يمكن صرفه عن ظاهره على مقتضى أسلوب القرآن نفسه فقول باطل مردود على صاحبه وظلمات بعضها فوق بعض فنقول له: ومن أنت حتى تصرف القرآن عن ظاهره إلى آراء الملاحدة والضلال والجهلة؟! ومن أين لك هذا القول وأن أسلوب القرآن دل على صرفه عن ظاهره؟! فليس للقرآن إلا ظاهر فقط خاطبنا الله تعالى به بلغة العرب التي نفهمها كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الإعتصام باب/ ١٠ رقم الحديث ٧٣١٢.
(٢) النور/ ٣٩-٤٠.

ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2] وأما من زعم أن للقرآن ظاهراً وباطناً فهذا هو قول الباطنية الملاحدة الذين يلوون أعناق النصوص القرآنية كما تمليه عليهم شياطين الإنس والجن، فالقرآن لا يفهم إلا كما فهمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبينه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] فالذي بيَّن القرآن هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا أصحاب الأهواء الجهلة الضالون المضلون الذين يفرقون بين آيات القرآن الكريم ولا يفهمون آياته مجتمعة كما أراد الله تعالى وبينها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم، فهل في بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم للآيات الواردة في خلق آدم شيء من هذا الضلال الدارويني؟!!! اللهم لا، ونبرأ إلى الله تعالى من هذا الكذب والبهتان، وقد تقدم الرد على ذلك بما فيه الكفاية.

وبهذا القدر أكتفي في الرد على من قال بنظرية داروين، أو توقف في الحكم عليها بالفساد والبطلان، والله تعالى أعلم.

وبعد أن تكلمت حول أصل الإنسان أتكلم عن نسل الإنسان وما يمر به من مراحل في بطن أمه ثم في دار الدنيا وما في ذلك من عظيم الآيات الدالة على الخالق عز وجل، وعلى توحيده.

---

(١) الشعراء/ ١٩٢-١٩٥.
(٢) الزخرف/ ٣.
(٣) النحل/ ٤٤.

الفصل الثاني
في الحديث عن خلق نسل الإنسان وما يمر به من أطوار

إن الحديث عن تناسل الإنسان أو نسل الإنسان أو نسل آدم وذريته عليه السلام وما يمر به من أطوار حديث شيق لأنه يتناول موضوع خلق الجنين في بطن أمه ومراحل تكوينه، والنفس تتوق إلى معرفة شيء عن خلقها ونشأتها الأولى قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[1].

في هذه الآيات المباركات يخبر الله سبحانه وتعالى عن عظيم قدرته في خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً يذكر، ويتحدى سبحانه وتعالى الكفرة المكذبين المنكرين للبعث بعد الموت بأنه هو الذي خلقهم سواء آمنوا بذلك أم كفروا وبأنه هو الذي سوف يميتهم ثم هو الذي يبعثهم من قبورهم بعد ذلك، وبأن مرجعهم إليه لا إلى أحد سواه سواء آمنوا بذلك أم كفروا ثم يجازيهم بما قدمتم أيديهم.

وهذا الفصل يشتمل على عدة مباحث:-

(١) الواقعة / ٥٧-٦٢ .

المبحث الأول
الحكمة في خلق الزوجين الذكر والأنثى

إن في خلق الزوجين الذكر والأنثى حكماً كثيرة ومنها ما لا يعلمه إلا الله جل وعلا وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات في ذلك فمنها قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[4].

هذه الآيات الكريمات تفيد أن الحق سبحانه وتعالى خلق من كل نوع من المخلوقات زوجين ذكراً وأنثى وفي هذا بيان بأن الوحدانية له عز وجل، وهو خير دليل يستدل به من مخلوقات الله تعالى على وحدانيته وإن كان هناك بعض من المخلوقات ظاهرها أنها نوع واحد ولكنها في حقيقة أمرها زوجان كما هو الحال في بعض الطفيليات والحشرات والنباتات، ويؤكد هذا قول الله عز وجل: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾فهذه الآية عامة في كل شئ وعلم الله تعالى أوسع من علم أي مخلوق ، فحيث أخبر سبحانه وتعالى خبراً فهو الحق الذي لا تردد في قبوله، وفي كل يوم يتوصل العلم إلى اكتشاف أشياء تبين صدق ما جاء به القرآن العظيم وما جاء به سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) سورة يسٓ / ٣٦ .
(٢) النجم / ٤٥-٤٦.
(٣) الذاريات / ٤٩.
(٤) الرعد / ٣.

وفي خلق الزوجين من الحكم العظيمة التي لا يعلمها إلا الخالق جلا وعلا فمنها: حصول المودة والأنس، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]، وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه الآية في مجال تعداد نعمة العظيمة الكثيرة على خلقه، ومن بين تلك النعم أن جعل في كل من الزوجين حاجة خلقية إلى الآخر أي أن في كل منهما حاجة لا تتم إلا بزواجه والتقائه بالآخر ولولا ذلك لما احتاج كل منهما للآخر، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾[2] أي ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته ووحدانيته، أن خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ولو كانت من غير جنسكم لما حصل الود المطلوب، ثم قال تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[3] وفي لفظ السكن من المعاني التي لا توجد في غيره وهذا يبين ما للقرآن الكريم من أسلوب بلاغي رفيع المستوى، ففى لفظ السكن معنى الراحة النفسية والبدنية بكل أنواعها فالإنسان الذي لا يؤويه سكن لا يرتاح ضميره ولا تهدأ نفسه فتراه مشتت الذهن كئيب الوجه حزين الخاطر لأنه فقد الراحة النفسية والبدنية فالحق سبحانه وتعالى شبه الزوجة بالسكن الذي يسكنه الإنسان، والحقيقة أنها سكن، فهي سكن للنفس أن تتطلع إلى الحرام، والسكن مأخوذ من السكون وهو الهدوء وعدم الضجيج.

---

(١) الروم / ٢١.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٢٩.
(٣) الأعراف / ١٨٩ .

قال في لسان العرب[1]: وكل ما هدأ فقد سكن كالريح، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[2].

إذا تبين هذا علم ما للزوجة من راحة للزوج فهي تعينه على متاعب الحياة حيث تهيئ له المطعم والمشرب، وتحفظ سره إذا غاب عنها وترعى ولده وتربيه التربية الحسنة وهي تقاسمه همومه وأفراحه، إلى غير ذلك، ولو قدر أن عاش الإنسان بلا زوجة فهو كمن لا سكن له، فلذلك اقتضت حكمة الخالق جل وعلا إيجاد الزوجة للزوج، وليس هذا مقتصراً على الإنسان، بل نراه في كل خلق الله سبحانه وتعالى، فترى الطير زوجين كل منهما متعاون مع الآخر في الرقود على البيض وجلب الطعام لصغارهما، والمحافظة عليها من الأعداء بالإضافة إلى ما جعل بينهما من الود والحب، وهكذا في الحيوانات أيضاً، حتى في النبات نرى الزوجية قائمة فلقاح الذكر ضروري للأنثى حتى تنتج الثمرة الجيدة، وهذا معلوم في علم النبات وقد تقدم بعضه عند الحديث عن النبات[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾: أي جميع المخلوقات أزواج سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، بر وبحر، ضياء وظلام، موت وحياة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له[4].

---

(١) لسان العرب ٢/١٧٣
(٢) الأنعام /١٣ .
(٣) تقدم ذلك في الفصل الرابع من / الباب الثالث.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/٢٣٧ .

ومن حكم الزوجية أيضاً: حصول التعاون والمساعدة بين الزوجين فالزوج قوام على المرأة ومسؤول عنها وعن أبنائه وتنشأتهم النشأة الإسلامية وحمايتهم وجلب القوت لهم، أما المرأة فهي أيضاً مسؤولة عن بيت زوجها وأبنائها كذلك بأن تربيهم التربية الإسلامية أيضاً وتهيئة أسباب الراحة لزوجها، ومعاونته، ومن حكم الزوجية أيضاً حصول الولد والنسل الذي به يكون الخير والنعمة قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2] فبالولد يكثر النسل وتكثر المجتمعات ويدوم النسل، وبه تكون المعاونة والمساعدة للأبوين، وقد اقتضت الحكمة أن يكون النسل من بين الزوجين ليكون أقرب إلى الألفة والمودة، حيث يكثر عدد الأسرة، وحيث يجد الإبن الحنان من كلا الطرفين، فينشأ نشأة حسنة مليئة بالراحة النفسية والاطمئنان.

والحكم في خلق الأزواج كثيرة، ونكتفي بما تقدم منها لننتقل إلى الحديث عن الحكمة في خلق نسل الإنسان من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾.

---

(١) النحل / ٧٢ .

(٢) الكهف / ٤٦ .

المبحث الثاني
الحكمة في خلق نسل الإنسان من ماء مهين

لقد ورد في كتاب الله تعالى آيات بينت أن نسل الإنسان من ماء مهين فمن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[1].

فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه أحسن كل خلق خلقه وأبدع فيه أيما إبداع، وجمَّله وحسَّنه غاية التحسين ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[2] ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[4].

فهذه الآيات المباركات بينت الدقة في الخلق والغاية في الإبداع وقد عمَّم سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ الحسن والإبداع في كل الخلق من الذرة إلى أكبر مخلوق، ثم شرع سبحانه وتعالى في بيان كيفية خلق الإنسان، وخص الإنسان دون غيره لكرمه وشرفه لأنه خلقه وسواه بيده ونفخ فيه من روحه، فبين تعالى بدء خلق الإنسان والمادة الأولى التي خلق منها الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وقد تقدم الكلام حول هذا الموضوع.

ثم بين تعالى خلق نسل الإنسان: أي ولده، وذكر المادة التي خلق منها هذا النسل، وهي الماء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ والسلالة: هي ما أنسل: أي خرج، وسمى بذلك لأن هذا الماء إنسل من

---

(١) السجدة / ٧-٨.

(٢) الملك / ٣.

(٣) سورة طه / ٥٠.

(٤) الأعلى / ١-٣.

الإنسان: أي خرج منه، وهو من بين الذكر والأنثى كما قال تعالى في آية أخرى ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾[1] وقد ذكر علماء التفسير أن الصلب: عظام ظهر الرجل، والترائب: عظام صدر المرأة[2]، وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: والنطفة الأمشاج: هي ما اختلط من ماء الرجل والمرأة[4]، وقد اقتضت حكمة الباري جل وعلا أن يكون نسل الإنسان على هذا النحو -أي من ماء مهين- حتى يعلم الإنسان أنه خلق من مادة حقيرة، فيؤمن بخالقه ويخافه ولا يعصيه ولا يستكبر عن أوامره ونواهيه، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[5].

فذكر تعالى في هذه الآية حال الإنسان الكافر الجاحد لخالقه المنكر له وبين أن هذا الإنسان نسى خلقه الأول من هذا الماء المهين الحقير، حيث قال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهي الماء القليل الحقير، ثم بعد أن اكتمل خلقه تكبر على خالقه ونسى ربه وأنكر البعث ومعاد الأجساد.

(١) الطارق / ٥-٧ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٩٨، فتح القدير ٥/٤١٩ .
(٣) الإنسان /٢.
(٤) انظر / تفسير ابن كثير ٤/٤٥٣ .
(٥) سورة يس / ٧٧-٧٩.

فبين تعالى أن الذي خلقه من هذا الماء الحقير، هو القادر على إعادته بعد موته، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[١]، ففي هذه الآية ذم سبحانه الإنسان الكافر، وطرده من رحمته ولعنه وأبعده وبين أنه كفر بالله كفراً عظيماً حيث قال تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ : أي ما أشد كفره، حيث إنه نسي ربه الذي أوجده من هذا الماء الحقير ثم إنه خلقه في بطن أمه ثم أخرجه من ذلك المخرج الحقير، ثم هو بعد ذلك يكفر بالله عز وجل، ويتخذ له شركاء وأنداداً، فهو إذن مستحق للعن والطرد والإبعاد من رحمته سبحانه وتعالى.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث بيِّن هذا المعنى، فقد أخرج ابن ماجه رحمه الله تعالى بسنده إلى بسر بن جحاش القرشي رضي الله تعالى عنه قال: بزق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كفه ثم وضع أصبعه السبابة وقال: (يقول الله عز وجل: أنى تعجزني ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه، فإذا بلغت نفسك هذه، (وأشار إلى حلقه) قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟)[٢].

فقد ذكر صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث عن ربه تبارك وتعالى بيان حقيقة المادة التي خلق منها الإنسان، وحقارتها، فكيف يليق بمن هذا منشأه أن يتكبر ويعصى خالقه؟!.

---

(١) عبس/ ١٧-٢٢.
(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن / كتاب الوصايا باب/ النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت، وقال الألباني رحمه الله تعالى حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجه ٢/١١٠ رقم ٢١٨٨ - ٢٧٠٧.

المبحث الثالث

في الحديث عن ماء الرجل ودوره في تناسل الإنسان

إن في هذا الماء المهين الذي خلق منه ومن ماء المرأة نسل الإنسان بياناً لقدرة الباري جل جلاله وعظيم سلطانه، حيث أودع فيه سر الحياة، هذا السر العظيم الذي لم يكن معروفاً في السابق وإنما اكتشفه الإنسان بعد أن منَّ الله تعالى عليه باختراع تلك الآلات الحديثة المكبرة، والتي كبرت تلك القطرة منه أضعاف ما كانت عليه، حتى ظهرت على حقيقتها.

ونحن نورد بعض ما توصل إليه العلم الحديث في هذا المجال وكيف اهتدى إلى ذلك بقدرة الله تعالى.

والحقيقة أن هذا الموضوع موضوع شيق حيث يرى الإنسان بعينه وقلبه حقيقته التي خلق منها فيخضع لجبار السموات والأرض سبحانه وتعالى ويعلم حقارة نفسه وضعفها وعظمة خالقه عز وجل.

ذكر الدكتور صبري القباني: أن أول من اكتشف وجود حيوانات ذات حركة في منيِّ الرجل هو - لوفن هواك - في عام ١٦٦٧م، فقال: إن هذا الرجل كان هولندي الجنسية، وكان تاجر أقمشة، لكنه كان مولعاً بنحت العدسات الكبيرة وتسليطها على مختلف المرئيات، فلا يترك قطرة ماء أو هامة من الهوام أو حشرة من الحشرات إلا ووضعها تحت عدساته الكبيرة وراح يتفحصها ويمعن النظر فيها، ويسجل في دفتره ما يرى من حركاتها وسكونها وعوالمها، وحدا به فضوله العلمي إلى تنكب كل عرف وتقليد في عصره، والمبادرة إلى أخذ قطرة من مائه المنوي وفحصها تحت عدساته المكبرة تلك، بدافع الفضول الذي يتسم به الباحثون، ويدفعهم إلى الاستزادة، من التحقيق

والتدقيق والملاحظة لاستكناه أسرار المجهول في هذه الحياة.

وقد راع -هواك- أن رأى أثناء فحصه، ملايين من الحيوانات المتناهية في الصغر، سريعة الحركة لا تهدأ ولا تستقر، ولم يتغير المنظر رغم تكرار التجارب، وتعدد الفحوص، فكتب إذ ذاك إلى الجمعية الطبية الملكية في لندن يخبر أعضاءها بنبأ اكتشافه العظيم ولكنه أغفل الإشارة إلى دور هذه الحيوانات في تكوين الطفل لجهله به، حتى جاء بعده باحث آخر فبين ذلك، ومنذ ذلك الحين عرفت العناصر اللازمة لتكوين الطفل، وفهمت الغاية من التزاوج والجماع والتناسل[1] .

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في القرآن الكريم قبل فترة من الزمن وبين أن الإنسان خلق من نطفه الرجل والمرأة، حيث يقول الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾[2] والمني هو: ماء الرجل والمرأة باتفاق العلماء، أي أن القرآن الكريم بين أن الإنسان خلق من مني الرجل والمرأة إذا اختلطا كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ .

وقد أطْلَع الله جل وعلا الإنسان في هذه العصور الحديثة على بعض الأسرار العجيبة في ماء الرجل والمرأة وذلك بما امتن به عليه من اختراعه لتلك الأجهزة ولولا ذلك الامتنان لما توصل إلى تلك المعرفة العجيبة كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ

(١) أطفال تحت الطلب / الدكتور صبري القباني / ص٣٣.
(٢) القيامة / ٣٦-٣٧.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي سنظهر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بدلائل خارجية ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، قال مجاهد والحسن والسدي ودلائل في أنفسهم، قالوا وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم ، نصر الله تعالى فيها محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى[2].

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قال عطاء: أي أقطار السماوات والأرض ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي من لطيف الصنعة وبديع الحكمة[3].

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي كفى بالله شهيداً على أن القرآن حق ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم حق وكفى به شهيداً على أفعال عباده عالماً بمن أطاعه وبمن عصاه، فيجازي كلاً بما عمل، وكفى به عالماً بمن لم ينتفع من هذه الآيات التي رآها بعينه في الآفاق والأنفس، بل مر عليها دون أن يتعظ بها كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾[4]، فهو سبحانه وتعالى العالم

(١) فصلت / ٥٣-٥٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٠٥.
(٣) فتح القدير ٤/٥٢٣.
(٤) يوسف/ ١٠٥.

بكل حاضر وغائب الشهيد على كل شي، ثم ذكر تعالى غرور الإنسان الملحد والكافر وأنه لو اطلع على تلك الآيات العجيبة، التي لا يشك صاحب عقل بأن لها خالقاً وإلهاً واحداً لا شريك له فإن ذلك لا يزيده إيماناً، بل يكون ذلك حجة عليه فهو كالأنعام بل أضل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

فلذلك هم في شكوك وظنون لا تنتهي، قال تعالى عنهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي هم في شك دائم لا ينتهي حتى الموت، وهناك لا تنفع الندامة، فهم في شك من البعث والدار الآخرة فلذلك لا يعملون لها ولا يحذرون ولا يخافون من أهوالها بل همهم هذه الدار الفانية، ثم بين تعالى إحاطة علمه وقدرته بكل المخلوقات فهي كلها تحت قهره وفي قبضته فلا يفلت أحد من قبضته ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء وسوف يجازيهم على هذا الشك والشرك والكفر والإلحاد، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2]، وأن المصير والمرجع إليه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[3]،﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[4]، أي أن مصيرك في النهاية إلى خالقك ومنشئك وسوف يجازيك على عملك إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(١) الأعراف / ١٧٩.
(٢) يونس / ٦١.
(٣) النجم/ ٤٢.
(٤) الإنشقاق/ ٦.

المبحث الرابع
علاقة ماء الرجل والمرأة بتحديد نوع الجنين
ذكراً كان أو أنثى وتحديد الشبه لأحدهما بقدرة الله تعالى

إن الحديث عن هذه الأمور لا يتم إلا عن طريق الوحي لأنها من الأمور الغيبية المتعلقة بأمور الخلق، وهذه الأمور لا تعلم إلا عن طريق الوحي الذي أوحاه الخالق سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد دلت أدلة الكتاب والسنة على أن الجنين يتكون من مني الرجل والمرأة بعد اختلاطهما في الرحم، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[3] وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[4].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن

---

(١) النجم /٤٥-٤٦.
(٢) القيامة /٣٦-٣٩.
(٣) الإنسان /٢.
(٤) الطارق /٥-٧.

﴿نُّطْفَةٍ﴾[1] المراد بالنطفة في هذه الآية الكريمة نطفة المني وهي مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة خلافاً لمن زعم أنها من ماء الرجل وحده[2].

وقال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي ألم يك ماءً قليلاً في صلب الرجل وترائب المرأة؟[3].

فدلت هذه الآيات المباركات على أن الإنسان ذكراً كان أو أنثى إنما يتكون من مني الرجل والمرأة وأن الذكورة والأنوثة ليست مختصة بماء الرجل وحده كما زعم من زعم من المعاصرين، وقد دل على ذلك وأن لماء المرأة والرجل كليهما تأثيراً على الجنين من ناحية الذكورة والأنوثة ما رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يهودياً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مسائل فيها مسألة عن الولد، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله تعالى وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله تعالى)، قال اليهودي: صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لقد سألني هذا عن الذي سألني ومالي علم بشيء منه حتى أتاني الله به)[4].

---

(١) الحج /٥.
(٢) أضواء البيان ٥/٢١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١١٧.
(٤) رواه مسلم في كتاب الحيض، باب صفة مني الرجل والمرأة / مسلم بشرح النووي ٣/٢٢٧.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى (أذكرا) كان الولد ذكراً، و(آنثا) كان الولد أنثى[1].

فدل هذا الحديث الشريف دلالة واضحة على أن الذكورة والأنوثة لها علاقة واضحة بكل من مني الرجل ومني المرأة، والله تعالى أعلم.

وأما عن علاقة مني الرجل ومني المرأة بتحديد الشبه في الجنين لأحد من الأبوين فقد دل على ذلك ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس رضي الله تعالى عنه أن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه بلغه مقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فأتاه يسأله عن أشياء فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: (أخبرني به جبريل آنفاً) قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: (أمَّا أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأمَّا الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد) قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: يا رسول الله! إنَّ اليهود قوم بهت فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟) قالوا: خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟) قالوا:

---

(١) مسلم بشرح النووي ٣/٢٢٧.

أعاذه الله تعالى من ذلك: فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: شرنا وابن شرنا ونقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[١].

وفي رواية أخرى عند البخاري رحمه الله تعالى: (وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها[٢].

وروى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن أم سُليم رضي الله تعالى عنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا رأت ذلك المرأة فلتغتسل) فقالت: أم سلمة: واستحييت من ذلك، قالت: وهل يكون هذا؟ فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: (نعم فمن أين يكون الشبه؟ إن ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه).

وفي رواية أخرى عند مسلم رحمه الله تعالى أيضاً عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: جاءت أم سُليم رضي الله تعالى عنها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله: إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (نعم إذا رأت الماء) فقالت أم سلمة رضي الله تعالى عنها: يا رسول الله وتحتلم المرأة؟

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار باب/ ٥١ حديث رقم: ٣٩٣٨.
(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب/ أحاديث الأنبياء باب (١) خلق آدم وذريته رقم: ٣٣٢٩.

فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم: (تربت يداك فبم يشبهها ولدها)[1].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: يجوز أن يكون المراد بالعلو هنا السبق، ويجوز أن يكون المراد الكثرة والقوة بحسب كثرة الشهوة[2].

قلت: دلت هذه الأحاديث الشريفة على أن الرجل إذا سبق المرأة بقضاء شهوته وخروج منيه قبلها كان الشبه له، وأن المرأة إذا سبقت الرجل بقضاء شهوتها وخروج منيها قبله كان الشبه لها، وهذا شيء ملاحظ ومشاهد ومعروف وهو عَلَم ومعجزة ودلالة صادقة من دلالات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدق رسالته فداه نفسي وأبي وأمي عليه الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بعد أن ذكر الأحاديث السابقة الدالة على تحديد الشبه والذكورة والأنوثة: فهذه الأحاديث تدل على أن الولد يخلق من الماءين، وإن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره للآخر وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له، وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحي، وهذا يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث، والله تعالى أعلم[3].

(١) رواه مسلم في كتاب الحيض/ باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، مسلم بشرح النووي ٣/ ٢٢٣، ورواه البخاري أيضاً في كتاب العلم/ باب الحياء في العلم رقم الحديث: ١٣٠، وفي كتاب الغسل/ باب إذا احتلمت المرأة رقم الحديث: ٢٨٢.

(٢) مسلم بشرح النووي ٣/٢٢٣.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/٢٥٩.

المبحث الخامس
في أطوار الجنين في رحم أمه

ويتناول هذا المبحث الحديث عن التقاء ماء الرجل بماء المرأة وتكون الجنين من تلك النطفة الأمشاج ثم تتابع أطوار الخلق إلى إكتمال الجنين ثم الولادة.

وأبدأ الحديث أولاً عن ماء المرأة لأن الكلام حول ماء الرجل قد تقدم بما فيه الكفاية.

فأقول: إن ماء المرأة حقيقة لا شك فيها، وإن كان البعض ينكر أو يستبعد أن يكون للمرأة ماء، ويثبت هذه الحقيقة ويوضحها حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك حيث بين صلى الله عليه وآله وسلم أن للمرأة ماء كما للرجل، وأن الجنين يتكون من ماء الرجل والمرأة معاً، وهو صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق إلا بالحق كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1]، وحيث ورد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مسألة ما فهو المقدم على كل ما سواه من الأقوال، وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المسألة ما أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها (أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء، فقال: نعم، فقالت لها عائشة رضي الله تعالى عنها تربت يداك وأُلَّت[2]، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) النجم /٣-٤.

(٢) أُلَّت : أي طعنت بالألَّه بفتح الهمزة وتشديد اللام هي الحربة العريضة النصل ، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام المبارك بن محمد الجزرى ، ٦١/١، وانظر مسلم بشرح النووي ٢٢٥/٣.

وآله وسلم: دعيها وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك، إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه)[1]، فقد بين صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث الشريف أن للمرأة ماء مثل ماء الرجل إلا أنه يختلف عنه في الصفة كما ورد ذلك في رواية أخرى لهذا الحديث عند مسلم رحمه الله تعالى أيضاً حيث جاء فيها: (فمِن أين يكون الشبه، إن ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه؟)[2].

فبينت هذه الرواية صفة ماء المرأة وأوضحت ذلك، كما بينت دور هذا الماء في تكوين الشبه في الجنين، وفي هذا رد على من زعم أن ماء المرأة الذي يكون عند الجماع ليس له علاقة بتكوين الجنين، كما زعم ذلك الدكتور محمد على البار، وأمثاله، وأذكر ما قاله في ذلك في كتابه (خلق الإنسان)، حيث قال وهو يتكلم عن ماء المرأة ما نصه (وخروج الماء من فرج المرأة أمر

(١) الحديث / أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحيض / باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها ، مسلم بشرح النووى ٣/٢٢٥، وقد تقدم هذا الحديث في المبحث الرابع وأن هذه المرأة السائلة هي أم سُليم رضي الله تعالى عنها، قال النووي رحمه الله تعالى: هي أم أنس بن مالك الأنصارية رضي الله تعالى عنهما، واختلفوا في اسمها فقيل: سهلة، وقيل: مليكة، وقيل: رميثة، وقيل: أنيفة، ويقال: الرميضا والغميصا، وكانت من فاضلات الصحابيات ومشهوراتهن، وهي أخت أم حرام بنت ملحان رضي الله تعالى عنهما، والله تعالى أعلم. مسلم بشرح النووي ٣/٢٢٠.

(٢) هذه الرواية رواها مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الحيض / باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها ، مسلم بشرح النووي ٣/٢٢٢، وقد تقدم الحديث في المبحث السابق.

طبيعي عند الجماع أو الاحتلام، وهو موجب للغسل، كما وضح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصحابية الجليلة أم سُليم التي لم يمنعها الحياء أن تسأل هذا السؤال الواضح الصريح، وقد أوضحنا أن هذا الماء لا علاقة له بتكوين الجنين لأن الجنين إنما يتكون من الحيوان المنوي للرجل وبويضة المرأة)[1] انتهى كلامه.

قلت: إن نفي علاقة هذا الماء -الخارج بالاحتلام أو الجماع- بتكوين الجنين نفياً عاماً لا دليل عليه بل هو مناقض لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -أي حديث أم سُليم الأنصارية رضي الله تعالى عنها المتقدم والذي ذُكر فيه بكل وضوح أن هذا الماء له دور كبير في تكوين شبه الجنين لأمه إن علا وسبق ماء الرجل، ولو كان قصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بماء المرأة الذي يكون منه الشبه لها هو ذلك الماء الذي يخرج مرة واحدة في الشهر بخروج البيضة من المبيض، لما كان في تعقيبه صلى الله عليه وآله وسلم على هذا الماء المسؤول عنه معنى، لأن أم سُليم رضي الله تعالى عنها إنما سألته عن الماء الذي تراه عند الإحتلام والإحتلام لا يكون مرة واحدة في الشهر، بل لا يلتزم بوقت، فبين لها صلى الله عليه وآله وسلم ولعائشة رضي الله تعالى عنهما أن من هذا الماء يكون الشبة للمرأة إن سبق ماء الرجل، فإن قيل إن هذا الماء لا يحمل البيضة التي يلقحها حيوان الرجل، فكيف يتم الخلق؟

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٥٥.

قيل: إن هذا الماء له علاقة فقط في تكوين الشبة للمرأة، أما الماء الآخر الذي يحمل البويضة فهو الذي يتكون منه الجنين ابتداءً مع ماء الرجل وأما الذي يحدد الشبه في الجنين فهو الماء الحاصل من الجماع عند المرأة أو الرجل، فإن أنزلت المرأة وسبق ماؤها ماء الرجل كان الشبه لها، وإن لم تنزل ولم يسبق ماؤها ماء الرجل كان الشبه له، فتبين أن للمرأة ماءين، ماء يحمل البويضة التي يتكون منها الجنين، وماء ينزل عند الجماع يتكون منه الشبه للمرأة فإن لم تنزل لم يحصل الشبه لها وكان خلق الجنين من ماء الرجل ومائها الذي يحمل البيضة وكان الشبه له وهذا يبين إعجاز القرآن الكريم حيث ذكر سبحانه وتعالى أن الجنين يخلق من ﴿نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، والمرأة قد لا تنزل أحياناً في وقت الجماع إذا لم تكمل شهوتها وفي مثل هذه الحالة يكون المراد بالنطفة الأمشاج ماء الرجل وماء المرأة الحامل للبيضة فقط، وأما إذا أنزلت المرأة عند الجماع باكتمال شهوتها فيكون المراد بالأمشاج ماء الرجل وماء المرأة الحامل للبيضة وماءَها الناتج عن الجماع، ولو لم يكن للمرأة إلا ماء واحد وهو الحاصل بالجماع فلم تنزل لعدم كمال شهوتها لما كان للنطفة الأمشاج معنى فتبين أن لها ماءين كما تقدم، وفي هذا دلالة واضحة على إعجاز القرآن الكريم وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومطابقة العلم الحديث لما ورد في القرآن الكريم وأن القرآن كلام الخالق عز وجل، وبهذا يتبين أنه إن اتفق إنزال المرأة ماء الجماع وماء البويضة أيضاً، فسبق ماؤها الحاصل بالجماع ماء الرجل كان الشبه لها، وإن لم تنزل

ولم يسبق ماؤها[1] ووافق ماء الرجل ماء المرأة الذي يحمل البويضة كان الشبه له ، وفي هذا بيان لمعجزة أخرى من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث إن الشبه في الجنين لا يعلم سره إلا الله عز وجل وهو الذي علم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ذلك.

وقد جاء هذا المعنى في الحديث المتقدم الذي أخرجه البخاري رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله تعالى عنه، قال: بلغ عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، فاتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شئ ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أخبرني بهن آنفاً جبريل، فقال: عبدالله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أمَّا أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام ياكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأمَّا الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها، قال: أشهد أنك رسول الله) .. الحديث[2].

فقد صرح هذا الحديث الشريف بصدق رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه كان من علماء اليهود الذين أوتوا علماً من الكتب السابقة، فأراد أن يتيقن إن كان محمد صلى الله عليه

(١) أي الماء الحاصل عن الجماع.

(٢) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه، وقد تقدم تخريجه في المبحث السابق.

وآله وسلم نبياً حقاً، فلما وافقت إجابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما عنده من علم الأنبياء السابقين علم صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم في الحال؛ لأنه علم أن الله تعالى هو الذي أوحى إليه بتلك الإجابة في الحال، فهو صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يقرأ أو يكتب ولم يخالط أحداً من أهل الكتاب ولم يكن أحد من أهل الكتاب بمكة يتعلم عنه، فلما أخبرهم صلى الله عليه وآله وسلم بأخبار الأنبياء والأمم السابقة علموا صدقه وزال عنهم الشك والريب كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[1] .

والشاهد من هذا الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإن سبق ماؤها كان الشبه لها).

فالمقصود بماء المرأة هنا: هو الماء الحاصل من الجماع لأنه معلق بالغشي: أي الجماع، ومعلوم أن هذا الماء الحاصل بالجماع لا يرتبط بوقت معين كما هو الحال في ماء البويضة والذي له وقت محدد، إذن فهو متسبب عن الجماع، وقد بين ذلك حديث أم سُليم الأنصارية رضي الله تعالى عنها السابق بياناً لا شك فيه وأن هذا الماء يحصل منه الشبه في الجنين.

وبعد هذا الحديث عن ماء المرأة وماء الرجل، نتناول الحديث عن أول مراحل الخلق، وكيف يتم خلق الجنين في بطن أمه، وأبدأ الحديث عن التقاء ماء الرجل بماء المرأة، وتكون النطفة الأمشاج الذي قال الله عز وجل عنها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[2]، والأمشاج: هي الأخلاط.

(١) العنكبوت/ ٤٨.

(٢) الإنسان / ٢.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية المباركة ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ : أي أخلاط، والمشج: الشيء المختلط بعضه في بعض قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ : يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طورإلى طور وحال إلى حال[1].

والمقصود من التقاء ماء الرجل بماء المرأة كما فسره العلم الحديث بفضل ما من الله تعالى به على الإنسان: أن ماء الرجل هو الحيوان المنوي الموجود في مائه، وماء المرأة هو البويضة الموجودة في مائها والتي ينتجها أحد مبيضي المرأة في كل شهر مرة.

بالإضافة إلى مائها الحاصل من الجماع إن أنزلت وهذا الماء هو الذي يحصل منه الشبه لها كما تقدم بيانه مفصلاً.

أما عن كيفية هذا اللقاء العجيب فأذكر بعض ما قيل في ذلك: ذكر الدكتور صبري القباني تحت عنوان (كيف تعيش النطفة وكيف تموت؟) قال: يقول (كوست) صاحب الاختبارات الدقيقة في هذا المجال: إن النطفة[2] تقضى بين (٨-١٢) ساعة حتى تلتقي بالبيضة، وقد تأكد لكثير من العلماء أن الحيوان المنوي يسير بذبذبات الذنب بسرعة (٣) مليمترات في الدقيقة[3].

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٣.
(٢) المقصود بالنطفة هنا : أي الحيوان المنوي عند الرجل.
(٣) أطفال تحت الطلب / للدكتور صبري القباني ص٣٧.

والحيوانات المنوية في ماء الرجل أشبه بأسماك في بحر متلاطم بعدد كبير من الأسماك، وبعد بضع ساعات يلتقي أحد هذه الملايين بالبيضة فيندفع رأسه نحوها ويتحد معها مكوناً خليقة جديدة، قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] والنشأة الأولى: هي مرحلة تكون الجنين في بطن أمه، وقيل خلق آدم من التراب[3] .

وقد ألف الدكتور الباقر إبراهيم كتيباً في هذا المجال وعنونه بقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ وقد جاء فيه وهو يتحدث عن بيضة المرأة قال: فلننظر ما يقول العلم عن هذه البيضة، هي بيضة تشبه بيضة الدجاجة، ولكنها صغيرة جداً قطرها (١/ ١٠) من المليمتر، ووزنها جزء من مليون جزء من الجرام، وهي تتكون وتُخلق في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها وكلما نمت الحويصلة وزاد السائل تمدد غشاء الحويصلة ثم يرق ثم يتفجر وتخرج البيضة من المبيض فإلى أين تذهب، هذه الصغيرة الغِرِّيرة في ذلك التيه ، وما مصيرها يا ترى وهل ذلك المصير رهن بالحظ والصدفة أم عين العناية ترعاها؟، إن قوة ذلك الإنفجار تدفع البويضة بحذق ومهارة إلى بوق مظلم ضيق للغاية يختبئ وراء المبيض، يبلغ قطره شعرة ليس في إمكان أمهر الرماة وتحت ضوء الشمس المشرقة أن يدخل البيضة في ذلك البوق، ولكن العناية وتقدير العليم الحكيم جعلت قوة انفجار غشاء الحويصلة،

(١) الذاريات / ٢١.
(٢) الواقعة / ٦٢.
(٣) فتح القدير ٥/١٥٧.

وما منح الله تعالى البوق من جاذبية خاصة كافية لأن تأتي بهذه المعجزة ولا تخطئ ولا مرة واحدة رغم الظلام الدامس(١).

ثم قال: تحت عنوان (اللقاء المدير) وعندما تصل البيضة إلى ذلك البوق تعرض نفسها للقاء مع الحيوان المنوي (الذكر)، يا لله كيف يصل ذلك الحيوان المنوي الذكر إلى ذلك المكان الخفي، ومن يرشده إلى موضع البيضة أترى الصدفة تقدر على ذلك، والحيوان المنوي صغير جداً حتى بالنسبة للبيضة، إذ أن طوله يبلغ (٦٠) جزءاً من المليمتر، وبينه وبين مخبأ البيضة مسافات كبيرة، إذ عليه أن يقطع طول الرحم، وعليه أن يعثر على باب البوق الصغير المظلم فيلج فيه ثم يقطع المسافات الطويلة حتى يصل إلى جانب البوق الآخر حيث البيضة في انتظاره، ما أعجز الصدفة عن أن تأتي بكل هذا، وتعالى العليم الخبير الذي هيأ هذا الحيوان المنوي وجعله قادراً على السباحة، وعلمه أن يسبح بحركة لولبية ليدفع نفسه للأمام ورزقه ذنباً طويلاً يضرب به في الماء ليدفع نفسه للأمام بسرعة وأناقة، ثم أرشده بحكمته وعنايته إلى أن دخل ظلمات البوق والتقى بالبيضة، وبما أن البيضة أكبر منه حجماً فإن الله سبحانه وتعالى هيأه لذلك، فجعل رأسه مخروطاً يستطيع به خرق جدار البيضة في يسر وسهولة، وعند ذلك يكون ذنبه قد أدى المهمة التي من أجلها خلقه الله تعالى وأصبح عائقاً له فماذا تراه يفعل به، إنه يفصله عنه في يسر، إذ أنه معقود في شكل يسهل التخلص منه، أترى كل ذلك من عمل الصدفة، لا والله إنه تقدير الحكيم العليم(٢).

(١) تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ص ٣.
(٢) المصدر السابق / ص٤.

ثم قال أيضاً تحت عنوان (التلقيح والاختلاط والوراثة):

فلندخل مع الزوجين السعيدين إلى داخل ذلك البوق المظلم لنرى ماذا يحدث هناك عندما يتم التلقيح يخلط الشريكان ما عند كل واحد منهما خلطاً تاماً فتختلط عناصر التخطيط (الكروموزمات) وما فيها من الجينات التي تحمل كل مميزات الإرث التي انحدرت من الآباء والأجداد، عبر الأجيال الطويلة، هذه هي النطفة الأمشاج التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[1].

ثم قال: كلما تمر بخاطري فكرة النطفة الأمشاج: أتذكر قصة الأنصارية[2] التي سألت الرسول الكريم عليه صلوات الله تعالى وأزكى سلامه هل على المرأة غسل إذا هي احتلمت؟ فأنكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها عليها واستبعدت أن يحدث للنساء ما ذكرته الأنصارية، ولما سمع الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قال لها: (فمن أين يكون الشبه؟)[3].

إن اختلاط النطفة التام بعشيرها هو الضمان لنقل مميزات الآباء من صفات جسدية وعقليه، وجمال وقوة وذكاء وأخلاق لأبنائهم أترى ذلك يكون صدفه أم إبداع وعظيم تقدير؟)[4].

(١) الإنسان / ٢.

(٢) هي أم سُليم رضى الله تعالى عنها وقد تقدم الحديث الذي ورد اسمها فيه في المبحث السابق.

(٣) تقدم هذا الحديث مع تخريجه في المبحث السابق.

(٤) تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ص٦-٧.

قلت: وهذا يدل كما تقدم على أن الماء الحاصل عند المرأة بقضاء شهوتها عند الجماع داخل في النطفة الأمشاج وفيه رد على من زعم غير ذلك.

وبعد أن يتم اندماج الحيوان المنوي بالبيضة تتوالى مراحل وأطوار الخلق وأذكر في ذلك بعض الآيات التي تحدثت عن هذه المراحل وما فيها من بيان لعظمة الخالق جل وعلا، فمنها:-

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات المباركات: يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام، خلقه الله تعالى من صلصال من حمأ مسنون، وقال مجاهد: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ﴾: أي من منيِّ آدم، وقال ابن جرير: إنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان وهم بنو آدم، والنطفة: هي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها، ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾: أي محل محفوظ لا يصل إليه أذى وهو الرحم، ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ : أي صيرنا النطفة إلى علقه

(١) المؤمنون / ١٢-١٦ .

وهي الدم المتعلق بالرحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾: يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها، ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ : أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يعنى حين يذكر قدرته ولطفه في هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾: يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾: يعنى النشأة الآخرة يوم المعاد وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق ويوافي كل عامل عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[1].

وقد بين هذا المعنى الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى إليه ملكاً بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح) .. الحديث[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٠.

(٢) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء رقم ٣٣٣٢.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً جيداً حول أطوار الجنين فقال: فأنظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد، على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة والاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قراراً مكيناً لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها، وأنظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق واليابس واللين، وبين ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وكيف كساها لحماً ركبه عليها، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين، وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٨٨.

ثم قال: فأرجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً، وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً بل عظماً واحداً من أصغر عظامها، بل عرقاً من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله تعالى الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين فمن هذا صنعه في قطرة ماء ، فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾[1][2].

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

والآن لنصحب الجنين في مرحلة ما قبل الولادة لنرى التغيرات والتبدلات التي تحصل له ولأمه تمهيداً وإعداداً لذلك اليوم، يوم خروج الجنين إلى هذه الدار (دار الدنيا) قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3].

ذكر الدكتور / - خالص جلبي - في كتابه- الطب محراب الإيمان حديثاً عن الولادة فقال: ولنلق نظرة على أجهزة هذا الجنين عندما يحين

---

(١) النازعات / ٢٧-٢٩.
(٢) مفتاح دار السعادة ١٩٦/١ .
(٣) النحل / ٧٨.

الوقت لنزوله إلى هذه الدار ، إن وزن القلب (٢٠) غراماً، ووزن الرئة (٣٠) غراماً، ووزن الكلية (١٢) غراماً، ووزن الدماغ (٣٥٠) غراماً، أما وزن الكبد فيزن (١٢٥) غراماً، ووزن النخامة ملكة الغدد نصف غرام لا أكثر، وطالما تحدثنا عن هذه الضخامة التى وصل إليها الجنين، وهي من ناحية الطول أكثر بـ(١٧) مرة ومن ناحية الوزن أكثر بـ(٣٢٥) مرة عما كانت عليه المضغة في نهاية الشهر الثاني، فماذا يحصل للرحم؟ وهل هو بهذه السعة والضخامة أم أنه يتمدد؟، وإذا تمدد فهل يصل إلى هذا التمدد الهائل؟ يجيبنا الطب ويقول:- إن الرحم تبلغ من الحجم عند الفتاة العذراء حوالي ٢-٣سم٣) بينما هي تصل في أواخر الحمل إلى حجم خمسة ألتار أو ما يعادل (٥٠٠٠سم٣) أي أن حجم الرحم ازداد بمقدار (٢٥٠٠) ضعف تقريباً، كما أنه يصل في بعض الحالات إلى (١٠) ليترات أو حتى (١٥) ليتراً، كما في حالة الحمل التوأم، فكيف استطاعت عضلات الرحم أن تتمطط بهذه الكيفية حتى استطاعت أن توسع الحجم إلى ألفين وخمسمائة ضعف كما أنها بعد الوضع تعود إلى ما كانت عليه، فأي سر عجيب هذا الذي تحتويه.

ثم إذا اقترب موعد الولادة نرى أن الأوامر الهورمونية ترسل إلى مفاصل الحوض بالخاصة حتى ترتخي وتهيئ الطريق ولا تضايق المرور وهذا عن طريق هورمون الرولاكسين الذي يقوم بهذا الفعل خاصة، ثم ماذا عن الهورمونات الأخرى السحرية العجيبة، إنها تعمل على أروع المستويات، فالجسم الأصفر الذي استمر في دأبه ونشاطه مدة خمسة أشهر تقول له المشيمة جزاك الله تعالى كل خير، فلقد تعبت كثيراً وأرى أن ترتاح لأقوم بالمهمة التي تقوم بها، وإذا بخلايا المشيمة الأمامية تقوم بالإضافة إلى عملها

الامتصاصي للدم، تقوم بافراز هورومونات تعين على استقرار الجنين داخل الرحم، وهذه الهورمونات على تفاهم مستمر مع النخامة ، وهي تخبر النخامة في كل لحظة عن صحة الجنين ونموه وتقدمه، وعندما تحين ساعة الصفر، تكون الخطة أن توقف هذه الهورمونات المفرزة دفعة واحدة، حيث تحصل المفاجأة العجيبة وهي انقطاع الهورومونات التى كانت تحفظ استقرار الجنين داخل الرحم، إنها قضية مدبرة بتفاهم كامل بين الغدد والأعضاء وهكذا يتزعزع وجود الجنين ويبدأ المخاض الشاق، وهنا تحصل الأعجوبة وهي مرور الجنين من الأعضاء التناسلية إلى الخارج، إن فوهة العنق[1] مغلقة تماماً بسدادة ليفية، يبدأ هورمون الفص الخلفى للنخامه بافرازاته المنظمة المقلصة لعضلات الرحم، وهكذا تسير التقلصات وتدفع الجنين إلى أسفل وتبدأ آلام المخاض عند الحامل، ومع تكرار هذه الأمر ينفتح العنق وفيه خاصية عجيبة أيضاً حيث يبلغ من انفتاحه درجة كاملة بحيث يتساوى مع جدران الرحم ثم ينبثق جيب المياه، وهذا السائل فيه هورومون خاص يحرض المخاض وينبه عمليات تقلص الرحم، فأي سر عجيب يكمن في هذا السائل الذي هو في شكل الماء حتى يقوم بكل هذه الوظائف مجتمعة، وبعد انبثاق هذا الماء يبدأ رأس الجنين في الظهور، ويحاول أن يتطابق مع الفوهة التى سيمر بها، ويكون هذا باطباق ذقنه إلى صدره والتقدم بمؤخرة رأسه، وهكذا يمر الوليد إلى أسفل، بينما تكون الأم في آلامها المريرة تعاني ما تعاني!!!.

---

(١) أي عنق الرحم.

ولكن ما إن ترى المولود بجنبها حتى تنسى كل ما تألمت في سبيل هذه الثمرة العزيزة الغالية (المولود الجديد) وعندما يصل المولود إلى هذه الحياة تحصل قضية أيضاً هي معجزة في حد ذاتها وهي حجم الرحم الكبير والفراغ الكبير بعد خروج الجنين، وليس هذا المهم بقدر أهمية انسلاخ المشيمة[1] وانفتاح برك الدم التي كانت تغذي الجنين لولا إرادة الله تعالى العجيبة التي حفظت هذا الكائن في مراحله لكانت كل ولادة معناها الموت الحقيقي للأم، لأن الدم سيخرج كالسيل الدافق من أفواه تلك البرك التي تنضح به، ولكن ما إن تنزل المشيمة والجنين حتى ينقبض الرحم بشكل عجيب حيث يصبح في قساوة الحجر، فلذلك سميت الرحم في هذه الحالة بكُرة الأمان، وهل انتهت الرعاية الإلهية بوضع الجنين؟ كلا فإن العناية الإلهية تلازم الإنسان طول حياته، ولكن الإنسان قليل الشكر لمولاه جل وعلا[2].

وقال أيضا: تحت عنوان (تغذية الطفل):

أسرار وأسرار يحار الطب والعلم في تفسيرها، ومنها كيف سيتغذى هذا الوليد بعد أن جاء إلى هذا العالم الجديد، وهو غريب عليه، ولم تعد معه تلك المشيمة التي كانت تقدم له الطعام مهضوماً جاهزاً.

إن الله تعالى هيأ له الثدي كأحسن ما يكون، فلننظر بدقه إلى كيفية هذا التكوين:-

خلال الحمل تكون الأوامر المرسلة للثدي هي الاستعداد فقط وهي

(١) المشيمة : قال ابن الأعرابي: يقال لما يكون فيه الولد المشيمة، لسان العرب ٣٩٦/٢.
(٢) الطب محراب الإيمان ٨٢/١ .

هنا تكاثر الغدد، ومتى حان الوضع ترسل النخامه أوامرها لغدد الثدي بالإفراز ويبدأ الإفراز، وهنا نتساءل كيف تحول الدم الذي يغذي الثدي إلى لبن مفيد للطفل، حقاً إنه سر من الأسرار العجيبة المدهشة، ولقد وجد أن هذا اللبن يحتوي على كافة المواد التي يحتاجها الجسم، كما أنه معقم فلا يحتوي على أي جرثومة.

وإذا ذهبنا نعد مزايا حليب الأم وأفضليته على باقي أنواع الحليب فإنه يتفوق عليها جميعاً، وهذا كله من رحمة الله تعالى بهذا المخلوق الذي يلد ضعيفاً وهو يحتاج للرحمة والعناية والغذاء، فأمن له كل ذلك وبشكل متناسق، فتغذية الطفل توجد حناناً وعطفاً ورحمة من الأم على ولدها، وتشد الناحية الروحية العاطفية بينهما[1] .

(١) الطب محراب الإيمان ١/٨٢-٨٧.

المبحث السادس
في خلق السمع والأبصار والأفئدة
ودلالة ذلك على الخالق عز وجل وعظمته وتوحيده

إن هذه الأعضاء الثلاثة من أعظم ما في الإنسان من أعضاء ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى كثيراً ما يجمعها في آية واحدة ويكررها في عدة مواضع من القرآن الكريم وهذا يدل على عظمة هذه الأعضاء ودورها الكبير وأهميتها في حياة الإنسان ودلالتها على خالقها عز وجل وتوحيده وعظمته وأذكر بعض الآيات التي وردت في ذلك فمنها قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[5].

---

(١) النحل / ٧٨.
(٢) الإسراء /٣٦.
(٣) المؤمنون /٧٨.
(٤) السجدة /٩.
(٥) الملك / ٢٣.

فهذه الآيات جمع الله سبحانه وتعالى فيها بين هذه الأعضاء والأجهزة الهامة وبين أنها من نعمه العظيمة التي أمتن بها على الإنسان وأن الشاكرين قليلون وبين سبحانه وتعالى أن الإنسان محاسب على هذه الجوارح فعليه أن يقوم بحقها وما أوجب الله تعالى عليه نحوها وذلك بأن يستعملها في الأمور المباحة التي تعينه على طاعة الله تعالى ويبتعد عن استعمالها في الأمور المحرمة كما جاءت بذلك الأدلة الشرعية الدالة على تحريم النظر إلى المحرمات واستماع الأغاني والغيبة والنميمة وغير ذلك مما يطول ذكره وكذلك القلب يبعده عن اعتقاد الشرك الأكبر والأصغر بأنواعه ومنه الرياء وعن الشهوات المحرمة فأمراض القلوب إما مرض شبهة وشك أو مرض شهوة وغي وعنهما تتفرع جميع أمراض القلوب وقد بين سبحانه وتعالى أن الكفار لم تغن عنهم هذه الأعضاء ولم تنفعهم لعدم إيمانهم قال سبحانه وتعالى عن قوم عاد الذين أهلكهم لما كذبوا نبيه هوداً عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

وذِكْرُ الله سبحانه وتعالى لهذه الجوارح والأدوات يدل على عظيم خلقها وحسن صنعها وأذكر بعض ما ورد في خلق هذه الأدوات من أقوال أهل العلم ومن أقوال علماء الأجنة والطب الحديث وذلك لنقف على عظمة الله تعالى في بعض مخلوقاته الكثيرة.

---

(١) الأحقاف / ٢٦.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

فارجع الآن إلى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو للمنفعة المهيأة له فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والعطاء والمحاربة والدفع والرجلان لحمل البدن والسعي والركوب وانتصاب القامة والعينان للإهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما في السموات والأرض وآياتها وعجائبهما والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه واللسان للبيان والترجمة عنك والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك واللسان يبلغ عنك ..).

وقال أيضاً: (ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها تكون واسطة في إحساسها فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئاً..).

وقال أيضاً: (ثم تأمل حال من حرم البصر وما يناله من الخلل في أموره فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب فلك الله تعالى هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوي فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوي نحوه ليقتله ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاص من الله تعالى له قريب من حفظ

الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على وضم[1] ولذلك جعل الله تعالى ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة).

وقال أيضا: (ومن الذي جعل الأجفان على العينين كالغشاء، والأهداب كالرفوف عليها إذا فتحت ومن شقهما في الوجه أحسن شق وأعطاهما أحسن شكل وأودع الملاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

ومن جعل داخل الأذن مستوياً ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه وليتعذر على الهوام النفوذ إليه وليمسك ما عساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[3]، فالبيان يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بياناً، أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات، والثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره، الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما تبين للسامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيراً ما يجمع الله سبحانه وتعالى بين هذه الثلاثة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[4]، ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب

---

(١) وضم: (الوَضَم) كل شيء يوضع عليه اللحم يُوَقّى به من الأرض. مختار الصحاح ص ٧٢٧.

(٢) الذاريات / ٢٠-٢١.

(٣) الرحمٰن / ١-٤.

(٤) الإسراء /٣٦.

الهدى والعلم النافع كقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾.[1]، وقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾[2] فقل لمن نسب لك الخلق إلى الطبيعة هل تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور، وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين[3].

وقال الدكتور خالص جلبي في حديثه عن السمع والبصر:

أما على مستوى السمع فإن ذبذبات الصوت تعبر الأذن الخارجية إلى الوسطى حيث يستقبلها غشاء الطبل لينقلها بدوره إلى عظيمات السمع داخل الوسطى والتي توصلها بدورها إلى الأذن الداخلية حيث تمر عبر بوق آخر وكل من البوقين يحوي سائلاً خاصاً فإذا اهتز الخارجي أثر على الداخلي حيث تستقبل هذا الاهتزاز ألياف عصبية منتشرة بشكل ضخم وهي أشبه بطحالب البحر وأعشابه في القاع ثم ينتقل إلى خلايا عصبية تبلغ حوالي ثلاثين ألفاً مهمتها جمع الأخبار وتكديس الملاحظات وتنسيق التقارير والمعلومات فإذا وصلت إلى ذلك تعاونت هذه الخلايا على إيصال هذه المعلومات عبر حزمة عملاقة من الألياف العصبية حيث تصل بدورها إلى مركز السمع وهو في جانب الدماغ أو ما يسمى بالفص الصدغي وهناك يتم فهم الأخبار وخزنها وتحويلها وإصدار الأوامر بما يلائم الحالة الجديدة وبحق يمكن أن يسمى الدماغ حكومة البدن العاقلة العاملة المخلصة وباقي الجسم الشعب المتفاني في الطاعة والاخلاص والولاء.

---

(١) البقرة / ١٨. (٢) البقرة / ٧.

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٢٦٠-٢٨٠.

وقال عن حاسة البصر:

إن العين مكونة من ثلاث كرات تغلف بعضها البعض ويوجهها ست عضلات متوازنة مع العين الأخرى في نفس الاتجاه ومن الأمام تغلق هذه الكرة بحاجز عمودي ينفتح من الأمام بفوهة صغيرة تتسع وتضيق حسب الحاجة واتساعها الدائم دليل على الموت!! وفي عمق العين تستقر طبقة تمثل نصف كرة شفافة لا ترى بالعين المجردة ومع ذلك فهي مكونة من عشر طبقات منضدة فوق بعضها البعض ومن الطبقات العشر تنفرد طبقة في العمق واحدة تختص بالرؤية وهذه الطبقة فيها نوعان متميزان من الخلايا للرؤية.

النوع الأول: ويسمى العصيات وهي مختصة بالنور العادي وعددها في كل عين (١٣٠) مليون والنوع الثاني: ويسمى المخاريط وهو مختص بالألوان والنور المركز وعددها في كل عين(٧) ملايين مخروط أي أن عدد المستقبلات للضوء في كل عين حوالي(١٤٠) مليون وهذا يعني أن العناصر المستقبلة للضوء في جهاز الاستقبال البصري هي حوالي (٣٠٠) مليون مستقبل ضوئي!!.

وقد أمكن معرفة أن فوتون الضوء الذي هو الوحدة الضوئية يصطدم بالعصيات والمخاريط بقدر ونسبة وموجة فيحدث من هذا الاصطدام سلسلة من التفاعلات على مستوى المخاريط والعصيات تكون نتيجتها تحولها إلى سيالة عصبية تنتقل عبر حزمة عملاقة من الألياف العصبية تبلغ نصف مليون ليف عصبي وهي أشبه بكابلات وأسلاك الكهرباء ومنها إلى الدماغ حيث تُستقبل في مركز الرؤية العام وهو مؤخرة الدماغ (الفص القفوي)

وهناك تنسق المعلومات وتجمع الملاحظات وتكدس التقارير ويصار إلى القرار المناسب المطلوب فتصدر عدة نسخ مما حدث من الأوامر الجديدة ومنها خاصة إلى مراكز الذاكرة حيث تختزن إلى ما لا نهاية لكي تكون شاهداً يوم القيامة على ما قدم وأخر، قال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1].

وجمال العينين من لون القزحية وهي المنطقة المحيطة ببؤبؤ العين والصباغ هنا فنه أدق وعمله أروع ولذا فإن التلوين يختلف عن تلوين الجلد ويشترك صباغ الميلانين هنا أيضاً في التلوين المناسب وهكذا نرى تداخل وظائف الحماية والتلوين والجمال لتؤدي وظيفة الحياة مجتمعة[2].

وقال عن حاسة السمع أيضا:

إن في عضو كورتي الذي يمثل شبكية الأذن حوالي (٣٠) ألف خلية سمعية لنقل كافة أنواع الأصوات وحساسيته عظيمة وعضو كورتي هذا يمثل الأذن الباطنية حيث نرى الحلزون الذي يضم عضو كورتي ويشكل (٥ , ٢) دورة بالاضافة إلى ذلك نرى الدهليز الممثل في القريبة والكييس وفي الأقنية نصف الدائرية المسؤولة عن التوازن في الإنسان حيث يمثل التوازن أمراً معقداً جداً يشترك فيه الدماغ والمخيخ والأذن الباطنة وتعتبر الأخيرة المسؤول المحيطي في حين تعتبر العناصر الأولى المناطق المركزية المسؤولة عن التوازن والسؤال كيف يتم التوازن بمثل هذه الدقة؟ والجواب أن الأمر على درجة كبيرة من التعقيد لم يحل الطب بعد ألغازها حتى اليوم، يكفي أن نعلم

(١) سورة الاسراء / ١٣-١٤.

(٢) الطب محراب للإيمان ٢/١٦٤-١٦٦-٢٢٥.

أن الأذن الباطنة فيها قسم يسمى (التيه) لأن الباحث يكاد يتيه من أشكال الدهاليز والممرات والجدر والحفر والغرف والفوهات والاتصالات وشبكة التنظيم والعلاقات الموجودة داخل هذا القسم، وهناك إتصال ما بين الأذن الباطنة والوسطى بواسطة نافذتين هما المدورة والبيضية وبواسطة النافذة المدورة العلوية يتم الاتصال ما بين الأذن الوسطى بعظماتها الثلاث وما بين داخل الأذن الباطنة والعُظيم الذي يستقر على النافذة المدورة هو عظم الركابة في حين أن العظم الذي يستند على غشاء الطبل هو المطرقة ويصل ما بين العظمين عظم السندان بالإضافة إلى عضلتين وهذه المجموعة تشكل الأذن الوسطى التي تتصل بالبلعوم بواسطة نفير أوستاش الذي ينظم الضغط ما بين الأذن الوسطى والخارجية ، والذي يفصل بينهما غشاء الطبل، ويعتبر صيوان الأذن مجمع الصوت الخارجي الذي يقوده إلى غشاء الطبل الذي يوقع اهتزازته على عظيمات السمع والتي تنقله بأمانة إلى النافذة المدورة التي تحمله بدورها إلى الأذن الباطنة التي تقوم بتفسيره ونقله بشكل سياله عصبية إلى المركز السمعي العام في الدماغ: الفص الصدغي ..) ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

وقال في حديثه عن الفؤاد (القلب):

إن وزن القلب حوالي (٣١٢) غراماً حجمه في قبضة اليد تبلغ ضربات قلب الرجل حوالي ٦٠-٨٠/ دقة، وينبض يومياً ما يزيد على مائة ألف مرة وفي العام ما يزيد على الأربعين مليون مرة بدون كلل أو تعب ويكفي أن تعلم أن انسداد شريان بسيط منه يؤدي إلى الجلطة التي قد تؤدي بالحياة أحياناً وفي كل نبضة يدخل القلب حوالي ربع رطل من الدم ويضخ في يوم واحد

(١) آل عمران/ ١٩١.

(٢٢٠٠) جالون من الدم وحوالي (٥٦) مليون جالون على مدى الحياة، ترى هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل تلك الفترة الطويلة دون أن يحتاج إلى إصلاح؟[١] وصدق الله العظيم في قوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٢].

والحديث عن هذه الأعضاء وغيرها لا يكفي فيه هذا المبحث بل يحتاج إلى مجلدات، فسبحان الخالق العظيم الخلّاق العليم لا إله إلا هو الكبير المتعال.

ويكفينا في الحديث عن الفؤاد وعلاقته بالبدن والروح قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (ألا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[٣].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (مضغة) أي قدر ما يمضغ وسمي القلب قلباً لتقلبه في الأمور أو لأنه خالص مافي البدن وخالص كل شيء قلبه وقوله صلى الله عليه وآله سلم: (إذا صلحت)... الحديث، خص القلب بذلك لأنه أمير البدن وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه)[٤].

فتبين من كلام ابن حجر رحمه الله تعالى عظم أمر القلب والحث على إصلاحه والحذر من الأعمال المؤدية إلى فساده، ودل الحديث على أنّ بصلاح القلب صلاح الجسد كله وبفساده فساد الجسد كله، ودل على عظم أعمال القلوب وعلاقتها بأعمال الجوارح، وهذا يدل على أن القلب هو أمير البدن

(١) الطب محراب الإيمان ٢/٢٩٦-٣٠١.
(٢) النمل / ٨٨.
(٣) رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لدينه / رقم ٣٩، ورقم الحديث / ٥٢.
(٤) فتح الباري ١/١٢٨.

حقاً من الناحية الجسدية وضخه للدم المغذي لجميع البدن الذي تتوقف عليه حياة البدن ومن الناحية الروحية أيضاً بل إن ذلك أعظم من الناحية الجسدية، فصلاح الروح والبدن متوقف عليه كما نص الحديث السابق، ولذلك كان صلى الله عليه وآله سلم كثيراً ما يقول في دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: (اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك) كما روى الترمذي رحمه الله تعالى عن شهر بن حوشب رضي الله تعالى عنه قال: قلت لأم سلمة رضي الله تعالى عنها: يا أم المؤمنين: ماكان أكثر دعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قالت: قلت يا رسول الله ما لأكثر دعائك (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)؟ قال: (يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله تعالى فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ)[1] فتلا معاذ رضي الله تعالى عنه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[2] فإذا كان هذا حال سيد البشر وسيد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام فغيره أحق بهذا الخوف، نسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا ويثبتها على الحق وأن يصلح أعمالنا ويوفقنا لمرضاته وأن يحسن لنا الختام على ملة الإسلام وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد ذكر مراحل وأطوار خلق الجنين في بطن أمه وولادته أذكر أطوار الإنسان بعد خروجه إلى هذه الدار.

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب الدعوات / باب ٩٥ حديث رقم ٢٧٩٢-٣٧٦٨ وقال الألباني رحمه الله تعالى (صحيح) انظر صحيح الترمذي ١٧١/٣.

(٢) سورة آل عمران / ٨.

المبحث السابع
أطوار ومراحل الإنسان في دار الدنيا

ويتناول هذا المبحث الحديث عن أطوار الإنسان بعد الولادة إلى ارتحاله عن هذه الدار إلى الدار الآخرة -دار القرار- قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾(١).

وأبدأ الحديث عن ذلك فأقول: لقد ورد في كتاب الله تعالى آيات تبين ذلك ، فمنها: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾(٢).

والشاهد منها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ ومنها: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٣)، ومنها: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾(٤).

---

(١) غافر/ ٣٩.
(٢) الحج/ ٥.
(٣) غافر/ ٦٧.
(٤) الروم/٥٤.

ففي هذه الآيات المباركات بين الحق سبحانه وتعالى المراحل والأطوار التي يمر بها الإنسان في هذه الدار حتى خروجه منها، فبين تعالى أن الإنسان يولد طفلاً لا يعلم شيئاً، بل لا يبصر ولا يسمع إلا بمقدار يسير، ثم هو كلما كبر قويت عنده هذه المدارك تدريجياً ولازمته حتى سن متأخرة، ثم بعد ذلك يبدأ بفقدها تدريجياً أيضاً وهذه سنة الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

وقد قسم الحق تبارك وتعالى هذه المراحل إلى عدة أقسام :-

فأولها: مرحلة الضعف: وهي مرحلة الطفولة، قال الشوكاني: والطفل يطلق على الصغير إلى البلوغ، ثم تلي هذه المرحلة: مرحلة القوة والفتوه وبلوغ الأشد، وهي مرحلة الشباب وما بعدها، فمرحلة الشباب تمتد من البلوغ إلى سن الحادية والعشرين، كما هو في اصطلاح علماء التربية[1]، وقد يطلق البعض لفظ الشباب على جميع مرحلة القوة والفتوه أي من البلوغ إلى مرحلة الكهولة ثم تليها مرحلة الكهولة وهي كما ذكر في لسان العرب: الكهل من الرجال: من جاوز الثلاثين إلى الأربعين[2].

قال الشوكاني: والأشد هو: كمال العقل وكمال القوة والتمييز قيل هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين، ثم تلي هذه المرحلة مرحلة الضعف والشيبة ثم مرحلة أرذل العمر: أي أخسة وأدونه وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل،

---

(١) انظر التربية وطرق التدريس ١/١٠٢.

(٢) لسان العرب ٣/٣٠٨.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ والمعنى أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها لا علم له ولا فهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[1] والمعنى من طال عمره تغير خلقه وانتكس من القوة إلى الضعف ومن الشباب إلى الهرم، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أفلا يعلمون بعقولهم أن من قدر على ذلك قدر على البعث والنشور[2] وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتعوذ بالله تعالى من أرذل العمر فقد أخرج البخاري رحمه الله تعالى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أنه كان يأمر بهؤلاء الخمس ويذكرهن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يأمر بهن: (اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر)[3].

فليتأمل الإنسان بعقله هذه المراحل فهي والله أعظم عبرة وأعظم دليل على وجود الخالق الكبير المتعال وعلى توحيده، ومن الذي يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك؟ أين الذين يدَّعون الألوهية؟! فليدفعوا عن أنفسهم الهرم والموت قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[4]

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ

(١) سورة يس /٦٨، فتح القدير ٣/٤٣٧. (٢) فتح القدير ٤/٣٧٩.

(٣) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه / كتاب الدعوات / باب التعوذ من عذاب القبر رقم/ ٦٣٦٥.

(٤) الفرقان / ٣.

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

فلينظر الإنسان العاقل إلى هذه الدار الفانية والتي مصير كل حي فيها إلى الفناء، ثم ليقارن بينها وبين تلك الدار الباقية فيعمل لها حتى يكون من أهلها بإذنه تعالى.

أين هذه الدار الفانية من تلك الدار الباقية والتي يقول عنها أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم فداه نفسي وأبي وأمي فيما رواه عنه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[2]، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم إنه على كل شيء قدير.

وبعد هذه المراحل تأتي المرحلة الأخيرة منها في هذه الدار وهي المرحلة الخطيرة، هي المرحلة الفاصلة، هي مرحلة الموت: الذي يهدم اللذات ويفرق الأحباب ويخرب الديار هذه هي خاتمة هذه الدار الدنيئة المحفوفة بالهموم والأحزان.

إن هذه المرحلة هي بمثابة مرحلة الولادة، فالولادة آخر مرحلة لأطوار الخلق في البطن وأول مرحلة في هذه الدار والموت آخر مرحلة في هذه الدار وأول مرحلة من مراحل الآخرة.

---

(١) الواقعة/ ٨٣-٨٧.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في / كتاب صفة الجنة / باب في دوام نعيم أهل الجنة / انظر مختصر صحيح مسلم / ص ٥٢٢.

إن الموت لأكبر دليل لمن عقل على وجود الخالق وتوحيده سبحانه وتعالى سالب الحياة وواهبها، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[2].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسيره: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يعني الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ يعني يوم القيامة، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وسعيد بن جبير رحمه الله تعالى، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي كيف تشكون في البعث مع مشاهدتكم في أنفسكم من الإبتداء والانتهاء، فإن من خلقكم من طين وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أموتاً وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت ويرد إليها الأرواح التي فارقتها بقدرته وبديع حكمته[3].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي في خلق أجسامكم وما فيها من الآلات وما يمر به هذا الخلق من أطوار.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ

(١) الملك / ١-٢. (٢) الأنعام / ١-٢.

(٣) فتح القدير ٢/٩٨-٩٩.

ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

أي ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله أن يجوزها ولا يتعداها كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وإذا نظرت تريد معتبراً ... فانظر إليك ففيك معتبر

أنت الذي تمسى وتصبح في ... الدنيا وكل أموره عبر

أنت المصرف كان في صغر ... ثم استقل بشخصك الكبر

أنت الذي تنعاه خلقته ... ينعاه منه الشعر والبشر

أنت الذي تعطى وتسلب لا ... ينجيه من أن يسلب الحذر

أنت الذي لا شيء منه له ... وأحق منه بما له القدر[1]

فسبحان من قهر الجبابرة والمتكبرين والملحدين بالموت، وصيرهم إلى تلك الحفر المظلمات فليدفعوا ذلك عن أنفسهم إن كانوا صادقين في ادعاءاتهم ومزاعمهم الباطلة، فأنت ترى الشخص في حركة مستمرة إذ هو جثة هامدة لا حراك فيها ولا حياة فسبحان الذي قهر كل شيء وإليه مرجع الخلائق يوم القيامة.

سبحان من صير تلك العظام واللحوم والوجوه والأبدان إلى تراب بعد أن كانت تنبض بنضرة الحياة، أليس الذي قدر على ذلك قادر على

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٠٥.

الإعادة، بلى وألف بلى إنه لقادر على الإعادة، قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾[1].

والموت طريق وغاية لكل حي كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾،[3] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5] فقد أوضحت هذه الآيات المباركات أن الموت غاية كل حي وإن طال عمره كما قال الشاعر:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

وقال آخر:

سبيل الموت غاية كل حي ... فداعيه لأهل الأرض داع

وقال آخر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

وقال آخر:

الناسُ زرع الفنا والموت حاصدهم ... وكل زرع إذا ما تمَّ محصودُ

فلا تغرنَّك الدنيا وزهرتها ... دار لها في كل يوم مع الموتِ موعودُ

---

(١) القيامة / ٣-٤.

(٢) الرحمٰن /٢٦-٢٧.

(٣) النساء /٧٨.

(٤) آل عمران / ١٦٨.

(٥) الجمعة /٨.

فلو لم يكن إلا آية الموت لكفت في الدلالة على وجود الخالق الباقي الدائم سبحانه وتعالى وعلى توحيده، ولقد حاول الملحدون التعرف على حقيقة الروح ومعرفة كيف يموت الإنسان ولكن دون جدوى، ويبقى علم ذلك عند الكبير المتعال سبحانه وتعالى القائل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

إن هذا المصير الذي لا بد منه والذي نراه ونسمع به في كل يوم بل في كل ساعة ولحظة لهو أعظم دليل على أن هناك حياة غير هذه الحياة وعلى البعث بعد الموت فمن خلق الإنسان من العدم ثم أماته هو الذي سيعيده إلى الحياة بعد الموت ويجازيه بما كسبت يداه وكما قيل: (كفى بالموت واعظاً)[2] أي كفى به من غيره واعظاً لمن كان له قلب حي وسليم، أما من عبد هواه واتبع الشيطان فإنه لا تنفعه المواعظ ولا تفيده الزواجر حتى يأتيه الموت فجأة وهو على حاله، وعند ذاك يرى الحقيقة بعينيه وساعتها لا ينفع الندم، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[4].

---

(١) الإسراء /٨٥.

(٢) المشهور أنه من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى، وكان نقش خاتم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (كفى بالموت واعظاً يا عمر) كشف الخفاء ١١٢/٢ رقم: ١٩٣٣.

(٣) المؤمنون / ٩٩-١٠٠.

(٤) سورة ق/ ٢٢.

وبعد هذه المراحل المتعلقة بخلق الإنسان في بطن أمه ثم المراحل التي يمر بها في هذه الدار ننتقل إلى الفصل الأخير من هذا الباب وهو الإيمان بالبعث بعد الموت والرد على منكريه.

وقبل أن أبدأ الحديث عن البعث، أقول: ربما كان هناك اعتراض على إدراج هذا الفصل في هذا الباب.

فالجواب: إن وضع هذا الفصل في هذا الباب له علاقة وطيدة به لأنه تابع لخلق الإنسان وأطواره، فهي لا تنتهي بالموت، فالإنسان له حياة أخرى أبديه لا موت بعدها غير هذه الحياة الفانية، ونحن نرى أن الله عز وجل قلَّ أن يذكر في القرآن الكريم أطوار خلق الإنسان إلا ويذكر في آخرها البعث بعد الموت، وذلك لما له من ارتباط وثيق بهذه الأطوار، لذلك كان الأولى إلحاقه بهذا الباب.

وأذكر بعض الآيات القرآنية التي ألحقت البعث بأطوار الخلق، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1].

(١) المؤمنون /١٢-١٦.

ومنها قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[5].

فدلت هذه الآيات على علاقة البعث بأطوار الإنسان وأنه خاتمة المطاف لها حيث يستقر أهل الإيمان في جنات النعيم جعلنا الله تعالى منهم، ويستقر أهل الكفر في نار الجحيم أعاذنا الله تعالى من ذلك وأنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن البعث والرد على منكريه.

---

(١) البقرة /٢٨.

(٢) الحج / ٦٦.

(٣) الروم / ٤٠.

(٤) الجاثية / ٢٦.

(٥) نوح / ١٣-١٨.

الفصل الثالث
في البعث بعد الموت والرد على منكريه

وفيه مبحثان:

١ - المبحث الأول: في بيان أن الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان وفي بيان معنى البعث وصفته وكيفيته والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة والآثار.

٢ - المبحث الثاني: المنكرون للبعث والرد عليهم.

وأبدأ الحديث عن المبحث الأول فأقول:

المبحث الأول
في بيان أن الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان وفي بيان معنى البعث وصفته وكيفيته والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة والآثار

أولاً: بيان أن الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان التي بينها الله عز وجل في كتابه الكريم حيث قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[١] فبين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، والمقصود باليوم الآخر كل ما يكون بعد الموت مباشرةً ويدخل فيه البعث وما بعده من أمور الآخرة العظيمة.

---

(١) البقرة/ ١٧٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما يكون بعد الموت[١]).

ومن السنة ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بارزاً للناس، فأتاه جبريل فقال ما الإيمان؟ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث)... الحديث[٢] والشاهد منه قوله صلى الله عليه وآله وسلم (وتؤمن بالبعث) فدلت الآية السابقة وهذا الحديث على أن الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان.

ثانياً: بيان معنى البعث في اللغة والشرع:

جاء في لسان العرب في مادة (بعث): والبعث في كلام العرب على ثلاثة معان: أحدهما: الإرسال كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾[٣]، أي أرسلنا، وثانيهما: الإثارة فالبعث إثارة بارك أو قاعد، تقول: بعثت البعير فانبعث: أي أثرته فثار، والبعث أيضاً: الإحياء من الله تعالى للموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾[٤]، أي أحييانكم، وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث وبَعَثَ الله تعالى الخلق يبعثهم بعثاً، نشرهم[٥].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/١٤٥.
(٢) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه كتاب الإيمان/ باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم رقم/ ٥٠.
(٣) الأعراف/ ١٠٣.
(٤) البقرة/ ٥٦.
(٥) لسان العرب ١/ ٢٣٠.

فتبين بهذا أن البعث في اللغة الإثارة والإرسال والإحياء والإخراج وفي الشرع، إخراج الله تعالى الموتى من قبورهم أحياءً بعد موتهم لمجازاتهم على أعمالهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[1]، أي قلب ترابها وأخرج من فيها من الموتى[2] وأما الأدلة من القرآن الكريم على وقوع البعث وكفر من أنكره، وعلى ما يكون بعده من أمور فمنها:

١- قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات المباركات: يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي: لتخبرن بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[4]

(١) الانفطار/ ٤.
(٢) فتح القدير ٥/٣٩٥.
(٣) التغابن ٧-١٠.
(٤) يونس/ ٥٣.

والثانية في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[1]، والثالثة هي هذه الآية ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ثم قال تعالى حاثاً لهم على الإيمان والتصديق بالبعث قبل فوات الأوان، فقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ يعني القرآن، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية ثم عاد إلى بيان البعث وما يكون بعده، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم البعث وقيام الناس من قبورهم، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء الجنة ويذهب بأولئك إلى النار.

ثم بين سبحانه أقسام الناس في ذلك اليوم وأنهم ينقسمون حسب أعمالهم في دار الدنيا، فمن كان مؤمناً بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، استحق دخول الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) سبأ / ٣.

(٢) هود / ١٠٣.

(٣) الواقعة / ٤٩-٥٠.

ومن كان كافراً بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، استحق دخول النار التي فيها من ألوان العذاب والنكال ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا ما بينه عز وجل في هذه الآيات بعد أن ذكر البعث، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[2].

في هذه الآية المباركة بين الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: أن الذين يستجيبون ويسمعون ويؤمنون بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم هم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية، والآذان السامعة، ثم بين تعالى أن من لم يؤمن ويصدق بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم فإنه لن يفلت من عذاب الله تعالى وعقابه، ولا يظن هذا الجاهل أن الله تعالى غير مطلع عليه بل سوف يجازيه بما قدمت يداه بعد الموت بأن يبعثه في يوم الدين ويحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ أي أن الموتى جميعهم سوف يبعثهم الله تعالى بإخراجهم من قبورهم بعد الموت ثم يجازيهم بما قدموا إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[3]، فهذه الآية المباركة دليل على أن البعث حق وأنه كائن لا محالة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣٧٤.
(٢) الأنعام / ٣٦.
(٣) الزلزلة / ٧-٨.

ومن الآيات أيضاً:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[1].

بين الله عزوجل في هذه الآيات أنه سبحانه وتعالى المتفرد بإحياء الموتى وأنه القادر وحده على كل شيء وأن هذه الأمور من شأنه خاصة فلا يقدر غيره على شيء منها.

فهو سبحانه وتعالى الحق والغني، ووجود كل موجود مستفاد منه، والحق هو الموجود الذي لا يتغير ولا يزول، ثم أخبر سبحانه وتعالى بأن ﴿ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ أي في مستقبل الزمان ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي لا شك فيها ولا تردد، ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن ذلك كائن لا محالة[2].

ومنها قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات المباركات: يقول تبارك

---

(١) الحج / ٦-٧.

(٢) فتح القدير ٣/٤٣٧.

(٣) الزمر/ ٦٧-٧٠.

وتعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أي ما قدر المشركون الله تعالى حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته، ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض)[1] ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يشرك به الكفرة من أنداد فقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، ثم بدأ في بيان أهوال القيامة وما فيها من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ .. ﴾ فقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هذه هي النفخة الثانية[2] وهي نفخة الصعق وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله تعالى ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ أي نفخ في الصور[3] النفخة الثالثة: وهي نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي أحياءً بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياءً ينظرون إلى أهوال يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ

(١) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في الرقاق، باب يقبض الله تعالى الأرض رقم ٦٥١٩.

(٢) النفخات في الصور ثلاث: نفخة الفزع ثم الصعق، ثم البعث كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله تعالى في نهاية البداية والنهاية ١/٢٥٣ وعدها البعض نفختين وذلك بأن تكون نفخة الفزع هي نفخة الصعق لأنهم إذا فزعوا ماتوا وبه قال القرطبي رحمه الله تعالى في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ١/١٨٤.

(٣) الصور: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام عند بعث الله تعالى الموتى، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/٦٠.

وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2]، وقال جل وعلا: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾[3]، ثم قال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله تعالى إليهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي العدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[4] ولهذا قال عز وجل: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي من خير وشر ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ فلا يظلم أحداً.[5]

وكما ورد البعث في القرآن الكريم كذلك ورد في السنة المطهرة فمن ذلك: ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردةً من قبل الشَّأْم

(١) النازعات / ١٣-١٤.
(٢) الإسراء / ٥٢.
(٣) الروم / ٢٥.
(٤) الأنبياء / ٤٧.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/٦٣-٦٤.

فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه، قال سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان، فيقول ألا تستجيبون، فيقولون فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌ رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتاً[1] ورفع لِيتاً، قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله تعالى أو قال ينزل الله تعالى مطراً كأنه الطَّلُّ[2] أو الظل، فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال يا أيها الناس هَلُمَّ إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤلون) ... الحديث[3].

في هذا الحديث الشريف بين صلى الله عليه وآله وسلم بعض أشراط الساعة الكبرى والنفخ في الصور نفخة الصعق وكيفية إعادة الأجساد يوم القيامة وذلك بإنزال مطر من السماء على هيئة الطل على تلك القبور الهامدة، فتنبت منه الأجساد نباتاً يكون فيه جمع ما تفرق منها، وذلك بأن يركب ما جُمع فوق عجب الذنب الذي لا يبلى كما سيأتي بيانه في كيفية البعث ثم النفخ في الصور نفخة البعث فترجع كل روح إلى جسدها التي كانت تعمره

(١) لِيتاً: الليت بكسر اللام: صفحة العنق وهي جانبه، وقوله يلوط: أي يطينه ويصلحه وقوله أصغى: أي أمال، انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٧٦/١٨.

(٢) الطَّلُّ: الذي ينزل من السماء في الصحو، النهاية في غريب الحديث ١٣٦/٣.

(٣) الحديث أخرجه مسلم، في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، مسلم بشرح النووي ٧٥/١٨.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾[2].

ثالثاً: بيان صفة البعث وكيفيته والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة والآثار:

وأما الحديث عن صفة البعث وكيفيته فقد دلت أدلة الكتاب والسنة والآثار على أن البعث يكون بجمع كل ما تفرق من الأجساد في سائر الأمكنة المختلفة على مدى الأزمنة الغابرة واللاحقة والتي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وذلك بجمع لحومها وعظامها وشعورها وكل ما يتعلق بها.

قال الإمام السفاريني رحمه الله تعالى: وأعلم أنه يجب الجزم شرعاً أن الله تعالى يبعث جميع العباد ويعيدهم بجمع جميع أجزائهم الأصلية وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء، فإن هذا حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة[3].

فيرجع كل لحم إلى جسده وكل عظم إلى مكانه وكل عرق وعصب وشعر وغيره إلى موضعه الذي كان عليه فلا يختلط عظم هذا الجسد بعظم ذلك الجسد ولا لحمه بلحمه ولا عصبه ولا شعره ولا غير ذلك مما يتعلق به بأي جسد آخر غير جسده حتى ترجع الأجساد كما كانت ثم ترد إليها أرواحها التي كانت تعمرها فترجع كل روح إلى جسدها دون أن تختلط ببعضها أو تخطأ جسدها فسبحان القدير العليم الذي لا يخفى عليه شيء في

---

(١) النبأ/ ١٨.　(٢) سورة طه/ ١٠٢.

(٣) لوامع الأنوار للسفاريني ٢/١٥٨.

الأرض ولا في السماء ثم ينفخ في الصور نفخة البعث فتنشق الأرض عنهم فيخرجون من قبورهم حفاةً غير منتعلين عراةً غير مستترين غرلاً غير مختتنين في يوم عظيم هوله شديد خطره مستطير شره تشيب من هوله الولدان وتضع من شدة كربه النسوان وتنفطر فيه السماء وتتناثر الكواكب وتسير الجبال ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1] يوم تنصب فيه الموازين وتتطاير فيه صحائف الأعمال يوم المرور على الصراط المنصوب على متن جهنم يوم تنطفئ فيه أنوار الكفرة والمنافقين وتضيء فيه أنوار المؤمنين المتقين يوم يفرح فيه المؤمنون ويتحسر فيه الكفرة والملاحدة والمنافقون ذلك هو يوم القيامة بأهواله العظيمة التي لا يعلمها الا الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني رحمه الله تعالى في وصف أهوال يوم القيامة:

يوم القيامة لو علمت بهوله	لفررت من أهل ومن أوطانِ
يوم تشققت السماء لهولـه	وتشيب فيه مفارق الولـدانِ
يوم عبوس قمطرير شره	في الخلق منتشر عظيم الشَّانِ[2]

أسأل الله عز وجل أن يقيني والمسلمين شر هذه الأهوال وأن يجعلنا في ذلك اليوم العظيم من الناجين الفائزين وأن يرزقنا الشرب من حوض نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك اليوم شَربة لا نظمأ بعدها أبداً وأن يجعلنا تحت لوائه ومن الفائزين بشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) سورة عبس/ ٣٤-٣٧.

(٢) نونية القحطاني ص ١٩.

وأما الأدلة على ذلك فمنها أولاً: الأدلة من القرآن الكريم فقد وردت في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تبين كيفية البعث وما يكون في ذلك اليوم العظيم من أمور عظيمة أذكر بعضاً منها:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة كيفية إحيائه للموتى وذلك أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام سأل ربه عز وجل أن يطلعه على كيفية ذلك في هذه الدار قبل يوم القيامة وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى تفسير هذه الآيات فقال رحمه الله تعالى:

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسباباً منها:

أنه لما قال للنمرود ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (نحن أحق بالشك من إبراهيم اذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فليس المراد هنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف(٢).

وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى قال أبو سليمان الخطابي: ليس

(١) البقرة/ ٢٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥.

في قوله: (نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما عليهما الصلاة والسلام يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل التواضع.

وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قِبَل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا القول تواضعاً منه وتقديماً لإبراهيم على نفسه عليهما الصلاة والسلام[1].

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى:

واذا تأملت سؤاله عليه الصلاة والسلام وسائر ألفاظ الآية وجدت أنها تنفي الشك. وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول فالإحياء متقرر عنده عليه الصلاة والسلام وإنما سأل عن كيفية وهيئة الإحياء فقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ﴾ طلب مشاهدة الكيفية، قال القرطبي: و إنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفرقها واتصال الأعصاب والجلود بعد تمزقها فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال ابن جرير: اتفق عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهم فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله تعالى أرجى عندك لهذه الامة؟ فقال: عبدالله بن عمرو

(١) تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) ص ١٦٦.

ابن العاص رضي الله تعالى عنهما: قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ... الآية فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أما إن كنت تقول هذا فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ فرضي من إبراهيم عليه الصلاة والسلام قوله ﴿بَلَىٰ﴾ قال فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى:

وقيل في أسباب سؤال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضاً ما رواه ابن أبي حاتم في العظمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام مر برجل ميت زعموا أنه حبشي على ساحل البحر فرأى دواب البحر تخرج فتأكل منه وسباع الأرض تأتيه فتأكل منه. والطير يقع عليه فيأكل منه فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك: رب هذه دواب البحر تأكل من هذا وسباع الأرض والطير ثم تميت هذه فتبلى ثم تحييها فأرني كيف تحي الموتى؟.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة وإن كان لا طائل تحت تعيينها إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه

القرآن فروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال هي الغرنوق والطاوس والديك والحمامة، وعنه أنه أخذ وزاً ورألاً وهو فرخ النعام وديكاً، وطاوساً.

وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة وديكاً وطاوساً وغراباً.

وقوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي وقطعهن قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاءً وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائفة يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه فاذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله تعالى وقوته ولهذا قال تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع منه شيء وما شاء كان بلا مانع لأنه القاهر لكل شيء الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره)[1].

---

(١) انظر/ تفسير ابن كثير ١/٣١٥، وفتح القدير ١/٢٨١.

٢- ومن الآيات الدالة على هذا المعنى أيضاً:

قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: هو عزير وهذا القول هو المشهور وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خوياً وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾؟ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ قال وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله تعالى فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله تعالى فيه كيف يحي بدنه فلما استقل سوياً قال الله تعالى أي بواسطة

(١) البقرة/ ٢٥٩.

الملك: ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ﴾؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله عزوجل في آخر نهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وذلك أنه كان معه فيها ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء. لا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب نقص. ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أي كيف يحيه الله عز وجل وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أي نرفعها فيركب بعضها على بعض وقرئ (ننشرها) أي نحييها قاله مجاهد ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ قال السدي وغيره تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً فنظر إليها وهي تلوح من بياضها فبعث الله تعالى ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله تعالى لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً وبعث الله تعالى ملكاً فنفخ في منخري الحمار فنهق بإذن الله عز وجل وذلك بمرأى من العزير فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي أنا عالم بهذا وقد رأيته عياناً فأنا أعلم أهل زماني بذلك وقرأ آخرون (قال اعلم) على أنه أَمْر له بالعلم[1].

(١) تفسير ابن كثير ١/٣١٤.

٣- ومن الآيات الدالة على هذا المعنى أيضاً:

قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ أي يوم القيامة أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة[٢].

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: المعنى أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتاً فنعيدها خلقاً جديداً. وذلك حسبان باطل، فإنا نجمعها، وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي ليبعثن والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يبعث جميع أجزاء الإنسان، وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق.

وقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ أي على أن نجمع بعضها إلى بعض فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها فكيف بكبار الأعضاء فنبَّه سبحانه وتعالى بالبنان وهي الأصابع على بقية الأعضاء، فهذا وجه تخصيصها بالذكر[٣].

٤- ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً:

قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[٤].

(١) القيامة / ٣-٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٤٨.
(٣) فتح القدير ٥/٣٣٦.
(٤) سورة ق / ٢-٥.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾ أي بعيد الوقوع والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه قال الله تعالى راداً عليهم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى نعلم ذلك، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم وعظامهم وأشعارهم، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك، وقوله تعالى: ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ أي حافظ لذلك فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل والمريج المختلف المضطرب الملتبس المنكر[1].

ومن الآيات أيضاً:

٥- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٢٢.

ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد (فإحداهن) في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾. (والثانية) هذه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ (والثالثة) في سورة التغابن وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ فقال تعالى في هذه الآية: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ قال مجاهد وقتادة ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ أي لا يغيب عنه أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم.

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾

---

(١) سبأ/ ٣-٦.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام إذا شاهدوا يوم القيامة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وأيضاً: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وأيضاً: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا[1].

فدلت الآيات على أن الله سبحانه وتعالى يجمع جميع ما تفرق من سائر الأجساد في شتى الأقطار والأماكن ثم تعاد إليها أرواحها التي كانت تعمرها ثم يكون خروجهم من قبورهم أحياء وذلك عند سماعهم صيحة البعث وتشقق الأرض عنهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٢٥.

٦- ومنها قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: في قوله: ﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني النفخة في الصور وهي نفخة البعث التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أي من الأجداث ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ أي تنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا أول من تنشق عنه الأرض) وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا كما قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[1].

٧- ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٣٠، والحديث رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ النفخة الأولى: نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور فإذا نفخ في الصور خرجوا من الأجداث والقبور، ينسلون إلى ربهم أي يسرعون للحضور بين يديه لا يتمكنون من التأني والتأخر.

وفي تلك الحال يحزن المكذبون ويظهرون الحسرة والندم ويقولون ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ أي من رقدتنا في القبور لأنه ورد في بعض الأحاديث أن لأهل القبور رقدة قبل النفخ في الصور فيجابون ويقال لهم: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي هذا الذي وعدكم الله تعالى به ووعدتكم به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فظهر صدقهم رأي العين، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ ينفخ إسرافيل في الصور فتحيا الأجساد بإذن الله تعالى ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي الأولون والآخرون والأنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ لا ينقص من حسناتها ولا يزاد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلايلومن إلا نفسه)[2].

(١) سورة يسٓ/ ٥١-٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ص٦٤٣.

٨- ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[1].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسيره:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب، وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي يوم ينفخ في الصور وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ إلى موضع العرض ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي زمراً زمراً وجماعات جماعات وهي جمع فوج ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ معطوف على ينفخ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي فتحت لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي صارت ذات أبواب كثيرة ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي سيرت عن أماكنها في الهواء وقلعت عن مقارّها فكانت هباء منبثاً يظن الناظر أنها سراب والمعنى أن الجبال صارت كلا شيء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء، وليس بماء[2].

ثانياً: الأدلة من السنة المشرفة:

وكما دلت آيات القرآن الكريم على صفة البعث وكيفيته كذلك دلت السنة المشرفة على ذلك فمن ذلك:

---

(١) النبإ / ١٧-٢٠.

(٢) فتح القدير ٥/٣٦٥.

١ - ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ويبلى كلُ شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركبُ الخلق)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

قوله (أبيت) أي امتنعت عن القول بتعيين ذلك لأنه ليس عندي في ذلك توقيف.

وقوله: (ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركبُ الخلق) في رواية مسلم (ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة، وفي رواية عند مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب) وفي رواية عند مسلم أيضاً (إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يُركَّبُ يوم القيامة قالوا أي عظم هو يا رسول الله قال: عجب الذنب).

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عند الحاكم وأبي يعلى (قيل يا رسول الله ما عجب الذنب؟ قال: مثل حبة خردل) والعَجْب بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة ويقال له (عجم) بالميم

---

(١) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب التفسير تفسير سورة (٣٩) (الزمر) رقم(٤٨١٤) وسورة (٧٨) (عم يتساءلون) رقم (٤٩٣٥) ومسلم في كتاب الفتن باب/ ما بين النفختين، ورواه غيرهما من أصحاب السنن وغيرهم.

أيضاً عوض الباء وهو عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع.

وقوله: (ويبلى كل شيء من الإنسان) أي يستحيل فتزول صورته المعهودة فيصير على صفة جسم التراب ثم يعاد إذا ركبت إلى ما عهد، وقال العلماء: هذا عام يُخَص منه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الأرض لا تأكل أجسادهم كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله تعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء)[1] وألحق ابن عبد البر بهم الشهداء، والقرطبي المؤذن المحتسب وقوله: (إلا عجب ذنبه) أي لا يبلى ولا يأكله التراب)[2].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (فيه يركب الخلق) أي أن الله سبحانه وتعالى يجمع ما تفرق وبلى من كل جسد ويركبه فوق عجب ذنبه الذي لم يبل وذلك بإنباته منه نباتاً يكون فيه جمع ما تفرق كما تقدم حتى يكتمل خلق الإنسان كاملاً كما كان، فسبحان القادر على كل شيء.

قال في لسان العرب: ركَّبَ الشيء: وضع بعضه على بعض[3].

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى شارح صحيح مسلم:

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (ما بين النفختين أربعون) جاءت

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وقال الألباني رحمه الله تعالى صحيح، انظر صحيح سنن أبي داود ١/١٩٦- رقم: ٩٢٥-١٠٤٧.

(٢) فتح الباري ٨/٥٥٢.

(٣) لسان العرب ١/١٢١٤ طبعة الثلاثة أجزاء.

مفسرة من رواية أخرى في غير مسلم (أربعون سنة).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (عجب الذنب) وهو بفتح العين واسكان الجيم أي العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب وهو رأس العصعص ويقال له عجم بالميم وهو أول ما يخلق من الآدمي وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجم الذنب) هذا مخصوص فيخص منه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فإن الله تعالى حرم على الأرض أجسادهم كما صرح به في الحديث[1].

ومن الأحاديث الدالة أيضاً على كيفية البعث:

٢- ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما بين النخفتين أربعون قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً قال أبيت قالوا أربعون شهراً قال أبيت قالوا أربعون سنة قال أبيت ثم ينزل الله تعالى من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل قال وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة).

وفي رواية أخرى عند مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب)[2].

---

(١) مسلم بشرح النووي ٩٢/١٨.

(٢) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب التفسير تفسير سورة (عم يتساءلون) رقم (٤٩٣٥)، ومسلم في كتاب الفتن/ باب ما بين النفختين، وقد تقدم قريباً.

هذا الحديث الشريف تقدم ذكر بعضه في رواية الحديث السابق وقد جاءت هذه الرواية بزيادة وهي قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (ثم ينزل الله تعالى من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل) ومعنى هذا الحديث الشريف أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يبعث الخلائق من قبورهم أنزل من السماء ماءً على تلك العظام النخرة والأجساد المتفرقة واللحوم المتمزقة وعلى عجب الذنب الذي كتب سبحانه وتعالى أنه لا يبلى فتنبت الأجساد في قبورها من عجب الذنب نباتاً يكون فيه جمع ما تفرق من هذه الأجساد إلى عجب الذنب وذلك بأن يُركَّب فوقه إلى أن تكتمل الأجساد وتعود كما كانت تماماً وهذا كما في الرواية السابقة لهذا الحديث وفي رواية عند الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه) قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: (مثل حبة خردل منه تنبتون)[1] فدل هذا الحديث على أنهم ينبتون من عجب الذنب وذلك بأن يجمع ما تفرق من أجسادهم بهذا النبات ويُركَّب فوق عجب الذنب كما تقدم في الأحاديث السابقة فسبحان القدير على كل شيء العليم بكل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[2].

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٨/٣ والحديث حسن لغيره كما في الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٣٢/١٧.

(٢) فاطر/٩.

ومن الأحاديث أيضاً:

٣- ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (قال رجل -لم يعمل خيراً قط- إذا مات فحرِّقوه واذوروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال لم فعلت؟ قال: من خشيتك وأنت أعلم فغفر له)[1] وفي رواية أخرى عند البخاري (فقال الله عز وجل: كن فإذا هو رجل قائم، قال الله تعالى: أي عبدي ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال مخافتك قال: فما تلافاه أن رحمه عندها)[2].

وفي رواية أخرى عند البخاري رحمه الله تعالى أيضاً: (فإذا مت فاحرقوني حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني أو قال: فاسهكوني ثم إذا كان ريح عاصف فاذروني فيها) ... الحديث[3]

وفي رواية عند البخاري أيضاً: (فجمعه الله تعالى)[4].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: قوله (فاسحقوني أو قال اسهكوني) هو شك من الراوي ووقع في رواية أبي عوانه (اسحقوني) بغير شك والسهك بمعنى السحق ووقع في حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه عند الإسماعيلي

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد رقم (٧٥٠٦) ومسلم في كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد رقم (٧٥٠٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب الخوف من الله تعالى رقم (٦٤٨١).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الخوف من الله تعالى رقم (٦٤٨٠).

(احرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (فقال الله تعالى: كن) في رواية أبي عوانة وكذا في حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه (فجمعه الله تعالى) وفي حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (فأمر الله تعالى الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه ففعلت).

وفي هذا الحديث الشريف عظم قدرة الله تعالى أن جمع جسد المذكور بعد أن تفرق ذلك التفريق الشديد وهذا إخبار عما يكون يوم القيامة[1].

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى أيضاً:

وفي حديث سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه عند أبي عوانة رحمه الله تعالى في صحيحه (فقال الله تعالى له كن فكان كأسرع من طرفة العين) وهذا جميعه كما قال ابن عقيل: إخبار عما سيقع له يوم القيامة وليس كما قال بعضهم إنه خاطب روحه فإن ذلك لا يناسب قوله: (فجمعه الله تعالى) لأن التحريق والتفريق إنما وقع على الجسد وهو الذي يجمع ويعاد عند البعث.

قال الخطابي: قد يستشكل هذا فيقال كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب أنه لم ينكر البعث وإنما جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله تعالى[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كلامه حول مسائل

(١) فتح الباري ١١/٣١٤-٣١٥.

(٢) فتح الباري ٦/٥٢٢-٥٢٣.

التكفير والعذر بالجهل: هذا مع أني دائماً ومن جالسني يعلم ذلك مني: أني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرى وعاصياً أخرى.

وكنت أبين أنما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا فهو حق لكن يجب التفريق بين إطلاق التكفير وتعيينه فإن نصوص القرآن في الوعيد جاءت مطلقة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ الآية وكذلك سائر ما ورد من فعل كذا فله كذا فإن هذه مطلقه عامة وهي بمنزلة قول من قال من السلف من قال كذا: فهو كذا هذا في الإطلاق.

أما الشخص المعين فيلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة والتكفير هو من الوعيد فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لكن قد يكون هذا الرجل المعين حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئاً.

ثم قال رحمه الله تعالى وكنت دائماً أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: (إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم،

فوالله لإن قدر الله تعالى عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال الله تعالى له ما حملك على ما فعلت، قال خشيتك: فغفر له).

فهذا رجل شك في قدرة الله تعالى وفي إعادته إذا ذُري، بل اعتقد أنه لا يعاد وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله تعالى أن يعاقبه، فغفر له بذلك.

والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالمغفرة من مثل هذا[1].

فتبين من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن القول بالتكفير ينقسم إلى قسمين:

الأول: التكفير المطلق فهذا القسم ورد عن السلف القول باطلاقه كقولهم من فعل كذا فهو كذا.

القسم الثاني: التكفير المعين فإن السلف لم يكونوا يكفرون شخصاً بعينه إلا بعد قيام الحجة عليه وزوال الشبهة عنه وعدم وجود المعارض الذي يوجب تأويل النصوص وإن كان مخطئاً.

فالشخص المعين يعذر بالجهل ولا يكفر حتى تقوم عليه الحجة وتزول عنه الشبهة كما في قصة هذا الرجل الواردة في هذا الحديث الشريف وقد تقدم بعض الحديث عن ذلك[2] والله تعالى أعلم.

والشاهد من هذا الحديث الشريف على كيفية البعث هو أن الله تعالى

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٢٢٩-٢٣١.

(٢) في المبحث السادس من الفصل الثاني من الباب الأول.

يجمع جسد الإنسان يوم القيامة بعد أن تفرق على أي صورة من صور التفرق سواءً كان -بأكل التراب له أو بأكل السباع أو بالحرق بالنار والتفرق في البر والبحر كما في هذا الحديث الشريف أو بأي صورة من صور التفرق الأخرى فإن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يعجزه شيء بل يجمعه ويعيده في الحال كما كان، فسبحانه وتعالى من إله قادر عليم.

٤- ومن الأحاديث الدالة على كيفية البعث:

ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب فقال:(إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ الآية، وفي رواية أخرى عند البخاري رحمه الله تعالى أيضاً: (إنكم ملاقو الله تعالى حفاة عراة مشاة غرلاً) كما هو عند مسلم بـهذا اللفظ[١].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (حفاة) بضم المهملة وتخفيف الفاء جمع حاف أي بلا خف ولا نعل وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (غُرْلاً) بضم المعجمة وسكون الراء جمع أغرل وهو الأقلف وهو من بقيت غرلته وهي الجلدة التي يقطعها الخاتن من الذكر.

قال ابن عبد البر: يحشر الآدمي عارياً وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد فمن قطع منه شيء يرد حتى الأقلف[٢].

(١) الحديث رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الرقاق، باب الحشر رقم ٦٥٢٤، ٦٥٢٥، ٦٥٢٦ وفي غيره من المواضع، ومسلم في كتاب الجنة/ باب بيان الحشر يوم القيامة.

(٢) فتح الباري ١١/٣٨٣-٣٨٤.

وقال النووي رحمه الله تعالى:

والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء حتى الغرلة تكون معهم[1].

والشاهد من هذا الحديث أن الإنسان يحشر كاملاً كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي أنه يعاد ويجمع ما تفرق منه حى يعود كاملاً كما كان عند بدء خلقه في الدنيا فلا ينقص مه شيء بل كل ما قطع منه يعاد إليه حتى القلفة وهي الجلدة التي تغطي رأس الذكر كما تقدم في أقوال أهل العلم.

وأما الآثار الدالة على كيفية البعث فقد تقدم الكثير منها في أقوال أهل العلم عند تفسير الآيات وشرح الأحاديث المتقدمه المتعلقة بكيفية البعث ومن هذه الآثار أيضاً:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لما سئل: هل تبعث هذه الأجسام بعينها؟ فقال رحمه الله تعالى: وهذه الأجساد هي التي تبعث كما نطق به الكتاب والسنة[2].

وقال رحمه الله تعالى أيضاً:

والإعادة التي أخبر الله تعالى بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي التي يدل عليها لفظ الإعادة والمعاد هو الأول بعينه وإن كان

(١) مسلم بشرح النووي ١٧/١٩٣.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/٣١٦.

بين لوازم الإعادة ولوازم البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول، وعلى هذا فالإنسان الذي صار تراباً ونبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر وهلم جرا والإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان وأكل ذلك الحيوان إنساناً آخر ثم صار كل منهما تراباً فيعاد هذا وهذا من التراب وإنما يبقى عجب الذنب منه خلق ومنه يركب وأما سائره فيعاد من المادة التي استحال إليها فإذا استحال في القبر الواحد ألف ميت وصاروا كلهم تراباً فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر.

وعلم بذلك أن ما ذكر من الاستحالة لا ينافي أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[2]، وقال الحسن البصري ومجاهد في قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[3] أي كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء[4].

٢- وقال شارح الطحاوية رحمه الله تعالى:

فالإنسان يعيده الله تعالى بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت

(١) سورة يس/ ٦٥.
(٢) فصلت/ ٢٠-٢١.
(٣) الأعراف/ ٢٩.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٧/٢٤٩-٢٦٠.

في الصحيح والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرق فعجب الذنب هو الذي يبقى وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي إستحال إليها[1].

٣- وقال الإمام السفارين رحمه الله تعالى:

وأما الحشر فهو في اللغة الجمع تقول حشرت الناس إذا جمعتهم والمراد به جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقه ثم إحياء الأبدان بعد موتـها وأعلم أنه يجب الجزم شرعاً أن الله تعالى يبعث جميع العباد ويعيدهم بجميع أجزائهم الأصلية وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء فإن هذا حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمه.

قال عكرمة رحمه الله تعالى: إن الذين يغرقون في البحر وتقتسم لحومهم الحيتان ولا يبقى منهم شيء إلا العظام فتلقيها الأمواج إلى الساحل فتمكث حيناً ثم تصير نخره ثم تمر بها الإبل فتأكلها ثم تسير الإبل فتبعر ثم يجيءُ قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم تخمد تلك النار فتجيئ الريح فتلقي ذلك الرماد على الأرض فإذا جاءت النفخة فإذا هم قيام ينظرون يخرج أولئك وأهل القبور سواء.

وقال العلامة الشيخ مرعي رحمه الله تعالى: قال العلماء: إن الله تعالى يجمع ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض وما أصاب النيران منها بالحرق والمياه بالغرق وما أبلته الشمس وذرته الرياح فإذا جمعها وأكمل كل بدن منها ولم يبق إلا الأرواح نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور فأرسلها بنفخة من ثقب الصور فترجع كل روح إلى

---

(١) شرح الطحاوية لعلي ابن أبي العز رحمه الله تعالى ص ٤٦٣.

جسدها فإذا هم قيام ينظرون[1].

فدلت هذه الأدلة من الآيات والأحاديث والآثار على كيفية وقوع البعث يوم القيامة وبيان عظمة الخالق عز وجل وقدرته على كل شيء والرد على الكافرين المنكرين لذلك ودلت أيضاً على أن البعث إعادة بعد تفرق لا بعد عدم كما زعم أهل الباطل لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4]، وأمثال هذه الآيات الدالة على هذا المعنى.

فالصحيح إذاً أن البعث جمع وإعادة بعد تفرق وما ورد عن بعض السلف أنه إعادة بعد عدم فليس مرادهم بذلك العدم المحض بحيث يخلو الكون من ذراته بل مرادهم انعدام الشكل الإنساني فقط لأن جميع الأدلة في القرآن والسنة دلت على ذلك كما تقدم في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾.

ولذلك كان من مذهب أهل السنة والجماعة في نعيم القبر وعذابه أن العذاب والنعيم يكون على الروح والجسد معاً فيكون على الجسد بعد تفرقه أي على ذراته المتفرقة وهذا لا يتأتى على قول الفلاسفة وأتباعهم أنه عدم محض بحيث يخلو الكون من ذراته والله تعالى أعلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

العذاب والنعيم في القبر على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة فتنعم النفس وتعذب متصلة بالبدن وأيضاً منفردة عن البدن[5].

---

(1) لوامع الأنوار ٢/١٥٨-١٦٠.
(2) سورة قٓ/ ٤.
(3) سورة القيامة/ ٣-٤.
(4) سورة يسٓ/ ٧٩.
(5) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/٢٨٢.

المبحث الثاني
المنكرون للبعث والرد عليهم

لقد أنكر كثير من الكفرة البعث بعد الموت مع اعترافهم وعلمهم بأن الله تعالى هو الخالق -ككفار مكة- وليس عندهم في ذلك أية شبهة، بل كل ما في الأمر هو استبعاد أذهانهم السقيمة إعادة الأجساد بعد أن صارت تراباً رمياً، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك في آيات كثيرة من كتابه الكريم، ورد عليهم، فمنها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[1]، وقال تعالى رادّاً عليهم في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾... الآيات.

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه فيهم وأنه لا معقب له بأن من هداه فهو المهتدي الذي لا مضل له، ومن أضله فهو الضال الذي لا هادي له وليس له أولياء يهدونه إلى الطريق المستقيم بعد أن أضله الله تعالى بما

(١) الإسراء/ ٩٧- ٩٩.

(٢) الأحقاف/ ٣٣.

كسبت يداه كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١].

ثم بين تعالى حال هؤلاء الضالين يوم القيامة فقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قيل يا رسول الله: كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟) قال قتادة: بلى وعزة ربنا[٢] ثم قال تعالى: ﴿عُمْيًا﴾ أي لا يبصرون، ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني لا ينطقون، ﴿وَصُمًّا﴾ أي لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكنت ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي لهيباً ووهجاً وجمراً، ثم بين تعالى سبب عذابهم هذا فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ...﴾ أي هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصم، جزاؤهم الذي يستحقونه لأنهم كذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بأدلتنا وحجتنا واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي بالية نخره ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه

---

(١) الجاثية/ ٢٣.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب صفة القيامة/ باب في الكفار، طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً. مسلم بشرح النووي ١٤٨/١٧.

من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض، نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3] وقال هنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأةً أخرى كما بدأهم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم بأن الله تعالى قادر على الإعادة بعد الموت، ﴿إِلَّا كُفُورًا ﴾ إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم من إنكار البعث والجزاء وتكذيب المرسلين وما جاؤوا به من عند الله سبحانه وتعالى[5].

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ

(١) غافر/ ٥٧.
(٢) الأحقاف/ ٣٣.
(٣) سورة يس/ ٨١-٨٢.
(٤) هود/ ١٠٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/٦٥.

﴿وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(١).

يخبر سبحانه وتعالى عن قوم نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كذبه قومه بما جاء به من الحق ومن إثبات البعث بعد الموت وقالوا مستهزئين ساخرين به ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾... الآية أي: أيخبركم ويعدكم من الوعد أنكم إذا متم وصرتم والتراب سواء ترجعون وتعودون وتخرجون من القبور، إن هذا لشيء مستحيل، وبعيد لا يقع فلذلك قالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي بعدت كل البعد هذه الإعادة للجثمان بعد أن أصبح تراباً، ثم تمادوا في إنكارهم وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي أن الأمر كله هو الموت والحياة، أناس يموتون وأناس يعيشون ثم يموتون وليس هناك بعث أو حساب وجزاء.

ولقد بين الله سبحانه تعالى في كتابه الكريم حال هؤلاء المنكرين للبعث يوم الدين ويوم الخروج من القبور لرب العالمين فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

فبين تعالى حال هؤلاء الكفرة المنكرين للبعث في يوم القيامة يوم أن يشاهدوا الحقيقة التي أنكروها كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ

(١) المؤمنون/ ٣٥-٣٧.
(٢) سورة يس/ ٥١-٥٤.

فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[1] أي بصرك قوي كالحديد تبصر به ما كنت قد كذبت به في الدار الدنيا، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ .. الآية، هذه هي النفخة الثالثة وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث وهي القبور جمع جدث، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والنسلان هو المشي السريع، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[2]، ثم بين تعالى ما أصابهم من الحيرة والدهشة التي لم تكن تصدقها أعينهم فقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يعني قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوا في محشرهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد قال أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه وغيره: ينامون نومة قبل البعث، قال قتادة: وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ﴾ وقيل : إن الملائكة هي التي تجيبهم، وقيل إنهم هم يجيبون أنفسهم كما في آية أخرى ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[3] نقل ذلك ابن جرير واختار الأول، وهو أصح، كقول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ

---

(١) سورة ق/ ٢٢. (٢) المعارج/ ٤٣.

(٣) الصافات/ ٢٠ – ٢١.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، ثم بين تعالى سرعة وقوع الشيء إذا أراده سبحانه فقال تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي ما هي إلا صيحة واحدة لا أكثر وإذا الجميع أمامنا كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[2]، أي لم نترك منهم أحداً، فسبحان القادر المقتدر على كل شيء الذي (أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[3]، ثم أخبر تعالى عن مجازاة الناس في ذلك اليوم، وأن كل إنسان يجازى بما كسبت يداه ولا ظلم عند الله عز وجل لأحد من خلقه، فقال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[4].

وقد رد الله تعالى في كتابه الكريم على المكذبين بالبعث وجادلهم في ذلك بأسلوب حكيم متين فهو يدلل من المشاهد على وقوع المستقبل، يدلل بقدرة الخالق عز وجل على الإيجاد الأول من التراب على قدرته تعالى على الإعادة بعد الحيلولة إلى التراب، وعلى أن الذي أنشأ الإنسان أول مرة قادر على إعادته المرة الثانية، وذلك ما نقرأه في قول الحق تبارك وتعالى:

(١) الروم/ ٥٥-٥٦.
(٢) الكهف/ ٤٧.
(٣) النحل/ ٧٧.
(٤) الزلزلة / ٧-٨، تفسير ابن كثير ٣/٥٧٤.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات وبيان سبب نزولها: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيحي الله هذا بعدما أرم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (نعم: يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم) قال ونزلت الآيات من آخر سورة يسٓ[2].

تبين لنا من سبب النزول ما كان عليه الكفار من إنكار للبعث واستبعاد لوقوعه، تالله لقد ضلت عقول القوم، ألم يكونوا يعلمون أن الله هو الذي خلقهم وخلق آباءهم وأجدادهم؟ وكانوا يقرون بذلك وأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وخلق السماوات أعظم من خلقهم كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

---

(١) سورة يسٓ/ ٧٧-٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٨١، وقال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٢٩، أخرجه الحاكم ٢/٤٢٩ وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[2]، فالذي خلق السموات والأرض وما فيهما من بديع الصنع، قادر على أن يعيدهم من التراب كما بدأهم منه، وهذا لا يستبعده إلا فاقد العقل والضمير أو مستكبر لعين.

وجاء في تفسير هذه الآيات ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث، ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من طين ثم من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين كما قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[4] أي من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟ وكما تقدم من حديث[5] بسر بن جحَّاش رضي الله تعالى عنه قال: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: أنَّى تعجزني ابن آدم، وقد خلقتك من مثل هذه) .... الحديث، ثم قال تعالى مبيناً غرور الإنسان بنفسه ونسيانه الخالق جل وعلا: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا

---

(١) غافر/ ٥٧.
(٢) الكهف/ ٥١.
(٣) المرسلات/ ٢٠-٢٢.
(٤) الإنسان/ ٢.
(٥) هذا الحديث تقدم في الفصل الثاني من هذا الباب/ المبحث الثاني/ الحكمة في خلق نسل الإنسان من ماء مهين.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة للأجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، وكان الجواب المقنع من جنس السؤال ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي أن الذي أوجدها وركب هيكلها أول مرة من العدم هو القادر على إعادتها المرة الثانية بعد أن صارت تراباً وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض و أرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية المباركة: روى البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٨٢.

(٢) الروم/ ٢٧.

(٣) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ رقم/٣١٩٣ كذلك أخرجه في كتاب التفسير/ تفسير سورة (قل هو الله أحد) رقم/ ٤٩٧٤.

ومن الآيات أيضا التي رد بها سبحانه وتعالى على منكري البعث قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات: لما ذكر تعالى المخالفين للبعث والمنكرين للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته على المعاد مما هو مشاهد من بدئه للخلق، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ أي في شك من المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي أصل خلقه لكم كان من تراب وهو الذي خلق منه آدم أبو البشر عليه السلام ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) ثم ختم سبحانه وتعالى هذه الآيات ببيان قدرته على إنبات الأرض القاحلة وتحويلها إلى خضراء يانعة، وكذلك يكون إخراج الموتى من القبور، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ فهذا دليل آخر على

---

(١) الحج/ ٥-٧.

قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، ثم بين تعالى ذلك فقال: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي فإذا أنزل الله تعالى عليها المطر، (اهتزت) أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها (وربت): أي ارتفعت ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار و زروع ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي حسن المنظر طيب الريح كما في آية أخرى ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً[4].

ومما يرد به على منكري البعث أنه من مقتضى الحكمة الإلهية أن جعل الله سبحانه وتعالى لهذه الخليقة يوماً ترجع إليه ليجازيها على ما عملت وليقتص للمظلوم من الظالم فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق عبثاً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[5].

---

(١) الروم/ ١٩.
(٢) فصلت/ ٣٩.
(٣) سورة يس/ ٨٢.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٢٠٨.
(٥) المؤمنون/ ١١٥ – ١١٦.

وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[2].

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه مرجع الخلق يوم الدين ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[3].

ومن شبهات المنكرين للبعث من الكفرة والمشركين والملاحدة وغيرهم قولهم أيضاً: لو أن إنساناً أكل إنساناً وصار غذاءً له فالأجزاء المأكولة إما أن تعاد في بدن الآكل أو في بدن المأكول، وعلى أي حال فلا يكون أحدهما بعينه معاداً بتمامه، وإذا كان الآكل كافراً والمأكول مؤمناً يلزم تنعيم الأجزاء العاصية أو تعذيب الأجزاء المطيعة، ومن القائلين بذلك (ابن سينا) فهو من الفلاسفة الملاحدة[4] المنكرين لبعث الأجساد والقائلين ببعث الأرواح فقط، وهو القائل: أنى يمكن بعث مادة كانت حاملة لصورتي إنسانين في وقتين لهما جميعاً في وقت واحد بلا قسمة؟ فإن قال قائل إنه يبعث للنفس بدن من أي تراب وليس من شرطه أن تكون العناصر الموجودة في الحياة الأولى بعينها، فهو بعينه القول بالتناسخ الصراح[5].

---

(١) التغابن/ ٧. (٢) الغاشية/ ٢٥-٢٦.

(٣) الشعراء/ ٨٨-٨٩.

(٤) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وكان ابن سينا هو وأهل بيته وأتباعهم معروفين عند المسلمين بالإلحاد) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٩/ ١٣٤.

(٥) اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام/ ص ٣٢٢.

والجواب عن هذه الشبهة الشيطانية الساقطة من وجوه:

الوجه الأول: أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الخلق وهو أعلم بجميع خلقه، وقد أخبر في كتابه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنه خلق لكل إنسان جسداً وعظاماً وأجزاءً خاصة به وهي أجزاؤه الأصلية، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[1] فالله سبحانه وتعالى قد بين في هذه الآية أن لكل إنسان عظاماً خاصة به وأنه سيجمعها يوم القيامة ويرد كل عضو إلى مكانه، وفي ذلك رد على من أنكر ذلك من الكفرة.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] فأخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية أن كل من عصى الله تعالى بجوارحه فإنـها ستشهد عليه يوم القيامة بما فعله بـها في الدنيا، فلو كانت يد زيد هي نفسها يد عمر كما زعم هذا الملحد فكيف تشهد وعلى من تشهد؟!وفي ذلك دليل على أن لكل إنسان أعضاءه الخاصة به التي لا يمكن أن تختلط مع أعضاء غيره لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3].

الوجه الثاني: أنه يستحيل شرعاً وعقلاً أن تكون المادة الأصلية نفسها لإنسان أو لإناس هي المادة الأصلية لإنسان آخر أو لإناس آخرين كما زعم هذا الملحد سواء في وقت واحد أو في عدة أوقات متفرقة، أما استحالته شرعاً فلما تقدم من الأدلة القرآنية الدالة على أن الله سبحانه وتعالى خلق لكل إنسان

(١) القيامة/ ٣-٤.
(٢) النور/ ٢٤.
(٣) النجم/ ٣٨.

أجزاءً خاصة به، وأما استحالته عقلاً فإن كل إنسان خلق من مادة خاصة به ولو كانا توأمين وهما في وقت واحد في مكان واحد فكيف بجماعة في وقت واحد في بطون متفرقة فكيف يعقل أن تكون المادة التي خلق منها التوأمان واحدة لكل منهما فلو كان كذلك لما وجد أحد منهما كذلك لو كانت المادة واحدة لعدة أناس في وقت واحد فإنه يستحيل ذلك كما استحال في التوأمين بل أشد من ذلك، وهذا يدل على أن لكل إنسان أجزاءً أصلية خاصة به لا يمكن أن تختلط مع الأجزاء الأصلية لمخلوق آخر، وهذا يدل على توافق الأدلة الشرعية مع الأدلة العقلية في الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق كل إنسان سواء كان ذلك في وقت واحد كما تقدم أو في أوقات متفرقة ومتباينة فإنه خلق لكل إنسان أجزاء خاصة به مستقلة عن الآخرين فهذا الإنسان الذي أكل الآخر له أجزاء أصلية ومادة أصلية خاصة به خلقه الله تعالى منها وهو في بطن أمه وبعد خروجه إلى الدنيا وقبل أن يأكل الآخر فكيف يزعم هذا الملحد أنهما من مادة واحدة فهذا الافتراض الذي زعمه هذا الملحد لا يوجد إلا في عقله المريض الذي امتلأ بالكفر والإلحادوالتناقضات والشبهات والفلسفة الشيطانية الساقطة ثم ما بنى على قوله الباطل من القول بالتناسخ باطل أيضاً لأن المبني على الباطل باطل مثله، فهي كما قال تعالى: ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2] فقول هذا الملحد: (أنى يمكن بعث

---

(١) النور/ ٤٠.

(٢) الفرقان/ ٤٣-٤٤.

مادة كانت حاملة لصورتي إنسانين) فهذه المادة المزعومة ليس لها وجود أصلاً حتى يبنى عليها هذا الملحد شبهته الساقطة، والشيء الذي لا وجود له أصلاً لا يصلح أن يكون دليلاً يعارض به أي شيء فكيف يعارض به كلام الخالق عزوجل الذي خلق الإنسان من ماء مهين؟ وكيف يعارض به كلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟ بل كيف يعارض كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم بشيء لا وجود له إلا في الأذهان السقيمة بالكفر والإلحاد وشبهات إبليس عليه وعليهم لعائن الله تعالى المتتالية إلى يوم الدين.

الوجه الثالث: أن الذي يعاد عند البعث يوم القيامة إنما هو الأجزاء الأصلية، فالمعاد الجسماني لكل من الآكل والمأكول الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره لا الحاصلة بالتغذية، وشيء آخر هو أن الله تعالى يعلم كل كبيرة وصغيرة بالنسبة للإنسان الآكل والمأكول وهو قادر على تخليص أجزاء المأكول الأصلية فلا تدخل في أجزاء الآكل الأصلية، وكذلك الإنسان الذي أكلته الوحوش أوغرق في البحار أو أحرق وصار رماداً فإن الله سبحانه وتعالى قادر على تخليص أجزاء كل إنسان اختلطت بأجزاء لإنسان آخر أو وحش أو طير أو غير ذلك، فلا تختلط بعضها ببعض، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[1] فهذه الآيات وغيرها دليل واضح على أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، وأنه يعلم كل جزئية من الجزئيات التي

---

(١) سورة ق/ ٢-٥.

تناثرت عن جسم أي إنسان في البر والبحر وفي كل مكان وهو قادر على جمعها وإعادتـها بعد تفرقها[1].

ومن شبهات المنكرين للبعث أيضاً لعنهم الله تعالى قولهم: إنه لو جاز إعادة المعدوم لعاد بجميع عوارضه ومنها (الوقت) الذي كان منه مبتدأ فيلزم أن يعاد في وقته الأول وكل ما وقع في وقته الأول فهو مبتدأ فيكون مبتدأً من حيث هو معاد.

ويرد على هذه الشبهة الشيطانية الباطلة: أن اللازم في إعادة الشيء بعينه إعادة العوارض المشخصة، والوقت ليس من تلك العوارض، لأن الشخص في تلك الساعة هو بعينه في الساعة التي بعدها وقبلها، ولو كان الوقت من المشخصات المعتبرة في وجوده وإعادته لكان هو في كل وقت شخصاً آخر وهو باطل[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

إن لفظ (الإعادة) يستعمل باعتبار الحقيقة، فإن الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى فيقال لمن كسر خاتماً أو غيره من المصوغ أعده كما كان، ويقال: من هدم داراً أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن هذا لا يسمى معيداً، و المعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه، وبـهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان ونحو ذلك مما يمنع إعادته فى صريح العقل.

(١) اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام/ ص ٣٠٨.

(٢) اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام/ ص ٤١٦.

و الإعادة التى أخبر الله بـها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التى فهمها المشركون و المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي التى يدل عليها لفظ الإعادة والمعاد هو الأول بعينه و إن كان بين لوازم الإعادة و لوازم البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول[1]. والله تعالى أعلم.

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني رحمه الله تعالى في نونيته في إثبات البعث والرد على الفلاسفة المنكرين له والزاعمين بأنه للأرواح فقط :

والبـعـث بعد الموت وعد صادق ... بـإعـــادة الأرواح في الأبـــــدان
عـلـم الفـلاسـفـة الغـواة طبيعـة ... ومـعـــاد أرواح بـــلا أبـــدان
يا فيلسوف لقد شغلت عن الهدى ... بالـمنطـق الـرومـي واليـونـانـي
وشـريعة الإسـلام أفضل شـرعة ... دين النبـي الصـادق العـدناني[2]

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٧/٢٥٤-٢٥٥.
(٢) نونية القحطاني ص١٧ ، ٢٧ ، ٣٠.

الباب الخامس
بيان أن الغاية من الإيمان بوجود الله عز وجل وربوبيته هي توحيده عزوجل

إن الغاية المنشودة من الإيمان بوجود الله تعالى وربوبيته تعالى غاية عظيمة لا تدانيها غاية لأنـها رأس كل أمر وأساس كل بناء وهذه الغاية هي: الإيمان بوحدانية الخالق جل وعلا، وحدانيته في ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته، ووحدانيته في أسمائه وصفاته، والإيمان برسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وبما أنزل عليهم من كتب وأخبروا به من مغيبات وجاؤوا به من تشريعات.

وتوحيد الله تعالى في ألوهيته هو الواجب الأول على العباد كلهم وعلى من آمن بوجود الله عز وجل وربوبيته كما تقدم في أول الكتاب وهو يتضمن توحيده في ربوبيته وألوهيته وتوحيده في أسمائه وصفاته وذلك بنفي مشابـهة صفاته بصفات المخلوقين وإثبات ما أثبته لنفسه تعالى من الأسماء والصفات أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فتوحيد الربوبية والأسماء والصفات وسيلة لتوحيد الألوهية الذي هو غايتهما وأساس الدين الحنيف، وهذا الباب قد تناول أقسام التوحيد الثلاثة بشيء من الإيجاز مع ما تستلزمه من الإيمان برسل الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وما أخبروا به من الأمور الغيبية كذلك الإيمان بكتب الله تعالى وأقداره.

وقد اشتمل هذا الباب على عدة فصول وفي كل فصل منها مباحـث، فالفصل الأول: في توحيد الربوبية، والثاني: في توحيد الأسماء والصفات، والثالث: في توحيد الألوهية، والرابع: في العلاقة بين أنواع التوحيد، والخامس: في الإيمان برسل الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الأول

توحيد الله تعالى في ربوبيته

لا شك أن الإيمان بوجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية هو الأساس الأول لعقيدة الإسلام لكنه ليس أول واجب على المكلفين لأنه لم ينكره أحد إلا من جحد وكابر عقله وانطمست بصيرته تماماً، وإنما أول واجب على المكلفين هو توحيد الألوهية المتضمن لبقية أنواع التوحيد من الربوبية والأسماء والصفات وبه يدخل العبد في الإسلام، وما دام أن الإنسان قد أقر بوجود الخالق وتوحيده في الربوبية لزمه الإقرار بتوحيد الألوهية والأسماء والصفات لأنـها متلازمة فلا ينفعه الإقرار بواحد منها دون الآخر، فلو أقر بالألوهية والوحدانية في العبادة ولم يقر بتوحيد الربوبية لكان إقراره بالألوهية باطلاً ولكان مشركاً ولم ينفعه ذلك، وكذلك العكس أيضاً.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى في بيان معنى التوحيد وأقسامه وتلازمها:

التوحيد: مصدر وحد يوحد توحيداً أي جعله واحداً، وسمي دين الإسلام توحيداً لأن مبناه على أن الله تعالى واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له. وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله تبارك وتعالى، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال

المطلوب، وإن شئت قلت: التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد في الطلب والقصد: وهو توحيد الألوهية والعبادة، ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وذكر معناه غيرهما[1].

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى: إعلم أن التوحيد الذي بعث الله تعالى به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل به الكتب ينقسم إلى ثلاثة أقسام وذلك حسب استقراء نصوص الكتاب والسنة وحسب واقع المكلفين. وهي توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات[2].

وهذا التوحيد أي توحيد الربوبية لم ينكره أحد من البشر إلا من كابر وأنكر عقله كالملاحدة وأتباعهم لأن وجود جميع المخلوقات دليل على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده، وهذا الفصل يشتمل على مباحث:

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ص٣٢-٣٣ و انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٣.

(٢) انظر العقيدة الطحاوية بتعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى ص٧.

المبحث الأول
في تعريف توحيد الربوبية

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى في تعريف توحيد الربوبية: فتوحيد الربوبية: أنه لا خالق إلا الله تعالى، فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن [1].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى في تعريفه: وتوحيد الربوبية هو الإعتقاد أن الله تعالى المتفرد بالخلق والرزق والتدبير وأنه المحيي المميت النافع الضار وأنه هو الذي ربى خلقه بنعمه وربى خواص خلقه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم على العقائد الصحيحة والأخلاق الحميدة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة التي أثمرت لهم سعادة الدنيا والآخرة [2].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى: ويدخل في الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بالقدر [3].

فعلى هذا يكون توحيد الربوبية: هو الإقرار والإعتراف بأن الله تعالى وحده لا شريك له الخالق لجميع المخلوقات العلوية منها والسفلية، المرئية وغيرها وأنه المتصرف وحده بهذا الكون لا يشاركه فيه أحد، كما أن بيده تعالى جميع المقادير من رزق وموت وحياة وجميع أمور الخلائق، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون لا يشاركه في جميع ذلك شريك، ولا ند ولا مثيل.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/٣٣١.
(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى ص ١٢.
(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٠.

المبحث الثاني
أدلة توحيد الربوبية شرعاً وعقلاً

إن الكون بما فيه لهو خير دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وقد تقدم في ذلك مما فيه الكفاية، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة أيضاً تحدثت عن توحيد الله تعالى في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات أذكر منها البعض[1]، فمنها:

قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾... الآية، أي لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي، مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾[3] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه،

---

(١) تقدم في الأبواب السابقة من الأدلة الشرعية والعقلية على توحيد الربوبية وبقية أقسام التوحيد ما يغني عن الإعادة بل إن الكتاب بكامله في بيان هذه الأدلة وإنما ذكرت هنا بعض هذه الأدلة للإستدلال بـــها على بعض المباحث خاصة.

(٢) المؤمنون/ ٩١.

(٣) الملك/ ٣.

فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والخالق لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الخالق والآخر المغلوب مخلوق، لأنه لا يليق بصفة الخالق أن يكون مقهوراً ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً[1].

وقد أخطأ المتكلمون في جعلهم هذا الدليل قاصراً على توحيد الربوبية والصحيح أنه يشمل أنواع التوحيد الثلاثة كما تقدم في قول ابن كثير رحمه الله تعالى فهذه الآية دليل شرعي وفيها دليل عقلي أيضاً على توحيد الله تعالى في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وقد تقدم ذكر بعض هذه الأدلة في الباب الأول، وإنما ذكرتها هنا لعلاقتها بـهذا المبحث أيضاً، والله تعالى أعلم.

ومن الآيات المماثلة لهذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة كذب دعوى الإلهية من دونه لأنه لو كانت آلهة كما يزعمون لاستطاعت إحياء الموتى وغير ذلك من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الخالق جل وعلا، فعدم الاستطاعة دليل على كذب دعوى الألوهية، ثم بين تعالى حقيقة هذه المسألة، وهي وحدانيته في الربوبية

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٥٤.

(٢) الأنبياء ٢١-٢٢.

والألوهية والأسماء والصفات، وأنه المتصرف بكل ذرة من ذرات الكون من غير منازع ومشارك له في ذلك، فبين تعالى أنه لو كان في السموات والأرض آلهة أخرى كما يزعمون، لعم الفساد، واضطرب الكون بما فيه فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ... الآية، ووجه الفساد أنه لو كان مع الله إله آخر لاستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف، ويحدث بسببه الفساد، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه عز وجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له[1].

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[2].

بين تعالى في هذه الآيات الكريمات بطلان دعوى المشاركة لله تعالى في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وأنه لو كان الأمر كما يزعم هؤلاء الكفرة من أن له شريكاً أو شركاء ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً للوصول إليه ومغالبته ومقاتلته، كما تفعل الملوك مع بعضهم البعض من المقاتلة والمصاولة، ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ والتسبيح: التنزيه، والمتعال: أي المتباعد ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[3] فتبين من هذه الأدلة أن الإله الحق لا بد أن يكون قادراً وغالباً على كل شيء وإلا

---

(١) فتح القدير ٣/٤٠٢.

(٢) الإسراء ٤٢-٤٣.

(٣) فتح القدير ٣/٢٣٠.

كان عاجزاً والعجز دليل الفقر والإحتياج إلى من يسد حاجته وفقره وهذه صفة كل مخلوق فهو محتاج ومفتقر إلى خالق يسد حاجته، وهذا الخالق أزلي لا يغالب، صمد قادر على كل شيء لا يحتاج إلى شيء، وإلا كان محتاجاً لغيره، وهذا يستلزم التسلسل وهو باطل كذلك فإنه غني بذاته عن كل شيء ولا غنى لشيء عنه وهو الله عز وجل الكبير المتعال الحي القيوم وهذا دليل على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء كما تقدم في دلالة الإفتقار فإن انتظام أمر الكون علويه وسفليه يدل على أن ربه وإلهه وخالقه واحد لا شريك له قادر على كل شيء قاهر لكل شيء مستغن بذاته عن كل شيء، فهو واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والله تعالى أعلم.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل الكفار، من رب السموات والأرض المستحق وحده للعبودية، ولما كان الكفار مقرون بوحدانية الله تعالى في ربوبيته، أجاب تعالى عن السؤال بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي أنتم تعلمون ذلك، فلماذا تشركون

(١) الرعد/ ١٦.

معه من لا يستطيع أن يخلق شيئاً ثم بين تعالى حقيقة هذه الآلهة بأن خاطب الكفار باستفهام الإنكار عليهم، كيف يتخذون ويعبدون من دون الله تعالى آلهة لا تملك لهم ولا لها نفعاً ولا ضراً، فكيف يرجى ممن هذه حاله النفع والضر ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي المؤمن الذي يسير على نور من الله تعالى من الكافر الذي يتخبط في الظلمات، ولذا قال تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ الكفر والإيمان، والاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي كيف يكونان مستويين، وبينهما من التفاوت ما بين العمّى والإبصار وما بين الظلمات والنور، ثم ذكر تعالى مظاهر عظمته وقدرته التي استحق بها توحيده في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته دون ما سواه فقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ أي بل جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، والاستفهام لإنكار الوقوع، أي جعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله، فتشابه خلق الشركاء بخلق الله تعالى عندهم، أي ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر عليهم، بل إذا فكروا بعقولهم وجدوا أن الله تعالى هو المنفرد بالخلق، وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً، ثم أمره الله سبحانه وتعالى بأن يبين لهم الحق والصواب، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كائناً ما كان، ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه، ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتفرد بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ لما عداه، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب[1].

---

(١) فتح القدير ٧٤/٣.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[7].

في هذه الآيات المباركات بين الحق تبارك وتعالى أنه المتفرد بالربوبية والمستحق للعبادة وحده لا شريك له، وذلك أنه تعالى هو الخالق المالك للنفع والضر المحيي المميت، الذي بيده أزمة الأمور، والذي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وبين تعالى أيضاً أنه لا شريك له في شيء من ذلك

(١) النحل/ ٢٠.
(٢) الفرقان/ ٣.
(٣) الأعراف/ ١٩١.
(٤) الأنعام/ ١٠٢.
(٥) فاطر/ ٣.
(٦) الزمر/ ٦٢.
(٧) الحج / ٧٣.

وأن الآلهة التي تعبد من دونه لا تستطيع الخلق ولا الإحياء ولا الإماتة، فهي بذلك لا تستحق أن تعبد وإنما الذي يستحق ذلك وحده هو القادر على كل ذلك، فهو الجدير بأن يعبد ويوحد في ذلك كله، وأن يرجى عند الشدائد، وأن يستغاث به ويخاف من عقابه وعذابه، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فبينت هذه الآيات، توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته التي لا يشاركه فيها أحد، وأثبتت له التوحيد دون ما سواه، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾[1]

وبهذا يتبين تلازم دلالات الشرع والعقل على توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأن ذلك خالص له عز وجل لا إله إلا هو الكبير المتعال.

(١) الصافات / ٤-٥.

المبحث الثالث

بيان أن توحيد الربوبية لا يكفي وحده لدخول العبد في الإسلام

لقد كان كفار قريش الذين بعث فيهم محمد صلى الله وآله وسلم يقرون بربوبية الله تعالى ويوحدونه في ذلك، ومع هذا التوحيد لم يكونوا من أهل الإسلام لأنـهم كانوا يقرون لله تعالى بتوحيد الربوبية ويشركون معه في توحيد الألوهية فلم ينفعهم هذا الاقرار بـهذا التوحيد شيئاً لأنـهم لم يأتوا بلازمه، ولو كانوا يعقلون لأدركوا أن لازم ذلك التوحيد- أي توحيد الربوبية- وغايته هو توحيد الألوهية وهو إفراد الله تعالى بالعبادة لأنه هو وحده المستحق لها، فمن خلقهم ورزقهم وخلق السماء والأرض وكل شيء في الوجود هو المستحق وحده للعبادة دون ما سواه من صنم أو حجر لا يعقل ولا يدرك ولا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق أو أي مخلوق كائناً من كان، فالمستحق للعبادة وحده لا شريك له هو الله تعالى الخالق لكل شيء.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في كلامه على توحيد الألوهية والربوبية، فبدأ بالألوهية فقال: وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين في النار، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

ثم تكلم رحمه الله تعالى عن توحيد الربوبية فقال: أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون، وكانوا يعبدون مع الله غيره، ويحبونـهم كما يحبونه، فكان ذلك التوحيد -الذي هو توحيد الربوبية- حجة عليهم، فإذا كان الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه، ولا خالق ولا رازق إلا هو، فلماذا يعبدون غيره

معه، وليس له عليهم خلق ولا رزق، ولا بيده لهم منع ولا عطاء، بل هو عبد مثلهم، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟!(1).

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم اعتراف(2) هؤلاء المشركين بتوحيد الربوبية حيث جاءت الآيات تسجل اعترافاتهم بذلك وتنكر عليهم علمهم بهذا التوحيد مع عدم إخلاصهم العبادة لله وحده فمن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(3).

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآيات المباركات: يقول تعالى مقرراً أنه لا إله هو لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، فذكر تعالى أنه المستقل بخلق الأشياء المنفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلِم يعبد غيره؟! ولِم يتوكل على غيره؟! فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وقد كان المشركون يعترفون بذلك(4).

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى:

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٤/٣٨٠.

(2) قد تقدم الحديث عن هذا في المبحث الأول من الفصل الأول من الباب الأول.

(3) العنكبوت/ ٦١-٦٣.

(4) تفسير ابن كثير ٣/٤٢١.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآيات المباركات:

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا أمر نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا معه غيره مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[2] فقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ أي من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي فيعترفون بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان كذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ أي الكبير، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه

(١) المؤمنون/ ٨٤-٩٠.

(٢) الزمر/ ٣.

في عبادتكم معه غيره وإشراككم به، ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي بيده الملك ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[1] أي متصرف فيها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (لا والذي نفسي بيده)[2]، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: (لا ومقلب القلوب)[3]، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف، وماشاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي في عبادتهم مع الله تعالى غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[4] فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال،

(١) هود/ ٥٦.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وآله وسلم رقم: ٦٦٣٢.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وآله وسلم رقم ٦٦٢٨.

(٤) المؤمنون/ ١١٧.

وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

فمن هذه الآيات السابقة اتضح لنا أن المشركين كانوا معترفين ومقرين بتوحيد الربوبية لاعترافهم بأن الله تعالى خالقهم، ولو كانوا يشركون في ربوبيته لنسبوا خلق السموات والأرض وخلقهم إلى غيره لكنهم نسبوه إليه وحده فدل ذلك على اعترافهم بتوحيد الربوبية، ومع هذا الاعتراف لم يؤمنوا بتوحيد الألوهية، فلذلك عاتبهم الله تعالى على ذلك وأنكره عليهم ووصفهم بالغفلة والسفه والضلال، فتبين بهذا أن توحيد الربوبية لا يكفي وحده للدخول في الإسلام، بل لابد من الإتيان بلازمه وهو توحيد الألوهية والعبادة، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركات بين التلازم بين توحيد الربوبية والألوهية وأنه يجب عليهم الإيمان بأن الله تعالى هو المعبود وحده بحق ما دام أنهم يعلمون ويقرون أنه هو الخالق لهم ولجميع المخلوقات العلوية والسفلية سبحانه وتعالى.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات: هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي أهم خلقوا السماوات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في

---

(١) الزخرف ٢٣، تفسير ابن كثير ٣/٢٥٢.

(٢) الطور/ ٣٥-٣٦.

شركهم بالله تعالى في العبادة وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك[1].

فعلى العبد أن يعلم ويعتقد أن توحيد الربوبية وحده لا يكفي لدخول العبد في الإسلام، بل لا بد أن يأتي بلازمه من توحيد الألوهية والعبادة وذلك أن هذا التوحيد أي توحيد الألوهية هو: حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله سبحانه وتعالى من الأديان سواه، وهذا التوحيد أيضاً يتضمن بقية أنواع التوحيد بل أنه يتضمن دين الإسلام بكامله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[4].

وروى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى يقول لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء كنت تفتدي به فيقول: نعم، فيقول الله عز وجل: أردت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم: ألا تشرك بي فأبيت إلا الشرك»[5].

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٤٤.
(٢) آل عمران/ ٨٥.
(٣) آل عمران/ ٩١.
(٤) الأنعام/ ١٦١-١٦٣.
(٥) رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء/ باب خلق آدم وذريته رقم: ٣٣٣٤، ورواه مسلم في باب الكفار – طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، مسلم بشرح النووي ١٧/١٤٧.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في كتابه تيسير العزيز الحميد مبيناً هذا المعنى: (ولا يكفي توحيد الربوبية لدخول العبد في الإسلام حتى يأتي بلازمه من توحيد الألوهية والعبادة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن المشركين أنـهم كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ومع ذلك لم يكونوا من المسلمين بل كانوا من المشركين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1].

عن مجاهد رحمه الله تعالى: إيمانهم قولهم الله خالقـنا ورازقنا ثم هم يشركون معه في العبادة. أهـ.

فوجب على كل من عقل عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلم السبب الذي أوجب سفك دمائهم واستباحة أموالهم وسبي نسائهم مع هذه المعرفة وبعضهم كان يخلص في الشدائد وبعضهم كان يقر بالبعث فالسبب هو عدم إيمانـهم بتوحيد الألوهية والعبادة الذي هو: معنى لا إله إلا الله والذي هو حقيقة دين الإسلام[2] كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا» متفق عليه[3].

(١) سورة يوسف / ١٠٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٢١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان/ باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بني الإسلام على خمس، رقم الحديث: ٨، ومسلم في كتاب الإيمان/ باب أركان الإسلام ودعائمه، مسلم بشرح النووي ١/١٧٧.

المبحث الرابع
الشرك في الربوبية

المراد من ذلك بيان أن توحيد الربوبية وإن كان لا يكفي وحده لدخول العبد في الإسلام إلا أنه يعتبر أساساً لتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات فبدونه لا يصلح توحيد الألوهية والأسماء والصفات ومعنى ذلك أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية والأسماء والصفات كل منها ملازم للآخر وبدونها لا يقوم الأساس كما تقدم في قول الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في أول هذا الفصل، فأردت أن أبين في هذا المبحث ركنية توحيد الربوبية في باب الاعتقاد، وأن الشرك فيه يفسده ويفسد لازمه وهو توحيد الألوهية وسأذكر في هذا المبحث بعضاً من صور الشرك في الربوبية ليتبين أن الشرك في الربوبية كالشرك في الألوهية مفسد لأساس الدين وموجب لسخط رب الأرباب سبحانه وتعالى.

فمن الشرك في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات أولاً:

شرك اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى، ووجه كونه شركاً في الربوبية أنهم قالوا: إنهم أبناء الله تعالى لعنهم الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، قال تعالى مبيناً شركهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[2] وقولهم هذا هو القول بالحلول والاتحاد، وأن الله تعالى حلَّ واتحد بعزير وعيسى

(١) المائدة: ١٨.
(٢) التوبة/ ٣٠.

عليه السلام ، وهو من أعظم الشرك في الربوبية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : وقول الإتحادية يجمع كل شرك في العالم[1].

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾: أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير حيث قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[2] وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا : ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وقال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمهما الله تعالى : النوع الثاني من أنواع الشرك في الربوبية شرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة[3].

وأما كونه شركاً في الأسماء والصفات فلأنهم أشركوا به غيره في أسمائه وألحدوا فيها، قال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمهما الله تعالى : ومن أنواع الإلحاد في أسمائه النوع الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أباً[4].

وأما شركهم في الألوهية فقد حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5] وغيرها من الآيات الكثيرة،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٤٧٧/٢.

(٢) فتح القدير ٢٤/٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد، المقدمة ص ٢٩.

(٤) تيسير العزيز الحميد، باب قول الله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه) الآية.

(٥) التوبة/ ٣١.

وبيان ذلك أن الله تعالى بعث جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام إلى أممهم بالتوحيد الخالص وهو الإسلام بأن يعبدوه وحده لا شريك له قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2] . ومن بين هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام حيث أرسلهما الله تعالى إلى بني اسرائيل.

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾[3] .

وقال عزوجل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[4].

وقال عزوجل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[5] فدلت هذه الآيات المباركات على أن الله سبحانه وتعالى أرسل موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل بالتوحيد الخالص وهو الإسلام وقد بين سبحانه وتعالى في آية أخرى أن دين الإسلام هو دين

(١) النحل / ٣٦.
(٢) الأنبياء / ٢٥.
(٣) الإسراء / ٢.
(٤) الصف /٦.
(٥) المائدة / ٧٢.

جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأنه لا يقبل من الأديان سواه وأن من مات على غير الإسلام فهو يوم القيامة من الخاسرين ومن أهل النار الخالدين فيها والعياذ بالله تعالى وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١) .

وقد كان قوم موسى عليه السلام في زمانه على التوحيد وهم الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا شريعته عليه الصلاة والسلام وكذلك كان قوم عيسى عليه الصلاة والسلام في زمانه ثم إنه وقع فيهم الشرك والكفر بعد ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً أن أصل دين اليهود والنصارى قبل النسخ والتبديل كان على التوحيد (وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك فإن الله تعالى إنما بعث رسله بالتوحيد والنهي عن الشرك . قال الله تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾(٣) .

---

(١) آل عمران / ٨٣-٨٥ .

(٢) الزخرف / ٤٥.

(٣) النحل / ٣٦ .

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1][2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً : (فدين الأنبياء واحد، وهو دين الإسلام، كلهم مسلمون مؤمنون كما قد بين الله تعالى في غير موضع من القرآن لكن الشرائع تتنوع ثم لما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم نسخت جميع الشرائع التي كانت قبله فمن تمسك بالمنسوخ دون الناسخ فليس هو على دين الإسلام ولا هو متبع لأحد من الأنبياء ولهذا كفر اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل فعلى جميع الخلق اتباعه واتباع شرعه وهو الكتاب والسنة[3].

أصل كلمة اليهودية والنصرانية

اليهودية قيل إنها مأخذوة من (الهود) أي التوبة وهذا من قول موسى عليه السلام في دعائه لربه عزوجل ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ وقيل أنها منسوبة إلى (يهوذا) أخي يوسف عليه السلام أو إلى دولة يهوذا وعلى أي حال فإن هذه التسمية لم تكن معروفة في عهد موسى عليه السلام وإنما كان يطلق عليهم في زمانه عليه السلام أنهم قوم موسى أو أهل الكتاب وكذلك كانوا يعرفون ببني إسرائيل ولم يطلق عليهم هذا اللفظ (اليهود) في الكتاب والسنة إلا على سبيل الذم فقط كقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا

(١) الأنبياء / ٢٥.
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/٥٨.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٥/٣٦٤.

قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3].

فدل ذلك على أنهم لم يشتهروا بهذا الاسم (اليهود) ولم يعرفوا بـهذه الديانة (اليهودية) إلا بعد أن تركوا الدين الحق وانحرفوا عن التوحيد إلى الوثنية والشرك والكفر.

ولذلك قال الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد في تعريفهم : (اليهود هم الزاعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام)[4] ومعنى كلامه أنـهم ليسوا من اتباعه حقاً بل زعماً وذلك بعد تحولهم عن دين الله تعالى الحق إلى الوثنية والشرك والكفر.

وأما النصرانية فقال الشيخ: عبد القادر شيبة الحمد أيضاً :

إنـها نسبة إلى نصرانه وهي قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل وتسمى هذه القرية ناصرة ونصورية ولا أعرف متى على التحديد صارت النصرانية علماً على دين أهل الإنجيل وقد وجدت هذه اللفظة بـهذا المعنى في أوائل القرن الثاني الميلادي.

---

(١) المائدة / ٦٤.

(٢) آل عمران / ٦٧ .

(٣) البقرة / ١٣٥.

(٤) الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة للشيخ/ عبد القادر شيبة الحمد ص ١٥ .

وقد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾[1].

أما المسيحية فهي كذلك تطلق على اتباع المسيح عليه السلام، على أنه لا ينبغي إطلاقها الآن على النصارى لأن هؤلاء في الواقع لا يتبعون المسيح عليه السلام، ولذلك لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تسميتهم مسيحيين.

وقد أطلق عليهم في القرآن أنهم نصارى كما سماهم كذلك أهل الكتاب وأهل الإنجيل[2].

فتبين من كلامه أن هذه الكلمة (النصرانية) لم تكن معروفة في زمان عيسى عليه السلام على القول الصحيح وأنه لا يصح أن يطلق عليهم لفظ (المسيحيين) الآن لأنهم في الحقيقة تركوا دين المسيح عليه السلام وهو التوحيد وكفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ووقعوا في الشرك الأكبر وهو التثليث الذي أوقعهم فيه اليهود إخوان القردة والخنازير، ومن تبعهم من شياطين الإنس والجن عليهم وعلى من تبعهم لعائن الله تعالى المتتالية إلى يوم الدين.

والنصرانية هي دين النصارى الزاعمين أنهم اتباع المسيح عليه السلام وهذا هو الصحيح في تعريفها لأنهم كاذبون في دعواهم المتابعة للمسيح عليه السلام كاليهود في دعواهم المتابعة لموسى عليه السلام،

(١) المائدة / ٨٢.

(٢) الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ص ٣٠.

فالمسيح عليه السلام لم يكن مشركاً مثلثاً بل كان مسلماً موحداً ومؤمناً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وبهذا يتبين أن دين اليهود والنصارى الآن لا يعتبران من الدين السماوي (الإسلام) [1] لأنه قد دخلهما التحريف والتبديل والإنحراف عن الدين الحق دين الإسلام الذي هو التوحيد إلى الكفر والشرك الأكبر وتكذيب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ولأنهما قد نسخا بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هذا فلا يجوز إطلاق القول بأن دين اليهود والنصارى من الدين السماوي (الإسلام) بل يجب أن يقيد بأن ذلك كان قبل التحريف والتبديل والتحول من التوحيد إلى الكفر والشرك والإلحاد وقبل النسخ بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم في قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وكذلك لا يقال عن اليهود من مبعث عيسى عليه السلام إلى قيام الساعة إنهم أتباع موسى عليه السلام ولا عن النصارى من مبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيام الساعة إنهم أتباع عيسى عليه السلام بل يقال إنهم يزعمون ذلك كذباً لأن جميع الشرائع السابقة قد نسخت بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولو كان اليهود أتباع موسى عليه السلام لاتبعوا عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام ودخلوا في الإسلام ولو كان النصارى أتباع عيسى عليه السلام لاتبعوا محمداً صلى الله عليه

(١) لا يصح أن يقال (الديانات السماوية) لأن الدين السماوي دين واحد وهو دين الإسلام وهو دين جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما ورد في القرآن والسنة فتبين أن قول (الديانات السماوية) قول باطل. انظر: الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، للشيخ / بكر بن عبدالله أبو زيد رحمه الله تعالى ص ٤٥ .

وآله وسلم ودخلوا في الإسلام لاسيما وأنه قد بشرهم به عليهما الصلاة والسلام ولأن شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد نسخت جميع الشرائع السابقة فمن كذب محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد كذب جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وبذلك يتبين كذبهم في ادعاء المتابعة فينبغي التنبه لذلك وخاصة الذين يتناولون دراسة هذه الأديان حتى لا يلتبس أمر اليهود والنصارى على من لا علم له بهم، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المشرفة هذا المعنى فقد رد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم على اليهود الذين زعموا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يهودياً، وعلى النصارى الذين زعموا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان نصرانياً، قال عزوجل: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

وقال عزوجل: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

(١) آل عمران / ٦٧.
(٢) البقرة / ١٣٥-١٣٦.
(٣) البقرة / ١٤٠.

فدلت هذه الآيات المباركات على أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما أنها دلت على فساد دين اليهود والنصارى بعد أن دخلهما الشرك الأكبر والإلحاد والتكذيب بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام وبعد أن نسخا بدين الإسلام وشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن السنة الدالة على هذا المعنى ما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار)[1].

فدل هذا الحديث الشريف على أن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ناسخ لجميع الشرائع والأديان السابقة وأن من آمن بالأنبياء السابقين ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه قد كفر بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو من أهل النار، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[2] وبين سبحانه وتعالى أنه أخذ الميثاق من جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان/ باب وجوب الإيمان برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) النساء /١٥٠-١٥١.

ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1] .

فدلت هذه الآية على أن جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام قد آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعاهدوا الله تعالى على الإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم ونصرة دينه فمن زعم أنه من أتباعهم فقد لزمه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وإلا كان كافراً بمن زعم اتباعه منهم بل إن من كفر وكذب محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد كفر وكذب جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما تقدم في الآية السابقة.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى:

وفي هذه الآية إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب والأديان وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها لم تؤسس إلا بعد الخليل عليه السلام فكيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم ؟![2].

---

(١) آل عمرن / ٨١.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ص ١٠٩ – ١١٠.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

إن الذي يدين به المسلمون أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بعثه الله تعالى رسولاً إلى الثقلين : الإنس والجن أهل الكتاب وغيرهم وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله تعالى ومستحق للجهاد وهو مما أجمع عليه أهل الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي جاء بذلك وذكره الله تعالى في كتابه الكريم وبين أنه أرسل محمداً صلى الله وآله وسلم إلى أهل الكتاب وغيرهم وأنه نفسه صلى الله عليه وآله وسلم دعا أهل الكتاب وجاهدهم وأمر بجهادهم فمن قال بعد ذلك من اليهود والنصارى إنه لم يبعث إلينا وإنما بعث إلى مشركي العرب فإنه في غاية الجهل والمكابرة والمعاندة والضلال والكفر.

وكان كفر النصارى لما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثل كفر اليهود لما بعث المسيح عليه السلام ، فإن اليهود كانوا قد بدلوا شرع التوراة قبل مجيء المسيح عليه السلام فكفروا بذلك فلما بعث المسيح إليهم كذبوه فصاروا كفاراً بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه وبتكذيب الكتاب الثاني، وكذلك النصارى كانوا قد بدلوا دين المسيح عليه السلام قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم فابتدعوا من التثليث والإلحاد وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يبعث بها المسيح عليه السلام فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كذبوه فصاروا كفاراً بتبديل معاني الكتاب الأول وأحكامه وتكذيب الكتاب الثاني وإن كان قليل من النصارى الذين لم يبدلوا

دين المسيح عليه السلام كله على الحق فهذا كما أن من كان متبعاً شرع التوراة عند مبعث المسيح كان متمسكاً بالحق كسائر من اتبع موسى عليه السلام فلما بعث المسيح عليه السلام صار كل من لم يؤمن به كافراً وكذلك لما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم صار كل من لم يؤمن به كافراً[١].

وفي ذلك رد واضح على كل من زعم أن دين اليهود والنصارى في هذه الأزمان من الدين السماوي (الإسلام) لأنه كما تقدم قد نسخا بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولأنه قد دخلهما الكفر والشرك الأكبر وتكذيب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وتبين بذلك أيضاً بطلان قول كل من دعا من الكفرة والمشركين والملاحدة وأذيالهم وأتباعهم إلى وحدة الأديان اليهودية والنصرانية والإسلام .

فإن هذا القول الباطل يحاول أصحابه أن يسووا بين الإسلام والكفر وهيهات أن يسوى بين الحق والباطل والشرك والتوحيد والكفر والإيمان وهيهات أن يستر ظلام الكفر والشرك والإلحاد نور التوحيد وشمس الإسلام قال الله تعالى في سياق رده على شرك اليهود والنصارى وكفرهم: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[٢] .

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/١٢٦.
(٢) التوبة / ٣٢-٣٣.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً في الرد على من زعم وحدة الأديان: فصل في ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان:

قالوا في سورة البقرة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] .

فساوى بهذا القول بين سائر الناس اليهود والمسلمين وغيرهم :

والجواب أن يقال : إن معنى الآية ليس كما فهمها هؤلاء الكفرة وإنما معناها أن الله سبحانه وتعالى مدح المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل، والصابئون وهم الصابئون الحنفاء كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام قبل التبديل والنسخ، فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر وعمل صالحاً كما قال تعالى : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[2] .

---

(١) البقرة / ٦٢.

(٢) التوبة / ٢٩.

وقد تقدم أنه كفَّر أهل الكتاب الذين بدلوا دين موسى والمسيح عليهما السلام وكذبوا بالمسيح أوبمحمد عليهما الصلاة والسلام في غير موضع وتلك آيات صريحة ونصوص كثيرة، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1].

فتبين من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أن الدعوة إلى وحدة الأديان اليهودية والنصرانية والإسلام والزعم بأن الديانة اليهودية والنصرانية بعد نسخهما وتحريفهما من الدين السماوي (الإسلام) قول باطل أول من ادعاه هم اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى، وتبعهم في ذلك أذيالهم ممن ينتسبون إلى الإسلام كذباً ونفاقاً والله تعالى أعلم .

وقال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى في رده على من دعا إلى وحدة الأديان من اليهود والنصارى وأذيالهم من المنافقين المنتسبين إلى الإسلام كذباً ونفاقاً: لا يجوز لمسلم يؤمن بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً الاستجابة لهذه الدعوة ولا الدخول في مؤتمراتها وندواتها واجتماعتها وجمعياتها ولا الانتماء إلى محافلها، بل يجب نبذها ومنابذتها والحذر منها والتحذير من عواقبها واحتساب الطعن فيها والتنفير منها وإظهار الرفض لها وطردها عن ديار المسلمين وعزلها عن شعورهم ومشاعرهم والقضاء عليها ونفيها وتغريبها إلى غربها وحجرها في صدر قائلها ويجب على الوالي المسلم إقامة حد الردة على أصحابها بعد

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ٢/٦٢-٦٤.

وجود أسبابـها وانتفاء موانعها حماية للدين وردعاً للعابثين وطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وإقامة للشرع المطهر.

لأن هذه الدعوة تستهدف إسقاط جوهر الإسلام واستعلائه وظهوره وتميزه بـجعل دين الإسلام المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل في مرتبة متساوية مع غيره من كل دين مـحرف منسوخ بل مع العقائد الوثنية الأخرى.

ألا لا وحدة بين مسلم يؤمن بـجميع أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام وبين يهودي أو نصراني لا يؤمن بـمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث عبادة (وأن عيسى عبد الله ورسوله) تعريض باليهود في التفريق بين رسله في إنكارهم رسالته ثم رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعريض بالنصارى أنفسهم في قولهم بالإيمان به مع التثليث وهو شرك مـحض، وبه تعرف السر في تخصيص عيسى عليه السلام في هذا الحديث العظيم الجامع ويجب على كل مسلم بغض الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم ومعاداتـهم في الله تعالى وعدم محبتهم وموالاتـهم قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]

---

(١) البقرة / ١٣٧.

(٢) المائدة / ٥١.

ولهذا فمن لم يكفر اليهود والنصارى وسائر الكافرين والمشركين فهو كافر طرداً لقاعدة الشريعة (من لم يكفر الكافر فهو كافر).

والخلاصة: أن دعوة المسلم إلى توحيد دين الإسلام مع غيره من الشرائع والأديان الدائرة بين التحريف والنسخ بشريعة الإسلام والدعوة لطبع القرآن والتوراة والإنجيل في غلاف واحد أو بناء مسجد وكنيسة ومعبد في مكان واحد ردة ظاهرة وكفر صريح لما تعلنه من نقض جريئ للإسلام أصلاً وفرعاً واعتقاداً وعملاً وهـذا إجماع لا يجوز أن يكون محل خلاف بين أهل الإسلام وإنـها دخول معركة جديدة مع عباد الصليب ومع أشر الناس عداوة للذين آمنوا فالأمر جد وما هو بالهزل[1].

وأما بيان شرك اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى وكفرهم والرد عليهم:

فلقد انحرف دين اليهود والنصارى عما كانا عليه في زمن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام من التوحيد الخالص لله تعالى إلى الشرك الأكبر والكفر الأكبر والإلحاد بالله سبحانه وتعالى وتكذيب أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وقد بين الله سبحانه وتعالى كفر وشرك أهل الكتابين اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى في آيات كثيرة ورد عليهم فمن الآيات في ذلك: قوله الله عز وجل :﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟

(١) الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان لبكر بن عبد الله أبو زيد ص ٤٣ .

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى:

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ﴾ هذا فيه بيان شرك أهل الكتابين وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم ﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة وأن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه غير مفيدة لفائدة يعتد بها، وقوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ أي: يشابهون، والمضاهاة: المشابهة ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم: الأول: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى.

الثاني: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين إن الملائكة بنات الله تعالى.

الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيراً ابن الله تعالى وأن المسيح ابن الله تعالى، وقوله تعالى﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك لأن

(١) التوبة / ٣٠- ٣٣.

من قاتله الله تعالى هلك وقيل معناه لعنهم الله تعالى وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ﴾ الأحبار علماء اليهود والرهبان علماء النصارى وقيل إن الرهبان عباد النصارى والقسيسين علماؤهم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ﴾ وذلك بطاعتهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه فيما يخالف أمر الله تعالى فكانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف على رهبانهم أي اتخذه النصارى رباً معبوداً[2] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي ما بعث الله تعالى به رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه وهذا لا سبيل إليه فكذلك

(١) المائدة / ٨٢ .

(٢) فتح القدير ٢/٦٧، ٦٨ ، ٣٥٢ .

ما أرسل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا بد أن يتم ويظهر ولهذا قال الله تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1] ومن الآيات الدالة على كفر اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[2].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله تعالى المنزلة وأنبياء الله تعالى المرسلة أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها أي ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذرأها[3].

ومن الآيات الدالة على كفر اليهود والنصارى أيضاً قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٨.

(٢) سورة البينة /٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٣٨.

ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله تعالى ورسله عليه الصلاة والسلام في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه أباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل لـمجرد الهوى والعصبية فاليهود عليهم لعائن الله تعالى آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً إنما هو غرض وهوى وعصبية ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي في الإيمان﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً ومسلكاً، ثم أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ ﴾

(١) سورة النساء / ١٥٠-١٥٢.

أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لأمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه لو نظروا حق النظر في نبوته وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به، وقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني بذلك أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله تعالى وبكل نبي بعثه الله تعالى، ثم أخبر تعالى، بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل قال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لذنوبهم إن كان لبعضهم ذنوب[1].

ومن السنة ما رواه مسلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي جئت به إلا كان من أهل النار» وقد تقدم قريباً، وقال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى:

فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) اشتملت على النفي والإثبات فنفت الإلَهية عن كل ما سوى الله تعالى وأثبتت الإلَهية لله تعالى وحده فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها فهو المسلم حقاً فإن عمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم في الدرك الأسفل من

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٧٢.

النار، واليهود يقولونـها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر فلم تنفعهم وكذلك أصحاب القبور يقولونـها ولا تنفعهم لأنـهم على الشرك الأكبر، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنـها لا تنفعه ولو قالها مائة ألف[1].

وحتى ولو نطق اليهود والنصارى بالتوحيد ولم يؤمنوا بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فإنـهم كفار خارجون عن الإسلام من أصحاب النار الخالدين فيها لما تقـدم من الأدلة والتي منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

الرد على تثليث النصارى وشركهم لعنهم الله تعالى

وأما ما ورد في بيان شرك النصارى وكفرهم لعنهم الله تعالى باعتقادهم عقيدة التثليث والرد عليهم فإن النصارى لعنهم الله تعالى قد انحرفوا عن عقيدة التوحيد الخالص التي جاء بـها عيسى عليه الصلاة والسلام إلى عقيدة الشرك الأكبر والكفر بالله تعالى وصاروا على اختلاف فرقهم يعتقدون عقيدة التثليث الباطلة وملخصها ما يلي :

---

(١) تيسير العزيز الحميد / باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ص ٥٤ .

أولاً: يعنون بعقيدة التثليث عندهم: أن الإله الذي يعبدونه ويصفونه بالوحدانية كذباً يتكون من ثلاثة أقانيم: أي أشخاص ينفصل ويستقل بعضهم عن الآخر ويطلقون على هذه الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) إله واحد أي أنهم متساوون في الجوهر أي الذات الإلهية فهي إله واحد وهم متساوون في الأزلية والأبدية والقدرة وسائر الصفات وأنه يطلق عليها مجتمعة (الله إله واحد).

ثانياً: يعتقدون أن المراد (بالأب) وهو الأقنوم الأول عندهم أنه الذات الإلهية المجردة عن الابن وروح القدس والمراد (بالابن) وهو الأقنوم الثاني عندهم أنه كلمة الله تعالى المتجسدة وهو عيسى عليه الصلاة والسلام والمراد (بروح القدس) وهو الأقنوم الثالث عندهم جبريل عليه السلام وهذا هو معنى التثليث في اعتقادهم وقيل : إن المراد بالتثليث أيضاً هو الله سبحانه وتعالى وعيسى عليه الصلاة والسلام ومريم عليها السلام.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾[1] القائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم النصارى والمراد بالثلاثة : الله سبحانه وعيسى ومريم كما يدل عليه قوله تعالى:﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ﴾ وهذا هو المراد بقولهم ثلاثة أقانيم : إقنيم الأب وإقنيم الابن وإقنيم روح القدس[2] .

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية السابقة ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾. وقيل المراد بالأقانيم الثلاثة

(١) المائدة / ٧٣.

(٢) فتح القدير ٢/ ٦٤.

أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الإبن تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير وهم مختلفون في هذه الأقانيم اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه وكل فرقه منهم تكفر الأخرى والحق أن الجميع كفار، وقال السدي وغيره نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله تعالى فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار وهي كقوله تعالى في آخر السورة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ وهذا القول هو الأظهر والله تعالى أعلم[1].

وقال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه[2] تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وأما الرد على تثليثهم وشركهم الأكبر بالله تعالى فمن وجوه:

الوجه الأول:

إن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه المعجز أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبده ورسوله دعا إلى توحيده ونـهى عن الشرك به وأنه خلق من خلقه سبحانه وتعالى خلقه كما خلق آدم عليه السلام وأنه كسائر البشر يصيبه ما يصيب البشر من الحاجة للطعام والشراب والمرض والموت وسائر ما يصيب البشر من النقص والحاجة والإفتقار إلى خالقهم وربهم وإلههم سبحانه وتعالى، وأخبر سبحانه وتعالى أنه ليس له من الربوبية ولا من الألوهية شيء وأنه عليه

(١) تفسير ابن كثير ٢/٨١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/٢٣.

الصلاة والسلام يتبرأ يوم القيامة مما نسب إليه المشركون الظالمون الكافرون من الألوهية أو الربوبية أو أنه ابن الله تعالى وغير ذلك من الكفر والشرك الأكبر تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وأخبر سبحانه وتعالى أن ما أعطاه من المعجزات الظاهرات الواضحات فهي دلالة على صدقه وأنه مرسل من عنده عزوجل وأن هذه المعجزات هي كسائر المعجزات التي أعطاها سائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وليست فيها أية دلالة على ربوبيته أو ألوهيته لأنـها حاصلة بقدرة الله تعالى وإذنه وأن عيسى عليه الصلاة والسلام وسائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ليس لهم أي تأثير في حصول هذه المعجزات البته بل كلها من الله سبحانه وتعالى وقد بين سبحانه وتعالى أيضاً كفر كل من قال بعقيدة النصارى أو اعتقد عقيدتـهم من التثليث والشرك الأكبر لأن الله تعالى قد كفرهم بهذا القول الباطل والفاسد وبيَّن سبحانه وتعالى أيضاً أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبد من عباده ورسول من رسله عليه الصلاة والسلام وأنه لا يستكبر عن ذلك وأنه لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره شيئاً من جلب نفع أو دفع ضر إلا بمشيئة الله تعالى، واذكر في ذلك بعض الأدلة القرانية الدالة على هذه المعاني :

فمن الآيات الدالة على أن عيسى عليه الصلاة والسلام خلق من خلق الله تعالى:

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(1).

وقوله تعالى أيضاً : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾(2).

ومن الآيات الدالة على أنه كسائر البشر يصيبه ما يصيبهم من الحاجة إلى الطعام والافتقار إلى خالقه عز وجل قوله تعالى :﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(3) .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله تعالى المتتابعة إلى يوم القيامة ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي نوضحها ونظهرها (ثم انظر أنى يؤفكون) أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون وبأي قول يتمسكون وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون وقوله تعالى: (قل)

(١) آل عمران / ٤٥ – ٤٧.

(٢) آل عمران / ٥٩ – ٦٠.

(٣) المائدة / ٧٥ – ٧٦.

أي يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهؤلاء العابدين غير الله تعالى من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء فلم عدلتم عنه إلى عباده جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه[1].

ومن الآيات الدالة على أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبد ورسول من رسل الله تعالى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3]

ومن الآيات الدالة على كفر النصارى المشركين القائلين بالتثليث وتبرأ المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام منهم في الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ

(١) تفسير ابن كثير ٢/٨١-٨٢.

(٢) النساء / ١٧١.

(٣) الصف / ٦.

ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي :

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. هذا توبيخ للنصارى الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة فيقول الله تعالى هذا الكلام لعيسى عليه السلام فيتبرأ منه عيسى ويقول (سبحانك) عن هذا الكلام القبيح وعما لا يليق بك ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ أي : ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء

(١) المائدة / ٧٢ – ٧٤ .

(٢) المائدة / ١١٦ – ١١٧ .

المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية ، وإنما الجميع عباد مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه عزوجل ، فلم يقل عليه السلام لم أقل شيئاً من ذلك وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل فقال ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك لا متجرئ على عظمتك ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ أي ما أمرتهم إلا بعبادة الله تعالى وحده وإخلاص الدين له المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله تعالى ، وبيان أني عبد مربوب فكما أنه ربكم فهو ربي ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ممن لم يقم به ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي المطلع على سرائرهم وضمائرهم علماً وسمعاً وبصراً فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر[1].

وهذا القول من الله تعالى لعيسى عليه السلام وتبرأ عيسى منه إنما يكون يوم القيامة على قول جمهور المفسرين كما ذكر ذلك الشوكاني رحمه الله تعالى.

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ص ٢١١.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

إن المسيح عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى وقال لهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فاثبت لنفسه العبودية التامة ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أحداً من المخلوقين لا عيسى ولا غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق وصرف ما خلقه الله له ـ وهو العبادة الخالصة ـ لغير من هي له فاستحق أن يخلد في النار ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذاب الله تعالى أو يرفعون عنهم بعض ما نزل بهم[1].

وهذا القول من عيسى عليه الصلاة والسلام وتبرأه من شركهم إنما هو في الدنيا وهذا فيه رد على كل فرق النصارى ومن تبعهم والله تعالى أعلم.

ومن الآيات الدالة على أن عيسى عليه الصلاة والسلام ليس ابن الله تعالى كما زعمت النصارى لعنهم الله تعالى والدالة على أنه ليس له من الربوبية والألوهية شيء وأن ما أعطاه الله تعالى من المعجزات إنما هي كسائر المعجزات التي أعطاها سائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والتي لا شيء لهم من التأثير فيها وفي حصولها بل كل ذلك بقدرة الله عز وجل وإرادته ولا شيء لهم من ذلك وإنما هي دليل على صدقهم فيما جاؤوا به من توحيده عز وجل وسائر التشريعات.

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ص ٢٠٢.

فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] وقد تقدم تفسير الآية عند بيان شرك اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى.

ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[2].

فبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات عبودية المسيح لله تعالى وأنه لا يستكبر عن عبادته وتبليغ رسالته وهذا كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ

---

(١) التوبة / ٣٠ – ٣١.

(٢) النساء / ١٧١ – ١٧٣.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾[1] وفي هذا رد واضح على كل من زعم أن المسيح عليه السلام ابن الله تعالى أو أن له شيئاً من الربوبية والألوهية والله تعالى أعلم.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي وقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي كلمة تكلم الله تعالى بها فكان بها عيسى ولم يكن تلك الكلمة وإنما كان بها وقوله تعالى ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾[3].

(١) مريم / ٩٣ - ٩٥. (٢) تيسير الكريم الرحمٰن ص ١٧٩.
(٣) آل عمران/ ٤٥ - ٥١.

وقال الله تعالى أيضاً ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

فدلت هذه الآيات على أن هذه المعجزات التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إنما هي بإذنه وأمره وقدرته للدلالة على صدقه وصدق ماجاء به من توحيده عز وجل وأن عيسى عليه السلام ليس له أي تأثير ولا قدرة في حصول هذه المعجزات وذلك كسائر المعجزات التي أعطاها الله تعالى لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام للدلالة على صدقهم فيما جاءوا به من توحيد الله عزوجل ولاتدل على أن عيسى عليه السلام هو الذي فعلها بقدرته كما زعمت النصارى لعنهم الله تعالى بل هي بقدرة الله تعالى كسائر معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال الشيخ أحمد بن إدريس القرافي رحمه الله تعالى في الرد على النصارى لعنهم الله تعالى تحت عنوان (هل تصلح المعجزات لتكون دليلاً على الألوهيه) واعلموا رحمكم الله تعالى أنما أوقع النصارى في هذا الضلال والتخليط الذي وضعوه ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه

(١) المائدة / ١١٠.

والأبرص فقالوا : إن هذه الأفعال لا تصدر إلا عن الإله. ولم يعلموا أن هذه معجزات يظهرها الله تعالى على يد من يشاء من عباده ولم يكونوا بذلك آلهة[1].

الوجه الثاني:

أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر في سنته المشرفة أيضاً عن هذه المعاني المتقدمة في الآيات السابقة عن عيسى عليه الصلاة والسلام وأنه خلق من خلق الله تعالى ورسول من رسله وعبد من عباده لا شيء له من الربوبية والألوهية فمن ذلك :-

١- ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) وهذا لفظ البخاري ورواه مسلم بلفظ (أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء)[2].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى :

هذا حديث عظيم الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه صلى الله عليه وآله وسلم جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها فاختصر صلى الله عليه وسلم في هذه الأحرف

(١) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية للشيخ/ أحمد بن إدريس القرافي ص١٠٢.

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ رقم ٣٤٣٥ ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب/ عقائد التوحيد.

على ما يباين به جميعهم[1].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمهما الله تعالى :

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (وأن عيسى عبد الله ورسوله) وفي رواية (وابن أمته) أي خلافاً لما يعتقده النصارى أنه الله أو ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً كما قال تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2].

فيشهد بأنه عبد الله، أي عابد مملوك لله تعالى، لا مالك، فليس له من الربوبية ولا من الألوهية شيء، ورسول صادق، خلافاً لقول اليهود إنه ولد بغي، بل يقال فيه ما قال عن نفسه كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾[3] الآيات وقال الله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[4] قال القرطبي : ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم.

قوله (وكلمته) إنما سمي عليه السلام كلمة الله تعالى لصدوره بكلمة (كن) بلا أب قاله قتادة وغيره من السلف.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى فيما أملاه في الرد على الجهمية : الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له (كن) فكان عيسى بـ (كن) وليس عيسى هو (كن) ولكن بـ (كن) كان فـ (كن) من الله تعالى قول، وليس : (كن) مخلوقاً،

(١) مسلم بشرح النووي ٢٢٧/١.
(٢) المؤمنون / ٩١ – ٩٢.
(٣) مريم / ٣٠ .
(٤) النساء / ١٧٢ .

وكذب النصارى والجهمية على الله تعالى في أمر عيسى عليه السلام وذلك أن الجهمية قالت : عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكلمة مخلوقة وقالت النصارى : عيسى روح الله من ذات الله تعالى وكلمة الله تعالى من ذات الله تعالى كما يقال : إن هذه الخرقة من هذا الثوب وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة، انتهى : يعني به ما قال قتادة وغيره.

قوله: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: خلقه بالكلمة التي أرسل بـها جبرائيل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عزوجل فكان عيسى بإذن الله عزوجل وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى أنه كلمة الله تعالى وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشيء عن الكلمة التي قال له : (كن) فكان، والروح التي أرسل بـها جبريل عليه السلام.

قوله: (وروح منه) قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : أي من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1] يقول من أمره.

وقال أبو روق: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي نفخة منه ، إذ هي من جبرائيل عليه السلام بأمره تعالى، وسمي روحاً لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام[2].

(١) الجاثية / ١٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد/ باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ص ٥٧-٥٩.

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي من خلقه كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي من خلقه[1].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ يقول جل وعلا ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ أي كمثل أدم حيث خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فالذي خلق أدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأول والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوه في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ومعلوم بالإتفاق أن ذلك باطل فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ولهذا قال تعالى في سورة مريم ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقال هنا ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولاصحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال[2].

ومن الأحاديث الدالة على ذلك أيضاً ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) فتح القدير ١/٥٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٦٧.

«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا ومافيها» ثم يقول أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: واقرؤا إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[1] .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (ليوشكن) أي ليقربن (أن ينزل فيكم) أي في هذه الأمة (حكماً) أي حاكماً، والمعنى أنه ينزل حاكماً بـهذه الشريعة .

فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى عليه السلام حاكماً من حكام هذه الأمة وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (فيكسر الصليب) أي يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه وقوله صلى الله عليه وسلم : (ويقتل الخنزير) فيه دليل على تحريم أكله وأنه نجس .

وقوله : صلى الله عليه وسلم (ويضع الجزية) المعنى أن الدين يصير واحداً فلا يقبل إلا الإسلام ولا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية قال النووي : والصواب أن عيسى عليه السلام لا يقبل إلا الإسلام ومعنى وضع عيسى عليه السلام الجزية مع أنـها مشروعة في هذه الشريعة : أن

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء / باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام، رقم ٣٤٤٨ ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وآله وسلم حاكماً، مسلم بشرح النووي ٢/١٩٠ .

مشروعيتها مقيدة بنزول عيسى عليه السلام لما دل عليه الخبر وليس عيسى عليه السلام بناسخ لحكم الجزية بل نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو المبين للنسخ بقوله هذا، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (ويفيض المال) أي يكثر، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (حتى لا يقبله أحد) لكثرة البركات ولعلمهم بقرب الساعة.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) أي أنهم حينئذ لايتقربون إلى الله تعالى إلا بالعبادة لا بالتصدق بالمال، وقيل معناه إن الناس يرغبون عن الدنيا حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

قوله: (ثم يقول أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ .

قال ابن الجوزي : إنما تلا أبو هريرة رضي الله تعالى عنه هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله صلى الله عليه وآله وسلم (حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس وشدة إيمانهم وإقبالهم على الخير، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا، والسجدة تطلق ويراد بها الركعة[1].

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء

(١) فتح الباري ٦/٤٩١.

إخوة لعَلاَّت أمهاتـهم شتى ودينهم واحد)[1].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أنا أولى الناس بابن مريم) أي أخص الناس به وأقربـهم إليه لأنه بشَّر بأنه يأتي من بعده.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (والأنبياء أولاد عَلاَّت) وفي رواية (إخوة لعَلاَّت) العَلاَّت بفتح المهملة الضرائر وأولاد العَلاَّت الإخوة من الأب وأمهاتـهم شتى ومعنى الحديث : أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل : المراد إن أزمنتهم مختلفة[2].

قلت : ويستفاد من هذا الحديث الشريف أن دين الأنبياء واحد وهو التوحيد والإسلام وفي ذلك رد على اليهود المكذبين لعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وعلى النصارى القائلين بالتثليث والشرك الأكبر والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث إن دين جميع الأنبياء واحد وهو الإسلام وأن من آمن ببعض الأنبياء وكفر بالآخر فقد كفر بجميعهم كما تقدم بيان ذلك والله تعالى أعلم.

الوجه الثالث: أن قولهم (الأب والابن وروح القـدس) إلّه واحد تناقـض واضح لا يخفى على أحد إذ كيف يكون كل أقنوم ينفصل عن الآخر ويستقل بذاته وهم ثلاثة ثم يقال : إنـهم إلّه واحد فهذا هو عين التناقض

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ رقم الحديث ٣٤٤٣.

(٢) فتح الباري ٦/٤٨٩.

الذي لا يقبله الشرع ولا العقل بل إن النصارى أنفسهم يعلمون أن قولهم هذا باطل شرعاً وعقلاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

وقولهم : (فالإله واحد ، خالق واحد، رب واحد) ، هو حق في نفسه لكن قد نقضوه بقولهم في عقيدة إيمانهم (نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه، مساوٍ الأب في الجوهر) فأثبتوا هنا إلهين ثم أثبتوا روح القدس إلهاً ثالثاً، وقالوا إنه مسجود له : فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة، ويقولون : إنما نثبت إلهاً واحداً، وهو تناقض ظاهر وجمع بين النقيضين بين الإثبات والنفي، ولهذا قال طائفة من العقلاء ، إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوه بل تكلموا بجهل وجمعوا في كلامهم بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولاً، وقال آخر لو سألت بعض النصارى وأمرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولاً وأمرأته قولاً آخر، وابنه قولاً ثالثاً[1].

الوجه الرابع:

أن زعمهم أن هذه الأقاليم الثلاثة متساوية في الأزلية والأبدية وأن كل واحد من الثلاثة هو عين الآخر وأن هذه الأقانيم ينفصل بعضها عن

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٥٥/٢ ومن أراد التوسع في الرد على اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى فليرجع إلى هذا الكتاب فإنه من أفضل ما ألف في ذلك، رحم الله تعالى شيخ الإسلام رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام وأهله خير الجزاء وأهلك أعداءه أعداء (السلفية أهل السنة والجماعة)، وسائر أهل الكفر والإلحاد والبدع والضلال .

بعض وأنهم متساوون في الألوهية كلام باطل متناقض لا يقبله من له أدنى مسكة من عقل فكيف تكون الثلاثة متساوية في الأزلية وهم يعلمون أن عيسى عليه الصلاة والسلام وجد وخلق بعد أن لم يكن وكذلك جبريل عليه السلام وكيف تكون شيئاً واحداً وهي منفصلة عن بعضها وكذلك زعمهم أن الأب هو الأساس ولكن الابن لم يوجد بعد الأب بل وجوده أزلي كالأب فهذا قول أقرب إلى قول المجانين والسكارى بل أشد من ذلك ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وكيف يسوي بين الخالق والمخلوق في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات وهي خاصة بالخالق عز وجل المستحق لها دون جميع مخلوقاته المفتقرة إليه والمربوبة له عزوجل فهو إلهها وخالقها وفاطرها والقائم على جميع شؤونها وحاجاتها قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[1].

الوجه الخامس:

أن قولهم إن هذه الثلاثة ينفصل بعضها عن بعض وهي واحدة وإن مثَل هذه الأقانيم الثلاثة كمثَل الشجرة التي لها فروع وأغصان وجذور وساق وأوراق فهي شجرة واحدة ولها فروع متعددة كما أن الإلّه واحد وله ثلاثة أقانيم فهذا قول باطل ومغالطة واضحة لأن الشجرة بفروعها وجذورها وأوراقها وأغصانها تعتبر شجرة واحدة لاينفصل بعضها عن الآخر وأما هذه الأقانيم المزعومة فإن كل واحد منها ينفصل عن الآخر انفصالاً مستقلاً فكيف تكون

(١) الفرقان / ٣.

واحدة وهي كذلك، فهذا تناقض واضح وتشبيه فاسد، وهذا التشبيه الفاسد وأمثاله مما شبهوا به تثليثهم وأرادوا به أن يجمعوا بين الشرك والتوحيد لا ينخدع به إلا من فقد عقله ممن أراد الله تعالى له الضلال والهلاك وإلا ففساده وبطلانه شرعاً وعقلاً وحساً واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

الوجه السادس:

أن النصارى عليهم اللعنة يعلمون أن عيسى عليه السلام هو ابن مريم عليها السلام وأنها ولدته بعد أن كانت حاملاً به فهو مخلوق كسائر البشر ويعلمون أيضاً أنه يأكل الطعام هو وأمه وأنه يحتاج إلى إخراجه كغيره من البشر ومتصف بجميع صفات البشر ومع ذلك كله يقولون هو ابن الله تعالى وأنه مثل أبيه في الأزلية والأبدية والألوهية والربوبية والأسماء والصفات فأي كذب وضلال وتناقض أشد وأعظم من ذلك فلو كان لله تعالى ولداً وحاشاه من ذلك لكان مشابهاً لأبيه في الصفات فإن الأب والابن يتشابهان في الصفات ويشتركان فيها فيترتب على هذا القول الباطل أن الأب كان معدوماً ثم وجد كما كان الابن معدوماً ثم وجد وأن له أباً وهكذا يتسلسل وبهذا لا يكون خالقاً بل مخلوقاً لمن أوجده بعد عدمه أو أوجد آباءه لأن الخالق لابد أن يكون أزلياً وبذلك يتبين بطلان قولهم وفساده، ويترتب على قولهم إن عيسى عليه السلام ابن الله تعالى أيضاً أن يكون مشابهاً لأبيه لأن الابن يشبه أباه وهم يعلمون أن الله تعالى أزلي أبدي وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمرض ولا يموت وأما عيسى عليه السلام فهو على العكس من ذلك

فهو إذاً لا يشبه الله تعالى وحاشا الله تعالى أن يشبه خلقه قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]. وبذلك لا يكون ابناً لله تعالى بل مخلوقاً من مخلوقاته وعبداً من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[2].

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾. هذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين الذين زعموا أن الرحمٰن اتخذ ولداً كقول النصارى ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ واليهود ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ أي عظيماً وخيماً من عظيم أمره أنه ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي من هذا القول ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ منه أي تتصدع وتنفطر ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تندك الجبال ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي من أجل هذه الدعوى القبيحة اللعينة، تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر والحال أنه (ما ينبغي) أي: لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه وهو الغني الحميد والولد أيضاً من جنس

---

(١) الشورى / ١١.

(٢) مريم / ٨٨-٩٥.

والده والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ أي ذليلاً منقاداً ، غير متعاص و لاممتنع، الملائكة والأنس والجن وغيرهم، الجميع مماليك متصرف فيهم ليس لهم من الملك شيء ولا من التدبير شيء فكيف يكون له ولد وهذا شأنه وعظمة ملكه؟!! ﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾ أي لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم أهل السموات والأرض، أحصاهم وأحصى أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى ولا يخفى عليه خافية ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ أي لا أولاد ولا مال ولا أنصار ليس معه إلا عمله فيجازيه الله سبحانه وتعالى ويوفيه حسابه إن خيراً فخير وإن شراً فشر كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾[1].

الوجه السابع: أن دعواهم أن الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً اتحد بالمسيح عليه السلام وحل بين الناس في صورة إنسان هو المسيح قول باطل بالشرع والعقل أما الشرع فإن الله تعالى بين في كتابه الكريم أنه استوى على عرشه وأنه بائن عن خلقه منفصل عنهم وأنه فوق سماواته على عرشه قال الله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[2] في عدة مواضع في القرآن الكريم وكذلك في سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ما يدل على ذلك كقوله صلى الله عليه وآله وسلم (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ يأتيني خبر السماء

(١) الأنعام / ٩٤ ، تيسير الكريم الرحمٰن / ص ٤٥٠.

(٢) سورة طه / ٥.

صباحاً ومساءً)[١] والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً[٢].

وأما العقل فكيف يعقل أن يختلط الخالق المتصف بصفات الكمال والجلال بالمخلوق الناقص من كل وجه إذا المختلط بالشيء المتحد به يأخذ حكمه فيترتب على هذا القول الباطل أن يكون الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً وكفى بهذا تناقضاً وبطلاناً لأنه يؤدي إلى إنكار الخالق والمخلوق معاً وكيف جوزت عقول هؤلاء الضلال أن يكون الخالق في بطن امرأة يتقلب من النطفة إلى العلقة بين الأقذار والأوساخ إلى أن يكتمل ثم بعد ذلك يخرج من ذلك المكان ثم يرضع ويكبر ويأكل ويشرب ويمرض ويصلب كما يزعمون ويـموت وكيف يعقل أن يكون الخالق كذلك ومن الذي كان يقوم على أمره وهو كذلك إلى أن تم خلقه أيعقل أن يـخلق نفسه بنفسه وأين كان قبل أن يخلق نفسه هل كان عدماً أم موجوداً فإن كان عدماً فكيف يـخلقها وإن كان موجوداً فلا حاجة لـخلقها ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وضلال بعيد ولعنة وغضب ونار وسخط قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[٣].

(١) رواه البخاري في صحيحه / كتاب المغازي / باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع ، رقم /٤٣٥١ ، ورواه مسلم في كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه، مسلم بشرح النووي ١٦٢/٧ .

(٢) من أراد التوسع في الإطلاع على أدلة إثبات علو الله تعالى على خلقه فليراجع كتاب (العلو) للإمام الذهبي رحمه الله تعالى.

(٣) الأعراف / ١٧٩.

وقال الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ويقال لهم أيضاً ومن كان يدبر أمر المخلوقات ومدبره في بطن امرأة كما يزعمون لعنهم الله تعالى.

الوجه الثامن:

يقولون لعنهم الله تعالى وقبحهم إن يسوع المسيح أي عيسى عليه الصلاة والسلام ولد من أبيه - أي الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً - قبل الخلائق.

ويرد عليهم أنكم متفقون على أن المسيح عليه السلام كما تزعمون اسم لا يختص باللاهوت - الإلَه - بل هو اسم للناسوت - الناس - واللاهوت جميعاً فإذا قلتم في هذا الاسم الذي هو عبارة عن اللاهوت والناسوت إنه ولد من الأب قبل الخلائق فقد جعلتم الناسوت الذي اتحد به اللاهوت مولوداً أيضاً من الأب وأنتم تأبون ذلك وتقولون: إن المولود من الأب إنما هو اللاهوت فقط وهي الكلمة ولم تكن إذ ذاك ناسوتاً ولا يسوعاً -عيسى- وليس بمخلوق في هذا وهو مناقض لما قلتم لأنكم جعلتم يسوع المسيح -عيسى- متولداً من الأب ويسوع المسيح هو اللاهوت والناسوت، فقد ولد الأب الناسوت على هذا القول وهو باطل.

وأما قولكم من أجلنا يا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل

(١) الجاثية / ٢٣.

من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحُبل به ثم ولد من مريم البتول وأولم واتجع وقتل وصلب ودفن وقام في اليوم الثالث فهذا قول من هدم عقله وسلب فهمه وغلب عليه هواه وطبع الله تعالى على قلبه وأعماه وأول ما فيه أنـهم جعلوا إلهَهم يعجز عن خلاصهم ما لم يفعل بنفسه ما لا يليق بالإلّه من هذه الخصائل الرذيلة، فلم يكن يقدر على خلاصهم حتى نزل بنفسه من السماء وتجسد بجسد محدَث ودخل في بطن امرأة وخرج من فرجها ثم حل به بعد ذلك ما وصفوه آنفاً فكأنه لو لم يكن يتجسد المرأة ويحتمي بما أخذه من ناسوتـها لم يقدر على خلاصهم.

فما نرى الناسوت إلا أقوى من الإلّه إذ لولاه لم يقدر لكم الإلّه على خلاص ثم نراه أيضاً ليته قدر على خلاصكم وهو سالم من هذه الآفات والنقائص بل كأنه فداكم بنفسه وتقدم يحمل البلاء عنكم فقد حل به البلاء عنكم فبعداً وسحقاً لهذا الإلّه، ولما كان خلاص يرجى من عند من هذه صفته ولا كنتم ولا كان خلاصكم الذي أحوج إلّهكم إلى أن يعمل بنفسه هذه الدناءات والنقائص والعجب من هذا أن هذا الإلّه بعد أن فعل بنفسه من الذل والهوان ما وصفتم في إرادة خلاصكم من آفات الدنيا، فما نراه خلصكم بل أنتم باقون على ما كنتم عليه من طبع البشر تموتون وتقتلون بكل واد ويجري عليكم ما يجري على جميع بني آدم.

وأما قولكم نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى فقد نقضتموه بقولكم وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله بكر

الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع إلّه حق من جوهر أبيه الذي بيده اتفقت العوالم وخلق كل شيء.

وقولكم بالرب الواحد يسوع ابن الله ناقض قولكم بالأب الواحد وبيان ذلك أنكم أثبتم أباً وابناً فإن كانا جميعاً شيئاً واحداً استحال أن يتنوع الشيء الواحد فيكون أباً لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون أباً لنفسه وذلك محال.

وأيضاً فلو كان الأب والابن شيئاً واحداً للزمكم أن يكون كلما وصفتم به الابن فهو وصف للأب فيلزم على قولكم هذا أن يكون الأب موصوفاً بأنه بكر الخلائق مولود قبل العوالم وأن يكون قد نزل من السماء بخلاصكم إلى غير ذلك مما وصفتم به الابن فلما بطل هذا بطل أن يكونا شيئاً واحداً.

وإذا كان الأب والابن شيئين فقد وصفتم كل واحد منهما بأنه رب وإله وإذا كان كل واحد من الشيئين إلّهاً فهما إلّهان فهذا يبطل وصف الأب بالوحدانية ووصف الابن أيضاً بالوحدانية لأنهما ربان وإلّهان وشيئان ليس أحدها هو الآخر. إذ ليس هو موصوفاً بما وصف به الآخر على ما بينا.

ثم نقضتم قولكم في الأب صانع ما يرى وما لا يرى بقولكم في الابن بيده اتفقت العوالم وخلق كل شيء وهذا تخليط لأنه إن كان الأب صانع العالم كله فكيف يكون الابن خالق كل شيء ؟ وإن كان الابن خالق كل شيء فكيف يكون الأب صانعاً للعالم كله؟ فإن عادوا إلى أن الأب والابن شيء واحد - فما فعله أحدهما فعله الآخر - عدنا لهم وألزمناهم إن كانا شيئاً واحداً أن نثبت صفات الابن للأب على ما بيننا ، ويلزمهم أيضاً إذا كان الأب

والابن شيئاً واحداً أن يكون المتجسد جسد عيسى الابن والأب جميعاً إذا يستحيل في الشيء الواحد أن ينقسم فلما قالوا بأجمعهم إن المتجسد هو الابن دون الأب بطل أن يكونا شيئاً واحداً وأما قولكم إنه بكر الخلائق فقد أثبتم بـهذا اللفظ أن الابن مخلوق لأن المعقول من قولكم بكر المخلوقات أي أول المخلوقات ، وأول المخلوقات مخلوق ثم نقضتم هذا بقولكم وليس بمصنوع وهذا تناقض بيّن[1].

الوجه التاسع:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : وإن قلتم إنما استدللنا على كونه إلّهاً بأنه لم يولد من البشر، ولو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر.

فالجواب: أنه إن كان هذا الاستدلال صحيحاً فيترتب عليه أن آدم عليه السلام يكون إلّه المسيح، وهو أحق بأن يكون إلّهاً منه لأنه لا أم له ولا أب والمسيح له أم، وحواء أيضاً اجعلوها إلّهاً خامساً لأنـها لا أم لها وهي أعجب من خلق المسيح ؟!!

والله سبحانه وتعالى قد نوع خلق آدم وبنيه إظهاراً لقدرته وأنه يفعل ما يشاء، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق زوجه حوى من ذكر لا من أنثى، وخلق عبده المسيح من أنثى لا من ذكر وخلق سائر النوع من ذكر وأنثى وإن قلتم جعلناه إلّهاً للعجائب التي ظهرت على يديه .

فالجواب : أن عجائب موسى عليه السلام أعجب وأعجب[2].

---

(١) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص ٩٨-١٠١.

(٢) هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٤٨.

فهذه أقوالهم الباطلة شرعاً وعقلاً وما كان باطلاً في الشرع والعقل فهو من وحي الشيطان الذي أعمى أتباعه عن الاستدلال بالشرع والعقل وأقنعهم بالاستدلال بوحيه ولذلك كانوا معه في نار جهنم لردهم الشرع والعقل كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[2].

الوجه العاشر:

أن قولهم إن المسيح عليه السلام قد صلب وقتل فداءً لتخليص البشر من خطيئة أبيهم آدم عليه السلام وهي أكله من الشجرة التي نهي عنها فانتقلت تلك الخطيئة إلى أبنائه فغضب الله تعالى عليهم أيضاً، فهم بهذه العقيدة الباطلة خدعوا عوام الناس فأدخلوهم في النصرانية بحجه أن الله تعالى قد غضب على جميع الخلق بسبب ارتكاب أبيهم هذه الخطيئة ولا يكون الخلاص لهم من ذلك إلا باعتناق النصرانية التي يزعمون أنها تخلصهم من ذلك الغضب ولا ينخدع بهذا القول إلا جاهل ضال.

وقولهم هذا مردود بما ورد في القرآن الكريم حيث بين الله سبحانه وتعالى أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام لم يقتل ولم يصلب وأن المقتول هو الذي أوقع الله تعالى عليه شبه المسيح عليه السلام قال الله تعالى :

(١) الملك / ١٠-١١.

(٢) الأنعام / ١١٢.

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(١) .

وأما قولهم بالفداء وأن الله تعالى غضب على أبناء آدم لارتكاب أبيهم تلك المعصية فقد بين الله سبحانه وتعالى أنه قد تاب على آدم بعد أن تاب من ذلك الذنب قال الله تعالى :﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾(٢) وبين سبحانه وتعالى أن معصية الإنسان لا يلحق أحد وزرها إلا هو وفي ذلك رد عليهم في زعمهم أن الله تعالى غضب على أبناء آدم عليهم السلام لارتكاب أبيهم تلك المعصية قال الله تعالى :

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾(٣) وهذا على فرض أنه لم يتب منها فكيف وقد تاب منها وأخبر تعالى أنه قبل توبته كما تقدم فبطل بذلك زعمهم الصلب والفداء لعنهم الله تعالى وقبحهم.

ثم هم يسترون هذه العقيدة الفاسدة المتناقضة إذا اتضح فسادها عقلاً وشرعاً لمن أراد الدخول فيها وعدل عن ذلك بقولهم: إن روح القدس لم يهبك الإيمان بها وما حجتهم ودليلهم على ذلك إلا وحي الشيطان لا روح القدس فالشيطان هو الذي يزين لأصحابه الدخول في هذه العقيدة الباطلة وفي كل عقيدة ودين يخالف دين الإسلام.

---

(١) النساء / ١٥٧ .

(٢) سورة طه / ١٢٢.

(٣) النجم/ ٣٨ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى في رده على النصارى القائلين بالتثليث والزاعمين أن التثليث صفات لجوهر واحد، فرد عليهم بنفس قولهم، وأن الثلاثة لا يمكن أن تكون واحداً، قال رحمه الله تعالى: إنكم صرحتم بتعدد الآلهة الأرباب عن عقيدة إيمانكم، وأنتم تصرحون بذلك كما هو قولكم: نؤمن بإله واحد، ضابط الكل، خالق ما يرى وما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله وبروح القدس الرب المحي، فهذا تصريح بالثلاثة أرباب وتعدد الآلهة، وأن لكل واحد جوهراً مستقلاً ولو لم تذكروا ما يقتضي أنه جوهر آخر لأمكن أن يحمل كلامكم على عطف الصفة لكن يكون أعظم كفراً لأنه يقتضي أن يكون المسيح هو الله، فإنه إن كان هو الله لم يكن هو ابن الله[1].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [2] فالمسيح عليه الصلاة والسلام قد بين منذ ولادته وإلى أن رفعه الله تعالى بأنه عبد الله ورسوله وكان أول كلمة نطق بها في المهد ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾[3] ولم يقل إني الله ولا ابن الله وفي كهولته قال أيضاً آمراً لهم بعبادة الله تعالى ربه وربهم وحده لا شريك له كما في هذه الآية ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/٢٤٩.

(٢) المائدة / ٧٢.

(٣) مريم / ٣٠.

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1].

ومن أنواع الشرك في الربوبية والألوهية :

ثانياً: اعتقاد أن لغير الله تعالى تصرفاً في الكون من جلب نفع أو دفع ضر أو أن له شيئاً من التدبير في هذا الكون فمن اعتقد ذلك فقد أشرك في الربوبية والألوهية معاً ويدخل في ذلك نسبة الخلق إلى الأسباب التي خلقها الله تعالى ونسيان المسبب لها وهو الله تعالى أو نسبته إلى أي مخلوق من مخلوقات الله تعالى كما هو قول الملاحدة لعنهم الله تعالى.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه الذي بيده النفع والضر والخلق وغيرها من معاني الربوبية جميعها له وحده لا شريك له وأن ما عداه من آلهة باطلة لا تملك شيئاً من ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[3] وقال تعالى:﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[5]

(١) تفسير ابن كثير ٢/٨١.
(٢) الفرقان / ٣.
(٣) سورة يس / ٢٣.
(٤) يونس / ١٠٧.
(٥) الإسراء / ٦٧.

فدلت هذه الآيات أن الله تعالى وحده هو الذي يملك جلب النفع ودفع الضر وأن له التدبير المطلق في هذا الكون، ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن زيد بن خالد الجهني رضي الله تعالى عنه أنه قال : (صلى لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف من صلاته أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال : قال الله تعالى:أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر: فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[1].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى : قال ابن قتيبة : كانوا في الجاهلية ينسبون نزول المطر إلى الكوكب إما لخلقها له أو أن لها تأثيراً في نزوله، فمن قال هذا القول إن كان يعتقد أن الكواكب هي التي تخلق المطر أو أن لها تأثيراً في نزوله فقد أشرك بالله تعالى في ربوبيته وألوهيته شركاً أكبر، وأما إن اعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو المنزل للمطر وأن المطر ينزل في الغالب في هذه الأوقات فهذا لا يكون من الشرك ويجوز إطلاق كفر النعمة عليه[2] أي إن قال مطرنا بنوء كذا على هذا المعنى .

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الاستسقاء ، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ رقم الحديث ١٠٣٨.

(٢) تيسير العزيز الحميد / باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ص ٣٤١.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى مبنياً معنى الشرك في الربوبية : فأما الشرك في الربوبية فإن الله تعالى هو المانع المعطي النافع الضار الرافع الخافض المعز المذل فمن اعتقد أن شيئاً من ذلك لغير الله سبحانه وتعالى فقد أشرك في الربوبية[1].

فمن نسب الخلق أو أي معنى من معاني الربوبية إلى الأسباب فقد أشرك شركاً أكبر كما قال شارح الطحاويه رحمه الله تعالى : الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد[2].

ومما يدل على ذلك أيضاً ما رواه الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فقال (يا غلام ، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء إلا قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف)[3].

فدلت هذه الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى وحده المتصرف في هذا الكون وأن جميع ما في هذا الكون لا يخرج عن قضائه وقدره عزوجل.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٩٢/١.

(٢) شرح الطحاوية ص ٥٢٠.

(٣) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة باب /٢٢ وقال الألباني رحمه الله تعالى : صحيح ، انظر صحيح سنن الترمذي للألباني ٣٠٩/٢ رقم الحديث ٢٠٤٣ – ٢٦٤٨.

ومن أنواع الشرك في الربوبية والألوهية:

ثالثاً: اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى أعطى الربوبية أو جزءاً منها لغيره من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما تقدم في النوع الأول من شرك اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى.

أو من الملائكة أو الأولياء ممن أعطاه قدرة أو أذن له كوناً بشيء من المعجزات أو الأمور الخارقة للعادة فمن اعتقد ذلك فقد أشرك في الربوبية والألوهية أيضاً، فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام عباد لله عزوجل والله سبحانه وتعالى أعطاهم هذه المعجزات لا لأن لهم شيئاً من الربوبية والألوهية وإنما للدلالة على صدق ما جاؤوا به من عنده تبارك وتعالى من الأمر بتوحيده وطاعته عزوجل وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن جميع من في السموات والأرض عباد له عزوجل لا شيء لهم من الربوبية أو الألوهية قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾[1] وبين سبحانه وتعالى أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وكذلك الملائكة عباد لله عزوجل لا يستكبرون عن عبادته وطاعته.

قال الله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

(١) مريم / ٨٨-٩٥.

إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[1].

وكذلك يدخل في هذا النوع : اعتقاد أن للملائكة عليهم السلام جزءاً من الربوبية أو أن الله تعالى أعطاهم شيئاً من ذلك.

قال سبحانه وتعالى مبيناً أيضاً تبرأ الملائكة عليهم السلام ممن عبدوهم من دونه عزوجل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[2].

قال الإمام الشوكاني : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي : العباد ومن عبدوهم والضعفاء والمستكبرين وقوله عزوجل: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ خص الملائكة بالذكر مع أنـهم كانوا يعبدون غيرهم وذلك لأن الملائكة أشرف معبوداتـهم ولأن في تبرأ الملائكة منهم خزياً وتبكيتاً لهم[3].

وبين الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: أن الملائكة عباد مكرمون وأنـهم في طاعة مستمرة لله عزوجل ولا شيء لهم من الربوبية ولا من الألوهية قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ

(١) النساء / ١٧٢.　　(٢) سبأ / ٤٠-٤٢.

(٣) فتح القدير ٤/٣٣١.

﴿نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] فدلت هذه الآيات على أن الملائكة عليهم السلام عباد لله تعالى وأنه لا شيء لهم من الربوبية ولا من الألوهية وأن من اعتقد خلاف ذلك فقد أشرك شركاً أكبر .

ويدخل في هذا النوع أيضاً:

اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى أعطى الأولياء والصالحين شيئاً من الربوبية أو التصرف في هذا الكون من جلب نفع أو دفع ضر فهذا من الشرك الأكبر أيضاً وقد انتشر هذا النوع انتشاراً واسعاً في كثير من المنتسبين إلى الإسلام إما جهلاً وإما عناداً فتجدهم يذهبون إلى القبور يطلبون من أصحابها شفاء المرضى وقضاء الحاجات وتفريج الكربات وغير ذلك من أنواع العبادات وهذا كله من الشرك الأكبر ومن ذلك قول إمامهم وقدوتهم البوصيري في بردته الشركية المشهورة عندهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

فقد نسي ربه عز وجل في هذا البيت الشركي وجعل التجاءه واستغاثته بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى : وبالجملة ففي كل بلد على الغالب غائب يدعونه من دون الله تعالى كقولهم : يا بدوي يا عيدروس ويطلبون منه شفاء المرضى بل وصل الأمر بهم إلى أن طلبوا منهم دخول الجنة والنجاة من النار والتثبيت في القبر وغير ذلك من المطالب التي لا تطلب إلا من الله عزوجل وحده[2].

(١) سورة الأنبياء/ ٢٦-٢٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد / باب من الشرك أن يستغيث بغير الله تعالى أو يدعو غيره ص ١٦١.

ومن أنواع الشرك في الربوبية والألوهية:

رابعاً: عقيدة الحلول والاتحاد وهي عقيدة شركية إلحادية أتت في الأصل عن اليهودية والنصرانية، وتقوم هذه العقيدة على أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وقد ذكر أهل السنة والجماعة فساد هذه العقيدة وكفَّروا من قال بـها حيث دل على ذلك الكتاب والسنة والآثار.

فالحلول : مصدر حلَّ يحل أي نزل والمقصود به عند أصحاب هذه الفرقة : أن الله تعالى حلَّ بذاته في كل مكان وهذا هو قول الجهمية المنكرين لاستواء الله تعالى على عرشه، والقول بالحلول يعني أن هناك وجودين: وجود الخالق (الحال) ووجود المخلوق المحل، فأهل الحلول يثبتون وجودين.

وأما الاتحاد : فمعناه عند القائلين به : أن الله اتحد بخلقه واختلط بـهم كما يختلط اللبن في الماء فصارا شيئاً واحداً.

فالخالق هو عين المخلوق ، وعلى هذا فإن القول بالاتحاد أخبث من القول بالحلول.

والفرق بينهما : أن أصحاب الحلول يثبتون وجودين وجود الخالق ووجود المخلوق أما أصحاب الاتحاد فإنـهم لا يثبتون إلا وجوداً واحداً، وعلى هذا فالقول بالاتحاد أعظم كفراً من القول بالحلول، والقول بالاتحاد هو قول غلاة الصوفية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: وأعلم أن هذا المقالات (أي مقالات أهل الاتحاد) لا أعرفها لأحد قبل هؤلاء أي غلاة الصوفية) لكن نقل بعض

الفلاسفة عن أرسطو أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إن الوجود واحد ثم رده قال شيخ الإسلام:

وحسبك ضلالاً بقول لا يرتضيه متكلمة الصابئة وإنما جاءت هذه المقالات بحدوث دولة التتار.

أقسام الحلول والاتحاد:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى وينقسم القول بالحلول والاتحاد إلى أربعة أقسام:

القسم الأول : الحلول الخاص : وهذا قول النسطورية من النصارى القائلين بأن اللاهوت حل في الناسوت[1] ويعنون بذلك : أن الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً حل في عيسى ابن مريم عليه السلام.

القسم الثاني: الحلول العام : وهذا هو قول الجهمية الذي تقدم ذكره وهم القائلون بأن الله جل جلاله حلَّ في كل مكان وينكرون استواءه على عرشه عزوجل.

القسم الثالث: الاتحاد الخاص : وهو قول اليعقوبية من النصارى وهم القائلون بأن اللاهوت اتحد بالناسوت وقولهم هذا أشد كفراً من القول بالحلول الخاص.

القسم الرابع: الاتحاد العام: وهو قول غلاة الصوفية أصحاب وحدة الوجود الملاحدة كابن عربي الدمشقي وهم القائلون أيضاً بأن الله تعالى اتحد بخلقه سواء منهم الطيب أو الخبيث وأنه لا فرق بين الخالق والمخلوق وقولهم

(١) أي : أن الإلّه حل بالناس تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

هذا أعظم كفراً من قول اليهود والنصارى من وجهين :-

الوجه الأول : أن أولئك جعلوا الاتحاد حاصلاً بعد أن لم يكن وأن الله تعالى اتحد بعبده الذي اصطفاه بعد أن لم يكن وأما هؤلاء فإنـهم يجعلون الاتحاد أزلياً.

الوجه الثاني: أن أولئك يجعلون الاتحاد ببعض المخلوقات أما هؤلاء فإنـهم جعلوه عاماً في جميع الخلق الطيب منهم والخبيث.

وإذا كان الله تعالى قال في كتابه الكريم : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

فكيف بمن يقول إن الله تعالى هو اليهود والمنافقون والنصارى وسائر الكفار، وإن كان الله تعالى رد على اليهود والنصارى قولهم ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ؟[1] وكل هذا من الشرك في الربوبية، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بعد أن ذكر شرك اليهود والنصارى، قال رحمه الله تعالى وقد ضاهاهم في ذلك أهل البدع والضلال من المنتسبين إلى الإسلام الذي يقولون بنحو قولهم من الغلو في الأنبياء، وأهل الكتاب والمشايخ وغيرهم ومن يدعى الوحدة والحلول أو الأتحاد الخاص المعين كدعوى النصارى، ودعوى الغالية من الشيعة في علي وطائفة في أهل البيت كالنصيرية ونحوهم ممن يدعي إلّهية علي، وكدعوى كثير من الناس في بعض الشيوخ المعروفين بالصلاح[2].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/١٧١-١٧٣.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/٩٢.

وأما الرد على عقيدة أهل الحلول والإتحاد:

فقد ذكر أهل السنة والجماعة الأدلة الشرعية من القرآن والسنة والآثار على بطلانـها وفسادها وكُفْر من قال بـها فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1] ففي هذه الآية رد على من قال بالاتحاد والحلول الخاص وبين سبحانه وتعالى في سبعة مواضع في كتابه الكريم أنه استوى على عرشه منها قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[2] ففيها دليل على استوائه على عرشه وأنه منفصل عن خلقه بائن عنهم ليس مختلطاً بـهم كما زعم أصحاب هذا القول الباطل.

ومن السنة ما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه من حديث الجارية (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألها أين الله ؟ فقالت : في السماء فقال لها: من أنا قالت : أنت رسول الله فقال : اعتقها فإنـها مؤمنة)[3] ففيه رد على من قال بأي نوع من أنواع الحلول والاتحاد.

أما الآثار فكثيرة جداً وقد ذكر الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه (العلو) الكثير منها فمن ذلك:

١ - قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : من أنكر أن الله تعالى في السماء فقد كفر.

---

(١) المائدة / ٧١-٧٢ .

(٢) سورة طه / ٥.

(٣) رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة، مسلم بشرح النووي ٥/٢٤، وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة وقال الألباني رحمه الله تعالى : (صحيح) انظر صحيح سنن أبي داود ١/١٧٥ رقم الحديث ٨٢٣-٩٣٠ ورواه أيضاً في كتاب الإيمان باب في الرقبة المؤمنة، ٢/٦٣٢ رقم الحديث ٢٨٠٩ - ٣٢٨٢ .

٢- وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى : نقول إن الله عزوجل فوق السماء السابعة استوى على عرشه كما يليق بجلاله ولا نقول كما قالت الجهمية أنه هنا وهنا.

٣-وقال مالك رحمه الله تعالى لما سأله سائل عن الاستواء فغضب وقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأمر بإخراج السائل[١].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى مبيناً فساد القول بالاتحاد : وهؤلاء (الصوفية) أعظم كفراً من جهة أنهم جعلوا عابد الأصنام عابداً لله تعالى لا لغيره ويقولون : إن منزلة الأصنام من الله تعالى كمنزلة أعضاء الإنسان من الإنسان[٢].

ومن أنواع الشرك في الربوبية والألوهية:

خامساً: الإلحاد وهو لغة : من ألحد يلحد إلحاداً أي مال عن الشيء وعدل عنه ومنه اللحد وهو الشق في جانب القبر المائل عن الوسط.

وأما شرعاً: فهو الميل والعدول عن الدين الحق دين الإسلام إلى ما عداه من الأديان الباطلة : أو هو إنكار وجود الخالق عزوجل وتوحيده، ونسبة الخلق إلى مخلوقاته عزوجل .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٣]

---

(١) العلو للعلي الغفار ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ص ١٠٣.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام٢/١٢٩.
(٣) فصلت / ٤٠.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله تعالى: الإلحاد في آيات الله تعالى الميل بها عن الصواب، بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها[1].

وقال ابن كثير قال قتادة : الإلحاد : هو الكفر والعناد[2] .

وينقسم الإلحاد من الناحية الزمانية إلى قسمين :

أولاً: الإلحاد في العصر القديم، فقد ذكر الله تعالى في كتابه أنواعاً من هذا الإلحاد فمن ذلك :

إلحاد الدهرية : وهم المنكرون لوجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده الذين ينسبون الخلق إلى الدهر أي الزمان.

قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[3] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامه وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد وتقوله الفلاسفة الإلَهيون منهم الذين ينكرون البداءة والرجعة وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أنه في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى فكابروا

(١) تفسير السعدي / ص ٦٩٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٠٢.
(٣) الجاثية /٢٤.

المعقول وكذبوا المنقول[١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ومن القائلين بقدم العالم وأنه لا خالق له الدهرية، وقد نقل أصحاب المقالات أن أول من قال من الفلاسفة بقدم العالم أرسطو صاحب التعاليم الفلسفية[٢].

ومن ذلك : إلحاد النمرود بن كنعان (ملك بابل) لعنه الله تعالى : وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله عزوجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٣].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل ﴿ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ أي وجود ربه وتوحيده حيث زعم أنه الإلّه فأرسل الله تعالى إليه خليله ورسوله إبراهيم عليه السلام فكفر فأهلكه الله تعالى[٤] .

ومن ذلك: إلحاد فرعون لعنه الله تعالى : حيث زعم الألوهية لنفسه وأنكر أن يكون إلّهاً غيره قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[٦] فأرسل الله تعالى إليه موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام فكفر فأهلكه الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٥٠.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥/٥٣٩.
(٣) البقرة / ٢٥٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٣١٣.
(٥) القصص / ٣٨.
(٦) النازعات / ٢٤.

ثانياً : الإلحاد في العصر الحديث :

وهو كالإلحاد في العصر القديم من ناحية إنكار وجود الخالق عزوجل وتوحيده إلا أنه زاد عليه وانتشر انتشاراً واسعاً وأصبح له فرق ودعاة يدعون إلى هذا الإلحاد بكل صراحة ووقاحة ومخالفة للعقل والشرع، فمنهم من ينسب الخلق إلى الطبيعة ومنهم من يزعم أن هذا الكون وجد صدفة وغير ذلك من الأقوال الباطلة المتهافتة في ظلمات الغي والجهل[1] قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2] وقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[3].

فمن هذه الفرق الشيوعية: وهي عقيدة إلحادية من وضع اليهود لعنهم الله تعالى وتقوم هذه العقيدة على إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده، بل وإنكار جميع المغيبات والكفر بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ومن هذه الفرق أيضاً العلمانية والوجودية وغيرها التي يجمعها الإلحاد بالله تعالى وإنكار وجوده وتوحيده عليهم لعائن الله المتتالية ما تعاقب الليل والنهار.

وأكتفي بهذا القدر من الحديث عن توحيد الربوبية لأنتقل بعده إلى الحديث عن توحيد الأسماء والصفات.

---

(١) تقديم الحديث عن هذه الفرق الضالة والرد على شبهاتهم في الباب الأول.

(٢) الأعراف / ١٧٩.

(٣) سورة محمد / ١٢.

الفصل الثاني
توحيد الأسماء والصفات

وهذا النوع من أنواع التوحيد يسلتزم أيضاً الإقرار بتوحيد الألوهية وقد ضل فيه الكفرة، وكثير من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، وحفظ الله سبحانه وتعالى (السلفية) أهل السنة والجماعة من الضلال في هذا التوحيد وغيره من أقسام التوحيد وفي سائر أصول الدين والإيمان والحمد لله تعالى أولاً وآخراً.

المبحث الأول
تعريف توحيد الأسماء والصفات

هو الإقرار بأن لله تعالى الأسماء الحسنى والصفات العلى وأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير لا تأخذه سنة ولا نوم وأنه سميع بصير رؤوف رحيم، على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته عزوجل التي أخبر عنها في كتابه العظيم وأخبرت عنها رسله عليهم الصلاة والسلام إقراراً صادقاً مجانباً التمثيل والتشبيه والتعطيل والتكييف، منزهاً عن مشابهة المخلوقين كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]، فتضمنت هذه الآية النفي والإثبات فنفت المشابهة والمماثلة، وأثبتت الأسماء والصفات.

وهذا التوحيد لا يكفي أيضاً في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك

(١) الشورى/ ١١.

من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والإلَهية، والكفار يقرون بجنس هذا النوع وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك، إما جهلاً وإما عناداً، كما قالوا لما كاتبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صلح الحديبية وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)[1] قالوا: لا تكتب الرحمن، لا نعرف إلا رحمن اليمامه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[2] كما هو مبين في كتب السير[3].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد، وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمٰن.

قال الشاعر: وما يشأ الرحمٰن يعقد ويطلق.

وقال الآخر: ألا قضب الرحمٰن ربي يـمينها وهما جاهليان.

وقال زهير:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمٰن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك كما ردوا عليه توحيد الإلَهية، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[4].

(١) النمل / ٣٠.
(٢) الرعد/ ٣٠.
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢٠٣/٣.
(٤) سورة صٓ/ ٥، تيسير العزيز الحميد ص ٣٥.

المبحث الثاني

أدلة توحيد الأسماء والصفات من القرآن الكريم والسنة المشرفة

لقد ورد في كتاب الله تعالى آيات في ذلك فمنها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

يخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن له أسماءً وصفها بكونها حسنى: أي حسان وقد بلغت الغاية في الحسن، فلا أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم، فله سبحانه وتعالى من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله، وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبه نقص، فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها، ولا يجوز أن يشتق له سبحانه وتعالى من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً، كما فعل بعض المتأخرين، وغلط غلطاً فاحشاً كمن اشتق اسم الماكر والمخادع والفاتن والمضل حيث اشتقها من الأفعال وأدخلها في الأسماء الحسنى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[2].

ثم بين تعالى الواجب نحو أسمائه وصفاته من الإيمان بها وعدم تحريفها وتعطيلها وتأويلها عن معانيها الأصلية المرادة منها، لأن ذلك من الإلحاد بها والكفر بها، وأخبر تعالى أن الذين يلحدون في ذلك ويشركون ويكذبون لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي سيعاقبون على تكذيبهم

(١) الأعراف/ ١٨٠.

(٢) تيسير العزيز الحميد باب/ قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ ص٦٣٧-٦٣٨.

وإلحادهم، فلا يظلم ربك أحداً.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2].

يخبر تعالى في الآيات السابقة أنه المتصف بصفات الجلال ونعوت الكمال التي لايشاركه فيها أحد، فله الأسماء الحسنى التي تفرد بـها وتنزه عن كل شبه ونقص وعيب والتي إذا دعي بـها أجاب كما في اسمه الأعظم الذي صحت به الأحاديث[3] الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهذه الأسماء والصفات التي وردت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هي الأسماء الحسنى والصفات العليا التي أخبر الله تعالى عنها بأنـها أحسن الأسماء وأكملها على الإطلاق، وأنه وحده سبحانه وتعالى المستحق لها المتفرد بـها، ومن الأدلة الواردة في السنة المشرفة :

ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً مائةً إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة)[4] وغير ذلك من الأدلة الكثيرة الواردة في الكتاب والسنة وهي أدلةواضحة جلية على إثبات توحيد الأسماء والصفات.

(١) الإسراء/ ١١٠. (٢) الحشر/ ٢٤.

(٣) كما أخرج الترمذي عن أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ وفاتحة آل عمرآن ﴿ الم ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ قال الألباني رحمه الله تعالى: (حسن) انظر صحيح سنن الترمذي ٣/١٦٣ رقم الحديث ٢٧٦٤-٣٧٢٣.

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد/ باب إن لله تعالى مائة اسم إلا واحدا رقم الحديث (٧٣٩٢).

المبحث الثالث

الشرك والإلحاد في الأسماء والصفات

الإلحاد في أسمائه سبحانه وتعالى هو العدول بـها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها.

وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة : (لحد) ومنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط.

إذا عرف هذا فالالحاد في أسمائه عزوجل على أنواع فمنها:

أولاً: أن يشتق للصنم اسم من اسماء الله تعالى، كاشتقاقهم اللات من الإلّه والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلّهاً، وهذا الشرك والإلحاد الحقيقي، فهم عدلوا باسمائه إلى أوثانـهم وآلـهتهم الباطلة.

ثانياً : تسميته بما لا يليق بجلالة، كتسمية النصارى له أباً وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

ثالثاً : وصفه سبحانه وتعالى بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود إنه فقير، وقولهم إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم لعنهم الله تعالى يد الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

رابعاً : تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنـها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم ويقولون:

لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لآلـهتهم، وهؤلاء سلبوا كماله، وجحدوها وعطلوها، وكلاهما ألحد في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمتلوث، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقد ألحد في ذلك فليقل أو ليستكثر.

خامساً : تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً فهذا الإلحاد في مقابله إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بـهم طرقه[1].

وبرأ الله تعالى أهل السنة والجماعة من ذلك كله فهم وسط في الفرق كما أن أهل الإسلام وسط في الملل وكل هذا الأنواع داخلة تحت قوله تعالى ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والله تعالى أعلم.

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٦٤٥.

المبحث الرابع
مذهب السلف أهل السنة والجماعة
في باب أسماء الله تعالى وصفاته

إن مذهب (السلفية) أتباع السلف الصالح (أهل السنة والجماعة) رضوان الله تعالى عليهم في باب أسماء الله تعالى وصفاته هو المذهب السالم من الشوائب التي شابت غيره من المذاهب المخلتفة فمذهبهم وسط بين المشبهة والمعطلة حيث أثبتوا لله تعالى ما أثبته لنفسه في كتابه من الأسماء والصفات وأثبته له رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المشرفة إثباتاً بلا تمثيل، فسلموا من التمثيل ونزهوه سبحانه وتعالى عن مشابـهة خلقه تنزيهاً خالياً من التعطيل فسلموا من التعطيل فمذهبهم في باب الأسماء والصفات هو الاثبات بلا تمثيل أو تشبيه والتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى مبيناً مذهب السلف في باب الأسماء والصفات: ثم القول الشامل في جميع هذا الباب: أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبما وصفه السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: لا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لا يتجاوز القرآن والحديث.

(١) الشورى/ ١١.

ومذهب السلف: أنـهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونعلم أن ما وُصف الله تعالى به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد.

وهو سبحانه وتعالى مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن الله سبحانه وتعالى له ذات حقيقه، وله أفعال حقيقه، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله سبحانه وتعالى منزه عنه حقيقة، لأنه سبحانه وتعالى مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه، واستلزام الحدوث سابقة العدم، ولافتقار المحدَث إلى محدِث، ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى.

ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ويلحدوا في أسماء الله تعالى وآياته[1].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥/٢٦-٢٧.

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى في بيان مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات[1]: أما أهل السنة والجماعة فأثبتوا لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه في كتابه الكريم وأثبته له رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سنته الصحيحه إثباتاً بلا تمثيل، ونزهوه عن مشابهة خلقه تنزيهاً بريئاً من التعطيل ففازوا بالسلامة من التناقض وعملوا بالأدلة كلها وهذه سنة الله تعالى فيمن تمسك بالحق الذي بعث به رسله عليهم الصلاة والسلام وبذل وسعه في ذلك وأخلص لله تعالى في طلبه أن يوفقه للحق ويظهر حجته كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[2].

(1) العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام للشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى ص ٩.
(٢) الأنبياء/ ١٨.

الفصل الثالث

توحيد الألوهية

وهذا النوع من أنواع التوحيد هو حقيقة دين الإسلام وهو معنى لا إله إلا الله وهو الفارق بين أهل الإسلام وأهل الشرك والكفر والإلحاد ومن مات على غيره فهو من أهل النار الخالدين فيها أعاذنا الله تعالى من ذلك.

المبحث الأول

تعريف توحيد الألوهية

هو الإقرار بأن الله تعالى وحده لا شريك له، المستحق للعبادة بجميع أنواعها باطنها وظاهرها من الصلاة والصيام والزكاة والحج والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة الظاهرة والباطنة لا يجعل فيها شيئاً لغيره، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عن غيرهما.

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وأساسه الذي عليه قوامه، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله فإن الإلَه هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم، وجميع أنواع العبادة.

ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، ويسمى هذا النوع توحيد الإلَهية لأنه مبني على اخلاص التأله وهو أشد المحبة لله تعالى وحده وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وتوحيد

العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة لأنه مبني على إرادة وجه الله تعالى بالأعمال، وتوحيد القصد، لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى وحده، وتوحيد العمل لأنه مبنى على إخلاص العمل لله تعالى وحده ، قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[2]، وقد تضمن هذا التوحيد جميع أنواع العبادة فيجب إخلاصها لله تعالى، فمن أشرك مع الله تعالى غيره في شيء منها فليس بمسلم، وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله تعالى من أحد سواه.

فالإسلام هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له بفعل المأمور وترك المحظور، والاخلاص له سبحانه وتعالى في ذلك[3].

وأساس قبول العمل الاخلاص لله تعالى والمتابعة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأغلب آيات الكتاب العظيم وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيان هذا النوع من أنواع التوحيد وفي بيان أنواع العبادة والشرك فيها والتحذير من ذلك وإذا أطلق لفظ التوحيد عند أهل السنة والجماعة فالمراد به توحيد الألوهية المتضمن لبقية أنواع التوحيد بل ولدين الإسلام بأكمله خلافاً للفرق الضالة في مسمى التوحيد فإنهم لا يريدون بلفظ التوحيد عند الإطلاق مايريده أهل السنة والجماعة وذلك كالفلاسفة

(١) الزمر/ ٢. (٢) الزمر/ ١١-١٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٣٦-٣٩.

الذين يريدون بالتوحيد عند الإطلاق إنكار جميع الأسماء والصفات.

ويثبتون ذاتاً مجردة عن الأسماء والصفات بل هم في الحقيقة لا يقرون بالخالق عز وجل ولا يقرون بتوحيد الربوبية أيضاً ولا بالألوهية، والفلاسفة هم أساس ضلال جميع الفرق الضالة المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة من المتكلمين كالجهمية والأشاعرة والمعتزلة، ومن الذين خالفوا منهج أهل السنة والجماعة أيضاً الصوفية وغيرهم فكلهم قد ضلوا في مسمى التوحيد ولا يريدون بالتوحيد ما يريده أهل السنة والجماعة قال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] وهذه حال كل من خالف الكتاب والسنة وتبع الشيطان الرجيم فقاده إلى دركات الجحيم.

---

(١) الأنعام / ١١٦.

المبحث الثاني
في أدلة توحيد الألوهية من الكتاب والسنة وبيان فضله

أولاً : أدلة توحيد الألوهية من القرآن الكريم

إن أكثر آيات القرآن الكريم في بيان هذا التوحيد لأنه حقيقة دين الإسلام كما تقدم فمن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

فهذه الآيات الكريمات يأمر الله سبحانه وتعالى فيها نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر قومه من قريش الذين يشركون ويعبدون معه آلهة أخرى زاعمين أنها تقربهم إليه زلفى، بأنه مأمور أن يعبد الله مخلصاً له الدين وذلك بأن يكون عمله كله خالصاً من الشرك والنفاق والرياء خالصاً له عزوجل لا لأحد سواه، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر بذلك فغيره من باب أولى.

كما جاء في آية أخرى ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

---

(١) الزمر/ ١١-١٥.

(٢) الزمر/ ٦٥-٦٦.

وقال سبحانه وتعالى أيضاً بعد أن ذكر فضله على الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام بما أخلصوا العبادة له وحده لا شريك له: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] فإذا كان رسل الله تعالى وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام لو أشركوا معه عزوجل - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم فكيف بسائر الخلق؟

اللهم يارحمٰن يا رحيم ثبتنا على الإسلام والسنة حتى نلقاك على ذلك يا رب العالمين.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أول المسلمين من هذه الأمة وأول من وحد الله تعالى في عبادته من أمته ثم بين عقاب المخالف لذلك والذي يخشاه كل ذي عقل سليم فقال: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

فأمره سبحانه وتعالى أن يخبر قومه ويخوفهم من عذاب الله تعالى الذي يستحقه كل من حاد عن التوحيد إلى الشرك الذي هو أكبر ذنب على الإطلاق، والذي لا يغفره الله عز وجل إلا بالتوبة منه والرجوع إلى التوحيد حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[2] فمن استمر على ذلك الذنب العظيم وهو الشرك الأكبر ولم يتب منه ومات على ذلك استحق دخول النار والخلود فيها والبعد عن رحمة الله عز وجل أبد الآباد.

(١) الأنعام/ ٨٨.

(٢) النساء/ ٤٨.

ثم أمره الله سبحانه وتعالى أن يبين لهم أن دينه صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام وأنه إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله عز وجل، فمن اتبعه وسار على دينه استحق دخول الجنة والنجاة من النار، ومن عصاه واستمر على الشرك استحق دخول النار بما كسبت يداه، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي (١٤) فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي أنا ديني الإسلام والتوحيد كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٦١) قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ (٤) وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ (٥) لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي لكم الحرية في ذلك لأن الله تعالى قد وهبكم العقول التي بـها تميزون بين الحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾[3] أي بينا له طريق الخير والشر وأعطيناه العقل، وأرسلنا إليه الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[4] فمن عصى الله عز وجل وأشرك به بعد ذلك ومات على ذلك دون توبة فلا حجة له ولا استعتاب، بل هو من أصحاب النار الخالدين

---

(١) الأنعام/ ١٦١-١٦٣.
(٢) الكافرون/ ١-٦.
(٣) البلد/ ١٠.
(٤) النساء/ ١٦٥.

فيها الذين خسروا أنفسهم وبئس المصير.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[3].

في هذه الآيات المباركات بيان لتوحيد الألوهية وأنه لا إلّه بحق إلا الله عز وجل، أي لا معبود بحق إلا الله عزوجل فهو المستحق وحده للعبادة بجميع أنواعها فلا بد للإنسان أن يؤمن بذلك إيماناً صادقاً سليماً من الشرك وشوائبه، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ قومه ويرشدهم إلى التوحيد الخالص وأنه يوحى إليه أنه لا إلّه إلا الله وأنه رسول الله تعالى، فمن آمن بذلك فله الجنة وما فيها من نعيم مقيم ومن عصاه فله النار نعوذ بالله تعالى من النار، وفي الآية الأخيرة أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر قومه أنه بشر مثلهم يوحى إليه، فليس له من الألوهية شيء وإنما هو عبد من عباد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ۝٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ

(١) محمد/ ١٩.
(٢) الأنبياء/ ١٠٨.
(٣) الكهف/ ١١٠.

﴿مُلۡتَحَدًا﴾[1]، فهو صلى الله عليه وآله وسلم عبد لله تعالى كغيره من الخلق إلا أن الله تعالى شرفه بالرسالة والوحي، ثم بين سبحانه وتعالى طريق النجاة فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أي من أراد أن يلقى الله تعالى سالماً ومرضياً فليعبد الله تعالى وحده وليخلص له العبادة، ولايشرك في عبادته أحداً، فهذا هو طريق السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[4].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية الأولى ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ ... الآية، يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الثقلين الجن والإنس آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعوا إلى الله تعالى بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي وقوله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي وأنزه الله تعالى وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن

(١) الجن/ ١٩-٢٢.
(٢) يوسف/ ١٠٨.
(٣) القصص/ ٨٧.
(٤) الحجر/ ٩٤.

يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة بينت دعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه بل دعوة سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[3] وهي دعوة التوحيد والإخلاص المقرونة بالأدلة والمعجزات والدلائل الواضحات البينات، وفي الآيتين الأخيرتين، أمر من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو إلى التوحيد ويصدع بالدعوة إليه، ولا يخاف في الله تعالى أحداً، فالله تعالى هو ناصره ومؤيده، وحافظه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[4]، فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية أن يبلغ ماأوحاه إليه من التوحيد والدعوة إلى الإسلام والله تعالى هو الذي يعصمه ويحميه من الناس

(١) الإسراء/ ٤٤، تفسير ابن كثير ٢/٤٩٥.
(٢) الأنبياء/ ٢٥.
(٣) النحل/ ٣٦.
(٤) المائدة/ ٦٧.

ومن كيدهم، وقد نقل ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يُـحْرس قبل نزول هذه الآية فلما نزلت أمر حُرَّاسَه أن يعتزلوه يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ومن الآيات أيضاً سورة الاخلاص، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الاثبات إلا على الله عز وجل،لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله وقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وقيل هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفء وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار، وقيل الصمد: المصمت الذي لا جوف له، وقيل هو الذي لا يأكل الطعام

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٧٨.

(٢) الإخلاص/ ١-٤.

ولا يشرب الشراب، وهو الباقي بعد خلقه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، فهو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه.

وفي صحيح البخاري: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم)[1] وفي صحيح البخاري أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال الله عز وجل:

(كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله إتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد)[2][3].

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى:

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى، رقم ٦٠٩٩ وفي كتاب التوحيد باب/ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ رقم ٧٣٧٨.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾، رقم ٤٤٨٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٧٠.

(٤) النساء/ ٣٦.

مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾... الآية[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[3].

في هذه الآيات المباركات يأمر الله تعالى الخلق أجمعين أن يعبدوه ويخلصوا له العبادة، ولايشركوا معه أحداً، لأنه هو الخالق وحده والرازق والذي بيده النفع والضر، فهو أهل لأن يخلص له في العبادة سبحانه وتعالى.

وفي الآية الثانية بين سبحانه وتعالى المحرمات والتي من أكبرها الإشراك بالله تعالى وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ فبدأ سبحانه بالإشراك به لأنه من أكبر المحرمات وكبائر الذنوب، وفي الآية الثالثة: أخبر سبحانه وتعالى أنه بين لإبراهيم عليه الصلاة والسلام مكان البيت ليبنيه ويرفع قواعده على الإخلاص ليكون محلاً لعبادته وتوحيده وعدم الاشراك به سبحانه وتعالى، وأن يخلص هو ومن معه في العبادة وأن يطهره من الأوثان التي هي مصدر الشرك به سبحانه وتعالى، وهذه الآية دليل على توحيد الألوهية الذي هو أساس الدين، ثم أوضح الحق جل وعلى أن بيته خاص بالمسلمين المؤمنين الركع السجود المخلصين له في العبادة والطائفين والحجاج والعمّار الموحدين،

(١) الأنعام/ ١٥١.
(٢) الحج/ ٢٦.
(٣) لقمان/ ١٣.

وأنه لا يحل لغيرهم من الكفرة والمشركين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[1].

وفي الآية الأخيرة يذكر تعالى وصية لقمان لولده وأحب الناس إليه وأشفق الناس عليه، يوصيه بأعظم وصيه وهي التوحيد وعدم الإشراك بالله عز وجل، فبين له أن الشرك من أعظم الظلم.

ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إنه ليس كذلك ألم تسمعوا لقول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] فبين لهم أن المقصود بالظلم في الآية السابقة هو الشرك الأكبر الذي هو أعظم الظلم.

وقد جاءت أكثر آيات الكتاب العزيز في بيان هذا النوع من أنواع التوحيد وهو توحيد الألوهية وما ذاك إلا لأنه أساس الدين، وبينت تلك الآيات أيضاً أن الله تعالى قد بعث في جميع الأمم رسلاً داعين إلى هذا التوحيد، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، فمن هذه الآيات:-

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ

(١) التوبة/ ٢٨. (٢) الأنعام/ ٨٢.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، سورة الأنعام، باب/ قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ رقم: ٤٦٢٩ وفي غيره من المواضع.

(٤) النحل/ ٣٦.

إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[8].

---

(١) الأنبياء/ ٢٥.

(٢) الأعراف/ ٥٩.

(٣) الأعراف/ ٦٥.

(٤) الأعراف/ ٧٣.

(٥) الأعراف/ ٨٥.

(٦) العنكبوت/ ١٦-١٧.

(٧) المائدة/ ٧٢.

(٨) الأعراف/ ١٥٨.

ومن أدلة توحيد الألوهية أيضاً قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]، والآيات في بيان هذا النوع من التوحيد كثيرة جداً واكتفى بما ذكرت منها لأنتقل بعد ذلك إلى السنة المشرفة لنرى بعض ما جاء فيها من أدلة أيضاً على توحيد الألوهية.

لأنه وكما جاءت آيات الكتاب الكريم مبينه لهذا النوع من التوحيد وأهميته وأنه أساس الدين كذلك جاءت السنة المشرفة موضحة ومبينة ومؤكدة ومعضدة لما جاء في الكتاب الكريم كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[3].

ثانياً: أدلة توحيد الألوهية من السنة المشرفة :-

فمن الأحاديث الواردة في ذلك:-

ما رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما بعث معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه إلى أهل اليمن، قال له: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله) وفي رواية [4](إلى أن يوحدوا الله) وفي رواية عند البخاري أيضاً

---

(١) النحل/ ٥١. (٢) إبراهيم/ ٥٢.

(٣) سورة النحل / ٤٤.

(٤) هذه الرواية في صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى رقم ٧٣٧٢.

(وأني رسول الله)[1] (فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب).

يتضح لنا من هذا الحديث الشريف وصية القائد الكبير سيد ولد آدم محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما بعثه إلى اليمن للقيام بالدعوة إلى الله تعالى ونشر دينه في أرجاء المعمورة فلا بد لمن تحمل هذا العبء من بصيرة وحكمة وحسن طريقة في الدعوة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[3] وما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليبعث أو يرسل أحداً من تلامذته وأصحابه في مجال الدعوة إلى الله تعالى إلا بعد أن يوصيه ويشرح ويبين له ويوجهه إلى طريق الدعوة السليم الذي به وعليه تستقيم الدعوة وتؤتـي أكلها بإذن ربـها، فلننظر ماذا كانت وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما أراد

---

(١) صحيح البخاري/ كتاب الزكاة / باب وجوب الزكاة رقم : ١٣٩٥ورواه مسلم أيضاً في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، مسلم بشرح النووي ١٩٦/١-١٩٩.

(٢) يوسف/ ١٠٨.

(٣) النحل/ ١٢٥.

أن يرسله إلى أهل اليمن داعياً إلى الله تعالى، وإلى دين الإسلام قال له صلى الله عليه وآله وسلم: (يا معاذ إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب) وإنما نبهه لذلك ليتهيأ لمناظرتهم ويعد الأدلة لامتحانهم، لأنهم أهل علم سابق، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان، ولئلا يبتلي بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين، فيكون على حذر، وبعد هذه التوطئة، بدأ صلى الله عليه وآله وسلم بأول أمر هام وأول عمل يجب أن يعمله الداعي إلى الله تعالى، ألا هو الدعوة إلى توحيد الألوهية، أي توحيد الله تعالى في عبادته والنطق بكلمة التوحيد، لأن هذا التوحيد أساس سعادة الدنيا والآخرة، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)، ومعنى ذلك دعاؤهم إلى أن يوحدوا الله تعالى قولاً وعملاً واعتقاداً، بأن يخلصوا له العبادة بجميع أنواعها وفروعها، إذ هو معنى توحيد الله تعالى، وهو أصل الإسلام، وحقيقة كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وبالعمل بها واعتقادها يصير الكافر مسلماً والعدو ولياً والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)، فقد بدأ صلى الله عليه وآله وسلم وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه بحثّه على أن يبدأ دعوته بأساس دين الإسلام وأول واجب على المكلف وهو كلمة التوحيد، كلمة التقوى

(١) التوبة/ ٥.

(لا إله إلا الله)، وبعد أن بين له صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، بدأ ببيان متطلبات ذلك الدين العظيم وذلك البناء الشامخ، إذ لابد لكل بناء من أسس وعمد يقوم عليها وإلا سقط ذلك البناء، فلا يكفي مجرد النطق بالشهادتين دون الاعتقاد والعمل بمقتضاهما، فجميع ذلك هو حقيقة دين الإسلام من النطق والاعتقاد والقيام بالأعمال وذلك بأداء الفرائض والواجبات التي أوجبها الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأهم ذلك بعد الشهادتين الصلاة، فلذلك ذكرها بعدهما لأنـها عمود الإسلام وركنه الثاني بعد الشهادتين كما جاء في الحديث (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة)[1] وما رواه البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (بني الإسلام على خمس شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان)[2] ثم ذكر الزكاة ووجوبـها على المسلم في ماله للفقراء والمساكين وغيرهم من الأصناف التي بينها الله تعالى في كتابه الكريم فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[3].

كذلك من الأحاديث الدالة على توحيد الألوهية: حديث معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: (كنت رديف النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) الحديث أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال الألباني رحمه الله تعالى صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي ٣٢٨/٢ رقم ٢١١٠ – ٢٧٦٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان/ باب : دعاؤكم إيمانكم رقم : ٨.

(٣) التوبة/ ٦٠.

على حمار فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ فقلت الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يارسول الله: أفلا أبشر الناس، قال: لا تبشرهم فيتكلوا)[1].

في هذا الحديث الشريف بين صلى الله عليه وآله وسلم حق الله تعالى على العباد الذي من أجله أوجدهم وخلقهم ورباهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة هذا الحق هو عبادته وحده لاشريك له، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[2] فقوله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) أي يخلصوا له العبادة بجميع أنواعها لا يشركون معه أحداً وهذا هو توحيد الألوهية الذي هو أساس دين الإسلام.

ومن الأدلة أيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار)[3]، كذلك

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم، رقم ١٢٨، وفي كتاب الجهاد والسير باب : اسم الفرس والحمار رقم ٢٨٥٦، ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب حق الله تعالى على العباد وحق العباد على الله، مسلم بشرح النووي ٢/٢٣٢.

(٢) الذاريات/ ٥٦-٥٨.

(٣) الحديث رواه مسلم، كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، مسلم بشرح النووي ٢/٩٣.

ما جاء عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار)[1].

كذلك من الأحاديث: عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل هو يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، وقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)[2].

في هذا الحديث المبارك بين صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الواجب الأول الذي يجب على الداعي إلى الله تعالى أن يدعوا إليه ألا وهو الدعوة إلى الإسلام وإلى توحيد الله تعالى في العبادة والألوهية، كما قد بين ذلك لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه في الحديث السابق ثم بعد ذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: (وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه) أي من

(١) الحديث رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة، باب ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ رقم ٤٤٩٧.

(٢) الحديث رواه البخاري، كتاب الفضائل، مناقب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه رقم: ٣٧٠١.

فرائض وواجبات كما قد بين ذلك لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أيضاً، حيث أرشده أولاً إلى الدعوة إلى الإسلام وتوحيد الله تعالى ثم إلى واجبات الإسلام من صلاة وزكاة ثم ختم صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحديث ببيان فضل من أسلم على يديه رجل واحد فكيف بأكثر من ذلك.

ونرى التشابه بين الوصيتين في هٰذين الحديثين مما يبين لنا قاعدة أو قواعد في الدعوة إلى الله تعالى وإلى نشر دينه سبحانه وتعالى وهي :

أولاً: البدء بالدعوة إلى توحيد الألوهية حتى في دعوة الملاحدة المنكرين لوجود الخالق سبحانه وتعالى لأن الدعوة إلى توحيد الألوهية تتضمن توحيد الربوبية وسائر أنواع التوحيد.

ثانياً: الدعوة إلى القيام ببقية أركان الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج والقيام بالأوامر والابتعاد عن النواهي كما تقدم في الأحاديث.

ثالثاً: الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة مع العلم والبصيرة في الدين كما قال تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[1].

ثالثاً : ما ورد في فضل التوحيد:

ويلتحق بذلك ماورد في فضل التوحيد فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ

(١) النحل / ١٢٥. (٢) النساء / ٤٨.

يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[1] فالظلم هو الشرك كما تقدم في تفسير الآية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[2] فدلت هذه الآيات على خطورة الشرك والموت عليه والعياذ بالله تعالى، وعلى فضل التوحيد والموت عليه نسأل الله تعالى ذلك .

ومن الأحاديث الدالة على فضل التوحيد ما رواه أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)[3] في هذا الحديث الشريف بين صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه تبارك وتعالى فضل التوحيد ودين الإسلام وأن المسلم لو مات وكانت ذنوبه بمقدار الأرض وترابها لغفرها الله تعالى له بفضله ورحمته بشرط أن لا يكون قد أشرك معه أحداً في العبادة، وذلك لمن شاء، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[4] وفي هذا ما يبين فضل التوحيد ودين الإسلام وأن من أتى

(١) الأنعام / ٨٢. (٢) فصلت / ٣٠ – ٣٢.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار، وقال الألباني صحيح انظر صحيح سنن الترمذي رقم ٢٨٠٥ – ٣٧٨٩ وانظر أيضاً سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١/٣٩، رقم (١٢٧).

(٤) النساء/ ١١٦.

بقراب الأرض خطاباً ومات موحداً فأمره إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ومآله إلى الجنة فلا يخلد في النار إلا من مات على الشرك والكفر الأكبر وهذا يبين فضل التوحيد.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله تعالى بقرابها مغفرة لكن هذا مع مشيئته الله عزوجل فإن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنوبه ثم كان عاقبته أنه لا يخلد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة[1].

كذلك من الأحاديث التي تبين فضل التوحيد:

ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن نوحاً عليه الصلاة والسلام قال لابنه عند موته آمرك (بلا إله إلا الله) فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفه ولا إله إلا الله في كفة رجحت بـهن لا إله إلا الله ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقه مبهمه قصمتهن لا إله إلا الله)[2] .

الله الله ما أعظم هذه الكلمة، وما أثقل وزنـها في ميزان من صدق الله تعالى في قولها وأتى بمقتضاها قولاً وعملاً واعتقاداً كذلك من الأحاديث الواردة في فضل التوحيد أيضاً:

ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (يصاح برجل من

(١) تيسير العزيز الحميد باب/ فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ص ٦٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد، انظر تيسير العزيز الحميد تحقيق الشيخ عرفات العشا ص ٦٦ باب/ فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب وانظر الموسوعة الحديثية / مسند الإمام أحمد بن حنبل ١١/١٥٠ رقم ٦٥٨٣ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما حيث ذكر محققوا المسند أنه صحيح .

أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب فيقال: ألك عذر أو حسنة، فيهاب الرجل، فيقول: لا فيقال: بلى إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظلم عليك، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة)[١].

فهذا الحديث بين أيضاً فضل كلمة التوحيد، وأهميتها فما أعظم هذه الكلمة، وما أثقلها في ميزان من أخلص النطق بـها وقالها بصدق وإخلاص وعمل بمقتضاها قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب فتكون صورة العمل واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض قال: وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفه وتقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه[٢].

وبهذا القدر اكتفي بما ذكرت من الأدلة على وجوب توحيد الألوهية وفضله وفضل الدعوة إليه لأنتقل بعد ذلك إلى بيان معنى كلمة التوحيد (لا إلَه إلا الله).

(١) الحديث رواه الحاكم وصححه في مستدركه، كتاب الدعاء، فضل لا إله إلا الله ١/٥٢٩، ورواه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد / باب : ما يرجى من رحمة الله تعالى يوم القيامة ، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في صحيح سنن ابن ماجة رقم ٣٤٦٩ – ٤٣٠٠ .

(٢) تيسير العزيز الحميد / باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ص ٦٧.

المبحث الثالث
بيان معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)
وبيان بعض التفسيرات الفاسدة لهذه الكلمة والرد عليها

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى: ومعنى (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا إله واحد وهو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1] مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2] فصح أن معنى الإله هو المعبود، ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكفار قريش: (قولوا لا إله إلا الله) قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[3] وقال قوم هود: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[4].

وهو إنما دعاهم إلى (لا إله إلا الله) فهذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله تعالى.

فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله تعالى ليس بإله، وأن إلهيه ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، فتضمنت نفي الإلهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلها والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً،

(١) الأنبياء/ ٢٥.
(٢) النحل/ ٣٦.
(٣) سورة ص/ ٥.
(٤) الأعراف/ ٧٠.

وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات[1].

وقال الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي رحمه الله تعالى: قول: (لا إله إلا الله) على هذه الصيغة الجامعة بين النفي والإثبات دليل على حصر الإلّهية لله تعالى، فإن الجمع بين النفي والإثبات أبلغ صيغ الحصر، وقد ثبت العلم الضروري بالاكتفاء بـهذه الكلمة الشريفة في إثبات التوحيد لله تعالى[2].

وقال شارح الطحاوية رحمه الله تعالى: وقوله (ولا إلّه غيره) هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام، وإثبات التوحيد بـهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الإحتمال، ولهذا والله أعلم لما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[3] فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني: هب أن إلّهنا واحد، فلغيرنا إلّه غيره، فقال تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4].

وقد اتفق الجمهور على أن المراد من كلمة الإلّه في قول (لا إلّه إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله تعالى، فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وقال أبو عبد الله القرطبي في التفسير (لا إله إلا هو): أي لا معبود إلا هو.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: الإلّه: هو المعبود المطاع

(١) انظر تيسير العزيز الحميد باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ص ٧٣.

(٢) (معنى لا إله إلا الله) ص ٩٠.

(٣) البقرة/ ١٦٣.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١١١.

وقال أيضاً في (لا إله إلا الله) إثبات إنفراده بالإلّهية.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: الإلّه هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة وإكراماً وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً.

وهذا كثير جداً في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإلّه هو المعبود.

وهناك تفسيرات باطلة وفاسدة لهذه الكلمة العظيمة ، قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى: ومن التفسيرات الفاسدة لهذه الكلمة ما يعتقده عباد القبور وأشباههم في معنى الإلّه أنه الخالق القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنـهم إذا قالوها بـهذا المعنى فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله تعالى، كدعاء الأموات والاستغاثة بـهم في الكربات إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وما شعروا أن اخوانـهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع.

ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته إذ يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله، بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله، فكانوا يقولون سمعنا وأطعنا، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] فـ (لا إلّه إلا الله) اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلّهية عن كل ماسوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإلّه، ولا له من العبادة شيء، وأثبتت الإلّهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا يأله غيره، أي لا يقصده بشيء من التأله وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده

(١) الزخرف/ ٨٧.

بشيء من أنواع العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

فإن قيل قد تبين معنى الإلّه والإلّهيه، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإلّه القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء في معنى الإلّه هو المعبود بحق كما تقدم، فيكون هذا القول باطلاً.

الثاني: على تقدير تسليمه، فهو تفسير باللازم للإلّه الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإلّه حق، وإن سمي إلّهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإلّه هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام، فإن هذا لا يقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو خطأ يرد عليهم بالدلائل السمعية والعقلية[1].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: وليس المراد (بالإلّه) هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين، حيث ظن أن الإلّهية هي القدرة على الإختراع دون غيره، وأن من أقر بأن الله تعالى هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إلّه إلا هو، فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون، بل الإلّه الحق هو الذي يستحق بأن يعبد، فهو إلّه بمعنى مألوه، لا إلّه بمعنى آله، والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلّهاً آخر[2].

---

(١) تيسير العزيز الحميد باب / فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ص ٧٤- ٨١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/١٠١.

المبحث الرابع
الشرك في توحيد الألوهية وأقسامه

ينقسم الشرك في توحيد الألوهية إلى قسمين:

١- شرك أكبر.

٢- شرك أصغر.

فأما الشرك الأكبر فهو أن يجعل لله تعالى شريكاً ونداً له في العبادة يدعوه أو يستغيث به أو ينذر له أو يذبح له أو يخافه أو يصلي له أو يصرف له أي نوع من أنواع العبادة، فهذا هو الشرك الأكبر والكفر الأكبر الذي هو من أكبر الكبائر على الإطلاق[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٣]، وقال تعالى:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤]، وقال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٥] وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[٦].

---

(١) الكفر أعم من الشرك فكل شرك كفر وليس كل كفر شركاً كما ذكر أهل العلم.

(٢) آل عمران/ ٩١.

(٣) الحج/ ٣١.

(٤) آل عمران/ ٨٥.

(٥) النساء/ ٤٨.

(٦) النساء/ ١١٦.

وأما الشرك الأصغر: فهو غير مخرج من الملة وهو كل وسيلة يتوسل بـها ويتطرق بها إلى الشرك الأكبر بشرط أن لا يبلغ مرتبة العبادة كما عرفه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى[1]، وصاحبه لا يخرج من الإسلام ولا يخلد في النار إلا إذا بلغ درجة العبادة فينتقل إلى الشرك الأكبر وهذا هو الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر، فمن الشرك الأصغر الرياء: وهو أن يعمل الإنسان عملاً يرائي به الناس فيحسنه ويزيد في تحسينه لكي يراه الناس فيحمدونه عليه ويثنون عليه بالصلاح، وذلك كمن جاهد لأجل أن يقال إنه شجاع أو قرأ القرآن ليقال قارئ، ويدل على ذلك ما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا بلى: قال:(الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل)[2].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: (قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[3] وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار (المقاتل

(١) في كتابه: القول السديد شرح كتاب التوحيد، باب الخوف من الشرك.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعه وقال الألباني (حسن)، انظر صحيح سنن ابن ماجه ٢/٤٠٩ رقم ٣٣٨٩ - ٤٢٠٤.

(٣) الحديث رواه مسلم، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله سبحانه وتعالى، مختصر صحيح مسلم ص٥٥٥.

ليقال جريء، والمتعلم ليقال عالم والمتصدق ليقال جواد)[١] نعوذ بالله تعالى من غضبه وأليم عقابه.

ويدخل في الشرك الأصغر، الشرك في الألفاظ كقول ماشاء الله وشئت، ولولا الله وفلان، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، كما في الحديث عن قتيلة - امرأة من جهينة - أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا (ورب الكعبة وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت)[٢].

كذلك من هذا الشرك الأصغر الحلف بغير الله تعالى أو صفة من صفاته كما في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[٣] والمراد به الشرك الأصغر[٤].

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإسلام واليقين حتى نلقاه على ذلك

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب من قاتل للرياء والسمعه مختصر صحيح مسلم ص ٢٨٩.

(٢) الحديث رواه أحمد في مسنده ٣٧١/٦، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي رقم ٣٥٣٣ كتاب الإيمان والنذور / باب الحلف بالكعبة.

(٣) الحديث رواه الترمذي في كتاب النذور باب / كراهية الحلف بغير الله تعالى وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (صحيح) ٩٩/٢ رقم ١٢٤١ - ١٥٩٠.

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد باب / قول الله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ص ٤٤٧.

وأن يجنبنا الأهواء والضلال والكفر والشرك والإلحاد بجميع أنواعه وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفصل الرابع
العلاقة بين أنواع التوحيد

مما تقدم من الحديث حول أنواع التوحيد الثلاثة علمنا تعريف كل نوع وأقسام الشرك فيه، وأنه لا يكتمل إيمان العبد إلا إذا أتى بـها جميعاً من غير شائبة من شرك أو نقص في تحقيقها وهذا يدل على وضوح العلاقة بين هذه الأقسام مما سأبينه في مباحث هذا الفصل.

المبحث الأول
علاقة توحيد الربوبية بتوحيد الألوهية

إن العلاقة بين توحيد الربوبية والألوهية هي علاقة التلازم بمعنى أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، فمن أقر بتوحيد الربوبية لزمه الإيمان بتوحيد الألوهية وإلا كان إقراره به باطلاً، لا فائدة منه ولا جدوى وذلك كحال كفار قريش الذين أقروا بتوحيد الربوبية ولم يقروا بتوحيد الألوهية، فلم ينفعهم ذلك الإقرار شيئاً، بل كان حجة عليهم لعدم إتيانـهم بلازمه من توحيد الألوهية، واستوجبوا بذلك دخول النار وهذا يدل على أن توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية واستحقاق الله تعالى وحده لا شريك له لجميع أنواع العبادة، وقد بين الله سبحانه وتعالى الربط والتلازم بين توحيد الربوبية والألوهية في آيات كثيرة فمن هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول سبحانه وتعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ أي: كيف تجحدون وتعبدون معه غيره ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي: أمواتاً في أصلاب آبائكم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾: أي أحياكم فأخرجكم إلى الوجود ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: موتة الحق ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: حين يبعثكم وهذا كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الآية أ هـ[2][3].

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ربط بين توحيد الربوبية والألوهية وأنكر على المشركين إشراكهم معه في العبادة غيره وهم يعملون أنه لا خالق إلا هو سبحانه وتعالى.

ومن الآيات الدالة على الترابط بين الربوبية والألوهية أيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4].

ففي هاتين الآيتين نجد: أن الله سبحانه وتعالى ربط أيضاً بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فبدأ سبحانه وتعالى في الآية الأولى بالأمر بتوحيد الألوهية وهذا في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي: أخلصوا له

(١) البقرة / ٢٨ – ٢٩.
(٢) غافر / ١١.
(٣) تفسير ابن كثير ١/٦٧.
(٤) البقرة / ٢١ – ٢٢.

العبادة بـجميع أنواعها وختم سبحانه وتعالى الآية الثانية بتوحيد الألوهية أيضاً وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وجعل ما بينهما توحيد الربوبية من بيان خلقه المخلوقات العظيمة في السماء والأرض وما بينهما وهذا دليل على أهمية توحيد الألوهية وعلى الترابط والتلازم بين هذين النوعين وفي ذلك يقول شارح الطحاوية: علي بن أبي العز رحمه الله تعالى : والقرآن الكريم يقرر توحيد الربوية وأنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى وأن ذلك يستلزم توحيد الألوهية وألا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى فيجعل الأول دليلاً على الثاني إذا كانوا يسلمون في الأول أي : توحيد الربوبية وينازعون في الثاني أي : توحيد الألوهية.

فبين لهم سبحانه وتعالى أنكم إذا كنتم تعلمون وتؤمنون أنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى وأنه لا يأتي العباد بما ينفعهم ولا يدفع عنهم ما يضرهم إلا هو سبحانه وتعالى فكيف تشركون معه في العبادة غيره وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

(١) شرح الطحاوية ص ٨٣.

المبحث الثاني
علاقة توحيد الألوهية بالربوبية

أما علاقة توحيد الألوهية بالربوبية: فهي علاقة التضمن بمعنى أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، فمن أقر بتوحيد الألوهية وآمن به، كان إيمانه به وإقراره متضمناً إقراره بتوحيد الربوبية ولا بد.

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى أي علاقة الربوبية بالألوهية والعكس ما جاء في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[1]، حيث ورد في الآية ما يدل على الربوبية وهو قوله تعالى ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي خالقهم، وما يدل على الألوهية وهو قوله تعالى ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي معبودهم وإلٓههم لا شريك له.

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً العلاقة بين توحيد الربوبية والألوهية والعكس : الإلٓهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلٓهية، فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد، لم يمنع أن يختص بمعناه عند الإقتران كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فجمع بين الاسمين: إسم الإلٓه، وإسم الرب، فإن (الإلٓه) هو المعبود الذي يستحق أن يعبد «والرب» هو الذي يرب عبده فيدبره[2].

---

(١) الناس/ ١-٣.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٢٨٤.

ومعنى كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن لفظ الرب والإلّه من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت في المعنى وإذا افترقت اجتمعت في المعنى فإذا جاء لفظ الرب مع لفظ الإلّه كان الرب هو الخالق الرازق أي توحيد الربوبية وكان الإلّه هو المعبود أي توحيد الألوهية كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وإذا جاء لفظ الإلّه منفرداً دخل فيه الرب كما في قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[2] وإذا جاء لفظ الرب منفرداً دخل فيه الإلّه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وكما في حديث مسألة القبر (من ربك؟)[3].

وقال شارح الطحاوية: التوحيد الذي دعت إليه الرسل علهيم الصلاة والسلام ونزلت به الكتب هو توحيد الإلّهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له[4].

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ

(١) الفاتحة / ١. (٢) سورة طه / ٩٨.

(٣) حديث مسألة القبر (من ربك وما دينك وما نبيك ؟) رواه أبو داود في سننه في كتاب السنة باب / المسألة في القبر وعذاب القبر وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٩٠١/٣ رقم ٣٩٧٩ – ٤٧٥٣ والشاهد منه قوله: (من ربك؟) فإن لفظ الرب إذا جاء منفرداً دخل فيه الإلّه فمعناه من خالقك وإلّهك الذي كنت تعبده؟.

(٤) شرح الطحاوية ص ٧٩.

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1].

هذه الآيات الكريمة قد جمعت بين توحيد الربوبية في بيان خلق الله تعالى للسماء والأرض، وما فيهما وما بينهما من خلائق لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، وبين توحيد الألوهية في قوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي تشركون معه في العبادة والألوهية، ولا تخلصون له توحيد الألوهية، وقوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي فإن استكبروا عن دعوتك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي دعوة التوحيد، ودعوة الإسلام، فأنذرهم بالعذاب الذي أخذ أمثالهم من المكذبين من الأمم السابقة والآيات في بيان هذا المعنى كثيرة.

---

(٤) فصلت/ ٩-١٣.

المبحث الثالث

علاقة توحيد الأسماء والصفات بتوحيد الربوبية والألوهية

والعلاقة بين توحيد الأسماء والصفات وبين توحيد الربوبية والألوهية هي: علاقة التلازم أيضاً، بمعنى أن توحيد الأسماء والصفات يستلزم توحيد الربوبية والألوهية، فهو يعلم أن خالقه وإلٓهه متصف بأعلى صفات الكمال، وأسمى آيات الجلال ولذا كان كفار قريش يقرون بتوحيد الأسماء والصفات لأنـهم كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا بعضهم في اسم الرحمٰن خاصة، إما جهلاً وإما عناداً ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك كما ردوا عليه توحيد الإلٓهية، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[1].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في توحيد الأسماء والصفات : وهذا لا يكفي في حصول الإسلام بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والإلٓهية[2].

كذلك توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية كما تقدم ولتوحيد الأسماء والصفات، فمن أقر بتوحيد الألوهية على وجه الكمال المطلوب كان إقراره متضمناً توحيد الربوبية والأسماء والصفات فهو مقر بـخالقه عزوجل وأسمائه وصفاته الذي وحَّده في عبادته وهو من لازم ذلك، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات وسيلة، وتوحيد الألوهية غاية وبهذا يتبين أن توحيد

(١) سورة صٓ/ ٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد / المقدمة ص ٢٢.

الربوبية والأسماء والصفات يستلزمان توحيد الألوهية وتوحيد الألوهية يتضمن الربوبية والأسماء والصفات، وأن توحيد الربوبية يتضمن توحيد الأسماء والصفات، وبهذا تتبين علاقة التلازم والترابط والتضمن بين أقسام التوحيد.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في حديثه عن أقسام التوحيد الثلاثة: وهي متلازمة كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا لأنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب[1].

(١) تيسير العزيز الحميد / المقدمة / ص ٢٠.

الفصل الخامس
الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام

أرسل الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام لهدي البشرية وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم عزوجل كما قال الله تعالى : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[1] وقيل في تعريف النبي : هو من نبأه الله تعالى بخبر السماء، فإن أمره أن يبلغه عنه فهو نبي رسول وإن لم يأمره فهو نبي وليس برسول وهذا القول ضعيف لأنه يقتضي أن النبي لم يؤمر بالتبليغ وهذا فيه كتمان للعلم والصحيح في تعريف النبي ما عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال: النبي هو الذي ينبئه الله تعالى وهو ينبئ بما أنبأ الله تعالى به فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله تعالى ليبلغه رسالة من الله تعالى إليه فهو رسول وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله تعالى رسالة فهو نبي وليس برسول قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ فذكر إرسالاً يعم النوعين وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله تعالى كنوح عليه الصلاة والسلام وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض وقد كان قبله أنبياء

(١) إبراهيم / ١.

كشيث وإدريس وقبلهما آدم كان نبياً فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي الله تعالى بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم[1] فتبين من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن النبي: هو الذي نبأه الله تعالى وأوحى إليه وأمره أن يبلغ ذلك الوحي إلى المؤمنين في عصره.

فهذا القول هو الراجح والأصح في تعريف (النبي) لأن القول الأول يقضي أن النبي لم يؤمر بالتبليغ والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾[2] حيث دلت الآية على إرسال كل من الرسول والنبي كما تقدم في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن للأنبياء أتباعاً وهذا لا يكون إلا بعد البلاغ كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد)[3].

وعلى المسلم الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهذا الفصل يتناول الحديث عن الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام في عدة مباحث.

---

(١) النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٧٢.

(٢) الحج/ ٥٢.

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٤١) وفي كتاب الطب / باب من لم يَرْقِ رقم (٥٧٥٢) ومسلم في الإيمان / باب الرقية

المبحث الأول

الإيمان بإرسال الله تعالى للرسل عليهم الصلاة والسلام وتأييده لهم بالمعجزات الدالة على صدقهم

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسله إلى الثقلين الإنس والجن مبشرين ومنذرين، مبشرين من أطاعهم بالجنة ومنذرين من عصاهم بالنار، لئلا يكون للناس على الله حجة، بعد الرسل كما قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾[2].

وهؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله تعالى جعلهم متفرقين في الأزمنة والأمكنة حتى ينشروا دينه في الأرض.

وأول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض نوحٌ عليه الصلاة والسلام وقد كان الناس قبله على التوحيد منذ آدم عليه السلام إلى أن أرسله الله تعالى، لما ظهر الشرك في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: قال الإمام ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة

---

(١) النساء/ ١٦٥. (٢) الأنعام/ ١٣٠.

(٣) البقرة/ ٢١٣.

قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا وعبدوا الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم نوحاً عليه الصلاة والسلام فكان أول رسول بعثه إلى أهل الأرض(١).

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يرسل لكل أمة رسولاً بلسانها ليبين لهم الحق عن ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣) وذكر الله تعالى في القرآن الكريم عدداً من الرسل، إلا إنه لم يذكرهم على سبيل الحصر كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٤) فنؤمن بمن ورد له اسم منهم على التفصيل وأما من لم يرد له اسم فإنا نؤمن به على الإجمال.

وأيد الله سبحانه وتعالى كل رسول بمعجزة تبين صدقه فيما جاء به، وأنه رسول من عنده تبارك وتعالى، كما روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:(ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)(٥) وجعل سبحانه وتعالى معجزة كل رسول مناسبة لما في زمان ومكان

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٠.
(٢) فاطر/ ٢٤.
(٣) إبراهيم/ ٤.
(٤) النساء/ ١٦٤.
(٥) رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب فضائل القرآن / باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ؟ رقم ٤٩٨١ ورواه مسلم في كتاب الإيمان / باب وجوب الإيمان

مبعث ذلك الرسول، فعلى سبيل المثال معجزة محمد صلى الله عليه وآله وسلم القرآن الكريم فهو أعظم كتاب في البلاغة والفصاحة والإعجاز حيث بلغ الغاية في ذلك فلا يدانيه كتاب في البلاغة والفصاحة والإعجاز، فكانت هذه المعجزة مناسبة لما اشتهر به كفار قريش حيث كانوا قوماً فصحاء وبلغاء وكانت أيضاً معجزة خالدة إلى قيام الساعة لأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وهكذا بقية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الغالب كانت معجزاتهم مناسبة لما اشتهر به أقوامهم، فالواجب الإيمان بجميع رسل الله تعالى أجمعين وما جاؤوا به من معجزات وغيرها فمن آمن بالبعض وكفر بالبعض الآخر فقد كفر بالجميع لأن دين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام واحد ومرسلهم كذلك واحد، وهو الله سبحانه وتعالى أرسلهم بدين التوحيد والإسلام ليظهره على الدين كله كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ

(١) البقرة/ ٢٨٥.

(٢) البقرة/ ١٣٦.

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1].

وفي حديث أركان الإيمان (ما الإيمان: قال أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث)[2] وفي رواية (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[3] ونبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين لا نبي بعده فمن اعتقد أن هناك نبياً بعده فقد كفر لأن الله تعالى يقول: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[4] ورسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد نسخت جميع الرسالات، وما من يهودي ولا نصراني ولا كافر سمع بمبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم مات ولم يسلم إلا كان من أهل النار كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[5] فالواجب الإيمان بجميع المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) النساء/ ١٥٠ - ١٥١.

(٢) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الإيمان باب سؤال جبريل عليه السلام رقم ٥٠.

(٣) رواه مسلم في الإيمان باب / تعريف الإسلام والإيمان مسلم بشرح النووي ١/١٥٧.

(٤) الأحزاب/ ٤٠.

(٥) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مسلم بشرح النووي ٢/١٨٦.

المبحث الثاني

الإيمان بما جاءت به رسل الله تبارك وتعالى من تشريعات

إن الإيمان بما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين داخل تحت ركن الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام وعلى هذا فلا يتم إيمان العبد إلا إذا آمن بجميع ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من عند الله تبارك وتعالى من كتب منزله ومن أمور تشريعية قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[1] وكل أمة يلزمها العمل بما جاء به رسولها، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين رسول من في الأرض من الثقلين إلى قيام الساعة، وشريعته صلى الله عليه وآله وسلم ناسخة لجميع الشرائع السابقة فمن لم يؤمن به فإنه لم يؤمن بأي رسول أو نبي بل هو كافر بجيمع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما تقدم، لذلك يلزم الإيمان بشريعته صلى الله عليه وآله وسلم وأنها ناسخة لجميع الشرائع وكذلك الإيمان بأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تعالى حقاً، كما هو في الركن الأول من أركان الإسلام: وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله، طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله تعالى إلا بما شرع.

والواجب علينا لرسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الواجب على أمم المرسلين السابقين لرسلهم من التصديق والطاعة والدعاء لهم

(١) سورة الشورى/ ١٣.

والتوقير والاحترام دون غلو أو تقصير أو إفراط أو تفريط في حقوقهم، وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات تبين ما للرسل عليهم الصلاة والسلام من حقوق على أممهم فمن ذلك :

قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[3]

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[6]وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[7] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ

(١) آل عمران/ ١٣٢.
(٢) النساء/ ٥٩.
(٣) النساء/ ٦٤.
(٤) النساء/ ٦٩-٧٠.
(٥) النساء/ ٨٠.
(٦) الحشر/ ٧.
(٧) النساء/ ١٣-١٤.

﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[6].

---

(١) النور/ ٥٢.
(٢) الأحزاب/ ٧١.
(٣) الأنعام/ ١٣٠.
(٤) الزمر/ ٧١-٧٢.
(٥) الشورى/ ١٣.
(٦) غافر/ ٤٩-٥٢.

وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[5] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[6]

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ

(١) آل عمران/ ١٧٩.
(٢) النساء/ ١٣٦.
(٣) النساء/ ١٥٢.
(٤) الأحزاب/ ٢١.
(٥) الفتح/ ٨-٩.
(٦) الحجرات/ ٢-٥.

ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[1].

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وقوله تعالى: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي بسبب دعوة الرسول لكم وتعليمه لكم ما ينفعكم أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تنصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وتنصروا دينه ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعظموه وتجلوه وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة العظيمة في رقابكم[2].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وقد بينت هذه الآيات ما للرسل عليهم الصلاة والسلام من حقوق على أممهم ومنها وجوب طاعتهم، وما في ذلك من النجاة في الدنيا والآخرة وما في معصيتهم من خسارة في الدنيا والآخرة، وأن طاعة الرسل عليهم الصلاة والسلام تكون باتباع ما جاؤوا به من عند الله تبارك وتعالى، فذلك هو سبيل الفلاح، وضده سبيل البوار والدمار، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾[3].

وكما حثت آيات الكتاب الكريم على طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأمرت بذلك جاءت السنة المشرفة مؤكدة لـهذا المعنى:

---

(١) النساء/ ٦٥.

(٢) تسير الكريم الرحمن للسعدي / ص ٧٣٦.

(٣) الفرقان/ ٢٧-٢٩.

فمن ذلك:-

ما رواه العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فما تعهده إلينا؟ فقال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بـها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)[١].

وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أما بعد فخير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:(كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قيل يا رسول الله ومن يأبى، قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)[٣].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، وقال الألباني (صحيح) انظر صحيح سنن الترمذي ٣٤١/٢ رقم ٢١٥٧ – ٢٨٢٨ وابن ماجه في سننه باب/ اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، صحيح سنن ابن ماجه ١٣/١ رقم ٤٠– ٤٢.

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب رفع الصوت بالخطبة وما يقول فيها، مختصر صحيح مسلم، ص ١١٣.

(٣) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب/ الاعتصام بالكتاب والسنة باب/ الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، رقم ٧٢٨٠.

فهذه الأدلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة قد بينت ما في طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من الفلاح وما في معصيتهما من الضلال والشقاء وأن من أطاع رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام فقد أطاع الله تعالى، ومن عصى رسله فقد عصاه واستحق مقته وغضبه وعقابه.

المبحث الثالث
الإيمان بكتب الله تعالى التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام

ومن أركان الإيمان الإيمان بكتب الله تعالى التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام[1]. فهذه الكتب قد أنزلها الله تعالى على رسله عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾[3].

فيلزم الإيمان بجميع ما أنزل الله تعالى على رسله عليهم الصلاة والسلام من كتب جملة وتفصيلاً فنؤمن بما ورد له اسم منها تفصيلاً كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإجمالاً لما لم يرد له اسم منها فنؤمن بها وأنها من عند الله تبارك وتعالى حقاً كما قال تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ

---

(١) تقدم بعض الحديث عن الإيمان بالكتب في المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الأول عند الحديث عن أنواع الآيات.

(٢) البقرة/ ٢١٣.

(٣) آل عمران/ ١٨٤.

(٤) البقرة/ ٢٨٥.

ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[1].

ومن السنة قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث جبريل عليه السلام المتقدم قريباً (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه) وقد رواه البخاري ومسلم كما تقدم أيضاً.

(١) النساء/ ١٣٦.

المبحث الرابع
الإيمان بالمغيبات التي جاءت عن طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

إن الأمور الغيبية التي أخبرت عنها رسل الله عليهم الصلاة والسلام كثيرة وسأذكر بعضها على سبيل الإختصار:

فمنها:

أولاً: الإيمان بأقدار الله تبارك وتعالى

من الأمور الغيبية التي يجب على المسلم الإيمان بـها ما قدره الله تعالى على عباده من أرزاق وموت وحياة وسعادة وشقاء وصحة ومرض وغير ذلك والله سبحانه وتعالى قدرها قبل أن يخلق السموات والأرض كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»[1].

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأنـي

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب القدر، باب كتب المقادير قبل الخلق، مختصر صحيح مسلم، ص ٤٨٦.

رسول الله بعثني الله بالحق ويؤمن بالموت والبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر)[1].

وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: «والذي نفس ابن عمر بيده: لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»، ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

والقدر سر من أسرار الله تعالى وركن من أركان الإيمان يجب الإيمان به والله تعالى لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ولا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً، وقد سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر قال: طريق مظلم فلا تسلكه، فأعاد السؤال فقال: بحر عميق لا تلجه، فأعاد السؤال فقال: سر الله خفي عليك فلا تفتشه.

وقال شيخ الإسلام: مذهب أهل السنة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

(١) رواه أحمد في مسنده، ٩٧/١، ورواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، وقال الالباني رحمه الله تعالى صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي ٢٢٧/٢ رقم ١٧٤٤ – ٢٢٤٦.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، إثبات القدر، مسلم بشرح النووي ١٥٦/١.

والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتـها القائمة بـها من أفعال العباد، وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته لا يمتنع عليه شيء، بل هو القادر على كل شيء، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون وقدر أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء ومشئيته لكل ما كان وعلمه بالأشياء، قبل أن تكون، وتقديره لـها وكتابته إياها قبل أن تكون[1].

ثانياً : الإيمان بالملائكة عليهم السلام:

والإيمان بالملائكة عليهم السلام ركن من أركان الإيمان أيضاً، كما تقدم في الحديث السابق الذي بين أركان الإيمان، فقد ذُكر فيه الإيمان بالملائكة عليهم السلام فيجب على المسلم أن يؤمن بأن لله تعالى ملائكة لأن ذلك من الأمور الغيبيه التي أخبرت عنها رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ويؤمن أيضاً بأن أولئك الملائكة على أقسام حسب أعمالهم: فمنهم من هو مكلف بمراقبة أعمال الإنسان وإحصاء حسناته وسيئاته، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ

(١) تيسير العزيز الحميد، باب ما جاء في منكري القدر ص٥١٨.
(٢) الانفطار/ ٩-١٢.

﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظه كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم[2].

وفي الحديث: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»[3].

ومن الملائكة عليهم السلام من هو موكل بإنزال الوحي من السماء على أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهو جبريل عليه السلام، ومن أسمائه (الروح) كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾[4]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وأما الروح فقيل المراد به جبريل عليه السلام فيكون من عطف الخاص على العام[5].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[6]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

(١) سورة قٓ/ ١٧-١٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٢.
(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب/ فضل صلاة العصر رقم ٥٥٥.
(٤) القدر/ ٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/٥٣١.
(٦) الشعراء/ ١٩٢-١٩٥.

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ هو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف[1].

ومن الملائكة عليهم السلام من هو موكل بحمل عرش الرب تباك وتعالى، وقد بين الله تعالى في القرآن الكريم أن عددهم يوم القيامة ثمانية، قال تعالى: ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾[2].

ومن الملائكة عليهم السلام من هو موكل بحفظ الإنسان في حياته وفي أموره المختلفة وسماهم الله تعالى بالمعقبات، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[3]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾ أي العبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات[4].

ومن الملائكة عليهم السلام من هو موكل بقبض روح الإنسان عند الموت، وهو ملك الموت وأعوانه، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[6]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي ملائكة موكلون بذلك، قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٤٧.

(٢) الحاقة/ ١٦-١٧.

(٣) الرعد/ ١١.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٣.

(٥) السجدة/ ١١.

(٦) الأنعام/ ٦١.

الموت إذا انتهت إلى الحلقوم[1] ومنهم من هو موكل بفتنة القبر أعاذنا الله تعالى منها وثبتنا بالقول الثابت وهما (منكر ونكير) حيث روي الترمذي رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إذا قبر الميت (أو قال أحدكم) أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر والآخر النكير).. الحديث[2].

ومن الملائكة عليهم السلام من هو موكل بتثبيت المؤمنين في الجهاد في سبيل الله والمشاركة معهم كما في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[3].

ومن الملائكة عليهم السلام من هو موكل بالجنة ورعاية أهلها -جعلنا الله تعالى منهم- قال تعالى عن المؤمنين: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[4].

(١) تفسير ابن كثير ١٣٨/٢.

(٢) رواه الترمذي في أبواب الجنائز، انظر صحيح سنن الترمذي ٣١١/١ /أبواب الجنائز / ٧١ باب/ عذاب القبر رقم ٨٥٦ – ١٠٨٣ وقال الألباني رحمه الله تعالى (حسن).

(٣) آل عمران ١٢٣-١٢٦.

(٤) الرعد/ ٢٣-٢٤.

ومن الملائكة عليهم السلام من هو موكل بالنار وأهلها -أعاذنا الله تعالى منها- قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۚ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[2]، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ ﴾ أي نادى المجرمون هذا النداء، ومالك هو خازن النار[3]، كما جاء عند مسلم في الحديث (فلما فرغت من الصلاة، قال لي قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه فالتفت إليه فبدأني بالسلام)[4] والملائكة عليهم السلام لهم أعمال كثيرة غير ذلك ومنها ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

فعلى المسلم الإيمان بجميع ذلك كما ذكره الله تعالى في كتابه وبينه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المطهرة.

ثالثاً: الإيمان بوجود الجان:

ومن الأمور الواجب الإيمان بها وجود الجان، وأنهم مكلفون بالشرائع والفرائض والواجبات التي كلف بها الإنس لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليهم كما قد بعث إلى الإنس، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾[5].

(١) المدثر/ ٢٧-٣١.

(٢) الزخرف/ ٧٧.

(٣) فتح القدير ٤/٥٦٥-٥٦٨.

(٤) الحديث أخرجه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه كتاب الإيمان، باب / ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام والمسيح الدجال، مسلم بشرح النووي ٢/٢٣٨.

(٥) الذاريات/ ٥٦-٥٨.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[3].

وكما ذكرت آيات الكتاب الكريم الجن، وأنهم مكلفون كما هو الحال في الإنس كذلك ورد في السنة المطهرة ما يبين ذلك :

فقد أخرج البخاري رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم: (انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قال ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء

(١) الأحقاف/ ٢٩-٣٢.
(٢) الجن/ ١-٢.
(٣) الأنعام/ ١٣٠.

حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربـها لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تـهامه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بنخله عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ وأنزل الله عزوجل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وإنـما أوحي إليه قول الجن[1].

فمن هذا الحديث الشريف وما تقدم من الآيات يتبين لنا أن الإيمان بالجن ووجودهم وأنـهم مكلفون واجب على المسلم بل هو داخل في الإيمان بما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام، كما هو الحال في الملائكة عليهم السلام وغيرهم من الأمور التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه وبينها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في سنته، وأن إنكار شيء من ذلك يعني الردة والخروج عن الإسلام لأنه إنكار شيء علم ثبوته من الدين بالضرورة، وتكذيب لما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يناقض الإيمان بالله تعالى، فمن كذب ولو بحرف واحد من كتاب الله تعالى أو من سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الثابتة فقد ارتد عن الإسلام والعياذ بالله تعالى من ذلك.

(١) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الأذان ، باب الجهر بقراءة صلاة الصبح رقم ٧٧٣ وفي كتاب التفسير، باب (قل أوحي إلي) رقم ٤٩٢١ .

رابعاً : الإيمان بأشراط الساعة وأمارتها :

أشراط الساعة التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه الكريم الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبر عنها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المطهره هي أمور غيبية أيضاً يجب الإيمان بـها كما وردت، وعدم الإيمان بـها يعد كفراً لـما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك مخرج عن الإسلام.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن بعض هذه الأَمارات إلا أن السنة المشرفة قد فصلت القول في ذلك لأنـها مبينة لكتاب الله تبارك وتعالى وأذكر بعض هذه الأمارات على سبيل الإجمال:

فمن الأمارات التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه الكريم (طلوع الشمس من مغربـها) وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: يقول الله تعالى متوعداً الكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها، كما قال البخاري

(١) الأنعام/ ١٥٨.

رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربـها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوّف إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لإقتراب الساعة وظهور أشراطها، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾[3].

وقد ورد في الحديث أن باب التوبة مفتوح إلى طلوع الشمس من مغربها فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[4].

وورد في السنة المشرفة أحاديث أُخر توضح أشراط الساعة وأماراتها فمنها:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب التفسير، سورة الأنعام / باب ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ رقم الحديث ٤٦٣٥ - ٤٦٣٦.

(٢) محمد/ ١٨.

(٣) غافر/ ٨٤-٨٥، تفسير ابن كثير ١٩٣/٢-١٩٥.

(٤) الحديث أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله تعالى عليه، انظر مختصر صحيح مسلم ص ٥١١.

ما رواه مسلم رحمه الله تعالى عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله تعالى عنه قال: إطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟ قالوا نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بارزاً للناس، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله: ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر» قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال يا رسول الله: ما الاحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك، قال يا رسول الله : متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء البهم في البنيان فذاك من أشراطها).. الحديث[2].

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب في الآيات التي تكون قبل قيام الساعة، مختصر صحيح مسلم، ص ٥٣٩.

(٢) الحديث رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أشراط الساعة، مسلم بشرح النووي ١/١٦١.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس)[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، الله)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل، القتل)[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قَتل ولا المقتول فيم قُتل، فقيل كيف يكون ذلك؟ قال: الهرج: القاتل والمقتول في النار)[4].

ومن أمارات الساعة خراب الكعبة المشرفة، فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) الحديث رواه مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، مختصر صحيح مسلم ص ٥٣٥.

(٢) الحديث رواه مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، مختصر صحيح مسلم ص٥٣٥.

(٣) الحديث رواه مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، مختصر صحيح مسلم، ص ٥٣٣.

(٤) الحديث رواه مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى لا يدري القاتل فيم قتل، مختصر صحيح مسلم، ص٥٣٣.

(يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)[1].

وأمارات الساعة وأشراطها متعددة وينبغي على المسلم الإيمان بجميعها.

وأكتفي بما ذكرت منها، ومن أراد الاطلاع والتوسع في معرفة تلك الأمارات فعليه مراجعتها في الكتب التي ألفت فيها خاصة أمثال كتاب (نهاية البداية والنهاية) لابن كثير رحمه الله تعالى وكتاب (القناعة فيما يحسن الإحاطة من أشراط الساعة) للحافظ محمد عبد الرحمٰن السخاوي رحمه الله تعالى ومنها كتاب (أشراط الساعة) ليوسف الوابل وكذلك كتاب (إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة) لحمود بن عبد الله التويجري وغيرها وكذلك كتب السنة في أبواب الفتن والملاحم والله تعالى أعلم.

خامساً : الإيمان بفتنة القبر وسؤال الملائكة ونعيم القبر وعذابه.

كذلك من الأمور الواجب على المسلم الإيمان بـها، القبر وما فيه من نعيم للمؤمنين المتقين وعذاب للكافرين والعصاة والمكذبين، وما فيه من فتنة يفوز بعدها أهل الإيمان، ويهلك ويخسر فيها أهل الطغيان والخسران، أعاذنا الله تعالى من فتنة القبر وعذابه وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه على كل شيء قدير وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وقد دلت أدلة الكتاب والسنة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ

(١) الحديث رواه مسلم، كتاب الفتن، باب يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، مختصر صحيح مسلم، ص٥٣٨.

ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1]، وقد جاء بيانها في السنة المشرفة حيث روى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) قال: (نزلت في عذاب القبر فيقال له من ربك؟ فيقول رب الله ونبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فذلك قول الله عزوجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾[2] فدلت هذه الآية وهذا الحديث على فتنة القبر ومن الآيات الدالة على نعيم القبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ أي عند الموت والإحتضار تقول لهم الملائكة نحن كنا أولياؤكم نوفقكم ونحفظكم بأمر الله تعالى وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث

(١) إبراهيم / ٢٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه باب / ما جاء في عذاب القبر رقم الحديث ١٣٦٩، ورواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار / باب عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، مسلم بشرح النوري ١٧/ ٢٠٤.

(٣) فصلت/ ٣٠-٣٢.

والنشور ونجاوزكم الصراط ونوصلكم إلى جنات النعيم[1].

ومنها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[2] قال ابن كثير رحمه الله تعالى : هذا يقال لها عند الإحتضار وفي يوم القيامة حيث تبشرهم الملائكة بذلك[3].

ومن الآيات الدالةعلى عذاب القبر أعاذنا الله تعالى منه قوله تعالى في قوم نوح عليه السلام لما كذبوه فاهلكم بالغرق : ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾[4] فدلت الآية على أن عذابهم بالنار كان بعد إغراقهم مباشرة وهذا هو عذاب القبر لأنه قبل يوم القيامة .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : نقلوا من تيار البحر إلى حرارة النار[5].

ومنها قوله تعالى عن آل فرعون : ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[6]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى وقوله تعالى : ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ هو الغرق في اليم ثم النقلة إلى الجحيم ، وقـوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي صباحاً ومساءً ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً، و هذه الآية أصل

(١) تفسير ابن كثير ٤/٩٨.
(٢) الفجر/ ٢٧-٣٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥١٠.
(٤) نوح/ ٢٥.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/٤٢٧.
(٦) غافر/ ٤٥-٤٦.

كبير في استدلال أهل السنة والجماعة على عذاب القبر وأنه حق[1] .

قلت : فدلت هذه الآية على أن آل فرعون تعذب أرواحهم وأجسادهم قبل يوم القيامة وهذا هو عذاب القبر لأن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ فدل على أن ذلك قبل يوم القيامة: أي في القبر .

ومن السنة أيضاً ما جاء عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك فهو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2].

حيث أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فاقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فيراهما جميعاً، وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقه من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين)[3].

وأخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حائط لبني

(١) تفسير ابن كثير ٤/٨٠.
(٢) النجم/ ٣-٤ .
(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال رقم الحديث ١٣٣٨.

النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: (من يعرف أصحاب هذه الأقبر، فقال رجل: أنا، قال فمتى مات هؤلاء قال: ما توا في الإشراك، فقال: إن هذه الامة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار، قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال)[1].

ومنها ما رواه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما غربت الشمس فسمع صوتاً فقال: يهود تعذب في قبورها)[2].

ومنها ما رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن عبد الله ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الجنة، عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، مسلم بشرح النووي ١٧/٢٠٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة، عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، مسلم بشرح النووي ١٧/٢٠٣.

يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة[1].

فتبين لنا من هذه الأدلة حقيقة عذاب القبر ونعيمه وأنه حق لا شك فيه حيث بينه الله تعالى في كتابه الكريم وبينه الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المشرفة ، وتبين لنا أيضاً أن الإنسان يُسْأَل في قبره وأن لله تعالى ملائكة مكلفين بذلك كما تقدم، فيجب على المسلم الإيمان بذلك كله، والتسليم به.

نسأل الله تعالى أن يجيرنا والمسلمين جميعاً من عذابه وأن يشملنا برحمته ورضوانه.

سادساً : الإيمان بالبعث بعد الموت:

ومن أركان الإيمان التي يجب على المسلم الإيمان بـها، الإيمان بالبعث بعد الموت وهو داخل في الإيمان باليوم الاخر، وأن ذلك حق كائن لا محالة كما أخبرت عنه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد تقدم الحديث عن ذلك في نهاية باب خلق الإنسان بما فيه الكفاية والله تعالى أعلم.

سابعاً : الإيمان بما يكون بعد البعث في يوم القيامة:

هناك أمور عظيمة وأهوال كبيرة تكون بعد البعث من القبور في عرصات القيامة، قد جاءت أدلة الكتاب والسنة الصحيحة مخبرة عنها، وقد سمى الله تعالى ذلك اليوم العظيم بيوم الدين، لأن فيه الإدانة والمحاسبة

(١) رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الجنائز / باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي رقم ١٣٧٩، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه،مسلم بشرح النووي ١٧/ ٢٠٠.

على الأعمال، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[1]، وكرره في الآية تعظيماً وتـهويلاً لشأنه، وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[3].

والطامة والصاخة من أسماء يوم القيامة، الذي هو يوم الدين والجزاء على الأعمال، ويوم القيامة يوم شديد وطويل على الكافرين والعصاة ولكنه على الكافرين أشد وقد ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[4] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة"، قال يوم القيامة[5]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا

(١) الانفطار/ ١٧-١٩.
(٢) عبس/ ٣٣-٤٢.
(٣) النازعات/ ٣٤-٤١.
(٤) المعارج/ ٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/٤١٩.
(٦) الفرقان/ ٢٥-٢٦.

أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[2].

ومن السنة ما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بـها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)... الحديث[3] فدل هذا الحديث والآيات السابقة على طول يوم القيامة وشدته على الكافرين والعصاة أما على المؤمنين المتقين فقد جاء في الحديث أنه يقصر عليهم فقد أخرج الحاكم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر)[4].

فمن الأمور التي تكون في ذلك اليوم العظيم :(حوض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم) الذي منَّ الله تعالى به عليه وأكرمه به واسمه (الكوثر) وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ

---

(١) القمر / ٦ – ٨. (٢) المدثر / ٨ – ١٠.

(٣) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب فيمن لا يؤدي الزكاة مختصر صحيح مسلم، ص ١٣٧ بتحقيق الألباني رحمه الله تعالى.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان، باب يوم القيامة كقدر ما بين الظهر والعصر للمؤمنين وقال هذا حديث صحيح الاسناد ٨٤/١، وقال الألباني رحمه الله تعالى (صحيح) انظر صحيح الجامع الصغير للألباني ١٣٦١/٢ رقم ٨١٩٣ – ٣٢٦٧.

ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وفي عرصة القيامة الحوض المورود لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم[2].

وقال شارح الطحاوية رحمه الله تعالى : والحوض في العرصات قبل الصراط لأنه يمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط[3].

وقد ورد صفة ذلك الحوض في السنة المشرفة، فمن ذلك: ما أخرجه مسلم رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: (بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله، قال: أنزلت على آنفا سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾، ثم قال: أتدرون ما الكوثر، فقلنا: الله ورسوله أعلم: قال فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم[4]، فيُختَلج[5] العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي فيقول: ما تدري ما أحدثوا بعدك)[6] فدل الحديث على أن الذين

(١) الكوثر/ ١-٣.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٤٦/٣.
(٣) شرح الطحاوية ص ٢٥١.
(٤) وفي رواية عند الترمذي (ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل) وقال الألباني صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي ٢٩٦/٢ رقم الحديث ١٩٩٠ - ٢٥٧٥ أبواب صفة القيامة - باب صفة أواني الحوض.
(٥) يُختَلج: أي يُجتذب، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٥٩/٢.
(٦) الحديث أخرجه مسلم، في كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من كل سورة، مسلم بشرح النووي ١١٢/٤.

يشربون من هذا الحوض هم أتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين كانوا على منهجه وأما المخالفون من أهل الضلال والبدع فإنهم يطردون عن هذا الحوض لأنهم خالفوا منهجه صلى الله عليه وآله وسلم نعوذ بالله تعالى من ذلك، قال الإمام السفاريني رحمه الله تعالى : إن من الذين يذادون عن الحوض: أي يطردون جنس المفترين على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من المُحْدِثين في الدين من الروافض والخوارج وسائر أصحاب الأهواء والبدع المضلة وكذلك المسرفون من الظلمة وأهل المعاصي فأهل البدع مطرودون عن حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومردودون عن الشرب منه[1].

قال الإمام القحطاني رحمه الله تعالى في نونيته :

وصراطنا حق وحوض نبينا صدق له عدد النجوم أواني

يسقى بها السُّنيُّ أعذب شربة ويُذاد كلُّ مخالف فتَّان[2]

أسأل الله تعالى أن يسقيني والمسلمين منه شربة لا نظمأ بعدها أبداً ولا يحرمنا من فضله إنه على كل شيء قدير وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

ومنها: (الميزان الذي توزن به أعمال العباد)

وقد ورد فيه آيات من القرآن الكريم وأحاديث من السنة المشرفة، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[4].

---

(1) لوامع الأنوار ٢/١٩٧ – ٢٠٠.

(2) نونية القحطاني ص ١٧.

(3) الأنبياء/ ٤٧.

(4) الزلزلة / ٧ – ٨.

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي رحمه الله تعالى: باب ما جاء في الميزان وأنه حق، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[1] قال العلماء وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾... الآية وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾... الآية وقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[2].

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضه واقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»[3].

فدلت هذه الأدلة على أن الميزان حق لا شك فيه وأنه ميزان حقيقي له كفتان حسيتان مشاهدتان كما في حديث البطاقة المتقدم[4] وفي ذلك رد على من أنكر الميزان من أهل الضلال والبدع.

---

(١) القارعة/ ٦-٩. (٢) المؤمنون/ ١٠٣.

(٣) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الكهف باب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ رقم الحديث ٤٧٢٩.

(٤) تقدم الحديث في المبحث الثاني من الفصل الثالث من هذا الباب عند الحديث عن فضل التوحيد، وانظر أيضاً التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ٣٠٩/١، أبواب الميزان، باب ما جاء في الميزان وأنه حق.

ومن الأدلة أيضاً ما أخرجه البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[1] فقوله صلى الله عليه وآله وسلم (ثقيلتان في الميزان) أي ميزان حسنات العبد يوم القيامة، وهذا دليل صريح على الميزان، وأن أعمال الإنسان توزن ويجازى بحسب وزنه كما تقدم في الآيات السابقة.

وأخرج مسلم رحمه الله تعالى عن أبي مالك الاشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن، أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)[2].

قال النووي رحمه الله تعالى: وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم (والحمد لله تملأ الميزان) فمعناه عظم أجرها وأنه يملأ الميزان، وقد تظاهرت نصوص القرآن والسنة على وزن الأعمال وثقل الموازين وخفتها[3].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن ، رقم الحديث ٧٥٦٣ وهو آخر حديث في صحيح البخاري.

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، فضل الوضوء، مسلم بشرح النووي ٣/٩٩-١٠٠.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/١٠١.

ومنها: الصراط وهو جسر على جهنم.

ويكون مرور الخلق عليه أجمعين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[١].

أخرج مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه في حديث طويل في رؤية الله عز وجل يوم القيامة وفيه (ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم، قيل: يا رسول وما الجسر قال: دحض مزلة[٢] فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم، ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم)... الحديث[٣].

وقد روى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن أناساً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة -إلى أن قال- ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام، ودعوى الرسل، اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك

(١) مريم/ ٧١-٧٢.

(٢) دحض مزلة: الموضع الذي تزل فيه الأقدام، مسلم بشرح النووي ٢٩/٣.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة، مسلم بشرح النووي٢٩/٣.

السعدان تخطف الناس بأعمالهم) ... الحديث[1].

ومنها: قراءة صحف الأعمال :

قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾[2].

والمراد بصحف الأعمال ما سجلته الملائكة على الإنسان في حياته الدنيا من حسنات وسيئات، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[4] قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية (طائره) يعني عمله من خير وشر نلزمه به ويجازي عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً أو بشماله إن كان شقياً، (منشوراً) أي مفتوحاً فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره[5].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى، مسلم بشرح النووي ١٧/٣ .

(٢) الحاقة/ ١٨-٣١.

(٣) الانفطار/ ١٠-١٢.

(٤) الإسراء/ ١٣-١٤.

(٥) تفسير ابن كثير ٢٧/٣.

ومنها: الشفاعة الكبرى:

وهي الشفاعة الخاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي (المقام المحمود) الذي قال الله تعالى عنه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[1]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: (مقاماً محموداً) أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى قال ابن جرير رحمه الله تعالى: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هذا المقام المحمود، مقام الشفاعة وهي الشفاعة الكبرى[2]. وقد بينت السنة المشرفة هذه الشفاعة فمن ذلك ما رواه مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيلهمون لذلك، فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال: فيأتون آدم صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، إشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله تعالى، قال: فيأتون نوحاً صلى الله عليه وآله وسلم فيقول لست هناكم، فيذكر

(١) الإسراء/ ٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٥.

خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم الذي اتخذه الله تعالى خليلاً فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا موسى صلى الله عليه وآله وسلم الذي كلمه الله تعالى، وأعطاه التوراة، قال فيأتون موسى عليه السلام فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون عيسى روح الله وكلمته صلى الله عليه وسلم، فيقول لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيأتوني فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله فيقال يا محمد ارفع رأسك، قل تُسمع، سل تُعطه إشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع) .. وذكر الحديث. قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قوله صلى الله عليه وآله وسلم (فيأتوني فاستأذن على ربي فيؤذن لي) قال القاضي عياض رحمه الله تعالى ومعناه والله تعالى أعلم فيؤذن لي في الشفاعة الموعود بـها والمقام المحمود الذي ادخره الله تعالى له وأعلمه أنه يبعثه فيه ثم بعد ذلك شفاعته لأمته صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعد ذلك الشفاعات الأخرى له صلى الله عليه وآله وسلم التي يشترك فيها مع غيره من الملائكة والأنبياء عليهم السلام وغيرهم[1].

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الشفاعة، مسلم بشرح النووي ٣/٥٣ – ٥٨.

فهذه الأمور العظيمة تكون في يوم القيامة قبل استقرار المتقين في جنات النعيم الخالدة، واستقرار الكافرين في نار الجحيم الخالدة.

وبعد ذلك تكون خاتمة الحساب وهي الجنة أو النار، وأذكر بعض ما ورد في ذلك:

ثامناً : الإيمان بالنار وما أعد الله تعالى فيها من العذاب لمن عصاه:

إن الآيات والأحاديث الواردة في النار أكثر من أن تحصى، فمنها ما بينت أن النار مخلوقة موجودة الآن وأنـها أبدية، ومنها ما ذكرت صفتها وصفة أهلها وما فيها من ألوان العذاب، ومنها ما حذرت منها أعاذنا الله تعالى منها، واذكر بعضاً من ذلك:

١ - ما ورد في كون النار مخلوقة موجودة :

دلت الآيات على أن النار مخلوقة موجودة فمنها قوله تعالى في قوم نوح عليه الصلاة والسلام بعد أن أهلكهم بالغرق:﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾[١].

قال الشوكاني (أدخلوا نارا) هي نار الآخرة وقيل عذاب القبر[٢] وكلاهما يؤدي إلى معنى واحد، لأن الميت المعذب في قبره يفتح له باب إلى النار.

وقال تعالى في آل فرعون بعد أن أهلكهم بالغرق أيضاً: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[٣]

(١) نوح/ ٢٥.

(٢) فتح القدير ٥/٣٠١.

(٣) غافر/ ٤٥-٤٦.

فدلت الآية على أن هذا العذاب يكون قبل يوم القيامة، أي مدة أيام الدنيا، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ فمعنى ذلك أنه قبل قيام الساعة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في التفسير: إن هذه الآيات دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البرزخ[١].

وقد تقدم الحديث عن ذلك عند الحديث عن عذاب القبر ومن الأحاديث ما دل على ذلك أيضاً فمنها : ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (لمَّا خلق الله الجنة أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال : فوعزتك لا يسمع بـها أحد إلا دخلها ، فأمر بـها فحفت بالمكاره فقال : ارجع إليها، فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال : فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه، فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها فرجع إليها : فقال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها)[٢].

ومنها : ما رواه البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة

(١) تفسير ابن كثير ٤/٨١.

(٢) رواه الترمذي في أبواب صفة الجنة / باب ما جاء أن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقال الألباني رحمه الله تعالى حسن صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي للألباني ٢/٣١٧ رقم ٢٠٧٥ – ٢٦٩٨.

فإن شدة الحر من فيح جهنم، واشتكت النار إلى ربـها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير)[1].

ومنها ما رواه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين، والمتجبرين، وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتـهم، قال الله عز وجل للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحد منكما ملؤها)... الحديث[2] فدلت الآيات والأحاديث على وجود الجنة والنار وأنـهما مخلوقتان قبل الخلق وفي ذلك رد على الفرق الضالة التي أنكرت ذلك.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى : والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له[3].

وبيَّن الحديث السابق أيضاً صفة كل من أهل النار وأهل الجنة وهم في الدنيا.

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، أبواب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر رقم الحديث ٥٣٦ – ٥٣٧.

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة النار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، مختصر صحيح مسلم ص٥٢٦.

(٣) شرح الطحاوية ص ٤٧٦.

٢- ما ورد في صفة النار من الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

ومن الأحاديث:

ما رواه مسلم رحمه الله تعالى عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونـها)[3] وما رواه مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال، فإنـها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها)[4].

ومنها ما رواه مسلم رحمه الله تعالى أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ سمع وجبة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أتدرون ما هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال هذا

(١) الواقعة/ ٤١-٤٤. (٢) البقرة/ ٢٤.

(٣) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة النار، باب ذكر أزمة النار، مختصر صحيح مسلم، ص٥٢٥.

(٤) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة النار، باب في شدة حر جهنم، مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٥.

حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهى إلى قعرها[1].

٣- ما ورد في صفة أهلها أعاذنا الله تعالى من ذلك:

روى مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة)[2].

وروى مسلم رحمه الله تعالى أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع)[3].

٤ - أبدية عذاب النار أعاذنا الله تعالى منها:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾[4].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[5].

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة النار، باب في بعد قعر جهنم مختصر صحيح مسلم ص٥٢٥.

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة النار، باب عظم ضرس الكافر في النار، مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٦.

(٣) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة النار، باب جهنم أعاذنا الله تعالى منها مسلم بشرح النووي ١٨٦/١٧

(٤) فاطر/ ٣٦.

(٥) سورة طه/ ٧٤.

وقال الله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾[1].

وروى مسلم رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار أتي بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم)[2].

٥- عذاب أهل النار وبعض أنواعه أعاذنا الله تعالى منها:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية: يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ وهم المشركون ﴿ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ ﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه من أملاك وأموال وكنوز وغير ذلك من الزخارف ﴿ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء، ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال تعالى

---

(١) الأعلى/ ١٠-١٣.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب خلود أهل الجنة وأهل النار فيما هم فيه، مختصر صحيح مسلم ص٥٢٤.

(٣) الزمر/ ٤٧-٤٨.

في آية أخرى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي وظهر لهم من ألوان العذاب وأصناف النكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدنيا[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[3].

وقد جاءت الآيات مبينة لبعض ألوان العذاب للكافرين في نار جهنم. فمن أنواع عذابهم و العياذ بالله تعالى (الصهر) وهو الإذابة.

قال ابن رجب رحمه الله تعالى :

فصل : ومن عذاب أهل النار الصهر نعوذ بالله تعالى من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[4].

---

(١) آل عمران/ ٩١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٥٧.

(٣) الزخرف/ ٧٤-٧٨.

(٤) الحج/ ١٩-٢٢.

قال مجاهد: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾ يذاب به إذابه، وقال عطاء الخراساني: يذاب به ما في بطونهم كما يذاب الشحم[1] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : وقوله تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ أي الماء الحار، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء حتى تساقط[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾[3].

ومن أنواع عذابهم والعياذ بالله تعالى (الصلي) وهو : الشوي والاحتراق قال في النهاية صليت اللحم : بالتخفيف أي شويته[4] قال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[5].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره (فاسلكوه) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تدخل في إسته ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حتى يشوى[6] والعياذ بالله تعالى .

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي ص ١٣٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢١٢ .
(٣) الدخان/ ٤٣-٥٠ .
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٥٠ .
(٥) الحاقة/ ٣٠ -٣٢ .
(٦) تفسير ابن كثير ٤/٤١٦ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[1]
وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾[2].

وهناك من ألوان العذاب مالا يعلمه إلا الله تعالى والعياذ بالله تعالى كما قال عزوجل:

﴿ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾[3]
قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾ أي وظهر لهم من الله عزوجل من العذاب والنكال لهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم[4].

قلت: من هذه الأدلة والتي هي بعض من كل، نرى ما عليه حال أهل النار أعاذنا الله تعالى منها ومنهم، فهي والله دار البوار حقاً كما أخبر عنها الحق سبحانه وتعالى، فلذلك يجب على المؤمن الخوف منها على نفسه وأهله واتقاء معاصي الله عز وجل والبعد عن مساخطه فذاك هو سبيل الخلاص والنجاة من النار.

---

(١) النساء/ ٥٦.
(٢) مريم/ ٦٦ – ٧٢.
(٣) الزمر/ ٤٧.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧.

٦- ما ورد في التحذير من النار أعاذنا الله تعالى منها:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (اتقوا النار ولو بشق تمرة)[5]، قال ابن حجر رحمه الله تعالى : وفي الحديث الحث على الصدقة بما قل وما جل وألاَّ يحتقر ما يتصدق به وأن اليسير من الصدقه يستر المتصدق من النار[6] أعاذنا الله تعالى من النار ومن حال أهل النار.

(١) التحريم/ ٦.
(٢) آل عمران/ ١٣١-١٣٢.
(٣) البقرة/ ٢٤.
(٤) هود/ ١١٣.
(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة رقم ١٤١٧.
(٦) فتح الباري ٣/٢٨٤.

تاسعاً: الإيمان بالجنة وما أعد الله تعالى فيها من النعيم المقيم لمن أطاعه واتبع هداه جعلنا الله تعالى منهم.

١ - ما ورد في كونها موجودة مخلوقة:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الباب الأول: في بيان وجود الجنة الآن: وقد دل على ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[١].

وقد رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله تعالى عنه في قصة الإسراء وفي آخره (ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ قال: ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ[٢] اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[٣].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي[٤] إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة)[٥]. فدل

(١) النجم/ ١٣-١٨.

(٢) جنابذ اللؤلؤ: الجنابذ جمع جنبذه، وهي القبه، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٠٥/١.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسلم بشرح النووي ٢٢٢/٢.

(٤) الغداة والعشي: أي الصباح والمساء، انظر مختار الصحاح ص ٤٣٥، ٤٦٩.

(٥) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الجنة/ باب عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر ونعيمه، مسلم بشرح النووي ٢٠٠/١٧.

الحديث على وجود الجنة والنار وأنهما موجودتان قبل يوم القيامة كما تقدم.

وفي الصحيحين، واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال:(انخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله، فقالوا : يا رسول الله: رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: إني رأيت الجنة، وتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع)... الحديث[1].

وقد تقدم حديث (تحاجت الجنة والنار) عند الحديث عن خلق النار، وفيه بيان أن الجنة مخلوقة أيضاً.

٢-ما ورد في خلود الجنة وأبديتها وخلود أهلها فيها جعلنا الله تعالى منهم:

من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾[3].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى، في صحيحه، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة، رقم الحديث ١٠٥٢، وانظر كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم رحمه الله تعالى ص١١.

(٢) إبراهيم/ ٢٣.

(٣) الرعد/ ٣٥.

وقال تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[٣].

ومن الأحاديث:

ما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[٤].

وقد تقدم حديث (ذبح الموت بين الجنة والنار ونداء المنادي لأهل الجنة والنار بأنه لاموت فهذا دليل على خلود الجنة وأهلها في نعيمهم جعلنا الله تعالى منهم.

٣- ما ورد في صفة أهل الجنة في الدنيا والآخرة جعلنا الله تعالى منهم:

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل:

(١) الدخان/ ٥٦-٥٧.

(٢) سورة قٓ/ ٣٤.

(٣) البينة/ ٨.

(٤) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب في دوام نعيم أهل الجنة، مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٢.

لا يتغوطون، ولا يبولون، ولا يتمخطون ولا يبزقون أمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألوه[1]، ورشحهم المسك، وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء)[2].

وروى مسلم عن حارثة بن وهب أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (ألا أخبركم بأهل الجنة، قالوا بلى، قال: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره)[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير)[4].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (خلق الله آدم، وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع مايحيونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال السلام

---

(١) الأُلُوَّه: هو العود الهندي يتبخر به، وهذا بخلاف مجامر الدنيا فإن وقودها قطع الخشب ومجامر الجنة وقودها العود الذي يتبخر به، انظر مختصر صحيح مسلم بتحقيق الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى ص٥٢٠، وانظر النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٦٣.

(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته رقم الحديث ٣٣٢٧، ومسلم في كتاب صفة الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة، مختصر صحيح مسلم ص٥٢٠.

(٣) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم في الدنيا، مختصر صحيح مسلم ص٥٢٣.

(٤) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، وقوله (مثل أفئدة الطير) أي في الرقة والخوف، والطير أكثر الحيوان خوفاً، انظر مختصر صحيح مسلم بتحقيق الألباني رحمه الله تعالى ص ٥٢٠.

عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم عليه السلام، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوطون ولا يتمخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذلك جشاء كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس)[2].

٤- ما ورد في صفة الجنة وما أعد الله تعالى فيها من النعيم لأهلها جعلنا الله تعالى منهم:

فمن الآيات قوله تعالى:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾...الآية[4].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته ، رقم الحديث ٣٣٢٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة، باب أكل أهل الجنة فيها، مختصر صحيح مسلم، ص ٥٢١.

(٣) الزمر/ ٢٠.

(٤) محمد/ ١٥.

ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

(١) الرحمن/ ٤٦-٧٨.

وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾[2].

وفي الجنة من أنواع النعيم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى كما تقدم أن في النار من ألوان العذاب ما لا يعلمه إلا الله تعالى والعياذ بالله تعالى، قال تعالى في بيان أنواع نعيم الجنة الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه: باب في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول الله تعالى:

أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخْراً، بَلْهَ[4] ما أطلعكم الله عليه ثم قرأ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

(١) الواقعة / ١٠-٤٠.

(٢) النبإ / ٣١-٣٦.

(٣) السجدة / ١٦-١٧.

(٤) بَلْهَ: معناه دع عنك ما أطلعكم عليه فالذي لم يطلعكم عليه أعظم، مختصر صحيح مسلم بتحقيق الألباني رحمه الله تعالى ص ٥٧٥.

﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[١].

وروى مسلم رحمه الله تعالى عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المُضَمَّر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها)[٢].

وروى مسلم رحمه الله تعالى أيضاً عن أبي موسى رضي الله تعالى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل لا يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن)[٣].

وروى مسلم رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً)[٤].

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ مختصر صحيح مسلم ص٥٧٥ وفي كتاب الجنة، مسلم بشرح النووي ١٦٦/١٧.

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٢.

(٣) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب في صفة خيام الجنة مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٢.

(٤) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب في سوق الجنة، مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٢.

وروى مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوأ كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان إثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب)[1].

ومن أعظم نعيم أهل الجنة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى نسأل الله تعالى ذلك:

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2] والزيادة هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى كما روى مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليهَ وآله وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار، قال فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تضارون في رؤيته) ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب صفة الجنة، باب في أول زمرة تدخل الجنة، مختصر صحيح مسلم ص ٥٢٠.

(٢) يونس/ ٢٦

(٣) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، إثبات رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى، مسلم بشرح النووي ٣/١٦.

(لا تضارون) أي: لا يصيبكم ضرر ولا مشقة[1].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تراه عياناً[3] وفي ذلك رد على من أنكر هذه الرؤية من سائر أهل البدع والضلال فهم أولى بأن يحرموا ذلك النعيم نعوذ بالله تعالى من ذلك.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولله أبصار ترى الله جهرة	فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة	أمن بعدها يسلو المحب المتيم[4]

٥- ما ورد في الحث على المسارعة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة للفوز بالجنة التي وعد الله تعالى بها المؤمنين العاملين المتقين:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

---

(١) رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه، في كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ رقم الحديث ٧٤٣٧ ومسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى ، مسلم بشرح النووي ٣/١٧.

(٢) القيامة/ ٢٢-٢٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٠.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم رحمه الله تعالى، ص ٦.

وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[2].

نسأل الله تعالى العلي العظيم أن يمن علينا وعلى المسلمين أجمعين باتباع طريقه المستقيم الموصل إلى رضاه والجنة، وأن يجعلنا من أهلها إنه على كل شيء قدير وأن يبعدنا عن سخطه وعذابه وناره والله تعالى أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) آل عمران/ ١٣٣-١٣٦.

(٢) الحديد/ ٢١.

الخاتمة

بعد هذا البحث الذي وقفنا من خلاله على بعض مظاهر عظمة الله سبحانه وتعالى وآيات وجوده وتوحيده في بعض مخلوقاته الكثيرة التي لا يعلمها ولا يحصيها إلا هو عز وجل في الأرض، وفي السماء، وفيما بينهما وفي البر، وفي البحر، في الإنسان ، والحيوان، في الطير ، والشجر، في الحشرات ، وغيرها ، نتوصل إلى أمور:

الأول : أن الوجود المعلوم بأكمله ينقسم إلى قسمين فقط لا ثالث لهما:

وجود الخالق ووجود المخلوق، فأما المخلوق فوجوده ممكن بمعنى أنه يمكن وجوده وعدمه وعلى هذا فلا بد له من خالق يؤثر فيه ويوجده ويخرجه من العدم إلى الوجود لأنه يستحيل شرعاً وعقلاً أن يخلق المخلوق نفسه أو أن يوجد ويخلق بلا خالق كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى في قوله عز وجل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ .

وأما الخالق سبحانه وتعالى فإن وجوده واجب بنفسه بمعنى أن وجوده أزلي أبدي فهو أزلي لم يسبق بعدم كما هو أبدي لا يطرأ عليه العدم والفناء والموت أبداً، وما دام أنه أزلي لم يسبق بعدم فمعنى ذلك أنه لا يحتاج إلى خالق ، لأن الذي يحتاج إلى خالق هو المخلوق الذي كان معدوماً فاحتاج إلى من يخرجه من العدم إلى الوجود وأما الخالق سبحانه وتعالى فإنه لم يسبق بعدم حتى يحتاج إلى خالق يخرجه من العدم إلى الوجود وإنما وجوده أزلي واجب له بنفسه سبحانه تعالى كما تقدم وعلى هذا فلا يقال إن الخالق يحتاج إلى خالق لأن القول بذلك

يؤدي إلى القول بالتسلسل وأن الخالق يحتاج إلى خالق وهكذا إلى ما لا نهاية وهذا باطل شرعاً وعقلاً، ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالاستعاذة بالله تعالى من الشيطان إذا وسوس بذلك والانتهاء وعدم الاسترسال مع هذه الوساوس الشيطانية لأنها باطلة شرعاً وعقلاً كما تقدم خلال هذا البحث، وبهذا يعلم شرعاً وعقلاً أن وجود جميع المخلوقات ينتهي إلى وجود الخالق عز وجل الذي أوجدها من العدم وأنه أزلي أبدي وأنه متصف بجميع صفات الكمال والجلال والغنى المطلق وعدم الحاجة إلى أحد، وأن جميع المخلوقات محتاجة إليه ولا غنى لها عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك وأن حاجتها له من دلائل وجوده، وتوحيده، ومن دلائل فقرها وأنها مخلوقة مربوبة له عز وجل.

الثاني : أن جميع المخلوقات بأكملها العلوية منها والسفلية وغيرها ليست لها صفة الأزلية والأبدية، فهي ليست أزلية لأنها مخلوقة وحادثة بعد أن لم تكن ولأن نقصها وضعفها وافتقارها يدل على ذلك ولا يؤهلها لأن تكون أزلية، كذلك هي ليست أبدية إلا إذا شاء الله تعالى أن يبقيها ويجعل لها هذه الصفة كالجنة والنار ، فأبديتهما ليست من ذاتهما وإنما بإبقاء الله تعالى لهما، وبهذا يعلم أن صفة الأزلية والأبدية خاصة بالله عزوجل فهو الأول الذي لم يسبق بعدم والذي ليس قبله شيء والآخر الذي لا يطرأ عليه العدم والذي ليس بعده شيء سبحانه وتعالى ، ولأنه لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم.

الثالث : أن من أعظم الأدلة التي يرد بها على جميع فرق الكفر والإلحاد المنكرين لوجود الخالق عز وجل وتوحيده المكذبين لأنبيائه ورسله عليهم

الصلاة والسلام ولقائه بعد الموت هو ما يرى ويشاهد على جميع المخلوقات من الدقة والإبداع والإتقان والحكمة في الخلق، فهذا من أعظم الأدلة التي أخرس الله تعالى بها جميع الكفرة والملاحدة من شياطين الجن والإنس ورد بها كيدهم إلى نحرهم عليهم لعائن الله تعالى المتتالية إلى قيام الساعة، فهي خير دليل على وجود الخالق الحكيم العليم المتصف بجميع صفات الكمال، الواحد في ربوبية وألوهية وأسمائه وصفاته. لذلك أرشد الله تعالى إلى النظر والتأمل في سائر مخلوقاته وذلك ليزداد المؤمن إيماناً ويرتدع الكافر والملحد عن كفره وإلحاده .

الرابع : إن عدم القول والإيمان بجميع ما تقدم يؤدي إلى إنكار وجود الخالق عز وجل ثم إنكار المخلوق ثم إنكار الوجود بالكلية، بل وإلى إنكار المكذبين حتى لوجود أنفسهم أيضاً وكفى بهذا ضلالاً وكفراً ليس بعده ضلال وكفر !! وبيان ذلك أن المخلوق يستحيل أن يوجد إلا بخالق فمن أنكر وجود الخالق فقد أنكر وجود المخلوق وبذلك يكون قد أنكر وجود الخالق والمخلوق معاً، ومن أنكر وجود الخالق والمخلوق فقد أنكر الوجود بالكلية.

ولا يخرجه عن هذا الإنكار كونه ينسب الخلق إلى غير الله تعالى ويزعم أنه لم ينكر الخالق، لأن جميع ما سوى الله تعالى مخلوق له عز وجل كائناً من كان كما تقدم من أن جميع ما سوى الله تعالى متصف بصفات المخلوق من النقص والافتقار والحاجة إلى الخالق سبحانه وتعالى وهذه صفات المخلوق الناقص الذي لا يتصف بالأزلية والأبدية وجميع صفات الكمال، وعلى هذا فمن نسب الخلق إلى غير الله تعالى فقد نسب الخلق إلى المخلوق وأنكر وجود الخالق، ومن نسب الخلق إلى المخلوق فقد قال بالتسلسل في المخلوقات دون أن يكون لها

خالق وهذا باطل شرعاً وعقلاً لأنه يؤدي أيضاً إلى إنكار وجود الخالق وبالتالي إلى إنكار وجود المخلوق ثم إنكار الوجود بالكلية كما تقدم، وعلى هذا فلا يخرجه عن هذا الضلال والإنكار إلا الرجوع إلى الحق وترك ما سواه .

الخامس : إن الغاية من الإيمان بوجود الله تعالى وربوبيته وتوحيده في الربوبية والأسماء والصفات هي : الإيمان بتوحيد الألوهية والعبادة والذي هو حقيقة دين الإسلام فمن لم يأت بهذا التوحيد لن ينفعه إيمانه بما عداه لأنه هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله تعالى سواه كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وكذلك : الإيمان بجميع أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام وبجميع ما جاؤوا به من عند الله تبارك وتعالى ، وعدم التفرقة بينهم كالإيمان ببعضهم والكفر بالآخر كما فعل اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى.

السادس : إن توحيد الربوبية هو الأساس الأول لدين الإسلام لكنه ليس الواجب الأول على العباد ولا يكفي لدخول العبد في الإسلام ولم ينكره أحد إلا من كابر عقله ، وأما توحيد الألوهية فهو الواجب الأول على العباد ولا يتم دخول العبد في الإسلام حتى يؤمن به وهو الغاية من الإقرار بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات وهو التوحيد الذي وقع فيه الضلال وحصلت فيه الخصومة بين الرسل وأممهم وبه أنزلت الكتب وأرسلت الرسل عليهم

الصلاة والسلام وبه افترق الناس إلى أشقياء أهل النار وسعداء أهل الجنة وهو معنى (لا إله إلا الله).

السابع : إن هذه الآيات التي بثها الله تعالى في هذا الكون الواسع والتي لايعلم عددها إلا هو سبحانه وتعالى هي أدلة على جميع أنواع التوحيد وليست على توحيد الربوبية فقط كما زعم أصحاب الفرق الضالة بل هي دالة على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثامن : إن من أعظم الدلالات على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وصدق جميع أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام هي دلالة المعجزات .

ووجه كونها دالة على ذلك : أنها خارقة للسنن الكونية المعتادة فدلت على أن هناك خالقاً وإلهاً واحداً لا شريك له لهذا الكون وأنه يتصرف في سننه بما يشاء سبحانه وتعالى ، وأنه هو الذي أرسل هؤلاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وجعل هذه المعجزات دليلاً واضحاً وصريحاً على صدقهم فيما جاؤوا به من عنده تبارك وتعالى ، فهي أدلة على وجوده وتوحيده ، وأدلة أيضاً على صدقهم عليهم ا لصلاة والسلام .

التاسع : أن من أعظم معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدق رسالته هي معجزة القرآن الكريم ، فهو المعجزة الكبرى الخالدة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، بل هو أعظم معجزة على الإطلاق ، وأعظم من معجزات جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وذلك من وجوه :

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى تحدى جميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وتحداهم أن يأتوا بعشر سور وتحداهم أن يأتوا بسورة فعجزوا عن جميع ذلك ، فثبت عجزهم ، وثبت إعجاز القرآن الكريم .

٢ ـ أن الإخبار بعجزهم الأبدي عن الإتيان بمثله إخبار بأمر من أمور الغيب التي وقعت وستقع كما أخبر فلم يستطع أحد وإلى الآن الإتيان بشيء من ذلك ولن يستطيع أحد وإلى الأبد أن يأتي بشيء من ذلك وهذا أيضاً من إعجاز القرآن الكريم .

٣ ـ أن القرآن الكريم معجز في نفسه فلا يستطيع الأنس والجن الإتيان بمثله ولا بشيء من سوره وليس في قدرتهم معارضته وهذا هو الصحيح في إعجازه كما عليه أهل السنة والجماعة وأنه معجز في تركيبه وبلاغته وفصاحته التي فاقت كل بلاغة وفصاحة، كيف لا وهو كلام الخالق عز وجل.

٤ ـ أنه وإن ذهب بعض أهل الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة إلى أن القرآن معجز (بالصِّرفة) أي بصرف الله تعالى للمعارضين أن يأتوا بمثله ، وأنه كان يمكنهم معارضته بمثله إلا أن الله تعالى صرفهم عن ذلك ، فهذا قول باطل ، والصحيح ما تقدم وأن القرآن الكريم معجز في نفسه كما عليه أهل السنة والجماعة ، وعلى فرض صحة قولهم وأن الله تعالى صرفهم عن معارضته فإن ذلك دليل أيضاً على أنه من عند الله تعالى ، وذلك لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك وشدة عداوتهم ومع ذلك لم يفعلوا ، فهذه الطريقة وإن لم تكن صحيحة لأن القرآن معجز في

نفسه كما تقدم إلا أنها تصلح على سبيل التنزل ومجادلة الخصم والمدافعة عن الحق كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله تعالى .

٥ ـ أن النفي التأبيدي للإتيان بمثله أو بسورة من مثله في المستقبل معجزة أخرى أيضاً لأن الإخبار بذلك بطريق الجزم والقطع وعدم الخوف من أن يعارض بمثله أبد الآبدين يدل على أن هذا القرآن كلام الله تعالى حقاً خالق الإنس والجن وجميع الخلائق ، وخالق الزمان والمكان العليم بجميع خلقه وقدراتهم وما سيقع في مستقبل الزمان ، فلا يستطيع أحد أن ينفي هذا النفي بهذا الجزم القاطع إلا رب الأرباب وعالم المغيبات وقاهر جميع المخلوقات سبحانه وتعالى ، فلو أن القرآن الكريم من عند محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما زعم الملاحدة والكفرة والمشركون لما كان يستطيع أن يتحدى جميع الإنس والجن في سائر الأمكنة والأزمنة أن يأتوا بمثله ، ولخشي أن يفتضح أمره وأن يأتي أحد بمثله ، فدل هذا التحدي في الحال والاستقبال المقرون بالنفي الجازم القاطع المؤبد على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى حقاً ودل على وجود الخالق عز وجل وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، وصدق نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

٦ ـ أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظ هذا القرآن الكريم وهذه معجزة أخرى أيضاً فالقرآن محفوظ بحفظ الله تعالى له إلى الأبد وقد وقع كما أخبر سبحانه وتعالى فلم يستطع أحد إلى الآن بل ولن يستطع أحد إلى الأبد أن يحرف في هذا القرآن أو يزيد أو ينقص منه ، ولو كان القرآن الكريم من

عند محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما زعم الكفرة لما استطاع أن يقطع بهذا القطع وهو حفظ القرآن منذ نزوله وإلى الأبد ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وخالق الزمان والمكان والإنس والجان .

العاشر : أنه يجب على المسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن في الأدلة الشرعية وهي أدلة القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة شفاءً وكشفاً ورداً وإزالة لجميع فتن الشبهات مهما تنوعت وكذلك فتن الشهوات وظلمات الشك والشرك والكفر والبدع والإلحاد عموماً وسائر أمراض القلوب والأبدان وذلك لأن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه عن ذلك فقال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[3] وقال تعالى : ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم

(١) إبراهيم / ١.

(٢) يونس / ٥٧- ٥٨.

(٣) المائدة / ١٥- ١٦.

مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] وغير ذلك من الآيات الكثيرة فدلت هذه الأدلة القرآنية على أن في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة شفاءً لجميع أمراض القلوب والأبدان، وكذلك دلت السنة النبوية الصحيحة على هذا المعنى فمن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض) وهو حديث صحيح كما تقدم . والسنة مبينة للقرآن وهي وحي من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[3] فهي قطعية الدلالة أيضاً .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب ، والقرآن شفاء لما في الصدور ، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل ، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب وتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن كما يغتذي البدن بما ينميه ويقويه)[4].

(١) سورة طه / ١٢٣.
(٢) الإسراء / ٨٢.
(٣) النجم / ٣- ٤.
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٩٥.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً : (وعند المسلمين من العلوم الإلهية الموروثة عن خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم ما ملأ العالم نوراً وهدى)[1].

وكذلك يجب على المسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن الأدلة الشرعية وهي أدلة القرآن وصحيح السنة لا تتعارض ولن تتعارض أبداً مع الأدلة العقلية السليمة ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه ، ولم تأت بما يعلم العقل امتناعه)[2].

وعلى المسلم أن يعلم أيضاً أن الأدلة الشرعية مقدمة على الأدلة العقلية وأن العقل تابع للشرع لا العكس كما زعم أهل الضلال ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (والعقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمال ، وبه يكمل العلم والعمل لكنه ليس مستقلاً بذلك ، لكنه غريزه في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل نور الشمس والنار ، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها)[3].

الحادي عشر : أن جميع ما تلقيه شياطين الإنس والجن من شبهات حول وجود الخالق عز وجل لا يخرج عن أمرين أبداً :

الأول : أنهم ينسبون الخلق إلى العدم .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/٨٤

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٣٣٩.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٣٣٩.

الثاني : أنهم ينسبون الخلق إلى المخلوقات سواء نسبوه لأنفسهم أو لغيرهم من سائر المخلوقات، فهذان الأمران باطلان دلَ على بطلانهما الشرع والعقل كما في معنى قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[1] وقوله تعالى أيضاً : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[3].

الثاني عشر: أن ما عليه الملاحدة المنكرون لوجود الخالق عز وجل وتوحيده من الإلحاد والشرك والكفر وتكذيب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والدعوة إلى ذلك ما هو إلا سراب شيطاني خادع لا حقيقة له إلا إرادة إضلال الناس باسم العلم والتقدم وشتان بين العلم الصحيح وهذا العلم المزعوم ، فالعلم الصحيح[4] لا يتناقض مع القرآن والسنة الصحيحة ولا مع العقل السليم كما أثبتت ذلك التجارب التي قام بها العلماء المخلصون الذين

(١) الطور/ ٣٥-٣٦.

(٢) النحل/ ٢٠.

(٣) الأنعام/ ١٠٢.

(٤) المقصود بالعلم هنا ليس (العلم الشرعي) وإنما المراد به ما توصل إليه أهل العلم الحديث في علوم الكون ونحو ذلك فهذا العلم لا يتناقض مع العلم الشرعي ولا مع أدلة العقل السليم لأن خالق الكون وخالق العقل هو الذي أنزل الكتب ، وأرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وشرع الشرائع ، وما عدا ذلك لا يسمى علماً بل هو جهل مركب .

أرادوا معرفة الحقيقة، لا أولئك الذين يعلمون الحق ثم إنهم يحاولون أن يستروه بالباطل مجاراة لشهواتهم الدنيوية الدنيئة أو لأهوائهم الشيطانية الباطلة.

الثالث عشر : أن ما عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى ومن تبعهم من نهج قويم وفكر سليم وطريق مستقيم هو الحق الذي لا شك فيه، فهم أسعد الناس في الدنيا والآخرة لتمسكهم بما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ونبذهم كل ما خالفه من طرق ضالة وأهواء وبدع شيطانية ، وهم في الحقيقة أولياؤه المتقون لذا تكفل الله تعالى لهم بالنصر في الدارين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[1].

الرابع عشر : أنه يجب على كل مسلم أراد السعادة في الدنيا والآخرة مناصرة أولياء الله تعالى ومحبتهم وموالاتهم ومعاداة أعدائه والتبرء منهم وبغضهم وذلك من الملاحدة والكفرة والمشركين وسائر أهل البدع والضلال .

الخامس عشر : وجوب التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة رضوان الله تعالى عليهم فهم أفضل هذه الأمة بعد رسولها صلى الله عليه وآله وسلم وأعلم الناس بأقواله وأفعاله صلى الله عليه وآله وسلم .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا اتباع هديه وهدي نبيه صلى الله عليه وآله وسلم إتباعاً سليماً نقياً خالياً من البدع والأهواء كما كان عليه سلف هذه الأمة،

---

(١) غافر/ ٥١-٥٢.

وأن يثبتنا على ذلك وأن يجنبنا الزلل ومزالق الأهواء إلى أن نلقاه على ذلك، وأن يسكننا دار كرامته ويرزقنا مرافقة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى جنة الخلد ، إنه مولانا ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

ثبت المراجع

◆ القرآن الكريم

حرف الألف

◆ أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية :

أحمد بن إدريس القرافي ت٦٨٤هـ

تحقيق : عبدالرحمن بن محمد سعيد دمشقية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ

ولم يرد اسم المطبعة .

◆ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن :

الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي .

مطبعة المدني لصاحبها علي صبحي المدني .

◆ أطفال تحت الطلب :

الدكتور صبري القباني .

دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة والعشرون ١٩٨٠م .

◆ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم :

شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ت ٧٢٨هـ

تقديم الشيخ محمد حامد الفقي .

مطابع المجد التجارية .

◆ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير :

الشيخ أبو بكر جابر الجزائري

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، راسم للدعاية والإعلان ـ جدة .

◆ الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان :

الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد

الطبعة الثانية ١٤٢١هـ، مطبعة سفير، الرياض، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة .

◆ الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب :

الإمام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

الطبعة الأولى ١٣٩١هـ ولم يرد اسم المطبعة .

◆ الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة :

الشيخ عبد القادر شيبة الحمد .

مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

◆ الإسلام ونظرية داروين :

محمد أحمد باشميل .

الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ مطبعة شركة الطبع والنشر اللبنانية، بيروت .

◆ الأطلس العلمي في عالم الحيوان :

زهير الكرمي ، ومحمد سعيد صباريني .

دار الكتاب اللبناني . بيروت .

◆ الإعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد :

الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ .

تعليق : كمال يوسف ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ عالم الكتب ، بيروت .

حرف الباء

◆ بديع صنع الله تعالى في البر والبحر :

نعمت صدقي .

دار الإعتصام للطبع والنشر والتوزيع ـ القاهرة .

◆ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية :

شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية .

تصحيح وتكميل وتعليق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم .

الطبعة الأولى ١٣٩١هـ ، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة .

◆ بيان فضل علم السلف على علم الخلف :

الحافظ عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ت ٧٩٥هـ .

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه محمد بن ناصر العجمي .

دار الأرقم للنشر والتوزيع ـ الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

◆ البراهين العلمية على وجود الخالق عز وجل :
محمد فؤاد البرازي .
دار العلم بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ .
◆ البيهقي وموقفه من الإلهيات.
الدكتور أحمد بن عطيه بن علي الغامدي ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ .
مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

حرف التاء

◆ تذكرة الحفاظ :
الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨هـ .
دار احياء التراث العربي بيروت ، لبنان .
◆ تقريب التهذيب :
الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت:٨٥٢هـ .
دار نشر الكتب الإسلامية ـ كوجرانواله ـ باكستان .
◆ تفسير القرآن العظيم : المشهور بـ(تفسير ابن كثير) .
الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ت ٧٧٤هـ .
دار إحياء التراث العربي بيروت ، ١٣٨٨هـ .
◆ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ .
الدكتور الباقر إبراهيم ـ السودان ـ الخرطوم ـ ربيع الأول ١٣٨٤هـ

◆ تهذيب التهذيب :

الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

الطبعة الأولى ١٣٢٧هـ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ،

حيدر آباد ـ الناشر : دار صادر ، بيروت

◆ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : المشهور بـ(تفسير السعدي).

الشيخ الإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي .

قدم له الشيخ محمد بن صالح العثيمين والشيخ عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل

الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

◆ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد :

للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ت ١٢٣٣هـ

خرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ عرفات العشا ، دار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع .

◆ التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار :

الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ، مكتبة دار البيان ، دمشق

الطبعة الأولى١٣٩٩هـ.

◆ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة :

الحافظ محمد بن أحمد القرطبي ت ٦٧١هـ .

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

◆ التربية وطرق التدريس:

الدكتور عبد العزيز عبد الحميد، والأستاذ صالح عبد العزيز.

الطبعة الثانية عشرة، الناشر دار المعارف بمصر.

◆ التفسير الكبير:

للرازي محمد بن عمر.

الطبعة الأولى بالمطبعة البهية بمصر ١٣٥٧هـ.

حرف الجيم

◆ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: المشهور بـ(تفسير الطبري).

الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت: ٣١٠هـ.

الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ مطبعة مصطفى الحلبي.

◆ جامع بيان العلم وفضله:

الإمام أبو عمر يوسف بن عبدالبر النمري القرطبي ت٤٦٣هـ.

مطبعة العاصمة بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ.

◆ الجامع الفريد في مجموعة كتب ورسائل لأئمة الدعوة الإسلامية في التوحيد:

تقديم الشيخ عبدالرزاق عفيفي، الطبعة الثانية، مطبعة دار الأصفهاني بجدة، طبع على نفقة الشيخ محمد بن إبراهيم النعمان.

◆ الجامع لأحكام القرآن : المشهور بـ(تفسير القرطبي)

الحافظ محمد بن أحمد القرطبي .

الطبعة الثالثة ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتب ١٩٨٧م .

◆ الجواهر في تفسير القرآن الكريم :

الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري .

الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر

◆ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح :

شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية .

مطابع المجد التجارية .

حرف الحاء

◆ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:

للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي ، أبي عبدالله بن قيم الجوزية

ت ٧٥١هـ ـ دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان

◆ الحكمة في مخلوقات الله تعالى :

الإمام أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي ت ٥٠٥هـ

تحقيق الدكتور محمد رشيد قباني ـ الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ ، مطابع فينوس بيروت .

◆ الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى :

الدكتور / محمد ربيع هادي المدخلي .

الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ مطابع هجر للطباعة ـ مصر مكتبة لينه للنشر والتوزيع .

حرف الخاء

◆ خلق الإنسان بين الطب والقرآن :

الدكتور محمد علي البار .

الطبعة الثانية ١٤٠١هـ الدار السعودية للنشر والتوزيع .

حرف الراء

◆ رسائل في العقيدة :

الشيخ محمد بن صالح العثيمين .

الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ، مكتبة المعارف ـ الرياض .

حرف الزاي

◆ زاد المعاد في هدي خير العباد:

الإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه، أبو عبدالله الدمشقي.

المطبعة المصرية، تأسست ١٩٢٤م.

حرف السين

◆ سلسلة الأحاديث الصحيحة:

المحدِّث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ـ المكتب الإسلامي، دمشق بيروت.

◆ السيرة النبوية:

أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت٢١٣هـ

قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبدالرءوف.

شركة الطباعة الفنية المتحدة، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية، مصر.

حرف الشين

◆ شرح العقيدة الطحاوية:

علي بن أبي العز الحنفي.

خرج أحاديثها المحدِّث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

طبعه المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ دمشق، بيروت.

◆ الشريعة :

أبو بكر محمد بن الحسين الآجري ت٣٦٠هـ

تحقيق : محمد بن الحسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى ١٤١٦هـ

◆ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل :

للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب المشهور بابن قيم الجوزيه .

عني بتصحيحه محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي دار الفكر ١٣٩٨هـ

حرف الصاد

◆ صحيح البخاري المسمى (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه):

للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ

طبعة فريدة مصححة مرقمة مرتبة حسب المعجم المفهرس وفتح الباري طبع في إيطاليا ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض باهتمام عبد المالك مجاهد .

◆ صحيح مسلم شرح النووي:

الإمام الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ

الشارح: أبو زكريا يحيى بن شرف محي الدين النووي ت ٦٧٦هـ

الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ، المطبعة المصرية، دار الفكر ، بيروت ـ لبنان .

◆ صحيح سنن ابن ماجة:

صاحب السنن الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني ت ٢٧٣هـ

خرج أحاديثها وميَّز صحيحها من ضعيفها الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني .

طبعة المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ، إشراف زهير الشاويش . الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج

◆ صحيح سنن أبي داوود :

صاحب السنن : الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ت ٢٧٥هـ

خرج أحاديثها وميَّز صحيحها من ضعيفها الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني .

طبعة المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠٩هـ ، اختصر أسانيده وعلق عليه وفهرسه الشيخ زهير الشاويش .

الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج .

◆ صحيح سنن الترمذي :

صاحب السنن : الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩هـ

خرج أحاديثها وميز صحيحها من ضعيفها الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني

طبعة المكتب الإسلامي ، الطبعة الاولى ١٤٠٨هـ ،بيروت ، لبنان، إشراف زهير الشاويش . الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج .

◆ صحيح سنن النسائي :

صاحب السنن : الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ت٣٠٣هـ

خرج أحاديثها وميز صحيحها من ضعيفها الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني .

طبعة المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، إشراف زهير الشاويش .

الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج .

◆ صحيح الجامع الصغير:

الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني .

طبعة المكتب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ ، إشراف الشيخ زهير الشاويش .

◆ صراع مع الملاحدة:

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني .

دار العلم ـ دمشق ، بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ

◆ الصحيح المسند من أسباب النزول :

الشيخ مقبل بن هادي الوادعي

لم يذكر اسم المطبعة والناشر .

حرف الطاء

◆ الطب محراب الإيمان :

الدكتور / خالص جلبي كنجو

مؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت .

◆ الطريق إلى الله تعالى :

الدكتور تقي الدين الهلالي .

الناشر : دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت

الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ

حرف العين

◆ العسل (فيه شفاء للناس):

الدكتور محمد نزار الدقر

الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ المكتب الإسلامي ـ دمشق .

◆ العقيدة الطحاوية :

الإمام الحافظ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي ت ٣٢١هـ

تعليق سماحة الشيخ الإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن باز .

مكتبة الصديق للنشر والتوزيع ـ الطائف ـ المملكة العربية السعودية ،

راسم للدعاية والإعلان ، جده .

◆ العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام :

الإمام الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز .

مطابع دار طيبة ، المملكة العربية السعودية ـ الرياض .

◆ العلو للعليِّ الغفار:

الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

صححه وراجع أصوله عبدالرحمن محمد عثمان ، مطبعة العاصمة ، مصر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ

الناشر : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، باب الرحمة

حرف الفاء

◆ فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري:

الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

تحقيق سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي .

إخراج محب الدين الخطيب.

نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية .

◆ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :

الإمام محمد بن علي الشوكاني ت: ١٢٥٠هـ

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان .

الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ

◆ فتاوى إسلامية :

لمجموعة من العلماء هم : الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز والشيخ محمد بن صالح العثيمين . والشيخ عبدالله بن جبرين

مطابع دار العلم للطابعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ

قدم له وأشرف عليه الشيخ قاسم الرفاعي .

◆ في سبيل موسوعة علمية :

الدكتور أحمد زكي .

دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ

◆ الفرق بين الفِرق :

الإمام عبدالقاهر بن طاهر البغدادي ت٤٢٩هـ

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م

حرف القاف

◆ قصة السموات والأرض:

الدكتور محمد جمال والدكتور محمد يوسف .

دار مطابع الشعب .

◆ قصة البحر :

الدكتور ماكسويل ريد

ترجمة : الدكتور محمد محمود رمضان ، دار النهضة العربية ١٩٦٣م

◆قاموس الغذاء والتداوي بالنبات:

أحمد قدامة .

دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ

◆ قاموس المورد (إنجليزي ـ عربي):

منير البعلبكي

دار العلم للملايين ـ الطبعة الرابعة عشرة ، بيروت ١٩٨٠م

◆ القول السديد شرح كتاب التوحيد:

الشيخ الإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي .

دار الوطن للنشر ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

◆ القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى:

الشيخ محمد بن صالح العثيمين .

مطابع دار طيبة ـ الرياض

حرف الكاف

◆ كتابك الأول عن الحشرات:

رجريت ويليامسون ـ ترجمة الدكتور أحمد عماد الدين .

دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة .

◆ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس:

المفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي: ١١٦٢هـ

شركة علاء الدين للطباعة ، الطبعة الثالثة ١٣٥١هـ

دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان .

◆ كل شئ عن الفراشات:

روبرت لمن ، ترجمة الدكتورة سميرة الزيادي

دار المعارف ـ مصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م

حرف اللام

◆ الله يتجلي في عصر العلم :

ألفه مجموعة من الأمريكيين .

ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان .

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ـ نيويورك .

الطبعة الثالثة ١٩٦٨م .

الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة

◆ لسان العرب المحيط :

محمد بن مكرم منظور ت:٧١١هـ

طبعة الثلاث مجلدات ، دار لسان العرب ، بيروت ، لبنان .

◆ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية :

الشيخ : محمد بن أحمد السفاريني .

المكتب الإسلامي ، بيروت ، مكتبة أسامة ـ الرياض

الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ

حرف الميم

◆ مجموع فتاوى شيخ الإسلام:

أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ت ٧٢٨هـ .

جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد .

مطابع دار العربية للطباعة والنشر ، بيروت ـ لبنان .

الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ

◆ مجموعة التوحيد :

تحتوي على ست عشرة رسالة لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ونخبة من علماء المسلمين .

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة

◆ مجتمع الحشرات:

برتاموريس باركر، ترجمة الدكتور محمد الشحات.

الطبعة الثالثة ١٩٦٩م، مطابع دار المعارف، مصر.

◆ مختصر صحيح مسلم:

الإمام الحافظ عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري ت ٦٥٦هـ

تحقيق الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني

المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ـ بيروت، دمشق.

◆ مختار الصحاح:

محمد بن أبي بكر الرازي ت ٦٦٦هـ

الطبعة الأولى ١٩٦٧م، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

◆ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:

الإمام السلفي أبو عبدالله محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية.

دار السنة المحمدية للطباعة ـ القاهرة، مصر.

تحقيق الشيخ: محمد حامد الفقي.

توزيع مكتبة ابن تيمية.

◆ مذكرة في توحيد الربوبية:

الشيخ عطية محمد سالم.

مقررة في قسم العقيدة بالدراسات العليا بالجامعة الإسلامية ١٤٠٢هـ

◆ مسند الإمام أحمد بن حنبل:

الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ت٢٤١هـ.

المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر.

بيروت - لبنان.

فهرسة المحدِّث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

◆ معالم التنزيل: المشهور بتفسير البغوي

الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت ٥١٦هـ

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان،

الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

◆ معالم السنن شرح سنن أبي داود:

الإمام أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي ت ٣٨٨ هـ.

خرج آياته ورقم أحاديثه عبد السلام عبد الشافي محمد.

دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

◆ معجم ألفاظ العقيدة:

أبو عبد الله عامر عبد الله الفالح.

تقديم الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين.

مكتبة العبيكان - الرياض - الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

◆ معنى (لا إله إلا الله):

بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت: ٧٩٤هـ .

تحقيق علي محي الدين .

دار النصر للطباعة الإسلامية .

◆ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة :

الإمام ابن القيم محمد بن أبي بكر .

توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية ، الرياض، تصحيح ومراجعة الأستاذ فكري أبو النصر .

◆ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين :

الشيخ مصطفى صبري .

دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان / الطبعة الثانية ١٤٠١هـ .

◆ المستدرك على الصحيحين:

الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم ت٤٠٥هـ .

الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

◆ المفردات في غريب القرآن :

أبو القاسم حسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الاصبهاني ت ٥٠٢هـ

تحقيق: محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

♦ الموسوعة الحديثية : مسند الإمام أحمد :
تحقيق وتخريج أحاديث المسند وبيان الصحيح منها والضعيف .
شارك في التحقيق ، شعيب الأرنؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي .
عادل مرشد ، إبراهيم الزيبق ، محمد رضوان العرقسوسي ، كامل الخراط ،
المشرف العام على إصدار هذه الموسوعة الدكتور : عبد الله عبد المحسن التركي .
مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

♦ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم :
وضعه : محمد فؤاد عبد الباقي .
دار ومطابع الشعب .

♦ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي :
رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين .
نشره أستاذ العربية الدكتور أ.ي ونسنكك .
مكتبة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٣٦م.

حرف النون :

♦ نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم :
الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .
مطابع بيبلوس الحديثة ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م .
الناشر : مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض .

◆ نونية القحطاني :

لأبي محمد عبدالله بن محمد الأندلسي القحطاني .

تصحيح وتعليق محمد بن أحمد سيد أحمد .

مكتبة السوادي للتوزيع ـ جدة ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ .

◆ النبوات:

شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية .

مطبعة دار الفكر ١٣٤٦هـ .

◆ النجوم في مسالكها:

سير جيمس جيتر ، ترجمة الدكتور أحمد عبدالسلام الكرداني .

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ـ القاهرة

◆ النحلة تسبح الله تعالى بلغة العلم ولسان الواقع:

محمد حسن الحمصي .

مطبعة دار الرشيد للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق .

الطبعة الثالثة ١٩٧٧م .

◆ النهاية في غريب الحديث والأثر:

الإمام أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير ت ٥٤٤هـ.

تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناجي .

الناشر : المكتبة الإسلامية لصاحبها: رياض الشيخ .

حرف الهاء

◆ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى :

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه .

مؤسسة مكة للطباعة ـ توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٩٦هـ

◆ هداية الحيران في مسألة الدوران:

الشيخ عبدالكريم بن صالح الحميد .

مطبعة سفير ، الرياض / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

حرف الواو

◆ الوجود الحق:

الدكتور حسن هويدي ، دمشق ـ الطبعة الثانية .

لم يذكر اسم المطبعة والناشر .

حرف الياء

◆ اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام:

الدكتور فرج الله عبد الباري أبو عطا الله .

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ مصر .

المنصورة ـ الطبعة الثانية ١٤١٢هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
التوحيد هو أساس دين الإسلام	٤
أول واجب على العباد توحيد الألوهية والأدلة على ذلك..........	٥
بيان أهمية الموضوع وأسباب اختياره والكتابة فيه	٦
بيان فضل منهج القرآن والسنة والسلف على غيره من المناهج في جميع مسائل الدين عامة ومسائل الاعتقاد خاصة	٨
بيان أن الإستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية في الآفاق والأنفس وسائر المخلوقات من أعظم الأدلة على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده ومن أفضل الطرق وأسهلها وأوضحها في بيان ذلك وهي التي حث عليها القرآن والسنة	٩
شرح عنوان الكتاب	١٠
خطة البحث	١١

الباب الأول

في بيان نهج القرآن الكريم والسنة النبوية، ومذهب السلف الصالح في الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات بالآيات الكونية، وبيان قول بعض من خالفهم

في ذلك والرد عليهم، وذكر بعض الدلالات الأخرى على توحيده عزوجل وفيه أربعة فصول: ١٤

الفصل الأول : في تعريف الآيات وبيان أنواعها، وفي بيان المراد الحديث عنه من هذه الآيات في هذا الكتاب وفيه مبحثان: ١٥

المبحث الأول : في تعريف الآيات لغة وشرعاً ١٦

المبحث الثاني : في أنواع الآيات والأدلة عليها. ١٨

أولاً: الآيات الشرعية. ١٨

ثانياً: الآيات الكونية ٢٣

ما ورد في فضل التدبر والتفكر في الآيات الشرعية والكونية وأنه من أسباب زيادة الإيمان وأن الإعراض عن ذلك من أسباب نقص الإيمان.. ٢٤

ثالثاً: الآيات التي أيد الله تعالى بها أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام وهي (المعجزات) ٢٩

تعريف المعجزة ٢٩

أنواع المعجزات ٣٠

وجه دلالة المعجزات على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده ٣٢

رابعاً: الآيات التي يرسلها الله تعالى عذاباً أو تخويفاً ٣٤

خامساً: الآيات التي جعلها الله تعالى علامة على قرب قيام الساعة . ٣٦

الفصل الثاني: في بيان منهج القرآن الكريم والسنة النبوية ومذهب

السلف في الإستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده عزوجل بالآيات الكونية، وبيان الترابط بين هذه المناهج وفي ذكر أقوال بعض المذاهب المخالفة لمذهب السلف أهل السنة والجماعة في ذلك والرد عليهم، وذكر بعض أنواع الدلالات الأخرى على توحيد الخالق سبحانه وتعالى وفيه مباحث........ ٣٨

المبحث الأول : بيان منهج القرآن الكريم في الإستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية ٣٩

أولاً: الأمر بالنظر والتأمل في الآيات الكونية ليتوصل إلى النتيجة وهي الإيمان الراسخ بالله تعالى وتوحيده ٣٩

ثانياً: عرض الآيات الكونية وقضايا الربوبية في أسلوب واضح بيِّن وأن ذلك دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده ٤١

ثالثاً: الربط بين دلالة الآيات الكونية على توحيد الربوبية ودلالتها على توحيد الألوهية لأنه الغاية من ذلك........ ٤٦

رابعاً: بيان أن دلالة الآيات الكونية دلت على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وليس على وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية فقط كما زعم أهل الباطل ٤٨

خامساً: الإشارة إلى افتقار هذه المخلوقات لمن يقوم عليها وهذا دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ٥٠

أكثر آيات القرآن جاءت عن طريق عرض الآيات الكونية والأمر بالتفكر فيها وهو منهجي في الكتاب ٥٢

المبحث الثاني: بيان منهج السنة النبوية في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية ٥٣

أولاً: الحث على النظر والتأمل في هذه الآيات وما في خلقها من أدلة واضحة على الخالق عزوجل وتوحيده وأن ذلك من أسباب زيادة الإيمان والدخول في الإسلام ٥٣

ثانياً: عرض الآيات الكونية والاستدلال بها على وجود الله تعالى وتوحيده ٥٤

المبحث الثالث: بيان منهج السلف في الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالآيات الكونية، وذكر بعض أقوال من خالفهم في ذلك والرد عليهم ٥٦

أولاً: بيان أن خلق تلك الآيات دليل على خالقها عزوجل وتوحيده ٥٦

ثانياً: افتقار هذه المخلوقات جميعها دليل على وجود خالقها سبحانه وتعالى المحتاجة إليه وتوحيده، وقول شيخ الإسلام ابن تيمية في دلالة هٰذين الدليلين على الخالق عزوجل وتوحيده ٥٦

الحث على النظر والتأمل والتفكر في خلق هذه المخلوقات وفي افتقارها إلى خالقها عزوجل وأن ذلك من أسباب زيادة الإيمان والدخول في الإسلام.................................. ٦٣

بيان أن مذهب السلف هو منهج القرآن والسنة وهذا يدل على الترابط بين هذه المناهج ٦٣

بيان أقوال بعض الفرق الضالة التي خالفت منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية والرد عليهم . ٦٤

الرد على استدلال المتكلمين بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في تقرير مذهبهم الباطل أن حدوث الأجسام إنما يعرف بحدوث صفاتها لا بوجودها بعد عدمها كما هو مذهب السلف ٦٦

مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة حلول الحوادث بذات الله تعالى .. ٦٨

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان الفرق بين طريقة القرآن الكريم وطريقة المتكلمين في الاستدلال على الله تعالى بالآيات الكونية. ٧٠

المبحث الرابع: الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالفطرة ٧٢

الكلام حول المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ... الآية وذكر أقوال المفسرين وقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في ذلك ٧٥

استدلال الخليل إبراهيم عليه السلام على خالقه عزوجل وتوحيده بفطرته السليمة ورده على قومه المشركين بما آتاه الله تعالى من قوة في الحجة والبرهان ٧٩

القول بأن مقام إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كان مقام مناظرة لا نظر هو الراجح كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله تعالى ٨٦

من أدلة الفطرة على التوحيد ما يسمى بالقضايا الأولية أو البدهيات ٨٩

من أنواع الدلالات أيضاً دلالة هداية المخلوقات إلى ما يصلح جميع شؤونها ٨٩

من أدلة الفطرة على التوحيد لجوء الإنسان إلى خالقه عز وجل في حال الشدة والكرب ٩٠

من أنواع الدلالات دلالة إجابة دعاء السائلين عموماً والمضطرين منهم خصوصاً........................ ٩١

المبحث الخامس : الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بمعجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام........................ ٩٢

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في دلالة معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على صدقهم فيما جاؤوا به من عند الله تعالى........................ ٩٣

القرآن الكريم من أعظم المعجزات التي أوتيها نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والدالة على الله عز وجل وعلى توحيده وعلى صدقه صلى الله عليه وآله وسلم وصدق سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام........................ ٩٣

إعجاز القرآن الكريم ودلالته على توحيد الله سبحانه وتعالى ٩٤

المبحث السادس: الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالمقاييس العقلية .. ٩٧
كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في معنى المقاييس العقلية ودلالتها على الله عز وجل وتوحيده ٩٧
معنى حاجة المخلوق إلى الخالق عز وجل ١٠١
بيان عظم قدرة الله عز وجل على الخلق، وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمهما الله تعالى في ذلك، وأن ذلك من أعظم الأدلة والدلالات على أنه سبحانه وتعالى هو المستحق وحده لا شريك له للعبادة بجميع أنواعها، وهذا معنى دلالة الخلق على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ١٠١
بيان أن من لا يستطيع أن يخلق هو أحقر من أن يصرف له أي نوع من أنواع العبادة، ولذلك تحدى الله عزوجل جميع المدَّعين للربوبية والألوهية أن يخلقوا شيئاً ولو ذرة ١٠٢
قول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى في الحديث القدسي : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة) ودلالة ذلك على توحيد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ١٠٣
الرد على الملاحدة في زعمهم قدم السموات أو الأرض أو المادة أو أي مخلوق وبيان أن صفة الأزلية والأولية خاصة بالله عزوجل ١٠٤
الرد على الملاحدة في نسبتهم الخلق إلى غير الله تعالى ١٠٥

دلالة القرآن الكريم على المقاييس العقلية وفي ذلك رد على جميع الملاحدة بالأدلة الشرعية والعقلية ١٠٦

بيان أن في إنكار الملاحدة والكفرة لوجود الخالق عزوجل وتوحيده دليلاً على وجود الخالق وتوحيده سبحانه وتعالى ١٠٧

بيان أن الكفرة والملاحدة وسائر المشركين والمكذبين قد ردوا الأدلة الشرعية – السمعية – والأدلة العقلية ولذلك استحقوا الخلود في النار والعياذ بالله تعالى.......... ١٠٨

حرص عدو الله تعالى الشيطان الرجيم لعنه الله تعالى على إضلال المسلم بما يوسوس له وطرق التحصن من ذلك ١٠٩

قول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى والإمام الخطابي رحمه الله تعالى في شرح قوله صلى الله عليه وآله وسلم (يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا) .. الحديث ١١٠

قول المازري في أقسام الخواطر الشيطانية وطرق علاجها ١١٠

قول الطيبي وابن التين في علاج الوساوس الشيطانية ١١١

أقسام الشك وأحكامها والأدلة على ذلك وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في ذلك ١١٢

قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في أرجى آية في القرآن الكريم ومعنى كلامه ١١٢

قول شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وعبد الرحمن بن حسن رحمهم الله تعالى في الشك المخرج عن الملة

والعياذ بالله تعالى ١١٤

من يعذر بالجهل في باب الكفر والشك المخرج عن دائرة الإسلام والعياذ بالله تعالى والفرق بين التكفير المطلق والمعين وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان هذه المسائل المهمة ١١٦

قول الإمام ابن القيم في أقسام الأمراض ١١٨

كلام نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية في شفاء أمراض القلوب بالقرآن الكريم ١١٩

كلام جيد لبعض السلف في فضل الحسنات وقبح السيئات ١٢٠

قول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في فضل القرآن الكريم وفضل الاستشفاء به من أمراض القلوب والأبدان وكذلك قول ابن كثير. ١٢٠

قول الإمام ابن القيم وابن عبد البر رحمهما الله تعالى في بيان فضل العلم الشرعي وأنه من أعظم أسباب شفاء أمراض القلوب بأنواعها.. ١٢٣

بيان أن النظر في الأدلة والآيات الشرعية والكونية سبب عظيم من أسباب زيادة الإيمان وشفاء أمراض القلوب وما ورد في فضل التأمل والتدبر لتلك الآيات ١٢٣

كلام الشيخ عبدالله بن جبرين في كيفية علاج الوساوس الشيطانية . ١٢٥

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ والرد على الملاحدة المنكرين لوجود الخالق سبحانه وتعالى من شياطين الإنس والجن .. ١٢٦

الوساوس الشيطانية في الخالق والمخلوق والرد عليها من
أقوال أهل العلم ١٢٧

من الأمور البديهية التي يثبتها الشرع والعقل والتي يقطع بها جميع
العقلاء حاجة المخلوق إلى خالق، وعدم حاجة الخالق إلى خالق.... ١٢٧

الأحاديث الواردة في رد وسوسة الشيطان لعنه الله تعالى وطرق
التخلص منها ١٢٨

كلام جيد للشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في أحسن
الطرق في رد وسوسة الشيطان لعنه الله تعالى ١٢٩

الواجب على المسلم فعله لرد الوساوس الشيطانية في باب الاعتقاد
وذلك في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة ١٣٠

كلام الإمام الخطابي رحمه الله تعالى في بيان معنى قوله صلى الله عليه
وآله وسلم في حديث الوسوسة (ذلك صريح الإيمان) وقوله
صلى الله عليه وآله وسلم(الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) .. ١٣٢

الحث على التفكر في خلق الله تعالى والنهي عن التفكير في الله تعالى
وأن ذلك من أسباب زيادة الإيمان وطرد وسوسة الشيطان ١٣٢

بيان أن تقوى الله تعالى ومراقبته في السر والعلانية من أعظم الأسباب
التي يعتصم بها العبد من شياطين الإنس والجن وينال بها حفظ الله تعالى
له من كل ما يكرهه ويخافه في الدنيا والآخرة، ويحصل له بها كل ما
يحبه ويتمناه في الدنيا والآخرة، كذلك التحصن بالأوراد والأدعية

الصحيحة الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة ١٣٣
المبحث السابع: الاستدلال على الله تعالى وتوحيده بالله تعالى....... ١٣٤
قول شيخ الإسلام في بيان معنى الإستدلال على الله تعالى بالله تعالى وأن الفطر تعرف الخالق قبل آياته ولو لم تكن تعرفه لما عرفت أن هذه الآيات آياته ١٣٤
الفصل الثالث: في بعض الشبه التي أوردها الملاحدة وأعوانهم حول وجود الخالق جل وعلا والرد عليهم........................ ١٣٦
بيان أن الصراع بين الحق والباطل وبين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان سنة الله تعالى في خلقه ما دامت الدنيا وأن الغلبة للحق وحزب الرحمٰن ١٣٦
الشبهة الأولى : نسبة الخلق إلى السديم والرد عليها من وجوه :..... ١٣٧
الوجه الأول : أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه خالق كل شيء ويدخل فيه السديم وجميع المخلوقات ١٣٧
الوجه الثاني: أن الملاحظ على جميع المخلوقات الإحكام في الخلق فهل السديم حكيم ؟! ١٣٨
الوجه الثالث : افتقار جميع المخلوقات دليل على نقصها وحاجتها إلى الخالق ومنها السديم ١٣٨
الوجه الرابع: أن جعلهم المخلوق خالقاً تناقض وإنكار للخالق والمخلوق معاً وقول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ١٣٩
الوجه الخامس : أن الوجود المعلوم إما خالق وإما مخلوق ولا يمكن للمخلوق أن يتصف بصفات الخالق كما أنه لا يمكن أن تكون

صفات الخالق مشابهة لصفات المخلوق.................. ١٤٠

قول شيخ الإسلام في الفرق بين الخالق والمخلوق وأن ما يلزم من أنكر وجود الخالق عزوجل أعظم مما فرَّ منه ١٤٤

قول الشيخ عبد الرحمن حسن الميداني في الرد على الملاحدة ومغالطاتهم وتلبيسهم الحق بالباطل على العوام وتخليطهم بين صفات الخالق والمخلوق ١٤٤

اعتراف الملاحدة بأنفسهم على حدوث الكون وأنه مخلوق ١٤٦

أدلة من القرآن والسنة على حدوث الكون وأنه مخلوق لله تعالى ١٤٦

الوجه السادس: أن نسبة الخلق إلى السديم الذي هو جزء من الكون يقتضي القول بالدور وهو باطل شرعاً وعقلاً ١٤٧

الوجه السابع: بيان أن صفة الأزلية والأولية خاصة بالله وحده لا شريك له ١٤٨

الوجه الثامن: الرد على زعمهم أن الحياة أول ما وجدت في السديم. ١٤٨

الوجه التاسع: أن الملاحدة ينسبون الخلق إلى الأسباب أو إلى غيرها وهي جميعها مخلوقة لله تعالى وهذا من أبطل الباطل ١٤٨

الشبهة الثانية : إنكارهم وجود الخالق استناداً لعدم رؤيته والرد على هذه الشبهة من وجهين: ١٥١

الوجه الأول : أنه لا يلزم لإثبات وجود الشيء رؤيته ١٥١

التشابه بين ملاحدة هذا العصر وملاحدة العصور السابقة في طلبهم رؤية الخالق لكي يؤمنوا به وأن جميع الملاحدة يجمعهم فكر شيطاني واحد وإن اختلفت عباراتهم في إخراجه في أساليب متعددة ١٥٣

طفل صغير يرد على هذه الشبهة ويخرس الملاحدة وذلك من آيات الله تعالى الدالة على أن جميع هذا الكون بما فيه يشهد بوحدانية الخالق عزوجل ١٥٥
رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة من أعظم ألوان النعيم وحرمان الكافرين من ذلك من أشد ألوان العذاب.......... ١٥٦
بيان أن الكبر والغفلة والأعراض عن تدبر الآيات الشرعية والكونية هما من أعظم أسباب الكفر والإلحاد، وقول الشيخ عبد الرحمٰن السعدي في ذلك ١٥٦
الوجه الثاني: أن الذي يحتاج إلى رؤيته لإثبات وجوده هو المخلوق أما الخالق عزوجل فإنه لا يحتاج إلى رؤيته لإثبات وجوده لأن المخلوق لا يمكن وجوده إلا بإيجاد الخالق له فوجود المخلوق دليل على وجود الخالق دون الحاجة لطلب رؤيته، بل إن وجود الخالق عزوجل لا بد أن يكون أزلياً ومتقدماً على وجود المخلوق حيث دل على ذلك الشرع والعقل ١٥٧
الشبهة الثالثة: نسبتهم الخلق إلى الطبيعة والرد عليهم ١٥٨
المعنى اللغوي لكلمة (الطبيعة) وبيان أن فيه رداً على الطبيعيين ... ١٥٩
معاني (الطبيعة عند الملاحدة الطبيعيين) والرد عليها ١٥٩
المعنى الأولى : أنها عبارة عن الأشياء بذاتها ويرد عليهم : بأن هذا القول يعني أن الشيء أوجد نفسه بنفسه وهذا يؤدي إلى أن يكون خالقاً ومخلوقاً معاً وهو باطل ومتناقض شرعاً وعقلاً، ويعني أيضاً

أنه خلق بلا خالق وقد تقدم بطلان جميع ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ وأن ذلك من الأمور الباطلة بالشرع والعقل........................ ١٥٩

المعنى الثاني: أنها عبارة عن صفات الأشياء ويرد عليهم بأنه إذا كانت ذات الشيء لا تستطيع خلقه كما تقدم فكيف تخلقه صفته وأن هذا باطل شرعاً وعقلاً ١٦٠

المعنى الثالث: أنها النظام العام المطَّرد للكون ويرد عليهم من وجهين :

الأول : أنه يشاهد خروج بعض المخلوقات عن هذا النظام العام كالخوارق والمعجزات والطفرات . وهذا يدل على أن هذا النظام متصرف فيه وأنه لا يعمل بذاته كما زعموا بل هو بيد خالقه سبحانه وتعالى الذي إن شاء أبقاه وإن شاء غيره ١٦٢

الثاني : أنه يستحيل أن يكون نظام دون منظِّم ١٦٣

من الردود المسكتة المخرسة لأصحاب هذه الشبهة من الطبيعيين أن يقال : إن الإحكام المشاهد في جميع المخلوقات يدل على وجود الخالق العليم الحكيم الحي المتصف بجميع صفات الكمال والجلال فهل هذه الطبيعة المزعومة تتصف بذلك ؟!........................ ١٦٣

رد الإمام أبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني في نونيته على الطبيعيين والملاحدة ١٦٣

قول قيم لابن القيم رحمه الله تعالى في الرد على أهل الطبيعة قبحهم الله تعالى ولعنهم ١٦٥

الشبهة الرابعة : قولهم إن هذا الكون بما فيه من دقة وإحكام وبراعة وإتقان في الخلق قد وجد صدفه أو مصادفه دون وجود خالق حكيم عليم أحكمه وأوجده على هذا الوصف المتقن البديع. ١٦٧

الرد على هذه الشبهة من عدة وجوه :

الوجه الأول : أن القول بأن هذا الكون وجد صدفه معناه إنكار وجود الخالق وأن المخلوق وجد بلا خالق أو أوجد نفسه وقد تقدم بطلان ذلك شرعاً وعقلاً ١٦٧

الوجه الثاني : إن حال جميع المخلوقات ينفي نفياً باتاً أن يكون الكون وجد صدفة وقد دل على ذلك أمثلة كثيرة منها : ملاءمة الأرض للحياة.. ١٦٨

ومنها : أن الكرة الأرضية يحوطها غلاف غازي ١٦٨

ومنها : امتياز الماء بأربع خواص ١٦٨

ومنها : موقع الأرض بالنسبة للشمس ١٦٩

ومنها تتابع الفصول على هذه الأرض ١٦٩

الوجه الثالث: ما ورد عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى في الرد على الملاحدة حتى رجعوا عن زندقتهم وأسلموا على يديه ١٧٠

الوجه الرابع: يذكر علماء التوحيد أن وجود الكون بهذا النظام الذي لو كان غيره لكان الخلل والفوضى يدل على وجود إرادة عليا رجحت ذلك النظام على غيره وهي إرادة الخالق عز وجل لا الصدفة العمياء التي يزعمها الملاحدة الأغبياء الذين فقدوا عقولهم. ١٧٠

الوجه الخامس : أن القائلين بالمصادفة يعطونها جميع صفات الكمال وكفى بهذا تخبطاً وضلالاً ١٧١

الوجه السادس : إن بداهية العقل تحكم أنه حيث وجد الإحكام كان العلم والإرادة والحياة وسائر صفات الكمال وحيث وجدت هذه الصفات كانت الذات التي تقوم بها هذه الصفات ١٧٢

الوجه السابع : أعظم دليل أخرس جميع الملاحدة من شياطين الإنس والجن ١٧٢

بيان إن عدم الانتظام لا يتحول بنفسه إلى نظام إلا بقصد وإرادة وعلم وحكمة وهذه صفات الخالق سبحانه وتعالى وسائر صفات الكمال.... ١٧٢

قول الشيخ محمد ربيع المدخلي في دلالة الحكمة على وجود الخالق عز وجل وتوحيده ١٧٣

الشبهة الخامسة : إنكارهم وجود الخالق عزوجل لعدم معرفتهم الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى والرد على هذه الشبهة من وجوه : ١٧٤

الوجه الأول : أن وجود الشيء بعد عدمه لا يكون إلا بموجد أوجده من العدم وهذا باتفاق الشرع والعقل كما تقدم ١٧٤

الوجه الثاني: أن هذا الموجد والخالق أول وأزلي لا يحتاج إلى خالق ولا موجد وإلا أدى ذلك إلى التسلسل وهو باطل شرعاً وعقلاً ١٧٤

الوجه الثالث: أن الإتقان والإحكام المشاهد في جميع المخلوقات يدل دلالة واضحة وقاطعة على وجود الخالق الحكيم الحي المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ولا ينكر ذلك إلا من رد الشرع وأنكر عقله ... ١٧٥
الوجه الرابع: أن أصحاب هذه الشبهة قد أنكروا جميع هذه الأمور المتقدمة التي دلت عليها الأدلة الشرعية والعقلية ١٧٥
الوجه الخامس : أن عدم معرفة الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى لا يعتبر مسوغاً لإنكار وجوده وتوحيده ورد جميع الأدلة المتقدمة الدالة على ذلك إلا عند من فقد عقله وأصبح أحط من البهائم ١٧٥
الوجه السادس : أن جميع أفعال الله سبحانه وتعالى لا تخلو عن حكمة سواء علمها الخلق أم لم يعلموها ١٧٦
الوجه السابع : فساد المقدمتين اللتين قدموا بهما لهذه الشبهة الباطلة ١٧٦
كلام جيد للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الرد على هذه الشبهة .. ١٧٦
مما يرد به على جميع شبهات الملاحدة المنكرين لوجود الخالق عزوجل أمور :
أولاً : أن الله تعالى أخبر في كتابه المعجز أنه خالق كل شيء وأن الشيء لايوجد بلا موجد ولا يوجد بنفسه بل لا بد له من موجد وخالق ١٧٧
ثانياً: أن الوجود المعلوم ينقسم إلى قسمين : إما أن يكون خالقاً أو مخلوقاً والمخلوق لا بد له من خالق لأنه يستحيل أن يكون العدم سبباً في الوجود كذلك الخالق يستحيل أن يكون له خالق بل هو أزلي وأول لم يسبق بعدم وعدم القول بذلك يؤدي إلى التسلسل وهو باطل شرعاً وعقلاً كما تقدم ١٧٨

ما يلزم من أنكر وجود الخالق عز وجل : ١٧٨
الأمر الأول: أن ينسب الخلق إلى العدم وهذا باطل شرعاً وعقلاً ... ١٧٨
الأمر الثاني: أن ينسب الخلق إلى نفسه أو إلى أي مخلوق من مخلوقات الله تعالى وهو باطل شرعاً وعقلاً أيضاً ١٧٨
ثالثاً: إن الدقة والإحكام المشاهدين في جميع المخلوقات يدلان دلالة واضحة على وجود الخالق والإلّه الواحد المتصف بجميع صفات الكمال وهذه الدلالة من أعظم الأدلة التي أخرست جميع الملاحدة من شياطين الإنس والجن كما تقدم ١٨٠
حقيقة الإلحاد والكفر أنه مخاصمة للشرع والعقل بكل ما تعنيه هذه الكلمات ١٨٠
كلمات لبعض الملاحدة تبين وتسجل اعترافاتهم بوجود الخالق عزوجل بعد أن أضنتهم البحوث في أمر قد فطرت عليه جميع الخلائق وهو وجود الخالق عزوجل وتوحيده فنطقت ألسنتهم ببعض ما في فطرهم من بقايا نور أطفأته ظلمات الإلحاد والكفر.... ١٨٠
الفصل الرابع : في الحث على التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأن ذلك طريق السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة والحذر من مخالفة ذلك ١٨٣
أدلة من القرآن الكريم على ذلك........................ ١٨٣
أدلة من السنة المشرفة على ذلك........................ ١٨٧
أدلة من الآثار السلفية على ذلك........................ ١٨٩

الباب الثاني

في الحديث عن خلق السماء وما فيها من عجائب الصنع وعظيم المخلوقات وفيه ثلاثة فصول:........................ ١٩٢

الفصل الأول : في خلق السموات........................ ١٩٢

دلالة خلق السموات على توحيد الخالق عزوجل ١٩٢

الحديث عن كيفية خلق السموات لا يتم إلا عن مصدر سماوي ووحي إلهي ١٩٣

الآيات القرآنية تدل على أن الله تعالى خلق الأرض قبل السماء وقبل الشمس والقمر والكواكب وفي ذلك رد على الملاحدة وأتباعهم ومن قال بقولهم بأن الأرض فصلت عن الشمس وأمثال هذا الهراء الذي لا دليل عليه وقول الشيخ عبد الكريم الحميد في ذلك ١٩٣

القول الراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾ وبيان أن هذه الآية لا مستند فيها لمن قال بقول الملاحدة ١٩٤

أصل هذه النظرية وهي أن الأرض انفصلت عن الشمس إنما جاءت عن الملاحدة للتشكيك في وجود الخالق عزوجل وقول الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي في ذلك ١٩٥

العجب أن يأخذ بهذه النظرية وهذا الرأي بعض من ينتسب إلى العلم من المسلمين ١٩٦

حقيقة السماء عند أهل السنة والجماعة وسائر المسلمين ، وعند الملاحدة وأعوانهم وبعض علماء الفلك المعاصرين الذين تأثروا بأقوالهم والرد عليهم ١٩٧

أدلة السلف وأهل السنة والجماعة على حقيقة السماء وأن لها جرماً ١٩٩

دلالة قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ على أن للسماء جرماً حقيقة من خمسة وجوه ٢٠٣

دلالة قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ على أن للسماء جرماً حقيقة وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ ٢٠٤

قول الشيخ عبد الكريم الحميد في الرد على زعم الملاحدة وأتباعهم: أن السماء عبارة عن الفضاء الذي لا نهاية له.................. ٢٠٥

الرد على من زعم أن السماء هي عبارة عن الكواكب والأجرام السماوية ٢٠٦

قول الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى في الرد على من زعم ذلك ٢٠٨

أدلة من السنة ترد على أقوال الملاحدة في حقيقة السماء.......... ٢٠٩

دلالة حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه في (كيفية قبض روح المسلم والكافر ومآل كل منهما) على أن للسماء جرماً حقيقة .. ٢١٠

دلالة حديث (الإسراء والمعراج) على ذلك أيضاً................ ٢١٠
من أدلة الآثار السلفية على أن للسماء جرماً حقيقة وأنها مبنية قول
شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ٢١١
الفصل الثاني : في الأجرام السماوية.............................. ٢١٣
معنى الجِرم في اللغة ودلالة ذلك على الخالق عزوجل وتوحيده ٢١٣
من أسباب هداية كثير من الملاحدة ما أنعم الله تعالى به على إنسان
هذا العصر من شتى الصناعات التي ساعدته بفضل الله تعالى على
اكتشاف الآفاق في السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ
ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾........ ٢١٤
دلالة الأجرام السماوية على الخالق عزوجل وتوحيده ومن ذلك قصة الخليل
إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع عدو الله تعالى النمرود لعنه الله تعالى ٢١٦
الحديث عن الشمس والقمر وما في هٰذين الجرمين من دلالات
عديدة على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده وعظمته عزوجل،
وبيان ذلك من الآيات القرآنية والآثار السلفية ، وكذلك بيان أنه
بدورة الشمس السنوية حول الأرض تعرف الفصول الأربعة ،
وبدورتها اليومية تعرف الأيام والليل والنهار ، وبدورة القمر أيضاً
حول الأرض تعرف الشهور والأعوام........................... ٢٢١
كلام جيد للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الحديث حول الشمس
والقمر وما فيهما من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده ٢٢٣
كلام علماء الفلك المعاصرين عن الشمس والقمر ٢٢٥

حديث زيد بن عمرو بن نفيل في السيرة وما ورد في نظره في مخلوقات الله تعالى واهتدائه إلى الإسلام بتوفيق الله تعالى ، وما أوتي من فطرة سليمة ، وشعره في ذلك ٢٢٨
خطاب الله تعالى للعرب بواقع ما هم فيه ليكون ذلك أقرب إلى إسلامهم ٢٣٠
فوائد النجوم والأدلة على ذلك........................ ٢٣١
القول الراجح والصحيح في مسألة دوران الأرض وثبوتها هو ما عليه أهل الإسلام وأهل السنة والجماعة أن الأرض ثابتة لا تدور لا حول الشمس ولا حول نفسها، وأن الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة تدور حولها والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة والآثار السلفية والرد على الملاحدة المخالفين لذلك ومن قال بقولهم الباطل.... ٢٣٢
حديث «البيت المعمور في السماء السابعة حيال الكعبة» والشاهد منه على ثبات الأرض ، وقول الشيخ المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى في هذا الحديث ٢٣٤
قول الشيخ عبد الكريم صالح الحميد في دلالة هذا الحديث الشريف على ثبوت الأرض ٢٣٥
قول الشيخ عبد القاهر بن طاهر البغدادي في هذه المسألة.......... ٢٣٦
قول الشيخ عبدالكريم صالح الحميد في الرد على من زعم دوران الأرض سواء حول نفسها أو حول الشمس ٢٣٦
قول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه المسألة................ ٢٣٨

قول الإمام عبدالعزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله ذلك في هذه المسألة ٢٣٨
صور توضح معتقد أهل الإسلام وأهل الإلحاد في هذه المسألة ٢٤٠
الفصل الثالث: في العوامل الجوية.............. ٢٤٣
معنى العوامل والمراد بالحديث عنها................ ٢٤٣
المبحث الأول: الحديث عن الرياح وما فيها من دلالة الخالق عزوجل وتوحيده ٢٤٣
دور الرياح في سوق السحب بإذن الله تعالى ومشيئته إلى المكان الذي أراد الله تعالى نزول الأمطار فيه ٢٤٤
من الرياح ما هو رحمة ومنها ما هو عذاب كالريح الذي أهلك الله تعالى به قوم عاد لما كفروا به.............................. ٢٤٥
المبحث الثاني: الحديث عن الأمطار والسحب ٢٤٨
الحكمة في إنزال المطر من السحاب وما في ذلك من مظاهر الرحمة بالعباد.. ٢٥٠
الحكمة في تتابع الصحو والغيم وما في ذلك من دلالة على الخالق عزوجل وتوحيده ٢٥٢
إحياء الله تعالى الأرض الميتة بالمطر وما في ذلك من أدلة على الخالق عزوجل وتوحيده وقدرته على البعث يوم القيامة ٢٥٢
الحديث حول الرعد والبرق ودلالتهما على الخالق عزوجل وتوحيده وعظمته ٢٥٣

الصواعق عذاب لمن شاء الله تعالى........................ ٢٥٤
الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب والدليل على ذلك ٢٥٥
المبحث الثالث : في تعاقب الليل والنهار وما فيه من دلالة على الخالق جل وعلا وتوحيده ٢٥٦
بعض الحكم من تعاقب الليل والنهار ٢٥٨
قيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالليل وتفكره في خلق الله تعالى وشعر عبد الله بن رواحه رضي الله تعالى عنه في ذلك.............. ٢٦٢
الحث على قيام الليل وأن ذلك من صفات المتقين وما ورد في فضل ذلك ٢٦٢
فضل التفكر في مخلوقات الله تعالى وأن ذلك من أسباب انشراح الصدر وزيادة الإيمان.................................... ٢٦٣

الباب الثالث

في الحديث عن خلق الأرض وما فيها من أجناس المخلوقات وباهر المتنوعات
الفصل الأول : في خلق الأرض وتكوينها. ٢٦٥
بيان أن الأرض خلقت قبل السماء ودحوها بعد خلق السماء وفي ذلك رد على الملاحدة القائلين بأن الأرض خلقت بعد السماء كما تقدم الحديث عن ذلك عند الحديث عن خلق السماء........................ ٢٦٧
بطلان قول الملاحدة ومن سار على نهجهم أو قال بأقوالهم الباطلة في أن الأرض أو المخلوقات وجدت قبل بلايين وملايين السنين وأمثال هذا

الكلام الفارغ والدجل الساقط الذي لا دليل عليه ٢٦٨

قول الشيخ عبدالكريم الحميد في الرد على هذه الأباطيل........................ ٢٦٩

بيان أن الأرضين سبع والأدلة على ذلك........................ ٢٧٠

قول ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث (من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين) ٢٧١

أقسام الأرض........................ ٢٧١

الفصل الثاني : في مياه الأرض وأقسامها وأنواعها. ٢٧٢

تفسير قوله تعالى : ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ الآية وما في هذه الآية من دلالات على الخالق عز وجل وتوحيده وما فيها من التحذير من الشرك والكفر والضلال والإلحاد وأهله ٢٧٢

الحديث عن الأنهار والبحار والمحيطات وأعماقها وما فيها من مخلوقات لا يعلمها إلا خالقها عزوجل ٢٧٤

الحديث عن الأسماك واللؤلؤ والمرجان ، والحكمة في مياه البحر المالحة، وكذلك الفصل بينها وبين البحر الحلو العذب........................ ٢٧٧

الحديث عن ينابيع الأرض وما في ذلك من الحكمة الإلهية الدالة على الخالق عز وجل وتوحيده ٢٨٢

الحديث عن نعمة السيول ومنافعها للعباد والبلاد وأنها قد تكون نقمة وعذاباً على من شاء الله تعالى ٢٨٦

الفصل الثالث: في الجبال والسهول والصحاري ٢٩٠

الحديث عن خلق الجبال وما في ذلك من دلالة على عظمة الخالق عزوجل وذكر بعض الأدلة على ذلك من القرآن الكريم............... ٢٩٠

ذكر بعض أقوال علماء الجغرافيا في أنواع الجبال وما فيها من دلالات على الخالق عز وجل وتوحيده ٢٩٢

قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الحديث عن الجبال وعظم خلقها وذكر بعض منافعها وما في ذلك من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده ٢٩٧

الحديث عن السهول وما فيها من أدلة على الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده .. ٣٠١

الحديث عن الصحاري وما فيها من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده . ٣٠٤

ما يقوله المسلم إذا نزل منزلاً من أدعية مشروعه تتضمن الإخلاص والتوحيد وما يجب عليه أن يحذره من الشرك بالله تعالى ٣٠٥

الفصل الرابع : في الجنات والبساتين وما فيها من أصناف النباتات الدالة على الخالق عزوجل وتوحيده ٣٠٦

بعض الآيات الواردة في الجنات ودلالتها على الخالق عزوجل وتوحيده وذكر بعض أقوال المفسرين في تفسيرها.......... ٣٠٦

في ذكر بعض نماذج من أنواع الأزهار ودلالتها على الخالق عزوجل وتوحيده ٣١١

في ذكر بعض نماذج من أنواع البزور وعجائبها ودلالتها على الخالق عزوجل وتوحيده.............................. ٣١٣

الحديث عن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ .. الآية وبيان خطأ للجوهري عند تفسيره لهذه الآية ٣١٥
الحديث عن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ﴾ .. الآية ٣١٦
أقوال علماء النبات في أقسامه من ناحية الغذاء الذي يتغذى به وذكر بعض العجائب في ذلك الدالة على الخالق عزوجل وتوحيده............ ٣٢١
الحديث عن قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٣٢٥
الحديث عن شجرة الزيتون وما ورد في بركتها........ ٣٢٧
الحديث عن قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ .. الآية......... ٣٣٠
ما ورد في عجائب المخلوقات في منطقة (سويسرا)................ ٣٣١
كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى حول هذه الآية وذكره لبعض ما في الجنات والبساتين من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده............ ٣٣٦
الحديث عن قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ ٣٤٢

الحديث عن النخلة ومنافعها وما فيها من دلائل على الخالق عزوجل
وتوحيده وكلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك................ ٣٤٤
الحديث عن قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ وما في هذه
الآيات من دلائل على الخالق عزوجل وتوحيده ٣٤٧
الحديث عن قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ إلى قوله
تعالى: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ ٣٥٠
درس من شجيرة الورد على وجود الخالق عز وجل وعلى توحيده
سبحانه وتعالى ٣٥٥
الفصل الخامس: في الأمصار والقرى ودلالتها على الخالق عزوجل وتوحيده ٣٥٧
الفصل السادس: في أصناف مختلفة من مخلوقات الله تعالى على هذه الأرض ٣٥٩
المبحث الأول : في الأنعام ومنافعها ٣٥٩
المراد بالأنعام.. ٣٥٩
الحديث عن خلق الإبل وما في ذلك من أدلة على الخالق عزوجل وتوحيده ٣٦٠
قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الحديث حول الأنعام وما في خلقها
من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده........................... ٣٦٣
الحديث عن الخيل وأنواع الأنعام ٣٦٤

الحديث عن بعض منافع الأنعام: ٣٦٥
الحديث عن منفعة اللحم ٣٦٥
الحديث عن منفعة اللبن........................ ٣٦٩
قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الحديث عن اللبن وما في كيفية خلقه من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده........................ ٣٧١
الحديث عن منفعة الصوف والشعر والوبر المتخذ من الأنعام........... ٣٧١
قول الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ٣٧٣
بيان حِلِّ لحوم الحمر الوحشية ولحوم الخيل من السنة المشرفة وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في ذلك. ٣٧٤
الحديث عن منفعة الركوب على الأنعام وغيرها من الخيل والبغال والحمير وبيان أن ذلك من آيات الله تعالى ونعمه الكثيرة على الإنسان.... ٣٧٥
المبحث الثاني: في خلق الطير وما فيه من آيات دالة على الله تعالى ووحدانيته .. ٣٧٦
طيران الطير وآلات طيرانه وحركاته في جو السماء من أعظم الأدلة الدالة على الخالق عزوجل وعظمته وتوحيده وحكمته في خلقه وسائر صفات كماله جل جلاله وعز سلطانه........................ ٣٧٦
كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في خلق الطير ودلالته على الخالق عزوجل وتوحيده ٣٧٩

قول صاحب الجواهر في ذلك ٣٨٠
نماذج من بعض الطيور ٣٨١
النسور الأمريكية ٣٨٢
الخفاش (الوطواط) وما في خلقه من عجائب الصنعة الدالة على الخالق عزوجل وتوحيده ٣٨٣
بيان أن خلق الطير فاق أفضل الآلات التي من صنع البشر.......... ٣٨٦
المبحث الثالث: في النحلة وما فيها من دلالات عظيمة على الباري عزوجل وعلى وحدانيته. ٣٨٧
ما ورد في التداوى بالعسل وأن (فيه شفاء للناس) ٣٨٨
كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في عجائب النحل ودلالاته على الخالق عزوجل وتوحيده ٣٨٩
عجز الإنسان عن معرفة كثير من أسرار مخلوقات الله تعالى في هذا الكون الواسع حتى في نفسه وهذا يدل على عجزه وافتقاره إلى خالقه عزوجل وذلك دليل على الخالق عز وجل وتوحيده ٣٩٠
كلام صاحب كتاب (النحلة تسبح الله تعالى) حول عجائب النحل ٣٩١
الرد على الملاحدة الطبيعيين القائلين بالصدفة والطبيعة بدروس من عجائب خلق النحلة ٣٩٨
طريقة صنع النحلة للعسل وما في ذلك من أدلة باهرة على الخالق عزوجل وتوحيده ٤٠٠

فوائد العسل ومنافعه................................	٤٠٢
المبحث الرابع : في خلق النملة وما فيه من آيات دالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته	٤٠٥
ما ورد من ذكر النملة في القرآن الكريم والسنة المشرفة ودلالة ذلك على الخالق عزوجل وتوحيده.	٤٠٥
كلام الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حول النمل وما فيه من آيات دالة على الخالق جل وعلا وتوحيده................................	٤٠٦
بعض أنواع النمل وعجائبه................................	٤٠٨
المبحث الخامس: الحديث حول حشرة العنكبوت ودلالتها على الخالق عزوجل وتوحيده	٤١١
ما ورد من ذكر العنكبوت في القرآن الكريم ودلالة ذلك على الخالق عزوجل وتوحيده	٤١١
كلام صاحب الجواهر حول عجائب العنكبوت	٤١١
كلام بعض علماء الحشرات عن عجائب العنكبوت................	٤١٣
المبحث السادس : الحديث عن دودة القز ودلالتها على الخالق عزوجل وتوحيده................................	٤١٦
عجائب دودة القز وصنعها للحرير ودلالة ذلك على عظمة الخالق عزوجل وتوحيده	٤١٧

الباب الرابع

في الحديث عن خلق الإنسان واستخلافه في الأرض وفي البعث بعد الموت والرد على منكريه.......................... ٤٢٠

الفصل الأول : في الحديث عن أصل الإنسان وهو آدم عليه السلام وبيان قدرة الخالق عزوجل في إيجاده من التراب وخلقه حواء زوجه عليها السلام من ضلعه والرد على من زعم أن هناك أصلاً للإنسان غير ذلك .. ٤٢٢

المبحث الأول: الحديث عن خلق آدم عليه السلام من التراب وكيفية هذا الخلق وما فيه من أدلة على الخالق جل وعلا وتوحيده وعظيم قدرته.... ٤٢٢

بيان أن المادة التي خلق منها آدم عليه السلام هي تراب هذه الأرض والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة ٤٢٤

بيان أن الله تعالى كرم آدم بأن خلقه بيديه عزوجل والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.. ٤٢٥

مكان خلقه وسكنه عليه السلام وكيفية وجود نسله على هذه الأرض.... ٤٢٧

قصة آدم عليه السلام مع إبليس لعنه الله تعالى ٤٢٩

بيان أن القول الراجح في الجنة التي خلق فيها آدم عليه السلام وسكنها وأخرج منها هي جنة الجزاء يوم القيامة وهو الذي رجحه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ٤٣٢

المبحث الثاني : في خلق حواء زوج آدم عليهما السلام وما في ذلك من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده............................ ٤٣٤

المبحث الثالث : في شبه الملاحدة وأعوانهم حول أصل الإنسان والرد عليهم ٤٣٩

بيان أن الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يقرر أن الناس جميعهم بنو آدم عليه السلام ولم يخالف في ذلك أحد إلا الملاحدة أو من قال بأقوالهم الباطلة المخالفة لدين جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ٤٣٩

من أعظم الافتراءات على الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام وعلى البشر أجمعين القول بنظرية داروين لعنه الله تعالى القائل بأن أصل الإنسان قرد ترقى من حشره إلى أن أصبح قرداً ثم إنساناً........................ ٤٤٠

القواعد التي بنى عليها داروين نظريته الباطلة الخبيثة والرد عليها :........ ٤٤٢

القاعدة الأولى : ناموس تنازع البقاء والمراد به ٤٤٢

القاعدة الثانية : ناموس الانتخاب الطبيعي والمراد به.................. ٤٤٢

الرد على هاتين القاعدتين الباطلتين.................................. ٤٤٣

القاعدة الثالثة : ناموس المطابقة والمراد به والرد على هذه القاعدة......... ٤٤٣

القاعدة الرابعة : ناموس الوراثة والمراد به والرد على هذه القاعدة........ ٤٤٦

ما ردَّ به علماء الإسلام وغيرهم على هذه النظرية الباطلة............. ٤٤٧

الرد على داروين في زعمه أن الإنسان والقردة ينحدران من أصل واحد ٤٤٩

الرد على من زعم أن القول بنظرية داروين لا يناقض القرآن لأنها لم تنف أن يكون آدم عليه السلام أبا البشر بل تثبت أن آدم عليه السلام أبو البشر

لكنه ترقى في خلقه من حشرة إلى قرد ثم صار إنساناً، وبيان التناقض الواضح في هذه الأقوال الفاسدة مع الشرع والعقل.............. ٤٥٠

الرد على من زعم التشابه بين نظرية داروين وبين أطوار الجنين في رحم أمه، وقول الشيخ عبد الكريم الحميد في ذلك..................... ٤٥١

القول بنظرية التطور يعني نسبة العجز إلى الله عزوجل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ٤٥٣

توقف صاحب كتاب(الإسلام ونظرية داروين) عن الحكم على نظرية داروين والرد عليه وعلى زعمه أنه لا يوجد في القرآن والسنة ما يعارض هذه النظرية الباطلة الإلحادية................................ ٤٥٥

المادة التي خلق منها آدم عليه السلام وأطوارها وهي التراب ثم الطين ثم الحمأ المسنون ثم الصلصال والأدلة على ذلك..................... ٤٥٧

خلاصة الرد على القائلين بصحة نظرية داروين أو المتوقفين في الحكم عليها، وكذلك الرد على زعمهم أنها لا تعارض القرآن والسنة............. ٤٦٠

حديث (لما صور الله تعالى آدم عليه السلام).. الحديث، شرحه، وبيان ما يستفاد منه من فوائد في الرد على القائلين بنظرية داروين أو المتوقفين في الحكم عليها، بالفساد، وبيان ما يحفظ العبد من نفسه الأمارة بالسوء ومن الشيطان......... ٤٦٣

بطلان قول الزاعمين بأنه لم يرد في القرآن الكريم والسنة المشرفة ما ينفي ويعارض قواعد نظرية داروين من القائلين بهذه النظرية ، أو من المتوقفين فيها أمثال صاحب الكتاب المذكور وبيان أنه يلزمهم على هذا الزعم الباطل أن ينحصروا في أمرين فاسدين لا يمكنهم الخروج منهما إلا بالكفر بهذه النظرية واتباع الكتاب والسنة ٤٦٦

ما ورد من الآثار السلفية في الرد على سلف القائلين بهذه النظرية والمتوقفين فيها.. ٤٧٠
قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في ذلك ٤٧٠
قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك وأن هذا قول الفلاسفة الملاحدة الذين هم أشد كفراً من مشركي العرب ومن اليهود والنصارى..... ٤٧١
قول الشيخ أبي عبد الله عامر بن عبد الله الفالح في الرد على هذه النظرية الإلحادية وعلى القائلين بها أو المتوقفين في الحكم عليها................ ٤٧٢
الرد على من سماه صاحب الكتاب المذكور بالشاب الذكي والحقيقة أنه غبي وبيان ذلك بالأدلة الشرعية والعقلية الصريحة.................... ٤٧٢
بيان تخليط الشاب الغبي ومغالطته وتلبيسه الحق بالباطل وانخداع صاحب الكتاب المذكور بأقواله الزائفة البرَّاقة التي لا ينخدع بها إلا من بعد عن فهم الكتاب والسنة كما فهمها السلف رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وبيان مغالطته وتخليطه وتلبيسه على العوام والرد عليه وعلى من استحسن قوله ومناقشته في ذلك بدلالة الأدلة الشرعية والعقلية ٤٧٣
الرد على من استدل بقوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ في تقرير نظرية داروين........................ ٤٨٠
الرد على صاحب الكتاب المذكور في افترائه على الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى وأنه كان يقول بهذه النظرية ، وبيان أن الذي أوقعه في ذلك هو انخداعه وجهله وسوء فهمه لأقوال السلف ومنهم الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى ومناقشته في ذلك كله........................ ٤٨٠

بيان أن من استدل بهم صاحب الكتاب المذكور من غير الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى ونسبهم إلى علماء الإسلام في تقرير ما ذهب إليه من أقوال باطلة إنما هم في الحقيقة أصحاب أقوال باطلة مردودة عليهم لمخالفتها للكتاب والسنة، وبيان أنه ليس كل من انتسب إلى العلم يؤخذ بقوله حتى يوزن بميزان الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، على أن كثيراً ممن ذكرهم واستدل بأقوالهم ليسوا من أهل الإسلام فضلاً عن أن يكونوا علماء له ، وذلك (كإخوان الصفا) ٤٨٩
كفر طائفة (إخوان الصفا) وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك ٤٩٠
الرد على صاحب الكتاب المذكور (محمد أحمد باشميل) وعلى (محمد فريد وجدي) في دعوتهما إلى الضلالة ومخالفتهما منهج سلف الأمة في هذه المسألة .. ٤٩١
الفصل الثاني : في خلق الإنسان وما يمر به من أطوار.................. ٥٠٠
المبحث الأول: الحكمة في خلق الزوجين الذكر والأنثى................. ٥٠١
المبحث الثاني : الحكمة في خلق نسل الإنسان من ماء مهين............ ٥٠٥
المبحث الثالث: في الحديث عن ماء الرجل ودوره في تناسل الإنسان ٥٠٨
أول من اكتشف وجود الحيوانات المنوية في ماء الرجل بإذن الله تعالى ومشيئته وبيان أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى ذلك في كتابه الكريم من قبل ذلك الاكتشاف بفترة طويلة من الزمن ٥٠٨
المبحث الرابع: علاقة ماء الرجل وماء المرأة بتحديد نوع الجنين ذكراً كان أو أنثى وتحديد الشبه لأحدهما بقدرة الله تعالى........................ ٥١٢

بيان أن الجنين يتكون من ماء الرجل والمرأة معاً والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة والآثار ٥١٣
بيان أن الذكورة والأنوثة في الجنين وكذلك الشبه ليس مختصاً بماء الرجل وحده كما زعم من زعم والأدلة على ذلك من السنة المشرفة، وبيان متى يكون الشبه في الجنين لأبيه ومتى يكون لأمه وأن ذلك من الدلالات الواضحة الدالة على صدق رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ... ٥١٣
قول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في هذه المسألة.......................... ٥١٦
المبحث الخامس : في أطوار الجنين في رحم أمه.......................... ٥١٧
الحديث عن ماء المرأة وعلاقته بشبه الجنين والأدلة على ذلك من السنة المشرفة ٥١٧
الرد على الدكتور محمد علي البار في كتابه (خلق الإنسان) وذلك في نفيه أن يكون لماء المرأة الناتج عن الجماع علاقة بتكوين الجنين، وبيان معارضة قوله للأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ... ٥١٨
بيان أن للمرأة ماءين ودورهما في تكوين الجنين ومعنى قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ وما في ذلك من دلالة على إعجاز القرآن الكريم
إسلام عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه بعد سؤاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدة أسئلة وعلمه بصدقه عليه الصلاة والسلام ، ومن هذه الأسئلة سؤاله عن الشبه في الجنين.......................... ٥٢٠
الحديث عن أول مراحل خلق الجنين وما في ذلك من دلالات على الخالق عزوجل وعظمته وقدرته وعلمه وحكمته وتوحيده.......................... ٥٢٢
الحديث عن توالي مراحل خلق الجنين والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة ٥٢٧

كلام شيق لابن القيم رحمه الله تعالى حول خلق الإنسان وما يمر به من مراحل دالة على الخالق عزوجل وتوحيده.............. ٥٢٩

حال الأم وجنينها في مرحلة ما قبل الولادة وما بعدها وما يطرأ عليهما من تغيرات فيها دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده............... ٥٣٠

المبحث السادس: في خلق السمع والأبصار والأفئدة ودلالة ذلك على الخالق عزوجل وعظمته وتوحيده ٥٣٥

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة جمعت بين هذه الأعضاء في عدة مواضع وهذا يدل على عظم خلقها وأنها من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان التي يجب عليه أن يشكرها ويستعملها فيما أحل له عز وجل ٥٣٥

كلام الإمام ابن القيم رحمه الله حول هذه الأعضاء الثلاثة ودلالتها على الخالق عزوجل وتوحيده ٥٣٧

قول الدكتور خالص جلبي في خلق هذه الأعضاء وما فيها من دلالات على الخالق عزوجل وتوحيده ، وما توصل إليه الطب الحديث من اطلاع على بعض أسرار خلق الله تعالى لهذه الأعضاء العجيبة في خلقها ، العظيمة في تركيبها ووظيفتها الدالة على عظمة خالقها سبحانه وتعالى ... ٥٣٩

قوله صلى الله عليه وآله وسلم (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) ودلالته على عظم أمر القلب وأنه سيد الأعضاء وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث.......................... ٥٤٣

قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك)) ودلالته على أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء

كما دل عليه أول الحديث والخوف من تقليب القلوب وسؤال الله تعالى الثبات فإذا كان هذا حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغيره من باب أولى.. ٥٤٤
المبحث السابع : أطوار ومراحل الإنسان في دار الدنيا والأدلة على ذلك من القرآن الكريم.......... ٥٤٥
مرحلة الطفولة والضعف ثم مرحلة القوة والفتوة والشباب ثم بلوغ الأشد وهو مرحلة الكهولة ثم مرحلة الضعف والشيبة ثم مرحلة أرذل العمر ودلالة هذه المراحل على ضعف الإنسان وافتقاره إلى خالقه عزوجل ودلالتها أيضاً على الخالق عزوجل وتوحيده وقدرته على كل شيء سبحانه وتعالى ٥٤٦
المرحلة الأخيرة في دار الدنيا وهي مرحلة الموت الهادم للذات والمفرق للجماعات وما فيه من دلالات باهرة على الخالق عزوجل وتوحيده وقدرته وقهره لجميع الخلائق وأنه الحي القيوم الذي لا يموت ولا يزول سبحانه وتعالى والأدلة على ذلك وذكر بعض الأبيات الشعرية الواردة في ذلك وفي الزهد في هذه الدار الفانية ٥٤٨
الفصل الثالث : في البعث بعد الموت والرد على منكريه.......... ٥٥٥
المبحث الأول: في بيان أن الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان ، وفي بيان معنى البعث وصفته وكيفيته والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة وفي ذلك أمور :
أولاً: بيان أن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة ٥٥٥
ثانياً: بيان معنى البعث في اللغة والشرع ٥٥٦
الأدلة على وقوع البعث وكفر من أنكره من القرآن والسنة ٥٥٧
النفخات في الصور وعددها ٥٦١

ثالثاً: بيان صفة البعث وكيفية إعادة الأجساد يوم القيامة كما ورد في القرآن الكريم والسنة المشرفة والآثار........................ ٥٦٤
أولاً : أدلة القرآن الكريم : ٥٦٦
(١) قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ... الآية ، ما ورد في تفسيرها ودلالتها على البعث وكيفيته ونفي الشك عن الخليل إبراهيم عليه الصلاة و السلام ٥٦٦
بيان أن هذه الآية أرجى آية في القرآن الكريم كما تقدم في المبحث السادس من الفصل الثاني من الباب الأول........................ ٥٦٧
٢) قول الله تعالى ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ .. الآية ودلالتها على البعث وصفته وكيفيته........................ ٥٧٠
٣) قوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ ودلالتها على البعث وصفته وكيفيته........................ ٥٧٢
٤) قوله تعالى : ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ ودلالة هذه الآيات على البعث وصفته وكيفيته... ٥٧٢
٥) قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ودلالة الآيات على البعث وصفته وكيفيته........................ ٥٧٣
٦) قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ودلالة هذه الآيات على البعث وصفته وكيفيته ... ٥٧٦
٧) قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

يَنسِلُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾
ودلالتها على البعث وصفته وكيفيته ٥٧٦

٨) قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ودلالة الآيات على البعث ويوم الفصل وكيفية البعث وصفته ٥٧٨

ثانياً: أدلة السنة المشرفة على البعث وصفته وكيفيته : ٥٧٨

١) حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في الصحيحين (ما بين النفختين أربعون ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق) وفي رواية عند مسلم (منه خلق وفيه يركب) وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه وبيان أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٥٧٩

معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (فيه يركب الخلق) ٥٨٠

٢) ما ورد في الرواية الأخرى لحديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه السابق عند البخاري ومسلم (أن الله تعالى ينزل من السماء ماءً فينبتون منه كما ينبت البقل..) وشرح هذا الحديث ٥٨١

٣) حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قال رجل لم يعمل خيراً قط إذا مات فحرقوه) .. الحديث وقول ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه ٥٨٣

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مسائل التكفير والعذر بالجهل وفي شرح هذا الحديث ٥٨٤

بيان شروط التكفير وأقسامه وموانعه ٥٨٦

٤) حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الصحيحين (إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً) ودلالته على كيفية البعث وقول الحافظ ابن حجر والإمام النووي رحمهما الله تعالى في شرح الحديث وبيان الشاهد منه

الآثار الواردة في البعث وكيفيته وصفته........................ ٥٨٧

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في إعادة الإنسان عند البعث ومعنى الإعادة ٥٨٨

قول الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في معنى إعادة الأجساد وكيفية ذلك..... ٥٨٩

قول الإمام السفاريني رحمه الله تعالى في كيفية البعث وصفته............ ٥٩٠

بيان أن البعث إعادة بعد تفرق لا بعد عدم، وبيان معنى بعض ما ورد عن السلف أن البعث إعاده بعد عدم ٥٩١

مذهب السلف في نعيم القبر وعذابه وأنه على الروح والجسد معاً وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك ٥٩١

المبحث الثاني : المنكرون للبعث والرد عليهم ٥٩٢

الآيات القرآنية الدالة على كفر المنكرين للبعث والنشور وما رد الله تعالى به عليهم وعلى شبهاتهم ٥٩٢

من شبهات الملاحدة المنكرين للبعث ومنهم ابن سينا كما ذكر شيخ الإسلام قولهم : لو أن إنساناً أكل إنساناً فكيف يبعثان ؟ والرد على هذه الشبهة الباطلة من وجوه : ٦٠٣

الوجه الأول : أن الله سبحانه وتعالى خلق لكل إنسان أجزاءً أصلية خاصة به ولو اختلطت بغيرها من الأجزاء الأخرى فالله سبحانه وتعالى يعلمها ولا يخفى عليه شيء ٦٠٤

الوجه الثاني : أنه يستحيل شرعاً وعقلاً أن تكون المادة الأصلية نفسها لإنسان أو لأناس هي المادة الأصلية لإنسان آخر أو لأناس آخرين سواء في وقت واحد أو في أوقات متعددة ومتفرقة........................ ٦٠٤

الوجه الثالث : أن الذي يعاد عند البعث يوم القيامة هو الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره لا الحاصلة بالتغذية كما زعم الملحد ابن سينا هو وأمثاله من الملاحدة والكفرة المنكرين للبعث ٦٠٦

من شبهات المنكرين للبعث أيضاً قولهم لعنهم الله تعالى : إنه لو جاز إعادة المعدوم لعاد بجميع عوارضه ومنها (الوقت) والرد على هذه الشبهة الشيطانية الساقطة الباطلة وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الرد عليها أيضاً.................................. ٦٠٧

الباب الخامس

بيان أن الغاية من الإيمان بوجود الله تعالى وربوبيته هي توحيده عزوجل والإيمان بأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وبجميع ما جاؤوا به من عندالله تبارك وتعالى ٦٠٩

أول واجب على العباد كلهم وعلى من آمن بوجود الله تعالى وربوبيته هو توحيد الألوهية ٦٠٩

الفصل الأول : توحيد الله تعالى في ربوبيته ٦١٠
قول الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في تعريف كلمة (التوحيد) وفي بيان أقسامه وتلازمها ٦١٠
قول الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تعالى في بيان أقسام التوحيد ٦١١
بيان أن وجود الله تعالى وتوحيده في الربوبية لم ينكره أحد حتى من المشركين إلا من أنكر عقله وجحد وألحد ٦١١
المبحث الأول في تعريف توحيد الربوبية ٦١٢
قول شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ سليمان بن عبد الله والشيخ عبدالرحمن السعدي رحمهم الله تعالى في تعريف توحيد الربوبية ٦١٢
المبحث الثاني : أدلة توحيد الربوبية شرعاً وعقلاً ٦١٣
قوله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ .. الآية ودلالتها على أقسام التوحيد والرد على المتكلمين في جعلهم هذه الآية دليل على توحيد الربوبية فقط ٦١٣
قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ودلالتها على توحيد الربوبية وبقية أنواع التوحيد ٦١٤
قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ودلالتها على توحيد الربوبية وبقية أنواع التوحيد ٦١٥

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية
ودلالتها على توحيد الربوبية وبقية أنواع التوحيد.................... ٦١٦
آيات أخرى في الدلالة على توحيد الربوبية وبقية أنواع التوحيد........... ٦١٨
المبحث الثالث : بيان أن توحيد الربوبية لا يكفي وحده لدخول العبد في
الإسلام وقول شيخ الإسلام في ذلك ٦٢٠
الأدلة القرآنية تبين أن المشركين كانوا يقرون بوجود الله تعالى وتوحيده في
الربوبية ومع ذلك أثبت كفرهم لعدم إقرارهم بتوحيد الألوهية وقد أنكر
الله تعالى عليهم إقرارهم بالربوبية مع كفرهم وشركهم في الألوهية في آيات
كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إلى
قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ٦٢١
ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ٦٢١
ومنها قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ ٦٢٤
بيان أن توحيد الألوهية هو أساس دين الإسلام وأنه يتضمن الدين كله... ٦٢٥
قول الشيخ سليمان بن عبدالله رحمهما الله تعالى في أن توحيد الربوبية
لا يكفي لدخول العبد في الإسلام حتى يأتي بلازمه من توحيد الألوهية ... ٦٢٦
المبحث الرابع : الشرك في الربوبية ٦٢٧
بيان أن توحيد الربوبية أساس توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات
لكنه ليس أول واجب على العباد لأن جميع الخلق يقرون به
ولم ينكره إلا من جحد وأنكر عقله كما تقدم ٦٢٧

التلازم والترابط بين أنواع التوحيد الثلاثة وأن الشرك في توحيد الربوبية يفسده كما يفسد الشرك توحيد الألوهية أيضاً ٦٢٧

من أنواع الشرك في الربوبية :

أولاً : شرك اليهود والنصارى لعنهم الله تعالى ٦٢٧

بيان أن دين الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة لما قبلها من الشرائع وأن من مات على غير دين الإسلام وشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو من أهل النار الخالدين فيها لأنه مات على غير الإسلام والأدلة على ذلك من القرآن الكريم وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك ٦٣١

أصل كلمة (اليهودية والنصرانية) ٦٣١

بيان أن كلمة (اليهود) لم تكن معروفة في زمان موسى عليه السلام وإنما كان يطلق عليهم في زمنه عليه السلام (قوم موسى) وأن هذه الكلمة (اليهود) لم تطلق عليهم في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم بعد تركهم التوحيد ٦٣١

قول الشيخ عبد القادر شيبة الحمد في تعريف كلمة (اليهود) و (النصرانية) و (المسيحية) وأنه لا يجوز إطلاق المسيحية على النصارى الآن ، وبيان أن كلمة (النصارى أو النصرانية) لم تكن معروفة في زمان عيسي عليه السلام ٦٣٢

بيان انحراف دين اليهود والنصارى من التوحيد إلى الوثنية والشرك الأكبر والإلحاد وأنه لا يجوز إطلاق القول بأن دين اليهود والنصارى من الدين السماوي (الإسلام) بل يجب أن يقيد بأن ذلك كان قبل تحريفهما ودخول الشرك فيهما وقبل نسخهما ونسخ جميع الشرائع بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم... ٦٣٤

بيان أنه لا يجوز القول بأن اليهود أتباع موسى عليه السلام إلا في حق من آمن به في زمانه عليه السلام إلى مبعث عيسى عليه السلام، وكذلك لا يقال عن النصارى أنهم أتباع عيسى عليه السلام إلا في حق من آمن به في زمانه عليه السلام إلى مبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما عدا ذلك فهو كذب وزعم باطل ٦٣٤

بيان أن اليهود كفروا بتحريفهم التوراة وتبديلهم دينهم من التوحيد إلى الشرك وبكفرهم بعيسى عليه الصلاة والسلام وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأن النصارى كفروا بكفرهم وتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وتبديلهم دينهم من التوحيد إلى الشرك والتثليث وكفرهم بما في الإنجيل، وبيان أن من لم يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود والنصارى فهو كافر من أهل النار الخالدين فيها والدلالة على ذلك من القرآن والسنة، وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك كله ٦٣٥

بيان أن دين اليهود والنصارى بعد تحريفهما من التوحيد إلى الشرك الأكبر ونسخهما بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يصح أن يقال إنهما من الدين السماوي (الإسلام) ولا يجوز ذلك والرد على من زعم غير ذلك ٦٣٩

الرد على أهل الضلال من الكفرة وأذيالهم الزاعمين بأن اليهودية والنصرانية المحرفتين والمبدلتين من التوحيد إلى الشرك والمنسوختين بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الدين السماوي (الإسلام) ثم دعوتهم إلى وحدة الأديان والمساواة بين دين الإسلام وبين هذه الأديان المحرفة والمنسوخة وتلبيسهم على العوام بأن اليهودية والنصرانية من الدين السماوي (الإسلام) ٦٣٩

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الرد على ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان واستدلالهم بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
وبيان فساد قولهم ٦٤٠

قول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله تعالى في الرد على من دعا إلى وحدة الأديان ٦٤١

بيان شرك اليهود والنصارى وكفرهم لعنهم الله تعالى والأدلة على ذلك من القرآن الكريم والسنة المشرفة والآثار........................ ٦٤٣

الرد على تثليث النصارى وشركهم لعنهم الله تعالى وبيان معنى عقيدة التثليث الشركية عندهم، وأقوال أهل العلم في بيان معناها الباطل .. ٦٤٩

الرد على كفر النصارى لعنهم الله تعالى وعلى تثليثهم الباطل وشركهم الأكبر من وجوه : ٦٥١

الوجه الأول : أن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه المعجز أن عيسى عليه السلام عبده ورسوله وأنه خلق من خلقه وأنه خلقه كما خلق آدم عليه السلام وغيره وأنه كسائر البشر يصيبه ما يصيبهم من الحاجة إلى الطعام والشراب والمرض والموت وسائر ما يصب البشر من النقص والحاجة والافتقار إلى خالقه سبحانه وتعالى والأدلة على ذلك من القرآن الكريم ... ٦٥١

الوجه الثاني: الأدلة من السنة المشرفة على المعاني المتقدمة في الوجه الأول ... ٦٦١

الوجه الثالث: أن قولهم (الأب والابن وروح القدس) إلّه واحد تناقض واضح وكفر وشرك أكبر صريح ٦٦٧

الوجه الرابع : أن زعمهم تساوي هذه الثلاثة في الأزلية والأبدية وأن كل واحد منها هو عين الآخر وأنها ينفصل بعضها عن بعض تناقض واضح وكفر صريح ٦٦٨

الوجه الخامس: أن قولهم : إن هذه الثلاثة ينفصل بعضها عن بعض وهي واحدة ومثلها كالشجرة الواحدة التي لها عدة فروع تناقض واضح يعلمه كل من له أدنى مسكة من عقل و لا ينخدع به إلا من طمس الله تعالى على قلبه وعقله.. ٦٦٩

الوجه السادس: أن النصارى يعلمون أن عيسى عليه السلام هو ابن مريم عليها السلام وأنها ولدته بعد أن كانت حاملاً به فهو مخلوق كسائر البشر فكيف يكون أزلياً ٦٧٠

الوجه السابع: أن دعواهم أن الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً اتحد بالمسيح عليه السلام وحل بين الناس في صورة إنسان هو المسيح قول باطل شرعاً وعقلاً ٦٧٢

الوجه الثامن: يقولون لعنهم الله تعالى : إن يسوع المسيح أي عيسى عليه السلام ولد من أبيه ـ أي الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً – قبل الخلائق وبيان تناقضهم والرد عليهم ٦٧٤

الوجه التاسع: قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : وإن قلتم إنما استدللنا على كونه إلهاً بأنه لم يولد من البشر ولو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر والجواب عن ذلك ٦٧٧

الوجه العاشر: قولهم وزعمهم الباطل أن المسيح عليه السلام قد صلب وقتل فداءً لتخليص البشر من خطيئة أبيهم آدم عليه السلام والرد على هذا الضلال البعيد ٦٧٨

بيان ما يسترون به عقيدتهم الفاسدة على من أراد الدخول فيها ثم عدل عن ذلك ٦٧٩

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رده على عقيدة التثليث الباطلة ٦٨٠

قول ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ٦٨٠

ثانياً: من أنواع الشرك في الربوبية: اعتقاد أن لغير الله تعالى تصرفاً في الكون من جلب نفع أو دفع ضر أو تدبير ويدخل في ذلك نسبة الخلق إلى غير الله تعالى سواء نسبه للأسباب أو لغيرها من المخلوقات ٦٨١

ثالثاً: من أنواع الشرك في الربوبية اعتقاد أن الله تعالى أعطى الربوبية أو جزءاً منها لغيره من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أو من الملائكة عليهم السلام أو الأولياء ممن أعطاه قدرة أو أذن له كوناً بشيء من المعجزات أو الأمور الخارقة للعادة.................................. ٦٨٤

رابعاً: من أنواع الشرك في الربوبية عقيدة أهل الحلول والإتحاد ٦٨٧

معنى الحلول والإتحاد والفرق بينهما وأقسام ذلك والرد على هذه العقيدة الوثنية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ٦٨٧

الرد على هذه العقيدة الإلحادية من الكتاب والسنة والآثار السلفية ٦٩٠

خامساً: من أنواع الشرك في الربوبية الإلحاد بالله تعالى ٦٩١
معناه وأقسامه والرد على الملاحدة........ ٦٩١
الفصل الثاني: توحيد الأسماء والصفات ٦٩٥
المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات وبيان أنه لا يكفي لدخول العبد في الإسلام ٦٩٥
المبحث الثاني: أدلة توحيد الأسماء والصفات من القرآن الكريم والسنة المشرفة والآثار ٦٩٧
المبحث الثالث: الشرك والإلحاد في الأسماء والصفات........ ٦٩٩
معنى الإلحاد في أسماء الله تعالى، وأقسامه........ ٦٩٩
المبحث الرابع: مذهب أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله تعالى وصفاته وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك ٧٠١
الفصل الثالث: توحيد الألوهية........ ٧٠٤
المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية وبيان أنه أساس دين الإسلام ٧٠٤
أساس وشروط قبول الأعمال: الإخلاص والمتابعة........ ٧٠٥
توحيد الألوهية هو المراد بلفظ التوحيد إذا أطلق عند أهل السنة والجماعة وبيان ضلال كثير من الفرق في مسمى التوحيد عند الإطلاق ٧٠٥
المبحث الثاني: أدلة توحيد الألوهية وبيان فضله من الكتاب والسنة........ ٧٠٧
أولاً: ما ورد في الإستدلال على توحيد الألوهية من الآيات القرآنية........ ٧٠٧
ثانياً: ما ورد في الاستدلال على توحيد الألوهية من السنة المشرفة........ ٧١٨

بيان أن البدء بتوحيد الألوهية في الدعوة إلى الله تعالى هو الواجب الأول
على الدعاة إلى الله تعالى.. ٧٢٠
ثالثاً: ما ورد في فضل التوحيد من الكتاب والسنة والآثار.............. ٧٢٤
المبحث الثالث: بيان معنى كلمة التوحيد (لا إلّه إلا الله) وبيان بعض
التفسيرات الفاسدة لهذه الكلمة والرد عليها.......................... ٧٢٨
قول الشيخ سليمان بن عبدالله رحمهما الله تعالى في ذلك.............. ٧٢٨
قول الإمام بدر الدين محمد الزركشي رحمه الله تعالى في ذلك............ ٧٢٩
قول شارح الطحاوية رحمه الله تعالى في ذلك.......................... ٧٢٩
قول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في بيان معنى (الإلّه).................. ٧٢٩
قول ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك................................. ٧٣٠
بعض التفسيرات الفاسدة لكلمة (لا إلّه إلا الله) والرد عليها وقول الشيخ
سليمان بن عبدالله رحمهما الله تعالى في ذلك ، وكذلك قول شيخ الإسلام
ابن تيمية رحمه الله تعالى.. ٧٣٠
المبحث الرابع: الشرك في توحيد الألوهية وأقسامه :- ٧٣٢
أولاً : الشرك الأكبر وتعريفه.. ٧٣٢
ثانياً : الشرك الأصغر وتعريفه وبيان الفرق بينه وبين الشرك الأكبر، وقول الشيخ
عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى في ذلك.......................... ٧٣٣
بعض أنواع الشرك الأصغر.. ٧٣٤
الفصل الرابع : العلاقة بين أنواع التوحيد.................................. ٧٣٦
المبحث الأول: علاقة توحيد الربوبية بتوحيد الألوهية....................... ٧٣٦

المبحث الثاني: علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية.......... ٧٣٩
الأدلة على العلاقتين من القرآن الكريم وقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في ذلك.................................. ٧٣٩
بيان أن لفظ (الرب) و (الإلّه) من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت في المعنى وإذا افترقت اجتمعت في المعنى والأدلة على ذلك.......... ٧٤٠
المبحث الثالث: علاقة توحيد الأسماء والصفات بتوحيد الربوبية والألوهية وقول الشيخ سليمان بن عبد الله رحمهما الله تعالى في ذلك وفي التلازم والترابط بين أنواع التوحيد الثلاثة.................................. ٧٤٢
الفصل الخامس : الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام... ٧٤٤
القول الراجح في تعريف النبي والفرق بينه وبين الرسول ٧٤٤
المبحث الأول : الإيمان بإرسال الله تعالى للرسل عليهم الصلاة والسلام وتأييده لهم بالمعجزات الدالة على صدقهم والأدلة على ذلك............ ٧٤٦
وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وأنه ركن من أركان الإيمان والأدلة على ذلك.................................. ٧٤٨
المبحث الثاني: الإيمان بما جاءت به رسل الله تبارك وتعالى من تشريعات وطاعتهم في ذلك كله ، فكل أمة يلزمها العمل بما جاء به رسولها ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وشريعته صلى الله عليه وآله وسلم ناسخة لجميع الشرائع السابقة فمن لم يؤمن به صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والأدلة على ذلك ٧٥٠
المبحث الثالث: الإيمان بكتب الله تعالى التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام ٧٥٧

المبحث الرابع: الإيمان بالمغيبات التي جاءت عن طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.................................... ٧٥٩
أولاً: الإيمان بأقدار الله تعالى والأدلة على ذلك.................... ٧٥٩
ثانياً: الإيمان بالملائكة عليهم السلام والأدلة على ذلك.................. ٧٦١
بعض أعمال الملائكة عليهم السلام والأدلة على ذلك.................. ٧٦١
ثالثاً: الإيمان بوجود الجان والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.......... ٧٦٥
رابعاً: الإيمان بأشراط الساعة وأمارتها والأدلة على ذلك................ ٧٦٨
خامساً: الإيمان بنعيم القبر وعذابه وسؤال الملائكة والأدلة على ذلك ٧٧٢
سادساً: الإيمان بالبعث بعد الموت ٧٧٧
سابعاً: الإيمان بما يكون بعد البعث في يوم القيامة من أمور :............... ٧٧٧
فمن ذلك شدة هذا اليوم وطوله على الكافرين............................ ٧٧٨
ومن ذلك أيضاً : حوض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأدلة على ذلك ٧٧٩
ومنها : الميزان الذي توزن به أعمال العباد والأدلة على ذلك ٧٨١
ومنها : الصراط وهو جسر على جهنم والأدلة على ذلك................... ٧٨٤
ومنها: قراءة صحف الأعمال والأدلة على ذلك ٧٨٥
ومنها: الشفاعة الكبرى والأدلة على ذلك............................ ٧٨٦
ثامناً: الإيمان بالنار وما أعد الله تعالى فيها من العذاب لمن عصاه ويدخل في ذلك أمور منها :-.. ٧٨٨
١- ما ورد في كون النار مخلوقة موجودة.............................. ٧٨٨
٢- ما ورد في صفة النار من الآيات والأحاديث ٧٩١

٣- ما ورد في صفة أهلها أعاذنا الله تعالى منهم ٧٩٢

٤-أبدية عذاب النار أعاذنا الله تعالى منها والأدلة على ذلك.............. ٧٩٢

٥-عذاب أهل النار وبعض أنواعه أعاذنا الله تعالى منها والأدلة على ذلك ٧٩٣

٦- ما ورد في التحذير من النار أعاذنا الله تعالى منها.................... ٧٩٧

تاسعاً: الإيمان بالجنة وما أعد الله تعالى فيها من النعيم المقيم لمن أطاعه واتبع هداه جعلنا الله تعالى منهم.. فمن ذلك : ٧٩٨

١- ما ورد في كونها موجودة مخلوقة... ٧٩٨

٢- ما ورد في خلود الجنة وأبديتها وخلود أهلها فيها جعلنا الله تعالى منهم ٧٩٩

٣- ما ورد في صفة أهل الجنة في الدنيا والآخرة جعلنا الله تعالى منهم ٨٠٠

٤-ما ورد في صفة الجنة وما أعد الله تعالى فيها من النعيم لأهلها جعلنا الله تعالى منهم... ٨٠٢

بيان أن من أعظم نعيم أهل الجنة على الإطلاق النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى نسأل الله تعالى ذلك والأدلة على ذلك ٨٠٦

٥- ما ورد في الحث على المسارعة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة للفوز بالجنة التي وعد الله تعالى بها المؤمنين العاملين المتقين ٨٠٧

الخاتمة.. ٨٠٩

ثبت المراجع... ٨٢٢

فهرس الموضوعات.. ٨٤٦